



جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة

مجلة كلية اللغة العربية

العدد الثامن

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

رأى الله
د. / أستاذ مساعد
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة



جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة

مجلة كلية اللغة العربية

المعد الثامن

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

إشراف
د. الين محمد فاضل
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

البحوث المنشورة بالمجلة على مسئولية كاتبها

مركز الدراسات والبحوث

أسرة التحرير

- | | |
|--------------------|-------------------------------------|
| عميد الكلية | ١ - أ. د / أمين محمد فاخر |
| وكيل الكلية | ٢ - أ. د / عبد الحميد محمد أبو سكين |
| رئيس قسم البلاغة | ٣ - أ. د / محمد محمد أبو موسى |
| د الأدب | ٤ - أ. د / صلاح الدين عبد التواب |
| د أصول اللغة | ٥ - أ. د / عبد الغفار حامد هلال |
| د اللغويات | ٦ - أ. د / غريب عبد المجيد نافع |
| د التاريخ والحضارة | ٧ - أ. د / عبد العزيز غنيم |
| د الصحافة والإعلام | ٨ - أ. د / محي الدين عبد الحلیم |
| سكرتير فني المجلة | ٩ - د / شعبان أبو اليزيد |
| المشرف المالي | ١٠ - السيد / محمد عبد السميع على |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة العدد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا هو العدد الثامن من المجلة العلمية (حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة) يشترك في إعدادها وكتابتها بحوثها صفوة ممتازة من أعضاء هيئة التدريس بهذه الكلية العريقة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة .

ولما كانت هذه الكلية - يوضعها الحال - تشمل من الأقسام العلمية ستة أقسام ، أربعة منها مختصة بدراسة اللغة العربية وآدابها وهي : اللغويات (النحور والصرف) ، وأصول اللغة (فقه اللغة واللهجات والقراءات والمعاجم والأصوات وعلم اللغة) ، والبلاغة والنقد ، والأدب والنقد ، وإثنان من هذه الأقسام الستة يتصل كثير من الدراسات فيهما بالعلوم الإسلامية والعربية ، وهما قسم التاريخ والحضارة ، وقسم الصحافة والإعلام ، نقول : لما كانت هذه الكلية العريقة التي استمدت عراقتها من العناية بالدراسات العربية والإسلامية قد اشتملت على كل هذه الأقسام فقد تنوعت البحوث داخل هذه المجلة العلمية الغراء ، تلك البحوث التي كتبت بأقلام نخبة ممتازة من الباحثين والعلماء ، والتي يفيد منها أبناء هذه الكلية أساندة وعلاها ، وكذا غيرهم من العرب والمسلمين في كل مكان .

وقد رأت أمرة التحرير بهذه المجلة أن يكون تصنيف هذه البحوث على النحو التالي :

قسم الدراسات القرآنية وهو الذي تستمد بحوثه كلها أو معظمها مباشرة من القرآن الكريم ، ولا يختص ذلك بقسم على معين ، بل قد يكون أصحابها من أصول اللغة أو البلاغة أو غيرهما .

ثم قسم الدراسات اللغوية ، ويشمل من الأقسام العلمية بالكلية تسمى اللغويات وأصول اللغة ، (وتأتي بعد ذلك بقية أقسام هذه المجلة مطابقة للأقسام العلمية بالكلية) .

فقسم ثالث للدراسات البلاغية .

ورابع للدراسات الأدبية .

وخامس للدراسات التاريخية والجغرافية .

وسادس للدراسات الأعلامية .

وقد يمكن لنا - في هذه المقدمة - أن نشير إلى تلك البحوث التي احتواها هذا العدد وما تتضمنه من جدة وإبتكار .

ففي مجال قسم الدراسات القرآنية - فيما يتصل بعلوم اللغة - قدم الدكتور محمد خاطر الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة بحثاً في إتباع الحركة في القراءات موضعاً فيه معنى الإتياع في أصل اللغة وفي اصطلاح علماء المتقدمين والمحدثين ، وقد ركز في بحثه على الإتياع للحركات ، لجاء بشكل صور الإتياع لحركات الفتح والضم والكسر ، مستشهداً بالقراءات المختلفة ، ومعتمداً في ذلك على أهم المراجع اللغوية قديماً وحديثاً .

كما قدم الأستاذ الدكتور عبد الغفار هلال بحثاً في الإدغام والفك بين القراء واللغويين ، وضح فيه معنى الإدغام في اللغة وعند علماء القراءات ، مؤكداً القول بأنه مظهر من مظاهر التخفيف في النطق ، وهو الهدف من وجوده في العربية ، مستقصياً شروط الإدغام في عشرة شروط ، وموضحاً قسميه الصغير والكبير وأحكامهما من الوجوب والجواز ، ومستعرضاً الأمثلة

الكثيرة من القرآن الكريم لبيان معنى الإدغام الكبير في كلمة أو كلمتين في كل من المثاليين والمتجانسين والمتقاربين ومستعينا بما جاء عن القدامى من أقوال في توضيح ذلك .

وفما يتصل بعلوم البلاغة - في مجال الدراسات القرآنية أيضا - قدم الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى بحثا بلاغيا مبتكرا هو (أمثال - سورة النور) وفيه يركز على التشبيه في آيتين من هذه السورة الكريمة - سورة النور - جاءلا من ذلك نموذج لما في القرآن الكريم من أمثلة وتشبيهات أخرى في قوة الفصاحة والبلاغة ، فأما آية التشبيه الأولى فهي قوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ... الآية » ، وفيها وصف واضح لشرع الله ونظامه وأنه نور السموات والأرض ... إلخ ، وأما التشبيه الثاني وهو المقابل للأول ففي آيتين متتاليتين ، تبدأ الأولى بقوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ... » وتبدأ الثانية بقوله تعالى : « أو ظلمات في بحر لجلي .. » وقد بين الباحث ما في هذين المثلين من بلاغة رفيعة المستوى ، لا يستطيع بشرهما أوتي من الفصاحة وقوة البيان أن يأتي بمثلا ، كما يوضح ما بين التشبيه في هذين المثلين وما بين التشبيه في الأولى من المقابلة التي يمكن أن تذكر بين المشكاة المضيئة وبين السراب الخادع ، ومصورا ذلك كله بصورة أدبية رائعة .

وآخر البحوث في قسم الدراسات القرآنية - بهذا العدد من هذه الحولية - بحث قدمه الدكتور فتحي حسن المدرس في قسم البلاغة والنقد وفيه يذكر بعض أسرار الخلف في بعض آيات القرآن الكريم ، والبحث وإن لم يكن في ظاهره جديدا الذي علماء البلاغة فقد استطاع الباحث بدراسته البلاغية الدقيقة لبعض الآيات القرآنية أن يكشف أسرارها بلاغية عظيمة لخلف الحرف أو المسند أو المسند إليه أو الجملة ، وكل ذلك مما يبين لنا شيئا من أسرار قوة البلاغة وذروتها في كتاب الله عز وجل .

وأما القسم الثاني : الدراسات اللغوية ، فقد شمل بحثين : الأول للدكتور عبد العزيز علام الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة ، وهو عن : النحو اللغوي والطفولة ، وفيه يتحدث عن اللغة ووظائفها الاجتماعية والنفسية والعقلية ، ومن خلال حديثه عن العلاقة بين اللغة والكلام ، وحديثه عن اللغة والفرد ، وعن اللغة والمجتمع ، وكيف تتم عملية الكلام ، وكيف يتم انتقال الصوت لإدراكه ، استطاع أن يصل إلى البحث في النحو اللغوي وبين المراحل التي يمر بها الطفل في اكتساب لغته ، والطرق الحديثة التي اكتشفها العلماء في مجال التعليم اللفظي للطفل .

والبحث الثاني في مجال الدراسات اللغوية للدكتور سمير عبد الجواد الأستاذ المساعد بقسم اللغويات ، وفيه يتحدث عن العامل (فى علم النحو) وكيف يمكن أن يمنع من التسلسل على المعمول فلا يعمل فيه ، وقد جملة تحت عنوان : الكف اللفظي فى ضوء الدراسات النحوية ، وتناول فيه الكف بالآلف ، وبما ، وبالادوات التى تكلف ما بعدها من العمل فيما قبلها . وقد لا يكون هناك جديد فى علم النحو ، ولكن الجديد فى هذا البحث أنه جمع كثيرا من الادوات أو الحروف التى يمكن أن تمنع العامل من التسلسل على المعمول مستندا فى ذلك على الرجوع إلى أمهات الكتب فى النحو واللغة .

وفى مجال قسم الدراسات البلاغية قدم لنا الدكتور أحمد محمد على الأستاذ المساعد بقسم البلاغة بحثا بعنوان : (مصادر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) والمعجم للدكتور أحمد مطلوب ، وفى البحث يذكر الدكتور أحمد على المصادر التى اعتمد عليها صاحب هذا المعجم فى دراسة تحليلية نقدية سواء لمعجمه هذا أو مؤلفاته الأخرى وهى دراسة مفيدة .

كما قدم لنا فى هذا المجال أيضا الدكتور إبراهيم عبد الحميد التلب الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بحثا عن الوضع وصلته بالبيان وفيه يذكر أن الوضع - الذى هو بحث لغوي - له صلة بالبيان الذى هو علم من علوم البلاغة ،

مينا الوضع بين الحقيقة والمجاز ، ولئن كان الباحث قد تسكلم من وضع الحقيقة فقد أثبت أنه من قبيل الوضع التحقيقي . كما بين وضع المجاز بين البيانيين والأصوليين ، فالبحت إذا لغوى بلاغى أصولى وهذا هو الجديد فيه .

وإذا ما انتقلنا إلى القسم الرابع من هذه الحولية وهو عن الدراسات الأدبية نجد طائفة كبيرة من النقاد والأدباء الباحثين من أعضاء هيئة التدريس بالكلية قد تقدموا ببحوث تتميز بالدقة والأصالة .

فقدم الدكتور جابر عبد الرحمن الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بحثه بعنوان : الإمام الشافعى بين شاعريته وشعره ، وفيه يؤكد أن الشافعى كان إلى جانب علمه وفقه شاعرا ممتازا ، موضحا أن الذى ساعد على ذلك موهبته وعرويته الأصيلة ونشأته وثقافته ، ثم رحلاته وحصره الذى عاش فيه ، كما أثبت لنا خصائص شعره بعد أن أمكن لأحد الباحثين جمعه في ديوان .

وفي مجال الدراسات الأدبية المقارنة تقدم أيضا الدكتور السيد العراقى الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد - في هذا العدد - بحثا بعنوان : إبراهيم عبد القادر المازنى أسهام رائد في دوس الأذب المقارن ، وفيه استطاع أن يثبت أن المازنى قد اقتحم نطاق الدراسات المقارنة وذلك من خلال دراسة الباحث لبعض القضايا التى عالجها المازنى ، ومنها المصادر الأدبية ، والنماذج البشرية وكذلك الترجمة الأدبية ، وعلاقة الأدب بمشروع المعرفة .

وفي مجال الأدب المقارن أيضا كتب الدكتور محمد السيد هيد المدرس بقسم الأدب والنقد - في هذا العدد - عن الاتجاهات العالمية للأدب المقارن وتأثيرها في الاتجاه المصرى ، وفي بحثه - بعد أن تحدث عن الاتجاه الغربى والمفهوم الأمريكى للأدب المقارن ، وضع صلة الدراسات الأدبية المقارنة فى مصر بالاتجاهات العالمية مشيرا فى نهاية بحثه إلى ما يعانيه الأدب المقارن فى مصر من صعوبات .

(ك)

وتلا ذلك بحث الدكتور محمد فاضل مدرس الأدب والنقد بعنوان :
« طبيعة الشعر بين حازم القرطاجنى وباكون » ، ويمكن أن يعد من قبيل
الدراسات المقارنة ، أو على وجه أدق ما يسمونه بالدراسات الثقافية إذ هو
فى هذا البحث يقابل فكر عالم أندلسى مع ثقافته وحضارته بفكر عالم
إيطالى مع ثقافته وحضارته كذلك ، عارضا أثناء البحث أوجه الاتفاق
والاختلاف بينهما فى نظرة كل منهما إلى الشعر وطبيعته وهو أيضا من
البحوث الجديدة فى هذا الميدان .

وتجاء بعد ذلك بحث الدكتور شفيق أبو سعد . د ديوان العرب مرآة
الحياة الجاهلية وهو بحثا طريفا يتحدث فيه عن أولية الشعر العربى ، بعد
أن يشير إلى قدمه فى حياة المجتمع البشرى بصفة عامة ، فلتن كان الشعر
العربى قد وصلنا على صورة قوية فلا بد أن هناك مرحلة من الطفولة قد سبقته
لأن طبائع الأشياء تأتى إلا بالتدرج ، وهذا ما أثبتته الباحثة ، كما أثبت التحضر
المبكر فى مجال الأدب عند العرب القدامى رادا على من زعم غير ذلك مستشهدا
على ذلك بشعر الجاهليين وما عتار به من خصائص مستمدة من البيئة العربية
ومن اختلاطهم كذلك بالأمم الأخرى ، وحياة العرب الاجتماعية بصفة
عامة بما يؤكد فى النهاية أن الشعر ديوان العرب وهو الذى كان يمثل حياتهم
فى الجاهلية بصدق ودقة .

وقدم الدكتور محمد طه عصر المدرس بقسم الأدب ببحثه (عالمة فى العربية
الاول واشكال الحداثيين) وفيه يرد على بعض المذتهقين من الشعوبيين وعن
جموع الحداثيين ، على زعمهم للتراث العربى بالتحلية وأنه لن يصل إلى درجة
العالمية إلا باحتذاء القيم الفنية الأوروبية ، وقد أثبت الباحث أن الأدب العربى
عبر تاريخه الطويل قد أدى دوره التاريخى والفكرى والحضارى على أحسن
ما يكون الأدباء .

وفى مجال الدراسات التاريخية والجغرافية نذكر بإجمال من أسهموا فى

هذا العدد يعرضهم القيمة - تكلمة لفائدة ضمن هذه المقدمة - فيبحث الأستاذ الدكتور عبد العزيز غنيم كان بعنوان « خير النساء خديجة بنت خويلد » وأما الدكتور السيد رزق حجاج أستاذ التاريخ الحديث المساعد فقد أسهم ببحثه : « الثورة الأثرية في ضوء الوثائق التاريخية » وكان عنوان بحث الدكتور مجاهد توفيق الجندي الأستاذ المساعد بقسم التاريخ والحضارة هو « رواق الآثار بالجامع الأزهر بالقاهرة وعلاقة المالك الجراكسة بالعثمانيين - صفحة مشرقة في تاريخ مصر » قدم الدكتور محمد صابر هرب أستاذ مساعد التاريخ العربي الحديث بحته المنهج التاريخي في كتابات سالم بن حمود السبائي ، ويبدو أن الباحث قد استفاد من إقامته بدولة عمان مدة من الزمن فأضافنا ببحثه الجديد عن هذه الشخصية العمانية .

وفي مجال الجغرافيا قدم الدكتور طاعت أحمد عبده بحته الجغرافيا : « الصور الصخرية الحائطية ودلالاتها المناخية على العصر المطير بالظفار الصحراوي » .

أما الدراسات الاعلامية فقد أسهم بالكتابة فيها ضمن هذا العدد كل من الدكتور محي الدين عبد الحليم ببحثه : « المنافقون وأصول العمل الإعلامي » والدكتور مرعي مذكور ببحثه الصحافة المتخصصة والدكتور صلاح الدين عبد الحميد ببحثه : « قياس معدلات أداء الإعلاميين المبتدئين وآخرها الدكتور سامي الكرمي وعنوان بحثه : « نظم المعلومات في المؤسسات الصحفية » .

وقد سارت هذه البحوث المقدمة في مجال التاريخ والحضارة والصحافة والإعلام بوجه عام على النهج السابق من حيث الأصالة في البحث والدقة في العرض والاستنتاج مما يجعلنا نؤكد بصدق أن هذا العدد من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة قد حوى من البحوث في تلك المجالات المتعددة التي أشرنا إليها ما يفيد الدارسين والباحثين وطلاب العلم والمعرفة في شتى المجالات .

(٢)

وأخيرا فإننا نشكر الباحثين على ما قدموا من جهود فى بحوثهم القيمة
كما نشكر القائمين على إخراج هذا العدد من هذه المجلة الغراء .

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد فى كل أعمالنا

وبنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ٥

الدكتور

أمين محمد فاخر

عميد كلية اللغة العربية بالناصرة

جامعة الأزهر

اِقْسَمُ الْأَوَّلِ

الدراسات القرآنية

- ١ - الدكتور محمد أحمد خاطر
- ٢ - الدكتور عبد الغفار حامد خليل
- ٣ - الدكتور محمد عبد أبو موسى
- ٤ - الدكتور فتحي أحمد إسماعيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إتباع الحركة في القراءات

دكتور محمد أحمد خاطر^{بقلم}

برد مصطلح الإتياع في مباحث فقه اللغة ، وفي دراسة الأصوات ،
والأبالية والصرف .

الإتياع في اللغة :

يعنى الإتياع في اللغة الإدراك والحق ، وجعل شيء نالبا لشيء ،
ومادة (ت ب ع) فيما قال ابن فارس : « أصل واحد لا يشذ عنه من الباب
شيء - وهو التلو والقفو ، تقول تبع فلانا : إذا تلوته وأتبعته ، وأتبعته :
إذا لحقته ، والأصل واحد ، غير أنهم فرقوا بين القفو والحق . ففهموا
البناء أدنى تغيير ^(١) » .

ويقال : تبع الشيء : سار في أثره ، وأتبع الشيء ، وأتبعه ، وتبعه :
قفاه وتطلبه متبعا له ، وأتبعه الشيء : جعله له تابعا ، أى : نالبا ^(٢) .

الإتياع في الاصطلاح :

حده « ابن فارس » بقوله : « أتت تتبع الكلمة الحكمة على وزنها أو
دورها إشبعا وتأكيذا ^(٣) » ، وهذا الحد الاصطلاحي هو الذي استقر

(١) مقاييس اللغة : م : [ت ب ع] ١ / ٣٦٢ .

(٢) لسان العرب م : [ت ب ع] -

(٣) الصاحي ص ٤٥٨ .

للإتياع ، ونقله الثعالبي والسيوطي متابعين عليه ابن فارس (١) ، وقال الفيروز آبادي : « والإتياع في الكلام - مثل : حسن بسن ، وزاد الزبيدي « وقبيح شقيح ، وشيطان ليطان ، ونحوه » (٢) .

وقد تكون الكلمة الثانية بمعنى الأولى ، فيكون الغرض من الإتيان بالثانية التأكيد لأن اللفظ مختلف ، وقد يكون معنى الثانية مغايرا لمعنى الأولى ، أو تكون الثانية « غير واضحة المعنى ولا بيّنة الاشتقاق » (٣) ، أو بلا معنى ، فيكون الغرض من الإتيان بالثانية الإتياع .

وقد تستعمل الثانية وحدها مفردة ، وقد لا يكون لها وجه في الاستعمال إلا أن تأتي تابعة لغيرها مسبوقة بها .

وبعضهم يرى أن الكلمة التي سبقتها أو المعطف لا تعد من الإتياع ، وبعضهم يرى أن ماله معنى ليس من الإتياع وأن التابع لا يفيد معنى أصلا ، ويذكر القائل أن « مذهبهم في الإتياع أن تكون أواخر الكلام على لفظ واحد مثل القوافي والسجع » (٤) - ولا يلزم شيء من ذلك كله . ولم يتقيد بشيء منه من كتبوا في الإتياع (٥) .

إتياع الكلمة وإتياع الحركة :

المعنى الاصطلاحي السابق للإتياع هو ما شاع وذاع ، وهو المراد من الإتياع عند الإطلاق ، وفيه يكون التابع دائما لاحقا ، والمتبوع دائما سابقا .

(١) ط : لغة الفقه وسر العربية - الثعالبي ت : مصطفى السقا وآخرين ص ٣٧٢ -

الزهر - السيوطي - النوع ص ٢٨ وط : حده في المعجم الأدبي - جبور عبدالنور

(٢) القاموس المحيط : [ت ب ج] وتاج العروس ٢٧٨/٥ -

(٣) الزهر ٢٤٥/١ ط : صحيح نقلا عن الإتياع والمزاوجة لابن فارس

(٤) الأماي : ٢٤٢/٢ -

(٥) ط : المحسن - لابن سيده : ٢٨/١٤ - ٣٨ - الأماي ٢٣٢/٢ - ٢٤٢ -

الزهر - النوع ص ٢٨ -

وقد تغير له صيغة الكلمة التابعة عما حققا أن تكون عليه ، فبقيت لتوازن الكلمة المتبوعة ، وفي هذه الحال قد يسمى المزاوجة ، أو المشاكلة إلى جانب الإنباع .

وهناك ضرب آخر من الإنباع وهو : - أن تقع الحركة أو السكون حركة أخرى سابقة أو لاحقة ، فتغير عما حققا أن تكون عليه لتمام الحركة المتبوعة ، ولا تقع الحركة السكون ، إذ لا يلتقى ساكنات ، ولا يقع السكون حركة متأخرة ، إذ تأثير السابق في لاحقه أقوى من عكسه .

وهذا الضرب هو المقصود بهذا البحث ، ويمكن أن نطلق عليه : إنباع الحركة ، تخصيصا له ، وتمييزا عن الإنباع مطلقا ، الذى غلب في إنباع الكلمة ، ويمكن أن يظل مصطلح الإنباع مطلقا مرادبا به إنباع الكلمة ، أو يخص كل منهما باصطلاح فيكون أحدهما : إنباع الكلمة ، ويكون الآخر إنباع الحركة .

وقد يبحث في إنباع الكلمة أن تغير حركة ما حققا أن تكون عليه ، ولكن هذا التغيير لا يكون بتأثير حركة سابقة أو لاحقة في الكلمة نفسها ، وإنما يكون لتوازن الكلمة التابعة بزمتها الطارئة الكلمة المتبوعة بزمتها الأصلية .

الإنباع عند المتقدمين والمعاصرين :

(١) عرف الإنباع بنوعيه السالفين منذ أول العهد بدراسة اللغة ، وقد أشار سيوريه إليهما ، فقال عن إنباع الكلمة : لا تقول عولة لك إلا أن يكون قبلها وبلة لك ، ولا تقول حول لك حتى تقول : وبلك ، لأن ذابتبع ذا ، كما أن ينوك يتبع يسودك ، ولا يكون ينوك مبتدأ . وقال عن إنباع الحركة : د وأما الذين قالوا : مغيرة ومعين (١) فليس على هذا (٢) وليكنهم

(١) بكسر الميم فيهما .

(٢) كسر اللام ، بإطراد في قيل ونيل إذا كانت عينهما حرف حلق .

أقبلوا الكسرة الكسرة ، كما قالوا : متن (١) وأنبوك وأجودك (٢) يريد :
أجيتك ، وأنبوك (٣) .

وقد اهتم المتقدمون بإتباع الكلمة ، وأفردوا له مباحث ، أو عقدوا له
أبوابا في كتبهم ، أو صنفوا رسائل مفردة جمعت فيها الاستعمالات التي
جاءت من أساليبه أو عدت منه ، وقد قدم السيوطي في المزهرة خلاصة وافية
لما وقف عليه في مؤلفات من تقدمه ، وعن نقل لهم كلاما في الإتباع : السكاسي
(١٨٩ هـ) الفراء (٢٠٧ هـ) أبو حنيفة (٢٢٤ هـ) ثعلب (٢٩٠ هـ) ابن دريد
(٣١١ هـ) الفارابي (٣٥٠ هـ) القالي (٣٥٦ هـ) ابن فارس (٣٩٥ هـ) الجوهري (في
حدود ٤٠٠ هـ) النعالي (٤٣٠ هـ) ابن سيده (٤٥٨ هـ) ابن الدهان (٦١٢ هـ) .
أما لإتباع الحركة فقد أشاروا إليه بإشارات مفردة متناثرة ، لم يجمعها
باب ولا مبحث ، وأوسع ما خلفه المتقدمون فيه ما جمعه ابن جني [٣٩٢ هـ] :
في الخصائص في باب الساكن والمتحرك (٤) . وفيه جماع ما ذكر في المواضع
الأخرى من الخصائص (٥) وزيادة عليه (٦) .

ومن مظاهر عدم عنايتهم بإتباع الحركة أنهم لم يضعوا له مصطلحا محجودا
ويختص به . فابن جني يسميه في بعض المواضع « الإتياع » (٧) . وفي بعضها
« تقريب الصوت من الصوت من حروف الحلق » (٨) ، وفي بعضها « سكتة
عن تسمية » (٩) .

(١) يكسر الميم أو ضم التاء . (٢) بضم الباء والجيم بدل كسرهما .

(٣) كتاب سيوطي : هارون ٣٣٢/١ ، ١٠٩/٤ .

(٤) الخصائص ٣٣٣/٢ - ٣٣٧ .

(٥) ط : الخصائص : ٣٦٥-٣٦٦/١ ، ٩/٢ - ١٠ ، ١٤٣ - ١٤٤٠ - ١٤١/٣ .

(٦) جملتها ستة عشر شاعدا ومثالا ، اثنان منها من القراءات وسائرهما من
غيرها وفيها أتبع السكون التفتح والضم والكسر ، والضم والتفتح والكسر ، والكسر
والضم ، واطراد إتباع فتحة فاء قبل وفعل لكسرة عينهما إذا كانت حرف حلق .

(٧) ٣٦٥-٣٦٦/١ - ٣٣٣/٢ - ٣٣٧ - ١٤١/٣ .

(٨) ١٤٣-١٤٤٠/٢ - ١٠٩/٢ .

ويعد من ضروب الإدغام الأصغر مرة ، ومن الحركات غير اللازمة مرة أخرى ، ويورده في أبواب مختلفة دون أن يعقد له بابا مفردا .

ومن المواطن التي تكثر الإشارة فيها إلى إلتباع الحركة تحليل الصرفيين لبعض صيغ الأبنية الفرعية في الأسماء والأفعال مثل فعل بكسر الفاء والعين فيهما ، وفعل بكسرهما ، وصيغة فعل - بتضعيف العين - من افتعل ومضارعها واسم الفاعل منها .

(ب) : أما المعاصرون فن تحدث عن الإلتباع منهم أو عرض له في فقه اللغة أو اللامجاهد ، أو في المباحث العامة للغة - ردد ما قرره المتقدمون في إلتباع الكلمة ، ولا يسكدون يعنون بإلتباع غيره^(١) ، ومنهم من جعله في الحركات شاملا لإلتباع الحركة وغيره^(٢) .

ومن تحدث منهم عنه في دراسة الأصوات قصره على إلتباع الحركة ، وعدوه ضربا مما سموه « المائلة » التي طلب استيعاها في مقابل assimilation وبعضهم وضع في مقابل ذلك الترجمة « بالانسجام الصوتي في أصوات اللغة » وبعضهم سمى إلتباع الحركة « الانسجام المدي » في مقابل vowel harmony ولا يعد ذلك بحثا لإلتباع الحركة إنما هي إشارات سريعة مقتضبة ، وربما كانت مجرد إيماء . أو ذكر عارض لكلمة الإلتباع ، ومعظمهم سكت عنه دون تعرض له من قريب أو بعيد^(٣) .

(١) ط : حد الإلتباع في « المعجم الأدبي » لجيور بيد النور ، وما عده أحمد تيمور من الإلتباع في « أسرار اللغة » ص ٢٢ . وما عده منه الشيخ : محمد عبد الحاق عضيمة في « فهارس كتاب سيبويه ودراسة له » ص ٩٠ .

(٢) ط : الإلتباع في فهارس كتاب سيبويه لمبد السلام هارون ٢٤٤/٥ .

(٣) أسبق من أشار إليه من المعاصرين المستشرق الألماني « بر جشتراسر » سنة ١٩٢٩ م في : « لتطور النحوي لغة العربية » وعده من أهم أنواع الإبدال في الحركات وسماه « تشابه الحركة لحركة أخرى » ص ٦٢ - ٦٣ نشر : د/ رمضان عبد التواب وعرض بعض صوره .

ثم أشار إليه د : إبراهيم أنيس ، وعده نوعاً من المائلة ولم يبحثه قال : « وتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض ليس مقصوراً على الأصوات الساكنة ، بل قد يكون أيضاً في أصوات اللين ، وهو ما يسمى بانسجام أصوات اللين vowel harmony . غير أننا سنكتفى بشرح التأثير ونسبته في الأصوات الساكنة ، لوضوح التأثير فيها وضوحاً لا يدع مجالاً للشك » [الأصوات اللغوية ص ١٨٢ ط (٤)] .

وأطول حديث عنه ما في « المعجمات العربية في قترات » — د / أحمد علم الدين الجندى (١٩٧ - ٢٠٢) قدم طرفاً من كلام ابن جنى ، وعرض بضعة وعشرين شاهداً ثراً من كلام العرب ، وبينها عشر قراءات أو بضع عشرة ومظمها لم يشر فيه إلى أنه من الإنباع ، وإنما هي عند المتقدمين لغات العرب ، وقد عُد منه قولهم : « أخذته ما حدث وما قدم » وهذا من إنباع الكلمة أو المزاوجة والمساكلة . وأشار إليه كذلك د / أحمد مختار عمر ، وقدم له ثلاثة شواهد أو أربعة من القراءات [دراسة الصوت اللغوي ص ٣٢٩] .

وأشار إليه — ولم يبحثه — د / غالب فاضل المطايع قال : « ومن يبحث في الإنباع والإمالة وتغير أصوات المد في طائفة من الكلمات يجد حتماً أن ذلك كان نتيجة لخضوع العربية لضرب من الانسجام اللدى . وقد عرف علماء العربية هذا القانون وسموه بالتناسب أو المساكلة ، وسأحاول تفصيل ذلك في موضعه ، [في الأصوات اللغوية — دراسة في أصوات اللد / ٥٠] ولكنه لم يحاول عينا في الإنباع لا إجمالاً ولا تفصيلاً ،

وأشار إليه الأخ الفاضل : د / عبد القفار حاملاً لعل وأورد خمس قراءات وشاهداً [أصوات اللغة العربية / ٢٨٠ - ٢٨١] .

ومن لم يعرض له ولم يشر إليه د / محمود السمران = علم اللغة مقدمة القساريء العربي — د / داود عبده = دراسات في علم أصوات العربية — جان كاتلينوت = دروس في علم أصوات العربية — ترجمة صالح القرماضي — د / كمال بشر = علم اللغة العام — القسم الأول : الأصوات — د / عبد الصبور شاهين = المنهج الصوتي للبلدية العربية .

والظن أن قلة الشواهد التي وقف عليها هؤلاء الباحثون للإتباع هي التي جعلتهم يمرضون عنه ، أو يلبون به عرضا ، ولكن الدخول في مضمار القراءات يأتي بخير من هذا ، ويفسح مدى البحث ، ويؤكد أهميته .

إتباع الحركة في القراءات :

في القراءات القرآنية المتواترة والشاذة قدر كبير من صور الإتباع ، لا يستقرئها هذا البحث شاهدا شاهدا ، ولكنه يعتمد منها ما أشار أحد مصادرہ إلى أنه من الإتباع (٥) ، أو عايناه مرأعاً حركة مجاورة سابقة أو لاحقة ، والمجموع من ذلك قدر مناسب ، فإن انضم إليه ما ماثله أصبح أضعاف ما جمع هنا ، والظن أن هذا المجموع لا يغادر صورة من صور الإتباع إلا عرض شواهد لها ، ويسهل حينئذ أن يحمل على كل ما ماثله وناظره .

ويمكن أن يدرس الإتباع على أنحاء عدة ، ومن جهات متغايرة من :
نوع الحركة التابعة والمتبوعة ، ورتبة كليهما بالنسبة لاصحابها تقدمها وتأخرها ، وانصاطها أو الفصل بينهما بساكن ، وموضعها من الكلمة : أفي صيغة اسم أو فعل أصلية أو فرعية ؟ أو في حركة إعراب أو بناء ؟ أو في حرف هنية لا يدخل في الألفية ؟ أو في حركة التقاء الساكنين ؟ ومن وقع الإتباع في قراءته ؟ ودرجة شيوع صورہ المختلفة .

والبحث يضم ذلك كله في إيجاز لا يحفل بالإيضاح .

صور إتباع الحركة :

أتبع الحركات الثلاث ، فالفتحة تبعها السكون والضمّة والكسرة ، والضمّة تبعها السكون والفتحة والكسرة ، والكسرة تبعها السكون والفتحة والضمّة ،

(٥) مصادر القراءات المجموعة هنا هي : - إعراب القرآن للنعاص - مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه - شواذ القراءة للكرمانى - البحر المحيط لأبي حيان .

وقد تكون كل منهما متقدمة على الأخرى أو متأخرة عنها ، ويكون الإتياع في حركة فاء الكلمة أو عينها في الأسماء المتمكنة والأفعال المنصرفة فتصير الكلمة بالإتياع إلى بناء أصلى تبنى عليه الأسماء أو الأفعال ، أو تصير إلى صيغة فرعية لا تكون إلا في حال الإتياع ، ولا تبنى عليها الأسماء أو الأفعال .

ويكون في حركة الأعراب أو البناء ، ويكون لالتقاء الساكنين ، ويكون في حرف أو اسم غير متمكن ولا بناء له . وهذه الصور جميعا وردت في القراءات : ونوردها على ترتيب الحركات فتحة فضمة مكسرة ، وفي كل حركة تفصل البنية الأصلية عن الصيغة الطارئة وهكذا سائر الصور .

أولا - الإتياع للفتحة

غير إليها إتياعا السكون والضمة والمكسرة .

١ - إتياع سكون لاحق فتحة سابقة :

غير السكون بعدها إليها إتياعا ، فصارت الكلمة بعده على بنية أصابية ، وصيغة طارئة وغير إليها عند التقاء الساكنين .

(١) إتياع السكون للفتحة في بنية أصلية :

وجاء ذلك في فعل وفعله - بفتح الفاء وسكون العين - فقرأ في بعض ما جاء عليهما بفتح العين الساكنة إتياعا لفتحة الفاء السابقة :

فعل :

منه قوله تعالى : « إن يمسسكم ريح فدهس القوم قرح مثله » : آل عمران آية ١٤٠ - قرأ بفتح الراء فهما محمد بن السميع اليماني^(١)

(١) ظ : ترجمته في غاية النهاية ١٦١/٢ - ١٦٢ ت ٣١٠٦ .

دس - ح (*) ، وأبو العباس قنبل بن أبي قنبل (١) ، دغا ، ي ، ،
 وقوله تعالى : «حق قدره ، الأنعام آية ٩١ - قرأ بفتح الدال عيسى بن -
 غير الثقفى ، وهو عيسى البصرة (٢) ، دى - ح ، وأبو يحيى ، وأبو نوفل
 الأهرابيان (٣) ، دى ، والحسن البصرى (٤) ، دح » .

وقوله تعالى : «برصهم » : الأنعام آية ١٣٦ - قرأ بفتح العين إبراهيم بن
 أبي عبلة (٥) ، دى ، .

وقوله تعالى : «من الضأن » : الأنعام ١٤٣ قرأ بفتح الهمزة عيسى دغا ،
 وقوله تعالى : «بملكنا » : طه آية ٨٧ - قرأ بفتح اللام والميم عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه دى - ح ، .

وقوله تعالى : «البحر » : الحج آية ٥ الروم آية ٥٦ - قرأ بفتح العين
 الحسن البصرى دغا ، دى ، ح ، .

وقوله تعالى : «وهنا على وهن » : لقمان آية ١٤ - قرأ بفتح الهاء - عيسى
 بن عمر الثقفى ، وأحمد بن موسى اللؤلؤى (٦) ، من أبي عمرو دى - ح ، .

وقوله تعالى : «فى شغل » : يس آية ٥٥ - قرأ بفتح الشين وسكون الغين
 وقرأ بفتحهما مجاهد بن جبر (٧) ، وأبو السجال ، وعيسى بن عمر ، قال أبو حيان .

(*) يرمز للمصادر التي وردت فيها القراءة بما يلي : ح = البحر المحيط خا =
 مختصر فى شواذ القرآن لابن خالويه س = إعراب القرآن للنعاسى = شواذ
 القراءة للسكرتاني .

(١) ط : غاية النهاية ٢٧/٢ ت ٢٩٢٤ .

(٢) ط : غاية النهاية ٦١٣/١ ت ٢٤٩٩ .

(٣) لم يترجم لما ابن الجزرى . ومن بسكت عنه فبا يستأنف لم يترجم له .

(٤) ط : غاية النهاية ٢٣٥/١ ت ١٧٤ .

(٥) ط : غاية النهاية ١٩/١ ت ٧٢ .

(٦) ط : غاية النهاية ١٤٣/١ ت ٩٦٦ .

(٧) ط : غاية النهاية ٤١/٢ - ٤٢ ت ٣٦٥٩ .

« وأبو هبيرة فيما نقله ابن خالويه ، والذي في متن كتاب ابن خالويه .
أبو هريرة وأبو السمال ، وعلق المحقق فذكر هريرة وهبيرة (١) .

فدالة :

في قوله تعالى : « حتى نرى الله جهرة » : البقرة آية ٥٥ - قرأ بفتح الهاء
تبعاً لفتح الجيم طلحة بن مصرف (٢) « دى » ، وحيد بن قيس الأهرج (٣) « دى » -
ح ، وابن عباس ، وسهل بن شعيب (٤) « د خا - ح » ، وعيسى « د خا » .

وفي قوله تعالى : « أرونا الله جهرة » : النساء آية ١٥٢ - قرأ بفتح الهاء
الحسن والأهرج والأشهب « دى » . وفي قوله تعالى : « أخذناهم بغتة » الأنعام
آية ٤٤ - قرأ هكرمة - جهرة بفتح الهاء موضع بغتة « دى »

وقوله تعالى : « بغتة » الأنعام آية ٣١ - قرأ بفتح الفين غارجة بن
عصعب (٥) والجعفي : الحسين بن علي (٦) « دى » . وكذلك بغتة حيث وقع .

وقوله تعالى : « ويقولون خمسة ، السكف آية ٢٢ - قرأ بفتح الميم شبل
بن هباد (٧) ، وابن كثير « د ح » شبل عن ابن كثير « دى » ،

وقوله تعالى : « وهرة » طه آية ١٣١ - قرأ بفتح الهاء طلحة ، والأهرج
« دى » (٨) - ح ، ويعقوب وسهل « د ح - دى » ، وعيسى بن عمر « د س - ح » وعاصم

(١) مختصر في شواذ القرآن ١٢٥ د

(٢) غايه النهاية ٣٤٣/١ ت ١٤٨٨ .

(٣) السابق ٢٦٥/١ ت ١٢٠٠ .

(٤) السابق ٣١٩/١ ت ١٣٩٩ .

(٥) السابق ٣٦٨/١ ت ١٢١١ .

(٦) السابق ٢٤٧/١ ت ١١٢٣ .

(٧) ط : غايه النهاية ٣٢٣/١ - ٣٢٤ ت ١٤١٤ .

(٨) في شواذ القراءة ص ٢٥ مع آية ٥٥ سورة البقرة .

المجندري^(١) دس ، والحسن ، وأبو البرهم^(٢) ، وأبو حنيفة^(٣) ،
والزهرى^(٤) دح .

وقوله تعالى : « بنعمة ربك » : القلم آية ٢ - قرأ زيد بن حلى بفتح النون
والعين « دى » .

فعل وفعل في اللفظة :

جاء في العربية كلمات كثيرة على فعل وفعل - بفتح العين وسكونها مع
فتح الفاء - والمعنى واحد ، وقد وجه اللغويون معظم هذه المتشعبة في المعنى
المختلفة في الضبط على أنها لغات ، وجعلها لم تنسب إلى أصحابها الذين آثروها .
قال النحاس : « حكى النحويون البحث « بفتح العين ، وأجاز السكونيون في
كل ما ثابته حرق من حروف الحلق أن تسكن وتفتح ، نحو : فعل وفعل ،
ومجمل ومجمل قال أولسحاق : هذا خطأ ، وإنما يرجع في هذا إلى اللفظة ،
فيقال : لفلان على وعد ، ولا يقال وعد ، ولا فرق بين حروف الحلق
وغيرها في هذا ، وإنما هذا مثل قسر وقسر^(٥) .

وقال أبو حيان في البحث بفتح العين : « دوى لفة فيه كالحلب والطردي
الحلب والطردي . والسكونيون إسكان العين عند تخفيف ، يقيسون فيها وسيله
حرف حلق كالنهر والنهر ، والشعر والشعر ، والبصريون لا يقيسونه ،

(١) غايه النهاية ٣٤٩/١ ت ٤٤٩٨ .

(٢) عمران بن عثمان أبو البرهم الزيدى الشامي . غايه النهاية ٦٠٤/١ ت ٢٤٧١ .

(٣) شريح بن يزيد أبو حنيفة الحفري . المعجم ٥ - ٢٠٢ هـ غايه النهاية

٣٣٥/١ ت ١٤١٩ هـ .

(٤) ابن شهاب محمد بن مسلم بن عبيد الله د - ٢٤ هـ - السابق ٦٢/٢ - ٢٦٣

ت ٣٤٧٠ .

(٥) إعراب القرآن ٨٧/٣ وظ ٢٧٨/٣

وماورد من ذلك هو عديم بما جاء فيه لغتان (١) .

وماذهب إليه أبو إسحاق من عدم الفرق بين حروف الحلق وغيرها في الفتح والتسكين صحيح . ومن لسان العرب مثلا أحصيت ثمان وخمسون ومائة كلمة جاءت على فعل وفعل والمفتوح العين وساكنها بمعنى واحد ومعظمها ليست العين فيها حرف حلق (٢) .

ومن العلماء من حاول التفريق بين الفتح والسكون ، بأن الكلمة مع أحدهما تفيد معنى غير ما تفيد مع الآخر ، وأكثر ما قالوا في ذلك أن جعلوا إحدى الكلمتين اسما والأخرى مصدرا ، ولا تخلو هذه المحاولة من كثير من التعسف والتسكاف ، ويبقى أن يكون اختلاف الضبط من اختلاف اللغات أو من الإتيان .

والسكون - فيما قرر علماء العربية بشواهد وقرائن كثيرة قوية - أخف من الحركات - ومنها الفتحة - وهم بما يراعون ويعتمدون أن يعملوا الأكثر أصلا لما دونه في الكثرة ، والألفاظ التي جاءت على فعل - بسكون العين - أكثر كثيرا مما جاء على فعل - بفتحة - فأن يكون السكون هو الأصل - فيما جاء عنهم في هيئة الحركة والسكون - هو مقتضى الخل على الأخف والأكثر وقياسه .

وعلى هذا النظر يحتاج إثبات الفتح على السكون ، والعدول عن أخف الأبنية إلى ما هو دونه في الخفة ، وعن أشبهما في كلامهم ، وأكثرها جريا على أسسهم إلى ما هو أقل من ذلك - يحتاج إلى علة وسبب ، والإتيان علة شارحة مفسرة ، وسبب كاف قوى لهذا العدول وما تبعه من تغيير ، إذ أثرت الفتحة السابقة في ضبط الحرف اللاحق لها فضبط بمثل الحركة السابقة . ففتح بعد أن كان ساكنا ، ليسكون عمل اللسان أو أعضاء النطق من وجه واحد وعلى وتيرة واحدة ، ولا مانع بعد ذلك من أن يكون هذا التغيير في

(١) البحر المحيط ٦/٣٥٢ .

(٢) انظرها في دراسة في الصيغ العربية ٧٠٦/٠٠٠ .

حروف الحلق أكثر مما هو في غيرها نوحا ما دون أن يكون مقصورا عليها ، ولا مانع كذلك من أن يكون هذا التغير حدث في بعض الألفاظ دون بعض ، أو لدى جماعة من العرب دون سائرهم . فإنما جرى هذا التغير فيما جرى فيه وعند من أجروه لهذه العلة الصحيحة . وهذا السبب الوجيه .

ويبقى ألا يحمل على الإتيان إلا ما اتحد معناه على اختلاف الضبط ، أما ما اختلف معناه باختلاف الضبط فهو من المتغيرات ، كل منهما كلمة غير صاحبتها ، ويكون تغيير ضبط الحرف عما حقه أن يضبط به عدو لا هن أصل إلى غيره ، حدث في سياق صوتي أدى إليه ، كذلك التغير الذي يحدث للحرف نفسه فيؤدي إلى تحويله إلى حرف آخر في سياق صوتي معين ، فيبدل أحدهما أو يقبل ، أو يشم ويضارع به ، وقد يصحب هذا إدغام أحدهما في صاحبه .

ولو أن لنا أن نقعد الآن لقلنا - لما كانت الحركة العارضة لا يعتد بها ، والحرف المقلوب إليه ، والمبدل لا يراعى في ميزان أصالة الكلمة وعدمها - لا يمتد بالحركة الطارئة للإتيان في وزن الكلمة . وتقابل في الميزان بالحركة الأصلية دلالة على الأصل ، كما فعلوا ذلك في التغير اللازم في التصريف إذ تقابل الحركة العارضة بأصلها لا بما صارت إليه ، فضبط فاء الكلمة مثلا في يقول ويبيع ، ومقال ، ومقول ، ومقليل ، السكون ، وإن كان مقابلها في هذه الكلمات محركا بالفتحة أو الكسرة أو الضمة .

ولا نظن الأمر يستقيم على غير ذلك فيما لو أدى الإتيان إلى صيغة غير أصلية ، كفتح الحاء في محوم إتياناً لفتحة الميم ، فإنه ينبغي أن يوزن على الأصل - مفعول - بسكون الفاء لا بفتحها ، لأنه ليس من أبينتهم ، وينبغي أن يكون الأمر - فيما يؤدي فيه الإتيان إلى بنية أصلية وإلى صيغة طارئة غير أصلية - سواء ، وإن لم أجد من نبه على ذلك فيما وقفت عليه .

وفعله - بفتح العين وسكونها مع التاء - مثل فعل دون تاء فيما قلنا ، وليس

لحرف الخلق اختصاص بهذا التغيير ، وفيما قرئ به هنا في فعل وفة تأكيده
هذا ، فقد جاء الفتح والسكون في الدال والراء واللام والنون .

(ب) إتياع سكون لاحق لفتح سابقة في صفة طارئة :

وذلك في قوله تعالى : « كمصف ما كول » : الفيل آية هـ - قرأ
أبو الدرداء بفتح الهمزة إتياعا لفتح الميم (خا - ح) وليس مقول - بفتح
الميم والقاء - من أبتنيهم ، وإنما هي صيغة طارئة أدى إليها الإتياع ، وقد
جاء عنهم مثل هذا في محوم . ولا وجه للفتح هنا إلا الإتياع ، فلا لفة يحى .
عليها ، ولا معنى يفرق بين ما هو بالفتح وما هو بالسكون ، فالإتياع هنا
متعين لا محالة ، وكذلك هو في كل ما يؤدي إلى صيغة طارئة .

(ج) عند التقاء الساكنين :

في صورة التقاء الساكنين في العربية لا يكون ثانيهما إلا صحيحا أما
الأول فيكون صحيحا ، ويكون ليئا ويكون مدا - وقد عدا المد هنا
ساكتا على منجهم في أنه حرف لا حركة عليه ولا يقبلها ، ومالا حركة
عليه فهو ساكن

وإذا التقى في كلمة ساكتان أولهما صحيح وجب تحريك أولهما إلا إذا
كان ثانيهما في آخر الكلمة وعرض سكونه لأجر الوقف فيبقى الأول
ساكتا على حاله . ولا يحرك تخلصا : وجاز التفاوض لمرور سكون الحرف
الثاني وإذا التقى ساكتان أولهما حرف مد وجب حذفه إلا في حالين : -
إذا كان الساكن الثاني بعد المد مدغما مثل : الضالين - دهاقات ، والهاقة ،
فمن حاجك ، أو كان الثاني الساكن موقوفا عليه في آخر الكلمة مثل :
الرحيم - العالمين - الدين .

وإذا كان أولهما حرف لير وجب تحريكه إلا إذا كان الثاني آخر كلمة
وسكن للوقف مثل : البجع ، والقوم . أو كان الساكن الثاني مدغما مثل :

دويبة وشويبة تصغير دابة وشابة ، باء التصغير ساكنة والباء بعدها مضعفة وأولى الباءين ساكنة .

والأصل الغالب خلية تقارب الاطراد في التخلص من الساكنين إذا وكان الهمما صحبهما أو اينما - أن يحرك أولهما بالكسر . وقد جاء تحريكه بالفتح فإذا كان قبله أو بعده - متصلا به أو مفصلا عنه بساكن واحد - فتح كان العدول عن سكون أولهما إلى تحريكه بالفتح إقباعا ، وإذا لم يكن مع الساكن فتح عللوا العدول من الكسرة إلى الفتحه بأنه للدليل إلى الخفة إذ الفتح أخف من الكسر ، والكسر أخف من الضم فيما تبين لهم وقرروا . وقد يحرك بالضم ولا يكون ذلك إلا لإتباع أو مناسبة .

(ج) إتباع سكون لاحق لفتحة سابقة عند التقاء ساكنين :

وجل ذلك وقع إذا كان أول الساكنين الذي تحرك واوا ، وأكثر ما جاء من هذه الواو أن تكون للحياة . ومن ذلك :

قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا » : البقرة آية ١٤ - قرأوا الذين - هل فاعل بفتح واو الجماعة - أبو السمال دى . قال الكرماني : ويجوز (في) العربية « وإذا لقوا الذين » (١) ، بالواو وكسره ، وكذلك قراءتهم في قوله : « اشتروا الضلالة » ، فتمنوا الموت ، و « ولوا الأدبار » ، و « وأوا العذاب » ، و « لا تنسوا الفضل » ، ونحوهن - بكسر الواو ، وعن ابن يعمر (٢) بفتحه (٣) - ونسكتني بهذا عن نسبة القراءة إلى ابن يعمر في هذه المواضع عند ذكرها . وقوله تعالى : « اشتروا الضلالة » : البقرة آية ١٦ - قرأ بفتح الواو - أبو السمال دى . خا . دى . ح . د .

(١) في المخطوط : ويجوز العربية وإذا قول بالواو ص ١٩ .

(٢) يحيى بن يسر العدواني توفي قبل سنة ٩٠ هـ غاية النهاية ٣٨١/٢ ص ٣٨٧٣ .

(٣) شواذ القراءة ص ١٩ .

وقوله تعالى : « فتمنوا الموت » البقرة آية ٩٤ - بفتح الواو - أبو السمال « دى » وحكى أبو على الحسن بن إبراهيم بن بزاد عن أبي عمرو أنه قرأ فتمنوا الموت بفتح الواو ، وحركها بالفتح طلبا للتخفيف ^(١) ، « ح » الجملة آية ٦ - أبو السمال « دى » .

وقوله تعالى : « ورأوا العذاب » البقرة آية ١٦٦ - يونس آية ٥٤ - سبا آية ٣٣ - الشورى آية ٤٤ - ابن يعمر « دى » ^(٢) .

وقوله تعالى : « رأوا الآيات » يوسف آية ٣٥ - بفتح الواو اختصارا فغلب أبي السمال « دى » .

وقوله تعالى : « ولا تفسوا الفضل » البقرة آية ٢٣٧ - يعمر « دى » .

وقوله تعالى : « لولوا الأدبار » الفتح آية ٢٢ - ابن يعمر « دى » .

وقوله تعالى : « لو استعلمنا » التوبة آية ٤٣ - بفتح الواو : الحسن بن عمران « دى » ، والحسن « ح » .

وفى كل هذا أتبع مسكون الواو الفتحة السابقة عليها ففتحت الواو تحفا من الساكنين ، واختيرت الفتحة للإنباع ، ويقرأ بالكسر على الأصل ، وبالضم لمناسبة الواو .

وقوى من شأن الفتحة وأثرها فى هذه المواضع أن اكتنفت الساكن من طرفيه قبله متصلة به ، وبعده مفصولة عنه بساكن لا يمنع من الإنباع .

وفى قوله تعالى : « ولما علم الله » آل عمران آية ١٤٣ - قرأ بفتح الميم لإنباعا لفتحة اللام قبلها يحيى بن يعمر ، وإبراهيم النخعي ^(٣) « دى - ح » وقوى من شأن الفتحة أن وقع الساكن مكتنفا بها .

وأن يكون الإنباع للفتحة السابقة أولى من وجهين : أنها سابقة ، وأنها ملاصقة غير مفصولة ، فتسكون أقوى على التأثير من اللاحقة .

(١) البحر المحيط ١/٣١٠ .

(٢) فى ص ١٩ مع قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين » .

(٣) ترجمته فى غايه النهاية ١/٢٩ - ٣٠ ت ١٢٥ .

(د) إلتباع سكون سابق لفتحة لاحقة :

في قوله تعالى : « قم الليل » المزمع آية ٢ - قرأ بفتح الميم أبو السمال « دى » وعزا ابن خالويه لأبي السمال ضم الميم ، أما فتحها فقد عزا لآخر لم يسمه وكذلك ذكر أبو حيان أنه قرئ به دون « دى » .

وجه الفتح أن يكون إلتباعا لفتحة اللام اللاحقة ، وقد فصل بينهما الساكن الثانى - لام أل - ولا يمنع هذا الفاصل من الإلتباع .

٢ - إلتباع الضمة للفتحة :

الشان في الإلتباع أن الأقوى يتبعه ما هو دونه في القوة ، والخفيف يتبع الثقيل ، والضمة - فيما قرر علماء العربية - أقوى وأثقل من الفتحة ، وعلى قوة الضمة وثقلها أتبع الفتح على ضعفها وخفتها ، وكان الإلتباع في هذا ميل إلى الأخف ، وجنوح إلى التماثل ، وكان هذا مقدما على ما تقتضيه قوة الضمة من جذبها للفتحة إليها ، وأكثر ما جاء من ذلك كانت الفتحة فيه متقدمة على الضمة . وكان هذا يعنى أن تقدم الحركة يجعلها أقوى على التأثير في غيرها . وإن كان أقوى منها ، أى أن تقدم الفتحة الضعيفة جعلها أقوى من الضمة المتأخرة ، فجبر تقدمها ضعفها وزيادة وقد أتبع الضمة الفتحة سابقة ولا حقة .

(أ) إلتباع ضمة لاحقة لفتحة سابقة في بنية أصلية :

وجاء ذلك في بنيتين : فعل - بفتح فضم - صارت بالإلتباع إلى فعل - بالتحريك - وفي فملات جمع فملة - بضم العين - وأتبع الضمة الفتحة في الجمع وذلك في :

فمل :

في قوله تعالى : « وما أكل السمع » : المائدة آية ٣ - قرئ بضم السين وسكونها - وقرأ بفتحها يحيى بن وثاب (١) ، وإبراهيم النخعي « دى » ونصح

(١) ط : غاية النهاية ٢/٢٨٠ ت ٣٧٨١ .

الباء لإتباع لفتحة السين ، وضم الباء هو الحركة الأصلية ، ولا يقال السكون هو الأصل إذ لا يكون لضم الباء وجه يحمل عليه ، ولا سبب يسيغه . ولا يقال عمله ووجه ضمة العين تبعها السكون السابق ؛ لأن هذا الضبط لم يختص بحال الرفع ، وحركة الإعراب عارضة ولو كان الإتباع لها ما جاء في غير الرفع ، ولنص عليه العلماء كما فعلوا في امرئ و ابنم ومره فالضمة للاسما هنا أقبلت الفتحة السابقة .

وقوله تعالى : « سنشد عضدك بأخيك » : القصص آية ٣٥ - قرأ بفتح الصاد عيسى السكونية دى - ح - وهو عيسى بن عمر أبو عمر الحمداني (١) ، وأما على ذلك أن وقعت الضمة بين ثلاث فتحات على العين والدال والكاف فجرى اللسان مجرى واحدا في الأربعة ، وكان ذلك أخف وأيسر .

فعلات جمع فعلة :

في قوله تعالى : « وقد خلت من قبلهم المثلثات » : الرعد آية ٦ - قرأ بفتح التاء لإتباعا لفتحة الميم قبلها الأعمش (٢) دى - ح - وعيسى بن عمر د غا ، ومجاهد دى . وقد جاء في واحدة ضم التاء وسكونها (٣) ، والسكون تخفيف والفتح إتباع ، والأمر فيها في السبع ، و « عضدك » واحد . ففيها إتباع ضمة لفتحة ، لا سكون لفتحة .

(ب) إتباع ضمة سابقة لفتحة لاحقة في صيغة طارئة :

وذلك في قوله تعالى : « مذهبين بين ذلك » النساء آية ١٤٣ - قرأ بفتح الميم ابن عباس (غا) والحسن . (س . ي . ح) « قال ابن عطية : وهي

(١) السابق ٦١٢/١ ت ٢٤٩٧ ، ٢٤٩٩ .

(٢) سليمان بن مهران « ٦٠ - ٨١٤٨ » . غاية النهاية ٣١٦/١ - ٣١٩ ت ١٣٨٩ -

(٣) ظ : القاموس المحيط م . ث . ل .

قراءة مردودة . هـ . والحسن البصرى من أفصح الناس يحتاج بكلامه فلا ينبغي أن ترد قراءته ، ولها وجه في العربية وهو أنه أتبع حركة الميم بحركة الدال . وإذا كانوا قد أتبعوا حركة الميم بحركة عين الكلمة في مثل متتن وبينهما حاجز . فلأن يتبعوا بغير حاجز أولى . وكذلك أتبعوا حركة عين منفعل بحركة اللام في حالة الرفع فقالوا : منحدر ، وهذا أولى ، لأن حركة الإعراب ليست ثابتة بخلاف حركة الدال . وهذا كله توجيه شذوذ . على تقدير صحة النقل عن الحسن أنه قرأ بفتح الميم ، (١) .

وما ذهب إليه أبو حيان من توجيه القراءة حسن ، أما ما يوحى به كلامه من شك في نسبتها للحسن فيرفعه أن النحاس والكرمان نسبها إلى الحسن . كذلك ، ويموز القراءة أن ابن خالويه نسبها إلى ابن عباس . ويموز ثبوتها أيضا أن ابن عطية أثبتها ولم ينسها لإزدها ، فلم تثبت عنده لكان الاعتذار بعدم ثبوتها قاطعا وكافيا عن تحشم ردها والاحتجاج لهذا الرد .

٣ - إنباع الكسرة للفتحة :

أثبتت الكسرة اللاحقة الفتحة السابقة في قوله تعالى : وإمراته قائمة فضحكك ، : هود آية ٧١ - قرأ بعضهم بفتح الحاء . (غا) . وقد وقعت كسرة الحاء بين فتحتين وإتباعها للفتحة السابقة أولى من إنباعها اللاحقة ، إلا أن وقوع الفتحة بعدها يقوى من صاحبها وتتوالى بالإنباع أربع فتحات ، فيخف ذلك على اللسان ، ويجرى العمل على وجه واحد ، وهذا إلى خفة الفتحة في نفسها ، وإلى ما قرره بعض المتقدمين من ميل حروف الحلق إلى الفتح .

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٧٨ - ٣٨٩ وط : النهر المار من البحر - والنهر الأقط من البحر المحيط في الموضع نعمة .

هذا وإذا نظر إلى أن حركة التخلص من الساكنين هي الكسرة وأن العدول عنها عدول عن أصل إلى حال طارئة لمناسبة وعلة كان ماسبق في الفقرة : ١ / ج (إتياع سكون لاحق لفتحة سابقة) مما هنا والاولى أن يكون من إتياع السكون للفتحة كما سبق .

هذا ولم يأت إتياع الكسرة سابقة للفتحة لاحقة كما جاء في الضمة، وإذا أخذ ماورد هنا مقياسا للإتياع للفتحة كان إتياع الضمة لها أكثر من إتياع للكسرة لها . هذا إذا استبعدنا مافتح لالتقاء الساكنين نظراً لأنه من إتياع السكون للفتحة لا الكسرة للفتحة على ما ترجع قبل .

وقد يفيد هذا وما يأتي بعد أن الضمة أقرب إلى الفتحة من الكسرة إليها ، وهذا يخالف ترتيب ابن جني للحركات بحسب مغارجها الفتحة فالكسرة فالضمة وما ذهب إليه من أن الضمة أبعد عن الفتحة ، وأن الكسرة بينهما (١) ، ويوافق ماذهب إليه المحدثون من أن الضمة كالواو من أقصى اللسان ، فهي بين الفتحة والكسرة ، وكذلك درجة القرب والبعد بين الحروف التي هذه الحركات أبعاضها .

ثانياً : الإتياع للضمة

أتيعها السكون والفتحة والكسرة . أتيعها السكون في بنية أصلية ، وفي علامة الإعراب ، وفي التقاء الساكنين ، وأتيعها الفتحة والكسرة في بنية أصلية وفي صيغة طارئة ، وفي علامة البناء .

١ — إتياع السكون للضمة :

أتيعها لاحقاً فصارت بعده الكلمة إلى بنية أصلية ، وفي علامة الإعراب .

وفي التقاء الساكنين ، وقد يصير السكون إلى الضمة مع الواو عند التقاء الساكنين ، وهذا قريب من الإتياع لضمة سابقة .

٣ - إتياع سكون لاحق لضمة سابقة في بنية أصلية :

وجاء ذلك في فعل ، وفعلان ، وفعل .

فعل :

قرئ بضم الفاء وسكون العين على الأصل ، وبضمها إتياعا لضمة الفاء في مواضع كثيرة ، والضم والسكون يمتثلان أمرين : أن يكون الأصل الضم وحده ، أو السكون تحفيضا ، وأن يكون السكون هو الأصل ، وحده ، أو الضم إتياعا ، وتقدير أن يكون الأصل هو السكون أولى حملا على الأكثر ورودا من هاتين الصيغتين ، والأشهر الأشيع في الاستعمال من الضبطين ، في الكلمات التي قرئ فيها بهما ، ولا يمنع من الإتياع أن يكون الضم في لغة قبيلة ، والسكون في لغة أخرى . وما نحن بصدد إدخال فيه ما يختلف معناه باختلاف ضبطه . وما جاء على ذلك :

قوله تعالى : « قلوبنا غلف » : سورة البقرة آية ٨٨ - هذا جمع أغلف ، وقياسه بسكون هين الكلمة ، فالأصل السكون ويكون الضم عارضا إتياعا لضمة الغين - فاء الكلمة - وقرأ بضم اللام . ابن عباس (ي - ح) والؤلؤي من أبي عمرو (خا - ح) والحسن ، والزهري (ي) والأعرج ، وابن هريرة (١) ، وابن عيصن (٣) (ح) .

قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » آل عمران

(١) عبد الرحمن بن هرمز الأعرج المدني (- ١١٧ هـ) - غاية النهاية ٢/٣٨١

ت : ١٦٢٢ .

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن عيصن (- ١٢٣ هـ) - غاية النهاية ٢/٣١٨٥

آية ١٤٠ قرىء بضم القاف وسكون الراء - وقرأ بضم الراء لإتباعا ابن أبي ليلى^(١) « دى » .

قوله تعالى : « سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب » سورة آل عمران آية ١٥١ . قرأ بضم العين أبو جعفر^(٢) ، وعيسى والأعرج « دس » وابن عامر . والكسائي « ح » .

قوله تعالى : « ويأمرون الناس بالبخل » سورة النساء آية ٣٨ قرأ بضم الحاء عيسى بن عمر « خا . ي . ح » ، والحسن « ح » .

قوله تعالى : « ألحكم الجاهلية » سورة المائدة آية ٥٠ « حكا » سورة الشعراء ٢١ قرأ بضم الكاف عيسى السكوني « دى »^(٣) وهو الحمداني .

قوله تعالى : « وحرث حجر » سورة الأنعام آية ١٣٨ ، قرىء بضم الحاء وسكون الجيم وقرىء بضم الجيم لإتباعا قرأ بذلك أبان بن عثمان ، « دس . ي . ح » ، وعيسى بن عمر « خا - ح » .

قوله تعالى : « وأمر بالعرف » سورة الأعراف آية ١٩٩ قرأ بضم الراء عيسى العتيبي البصري « دس . ي . ح » .

وقوله : « والمرسلات هرفاء » سورة المرسلات آية ١ ، عيسى بن عمر « دى - ح » ، والحسن « دى » .

قوله تعالى : « أو أدى إلى ركن شديد » سورة هود آية ٨٠ قرأ بضم الكاف عمرو بن عبيد^(٤) - وسعيد بن أبي عروبة « خا » وابن عمر « دى » ،

(١) عيسى بن عبد الرحمن الأنصاري - غاية النهاية ٦٠٩/١ ت : ٢٤٩١ .

(٢) يزيد بن القطاع الخزومي (مولا م) (- ١٣٠ هـ) : السابق ٣٨٤-٣٨٧/٢

ت : ٣٨٨٢١ .

(٣) كلام في آ : ٢١ : الشعراء ص ١٧٧ .

(٤) عمرو بن عبيد بن باب البصري (- ١٨٠ هـ) غاية النهاية ٦٠٢/١ ت : ٢٤٥٨٠ .

قوله تعالى : « إن موعدكم الصبح أليس الصبح بقريب » سورة هود آية ٨١ ، قرأ بضم الباء عيسى بن عمر الثقفي « دس . خا . ي . ح . » .

قوله تعالى « وايعضت عيناه من الحزن » سورة يوسف آية ٨٤ قرأ بضم الرازي قتادة (١) « ي - ح . » .

قوله تعالى : « ما لم تحط به خيرا » ، بما لديه خيرا ، سورة الكهف آية ٦٨ ، ٩١ قرأ بضم الباء : الحسن دي . خا . ح ، وعيسى البصرة « خا - ي » ، والأهرج ، وعباس (٢) « هـ . أبي عمرو ، وابن عباس « خا » ، وابن هرم « ح . » .

قوله تعالى : « من لدني عذراء » سورة الكهف آية ٧٢ قرأ بضم الذال النبي صلى الله عليه وسلم وابن عباس وعلى بن الحسين (٣) ، وسلام (٤) ، والأعشى « دي » . وعيسى ، ورويت عن أبي عمرو « ح . » وفي « عذراء » سورة الرسائل آية ٦ قرأ بالضم الحسن ، وعاصم « دي » ، وبضم الذال في « عذراء أو نذراء » .

زيد بن ثابت ، وابن خزيمة ، وطلحة ، وأبو جعفر ، والحسن ، والأعشى (٥) « هـ . أبي بكر » (٦) ، والضم عن زيد في رواية ، وعن الحسن بخلاف « ح . » .

(١) قتادة بن دعامة المدوني البصري (- ١١٧ هـ) السابق ٢٥/٢ - ٢٦ : ٢٦٢١ .

(٢) العباس بن الفضل بن عمر الوائلي الأنصاري البصري (١٠٥ - ١٨٥ هـ) السابق ٣٥٣/١ ت : ١٥١٤ .

(٣) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن علي بن الحسين . السابق ٥٤/١ ت : ٢٢٠٦ .

(٤) سلام بن سليمان الطويل (- ١٧١ هـ) السابق ٢٠٩/١ ت : ٩٣٦٠ .

(٥) يعقوب بن محمد بن خليفة النخعي الكوفي (- ف حدود ٢٠٠ هـ) السابق ٣٩٠/٢ ت : ٣٨٩٧ .

(٦) شعبة بن عياض بن سالم الأسدي الكوفي (- ١٩٣ هـ) السابق ٢٢٥/١ - ٣٢٧ ت : ١٤٢١ .

قوله تعالى : « يومئذ زلزال » سورة طه آية ١٠٢ - جمع أزرق . قرأ
بضم الراء عيسى الكوفية (ي) .

« قوله تعالى : « والفلك تجري » سورة الحج آية ٦٥ - قرأ بضم اللام
ابن مقسم^(١) (ي - ح) وزيد بن علي (في غير المؤمنين آية ٢٢) والسلمي ،
وابن هرم (ي) وابن الزبير (في لقمان آية ٣١) (ي) والحسن « في
البقرة آية ١٦٤ » (خا) والكسائي عن الحسن (ح) .

قوله تعالى : « واضمم إليك جناحك من الرهب » سورة القصص
آية ٣٢ .

قرئ بضم الراء وسكون الهاء وقرأ بضمهما « عيسى البصرة (خا -
ي - ح) .

والجحدري (س . ي . ح) والحسن ، وقناة (ي - ح) وابن كثير
(س) والمفضل ، وابن « بيد (ي) .

قوله تعالى : « هو الله حسنا » سورة الغنكجوت آية ٨ بضم السين عيسى
البصرة ، وعيسى الكوفية (ي) .

قوله تعالى : « من بعد قوة ضعفا » سورة الروم آية ٥٤ - قرأ بضم
الضاد وسكون العين . وقرأ بضمهما عيسى الكوفية (ي - ح) .

قوله تعالى : « إن الشرك لظلم » سورة لقمان آية ١٣ ، قرأ بضم اللام -
أبو واقد (ي) .

قوله تعالى : « في شغل فاكهون » سورة يس آية ٥٥ - قرأ بضم الغين -

(١) محمد بن الحسن بن يعقوب البغدادي (٢٦٥ - ٣٥٤ هـ) السابق ١٢٣/٢

الكوفيون (س) عيسى البصرة (ي) عاصم وحمة والكسائي وابن
عاصم (ج) .

قوله تعالى : ذنبصب وعذاب ، سورة ص آية ٤١ قرأ بضم الصاد أبو جعفر
(س . خا . ي . ح) والحسن (خا . ي) وشيبة^(١) ، وأبو عمارة عن حفص
والجهمي عن أبي بكر ، وأبو معاذ عن نافع (ح) .

قوله تعالى : فالحاريات يسرا ، سورة الذاريات آية ٣ قرأ بضم السين
مقبل الأنطاكي عن أبي جعفر (ي) وفي الشرح ٥ ، ٦ أبو جعفر (ي) .

قوله تعالى : د على رفرف خضر ، سورة الرحمن آية ٧٦ قرأ بضم الصاد
النبي صلى الله عليه وسلم . وعثمان بن عفان ، ونصر بن عاصم ، والجحدري
ومالك بن دينار^(٢) وابن محيصن وزهير الفرقي^(٣) (ي) وابن هرم
(ح) والأخرج (خا . ي) .

قوله تعالى : د بيده الملك ، سورة الملك آية ١ قرأ بضم اللام زيد بن علي
والعاصمي وابن هرم (ي) .

قوله تعالى : د يهدي إلى الرشيد ، سورة الجن آية ٢ - قرأ بضم الشين
عيسى الثقفي (ي - ح) .

قوله تعالى : د يوم حسير ، سورة المذثر آية ٩ - وقرئ د عسر ، بضم العين
وسكون السين وقرأ بضمهما الحسن (ي) وفي الشرح ٥ ، ٦ أبو جعفر (ي) .

قوله تعالى : د أو نذرا ، المرسلات آية ٦ قرأ بضم الذا : شبة ، وزيد

(١) شبة بن نصاح بن سرجس (- ١٣٠ هـ) غاية النهاية ١/ ٣٢٩ - ٣٣٠
ت : ١٤٣٩ .

(٢) مالك بن دينار أبو يحيى البصري (- ١٢٧ هـ) السابق ٢/ ٣٦ : ت : ٢٦٤٣

(٣) زهير الفرقي النحوي يعرف بالكسائي : السابق ١/ ٢٩٥ : ت : ١٣٠١ .

ابن علي ، والحرميان : نافع وابن كثير ، وابن عامر وأبو بكر د ح ، [وظ :
« فلما ، وقد سبق [والحسن دى ، وعاصم دى - ح » .

قوله تعالى : « كأنه جملة صفر ، المرسلات آية ٢٣ - قرأ بضمة الفاء
الحسن دى - ح ، وحيد ، والكلبي دى » .

قوله تعالى : « إن الإنسان لفي خسر ، العصر آية ٢ - قرأ بضمة السين
هارون عن أبي بكر من عاصم د خا - ح ، والأعرج ، وعيسى البصرة دى ،
وابن هرم ، وزيد بن علي د ح » .

فعلى :

قرئ . بسكون السين وضمها في قوله تعالى : الليسرى ، الليل آية ٧ وقوله
تعالى : اللسرى ، الليل آية ١٠ - قرأ بذلك أبو جعفر ، وابن مقسم دى » .

فعلان :

قرئ . بسكون العين وضمها في :

قوله تعالى : « ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، الأنعام آية ٨١ قرئ بضمة اللام
د ح ، و سلطان ، في غافر الآيات ٢٣ ، ٢٥ ، ٥٦ - قرأ بضمة اللام - عيسى
البصرة دى - ح » .

قوله تعالى : « ورضوان ، التوبة آية ٢١ - قرأ بضمة الضاد : الأعمش
دى - ح ، واعترض عليها أبو حاتم ، وردّه أبو حيان (١) » .

قوله تعالى : « قربانا آلهة ، الأحقاف آية ٢٨ - قرأ بضمة الراء عيسى
ابن هرم دى » .

فعل في اللغة :

جاء فعل - بسكون العين في العربية أكثر من فعل - بضمها - والسكون
أخف من الضم ، وقد جاءت كلمات بالسكون والضم مع اتحاد المعنى ، وقد

أوضحنا في فعل - يفتح العين وسكونها - أن الأصل ينبغي أن يكون هو الأكثر والأخف ، وكذلك الأمر هنا ، وقد قال الفيومي : كل اسم ثلاثي على فعل بضم الفاء وسكون العين فبنو أسد يضمون العين لإتباعها للأول نحو هسر ويسر ، وإن كان بضميتين فبنو تميم يسكنون تخفيفا نحو : عنق وطنب ورسل وكتب إلا في نحو سرر وذلك لأن السكون يؤدي إلى الإدغام فتختل دلالة الجمع (١) .

ومقتضى كلام الفيومي أن كل فعل - بسكون العين - يجوز فيه الإنباع على لغة بني أسد ، وأن الإنباع كثر في كلامهم ، والذي ينبغي أنه يشار إلى الإنباع إلا إذا كان الضم خلاف الأكثر والأشيع قاعدة واستعمالا ، فإن كان السكون خلاف ذلك كان تخفيفا من الضم ، فإن تساويا ترجع حملها على اختلاف اللغات .

وقد ذكر ابن عطية - فيما نقله أبو حيان - أن التخفيف من التثقيب قلما يستعمل إلا في الشعر ، ونص ابن مالك على أنه يجوز التثقيب في نحو حمر جمع حمار دون ضرورة ، وهذا يوافق ما ذكره الفيومي .

وفي قراءة غلاف ، بضم اللام قال أبو حيان : « ولا يجوز أن يكون في هذه القراءة جمع أغلاف ، لأن تثقيب فعل الصحيح العين لا يجوز إلا في الشعر » (٢) ، وقد نقل هو عن الحسن أنه قرأ في المرسلات صفر - بضم الفاء - ونقل غيره عن عيسى الحمداني أنه قرأ في طه زرقا بضم الزاء ، ولا وجه لحذين إلا أن يكون تثقيلا عن تخفيف وتفسيره أغلف على أنها جمع غلاف . لا أغلف يطلب عليه التكلف وقسر اللفظ على أداء معنى لا يناسبه .

وبهذا يسلم لنا القول بأن ما جاء على فعل بضم عين السكامة مما الغالب فيه

(١) المصباح اللئير / ٦٩٨ ت : عبيد المظلم الشناوى ط دار المعارف القاهرة

الفصل : ١٣ -

(٢) البحر المحيط ٣٠١/١

قياسا واستعمالا سكنون العين فضمها للإتباع قراءة ولغة، وقوة الضمة السابقة وضعف الساكن اللاحق يساعد على هذا الإتباع ويكون العدول عن الأكثر الأخف إلى ما هو دونه في ذلك لا يجري اللسان على وجه واحد كما سبق بيانه في فعل - بالفتح والسكون .

والشان في فعالان وفعل فعل سواء بسواء .

(ب) إتباع سكنون لاحق لضمة سابقة في علامة الإعراب :

ولا يتأتى ذلك إلا في المضارع المجزوم وذلك محتمل في قوله تعالى : « لا يضرركم » آل عمران آية ١٢٠ المائدة آية ١٠٥ - قرأ بضم الراء السكونيون « س » . السكونيون وابن عامر « ح » والسكونيون من السبعة حاصم وحمزة والسكسائي ، وقرئ بفتح الراء وكسرها . قال أبو حيان في قراءة ضم الراء : « واختلف أحركة الراء لإعراب فهو مرفوع ؟ أم حركة لإتباع لضمة الضاد وهو مجزوم كقولك مد . ونسب هذا إلى سيديوه (١) » .

(ج) إتباع سكنون سابق لضمة لاحقة عند التقاء الساكنين :

بينما ما تكون عليه حركة التخلص من التقاء الساكنين ، وأنها عدول عن السكون لا عن الكسر ، وقد قرئ بضم الساكن الأول إذا كان تاء : أودالا أو لاما أو نونا - أو تنوينا أو واوا . وذلك إذا كان بعد الساكن الثاني ضمة لازمة . قال أبو حيان : واختلف القراء في حركة النون من قوله : « فبن اضطر » ، « وأن احكم » ، « ولكن انظر » ، وشبهه وحركة الدال من « ولقد استهزى » ، « والتاء من : » وقالت أخرج عليهن ، وحركة التنوين من « فنبلا انظر » ، ونحوه ، وحركة اللام من « قل ادعوا الله » ، والواو من « أو ادعوا الرحمن » .

فكسر ذلك حاصم وحمزة - وحركها أبو عمرو وإلا في الواو والنون

ويعقوب إلا في الواو (١) وضم باقي السبعة إلا ابن ذكوان فإنه كسر التنوين،
وعنه في برحة ادخلوا، ود خبيثة اجتثت، خلاف.

وضابط هذا أنه يكون ضمة هذه الأفعال لازمة، فإن كانت عارضة
فالكسر نحو: أن امشوا.

وتوجيه الكسر أنه حركة التفاء الساكنين. والضم أنه لإنباع ولم
يمعدوا بالساكن لأنه حاجز غير حصين، أو ليدلوا على أن حركة همزة
الوصل المحذوفة كانت ضمة (٢).

ولامعنى الدلالة على حركة همزة الوصل المحذوفة فهي ليست حركة
أصلية حتى يدل عليها بل تكون تبعاً لغيرها، فالحمل الصحيح أن الضم
للإنباع.

ونبين مواطن ما ذكره أبو حيان ومن قرأ بالضم غير من ذكرهم هنا
إن كان.

حركة التاء في قوله تعالى: «وقالت اخرج طهين» يوسف آية ٣١.

حركة الدال في قوله تعالى: «ولقد استهزى» الأنعام آية ١٠ الرعد
آية ٣٢، الأنبياء آية ٤١.

حركة اللام في قوله تعالى: «قل انظروا» يونس آية ١٠١ «قل ادعوا»
الإسراء آية ١١٠ - ونسبها أبو حيان في موضع يونس إلى: الحريميين
والعربيين والسكسائي فزاد أبا عمر الذي عزاه إليه التحريك إلا في الواو
والنون.

حركة النون في قوله تعالى: «دفن اضطرب» البقرة آية ١٧٣ - المائدة
آية ٣ - الأنعام آية ١٤٥ - وعزاه ابن خالويه الضم في موضع البقرة إلى ابن

(١) يقصد بالتحريك الفتح.

(٢) البحر المحيط ٤٩٠/١.

يعمر . وفي قوله تعالى : « أن اقتلوا أنفسكم » النساء آية ٦٦ ، « وأن احكم »
المائدة آية ٤٩ « ولا تكن انظر » الأعراف آية ١٤٣ .
حركة نون التنوين في قوله تعالى : « ولا يظلمون فتيلًا انظر » النساء آية
٤٩ - ٥٠ « برحمة ادخلوا » الأعراف آية ٤٩ « خبيثة اجثثت »
لإبراهيم آية ٢٦ .
حركة الواو في قوله تعالى : « أو اخرجوا من دياركم » النساء آية ٦٦
« أو ادعوا الرحمن » الإسراء آية ١١٠ .

(د) إلتباع سكون لاحق لضمة سابقة عند التقاء الساكنين :

وإذا اتبع السكون الضمة وهي متأخرة عنه مفصولة منه فإن يتبعها
متقدمة عليه متصلة به أولى ، وجاء ذلك في :
قوله تعالى : « ردادي نوح ابنه » هود آية ٤٢ - قرأ بضم نون التنوين
وكيع بن الجراح « دح » وهو إلتباع لضمة الحاء السابقة .
وقوله تعالى : « قم الليل » المزمل آية ٢ - قرأ بضم الميم أبو السمال
« خا - ي - ح » (١) وهو إلتباع لضمة القاف السابقة .

(هـ) مناسبة سكون لاحق لواو سابقة عند التقاء الساكنين :

وسمينا ذلك مناسبة لأن المتقدمين جعلوا الإلتباع إما أن تتبع كلمة كلمة ،
أو حركة حركة ، وجعلوا العلاقة بين الحروف والحركات مناسبة أو مجامسة ،
وقد قرئ بضم الساكن الأول وهو واو ولا ضمة قبله أو بعده ، فالوجه
أن الضم لمناسبة الواو التي كانت ساكنة وحركت بالضم لالتقاء الساكنين .
وذلك في :

قوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل » البقرة آية ٢٣٧ - قرأ بضم الواو
يحيى بن يعمر « ح » .

قوله تعالى : « ولو اطاعت عليهم » الكهف آية ١٨ - قرأ بضم الواو يحيى ابن وثاب ، والأعشى ، وروى عن شعبة وأبي جعفر ونافع دى . »

قوله تعالى : « ولو اتبع » المؤمنون آية ٧١ - قرأ بضم الواو يحيى بن وثاب دى . »

قوله تعالى : « وأن لو استقاموا » الجن آية ١٦ - قرأ بضم الواو الأعشى وابن وثاب دخا . دى . ح . »

٢ - إتياع الفتحة للضمة :

أتبع الفتحة الضمة فصارت الكلمة بالإتياع إلى بنية أصلية ، وإلى صيغة طارئة ، وأتبعها في علامة البناء ، وفيها كانت الضمة سابقة ، والفتحة لاحقة ، والعكس .

(١) إتياع فتحة لاحقة لضمة سابقة في بنية أصلية :

وجاء ذلك في فعل وفعله وجمع مفعلة .

فعل : بضم الفاء وفتح العين - أتبع العين الفاء فضمت ، والفتحة أخف من الضمة فالعدول إلى الأقل إشاراً لاتفاق الحركات ، وكأنهم يستخفون التثنية ويستحسنونه إذا جرى على وجه واحد فيكون ، هذا أيسر على اللسان ، وأحب إلى الناطق من خلاف الحركات ، ويكون الانتقال من ضم إلى ضم أقرب متناولاً عند بعضهم من الانتقال من ضم إلى غيره ولو كان فتحاً ، وجاءت القراءة بذلك في قوله :

قوله تعالى : « يكاد سنا برفه » النور آية ٤٣ - قرأ بضم الباء وفتح الواو على أنه جمع برفه كعريف جمع فرقة ، وقرأ بضم الباء والراء على الإتياع طلحة بن مصرف دخا . ح . »

(٣ - جملة كلمة الفاعل)

قوله تعالى : يقول أهلك ما لا لبدا ، البلد آية ٦ - قرأ بضم الهماء مجاهد د س . خا . ي . ح ، وابن أبي الزناد د خا - ح .
 فعلة : بضم الفاء وفتح العين في قوله تعالى : د ويل لكل همزة لمزة .
 الهمزة آية ١ قرأ بضم العين - الميم فيهما - لإتباعا للضمة السابقة . الأعرش دى .
 جمع مفعلة - اسم مفعول من أفعّل - في قوله تعالى : د والمحصنات ، النساء آية ٢٤ - قرأ بضم الصاد لإتباعا للضمة الميم السابقة يحيى بن وثاب دى .
 ويريد تطيب د ح ، وفصلت بينهما الحاء الساكنة ، ولا يمنع ذلك من الإتيان الذى لا وجه للضم غيره .

(ب) إتيان فتحة لاحقة لضمة سابقة في صيغة طارئة :

وذلك في :

قوله تعالى : د فستقر ومستودع ، الأنعام آية ٩٨ - قرأ بضم التاء فيهما لإتباعا للضمة الميم السابقة . إبراهيم بن أبي عبلة دى .
 قوله تعالى : د بألف من الملائكة مردفين ، الأنفال آية ٩ قرأ بالتضعيف الدال ، وأصله مرتدفين أدخلت التاء في الدال ، أما الراء الساكنة فحركات بعد الإدغام بفتحة أو كسرة أو ضمة ، وهو بالضم لإتيان ، أتبع فتحة الراء ضمة الميم السابقة ، وقد نقل القراءة بضم الراء الخليل بن أحمد عن المكيين دى . أو عن بعض المكيين د ح .

قوله تعالى : د وطقا يخضغان ، الأعراف آية ٢٢ - قرئ . يخضغان مضارع خصف - بالتضعيف - وقرأ عبيد الله بن يزيد بضم الحاء لإتباعا للضمة الياء د ح .

(ج) إتيان فتحة سابقة لضمة لاحقة في بنية أصلية :

وجاء ذلك في ثلاثة أبنية فعل : بفتح فسكون - فعل : بفتح فضم - جمع فعلة : يفتح فضم :

فعل - بفتح فسكون - في قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ، انبأ آية » .
قرأ بضم الميم إتباعاً لضمة الهمزة - سلامة الإعراب - ابن أبي إسحاق
وأبو السجال فعنب دي ، ونسبها أبو حيان إلى ابن أبي إسحاق وحده قال :
« ومنه ما أبو حاتم ، ولا ينبغي أن تضعف لأنها لغة ، يتبعون حركة الميم
بحركة الهمزة ، فيقولون : مر . ومرأ . ومرء ، على حسب الإعراب » (١) .

فعل - بفتح فضم - في قوله تعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضداً »
السكف آية ٥١ - قرأ بضم العين إتباعاً لضمة الضاد - الحسن - د خا ، وقوله
تعالى : « سئيد عضدك » القصص آية ٢٥ قرأ بضم العين إتباعاً لضمة الضاد -
الحسن - دي - ح ، وزيد بن علي - د ح .

وقوله تعالى : « من السكذاب الأشعر » القمر آية ٢٦ قرأ - الأشعر بفتح
ضم ، وقرأ بضم الهمزة إتباعاً لضمة الشين مجاهد - دي - ح .
قال أبو حيان : « مجاهد - فيما ذكر اللوامع - وأبوقيس الأودي » (٢) .
جمع فعلة - بفتح فضم - في قوله تعالى : « وقد خلت من قبلهم المثلثات ،
الزهد آية ٦ - قرأ بضم الميم إتباعاً لضمة التاء - عيسى بن عمر أو عمرو دغا -
ج ، وأبو بكر - دي - ح ، وابن أبي عملة ، يزيد بن قطيب - وعاصم - دي ،
والأعمش في رواية دح .

(د) إتباع فتحة سابقة لضمة لاحقة في صيغة طارئة :

وذلك في :

قوله تعالى : « ثم اضطروا » البقرة آية ١٢٦ - قرأ بضم الطاء إتباعاً لضمة
الراء بيدها - يزيد بن أبي حبيب - دح .

(١) البحر المحيط ٨/٤١٦ .

(٢) البحر المحيط ٨/١٨٠ .

قوله تعالى : « مانعبدكم » الزمر آية ٣ - قرأ بضم النون إتباعا لضمة الياء « ح » .

(هـ) إتباع فتحة لاحقة لضمة سابقة في علامة البناء :

وذلك في :

قوله تعالى : « أيه المؤمنون » النور آية ٣١ « يأيها الساحر » الزخرف آية ٤٩ - « أيه الثقلان » الرحمن آية ٣١ - وقرأ بضم الهاء إتباعا لضمة الياء قبلها ابن عامر - وضم هاء التنبيه بعد أي لغة لبقى مالك رهط شقيق بن سلمة « ح » وحكاها الكسائي ، وهي لغة شاذة .

٢ - إتباع الكسرة لضمة :

وجاء ذلك قليلا في علامة إعراب وعلامة بناء وحرف بنية :

(أ) إتباع كسرة لاحقة لضمة سابقة في علامة بناء :

وذلك في :

قوله تعالى : « الحمد لله » الفاتحة آية ٢ - قرأ بضم لام الجر إتباعا لضمة الدال قبلها - إبراهيم بن أبي عبلة « دس . خا . ي . ح » - يزيد بن قسيط : الأصم « دى » .

(ب) إتباع كسرة لاحقة لضمة سابقة في حرف بنية :

وذلك في :

قوله تعالى : « يا صالح اتقنا » الأعراف آية ٧٧ - قرأ : يا صالح أو تنال بهمز وإشباع ضم - عيسى وعاصم ، قال أبو حيان : « وفي كتاب ابن عطية : قال أبو حاتم : قرأ عيسى وعاصم أو تنال بهمز وإشباع ضم - انتهى . فاعله عاصم الجحدري لا عاصم بن أبي النجود أحد قراء السبعة (١) » .

(ج) إتياع كسرة سابقة لاضمة لاحقة علامة الإعراب :

وذلك في قوله تعالى : والملائكة اسجدوا ، سورة البقرة آية ٣٤ - قرأ بعضهم التاء إتياعاً لاضمة الجيم بعدها - أبو جعفر يزيد بن القعقاع (س . خا . ي . ح) وسليمان بن مهران (ح) ورأى النحاس ذلك إشباعاً أو لحناً (١) . وقد اعترض على هذه القراءة جمع من العلماء ودافع عنها أبو حيان ، ونقل أنها لغة أردشثوة . (٢)

ثالثاً : الإتياع لكسرة

أتبعها السكون والفتحة والضممة ، وأقلها إتياعاً لها السكون بخلاف الفتحة والضممة إذ كثرت إتياعها لها ، وإتياع الفتحة إياها أكثر من إتياع الضممة ولكنهما متقاربان .

١ - إتياع سكون لاحق لكسرة سابقة :

وذلك في قوله تعالى : ونعم أجر العاملين ، سورة آل عمران آية ١٣١ قرأ بكسر العين إتياعاً لكسرة النون - طلحة بن مصرف (ي) . ولم يتقل غير هذا .

٢ - إتياع الفتحة للكسرة :

أتبعها سابقة ولاحة ، في بنية أصلية ، وصيغة طارئة ، وفي علامة بناء ، وفي حرف بنية .

١ - إتياع فتحة لاحقة لكسرة سابقة في بنية أصلية :

وذلك في جمع أم على أمهات . إذا كان الحرف السابق قبل الهمزة في الكلمة السابقة عليها مكسوراً ، وذلك : من بطون أمهاتكم ، النحل آية ٧٨

(١) ط الإعراب للقرآن ٢١٢/١ (٢) ط البحر المحيط ١/١٠٢

. في بطون أمهاتكم ، سورة الزمر آية ٦ ، سورة النجم آية ٣٢ ، أو بيوت أمهاتكم ، سورة النور آية ٦١ .

(جميعها ذكرت مع آية ١١ سورة النساء ، فلازمه الثلث ، ظ : إتياع ضمة الكسرة) قرئ بكسر الهمزة المضمومة إتياعها لكسرة الحرف السابق . وقرأ بكسر الميم المفتوحة إتياعها للهمزة المكسورة - الأخوان (ح) - وذكرها النحاس ولم ينسبها فقال : « من كسر الهمزة أتبع الكسرة الكسرة ، وكسر الميم بعيد » (١) .

وعند ابن خالويه ذكرت نابعة لمن قرأ بالكسر في « فلازمه الثلث ، سورة النساء آية ١١ وقد سقطت في الكتاب المحقق فلم تذكر ولا من قرأ بها فقال : « في بطون أمهاتكم ، بالوصل وكسر الميم عنه أيضا » (٢) ويقصد بالوصل حذف الهمزة ، ونسب الكرمانى القراءة بذلك إلى الأعشى (٣) .

(ب) إتياع فتحة لاحقة لكسرة سابقة في علامة بناء : وذلك في قوله تعالى : « وأنتم حينئذ ، سورة الواقعة ٨٤ قرأ بكسر النون من حين عيسى (خارج) والكسر إتياع لكسرة الحاء السابقة ، ويجوز أن يكون إتياعا لكسرة الهمزة اللاحقة ، وإتياع السابق أولى .

(ج) إتياع فتحة لاحقة لكسرة سابقة في حركة التخلّص من الساكنين :

وذلك في قوله تعالى : « براءة من الله ، سورة التوبة آية ١ بكسر النون إتياعا لكسرة الميم (س . خا . ح) قال النحاس : زعم مارون أن أبا عمرو قرأها .

وقال أبو حيان : لغة نجران حكاهما عنهم أبو عمرو ، وأوردها الكرمانى لغة لأمّ نجران . وما قاله أبو حيان عند خالويه .

(١) إعراب القرآن : ٤٠٤/٢ . (٢) مختصر في شواذ القرآن : ٢٥٠ .

(٣) شواذ القراءة : ١٣٤ .

(د) إتياع فتحة سابقة لكسرة لاحقة في بنية أصلية :

وجاء ذلك فعل وفعليل وفعليلة ومفعول وأفعلين للملحق بجمع المذكر السالم وفعلات جمع فعللة :

فعل - يفتح فسكون - وذلك في قوله تعالى : ديحول بين المرء وقلبه ، سورة الأنفال آية ٢٤ - قرأ بكسر الميم إتياعا لكسرة المعوذة . علامة الإعراب - ابن أبي إسحاق (ح) ، (وظ : ج في إتياع فتحة اضمة) .

فعليل - يفتح فكسر - قرئ . يفتح الفاء إتياعا لكسرة العين بعدها في قوله تعالى : درحلبا جنينا ، سورة مريم آية ٢٥ قرأ به طلحة بن سليمان (ي-ح) وبجى بن وثاب (ي) ،

قوله تعالى : وأتيناها الحكيم صبيا ، سورة مريم آية ٢٩ قرأ بكسر الصاد قرني (؟) الشامي (ي) .

قوله تعالى : دأو صديقكم ، سورة النور آية ٦١ - بكسر الصاد . حكاه حميد الخزاز (خا - ح) .

قوله تعالى : دوكان عند الله وجيبا ، سورة الأحزاب آية ٦٩ قرأ بكسر الواو زيد بن علي ، وأبو الهيثم (ي) .

قوله تعالى : دأبهم بذلك زعيم ، سورة القلم آية ٤٠ قرأ بكسر الزاي أبو السمال وبعض الأعراب (ي) .

فعليلة - يفتح فكسر - قرئ . بكسر الفاء إتياعا لكسرة العين في :

قوله تعالى : دجيمة الأنعام ، سورة المائدة آية ١ سورة الحج آية ٢٨ ، ٢٤ قرأ بكسر الياء في موضع الأنعام أبو السمال ، وفي موضعي الحج هائلا رضى الله تعالى عنها (ي) .

قوله تعالى : دوجعلنا قلوبهم فاسية ، سورة المائدة آية ١٣ قرئ . قسية ، بكسر القاف إتياعا لكسرة السين (ح) بعضهم (خا) .

قوله تعالى : « أولو بقية » سورة هود آية ١١٦ قرأ بكسر الباء لإنشاعيل
 من أبي جعفر طريق الحرى (أو الجرى ؟) ^(١) (ى) .

مفعول - من معتل اللام بالياء - فى قوله تعالى : « وكنت نسياً منسياً »
 سورة مريم آية ٢٣ قرأ بكسر الميم لإتباعها للمعين - الأعمش (خا - ح)
 وأبو البرهم (ى) وأبو جعفر فى رواية (ح) .

فعلات - بفتح فكسر - جمع فعلة : فى قوله تعالى : « فى أيام نحسات »
 سورة فصلت آية ١٦ - قرأ بكسر النون مجاهد (ى) .

أفعلين الملاحق بجميع المذكر السالم - فى قوله تعالى : « أربعين ليلة »
 سورة البقرة آية ٥٩ قرأ بكسر الباء اليماضى (ى) وعلى ، وهيسى بن
 عمر (ح) .

(٥) إتباع فتحة سابقة لكسرة لاحقة فى صيغة طارئة :

وذلك فى قوله تعالى : « وطفقا يختصمان » سورة الأعراف آية ٢٢ - قرئ
 بكسر الخاء والصاد المضعفة والأصل يختصمان وقرأ بكسر الياء الحسن
 والأخرج ومجاهد وابن وثاب (ح) وكسر الخاء لإتباع الصاد وكسر الياء
 لإتباع للحاء .

قوله تعالى : « مردفين » سورة الأنفال آية ٩ - قرئ بكسر الزاء وتضعيف
 اللام مكسورة وأصله مرتدين حكاه الخليل بن أحمد عن المكيين (ى)
 وكسر الراء لإتباع للدال ، أو على الأصل فى التخلص من الساكنين (ح) .

(١) لم يذكر فى طرق قراءة أبي جعفر ورواياتها فى القشربا بن الجوزى
 ١٧٤/١ - ١٨٧ ولحق الكامل لهذا لائحة : ٤٢ ، ٤٣ ، وذكر ابن الجوزى فى رواية
 ابن جواز طريق الهاشمى من طريق ابن رزى فى سندها أبا عمر محمد بن حمد بن عمر
 الحرق الأصمباني (القشربا ١٧٦/١) . قال فى ترجمته : (ألفته بقى إلى حدود العشرين
 وأربعمائة) . غاية النهاية ٧٨/٢ .

قوله تعالى : « أم من لا يهدى - يونس آية ٣٥ - على يفعل والأصل يهتدى ،
قرأ بالهاء مكسورة لإتباعا لكسرة الدال - حفص - يعقوب - الأعمش عن
أبي بكر (ي) وقال أبو حاتم هي لغة سغلي مضر وقال النحاس : الكسر
للتخلص من الساكنين (ح) ، وعاصم ، والحسن ، وأبو رجاء وقرأ
بكسر الباء لإتباعا لكسرة الهاء السكاسي عن عاصم (س) وأبو بكر في رواية
بهي بن آدم (ح) .

قوله تعالى : « ولا تنفاني ذكرى » : طه آية ٤٢ - قرأ بكسر التاء ابن وثاب
(ح) إما لإتباعا لكسرة النون ، وإما على كسر حرف المضارعة .

قوله تعالى : « وهم يخضمون » : يس آية ٤٩ - قرأ بكسر الخاء عاصم .
والسكاسي ، وبكسر الباء والحاء فرقة (ح) وهي مثل : يخضمان - يهدى - .

قوله تعالى : « إلا من خطف الخطفة » الصافات آية ١٠ - قرأ بكسر الخاء
إتباعا لهاء المخففة ابن عباس (ح) وروى عن الحسن (خا) وبكسر الخاء والطاء
المخففة الحسن ، وقنادة ، وعيسى (خا) وقال النحاس : « ومن كسر الطاء
أتبع الكسر الكسر »^(١) وهذا في تخفيف الطاء وتعديدها .

(هـ) إتباع فتحة سابقة لكسرة لاحقة في علامة البناء :

وذلك في قوله تعالى : « ثم اتنوا » طه آية ٦٤ قرأ بكسر الميم شبل بن حباد
عن ابن كثير ، وخلف عن ابن كثير (ي) شبل وابن كثير في رواية شبل
هته (ح) وقد أبدلت الهمزة ياء تخفيفا . « قال أبو علي : وهذا غلط ولا وجه
لكسر الميم من ثم . وقال صاحب اللوامع : وذلك لالتقاء الساكنين كما كانت
الفتحة في العامة كذلك »^(٢) .

وواضح أنه لم يلتق ساكنان هنا ، فالوجه أن كسرة الميم إتباع لكسرة
همزة الوصل على تقدير الابتداء بها .

(١) إعراب القرآن ٤/٣٠٢ ، (٢) البحر المحيط ٦/٢٥٦ .

قوله تعالى : « وأنتم حينئذ ، : سورة الواقعة آية ٨٤ قرأ بكسر نون حين عيسى (خا . ح) والكسر لإتباع للكسرة بعدها أو قبلها .
٣ — إتباع الضمة الكسرة :

أتبعتهما في بنية أصلية ، وصيغة طارئة ، وعلامة إعراب . وعلامة بناء ، وحركة حرف بنية .

(١) إتباع ضمة لاحقة لكسرة سابقة في بنية أصلية :
والإتباع هنا كان لحركة سابقة على فاء الكلمة أى كسرة في كلمة أخرى . وجاء ذلك في :

• فعل - بضم فسكون - في قوله تعالى : « فلامه » سورة النساء آية ١١
قرأ بكسر الهمزة لإتباعا لكسرة اللام قبلها أهل الكوفة (س) الأخوان (ح) .
وقال النحاس : هي لغة كثير من هوازن وهذيل .

وكذلك قرئ في قوله تعالى : « في أمها » سورة القصص آية ٥٩
« في أم الكتاب » سورة الزخرف آية ٤ .

ويمكن أن يكون الإتباع للكسرة اللاحقة ولكن لإتباع السابق أولى .
وفي قوله تعالى : « فإن قد خمسة » سورة الأنفال آية ٤٤ قرأ بكسر الخاء
وإسكان الميم النخعي (ح) وكسر الخاء لإتباع للكسرة السابقة في الخاء في
لفظ الجلالة .

• فعل - بضمين - في قوله تعالى : « والسياء ذات الحيك » سورة الذاريات
آية ٧ - قرأ بكسر الخاء بعضهم (خا) أبو مالك الغفاري والحسن . (ح)
ووجهها أبو حيان على إتباع كسرة التاء قبلها .

(ب) إتباع ضمة لاحقة لكسرة سابقة في علامة بناء :

في ضمير الغيبة المفرد إذا سبق بكسرة أو ياء ، ذلك أن الأصل في حركته
الضم كما هو في الضمير المنفصل « هو » ، وقد قرئ - بالضم والكسر - ووصلين
برأو ويا . في قوله تعالى : « قل يسأيا يأمركم به إيمانكم » سورة البقرة آية ٩٣ .

(ج) إنباع ضمة لاحقة لكسرة سابقة في حركة حرف بنية :

وذلك حركة الهاء من م وهن إذا سبقت بكسرة أو ياء. إذا الأصل الضم كما هو في المنفصل، وقد قرئ بهما في قوله تعالى : « قال يا آدم أنبئهم » سورة البقرة آية ٣٣ قرأ : بكسر الهاء : الحسن (خا) وابن كثير (ي) ابن عباس (ح) قال أبو حيان : ووجهه أنه أنبئع حركة الهاء لحركة الباء ، ولم يمتد بالهمزة لأنها ساكنة ، فهي حاجز غير حصين « (١) » .

وهذا على رأى من يجعل الضمير م وهن ، أى يجرع الهاء والميم ، والهاء والنون ، أما على رأى من يجعل الضمير الهاء فقط ، والميم علامة جمع المذكر ، والنون علامة جمع المؤنث فيكون الإنباع في علامة البناء كما في (ب) (٢) .

(د) إنباع ضمة سابقة لكسرة لاحقة في صيغة طارئة في الأسماء :

وذلك في فعول في المصدر والجمع إذا كانت اللام معتلة فيجوز فيما لامة واو قلبها ياء . انطرفها وإدغام واو فعول فيها ، وتسكس العين للمناسبة الياء كما هو الشأن فيما لامة ياء إذ قلب لها الواو الساكنة السابقة ويدغمان وتبقى ضمة الفاء أو تبدل كسرة إنباعا للكسرة بعدها وقرئ بذلك في . قوله تعالى : « من حلهم » سورة الأعراف آية ١٤٨ - قرأ بكسر الهاء أهل الكوفة إلا عاصبا (س) الأخوان - وأصحاب عبد الله ، ويحيى بن وثاب ، وطلحة والأعشى (ج) .

قوله تعالى : « سجدا وبكيا » سورة مريم آية ٥٨ - قرأ بكسر الباء - عبد الله بن مسعود ويحيى ، والأعشى ، وحزرة ، والكسائي (ج) .

قوله تعالى : « دجيا » مريم آية ٦٨ ، ٧٢ - قرأ بكسر الجيم ، حزة ، والكسائي ، وحفص (ج) .

(١) البحر المحيط ١/١٤٩ .

(٢) ط : جمع المراجع للسيوطي ١/٦٠ - ٦١ .

قوله تعالى : « وعصيم » سورة طه آية ٦٦ قرأ بكسر العين غير الحسن وعيسى (ح) ولم يمزها النحاس هذا في الجمع أما المصدر ففي .

قوله تعالى : « علوا » سورة الإسراء آية ٤ ، ٤٣ سورة النمل آية ١٤ - قرأ بكسر العين واللام وإبدال الواو ياء - عليا - في موضعى الإسراء - زيد ابن علي (ي - ح) . وفي موضع النمل عبد الله بن مسعود ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش (ي - ح) وزيد بن علي (ي) وطلحة ، وأبان بن تغلب (ح) .

قوله تعالى : « هتيا » سورة مريم آية ٨ - ٦٩ وعتوا - قرأ هتيا بكسر العين أبو جعفرية وابن أبي ليلى ، والأعمش ، وحمة والكسائى وحفص (ح) ولم ينسبها النحاس .

قوله تعالى : « أولى بها عليا » سورة مريم آية ٧٠ (ذكرت مع آية ٨) قوله تعالى « فاستطاعوا مضيا » سورة يس آية ٦٧ - قرأ بكسر الميم أبو جعفر أحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائى (ي - ح) .

(هـ) إتباع ضمة سابقة لكسرة لاحقة في صيغة طارئة في الأفعال :

قوله تعالى : « إلا ما اضطررتم إليه » سورة الأنعام آية ١١٩ - كسر الطاء أبو جعفر (ي) ووجهه أنه أتبع الضمة كسرة الزاء بعدها .

قوله تعالى : « وزلزلوا » سورة الأحزاب آية ١١ - قرأ بكسر الزاى الأولى إتباعا للثانية أحمد بن موسى الثؤلى عن أبي عمرو (ح) .

(و) إتباع ضمة سابقة لكسرة لاحقة في علامة الأعراب .

في قوله تعالى : « الحمد لله » سورة الفاتحة آية ٢ - قرأ بكسر الدال إتباعا لكسرة لام الجر - الحسن (س . خا . ي . ح) ورؤية (خا) ومحمد بن السميع البنائى . وأبورا الشعثاء جابر بن زيد (ي) وزيد بن علي (ح) . في قوله تعالى : « يا صالح اثقنا » سورة الأعراف آية ٧٧ - قرأ يا صالح

أيثنا بكسر الحاء والياء بدل الهمز أبو عمرو وعاصم في رواية (ح) اتبعته
ضمة الحاء كسرة همزة الوصل على تقدير الابتداء بها .

في قوله تعالى : د من يقول ائذن لي ، سورة التوبة آية ٩٤ - فقرأ بكسر
اللام والياء بدل الهمزة نبيح وأبو واقد والجراح (ي) وكسر اللام لإتباع لكسرة
همزة الوصل على تقدير الابتداء بها وبعد هذا العرض لما جاء في القراءات
على اختلافها متواترة وشاذة من شواهد الإتيان - وقد قابت خمسين موضعاً
ومائة موضع وزاد عدد القراء الذين وردت في قراءتهم على المائة - يمكننا
أن نقول : إن ما قدمنا هنا خاضع للاختبار والتجربة ثم تتجلى في حدود هذه
الدراسة الحقائق التالية :

- أن إتيان السكون للحركة أكثر من إتيان للحركة للحركة عدد شواهد
وتنوع ظواهر ومواضع .

- أن إتيان السكون للضمة أكثر من إتيان للفتحة : وأن إتياناً لكسرة نادر .

- أن الإتيان للضمة أكثر يليه الإتيان للكسرة يليه الإتيان للفتحة .

- أن إتيان اللاحق للسابق أكثر من إتيان السابق لللاحق .

- في هذا تأكيدهما قرره المتقدمون من درجات القوة والضعف في الحركات

والسكون الضمة التي تليها الكسرة تليها الفتحة يليها السكون .

- لا تتضح علاقة ولا توجد بين الحركة ونوع الحرف سواء نظرنا إلى

الحركة التابعة أم إلى الحركة المتبوعة . وهذا ينقض ما ذهب إليه بعض المعاصرين

من أن اختلاف علامات الإعراب راجع إلى مناسبة خاصة بين كل حركة

وما يناسبها من حروف لا يناسب غيرها .

- أن كثرة من وردت في قراءتهم ظواهر الإتيان واختلاف أصولهم القبلية

وبيناتهم تنفي أن يكون الميل إلى المماثلة أو المضادة بين الأصوات

مقصورة على البيئة البدوية ، كما تنفي أن يكون لبيئة القارىء الجغرافية .

أو الاجتماعية أنز فيها قرأ به وتؤكد ما نقرر لدى القدماء من أن القراءة سنة متبعة ، وأن كلا يؤدي كما سمع وعلم .

- الميل إلى التقريب بين الأصوات - الحركات هتاء والمناسبة بينها ومضادة بعضها بعضها كان شائعا لدى العرب في عصور الاحتجاج لا يمتنع بقبيل دون قبيل .

- أحبط آثار هذا التقريب فأصبحت الصورة التي وقع فيها الاتباع هي الأغلب في الفصحى أو هي الأصل في بعض الأحوال ، وكثرت حتى صارت جائزة قياسا في أحوال أخرى ، وإن كان الإتيان ليس هو السمة العامة .
في بعض الأحيان طغت حركة الإتيان على حركة الإعراب أو البناء ، وهذا يؤكد قوة مراعاتهم لتقريب الحركات بعضها من بعض .

- أن القرآن الكريم حافظ للفصحى وفيه أوثق ما يستند به في دراستها ، وأنها علومها بما يسره الله سبحانه وتعالى لحفظ كتابه .

المراجع

- ١ - أسرار العربية - أحمد تيمور ط - دار الكتاب العربي
١٣٧٤هـ / ١٩٥٤ م .
- ٢ - أصوات اللغة العربية - د : عبد الفقار حامد هلال - ط - ٢ -
١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م . مطبعة الجبلاوى .
- ٣ - الأصوات اللغوية د : إبراهيم أنيس ط ٤ .
- ٤ - إعراب القرآن - أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس
(٢٣٨ هـ) ت : زهير غازي زاهد ط ٢ - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- ٥ - الاختصاف في شرح أدب الكتاب - ابن السيد البطليوسي (٤٤٤ -
٥٥٢) مصورة - بيروت ١٩٧٣ .
- ٦ - الأمل : لأبي علي القالي (إسماعيل بن القاسم البغدادي ٢٨٨ -
٣٥٦ هـ) ط : الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦/٧٥ م .
- ٧ - البحر المحيط : لأبي حيان - أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي -
٦٥٤ - ٧٥٤ هـ - مصورة لطبعة السعادة .
- ٧ - تاج العروس للزبيدي - السيد محمد مرتضى - ١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ .
- ٩ - التطور النحوي للغة العربية - برجستراسر ، نشر د : زوهان
عبد التواب مطبعة المجد ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
- ١٠ - التعريفات : للجرجاني - السيد الشريف علي بن محمد بن علي (٧٤٠ -
٨١٦ هـ) ط الخليل ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨ م .
- ١١ - الخصائص : ابن جني أبو الفتح عثمان - ٢٣٩٢ هـ : محمد علي النجار
ط - دار النكتب .
- ١٢ - دراسات في علم أصوات العربية د : داود عيده - طهران ١٩٦٥ م .

- ١٣ - دراسة الصوت اللغوى د : أحمد مختار عمر ط ١٩٧٦/٨٣٩٦ م
مطابع سجل العرب .
- ١٤ - دراسة فى الصيغ العربية أصولها وتطورها وعلاقتها بالمعنى د/ محمد
أحمد خاطر - رسالة بكلية اللغة العربية ١٩٧٦ م .
- ١٦ - دروس فى علم أصوات العربية - جان كاتينيو ترجمة صالح القرمادى
تولس ١٩٦٦ م .
- ١٧ - سر صناعة الإعراب - ابن جنى ت : مصطفى السقا وآخرين - ط
الخلبى ١٩٥٤/٨١٣٧٤ م .
- ١٨ - شواذ القراءة - للكرمانى - أبو محمد عبد الله بن أبى نصر (القرن
السادس) مخطوط بمكتبة الأزهر ج ٢٤٤ قراءات .
- ١٩ - الصاحب فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها - ابن فارس أبو الحسين
أحمد بن فارس بن زكريا - ٨٣٩٥ هـ : السيد أحمد صقر ط - الخلبى .
- ٢٠ - علم الأصوات : تعريب ودراسة - برتيل مالمهوج ت : د/ عبد الصبور
شاهين ، ١٩٨٧ م .
- ٢١ - علم اللغة - مقدمة للقارئ العربى - د/ محمود السمران ط - دار
المعارف ١٩٦٢ م .
- ٢٢ - علم اللغة العام - القسم الأول : الأصوات د/ كمال بشر - ط ، دار
المعارف ١٩٧٣ م .
- ٢٣ - غاية النهاية فى طبقات القراء - ابن الجوزى - محمد بن محمد - ٨٣٣ هـ
عن بشره : برجستراسر - مصورة لطبعة الخانجى .
- ٢٤ - فقه اللغة وصر العربية - الثعالبى : أبو منصور محمد بن إسماعيل
(٣٥٠-٤٣٠ هـ) ت : مصطفى السقا وآخرين ط الخلبى ١٩٧٢/٨٣٩٢ م :
- ٢٥ - فهارس كتاب سيبويه ودراسة له د/ محمد عبد الخالق هضيمة ط .
- السعادة ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م .

- ٢٦ - في الأصوات اللغوية : دراسة في أصوات المدد / غالب فاضل المطلي
بنداد ١٩٨٤ م .
- ٢٧ - القاموس المحيط : الفيروز ابادي - أبو طاهر محمد بن يعقوب :
٧٢٩ - ٨١٦ هـ .
- ٢٨ - السكامل في القراءات : أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي
٤٦٥ هـ مخطوط ٢٦٩ : قراءات رواق المغاربة بمكتبة الأزهر .
- ٢٩ - كتاب سيديونية : عبد السلام محمد هارون - الهيئة العامة للكتاب
١٣٩٥ / ١٩٧٥ م .
- ٣٠ - لسان العرب - ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (٦٣٠ -
٥٧١ هـ) .
- ٣١ - اللهجات العربية في التراث - د / أحمد علم الدين الجندى - رسالة
مصورة .
- ٣٢ - مختصر في شواذ القرآن - ابن خالويه : أبو عبد الله الحسين بن أحمد
٣٧٠ هـ عن نشره برجستراسرط الرحمانية ١٩٣٤ م .
- ٣٣ - المختصر : ابن سيده - أبو الحسن علي بن إسماعيل - ٤٥٨ هـ .
- ٣٤ - المزهري في علوم اللغة وأنواعها - السيوطي - جلال الدين
عبد الرحمن بن أبي بكر - ٩١١ هـ .
- ٣٥ - المعجم الأدبي : جبور عبد النور ط : ١ بيروت ١٩٧٩ م .
- ٣٦ - مقاييس اللغة : ابن فارس ت : عبد السلام محمد هارون
ط المطبعي .
- ٣٧ - المنهج الصوتي للبيئة العربية د / عبد الصبور شاهين ط : بيروت
١٤٠٠ / ١٩٨٨ م .
- ٣٨ - النشر في القراءات العشر - ابن الجزري : محمد بن محمد - ٨٢٣ هـ
أعرف عليه علي محمد الضباع - مصورة .
- ٣٩ - معجم الحوامع - السيوطي - مصورة .
- (٤ - مجلة كلية اللغة)

الإدغام والفك بين القراء واللغويين

بقلم

أ.د/ عبد الغفار حامد هلال

الإدغام في القراءات وتفسيره من الوجهة اللغوية :

الإدغام^(١) ظاهرة لغوية واقعة في كلام العرب ، قال أبو عمرو بن العلاء
الإدغام كلام العرب الذي يجرى على ألسنتها^(٢) .

كما أن الأصل أن يأتي الحرفان دون إدغام وهو ما يسمى بالفك وهو
الأصل^(٣) أو اللغة القديمة^(٤) .

وقد وضح كل من ذلك في القراءات وتناوله تفصيلا علماء اللغة
والقراءات .

تعريف الإدغام :

في اللغة : الإدخال ، يقال أدغمت اللجام في فم الدابة أى أدخلته فيه ،
قال ساعد بن حوثة :

(١) على وزن (إنزال) مصدر (أدغم) - يسكون الدال قبلها حمزة القطع -
وهذا مذهب الكوفيين وعليه علماء التجويد وينطق بتشديد الدال (التثمال) من ادغم
وهذا مذهب البصريين . شرح الفصل ١٠ / ١٢١ .

(٢) المشرع في القراءات المشرع ١ / ٢٧٥ .

(٣) الحجة لابن خالويه ص ١٧١ .

(٤) السكتاب ٤ / ٤٧٣ .

بمقربات بأيديهم : أعنتها - خوص إذا فزوها أدغمنا بالاجم
ويستعمل - في اللغة أيضا - بمعنى التنظية ، يقال : دغم الفيت الأرض
يدغمها : غشيها وغطاها ، وأدغمت الشيء ، غطيته (١) .

وهو في اصطلاح القراء وعلماء اللغة له تعريفات تختلف في اللفظ وتتحد
في المعنى :

يسرفه بعض أهل الأداء بأنه : إدخال الحرف في الحرف ودفعه فيه حتى
لا يقع بينهما فصل بوقف ولا بحركة ولكنك تعمل المعصو الناطق بهما إعمالا
واحدا فيكون الحاصل منهما في اللفظ حرفا واحدا مشددا (٢) .

وذكر بعض علماء القراءات أنه اللفظ بحرفين حرفا كالتالي معددا (٣)
ويقول بعضهم : الإدغام : أن أصل حرفا ساكنا بحرف متحرك فتصيرهما
حرفا واحدا مشددا يرتفع اللسان عنه ارتفاعا واحدة وهو بوزن
حرفين (٤) .

وقال مكي بن أبي طالب : الإدغام معناه : إدخال شيء في شيء ، فعني أدغمت
الحرف في الحرف : أدخلته فيه بجعلت لفظه كلفظة الثاني فصارا مثاين
والأول ساكن (٥) .

وهذا الذي قال به علماء الأداء نقل عن اللغويين .

(١) تهذيب اللغة ٧٨/٨ وشرح الشافية لرضي ص ٣٣٦ والكشف لمكي بن
أبي طالب ١/١٤٣ .

(٢) الدر الثبير الورقة ٩ .

(٣) النشر ١/٢٧٤ وإبراز المعاني ص ٥٩ .

(٤) سراج القاري المبتدئ ص ٤٤ .

(٥) الكشف ١/١٤٣ والتبصرة ص ٣٥ .

فينسب إلى الخليل أنه عرف الإدغام بأنه : إدخال حرف في حرف .
بحيث يرتفع بهما اللسان ارتفاعاً واحدة^(١) .

وقال ابن السراج : الإدغام هو : وصلك حرفاً ساكناً بحرف مثله متحرك .
من موضعه من غير حركة تفصل بينهما ولا وقف فيصيران بهما حرفاً واحداً يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة وبشتد الحرف ، ألا ترى أن كل حرف شديد يقوم في العروض والوزن مقام حرفين الأول ساكن^(٢) .

وعرفه الرضى بقوله : وصل حرف ساكن بحرف مثله متحرك ، بلا سكتة على الأول ، بحيث يعتمد بهما على المخرج اعتماداً واحدة قوية^(٣) .

وقال ابن جني : إنما يجب أن يدهم التثنية في مثله حتى ينبر اللسان منهما بقوة واحدة فإذا اختلف الحرفان لم يجوز الإدغام^(٤) وفي الإدغام يسوى بين لفظي الحرفين^(٥) وفي الإدغام يتماثل الحرفان^(٦) .

وبهذا ندرك صحة التعريفات الاصطلاحية بعضها ببعض وصلتها بالمعنى الغوى العام وهو الإدخال والتغطية .

الهدف من الإدغام : بعد الإدغام مظهراً من مظاهر تخفيف النطق فإليك يقتضى تكرار النطق بالحرف فينطق اللسان بالحرف الأول ثم يعود إلى النطق بالحرف المماثل أو المجانس له مرة أخرى وهذا أمر مستقل (ليعود إلى اللفظ

(١) تهذيب القنة نسبة إلى الكيت ٧٨/٨ وانظر لقول المبيد في علم التجويد ص ١٠٤

(٢) الأصول في النحو ٤٠٥/٣ .

(٣) انظر : شرح الشافية لرضي ص ٣٣٩ ، وانظر كتب النحو الأخرى مثله

الإيموني بحاشية الصبان ٣٤٥/٤ ، والحضري على ابن عقيل ٢١٢/٢ .

(٤) النصف ٩١/٢ .

(٥) المصدر السابق ٢٥٣/٢ .

(٦) سر الصناعة ٦٣/١ .

بالمسكّر على اللسان لأنه بمنزلة من يمشى وهو مقيد برفع وجهه مرتين أو ثلاثاً
ويردما في كل مرة إلى الموضع الذى رفعها منه (١).

وند أشار سيبويه إلى أن ممّا (يشغل عليهم أن يستعملوا السنتهم في
موضع واحد ثم يعودوا لإياه فلما صعب عليهم أن يداركوا في موضع واحد
حولا تكون مهلة كرهوه وأدغموا لتكون زفعة واحدة) (٢).

فهم يستثقلون التصغير غاية الاستثقال إذ على اللسان كلفة شديدة في
الرجوع إلى المخرج بعد انتقاله عنه ولهذا لم يصوغوا من الأسماء ولا الأفعال
رباعياً أو خماسياً فيه حرفان أصليان متباينان منفصلان لتقل البناءين ونقل
التقاء المثليين ولا سيما مع أصالتهما فلا ترى رباعياً من الأسماء والأفعال
ولا خماسياً من الأسماء وفيه حرفان كذلك إلا وأحدهما زائد إما للإلحاق
أو لغيره (٣).

ويفسر هذا التخفيف الحادث بالإدغام بأن الحرفين حال الفك يطول
تضمن النطق بهما أكثر من زمن النطق بالحرف المدغم في صاحبه ، فالناسي
أيسر وأقل زمناً وإن كان النطق بالمدغم أطول من النطق بالحرف الواحد
خبر المدغم (٤).

ويقول المحدثون : إن لكل صوت حرفين في أعضاء النطق لإحدهما
تأمامية والثانية خلفية فالأولى خاصة بوضع أعضاء النطق الوضع الملائم
لحدوث الصوت والثانية تعطى وضع الراحة لهذه الأعضاء ، والإدغام يوفّر
الحركة الثانية من الصوت الأول إذا أدغم في الثاني المماثل أو المقارب له

(١) القشيري ٢١٧/١ بتصريف قليل وشرح الفصل ١٣١/١٠ والسبعة لابن مجاهد

ص ١٢٥ .

(٢) الكتاب ٤١٧/٤ بشيء من التصريف .

(٣) شرح الرضى الثانية ص ٣٤١ .

(٤) شرح الثانية للجارودي ٢٣٧/١ .

فتمدر حال الإدغام ثلاث حركات - للصوتين - بدلا من أربع إذ باقى وضع الراحة - الحركة الخلفية - مرة واحدة بدلا من مرتين (١) .

وبهذه المناسبة نعرض لما قيل : هل المدغم يصير حرفا واحدا أو يظل حرفين ؟

كل النصوص السابقة التى عرضناها تذكر أن الحرفين - حال الإدغام - يصيران حرفا واحدا أو كالحرف الواحد وأن اللسان يرتفع بهما ارتفاعا واحدة .

ويصرح بعض القدماء بأن (الحرف المشدد أبدا حرفان من جنس واحد الأول منهما ساكن) (٢) وأن المدغم أبدا حرفان الأول منهما ساكن والثانى متحرك (٣) .

ومع ذلك كلهم يعتقدون أن النطق يخف بالإدغام حتى كأن الحرفين حرف واحد وسلك بذلك الرضى مسلكا يقرب فيه الحرفين ويبالغ فى صلة أحدهما بالآخر إلى حد أن يجعلهما - فى نظره - حرفا واحدا لقوة الصلة الصوتية حال النطق بهما مدغمين فى مكان خروجهما يقول : (والذى أرى أنه ليس الإدغام الإتيان بحرفين ، بل هو الإتيان بحرف واحد مع اعتناء على مخرجه قوى) ، ثم يقول : (يجوز تسكين المدغم اتفاقا إما لأنه يجوز فى الوقف الجمع بين الساكنين - عند من قال هما حرفان - وإما لأنه حرف واحد - هل ما اخترنا - وإن كان كالحرفين الساكنين أولهما من حيث الاعتماد التام) (٤) .

وإذا كان غير الرضى حكموا بأن الحرفين المدغمين يصيران كالحرف الواحد حال النطق ، فإن الرضى حكم بأن الحرف المدغم حرف واحد

General phonetics by Heffner . P : 176 (١)

(٢) شرح المنصل ١٠/٩٩٠ .

(٣) شرح الشافية الرضى ص ٣٣٩ .

الحرفين الساكن أولها ، وهذا يعنى أن الرضى موقفاً يتميز بالتقريب الشديد بين الحرفين ومزجها تماماً .

ونقل عن الخليل قوله : إذا أردت مد الصوت ضعفت الحرف فقلت صل ،^(١) وفي أقصر وأسبكر يقول : هما راء أن أدغمت واحدة في الأخرى والتشديد علامة الإدغام^(٢) .

وربما يفهم من كلام الخليل والرضى زيادة ذهن النطق بالحرف الواحد لإدغام صاحبه فيه وهذا أمر لا يختلف عن نظرية القدماء الآخرين إلى حادثة الإدغام وإطالتها نطق الحرف المدغم ولعل ما أشار إليه الخليل والرضى يؤكد أهمية خاصة الإدغام ومزج الحرفين بحيث لا يفرق بين الخفيف والمشدد إلا الزيادة الزمنية في مدة النطق وأن التشديد مد للحروف الصامتة نظير المد للحروف الصائتة^(٣) .

ورأى بعض المحدثين ذلك فقال : (من الخطأ أن يقال : إنه يوجد ساكنان في أنا (atta) وساكن واحد في أنا (ata)) فالمعاصر المحصورة بين الحركتين في كلتا المجموعتين واحدة : عنصر انقباضى يتبعه عنصر انفجارى ولكن بينما نجد العنصر الانقباضى في (ata) يتبعه العنصر الانفجارى مباشرة نجد في (atta) يتفصل عنه بإسماك يعطيل مدى الإغلاق^(٤) .

وهذا التصور في رأيهم - يرجع إلى طبيعة العملية النطقية ووحدةها فهو صامت طويل يشبه الحركة الطويلة التي هي ضعف الحركة القصيرة^(٥) .

(فالحروف المتعددة وبخاصة المتأخرة - الرخوة - بينها - لها خصائص

(١) البين ١٣/١ . (٢) المصدر السابق ١/٥٤ ، ٥٥ .

(٣) التطور النحوى لبرجستراسر ص ٥٣ وانظر أسس علم اللغة لماريو باي ص ١٤٦ .

(٤) اللغة لفندريس ص ٤٩ .

(٥) المنهج الصوتى للبنية العربية للدكتور عبد الصبور شاهين ص ٢٠٧ .

أبهما امتداد نطقهما أكثر من امتداد نطق الحروف غير المشددة (١).

ونحن لا ننكر - كما ذكرنا - أن الحرف المدغم أطول زمنا من الحرف غير المدغم وذلك ما يعترف به القدماء - أيضا - لكننا نرجح الرأي القائل بأن المشدد حرفان لا حرف واحد على الحقيقة امتد به الصوت والنطق، لأن التقسيم المقطعي يرجح أنهما حرفان لا حرف واحد في مثل شد ومد وقد أشار بعض علماء اللغة والقراءات إلى ذلك حين ذكروا أن المشدد يقوم مقام حرفين في الوزن واللفظ (٢)، وأيد ذلك بعض المحدثين بأن المضعف حرفان يستغنى به عن كتابة الحرف مكررا (٣) ويقسم إلى صامتين من الناحية الصرفية (٤).

ويقول كثيرون: إن الحروف المضعفة يمتد النطق بها فيضاهي مداهما مدى حرفين بسيطين تقرأ بها (٥).

شروط الإدغام

هناك شروط يلزم توافرها لصحة الإدغام هي:

١ - وجود صوتين متجاورين خطأ ولفظا، أو خطأ لا لفظا وهما متماثلان أو متجانسان أو متقاربان، مثل (لنه هو) فتدغم النون في النون والهاء في الهاء للتجاور، وفي نحو (أنا نذير) لا تدغم النون من (أنا) في النون بعدها لفصل الألف بين النونين.

(١) تطور النحوى ص ٥٣.

(٢) التنبيه في علم التجويد الورقة ٣٧ والرعاية لمكي ص ٢١٩ وسراج القارىء البتدى ص ٤٤ والأسول في النحو ٤٠٥/٣.

(٣) نحو وعى لنوى للدكتور مازن المبارك ص ٦٤.

(٤) المنهج الصوتي للبليّة العربية ص ٢٠٧.

(٥) دروس في علم أصوات العربية ص ٢٥.

٢ - ألا يكون التضعيف للإلحاق - في الاسم - كقردد أو في الفعل كجلبل لأن الفرض بالإلحاق الوزن فلا يكسر ذلك الوزن بالإدغام .

٣ - ألا يكون الحرف الأول تاء ضمير ، سواء كان متصلا أو مخاطبا نحو : (كنت ترابا - أفانت تسمع - خلقت طينا) إذ لا يعرف - عند الإدغام - ضمير المتكلم من ضمير المخاطب ، والضمير على حرف واحد يحذف به الإدغام ، وما قبل الضمير ساكن ، والشرط تحرركه حتى لا يجتمع ساكنان حال الإدغام (١) .

٤ - ألا يكون الحرف الأول مشددا وإلا امتنع الإدغام مثل ردد و (رب بما - مس سقر - فتم يمقات ربه - وم بها) لأن المهدد بمرفعين ، ولا يجتمع إدغامان في مكان واحد ، وهذا لا يحدث في اللغة ، فضلا عن عدم وقوعه في القرآن الكريم .

٥ - ألا يكون الحرف الأول منونا مثل (غفور رحيم - سميع عليم - سارب بالنهار) لأن التنوين حاجز قوى بين الحرفين فيمتنع الإدغام .

٦ - ألا يكون الحرف الأول مدا مثل (قالوا وم) و (في يوم) فلا بد من الإظهار ، لئلا يذهب المد بالإدغام .

٧ - ألا يكون أول المتجاوئين أو المتقاربين حرف حلق مثل (فسبحه - فاصفح عنهم) لأن حروف الحلق تأتي الإدغام أو يقل فيها - في أحوال خاصة - والبيان في حروف الحلق أحسن من الإدغام .

٨ - ألا يكون أول المتجاورين هاء سكت مثل (ماليه هلك) ، فإنها لا ندغم لأن الوقف على الهاء منوى .

٩ - أن يتحرك ثاني المتجاورين (المدغم فيه) فإن سكن امتنع الإدغام

مثل : « قال الملأ - فإن ذلتم - أقررتم ، فالإدغام في هذا ونحوه لا يجري في
الأساليب العربية - كما نبه على ذلك علماء اللغة والتجويد - فضلاً عن عدم
وقوعه في القرآن .

١٠ - ألا يؤدي الإدغام إلى الابس ، كإدغام النون الساكنة في الواو أو
الياء في كلمة واحدة مثل : صنوان وقنوان ، ودنيا وبنيان فإذا أدغم الصوتان
التبس هذه الكلمات بمضعف العين ، ولذا منع اللغويون ذلك في اللغة مثل
وتد ووطد وعند وشاة ونماء فإذا أدغمت التاء والطاء والنون في الدال ، وأدغمت
النون في الميم لا يعرف تركيب الكلمة ، هل عين وتد ووطد وعند - حال
الإدغام - دال أو طاء أو غيرهما؟ وعينها ساكنة في الوزن أو متحركة سكنت
للإدغام؟ وهل عين دنماء ، مضعفة أو لا؟ ولذا امتنع الإدغام فيما يؤدي
إلى الابس في هذا ونظائره ، وكذلك مثل شرد وقصص وعدد فلو أدغم فعل
- بفتح الفاء والعين - مع خفته - لا تابس بفعل - ساكن العين فيكثر
الالتباس^(١) .

وعلى هذا يلتقي المتلان والمتجانسان والمتقاربان :
فالمتلان هما : الصوتان المتحدان في المخرج والصفة كالنامين ، والرايين
ونحو ذلك .

والمتجانسان هما : الصوتان المتفقان في المخرج المختلفان في الصفة كالطاء
والطاء والسين والصاد .

والمتقاربان هما : الصوتان اللذان بينهما تقارب في المخرج أو الصفة أو
فيهما كالذال والسين أو العين والدال والراء واللام مع الراء^(٢) .

(١) شرح الشافية لرضي ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

(٢) انحاء فضلاء البشر ص ٢١ وشرح الشاطبية ص ٢٥ وشرح الشافية لرضي

وإذا سكن الأول منهما سميا بالمثلين أو المتجانسين أو المتقاربين الصغير، وإن تحرك الأول والثاني منهما سميا بالمثلين أو المتجانسين أو المتقاربين الكبير، وإن تحرك الأول وسكن الثاني سميت الأنواع الثلاثة بالمطلق.

والموضع الثالث يمتنع منه الإدغام، ليكون الحركة فاصلة بين الحرفين كما أنها لو زالت يلتقي ساكنان وذلك لا يجوز (١).

والأول يجب فيه الإدغام في المتماثلين وبعض المتجانسين والمتقاربين حسب الصور التي اتفق فيها القراء على الإدغام أو اختلفوا فيها والثاني يمتنع لعدم الأوجه في الإدغام الكبير.

ولا يمكن إدغام المتقاربين إلا بعد جعلهما متماثلين إذ لا يمكن إخراج المتقاربين من مخرج واحد لأن لكل صوت مخرجه الخاص فيلزم قلب الحرف المراد إدغامه إلى جنس ما يندغم فيه ليتوصل بذلك إلى الإدغام (٢).

أقسام الإدغام

جمل القراء الإدغام قسمين : صغيرا وكبيرا.

فالصغير هو : ما سكن فيه الحرف الأول.

والكبير هو : ما تحرك فيه الحرف الأول (٣).

وهذا يعني أن ما يسمى بصغيرا يقوم على إدغام حرفين متماثلين أو متماثلين مباشرين، وما يسمى كبيراً يقوم على إدغام حرفين تفصل بينهما حركة،

(١) شرح الشافية للرضي ٢٤٤/٣ - ٢٤٥ وشرح المفصل ١٠/١٢١، ١٢٢.

(٢) شرح الشافية للرضي ٢٣٥/٣ وانظر : علم الأصوات عند سيدييه وندنا لعادة ص ٢٣.

(٣) النشر ١/٧٤، والقول المفيد ص ٩٥ وأنحاف فضلاء البشر ص ٢٢ وشرح الشاطبية ص ٣٥.

ويقع الإدغام - في هذه الحال - بسقوط الحركة أولا - أي بنهاب مقطع من مقاطع الكلمة ثم بإدغام أحد الحرفين في الآخر ، وفي كلتا الحالتين لا يجوز الإدغام إلا إذا كان الحرف الثاني متبوعا بحركة (١) .

ويسمى ابن جني نوعي الإدغام الصغير والكبير بالإدغام الآكبر . يقول : الإدغام في الكلام على ضربين .

أحدهما : أن يلتقي المثلان على الأحكام التي يكون عنها الإدغام فيدغم الأول في الآخر ، والأول من الحرفين في ذلك على ضربين : ساكن ومتحرك ، المدغم الساكن الأصل كطاء قطع وكاف كسر الأولين والمتحرك نحو دال شد ولام معتل .

والآخر : أن يلتقي المتقاربان على الأحكام التي يسوغ معها الإدغام فتقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه فتدغم فيه وذلك مثل ود في اللمعة التميمية وإعشى وإماز وإصهر وإناقل عنه (٢) .

ويقول بعد ذلك : فهذا حديث الإدغام الآكبر (٣) .

وأطلق ابن جني مصطلح : الإدغام الأصغر ، على شيء آخر هو تقريب صوتين من صوت (٤) أو تقريب الحرف من الحرف وإدغامه منه من غير إدغام يكون هناك (٥) .

(١) دروس في علم أصوات العربية للسكانيني ص ٣٩ وسمى هذا النوع من الإدغام كبيرا لتأثيره في إكسان المتحرك قبل إدغامه ولشموه نوعي التثنية والتثنية وقيل : معنى كبيرا السكثرة وقوعه ، إذ الحركة أكثر من السكون ، وقيل : لما فيه من الصموية . انظر النشر ٢٧٤/١ ، ٢٧٥ .

(٣) المصدر السابق ١٤١/٢ .

(٢) الغمام ص ١٣٩/٢ ، ١٤٠ .

(٥) المختص ٢٩/٢ .

(٤) المصدر السابق ٢٢٧/٢ .

أحكام الإدغام الصغير

له حالتان : وجوب الإدغام وجوازه .

الحكم الأول : الوجوب :

يتحقق إذا سكن الأول وتحرك الثاني من المتماثلين وذلك يكون في كلمة واحدة ، كما إذا كانت العين واللام من جنس واحد وتحركت اللام في الفعل الماضي أو المضارع أو الأمر المتصل بألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة أو نون التوكيد .

مثال ذلك : مدا ومدوا ويمدون ويمدين ، ومنه قوله تعالى :
'ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به' (١) .

(١) وقوع التثنية في آخر الكلمة هو الكثير الشائع ولم يبنوا ثلاثياً فاؤه وعينه متماثلان إلا نادراً مثل ددن ويدر بل ضموا حيث يمكنهم الإدغام وذلك بتماثل العين واللام إذا تاءوا لو أدمم في العين وجب إسكانه ولا يبدأ بالساكن .
وجاء ذلك في مزيد الأفعال والأسماء المزيدة الموازنة لها لكثرة التصرف في الفعل قياساً فمن مزيد الفعل الثلاثي ما جاء على وزن فاعل وتفاعل مثل ترقص وتترج وتزول وتثاقل ومضارعه ومن مزيد الرباعي تفاعل مثل تتدحرج ، أما مزيد الثلاثي من الأفعال فالأولى في الماضي الإظهار ويجوز الإدغام مع اجتلاب همزة الوصل في الابتداء وكذلك إذا كانت فاؤه مقارنة لتاء في المخرج نحو اطبرواثال وحال الإدغام في الماضي بدغم المضارع والأسماء والأفعال المتصرفة منه ، وفي المضارع يجوز الإظهار والحذف والإدغام وحال الإدغام لا تجلب همزة الوصل كما في الماضي لثقل المضارع ولا بدغم إلا في المخرج ليسكتفي بحركة ما قبله مثل قال تنزل ، أما في مزيد الرباعي فلا يختلف بالإدغام إذ لو أدمجت لاحتجت إلى همزة الوصل فيؤدي إلى الثقل عند القصد إلى التخفيف والأولى إبقاؤها ويجوز حذف أحدهما (شرح الشافية للرضي ص ٣٤١ - ٣٤٤) .

ويكون في كلمتين متصلتين - ولم يكن أولهما مدا - نحو : اسمع علما ، وما
أنى من الأسماء المشبهة للفعل في كلمة واحدة في الثلاث صب زعم الخليل أنها
فعل - بكسر العين - لأنه تقول : صبيت صبابة ، وكذلك الاسم الثلاثي
المريد فيه يدغم إذا وزن الفعل مثل مستعد ومرد فكل منها على مثال الفعل .

وأصل الإدغام في الأفعال للثقل الحادث فيها ، وفي الأسماء الموازنة
لأفعال لمشاقتها الفعل الثقيل وزنا .

فهذا واجب الإدغام عند جميع العرب المحجازيين والنعميين^(١) وغيرهم ،
فإن سكنت اللام امتنع الإدغام كما في : ضللت^(٢) - قال المألا^(٣) - ظلت .

وكان تقع بعد الباء الساكنة باء متحركة مثل : (فاضرب به)^(٤) ، أو
بعد التاء الساكنة تاء متحركة مثل : (فارجع تجارتهم)^(٥) - (إذا طلعت
تزارر)^(٦) أو تقع بعد الدال الساكنة دال متحركة مثل : (وقد دخلوا
ما لكفر)^(٧) أو بعد الذال الساكنة ذال متحركة مثل : (وذا النون إذ ذهب
مغاضبا)^(٨) .

أو بعد الكاف الساكنة كاف متحركة مثل : (أينما تكونوا يدرككم
الموت)^(٩) ، أو بعد اللام الساكنة لام متحركة مثل : (وقتلها)^(١٠) أو الميم
بعدها ميم كذلك مثل : (وم من)^(١١) أو النون بعدها نون على هذا النحو مثل

(١) الكتاب ٤/ ٤١٧ - ٤١٩ (باب التضييف) .

(٢) سورة الانعام الآية ٥٦ وسورة سبأ الآية ٥٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٠ وغيرها .

(٤) سورة ص الآية ٤٤ . (٥) سورة البقرة الآية ١٩ .

(٦) سورة السجدة الآية ١٧ . (٧) سورة المائدة الآية ٦١ .

(٨) سورة الأنبياء الآية ٨٧ . (٩) سورة النساء الآية ٧٨ .

(١٠) سورة الإسراء الآية ٢٣ . (١١) سورة الزوم الآية ٣ .

وأتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا،^(١) أو هاء بعدها هاء كذلك
في أينما يوجهه لآيات بخير،^(٢).

كما يجب الإدغام في بعض صور المتجانسين والمتقاربين عند القراء ومن
الواجب في ذلك إدغام التاء في الدال في مثل: أثقلت دعوا،^(٣) وإدغام
الدال في التاء كما في قوله تعالى: لقد تاب الله،^(٤) وقد تبين،^(٥) في البقرة
والقصص، ولقد تركنا،^(٦) في العنكبوت والقمر.

وإدغام التاء في الطاء مثل: ودت طائفة،^(٧) وقالت طائفة،^(٨) وهما آمنت
طائفة،^(٩).

وإدغام الدال في الظاء في قوله تعالى: ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم،^(١٠)
وقوله سبحانه: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم،^(١١) وإدغام اللام في الزاء
مثل: وقل رب،^(١٢).

فهذا كله اتفق القراء على إدغامه.

الحكم الثاني الجواز :

ذلك في غير ما هو واجب، فإنه يسمى الإدغام الجواز، لوروده بصور

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) سورة البقرة الآية ٤٨ . | (٢) سورة النحل الآية ٧٦ . |
| (٣) سورة الأعراف الآية ١٨٩ . | (٤) سورة التوبة الآية ١١٧ . |
| (٥) سورة البقرة الآية ٢٥٦ وسورة القصص الآية ٣٨ . | |
| (٦) سورة العنكبوت آية ٢٣٥ وسورة القمر الآية ١٥ . | |
| (٧) سورة آل عمران الآية ٦٩ . | (٨) سورة آل عمران الآية ٧٢ . |
| (٩) سورة الصف الآية ١٤ . | (١٠) سورة الزخرف الآية ٣٩ . |
| (١١) سورة النساء الآية ٦٤ . | |
| (١٢) سورة طه الآية ١١٤ ولقثر ٢/١٩ . | |

مختلفة عند العرب تارة بالإدغام وتارة بفهره (وهو الذى جرت عادة القراء
بذكره فى كتب الخلاف)^(٥) .

ويجرى فى نوعين من الإدغام الصغير .

الأول : بعض الحروف التى تجانست مغارجها ويشتمل فى إدغام حرف
من كلمة فى حروف متعددة من كلمات متفرقة ، وينحصر فى : إذ وقد وتاء
التأنيث وهل وهل .

وفىها يجرى الخلاف فى الإدغام والأظهار بين القراء .

ذال إذ :^(٦) عند ستة أحرف بمجموعة فى (سجن تصد)^(٧) ما يقع بعد
إذ متحركاً .

مع التاء : مثل قوله تعالى (إذ نهر الذين اتبعوا من الذين اتبعوا)^(٨)
(واذنأذن)^(٩) .

مع الجيم : مثل : (إذ جعل)^(١٠) و (إذ جاءكم)^(١١) .

مع الدال : مثل (ولولا إذ دخلت جنتك)^(١٢) و (إذ دخلوا على داود)^(١٣) .

مع السين : مثل : (إذ سمعتموه)^(١٤) .

(١) النشر ٢/٢ .

(٢) يقصد بهذا ما يكون فيه ما بعد إذ متحركاً مما لم يتفق للقراء على إدغام ذال إذ
فيه ، وهناك قسم اتفقوا على إدغامها فيه - ذكرناه فى الواجب - وقسم اتفقوا على
إظهارها فيه وذلك إذا وقع بعدها متحرك من ستة عشر حرفاً يجمعها قوله (ربك
أحق غنى له عو) ، أما ما سكن فيه الحرف بعد إذ فتسكن له ذالها لالتقاء الساكنين
مثل : وإذا استسقى - وإذا ابتلى الخ .

(٣) الدر النثير الورقة ص ٦٤ . (٤) سورة البقرة الآية ١٦٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٦٧ . (٦) سورة المائدة الآية ٢٠ .

(٧) سورة الأحزاب الآية ١١ . (٨) سورة السكهف الآية ٣٩ .

(٩) سورة ص الآية ٢٢ . (١٠) سورة النور الآية ١٢ .

مع الصاد : مثل (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن)^(١) .

مع الزاي : مثل (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم)^(٢) .
أدغم ذلك أبو عمرو وهشام ، وأظهر ما - عندما - نافع وابن كثير وعاصم .
وأبو جعفر ويعقوب ، وأدغموا في التاء والذال غسب حمزة وخلف ، وأدغموا في غير الجيم الكسائي وخلاص .

وهكذا يختلف القراء .

دال قد :^(٣) اختلفوا في إدغامها وإظهارها عن ثمانية أحرف متحركة هي الذال والظاء والصاد والجيم والشين وحروف الصغير^(٤) .
مع الدال (ولقد ذرأنا)^(٥) .

مع الظاء (فقد ظلم)^(٦) - لقد ظلمك^(٧) .

مع الصاد (قد ضلوا ضلالا بعيدا)^(٨) .

مع الجيم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)^(٩) .

مع الشين (قد شفها)^(١٠) .

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٩ . (٢) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٣) يقصد به ما كان ما بعد دال قد متحركاً مما اختلف فيه القراء وهناك قسم اتفقوا على إدغام دال لديه وقسم اتفقوا على إظهاره عنده ، وإذا سكن ما بعد الدال كسرت الدال تخلصاً من إقتناء الساكنين مثل فقد اعتدوا إلخ ، والتفق القراء على إظهار دال قد قبل خمسة عشر حرفاً يجمعها قولك (لقو خير محلك ٤) الذي لتشير الورقة ٦٤ .

(٤) يجمعها أوائل كالت هذا البيت :

شهدت ضحى طباء ساجحات ذكرت زمان جرد صافحات

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٩ . (٦) سورة الطلاق الآية ١ .

(٧) سورة ص الآية ٢٤ . (٨) سورة النساء الآية ١٦٧ .

(٩) سورة التوبة الآية ١٢٨ . (١٠) سورة يوسف الآية ٣٠ .

(٥) - بحلة تكية الله

- مع السين (قد جمع) (١) (ما قد سلف) (٢) .
 مع الزاي (ولقد زيننا السماء الدنيا) (٣) .
 مع الصاد (ولقد صرفنا الناس في هذا القرآن من كل مثل) (٤) .
 فاء التأنيث (٥) :

اختلفوا في إدغامها وإظهارها عند ستة أحرف يجمعها أوائل كلمات هذا البيت :

- مسدد جابر ظهرا ثم زارني مسجدا (٦)
 مع التاء : بعدت ثمود (٧) كذبت ثمود (٨) .
 مع الجيم : نهجت جلودم (٩) - فإذا وجبت جنوبها (١٠) .
 مع الزاي : خبت زدق (١١) .
 مع السين : أنبت سبع سنابل (١٢) - أقلت سبحا (١٣) .
 مع الصاد : حشرت صدورم (١٤) في قراءة غير يعقوب - لمدمت صوامع (١٥) .

- | | |
|---|----------------------------|
| (١) سورة المجادلة الآية ١ | (٢) سورة النساء الآية ٢٣ |
| (٣) سورة الملك الآية ٥ | (٤) الإسراء الآية ٨٩ |
| (٥) يقصد به ما تحرك فيه ما بعد فاء التأنيث مما اختلف فيه القراء ، وما تحرك فيه ما بعد التاء ، فسموا انقلوا على إدغام التاء فيه ، وهو التاء ، والطاء ، والهمال ، وسموا انقلوا على إظهارها عنده وذلك إذا وقع بعدها خمسة عشر حرفا يجمعها قولك : و القم فتم حقه كبيره فإذا سكن ما بعد التاء كسرت التاء فخلصنا من فتقاء الساكنين مثل وقال اليهود إلح . | |
| (٦) البدر النثير الورقة ٦٥ | (٧) سورة هود الآية ٩٥ |
| (٨) سورة الحاقة الآية ٤ | (٩) سورة النساء الآية ٥٦ |
| (١٠) سورة الحج الآية ٣٩ | (١١) سورة الإسراء الآية ٩٧ |
| (١٢) سورة البقرة الآية ٢٦١ | (١٣) سورة الأعراف الآية ٥٧ |
| (١٤) سورة النساء الآية ٩٠ | (١٥) سورة الحج الآية ٤٠ |

مع الظاء : حملت ظهورهما (١) كانت ظالمة (٢) .
 أدغم في الحروف الستة أبو عمرو وحركة والكسائي واختلف بعض
 القراء في الإدغام والإظهار في بعضها .
لام هل وبيل :

اختلفوا في إدغامها وإظهارها عند ثمانية أحرف (٣) هي : التاء والثاء والزاي
 والسين والصاد والطاء والظاء والنون ، منها خمسة تختص بيل وهي الزاي
 والسين والصاد والطاء والظاء ، وواحد يختص بيل وهو التاء وحرقان مشرقان
 فحيمهما معا وهما التاء والنون .
 الخاص بيل :

مع التاء : هل ثوب الكفار قرأ أبو عمرو والكسائي وحركة وابن عيسى
 حثوب فأدغم اللام في التاء (٤) .
 الخاص بيل :

مع الزاي : بيل زين للذين (٥) - بيل زعيم (٦) .
 مع السين : بيل سولت لكم (٧) .
 مع الصاد : بيل ضلوا عنهم (٨) .

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٦ . (٢) سورة الأنبياء الآية ١١ .

(٣) جمعت الحروف الثمانية في أوائل كلمات هذا البيت :

تقول سلمى ضاع طالبوك نأيت هلسا ثم زابوك
 قدر النثر الورقة ٦٦ .

(٤) سورة الطه ٣٦ والكتاب ٢٥٩/٤ وقرأ الجمهور بإظهار لام هل وانظر

٤٤٣/٨ .

(٥) سورة الرعد الآية ٣٣ . (٦) سورة الكهف الآية ٤٨ .

(٧) سورة يوسف الآية ١٨ . (٨) سورة الأحقاف الآية ٢٨ .

مع الطاء : بل طبع (١) .

مع الظاء : بل ظنتم (٢) .

المشرك بينهما :

مع التاء : هل تنقمون منا (٣) هل تعلم (٤) - بل تأنيبهم بفتحة (٥) - بل تؤثرون (٦) .

ومن ذلك قول من أحرم العقيل :

فدع ذا ولكن هتمين متبعا هل ضوء بزق آخر الليل ناصب يريد هل تعين (٧) .

مع النون : هل نحن منظرون (٨) - هل نفيسكم (٩) - بل نفع (١٠) - بل نقذف بالحق على الباطل (١١) .

أدغم اللام منه ما في الأحرف الثمانية الكسائي واختلف الآخرون إدغامه وإظهاره ، وهذا كله فيما كان سكون الحرف الأول فيه بشكوكا أصليا (١٢) وهذا الإدغام جائز عند اللغويين لأن هذه الجروف - هذا الجيم - تخرج من بين الثنايا أو أطرافها وطرف اللسان فتخرجها متقاربة إلى جانب تقاربها في بعض الصفات مما يجعل الإدغام سائقا .

- | | |
|-----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة النساء الآية ١٥٥ | (٢) سورة النع الآية ١٢ |
| (٣) سورة المائدة الآية ٥٩ | (٤) سورة حزم الآية ٦٥ |
| (٥) سورة الأنبياء الآية ٤٠ | (٦) سورة الأهل الآية ١٦ |
| (٧) الكتاب ٤٥٩/٤ | (٨) سورة الشعراء الآية ٢٠٣ |
| (٩) سورة الكهف الآية ١٥٣ | (١٠) سورة البقرة الآية ١٠٧ |
| (١١) سورة الأنبياء الآية ١٨ | |

(١٢) ويلحق بهذا القسم من حيث إنه ساكن الأصل دال الصاد من كم - يص ونونهم العين بعد طبعه في السورتين : انظر الدر الثبر الورقة ٦٣ - (باب الإظهار والإدغام الحروف السواكن) .

والجيم من وسط اللسان متجاورة مع طرفه ، وليس في الأصوات التي تدغم فيها اللام انحراف كاللام ومع ذلك يجوز فيها الإدغام لأنها قريبة من مخرج اللام إذ هي من حروف طرف اللسان^(١) واللام تدغم في النون واليائين أختين لأنه قد امتنع أن يدغم في النون وأدغمت فيه سوى اللام فكانهم يتوحدون من الإدغام فيها^(٢) .

والضاد والظين يجوز إدغام السلام فيهما لاتصال مخرجهما وجاء مع الظين قول طريف بن تميم العنوي :

قول إذا استهلكت مالا للذة فكيفه شيء يكفيك لائق

يريد : هل شيء فأدغم اللام في الظين .

ولكن هذا الإدغام أضعف من سابقه لأن مخرج الضاد من أول حافة اللسان والظين من وسطه^(٣) وفي ذلك بعد من مخرج اللام لا يتكفي معه .

النوع الثاني من الإدغام الصغير عند القراء :

إدغام حرف في حرف من كلمة أو كلمتين حيث وقع ذلك فيما أطلق عليه حروف قربت مخرجها .

وهذا فيما يكون فيه للحرف الأول أصل في التحريك ولكن امتنع العمل في الكلام الذي هو فيه ساكنا لسبب وهذا ما نسميه بالسكون العارض^(٤) .

وجملة الحروف التي تدخل تحت هذا القسم تنحصر في ضربين :

الأول : أن يكون الحرف المدغم والحرف المدغم فيه في كلمة واحدة وذلك : الفاء قبل التاء في قوله تعالى : (أورتتموها)^(٥) - قال بل لبئت^(٦)

(١) الكتاب ٤/ ٤٥٧ ، ٤٥٨ بتصريف . (٢) الكتاب ٤/ ٤٥٦ .

(٣) الكتاب ٤/ ٤٥٨ . (٤) انظر المد الفثير الورقة ٦٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٤٣ (ونودوا أن تلسي الجنيسة أورتتموها بما كنتم يعملون) والخرف الآية ٧٢ (ولك الجنة التي أورتتموها بما كنتم تعملون) .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

مائة هام - وتظنون إن لبتم إلا قليلا - (١) ولبت فينا من عرك سنين (٢) -
أظهر ذلك الحرمان (٣) وعاصم والإظهار حسن لأنه الأصل وأدغم الباقون (٤) -
والذال قبل التاء وهو أصل مطرد .

فالأصل ما جاء من لفظ (أخذتم) (٥) و (اتخذتم) (٦) و (لتخذت) (٧) -
أظهره ابن كثير وحفص .

والكلماتان : فنبهتا (٨) وعذت (٩) أدغمهما أبو عمرو وحمزة والكسائي -
وأظهر الباقون (١٠) .

الثاني : أن يكون الحرف المدغم والحرف المدغم فيه من كلمتين وهو
سبعة أنواع :

١ - الباء قبل الفاء في خمسة مواضع في القرآن منها :

أولها بفسوف (١١) وإن تعجب فعجب قولهم (١٢) أدغم ذلك أبو عمرو
والكسائي وخلاصه ، قال سيبويه : (والباء تدغم في الفاء للتقارب ولأنها
قد صارت الفاء فتويت على ذلك لكثرة الإدغام في حروف الفم) (١٣) .

٢ - الباء قبل الميم في موضعين : يعذب من يشاء (١٤) قرأ عاصم وابن هاشم
برفع الباء فلزم الإظهار على قراءتهما وجزم الباقون فأظهر ورش وأدغم
الباقيون ، ولا خلاف - كما يقول السيرافي - في إدغام الباء في الميم .

(١) سورة الإسراء الآية ٥٢ • (٢) سورة الشعراء الآية ١٨ •

(٣) ابن كثير ونافع •

(٤) التيسير ص ٢٤ وإبراز المائى ١٤٧ - ١٤٧ والنشر ١٦/٢ ، ١٧ •

(٥) سورة الأنفال الآية ٦٨ • (٦) سورة البقرة الآية ٨٠ •

(٧) سورة الكهف الآية ٧٧ • (٨) سورة طه الآية ٦٩ •

(٩) سورة المؤمنون الآية ٢٧ ، وسورة المخان الآ ٢٠ •

(١٠) انظر النشر ١٦/٢ • (١١) سورة النساء الآية ٧٤ •

(١٢) سورة الزهد الآية • (١٣) السكتاب ٤/٤٤٨ والتيسير ٤٣ •

(١٤) سورة البقرة الآية ٢٨٤ •

ومثله : (يافى أركب معنا)^(١) أظهره ورش وابن عامر وخلف وأدغمه الباقون .

٣ - الفاء قبل الباء مثل قوله تعالى : (تخسف بهم)^(٢) أدغمه السكسائي وأظهره الباقون .

والإظهار في ذلك أحسن لأنها منفصلان ولأن التنفيس الذي في الفاء يقذهب مع الإدغام ولأن الفاء تخرج من الفقتين إلى الفم ولها اتصال بالثنايا العليا فخالفت الباء في المخرج بعض المخالفة^(٣) .

وتوصف قراءة الإدغام بالشذوذ - في نظر النحاة - لأن الفاء لا تدغم في الباء لأنها من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا وانحدرت إلى الفم وقد قاربت من الثنايا مخرج الفاء وإنما أصل الإدغام في حروف الفم واللسان لأنها أكثر الحروف وكان أن الناء لا تدغم في الباء فلا تدغم الفاء فيها^(٤) ،

٤ - اللام قبل الذال في ستة مواضع في القرآن منها قوله تعالى :
(ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه)^(٥) ، (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء)^(٦) .

أدغم الجميع أبو الحارث الليث بن خالد البغدادي من أصحاب الكسائي^(٧)
وأظهر الباقون .

٥ - الثاء قبل الذال مثل : يلهث ذلك^(٨) أظهره الحريريان وهشام بخلاف من قالون وأدغم الباقون .

-
- | | |
|---|------------------------------|
| (١) سورة هود الآية ٤٢ . | (٢) سورة سبأ الآية ٩ . |
| (٣) السكشاف ١٥٥/١ بتصرف . | (٤) السكتاب ٤٤٨/٤ . |
| (٥) سورة البقرة الآية ٢٣١ . | (٦) سورة آل عمران الآية ٣٠ . |
| (٧) ت ٤٢٠ هـ وانظر إدغام القراء ص ٥٣ حيث روى أبو الحارث ذلك عن السكسائي . | (٨) سورة الأعراف الآية ١٧٦ . |

• قال مكي : وعلة الإغام هي أن الدال أقوى من التاء كثيرا لأن الدال مجهورة والتاء مهموسة رخوة فحسن انتقال الأول إلى القوة بالإدغام والإظهار حسن لأنه الأصل (١) .

٦ - الدال قبل التاء : (ومن رد ثواب) في موضعين في آل عمران (٢) أظهر الحرمين وعاصم وأدغم الباقون .

٧ - الراء قبل اللام وهو كثير في القرآن كقوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك) (٣) ، (ويسر لي) (٤) . (ينشر لكم) (٥) .
اختلف فيه القراء ، (واصطبر لعبادته) (٦) .

ويرى القويون أن الراء لا تدغم في اللام لأنها مكررة وهي تنفخ إذا كان منها غيرها فكمروا أن يحذفوا بها فتدغم مع ما ليس يتنفخ في الغم مغلما ولا يكرر مثل اجعل لبطنة والعكس جائز بأن تدغم اللام في الراء لأنك لا تغل بها كما كنت غللا بها لو أدغمتها فيها ولتقاربها مثل : ه رأيت (٧) .

٨ - ومن ذلك : الدال قبل الدال مثل (كيمص ذكر) (٨) أدغمها أبو عمرو وابن عاصم وحمة والكسائي وخلف وقرأ الباقون بالإظهار .

٩ - والنون قبل الواو مثل (يس والقرآن) أدغمها الكسائي ويعقوب

(١) الكشف ١/ ١٥٧ والنشر ٢/ ١٥ ونجيب التيسير ٤٤ وانظر شرح المفصل ١٢١/١٥ .

(٢) الآية ١٤٥ . (٣) سورة القلم الآية ٤٨ .

(٤) سورة طه الآية ٢٦ . (٥) سورة الكهف الآية ١٦ .

(٦) سورة مريم الآية ٦٥ وإدغام اللام في الراء جائز حسن مثل : اشتل رجة لقرب المخرجين ولأن في الراء انحرافا نحو اللام قليلا وقاربها في طرف اللسان ، وهذا الشدة وجري الصوت سواء ، وليس بينهما فاصل من الخارج الأخرى . انظر الكتاب ٤/ ٤٤٨ ، ٤/ ٤٥٢ .

(٧) الكتاب ٤/ ٤٤٨ . (٨) سورة مريم الآية ١ .

وخلاف ومضام وقطع بالإدغام عند جمهور العراقيين وقرأ بعضهم بالإظهار^(١).

وكذلك النون قبل الياء مثل (فن يعمل)^(٢).

وتدغم النون في الواو بغنة وبلاغته لأن غرض الواو في رأى القدماء من الشفتين وهى أقرب إلى الحروف التى تدغم فيها النون وهى اللام والراء فاحتملت الإدغام كما احتملت اللام والراء.

وتدغم النون مع الياء بغنة وبلاغته لأن الياء أخت الواو ولقرب غرض الياء إلى غرض الراء من طرف اللسان ولذا نرى الألف يبدل الراء أو اللام ياء لقربها منها^(٣).

وسكون الحرف المدغم هنا عارض لما ورد هنا من صيغ الفعل الماضى أصله البناء هل الفتح وإنما سكن لان اتصال ضمير الرفع به ، وما جاء من صيغ المضارع أصله التحريك بالرفع وسكن أحيانا للجزم ، وما جاء بصيغة الأمر وإن كان مبنيا على السكون هو فى حكم المغير من لفظ المضارع الذى أصله الرفع^(٤) فهو فى حكم المتحرك ثم غير فلزمه السكون.

وليس ذال إذ ودال قد وقاء التانيث ولا م هل وبل ما أصله الحركة ولا فى حكم ما أصله الحركة.

(١) سورة يس الآية ١٩، وانظر النشر ١٧/٢ ، ١٨ وقد جاء هذا النوع من الإدغام فى الحروف التى قربت خارجها فى غير ماورد من ذلك .

(٢) سورة التوبة الآية ٧ ،

(٣) انظر النشر ١٢/١ .

(٤) السكتاب ٤/٥٣ .

أحكام الإدغام الكبير

إذا كان الحرفان المتجاوران محركين فإن القراء يظهرن دون
إدغام ماعدا أباه عمرو بن العلاء فقد اشتهر عنه الإدغام في هذه الحال ، فهو
المسروب إليه والمختص به من الأئمة العشرة .

وليس الإدغام الوارد عنه على سبيل الوجوب بل على سبيل الجواز
فالإدغام رواية من رواياته ووجه من وجوه قراءاته فن شاء قرأ به ومن
شاء قرأ بالإظهار (١) .

وليس أبو عمرو منفردا به بل قد ورد أيضا عن الحسن البصري
وابن عيسى والأعمش ومطبعة بن مصرف وعيسى بن عمرو ومسلمة بن عبد الله
الفهري ومسلمة بن محارب السدوسي ومقرب الحضري وغيرهم (٢) .

(١) وأولئك الكتب وبعض أئمة النوازل في ذكره طرقا منهم من لم يذكره البتة
كأبي مجاهد في السبعة ومكي في التنصير ومنهم من ذكره في أحد الوجهين عن أبي عمرو
بشكله من جميع طرقه وهم جمهور المراقبين وغيرهم ومنهم من ذكره عن الدوري
والسوسي مما كافي مشر الطبري في تلخيصه ومنهم من خص به السوسي وحده
كصاحب التيسير ومنهم من ذكره عن غيرهما من أصحاب البزدي وشجاع عن أبي عمرو
كصاحب التجريد ، وأبى عن أبي عمرو مع الإدغام وعدمه ثلاث طرق :

الأولى : الإظهار مع الإبدال - وهو أحد الأوجه الثلاثة عند جمهور المراقبين
عن أبي عمرو بشكله وأحد الوجهين عن السوسي في التجريد والتذكار .

الثانية : الإدغام مع الإبدال وهو الذي في جميع كتب أصحاب الإدغام من روايتي
الدوري والسوسي جميعا وهو الذي عن السوسي في التذكرة وقال أبو الفتح فارس بن
أحمد : وكان أبو عمرو يرى بهذه القراءة الماهر النحوي الذي عرف وجوه القراءات
ولغات العرب .

الثالثة : الإظهار مع الحذف وهو الأصل عن أبي عمرو ولثابت عنه عن جميع الطرق
وقراءة العامة من أصحابه وهو الوجه الثاني عن السوسي في التجريد . النشر ١/٢٧٦ .
(٢) النشر ١/١٥٧ .

ووافق بعضهم أبا عمرو في مواضع كعمزة فقد وافق أبا عمرو على إدغام التاء في أربعة مواضع واختلف من خلاد عنه وإن قرأ الداني عليه وواقفه يعقوب على إدغام الياء في موضع واحد وكذلك رويس على إدغام أربعة أحرف بلا خلاف (١).

ويعرف هذا الإدغام لدى علماء الأداء باسم (الإدغام الكبير) وبأق في المتماثلين والمتجانسين والمتقاربين في كلمة وفي كلمتين .

المعلان :

في كلمة واحدة (٢) :

يأتى المثلان حقيقة ومجازا .

فالخليفة كالباءين في (سببا) (٣) والرايين في (بردة) (٤) والقافين في (يشافق) (٥) والصادين في (الفصص) (٦) .

فالمثلان في جميع ذلك في كلمة واحدة والمكرر حرفان مما هي الكلمة ولاهما . والمجاز مثل الباءين في (قد جئتكم بينة من ربكم) (٧) والسكاين في (سلسلكم) (٨) و (مناسلكم) (٩) والنونين في (يعبدون) (١٠) والهاين في (وجهه) (١١) فالأول من المثلين هو لام الكلمة ومن ثَمَّها والثاني ضد يرتصل

(١) النشر ١/ ٣٠٠ .

(٢) يشترط نبا يقع في كلمة أن يكون المدغم فيه أكثر من حرف فإذا كان واحدا امتنع الإدغام مثل (الذي خلقتك - نحن نرزقك) .

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| (٣) سورة البكهف الآية ٨٤ . | (٤) سورة عبس الآية ١٦ . |
| (٥) سورة الأنفال الآية ١٣ . | (٦) سورة الأعراف الآية ١٧٦ . |
| (٧) سورة الأعراف الآية ١٠٥ . | (٨) سورة المدثر الآية ٤٣ . |
| (٩) سورة البقرة الآية ٢٠٠ . | (١٠) سورة النور الآية ٥٥ . |
| (١١) سورة البقرة الآية ١١٢ . | |

به ولو فصلته منه لم تحتل الكلمة : مناسك - سلك - يعبدون - وجه - بيته
والباء الأولى في (بيته) حرف جر اتصلت بفاء الكلمة فأشبهت المثليين في كلمة ،
أدغم أبو عمرو من ذلك : مناسككم - في البقرة و - ماسلككم - في
المدثر ، ووجه الإدغام في ذلك : أنه استقل اجتماع المثليين مع ما في ذلك من
الطول بلحاق ضمير الجمع وتحريك ما قبل الكاف الأولى ، واختلفت الروايات
هذه في إدغام بشركم في فاطر^(١) وأظهر ما عداها نحو : جباههم^(٢)
- وجوههم^(٣) - أتحاجونا وشبهه^(٤) وروى أن ما التقت فيه الهاء أن هو
ما يدغم فيه أبو عمرو ويظهر^(٥) (١) .

وقبل : إن رواية الإدغام في المثليين جاءت في تسعة وعشرين موضعاً في
القرآن الكريم وما التقي فيه المثان في كلمة غيرها فلا إدغام فيه نحو :
يعبدوني - يدوتنا^(٦) ودا ما اقتتلوا^(٧) ويقتلان^(٨) لعدم الرواية ولأن
الإظهار هو الأصل^(٩) .

المثان في كلمتين :

يأتي ذلك في حرفين : أحدهما في آخر الكلمة الأولى والثاني في أول الكلمة
التي بعدها وهما متحركان - على شرط هذا النوع من الإدغام - مثل : الرحيم
مالك^(١٠) - يشفع عنده^(١١) .

- (١) الآية ١٤ وانظر الدر النثير الورقة ١٥ (باب بيان مسذهب أبي عمرو في
الإدغام الكبير) .
(٢) سورة التوبة الآية ٣٥ .
(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٠٦ - ١٠٧ وانظر المجمع المهرس ٢/ ٨٢٨ - ٨٢٩ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٢٩ . وانظر النشر ١/ ٨٢٠ .
(٥) سورة التناجي الآية ٦ .
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .
(٧) سورة القصص الآية ١٥ .
(٨) لأنه أكثر ولأنه يحدث حال الوقف وإخراج كل حرف وحده . الكشف
٣٥٨ .

- (٩) سورة الفاتحة الآية ٣ ، ٤ .
(١٠) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

والواقع أن بعض الحروف لقي مثله في القرآن وبعضها لم يلق مثله فيه .
فالضرب الذي لم يلق مثله من الحروف في كلتيه في القرآن عشرة
أحرف هي :

الطاء والذال والصاد المهملات والحاء والضاد والظا والظاء والذال
المجتمعات والجيم والزاى (١) .

والضرب الذي لقي مثله من كلتيه باقي الحروف وهي ثمانية عشر حرفاً
يجمعها قولك : حسن فذلك أثبتته غير قوم :

١ - الهمزة : التقي المثلان فيها في القرآن في مواضع كثيرة - مع اتفاقهما
في الحركات واختلافهما - نحو : جاء أجلهم (٢) - وهؤلاء إن كنتم (٣) - وأولياء
أولئك (٤) - شهداء إذ حضر (٥) - من وعاء أخيه (٦) - وكلما جاء أما (٧)
والسفهاء (٨) - وإشياء إلى (٩) ولم يقدم شيء من ذلك .

وبعض العرب والقراء يحققهما معاً وهؤلاء يجهلون ثقل اجتماعهما
وبعضهم استعملهما فعدل إلى تسهيل إحداهما وإلى ذلك عدل أبو عمرو بقرائه
التسهيل .

ويقول سيدي : ليس من كلام العرب أن تلتقي الهمزتان فتحققان
فإن كائناً متحركتين ففهم من يخفف الأولى دون الثانية لكونها آخر الكلمة
والأواخر محل التغيير وهو قول أبي عمرو (١٠) .

وقال ابن جني : الهمزة المخففة هي التي تسمى همزة بين بين ومعنى قول

(١) المد النثر الورقة ١٦ وانظر النثر ١/ ٢٨٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤ . (٣) سورة البقرة الآية ٣١ .

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٢ . (٥) سورة البقرة الآية ١٣٣ .

(٦) سورة يوسف الآية ٧٦ . (٧) سورة المؤمنون الآية ٤٤ .

(٨) سورة البقرة الآية ١٣ . (٩) سورة البقرة الآية ١٤٢ .

(١٠) شرح الشافية ص ٢٧٣ .

سبويه بين بين أى بين الهمزة وبين الحرف الذى منه حركتها إن كانت مفتوحة فهى بين الهمزة والالف وإن كانت مكسورة فهى بين الهمزة والياء. وإن كانت مضمومة فهى بين الهمزة والواو إلا أنها ليس لها تمكن الهمزة المحقة وهى مع ما ذكرنا من أمرها فى ضعفها وقلة تمكنها بركة المحقة ولا تنفع الهمزة المخففة أولاً أبداً، (١).

وإذا سهل أبو عمرو إحدى الهمزتين حذف الأولى إن كانتا متفتحتين، الحركة فيندفع بذلك اجتراح المثليين ويسهل الثانية بين الهمزة والحرف الذى منه حركتها ويستغنى بذلك عن الإدغام.

الباء فى الباء : تدغمان فى سبعة وخمسين موضعاً منها : الكتاب بأيديهم (١) - ونزل الكتاب بالحق (٢) - لذهب بسمعهم (٣) - وأزلنا إليك الكتاب بالحق (٤) - العذاب بما (٥) - نصيب برحمتنا من قضاء (٦) - فيصيب بها من يشاء (٧) - ودعاهم هذا بما فوق العذاب بما كانوا يفسدون (٨) - إلا أن كذب بها (٩) - إلى غير ذلك .

التاء فى التاء :

تدغم التاء فى معلها كيف ما كانت حركتها سواء سكت ما قبلها أو تحرك وسواء كانت متصلة بالاسم للتأنيث ، وتبدل فى الوصف ها أو لم تكن كذلك ما لم تكن ضمير المتكلم أو المخاطب متصلاً كان الضمير أو منفصلاً ، وجملة ما ورد فى القرآن من التاءات المذكورة أربعة عشر موضعاً منها

- | | |
|-----------------------------|--|
| (١) سر الصناعة ١/ ٥٣ ، ٥٤ . | (٢) سورة البقرة الآية ٧٩ . |
| (٣) سورة البقرة الآية ١٧٦ . | (٤) سورة البقرة الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ١٧٦ . |
| (٥) سورة النساء الآية ١٠٥ . | (٦) سورة الأنفال الآية ٣٥ . |
| (٧) سورة يوسف الآية ٥٦ . | (٨) سورة الزمر الآية ١٣ . |
| (٩) سورة النحل الآية ٨٨ . | (١٠) سورة الإسراء الآية ٥٩ . |

في المائة، فأصابكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة، (١) وفي الأنعام
والموت توفته، (٢) وفي الأنعام والشوكة تكون، (٣) وفي يوسف
والآخرة توفى، (٤) وفي مريم الشجرة تساقط، (٥) وفي المؤمنون يوم
القيامة تبعثون، (٦).

الشاء في الشاء :

جملته في القرآن ثلاثة مواضع هي :

حيث تفتنوم (٧)، وثالث ثلاثة (٨).

الحاء في الحاء :

ليس في القرآن إلا موضعان : أحدهما في البقرة «قعدة الشكاح حتى
يبلغ الكتاب أجله» (٩)، والثاني في الكهف : «لا أبرج حتى» (١٠).

الراء في الراء :

سواء تحرك ما قبلها أو سكن تدغم عند أبي عمرو وجماعته في القرآن خمسة
وثلاثون موضعاً منها :

في البقرة : شهر رمضان (١١) وفي المائة : أو تحرير رقبة (١٢) وفي
النحل : أو يأتي أمر ربك (١٣) وفي الزمر : بنور ربها (١٤) وفي غافر : لننصر
رسلاًنا (١٥) إلخ ...

السين في السين :

جملتها في القرآن ثلاثة مواضع :

| | | |
|---|---------------|---------------|
| (١) الآية ١٠٦ | (٢) الآية ٦١ | (٣) الآية ٧٠ |
| (٤) الآية ١٠١ | (٥) الآية ٢٥ | (٦) الآية ١٦ |
| (٧) سورة البقرة الآية ١٩١ والنساء الآية ١٩١ | | |
| (٨) سورة المائدة الآية ٧٣ | (٩) الآية ٢٣٥ | (١٠) الآية ٦٠ |
| (١١) الآية ١٨٥ | (١٢) الآية ٨٩ | (١٣) الآية ٣٣ |
| (١٤) الآية ٦٩ | (١٥) الآية ٥١ | |

ففي الحجج : الناس سكارى ، (١) - « الناس سواء » (٢) وفي سورة نوح
« الشمس سراجا » (٣) :

العين في العين :

جملته في القرآن ثمانية عشر موضعا منها في البقرة : يشفع عند (٤) ،
وفي آل عمران : « لا أضيع عمل عامل » (٥) وفي المائدة : « تطالع على
خائنة » (٦) - وفي الأعراف « ينزع هنما » (٧) - « قد وقع عليكم » (٨) -
ويطبع على قلوبهم (٩) - ولما وقع عليهم (١٠) - وفي يونس : تطبع على (١١)
وفي الكهف : تطالع على قوم (١٢) وفي الحجج : يدافع عز (١٣) - أن تقع على
الأرض (١٤) - وفي القيامة : تجمع عظامه (١٥) .

العين في العين :

مثلها في آل عمران خاصة « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » (١٦)
وهو من المعتل أى الذى التقي فيه مثلان بسبب حذف وقع في نهاية السكامة
الأولى فاصل (يبتغ) يبتغى فحذفت لام الفعل حال الجرم ما لتلقى مثلان .

الفاء في الفاء :

وجملته في القرآن ثلاثة وعشرون موضعا ، منها في البقرة (وما اختلف
فيه) (١٧) - ويونس : خلافت في الأرض (١٨) وإبراهيم : كيف فعلنا بهم (١٩)

| | | |
|-------------|---------------|-------------|
| • الآية ٢ | • الآية ٢٥ | • الآية ٢ |
| • الآية ٢٥٥ | • الآية ١٩٥ | • الآية ١٣ |
| • الآية ٢٧ | • الآية ٧١ | • الآية ١٠٠ |
| • الآية ١٣٤ | • الآية ٧٤ | • الآية ٩٠ |
| • الآية ٣٨ | • الآية ٦٥ | • الآية ٩ |
| • الآية ٨٥ | • الآية ٢٨١/١ | • الآية ٢١ |
| • الآية ٢٠٣ | • الآية ١٤ | • الآية ٤٥ |

والإمراء : كيف فضلنا (١) - والكهف : إلى الكهف فقالوا (٢) - والأحزاب :
ونلف في قلوبهم (٣) والمطففين : تعرف في وجوههم (٤) .

القاف في القاف :

جملته في القرآن خمسة مواضع : منها في الأعراف ، والعاليات من الرق
قل ، (٥) - فلما أفاق قال سبحانه (٦) - وفي التوبة : ينفق قربات ، (٧) -
ويونس : حتى إذا أدركه الفرق قال (٨) - والجن : خطر انق قددا (٩) .

الكاف في الكاف :

سواء تحرك ما قبلها أو سكن تدغم عند أبي عمرو وجملته في القرآن ستة
وثلاثون موضعا ، منها في سورة آل عمران : واذكر ربك كثيرا (١٠)
ويونس : كذلك كذب (١١) والنحل : أمر ربك كذلك (١٢) والحج : عند
ربك كالف (١٣) والعنكبوت : إلا امرأتك كانت (١٤) .

اللام في اللام :

جملته في القرآن مائتا حرف وخمسة عشر حرفا سوى المختلف فيه مثل :
يحل لكم (١٥) ومن المتفق عليه في سورة إبراهيم : ويضرب الله الأمثال
للناس (١٦) ، والحجر : قال لم أكن لأسجد (١٧) والروم : لا تبديل لحاق أقد (١٨)

(١) الآية ٢١ • (٢) الآية ١٠ •

(٣) الآية ١٢٦ وسورة الحشر الآية ٢ • (٤) الآية ٢٤ •

(٥) الآية ٣٢ • (٦) الآية ١٤٣ • (٧) الآية ٩٩ •

(٨) الآية ٩٠ • (٩) الآية ٢١ • (١٠) الآية ٤١ •

(١١) الآية ٣٠٩ • (١٢) الآية ٣٣ • (١٣) الآية ٤٧ •

(١٤) الآية ٣٣ •

(١٥) سورة يوسف الآية ٩ • فكل موضع لتي فيه مثلان بسبب حذف حرف من

آخر الكلمة الأولى يجوز فيه عند أهل الأداء عن السوسى الوجهان الإظهار والإدغام .

(١٦) الآية ٢٥ • (١٧) الآية ٢٣ • (١٨) الآية ٣٠ •

وقاطر : فلا مرسل له^(١) ، والقتال : سول لهم^(٢) . والداريات : إذ قيل لهم^(٣) ، والمجادلة : إذا قيل لكم تفسحوا^(٤) .

الميم في الميم :

يدغمان مطلقا - عند أبي عمرو - وجملته في القرآن مائة وتسعة وثلاثون موضعا منها في أم القرآن : الرحيم مالك^(٥) والأنفال : اليوم من الناس^(٦) ، ويونس : فن أظلم من^(٧) وإبراهيم : تعلم ما نحن^(٨) ، ولقمان : ويعلم ما في الأرحام^(٩) والأحزاب : يعلم ما في قلوبكم^(١٠) .

النون في النون :

تمحرك ما قبلها أو سكن تدغم عند أبي عمرو وجملته في القرآن سبعون موضعا منها في الأنفال : الفتنان فكس^(١١) وإبراهيم : ويستحيون فسك^(١٢) ، والإمراء : نحن نرزقهم^(١٣) وطه : نحن نرذلك^(١٤) والأنبياء : لا يستطيعون نصر أنفسهم^(١٥) والحجج : كان فكسر^(١٦) والذخرف : الرحمن تقيض^(١٧) ، والرحمن : فيهما حينان فضاختان^(١٨) .

الهاء في الهاء :

يدغمها أبو عمرو في مثلها إذا كانت من كلتيه سواء كانت الأولى ضمير أو غير ضمير وسواء كان قبلها حرف متحرك أو ساكن وإن كانت في الإضمار موصولة حذف الصلة ثم أسكنها في جميع ذلك وأدغمها نحو : فاقه

| | | |
|--|------------------|-----------------|
| • الآية ٢ | • الآية ٢٥ (٢) | • الآية ٤٣ (٣) |
| • الآية ١١ | • الآية ٣، ٤ (٥) | • الآية ٤٨ (٦) |
| • الآية ١٧ | • الآية ٣٨ (٨) | • الآية ٣٤ (٩) |
| • الآية ٥٩ | • الآية ٤٨ (١١) | • الآية ٦ (١٢) |
| • الآية ٣١ | • الآية ١٤ (١٤) | • الآية ٤٣ (١٥) |
| (١٦) الآية ٤٤ وسورة سبأ الآية ٤٥ وسورة طاهر الآية ٢٦ . | | |
| (١٧) الآية ٣٦ | (١٨) الآية ٦٦ . | |

هو الولي (١) - غنى رحمة الله (٢) - أخاه هرون (٣) وجملته في القرآن أربعة وتسعون حرفاً : منها في النساء : ف اكلوه هنينا (٤) والأنعام : قل إن هدى الله هو الهدى (٥) - والأعراف : لأخيه هرون (٦) ويونس : سبحانه هو الغنى (٧) وهوود : غيره هو أنشأكم (٨) والمؤمنون : وأخاه هرون (٩) والنمل : كأنه هو (١٠) - والمنكحوت : إنه هو المربز (١١) - والصفات : وجعلنا ذريته هم الباقين (١٢) وق : وقال قرينه هذا (١٣) .

الواو في الواو :

جملته في القرآن ثمانية عشر حرفاً وهي على ضربين :
أحدهما : أن يسكن ما قبلها فلا خلاف في إدغامه ، وذلك في خمسة مواضع منها في الأنعام : وهو وليهم (١٤) - والأعراف : خذ العفو وأمر (١٥) .

والضرب الثاني : أن يضم ما قبلها وهو باقي العدد منها في البقرة : هو والذين آمنوا معاً (١٦) وآل عمران : هو والملائكة (١٧) والأنعام : إلا هو وإن يسكن (١٨) - والأعراف هو وقبيله (١٩) - ويونس : إلا هو وإن يردك (٢٠) والقصاص : هو وجنوده (٢١) .

- | | |
|---------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة الشورى الآية ٩ . | (٢) سورة آل عمران الآية ١٠٣ . |
| (٣) سورة مريم الآية ٥٣ . | (٤) الآية ٤ . |
| (٥) الآية ٧١ . | (٦) الآية ١٤٢ . |
| (٨) الآية ٦١ . | (٩) الآية ٤٥ . |
| (١١) الآية ٢٦ . | (١٢) الآية ٧٧ . |
| (١٤) الآية ٣٧ . | (١٥) الآية ١٩٩ . |
| (١٦) الآية ٢٤٩ . | (١٧) الآية ١٨ . |
| (١٩) الآية ١٧ . | (٢٠) الآية ٢٧ . |
| (٢١) الآية ١٠٧ . | (٢٢) الآية ٣٩ . |

وفي هذا الضرب منع بعضهم - كابن مجاهد وأصحابه - الإدغام ، لأن الواو الأولى تسكن حال الإدغام فتصغر مداً وإدغام حرف المد - واوا أو ياء - ممتنع ، وروى الإدغام عن أبي عمرو وابن شنيوز في ذلك الضرب نصاً ، لأن الواو هنا ليست مداً في نفسها والسكون حارص للإدغام فلا يعتمد به ، ومثل ذلك الياء المفتوحة المكسور ما قبلها .

الياء في الياء :

تدغم في مثلها سواء سكن ما قبلها أو تحرك وجملة في القرآن ثمانية .
مواضع منها : أن يأتي يوم^(١) - ومن خرى يومئذ^(٢) - والبخى يعظكم^(٣) .
نودي ياموسى^(٤) - فبى يومئذ^(٥) واللائى يأسن^(٦) .

المتقاربان والمتجانسان :

في كلمة واحدة :

لم يدغم إلا القاف والكاف إذا تحرك ما قبل القاف وكان بعد الكاف
ميم نحو : خلقكم^(٧) - رزقكم^(٨) - صدقكم^(٩) - واثقكم^(١٠) - سبقكم^(١١) .
ولا ماضى غيرهن .

-
- (١) سورة البقرة الآية ٢٥٤ وسورة إبراهيم الآية ٣١ وسورة الروم الآية ٤٣
وسورة الشورى الآية ٤٧ .
(٢) سورة هود الآية ٩٦ .
(٣) سورة النحل الآية ٩٠ .
(٤) سورة طه الآية ١١ .
(٥) سورة الحاقة الآية ١٦ .
(٦) سورة الطلاق الآية ٤ .
(٧) سورة البقرة الآية ٢١ وسورة الأنعام الآية ٢ وسورة النساء الآية ١ وسورة
الأعراف الآية ١٧٩ وسورة النحل الآية ٧٠ وسورة الشعراء الآية ١٨٤ وغيرها
(الروم - طاهر - الصافات - الرمر - غافر - فصلت - التينان - نوح) .
(٨) سورة المائدة الآية ٧٨ ، وسورة الأنعام الآية ١٤٣ ، وسورة الأنفال الآية
٢٦ الخ .

- (٩) سورة آل عمران الآية ١٥٢ . (١٠) سورة المائدة الآية ٧ .
(١١) سورة الأعراف الآية ٨٠ وسورة التيسير الآية ٢٧ .

ونحو (يرزقكم (١) - بخلفكم (٢) - فيفرقكم (٣)) ولا مضارع غيرهن
وجملة ذلك ثمانية وما تكرر منه سبعة وثلاثون حرفاً وهي تسع كلمات
تكرر بعضها .

ولما اشترط هذان الشرطان لأن الكلمة تطول بالميم وتنقل بالحركة
فيحسن التخفيف بالإدغام^(٤) والذي أوجب التقارب بين القاف والكاف
اشتراكهما في الشدة وانصال مخرجيهما ، قال سيبويه :
ولما أدغمت العرب لقرب المخرجين وأنها من حروف اللسان وتنفقان
في الشدة^(٥) .

واختلف فيها إذا كان بعدهما نون جمع في موضع واحد : (طلق.كن)
في التحريم فروى بالإظهار عن أبي عمرو وكاروى عنه بالإدغام ، واختار
الداني الإدغام لأنه قد اجتمع في الكلمة ثقلان ثقل الجمع ، وثقل التأنيث
فوجب أن يخفف بالإدغام^(٦) .
المتقاربان والمتجانسان في كلتيه :

أدغم من ذلك ستة عشر حرفاً جمعت في قولهم (سنشد حجبتك بذل رض
قثم) بشرط انتفاء اللواضع المتقدمة^(٧) .

الباء : تدغم في الميم في قوله تعالى : (يعذب من يشاء) فقط وذلك في خمسة
مواضع في آل عمران والمائدة والعنكبوت والفتح^(٨) . وذلك موافقة لما

(١) سورة يونس الآية ٣١ وسورة النمل الآية ٦٤ وسورة سبأ الآية ٢٤ وسورة
طاطر الآية ٢ وسورة الملك الآية ٢١ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦ . (٣) سورة الإسراء الآية ٦٩ .

(٤) النشر ٢٨٦/١ والمدر النثير الورقة ٢٥ .

(٥) الكتاب ٣٥٢/٤ . (٦) النشر ٢٨٦/١ .

(٧) انظر ص ٥٦ وما بعدها فيما سبق من هذا البحث .

(٨) سورة آل عمران الآية ١٢٩ ، وسورة المائدة الآيتين ١٨ ، ٤٠ ، وسورة
العنكبوت الآية ٢١ ، وسورة الفتح الآية ١٤ .

جاور ما هو : (برحم من) و (يغفر لمن) وأظهر ما بعد ذلك نحو : (ضرب مثل) (١) (سنكتب ما يقول) (٢) لفقد المجاور وهذا بلا خلاف .

التاء تدغم في عشرة أحرف هي :

الثاء : إذا رأيت ثم (٣) - وما كنت ثا وبيا (٤) .

والجيم : دخلت جنتك (٥) - فأكثر جدنا (٦) .

والذال : السينات ذلك (٧) - والآخرة ذلك (٨) .

والزاي : بالآخرة زيننا (٩) - قالوا جرات وجرا (١٠) .

والسين : الصالحات سيجمل لهم (١١) - قد أوتيت سؤلك (١٢) .

أنت لا إله إلا أنت سبحانه (١٣) .

والضين : لقد جئت شيئا فأكبر (١٤) - الساعة شيء (١٥) بأربعة شهاد (١٦) .

والصاد : والمصافات صفا (١٧) - والملائكة صفا (١٨) .

والضاد : في موضع واحد ، والمعاديات ضبعا (١٩) .

والطاء : بيت طائفة (٢٠) وأقم الصلاة طرفي النهار (٢١) - ومما أولاه

المصالحات طوبى (٢٢) - لمن خلقت طينا (٢٣) .

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة الحج الآية ٧٣ . | (٢) سورة مريم الآية ٧٩ . |
| (٣) سورة الإنسان الآية ٢٠ . | (٤) سورة القصص الآية ٤٥ . |
| (٥) سورة الكهف الآية ٣٩ . | (٦) سورة هود الآية ٣٢ . |
| (٧) سورة هود الآية ١١٤ . | (٨) سورة الحج الآية ١٢ . |
| (٩) سورة النحل الآية ٤ . | (١٠) سورة الصافات الآية ٢ . |
| (١١) سورة مريم الآية ٩٦ . | (١٢) سورة طه الآية ٣٦ . |
| (١٣) سورة الأنبياء الآية ٨٧ . | (١٤) سورة الكهف الآيتين ١٧ ، ١٨ . |
| (١٥) سورة الحج الآية ١ . | (١٦) سورة النور الآية ٤ . |
| (١٧) سورة الصافات الآية ١ . | (١٨) سورة النبأ الآية ٣٨ . |
| (١٩) سورة المعاديات الآية ١ . | (٢٠) سورة النساء الآية ٨١ . |
| (٢١) سورة هود الآية ١١٤ . | (٢٢) سورة الرعد الآية ٢٩ . |
| (٢٣) سورة الإسراء الآية ٨١ . | |

والطاء: الملائكة ظالمى أنفسهم^(١).

والثاء تدغم فى خمسة أحرف هى :

الثاء : حيث تؤسرون^(٢) - الحديث تعجبون^(٣) - ثلاثة رابعهم^(٤) وعليها : ابنت تلك وأخت تلك وثلاثة دراهم .

قال ميبويه :- عند حديثه من ثلاثة دراهم - تدغم الثاء من ثلاثة فى الهاء إذا صارت تاء والبيان فيه جيد^(٥) .

وقال ابن جنى :- عند حديثه من قراءة ابن محيصن (ثلاث رابعهم كلهم) بإدغام تاء ثلاثة فى الهاء بعدها: الثاء لقرب عجزها من الثاء تدغم فيها كقولك: ابنت تلك ، وأخت تلك ، وجاز الإدغام وإن كان قبل الأول ساكن لأنه ألف فصار كشابة ودابة ولم يدغمها فيها إلا ابن محيصن وحده^(٦) .

والثاء متفقة مع الثاء فى معظم الصفات وهى : الهمس والاستفال والافتتاح والإسمات وتختلفان فى الجهر مع التقارب فى المخرج (فلما كانت الثاء أخت الثاء فى الهمس وتجاورتا فى المخرج أرادوا أن يكون العمل من وجه واحد فقلبوها تاء وأدغموها فى الثاء بعدها ليسكون الصوت نوحا واحدا^(٧)) ويتحقق إدغام الثاء فى الثاء بعد انتقال عجز الثاء الذى هو طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا إلى مخرج الثاء وهو طرفه مع أصول الثنايا العليا بحيث لا يسمح للهواء بالمرور لتعسير شديدة مثام. بعد أن كانت رخوة وبذلك يتحد الصوتان فى المخرج والصفة ومثلها تماما : ابنت تلك وأخت تلك ففى كل منهما قلبت الثاء تاء وأدغمت فيها على النحو السابق .

والذال فى حرف واحد : الحرف ذلك^(٨) .

(١) سورة النعام الآية ٩٧ ، وسورة النحل الآية ٢٨ .

(٢) سورة الحجر الآية ٦٥ . (٣) سورة النجم الآية ٥٩ .

(٤) سورة السجدة الآية ٢٢ . (٥) الكتاب ٤/٤٦٤ .

(٦) الملتصق ٢/٢٦٠ . (٧) سر الصناعة ١/١٨٩ .

(٨) سورة آل عمران الآية ١٤ .

والشين : وورث ساليان^(١) - حيث سكنتم^(٢) - الحديث سانسدر جهم^(٣) .

والشين : حيث شتتا^(٤) - حيث شتتم^(٥) .

والضاد : في موضع واحد : حديث ضيف^(٦) .

والجيم تدغم في موضعين :

في الثاء : ذى المعارج تعرج^(٧) .

والشين : (أخرج شطاه^(٨)) واختلف في إظهاره وإدغامه^(٩) ، والإدغام جائز لأنهما من مخرج واحد هما من حروف وسط اللسان .

والحاء تدغم في العين في حرف واحد : فن زحرح عن النار^(١٠) ، قال سيديويه : ولم تدغم الحاء في العين في قولك : امدح حرفه لأن الحاء قد يفرون إليها إذا وقعت الهاء مع العين وهي مثلها في الخمس والرخاوة مع قرب المخرجين فأجريت مجرى الميم مع الباء ولم تقو العين على الحاء إذ كانت هذه قصتها ومما من المخرج الثاني للحاق وليست حروف الحلق بأصل الإدغام وليكنك لو قلبت العين حاء فقلت في (امدح حرفه) : (امدح حرفه) جاز^(١١) .

وقال السيرافي : روى عن أبي عمرو في إدغام الحاء في العين روايتان :

(١) سورة النمل الآية ١٦ . (٢) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٣) سورة القلم الآية ٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٣٥ ، وسورة الأعراف الآية ١٩ .

(٥) سورة البقرة الآية ٥٨ ، وسورة الأعراف الآية ١٦١ .

(٦) سورة القاريات الآية ٢٤ . (٧) سورة للمارج الآيتين ٤ ، ٢ .

(٨) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٩) لكن الشين لا تدغم في الجيم لأن الشين استطال مخرجها فزحزحتها وفيها

نفس فلا تدغم في الجيم حتى لا يضيع ذلك في مثل افرش جبة وقد تدغم الجيم فيها كما

في الآية ومثله في اللغة قولك : أخرج شيتا ، الكتاب ٤/٤٤٩ ، ٤٥٢ .

(١٠) سورة آل عمران الآية ١٨٥ . (١١) الكتاب ٤/٤٥١ .

إحداهما : إدغامها في العين وروى البيهقي عنه أنه لم يكن يدغم الحاء في العين إلا في قوله تعالى في سورة آل عمران : فن زحزح عن النار .
والرواية الأخرى : ما رواه البيهقي عن أبي عمرو قال : من العرب من يدغم الحاء في العين قال : وكان أبو عمرو لا يرى ذلك وهذا أصح (٥) .
وقيل : لأنه أدغم في (فن زحزح عن النار) وأظهر فيما عدا هذا الموضع مهمل : (فلا جناح عليهما) (٦) - (المسيح عيسى) (٧) - (ذبح على) (٨) .
وإدغام الحاء في العين ليس بقياس بل مقصور على السماع (٩) .
والدال تدغم في عشرة أحرف :
التاء : المساجد تلك (١٠) - من الصيد فناله (١١) .
الثاء : يرد ثواب (١٢) - لمن نريد ثم (١٣) .
الجيم : دواد جالوت (١٤) - دار الخلد جزاء (١٥) .
الذال : من بعد ذلك (١٦) - والقلائد ذلك (١٧) - كهبص ذكر رحمت ربك عبده زكريا (١٨) .

-
- (١) إدغام للقراء السيرافي ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) سورة البقرة الآيات ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٤٥ .
(٤) سورة المائدة الآية ٣ .
(٥) للشعر ٢٩٠ / ٢٩١ ، وقال ابن الجزري : « روى إدغامه عامة أهل الأداء وبه قرأ الداني » وروى إظهاره جمهور المراتيين والوجهان صحيحان مأخوذ بهما ، وانظر الحديث عن إدغام حروف الحلق ص ٢٤١ .
(٦) سورة البقرة الآية ١٨٧ .
(٧) سورة المائدة الآية ٩٤ .
(٨) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .
(٩) سورة الإسراء الآية ١٨ .
(١٠) سورة البقرة الآية ٢٥١ .
(١١) سورة فصلت الآية ٢٨ .
(١٢) سورة البقرة الآية ٥٢ .
(١٣) سورة المائدة الآية ٩٧ .
(١٤) سورة مريم الآية ١٦٤ .

الزأى : تريد زينة الحياة الدنيا^(١) - يكاد زيتها يعضى^(٢) .
 السنين : فى الأصفاذ سز ايلهم^(٣) - كيد ساحر^(٤) - هدد سنين^(٥) .
 الشين : شهد شاهد^(٦) .
 الصاد : نفقد صوااع الملك^(٧) - فى المهد صيبا^(٨) .
 الضاد : من بعد ضراء^(٩) - من بعد ضعف^(١٠) .
 الظاء : يريد ظلمبا^(١١) - من بعد ظلمة^(١٢) .
 والذال تدغم فى :
 السين : فأتخذ سبيله^(١٣) .
 والصاد : ما اتخذ صاحبة^(١٤) .
 والراء تدغم فى اللام^(١٥) : أظهر لكم^(١٦) - ليغفر لك^(١٧) .
 فإن سكن ما قبلها وتحركت هى بضمة أو كسرة أدخمت وعاجا . من ذلك
 (المصير لا يكلف)^(١٨) - النهار لا يات^(١٩) .

-
- (١) سورة الكهف الآية ٢٨ .
 (٢) سورة النور الآية ٢٥ .
 (٣) سورة إبراهيم الآية ٤٩ ، ٥٠ .
 (٤) سورة طه الآية ٩٩ .
 (٥) سورة المؤمنون الآية ١١٢ .
 (٦) سورة يوسف الآية ٢٦ .
 (٧) سورة يوسف الآية ٧٢ .
 (٨) سورة مريم الآية ٢٩ .
 (٩) سورة فصلت الآية ٥٥ .
 (١٠) سورة الروم الآية ٥٤ .
 (١١) سورة آل عمران الآية ١٠٨ ، وسورة غافر الآية ٣١ .
 (١٢) سورة المائدة الآية ٣٩ .
 (١٣) سورة الكهف الآية ٦١ .
 (١٤) سورة الجن الآية ٣ .
 (١٥) هذا فى الإدغام الكبير فيما تقدمت فيه قراء .
 (١٦) سورة هود الآية ٨٧ .
 (١٧) سورة الفتح الآية ٢ .
 (١٨) سورة البقرة الآيتين ٢٨٥ ، ٢٨٦ .
 (١٩) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

وأجمعوا على إظهارها إذا فتحت وسكن ما قبلها (الخبر لتركبوها) (١) و (البحر لتأكلوا) (٢) و (الخبر لعلكم) (٣) .

ويختلف موقف اللغويين من هذا الإدغام عن موقف القراء فعلى حين ورد ذلك الإدغام في القراءات الصحيحة نرى اللغويين لا يميزونه .

قال ابن جني : (واعلم أن الراي لما فيها من التكرير لا يجوز إدغامها فيما يليها من الحروف لأن إدغامها في غيرها يسلبها ما فيها من الوفور والتكرير فأما قراءة أبي عمرو : (يغفر لكم) (٤) بإدغام الراء في اللام فمدفوع عندنا وغير معروف عند أصحابنا ، إنما هو شيء رواه القراء ولا قوة له في القياس) (٥) .
وعليه قال أبو السعود عند قوله تعالى (فيغفر لمن يشاء) (٦) إدغام الراء في اللام لحن (٧) قال الدمياطي : وأدغم الراء في اللام السوسي والدورسي بخلافه وهو من الإدغام الصغير (٨) .

وعلى ذلك رأينا اللغويين يختلف موقفهم عما ورد في صحيح القراءات ، ولعلنا الأصل أن القراءة إذا صحت اعتدت أصلاً يقاس عليها وتجري عليها القواعد .
وعكس ذلك صحيح من إدغام اللام في الراء مثل : هرايت (٩) لأن الراء أقرب الحروف إلى اللام وأشبهها بها فضاوتها الحرفين اللذين يكونان من مخرج واحد إذ كانت اللام ليس حرف أشبه به منها ولا أقرب ، وإن لم تدغم فقلت هل رأيت فهي لغة لأهل الحجاز وهي مربية جائزة (١٠) .

-
- | | |
|---|---------------------------|
| (١) سورة النحل الآية ٨ . | (٢) سورة النحل الآية ١٤ . |
| (٣) سورة الحج الآية ٧٧ . | |
| (٤) سورة الأحزاب الآية ٧١ وسورة الحديد الآية ٢٨ وسورة الصف الآية ٦٣ . | |
| (٥) سورة نوح الآية ٤ . | |
| (٦) سورة البقرة الآية ٢٠٩/١ وانظر الكتاب ٤/٤٤٨ . | |
| (٧) سورة البقرة الآية ٢٨٤ . | (٨) أبو السعود ١/٢٨٣ . |
| (٩) الإنعاف ١/٤٦١ . | (١٠) الكتاب ٤/٤٤٨ . |
| (١٠) الكتاب ٤/٥٥٧ ، وانظر من ٧٢ من هذا البحث . | |

والسين : تدغم في الزاى فى موضع واحد فى قوله تعالى (وإذا النفوس زوجت)^(١) لاغير .

وفى الشين : (واشتعل الرأس شيبا)^(٢) وقد اختلف فيه ، وأجمعوا على إظهار : (لا يظلم الناس شيئا)^(٣) .

والشين : تدغم فى السين فى موضع واحد (إلى ذى العرش سبيلا)^(٤) لاغير واختلف فيه وفى إدغامه وروى إظهاره سائر أصحاب الإدغام عن أبى عمرو^(٥) .

والضاد تدغم فى الشين فى موضع واحد : (لبعض شأنهم)^(٦) فى الزور لاغير واختلف فيه^(٧) .

قال سيبويه : إن الضاد لا تدغم فى الهين لأن لكل منهما صفة ليست فى الأخرى فالضاد من صفاتها : الاستطالة والشين من صفاتها : التفشى . فكل منهما لها حاجز^(٨) وقد أدغمت فى هذه القراءة الصحيحة مخالفة للقاعدة المشهورة .

والقاف : تدغم فى الكاف إذا تحرك ما قبلها : (ينفق كيف)^(٩) . فإن سكن ما قبلها لم تدغم نحو (وفوق كل ذى علم عليم)^(١٠) .

والكاف : تدغم إذا تحرك ما قبلها فى القاف (ونقدس لك قال)^(١١) فإن سكن ما قبلها لم تدغم نحو : (إليك قال)^(١٢) (يحزنك فوطم)^(١٣) (تركوك غائما)^(١٤) .

(١) سورة التكاوير الآية ٧ . (٢) سورة مريم الآية ٤ .

(٣) سورة يونس الآية ٤٤ . (٤) سورة الإسراء الآية ٤٢ .

(٥) النشر ١/٢٩٣ والتيسير ص ٢٣ . (٦) الآية ٧٢ .

(٧) أدغمها أبو عمرو ، انظر النشر ١/٢٩٣ والتيسير ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٨) الكتاب ٤/٤٦٦ .

(٩) سورة المائدة الآية ٦٤ . (١٠) سورة يوسف الآية ٧٦ .

(١١) سورة البقرة الآية ٣٠ . (١٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦ .

(١٣) سورة يس الآية ٧٦ . (١٤) سورة الجمعة الآية ١١ .

واللام^(١): تدغم إذا تحرك ما قبلها في الراء بأى حركة تحركت هي نحو: (رسل ربك)^(٢) - (كنزل ربيع)^(٣) - (أزل بك)^(٤)، فإن سكن ما قبلها أدغمها، مضمومة كانت أو مكسورة نحو: (يقول ربنا)^(٥) - (سبيل ربك)^(٦)، فإن انفتحت بعد الساكن لم تدغم نحو: (فصصوا رسول ربهم)^(٧) إلا لام قال فإنها تدغم حيث وقعت لكثرة ورودها نحو: (قال رب)^(٨) - (قال ربكم)^(٩) - (قال رجل)^(١٠) - (قال رجلان)^(١١).

واليم تسكن عند الباء إذا تحرك ما قبلها تخفيفاً لترا إلى الحركات فتخفى إذ ذك بغنة نحو (يحكم بينهم)^(١٢) - بأعلم بالشاكرين^(١٣) - صرهم بها^(١٤) هذا على مذهب أن عمرو في الإدغام، فإن سكن ما قبلها أجمعوا على ترك ذلك إلا ما روى من الإخفاء بعد حرف المد أو اللين نحو: (الشهر الحرام بالشهر الحرام)^(١٥) (اليوم بمجالات)^(١٦) وقد عبر بعض المتقدمين عن هذه الإخفاء بالإدغام والصواب أن الإخفاء غير الإدغام.

-
- (١) هذا لما تقدمت فيه اللام في الإدغام الكبير.
- (٢) سورة هود الآية ٨١.
- (٣) سورة آل عمران الآية ١١٧.
- (٤) سورة النحل الآية ٢٤.
- (٥) سورة البقرة الآيتين ٢٠٠، ٢٠١.
- (٦) سورة النحل الآية ١٢٥.
- (٧) سورة الحاقة الآية ١٠.
- (٨) سورة المائدة الآية ٢٤ وسورة الحجر الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٩ وسورة القصص.
- (٩) سورة طار الآية ٦٠.
- (١٠) سورة طار الآية ٢٨.
- (١١) سورة المائدة الآية ٢٣.
- (١٢) سورة البقرة الآية ١١٣.
- (١٣) سورة الأنعام الآية ٥٣.
- (١٤) سورة البقرة الآية ١٩٤.
- (١٥) سورة البقرة الآية ٢٤٩.

الميم الساكنة - لها حالات :

- ١ - الميم تدغم بالفتحة عند ميم مثلها وذلك في كل ميم مشددة نحو : دمر^(١) وميمصر^(٢) - محالة^(٣) - طسم^(٤) - ألم^(٥) - وم^(٦) - أم من أسس^(٧) .
- ٢ - تحذف عند الباء على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني وغيره من المحققين وهو مذهب أبي بكر بن مجاهد وغيره وهو الذي عليه أهل الأداء بمصر والشام والأندلس وسائر البلاد العربية وذلك نحو : ومن يعتصم بالله^(٨) - يوم م بارزون^(٩) - بهمهم^(١٠) للإجماع على إخفائها عند القلب في مثل : أقيمتهم^(١١) - من بعد^(١٢) .

ويرى جماعة كآبي الحسن أحمد بن المنادى وغيره إظهار الميم الساكنة عند الباء إظهار تاماً وهو اختيار مكي القيسى وغيره وهو الذي عليه أهل الأداء بالعراق وسائر البلاد الشرقية وحكى إجماع القراء عليه وتظهر عند باقي الأحرف مثل : الحمد وأنعمت^(١٣) ولا سيما إذا أتى بعدها فاء أو واو مثل : سم فيها^(١٤) - عليهم ولا^(١٥) ، والوجهان صحيحان^(١٦) مأخوذ بهما إلا أن الإخفاء أولى للإجماع على إخفائها عند القلب وعلى إخفائها في المتحركة في مذهب أبي عمرو بالإدغام^(١٧) .

-
- (١) سورة محمد (عليه الصلاة والسلام) الآية ١٠ .
 - (٢) سورة طهر الآية ١١ .
 - (٣) سورة المسد الآية ٤ .
 - (٤) سورة القصص الآية ١ .
 - (٥) سورة النكبات والروم ولقمان والمسجدة الآية ١ .
 - (٦) سورة يوسف الآية ٢٤ .
 - (٧) سورة التوبة الآية ١٠٩ .
 - (٨) سورة آل عمران الآية ١٠١ .
 - (٩) سورة طهر الآية ١٦ .
 - (١٠) سورة العاديات الآية ١١ .
 - (١١) سورة البقرة الآية ٣٣ .
 - (١٢) سورة البقرة الآية ٢٧ وغيرها .
 - (١٣) سورة البقرة الآية ٢٥ وغيرها .
 - (١٤) سورة الفاتحة الآية ٧ .
 - (١٥) سورة البقرة الآية ٢٧ .
 - (١٦) حال وقوع الميم قبل الباء .
 - (١٧) الشعر ١/٢٢٢ .

قال اللغويون : الميم لا تدغم في الباء لأن الميم هي الحرف الذي يفرون إليه من النون حين تقترن بالباء مثل العنيد ومن بدا لك ولذا لا تغير الميم إذا وليها الباء^(١) ، وإدغام الباء في الميم صحيح كما في اصحب مطرا نقول اصحمطرا .

والنون تدغم في الراء واللام إذا تحرك ما قبلها في الراء : (وإذا تأذن ربك)^(٢) . - (خراثن رحمة)^(٣) .

وفي اللام : (لن تؤمن لك)^(٤) - (تبين له)^(٥) - (زين للذين)^(٦) .
فإن سكن ما قبلها لم تدغم إلا في كلمة (نحن) حيث وقعت وجملة عشرة مواضع مثل : ونحن له مسلمون - في البقرة وآل عمران^(٧) - ونحن له عابدون^(٨) - ونحن له غاصسون^(٩) وفي الأعراف : فلانحن لك^(١٠) - وفي المؤمنون : وما نحن له^(١١) ، وعطروا لذلك بتعليلات منها : نقل الضمة ولزوم حركتها وامتناها من الانتقال من الضم إلى غيره أو لتكرار النون وكثرة ورودها . وهذا جميع ما أدغمه أبو عمرو من الحروف للشركة^(١٢) .

-
- (١) الكتاب ٤ / ٤٤٧ . (٢) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .
(٣) سورة الإسراء الآية ١٠٠ وسورة ص الآية ٩ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٩٠ . (٥) سورة التوبة الآية ١١٤ .
(٦) سورة البقرة الآية ٢١٢ .
(٧) سورة البقرة الآية ١٢٣ ، ١٣٦ وسورة آل عمران الآية ٨٤ .
(٨) سورة البقرة الآية ١٢٨ . (٩) سورة البقرة الآية ١٣٩ .
(١٠) الآية ١٣٢ . (١١) الآية ٣٨ .
(١٢) للشر ١ / ٢٨٦ - ٢٩٦ .

الإدغام في حروف العربية

الحروف نون :

١ - ما يوجد فيه إدغام المثلين ولا يصح فيه إدغام المتقاربين .

٢ - ما يصح فيه إدغام المثلين والمتقاربين .

فن النوع الأول : الهمزة فأمرها دأثر بين التحقيق والتخفيف بالإبدال والحذف وبين بين (أى بينها وبين حرف حركتها أو حرف حركتها ما قبلها) وبين بين تكون بين الهمزة والواو - إن كانت مضمومة - وبينها وبين الألف - إن كانت مفتوحة - وبينها وبين الياء - إن كانت مكسورة - وبعضهم يجعلها بينها وبين حرف حركتها ما قبلها فى مثل : سئل ومستهزئون وفى بدء الكلمة تخفيف بالحذف نحو (قد أفلح المؤمنون) والطلب مثل : أثنا ونحوه ، وفى بدء الكلمة ووسطها وآخرها لها أحوال فى التخفيف معروفة فى فن التصريف ، ولكن وجد منها إدغام المثلين إذا وقعت الهمزة عينا للكلمة مثل : سأل وسؤال جمع سائل ويلزم الإدغام بتضعيفها لتسكون بلفظ واحد أما فى غير وقوعها عينا ففيها التخفيف المشار إليه دون الإدغام .

قال الرضى : وإن سكنت الأولى وتحركت الثانية فإن كان ذلك فى صيغة موضوعة على التضعيف كسأل وسؤال وجب الإدغام بمحافظته على وضع الصيغة ولا يكون ذلك إلا إذا اتصلت الأولى بالفاء وذلك أن الهمزة ثقيلة ولا سيما ما ضعف منها فإذا وليت الأولى أول الكلمة خفت وأما فى غير ذلك - فلا يجوز (١) ولم ترد العين حمزة فى القرآن .

والألف لا تدغم فى الألف كذلك ولا تدغم فيما يقاربها كالهاء لأن الإدغام يقتضى تحريكها وهى لا تقبل الحركة وكذلك شأن مقاربها ، إذن الإدغام هو الإتيان بحرفين ساكن فتحرك والألف لا يكون متحركاً (٢) .

(١) شرح الشافية ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٢) شرح الشافية ص ٢٤٠ وهذا إذا التقى الدان كافى نحو السماء والبناء إذا ولت عليها بالاسكان .

ويقتضى ذلك تغييرهما فيصبحان غير ألفين فإذا التقت ألفان لا يمكن تحريك أحدهما وإذا التقت مع خلافا فلا يمكن إدغامها فيه لأن ذلك يقتضى قلبها .

قال سيبويه : (الألف لا تدغم في الهاء ولا فيا مقاربه لأن الألف لا تدغم في الألف لأنهما لو فعل ذلك بهما فأجرينا مجرى الدالين والتاءين تغيرتا فكانتا غير ألفين فلما لم يكن ذلك في الألفين لم يكن فيها مع المتقاربة فهي نحو من الحمزة في هذا فلم يكن فيهما الإدغام كما لم يكن في الهمزتين ^(١) .

والياء لا تدغم كذلك ولا الواو مع شيء من الحروف المقاربة لأن فيهما ليناً ومداً فلا يقوى عليهما ما ليس فيه مد ولا لين من الحروف كالباء والجيم إذ إدغام ما ليس فيه مد ولا لين فيما فيه مد ولا لين يخرج الآخر عن طبيعته وحق إذا لم تجانسا الحركة فهما أشباه أصوات اللين في مثل رأيت قاضى جابر ورأيت دلو مالك ورأيت غلامى جابر فلا تدغم في هذه الياء الجيم وإن كانت لا تحرك لأنك تدخل اللين في غير ما يكون فيه اللين والمد أبعد شيء من الإدغام .
والفروع الذى يقبل إدغام المثليين وإدغام المتقاربين هو باقى الحروف
فإدغام المثليين نحو ^(٢) : أكرم عمداً وهو عام في باقى الحروف .

وإدغام المتقاربين له ثلاثة أقسام :

الأول : يدغم في مقاربه ولا يدغم مقاربه فيه .

وهو : الهاء والعين والياء مجمعها قولك (بهه) .

الهاء والعين : تدغمان في الحاء والحاء لا تدغم في العين ولا في الطاء إلا بعد أن تبدل العين والطاء حاء .

الباء : تدغم في الفاء والميم ولا تدغمان فيها ^(٣) .

(١) الكتاب ٤/٤٤٦ وشرح المنيل ١٠/١٣٦ .

(٢) الكتاب ٤/٤٤٧ .

(٣) انظر ص ٧٠ ، ٧١ وانظر أمثلة ما يأتي أيضاً متفرقة في هذا البحث .

(٧ - مجلة كلية اللغة)

الثاني : يدغم مقاربه فيه ولا يدغم هو في مقاربه وهو ستة أحرف يجمعها قولك (شرف محض) ولم يذكر سيبويه بينها الحاء والضاد^(١) .

الحاء : يدغم فيها الهاء والعين .

العين : يدغم فيه الجيم والطاء والذال والتاء والظاء والذال والشاء واللام .

الضاد : يدغم فيه سبعة أحرف هي : الطاء والتاء والذال والظاء والذال والشاء واللام .

الراء : يدغم فيه اللام والنون .

الفاء : يدغم فيها الباء .

الميم : يدغم فيها الباء والنون .

الثالث : الذي يدغم في مقاربه ويدغم مقاربه فيه وهو باقي الحروف وهي ثمانية عشر حرفا يجمعها قولك :

غان ذكوت خاط غن غيث قص

الإدغام في حروف الخلق

أصل الإدغام في حروف الفم ، وحروف الخلق ليست أصلا للإدغام في كلمة واحدة وجاء تضعيف الحاء في مثل : دح ومح ، ولهذا كان تضعيف الحاء نحو فه وكه السكران والعين نحو دح وكع قليلا جدا ولم يدغم بعضها في بعض في كلمتين - أيضا - في الأغلب وجاء الإدغام في كلمتين قليلا^(٢) ، وهي لا تدغم في غيرها ولكن يلتقي بعضها مع بعض على سبيل الإدغام والإظهار . والقاعدة : أنه لا يدغم الأدنى مخرجا في الأعلى لأن الأدنى أخف والأبعد أثقل فأنزلها في الخلق أنقلها ، فأنقلها الهمزة ثم الهاء ثم العين ثم الحاء ثم الغين ثم الخاء وقياس إدغام الأنزل (يعني الأبعد في الخلق) في الأعلى (يعني الأدنى إلى الفم) بقلب الأول إلى الثاني قياس مطرد غير منكر .

(٢) شرح الشافية ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(١) الكتاب ٤/٤٤٧ .

ولا يدغم حرف حلق في نظيره عما هو أدخل منه مخرجا وما حدث من ذلك بعد شاذاً أو قليلاً .

١ - الهاء مع الحاء :

إذا التقت الهاء مع الحاء مع تقدم الهاء مثل : اجبه حملاً - وجه حجتك جاز الاظهار والادغام والبيان أحسن لاختلاف المخرجين والادغام عربي حسن لقرب المخرجين ولأنهما صوqان مهموسان رخوان فقد اجتمع فيهما قرب المخرجين والهمس .

فإذا تأخرت الهاء لا يجوز إدغام الحاء في الهاء لأن ما كان أقرب إلى حروف الهم كان أقوى على الإدغام كما في امدح حملاً واذهب هذا (١) .

وقد تدغم الحاء في الهاء بعد قلب الهاء حاء فيقال : امد حملاً واذهب حملاً ، على خلاف الأصل ، لأنه قلب الثاني إلى الأول ولأن الهاء أدخل من الحاء والادغام لا يدغم في الأبعد . وقد أدغم الحاء في الهاء بعد قلب الهاء حاء .

قال الرضى : فالهاء في الحاء وإنما كان القياس قلب الأول إلى الثاني بدون العكس لأن الإدغام تغيير الحرف الأول بإصاله إلى الثاني وجعله معه كحرف واحد فلما كان لا بد للأول من التغيير بعد صيرورة المتقاربين . مثلهن ابتدأت بتغييره بالقلب (٢) .

ولقيت الهاء الحاء في القرآن الكريم مثل (لأنه حكيم) (٣) ومن أحسن من الله حكماً (٤) وأهل حاضرى المسجد الحرام (٥) - وجاهدوا فى الله حتى جهاده (٦) ، ولم يقرأ بإدغام شىء منه فى القرآن .

(١) الكتاب ٤/٤٤٩ وشرح الفصل ١٠/١٣٦ .

(٢) شرح الثانية ص ٣٥٦ .

(٣) سورة لقمان آية ٥٠ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٣٦ .

(٥) سورة الحج آية ٧٨ .

(٦) سورة البقرة آية ١٩٦ .

٢ - الهاء مع العين :

لا تدغم الهاء في العين سواء تقدمت الهاء على العين أو تأخرت عنها لأن كل واحدة مستقلة لنزولها في الحلق فكيف بهما مجتمعتين مع تنافرهما ؟ والمخرج مختلف فالهاء من المخرج الأول والعين من المخرج الثاني ولكن يمكن الإدغام بتحويل الهاء حاء والعين حاء ثم تدغم الحاء في الحاء لأن الأقرب إلى الفم لا يدغم في الذي قبله فيبدل مكانها أشبه الحرفين بها ثم يدغم فيه وهو الحاء الأخف منهما لأنه أدنى منهما في الحلق ولا يجوز هنا قلب الأول إلى الثاني ولا قلب الثاني إلى الأول فلبسا حاء، فالتقاء الحاءين أخف من التقاء العينين أو الهاءين والمهموس أخف من المجهور وذلك مثل أجبه عقية وأمدح هلالا والبيان أحسن قال سيبويه :

وإن التقاء الحاءين أخف في الكلام من التقاء العينين ألا ترى أن التقاءهما في باب وددت أكثر والمهموس أخف من المجهور فبكل هذا يباعد العين من الإدغام إذ كانت هي والهاء من حروف الحلق ومثل ذلك : أجبه حقة في الإدغام والبيان وإذا أردت الإدغام حولت العين حاء ثم أدغمت الهاء فيها فصارنا حاءين ولأن الأقرب إلى الفم لا يدغم في الذي قبله كيلا يكون الإدغام في الذي فوقه ولكن ليسكون في الذي هو من مخرجه والبيان أحسن (١).

وعما قالت العرب تصديقا لهذا في الإدغام قول بني تميم : محم يريدون : معهم ومحاولا يريدون : مع هؤلاء (٢) ومثله : دحا محأى : دحها معها (٣) وعليها قراءة : ألم أحد إليكم بأبي آدم (٤).

(١) الكتاب ٤/ ٤٥٠ .

(٢) الكتاب ٤/ ٤٥٠ .

(٣) الكشف ٣/ ٢٦٠ .

(٤) سورة يس الآية ٦٠ ، والكشف ٣/ ٢٩٠ .

وقال الرضي : (وعم في معهم ضعيف كان القياس الأول) أي قلب الأول إلى الثاني . أن يقال مهم بقلب العين هاء وقياس المعارض - وهو كون الثاني أي الهاء أدخل في الحلق

٣ - العين مع الحاء :

هذا تقدم العين في الحاء حال تقدم العين كقولك : اقطع حملا - اسمع حديثا - والإدغام حسن والبيان حسن لأنهما من مخرج واحد والعين صوت مجرور على حين أن الحاء صوت مهموس يقول سيبيويه : إن التقاء الحاءين أخف في الكلام من التقاء العينين ألا ترى أن التقاءهما في باب رددت أ كثر والمهموس أخف من المجرور فكل هذا يباعد العين من الإدغام .

ولم تقدم الحاء في العين - حال تقدم الحاء - في قولك : امدح عرفة واذهب حمدا لأن الحاء قد يفرون إليها إذا وقعت الحاء مع العين وهي مثلها في الهمس والرخاوة مع قرب المخرجين فأجريت مجرى الميم مع الباء فجعلتها بمنزلة الحاء كما جعلت الميم بمنزلة النون مع الباء ولم تقو العين على الحاء إذ كانت هذه قصتها وهي من المخرج الثاني من الخلق والحاء أخف من العين فلو قلب الأولى التي هي أخف إلى الثانية التي هي أثقل لماشت خفة الإدغام بثقل الحرف المقلوب إليه فكأنه لم يقدم شيء في شيء (١) .

ويجوز - بعد قلب العين حاء - إدغامها فيها كأن تقول : امدح عرفة واذهب حمدا وهذا على خلاف الأصل بأن يقلب الثاني إلى الأول لأن العين أدخل من الحاء وقد أدغم الحاء في العين بعد قلب العين حاء والأدنى لا يقدم على الأعلى ولم تلق العين الحاء في القرآن إلا في قوله تعالى (من الدمع حزننا) (٢) أو تكون العين منونة كقوله تعالى (وكان الله واسعا حكيما) (٣) دون إدغام لكن وردت قراءة أبي عمرو (فن ذرج عن التار) بقلب الحاء عينا والإدغام (٤) .

= وانتقل أن يقلب الثاني إلى الأول يقال : (مع) فاستقل كلاما . شرح الثانية ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٢٦٣ .

- (١) شرح الثانية للزمخشري ص ٣٥٦ .
 (٢) لسان كتاب ٤/٤٥١ .
 (٣) سورة التوبة الآية ١٢ .
 (٤) سورة النساء الآية ١٣٠ .
 (٥) شرح الثانية للرازي ص ٢٦٣ .

٢ - الغين مع الخاء : حال تقديم الغين على الخاء أو تأخرها :

ففى تقديم الغين مثل : ادفع خلفا ، البيان أحسن ، والإدغام حسن بقلب الغين خاء ، وإدغامها فى الخاء ، فالغين والحاء مختلفان فى الهمس والجهر . وجاز الإدغام لأنهما المخرج الثالث ، وهو أدنى الخارج من مخارج الحلق إلى اللسان (١) .

وإذا تقدمت الخاء مثل : اسلخ عنك أدخمت الخاء فى الغين فتقول : اسلخنك (٢) ، ولكن ليس كحسن إدغام الغين فى الخاء ، وذلك لأن الخاء أدنى من الغين مخرجا ، وتضعيف الخاء كثير ، وتضعيف الغين لم يأت إلا مع الفصل .

وعلى هذا نرى أن صور الإدغام فى المتقاربين من حروف الحلق قليلة وهى تتمثل فى إدغام الهاء فى الحاء والحاء فى الهاء - بعد قلب الهاء - والهاء فى العين بعد قلبها حاءين .

وإدغام العين فى الهاء والحاء فى العين - بعد قلب العين حاء - كذلك - وإدغام الغين فى الخاء والحاء فى الغين - بعد قلب إحداهما إلى الأخرى .

أما الحالات التى لا تدغم فيها حروف الحلق المتقاربة فهى كثيرة وتتلخص فى امتناع إدغام الهمزة فى أخواتها الخمس من حروف الحلق (الهاء - الميم - الحاء - الغين - الخاء) وكذلك امتناع إدغام الهاء فى العين أو الغين أو الخاء وامتناع إدغام العين فى الغين أو الخاء ، كذلك إدغام الحاء فى الغين والحاء ، وإدغام الغين فى الهاء أو العين أو الخاء ، وإدغام الخاء فى الهاء أو الميم أو الحاء .

ولم يقع فى القرآن الكريم إدغام حروف الحلق بعضها فى بعض ، وهو قليل فى الأساليب العربية ، ولا يدغم حرف حلقى فى شيء من حروف الفم .

لسانها كان أو شفويا ولم يحدث عكس ذلك أيضا ، فلم تدغم حروف اللسان
أو الشفة في شيء من حروف الخلق ، والإظهار في حروف الخلق أحسن ،
ويجب تقوية بعض الحروف لتخرج سليمة من مخارجها مثل :
الهاء قبل الحاء أو بعدها كقوله تعالى (وسبحه ليلا طويلا) (١) وقوله
(وما قدروا الله حق قدره) (٢) .

الهاء بعد الحاء كقوله تعالى (والشمس وضحاها) (٣) .
الهاء مع العين سبقت الهاء أو تأخرت مثل (وتكون الجبال كالعهن
المنفوش) (٤) - (فبايعهم) (٥) فيجب إظهار الهاء .
إذا وقعت العين بعد الحاء وجب إظهار الحاء مثل (فلا جناح عليهما أن
يصلحا بينهما صلحا) (٦) وقوله سبحانه (فن زحزح عن النار) ،
العين إذا وقعت بعدها عين أو قاف مثل قوله عز وجل : (ربنا أفرغ
علينا صبرا) (٧) - (ربنا لا تزغ قلوبنا) (٨) .
وكذلك إذا تسكرت العين مثل قوله سبحانه : (ومن يفتغ غير الإسلام
دينا فلن يقبل منه)
وهكذا ..

الإدغام في حروف الفم واللسان

عرفنا أن الإدغام يمتنع أو يقل في حروف الخلق ، فالبيان أحسن فيها ،
وهنا نقول : إن الإدغام يكثر في حروف الفم واللسان فأصل الإدغام
لحروف الفم ، وقد قيل : إنها أكثر عددا من حروف الخلق والشفتهين ،

(١) سورة الإنسان الآية ٢٦ . (٢) سورة التمر الآية ٦٧ .

(٣) سورة الشمس الآية ١ . (٤) سورة الفارعة الآية ٥ .

(٥) سورة المتحنة الآية ١٢ . (٦) سورة النساء الآية ١٢٨ .

(٧) سورة البقرة الآية ٢٥٠ وسورة الأعراف الآية ١٢٦ .

(٨) سورة آل عمران الآية ٨ .

ويظهر أن السبب في كثرة الإدغام فيها يرجع إلى سهولة النطق بالحروف الخارجة من الفم ، فاللسان ينطق بالحروف ، وأقصى الحنك ووسطه ومقدمه يساعد اللسان في إخراج الحروف ، يقول شاذة « إن الممول عليه في آلات النطق ليس الإحصائيات للحروف الصادرة عنها بل بكثرة الحركة والانطلاق والتقلب واللسان هو أكثر أعضاء النطق انطلاقا وحركة وكذلك الجزء المؤخر من الحنك ، فحال وضع طرف اللسان على موضع الراء يمكن الانتقال إلى مخرج اللام من جانبي اللسان بسهولة وحال رفع طرف اللسان تخرج راء ، وعند ارتخاء مؤخر الحنك تخرج النون فالمول عليه هو سهولة نطق حروف الفم واللسان وسهولة إدغام حرف منها في حرف آخر لشدة تحركها وتقلبها (١) .

والقاعدة العامة أن الإدغام في هذه الحروف يتم بعد تماثل الصوتين فإذا تجاوز حرفان متقاربان من مخرج واحد أو من مخارج مختلفة فإن الإدغام جائز لا واجب ويدغم - عادة - الأدخل مخرجا في الأقرب إلى الفم - عكس مايجرى في حروف الحلق ، وأحيانا يكون البيان أحسن وأحيانا أخرى يكون الإدغام أحسن ويقل الإدغام حسنا كلما قرب المخرج من حروف الحلق ، وكلما بعد المخرج عن الحلق كان إدغام الحروف حسنا .

وبراعى حال الإدغام الحروف ذات الصفات التي لها طابع مميز قد يصحح بالإدغام . فهنا يدغم الصوت ذو الخصيصة في غيره لا العكس .

وجاء الإدغام على غير القياس في بعض هذه الحروف التي لها خصائص بارزة (٢) .

وجعل بعض العلماء ذلك الذي خرج عن القياس من باب إخفاء واختلاس

(١) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا لشاذة ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) المتع لابن عسكور ٢٢٧/٢ باب ما أدغمه القراء على غير القياس .

الحركة لا من الإدغام التام^(١) حتى تتحقق القاعدة التي وضعها النحاة والفريقون ، ولا تخالف الأصول الموضوعة في هذا الصدد .

وفي اللسان مناطق لإخراج الحروف هي :

١ - أقصى اللسان .

٢ - وسط اللسان .

٣ - طرف اللسان .

وستستكم عن حروف كل منها :

١ - حروف أقصى اللسان

القاف والكاف : مثل الحق كئيدة ، وإنهك قطنا - مع تقدم القاف تارة والكاف تارة أخرى .

هنا البيان أحسن بإظهار كل من الصوتين دون إدغام لقربيهما من الحلق فخرجتهما أقرب مخارج اللسان إليه فأشبهتا الحاء والظين .

والإدغام حسن أيضا - بأن ندغم القاف في الكاف وفق القاعدة المشار إليها فيما سبق بإدغام الإدخل وخرجا في الأقرب إلى الفم .

والإدغام هنا سائغ لأنهما من حروف اللسان ، والمخرجان متقاربان ، والصوتان متفقان في الشدة .

٢ - حروف وسط اللسان

الجيم : ندغم الجيم في الشين ولا ندغم فيها الشين :

قال سيويه : والشين لا تدغم في الجيم لأن الشين استطال وخرجها ظراوتها حتى اتصل بمخرج الطاء ، وفيها - أيضا - التفتش فذكرهوا أن

يدغموها في الجيم وقد تدغم الجيم فيها ومن أمثلة ذلك : افرش جبلة^(١) وآخر
شبتا وابمشيتا والإدغام والبيان حسنان :

الشين : مع الظاء والذال والطاء :

وإذا اجتمعت الشين مع هذه الحروف (الظاء والذال والطاء) في كلمة
أو كلمتين فالبيان عربي جيد^(٢) ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم :
البعشة^(٣) و (بالقسط شهداء)^(٤) ولم يقرأ بالإدغام .

ويجوز إدغام الظاء والذال والطاء في الشين بأن تنقل هذه الحروف إلى
مخرج الشين حتى لا تضعيف صفتا الاستطالة والتفتيح الخاصتان بالشين .

فتقول ، في : اضبط شيتا : اضبط شيتا

وفي : انقد شيتا : انقد شيتا

وفي : انبت شيتا : انبت شيتا

الشين مع الظاء والذال والطاء :

إذا اجتمعت الشين مع هذه الحروف (الظاء والذال والطاء) فالبيان
عربي جيد لبعد مخرج هذه الحروف ومخرج الشين .

ويجوز نقل هذه الحروف إلى مخرج الشين وإدغامها فيها فتقول في ::
احفظ شيتاء : احفظ شيتاء .

وفي : خذ شيتاء : خذ شيتاء .

وفي : ابعث شيتاء : ابعث شيتاء .

ولم تلتق الظاء والذال والطاء في القرآن .

(١) لكتاب ٤/ ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ : بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٤/ ٤٤٦ . (٣) سورة المدخان الآية ١٦ .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٥ .

٣ - حروف اللسان

(١) ما يدغم بعضها في بعض :

الطاء والذال والتاء :

تلتقي هذه الحروف بعضها مع بعض فيجوز الإظهار لأنها أموات وإن اتحدت مخارجها مختلفة في بعض الصفات كالاستعلاء والإطباق في الطاء ، والاستفال في التاء والذال ، وجهر الطاء والذال ، ومهمس التاء .
ويثقل التسكيم مع الإظهار لصعوبة الانتقال من المطبق إلى المستفل ومن المجهور إلى المهموس ، ولشدة هذه الحروف ، ولزوم اللسان موضعها واحدا لا يتجاف عنه ولذا جاز الإدغام .

فإذا التقت التاء والذال مع الطاء وكانت التاء والذال أولا فإنهما بصيران طاء ويدغمان في الطاء هذا هو الأمر الطبيعي نقول في : أنت طالبا : انقطالبا .
وفي : انقد طالبا : انقطالبا لأنك تقلب غير المطبق مطبقا وفي هذا زيادة لا إجحاف ، وإذا كانت الطاء أولا فالبيان أحسن ، لإبقاء الإطباق على حاله وعدم إذهابه .

وقد سمع من بعض العرب في هذه الحال إدغام المطبق في غيره بإذهابه الإطباق حتى يجعل الطاء كالتاء والذال وبما أخلصت فيه الطاء تاء سماحا عن العرب قولهم في : حطتهم : حتهم ، وقولهم في : انقط قواما : انقتوأما .
وآثر بعض العرب قلب الطاء دالا فقالوا في : اضبط دلما : اضبط لما .
وفي كل ذلك إجحاف لأن المطبق أفشى في السمع من غير المطبق فكيف تقلب التاء والذال على الطاء ، إلا أن إذهاب الإطباق مع الذال أهمل قليلا ، لأن الذال كالطاء في الجهر والتاء مهموسة .

وهذا الإدغام عربى مسموع .

وإذا التقت التاء مع الذال أو العكس وأردت الإدغام جاز لك أن تدغم كل واحدة منهما في صاحبتها حتى تصير التاء دالا والذال تاء لأنهما

من موضع واحد، وهما شديدتان وليس بينهما شيء إلا الجهر والهمس وذلك كقولك في : انمت دما : انعد لما وفي : انعدك : انقتك فتدغم .
- الظاء والذال والطاء :

إذا اتقت هذه الحروف بعضها مع بعض جاز البيان لاتحاد المخرج والرخارة .

ويجوز الإدغام .

فإذا تقدمت الظاء على الذال والطاء أدغمت الظاء فيهما لأنها كلها مجهزة ومن مخرج واحد ولا يفرق بين الظاء وأختيها إلا الإطباق فذلك أن تدغم وتدع الإطباق أو تذهبه .

مثال إدغام الظاء في الذال قولك في احفظ ذلك : احفظ ذلك ومقال إدغامها في التاء قولك في : احفظ ثابتا : احفظا بتا وإذا تقدمت الذال أو التاء جاز لك إدغامها في الظاء ومن ذلك قولك في خذ ظالما : خذ ظالما ، وفي : ابعث ظالما : ابعثا لما .

والإدغام يبين أكثر وأجود لأن أصل الإدغام لحروف اللسان والفم ، وأكثر حروف اللسان من طرف اللسان وما يتخاطط طرفه .

وهذان النوعان من الحروف (ط - د - ط) ، (ظ - ذ - ث) يتبادلان الإدغام بعضها مع بعض ، لأنهن من حيز واحد وليس بينهما إلا ما بين طرف الثنايا وأصولها .

فقول في : ابعظ ظالما : ابعظا لما وفي : ابعظ ذلك : ابعظك ، وفي : انمت ثابتا : انمتا بتا .

ومن عكس ذلك قولك في احفظ طالبا : احفظا لبا ، وفي : خذ داود : خذ داود ، وفي : ابعث تلك : ابعثك .

(ب) ما يدغم بعضها في بعض ويدغم غيرها فيها :

إذا التقت هذه الحروف بعضها مع بعض جاز الإظمار لكونها من مخرج واحد وتختلف في بعض الصفات فالصاد مطبقة والآخران لها صفة الامتثال والزاي مجهورة والآخران مهموستان .

ويجوز الإدغام .

فإذا تقدمت الصاد جان إدغامها في الزاي والسين مع إذهاب الإطباق ، فتقول في : الحصى زردة : افجر زردة وفي : الحصى سالما : اغصا لما .

وإذهاب الإطباق مع السين أمثل قليلا لأنها مهموسة مثل الضاد وكله عربي . وقد تدغم الزاي والسين في الصاد - إذا تقدمتا عليها - كقولك في : أوجر صابرا : أو جصابرا ، وفي : احبس صابرا : احبصابرا . وهذا جائز (١) .

والصاد والزاي والسين إذا التقت مع (ط - د - ت) أو مع (ظ - ذ - ث) فإن هذه الحروف تدغم في الصاد والزاي والسين لا العكس لأن هذه الأخيرة تشترك مع نوعي الحروف السابقة في طرف اللسان والثنايا فالطاء وأختاها من أصل الثنايا والصاد والزاي والسين من أسفله قليلا بما بين الثنايا والطاء والذال والهاء من أطراف الثنايا والذي بينها وبين الصاد والزاي والسين من الثنيتين يسير وحفاظا على صفة الصغير التي تعد مزية لهذه الأصوات وأدغم غيرها فيها حتى لا تضعف هذه الصفة وتلاشي .

فتدغم فيها الطاء والذال والهاء فتقول في : احبط زردة : احبط زردة ، وفي : ذهبت سلى : ذهبتلى ، وفي : انعت صابرا : انعتصابرا - كما سمع من العرب وقال ابن مقبل :

فكأنما اغتبقصير غمامة بهراً تصفقه الرياح ولا لا (٢)
وتدغم فيها الطاء والذال والهاء ، فتقول في : احفظ ضلة : احفظ ضلة .

(١) الكتاب ١٦٠ - ١٦٤ .

(٢) أصله : اغتبت ، والصير ، ما تركب من السحاب كأن بهمه يصير بهمه ، أي يحبس ، والمراد : تصور المراد وهو الغمام ، ومنف امرأه بأن وعظما طبيب .

وفى ، احفظ زردة : احفزردة ، وفى : ابعث سلمة : ابعسلمة ، وفى :
خذ صابرا : خصابرا .

ويقول سيبويه : سمعناهم يقولون : مومان (أصله مذومان) فيدغمون
الذال فى الزاى ، ويقولون : مساعة أى مذ ساعة فيدغمون الذال فى السين ،
والبيان فى الذال أمثل .

(ح) الضاد لما للضاد من صفة الاستطالة والمخرج الخاص بإظهارها حسن .
ويبرز إدغام غيرها فيها لا العكس حتى لا تضيق صفتها وقد ورد مسموها
إدغام الطاء والذال والتاء فيها وكذلك الظاء والذال والتاء .

فالضاد تخالط مخارج الحروف التى فوق اللام قريبة من الأسنان وهى
قريبة من الطاء وتشتبك معها ومع الظاء فى الإطباق وتشتبك مع الطاء
وأخرائها فى الرخاوة .

فإذا تقدمت الطاء والذال والتاء على الضاد جاز إدغامها فى الضاد ومن
ذلك قولك فى اضبط ضمرة : اضبطضمة ، وفى انعت ضمرة : انعتضمة .
وقال سيبويه : سمعنا من يوثق بهريته قال :

ثار فضبطضمة ركائبه (١)

ووقع هذا الإدغام مع الدال والتاء فى القرآن الكريم كقوله تعالى :
فقد ضل (٢) ، وقوله سبحانه : والعاديات ضبعا (٣) .
وهذا الإدغام قوى لاستطالة الضاد وإطباقها .

وإذا تقدمت الطاء والذال والتاء جاز إدغامها فى الضاد ، ومن ذلك
قولك فى : احفظ ضمره : احفضمره ، وفى : احفظ ضانك : احفضانك ،
وفى : خذ ضمرة ، خضمرة ، وفى : أنبذ ضغنك : أنبضغنك ، وفى : ابعث
ضمرة : ابعضمرة (٤) .

(١) أصله : فضبطضمة ، نحر ركائبه للأضياف بسيفه ، فصرخت وصاحت .
المقرب لابن جسر ص ٧٣ . (٢) سورة البقرة من الآية ١٠٨ .
(٣) الآية ١ من سورة العاديات (٤) انظر الكتاب ٤/٤٦٣ - ٤٦٥ .

ولم يقع في القرآن من ذلك شيء في الظاء والذال ، وجاء مع التاء مثل
تحو له تعالى : حديث ضيف إبراهيم^(١) .

(د) النون :

تدغم النون في الميم لا العكس مثل امحى ، واما ز لأن صوتهما واحد
وهما مجهوران يخرجان من الحياشيم وبينهما صاغة تجعلك تسمع النون كالميم ،
والميم كالنون لا تدرك الفرق بينهما إلا بالتأمل والتبيين وإن كان المخرجان
جسديين .

وتدغم - كذلك - في الراء واللام بغنة وبلاغة مثل : من راشد ومن
رايت ، وهذا الإدغام بغنة لأن النون صوتا من الحياشيم ، وما بعده ليس
كذلك فتغلب الغنة ، ويمكن أن تجعله بلاغة فتكون النون بمنزلة حروف اللسان ،

وحين تدغم بغنة يتغير مجرى الهواء معها فلا يخرج من الحياشيم بل يأخذ
طريق الحرف الذي إدغمت فيه من الراء واللام - وكذلك الواو والياء حال
إدغامها منهما - ويشرب صوت الغنة وتصير النون مثلين في كل شيء .
والنون الساكنة حالات أخرى من الإخفاء والإقلاب والإظهار تدرس
في حكم النون الساكنة والتنوين مع ما يليهما من الحروف^(٢) .

ويستفح الإدغام عند اللبس مثل شاة زئما وغنم زئم وقنواء وقنية وكنية،
ومنية إذ عند الإدغام يصير كأنه من المضاعف وعليه جاءت دنيا وقنوان
وصنوان دون إدغام ما جاء في كلمة واحدة عتملا للبس .

ولم تأت النون ساكنة قبل راء ولا لام في كلمة واحدة مثل : قر ، وعزل ،
لأن ذلك إذا جاء دون إدغام فهو ثقيل لقرب المخارج ، وإذا جاء مدغما
اللبس بالمضاعف فذاك موضع قد تضاعف فيه الراء وقد أنت النون ساكنة
قبل الواو والياء لبعده المخرجين فخفف ذلك على اللسان^(٣) .

(١) سورة الغاريات الآية ٢٤ .

(٢) لكتاب ٤/٤٥٢ - ٤٥٤ .

(٣) لكتاب ٤/٤٥٩ .

أمثال سورة النور

بقلم
أ. د / محمد محمد أبو موسى

لاشك أن دراسة تشبيهات سورة من سور القرآن دراسة مثالية جذبة. بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات ، لأنها مادامت قد جرت في سورة واحدة ، ذات سياق واحد فلا بد أن تكون فيها جامعة تجمعها وهذه الجامعة قد تخفى وتندق ولسكنها رقيقة ورائعة كهذه الطباع الحفية الحية التي تراها تجري في أبناء العشيرة الواحدة ، أو كهذه السيا والملاح الدقيقة التي تراها في القوم يرجعون إلى أب واحد ، لأن كل رموز السورة وصيغها وصورها ترجع إلى ما يشبه أن يكون أباً واحداً هو المحور الذي تدور حوله ، ولا بد أن يكون في كل هذه الصيغ وهذه الرموز وهذه الصور نفس واحد يجمعها ويؤلف بينها . ويجعلها (عائلة) واحدة ذات سيا وملاح متقاربة ، والبحث الرواسي الفطن هو الذي يقع على هذا ، وهو قائم أيضاً في القصيدة كما هو قائم في الديوان ، وقائم في البقاع أعمى في البيئة المكانية. للأدب وكذلك في البيئة الزمانية والمضارية إلى آخر هذا الأمر الذي لم نعطه إلى الآن حقه من العناية ومن الواجب أن نخصه بالدرس والاستنباط وأن نمنحه من الجهد والدقة والروح العملية ما يجعل نتائجه أقرب إلى الإصابة والصدق ، وأبعد من شوائب التعميم والتوهيم المجازي الذي جرى في كثير من الدراسات البلاغية والنقدية وأسقط كثيراً من نتائجها .

وهذه الدراسة لا نستطيع أن تصل إلى غاية الزاد أو إلى ما يقارب هذه الغاية وإنما تسمى في جد ودأب وهي مقتنعة بأن اقتحام المخاطرة والسهر في

الطرق غير المعبدة باب عظيم النفع لأن خطأ السابق فيه يهdy إلى صواب اللاحق ولولا تقبلنا لأن نخطئ. ما وضعنا أيدينا على صواب ولأنى لأرضى أن أخطئ. مائة مرة وأنا أبحث عن صواب واحد بشرط أن يكون عالم يدرك بعد .

جاء التشبيه في آيات ثلاثة في سورة النور بدأ بقوله تعالى : د مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجاة كأنها كوكب درى يوفد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، (آية ٣٥) .

والتشبيه الثانى ، والثالث جاء متلاحقين بكشفان حقيقة واحدة هى أعمال الذين كفروا وقد جاء بعد المثل الأول بثلاث آيات قال تعالى : والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لظى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله نورا فلما له من نور د آية ٣٩ ، ٤٠ .

وهذه التشبيهات مبسطة ومتنوعة يجد النظر فيها متقلبا ولهذا جعلناها موضوع هذا المقال ، مع أن السورة فيها تشبيهات أخرى ليست على هذا الحد من السمة والفرارة وإنما هو ربط أمر بأمر ربطا مربيا مثل قوله سبحانه د لانسألوا دعاء الرسول ينحكم كدعاء بعضكم بعضا ، (آية ٦٣) .

ومثل قوله سبحانه د وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته ، آية ٥٩ وفيها تشبيهان .

ومعرفة معانى هذه الألفاظ والصيغ الجارية فى هذه التشبيهات متوقف على معرفة السياق الذى جرت فيه لادسيا وهو الجذر الذى أمدها بالحياة والادمرار (٨ - مجلة كلية اللغة)

وهو الأرومة والمعدن الذى إليه يرد الأمر . والسياق هو موضوع سورة النور وهى من السور القرآنية التى يظهر فيها وحدة الموضوع ظهورا لا يلبس لأنها تدور من أولها إلى آخرها حول تنظيم وتفتين الآداب الواجب توافرها فى علاقات الرجال بالنساء ، وإلى أى مدى يجب مراعاة الحدود التى حددتها الشريعة حتى يظل تسلسل الوجود الإنسانى الممثل لخلافة الله فى الأرض والنابع من هذين الجذسين تابعاً من منبع الطهر بعيداً عن الريبة واللبس ويظل الإنسان من بين الخليقة كلها مكرماً بنسبه ومعرفة آباءه الذين يفتنى إليهم ولادعوم لأبائهم هو أقسط عند الله ، (الأحزاب آية ٥) .

وهذا الجانب من حياة الجماعة بالغ الدقة والحذر ومظنة الظنون والريب ، وقد تناولاته السورة بشكل ظاهر وحاسم وحددت حدوده ، وأحلت حلاله ، وحرمت حرامه ، وقد بدأت السورة بذروة المأساة حين تنهدم الحدود فى هذا الأمر فذكرت أم خباثت هذا الشأن ووضعت حدما بصرامة وبسرعة عجيبة تأمل الزائلة والرائى فاجلدوا .

وربطت القسوة على الخارج من حدود الله بالإيمان بالله ، حتى لا يكون هنا مجال للمعاهر المكافئة الناعمة ، وهذا رعى فى وجوه حماة الخفا فى المجتمع الإسلامى والذين يصفون الحدود بالغلظة والقسوة ومجافاة التحضر ، ثم تناولت السورة ما يلى هذه الجريمة الأم فى سلسلة الآداب التى شرعتها وهو وضع الناس المصنهم فى أعراض بعضهم ، وجعلت السورة الشريفة رعى الأعراض بهذه الجريمة من غير بينة فى حجم فعلها فالزنى حده مائة والذف حده ثمانون ، وكررت السورة خميسة الرمى هذه فى مواضع ثلاثة وبصيغة واحدة لتثيت بشاعتها ، والذين يرمون المحصنات ، (آية ٤) والذين يرمون أزواجهم ، (آية ٦) وإن الذين يرمون الغافلات ، (آية ١٣) وجعلت ذلك الخوض والمغو ومياً لأنه يصيب مقاتل الأمراض كما نصيب السهام مقاتل الصيد ثم لفت السورة شخاً رائعا بذكر حديث الإفك فى هذا

السياق هذا اللمح هو بيان أن السنة أهل اللغو قد نصيب أعراضا طهرها كانه من طهر السماء الذي لم تدهس الأرض بأنامها ، ولمح آخر هو أن وضع الأسنة في أراض الناس باب فيه إغراء وتكثف فيه غفلة أهل التقوى فتقع فيه ألسنتهم غافلين عن مقتضيات المعقول في هذا الشأن تأمل قوله تعالى يحاطب الجبل الذي نزل فيه القرآن لمبا وضع الناس ألسنتهم في عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قال تعالى : «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهن خيرا» ، «لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا» ثم مضى الحديث في هذه السلسلة إلى شيء آخر هو آداب الاستئذان حتى لا تقع العيون على عورات الناس ثم غرض البصر وحلب العفاف بالشكاح فإن لم يكن في الوسخ فبالصبر والاستعفاف والاستعصام حتى يغنيهم الله من فضله .

ثم جاءت آية التشبيه الأولى ، مثل نوره كشكاة فيها مصباح ، ...

وقد فصلت آية كريمة بين التشبيه وبين هذه الحدود وهذا التشريع وكانت بمثابة تلخيص لكل الذي مضى هذه الآية هي قوله تعالى «واقعد أنزلنا إليكم آيات بينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين» (آية ٣٤) وقد ذكر المفسرون أن الآيات البينات هي هذه الحدود والموعظة قصة عائشة رضى الله عنها وقوله سبحانه في شأنها «يعظكم الله أن تعودوا لمثله» .

وكان وصف هذه الحدود بأنها آيات أى علامات ظاهرة على طريق السلوك الإنساني مقدمة لوصف شرع الله ونظامه وأنه نور السموات والأرض أى موضح لمعالم الحياة الإنسانية شارع لها طريقها ومنهاجها شرعا لا يلبس بها ، وقد قال على كرم الله وجهه في بيان معنى «الله نور السموات والأرض» أى نشر فيها الحق وبته فأضاءت بنوره أو نور قلوب أهلها به ، فالنور المضروب له المثل بالمشكاة إلى آخره وصف لشرع الله وحدوده

وحلاله وحراره ، وقد جاء النور في القرآن مثلاً لهذا قال تعالى ويريدون أن يعطوا نور الله بأفواههم والله مبين نوره ، (الصف آية ٨) وإتمام النور هو تثبيت هذه العقيدة في نفوس الصالحين من عباده تثبيتاً يكونون به حماة لها حراساً على حياتها .

والمثل الذي هو مثل لشرع الله في هذا الشأن الذي هو نظام علاقات الرجال بالنساء في المجتمع الإسلامي جاء هكذا كشكاة أى كوة ضيقة ليست مثل النافذة ، وهذا الضيق يجعل نورها أكثر توهجاً والمشكاة فيها مصباح ، والمصباح في زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب دري ، تأمل المتابعة والتداخل المؤذن بنهاية التوهج وفرط النور وأن هذا المثل هو مثل شرع الله وأن ضوابط الشرع وحدوده تنشر الحق والعدل والمرحمة والنور حتى تصير حياة الناس مغمورة بفيض النور الذي ترى وكأن النور هنا طبقات ودوائر تدخل كل واحدة في التي تليها ثم هو ينبع لا يفيض يستمد توهجه من شجرة مباركة وأنه بهذا التداخل وهذا المدد المتدفق صالح لأن يمد حياة الإنسان طبقة بعد طبقة وطوراً بعد طور مهما اتسعت وتداخلت وتعقدت وصل بعضها في بعض وكأن هذا التداخل في وصف النور فيه لمح إلى أنها يستغناها وتداخلها هي مشكاة الحياة الإنسان في أطوارها وبساطتها وتعقيدها ثم إذا التفت إلى السياق المحدد للسورة وهو تنظيم علاقات الرجال بالنساء في دنيا المعاش المتزاحمة بالمنسكب رأيت حدود الله في هذا الشأن هي الضمان الأكيد لبقاء هذا الجانب الدقيق في بؤرة الضرر والطهر والبعد عن الريبة ، وهذه العلاقات حية ومعاشه في كل ساعه ولذلك كانت عرضة للتغيير والتعديل والتحويل وشرع الله لإعما وضع لها ثوابت وحدوداً لا تحول هذه الثوابت والحدود بين هذه العلاقات وبين التطور الحى المستتير بل تضمن لها هذه الحدود وسلامة التطور والرقى النقى السديد . لأن الخطوط العامة كأنها حصون حامية تأمل غض العبر ، وهدم ابداء الزينة ، والحسم في العفوبات ، وطهارة اللسان عن الخوض.

فى الأهرام إلى آخر الآداب المذكورة نجد هذا حين يتأصل فى حياة الناس ويصير قىما ثابتة يفيض على الحياة فى هذا الجانب النور الساطع الذى لا خداع فيه ولا مواربة ولا كذب على النفس .

ثم جاء التشبيه الثانى بصف الوجه المقابل لهذا الوجه بصف الحياة التى تهمل هذه الحدود وتنطفيء فيها هذه المعالم المشرقة ، وتعيش خارج دائرة التدين .

قال سبحانه : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » حياة الإنسان فى دائرة التدين تضيقها مصاييح أوقد من شجرة مباركة لا ينضب معينها يكاد يرتها يضىء ولولم تمسه نار يعنى هو صفو الصفو وخالص الخالص ، والإنسان فى هذا المحيط آمن يعرف طريقه لا يضل ولا يخذل ولا تذهب نفسه بددا إذا ألمت به العواصف النكبات ، وإنما هو حاضر فى الحياة بقلبه وعقله وعطائه حتى يضىء على طريقه الواضح المستنير بخطوات واعية محكمة .

وفى المقابل تاتى عارسات الحياة الإنسانية المقطوعة عن الوحي فتوصف بأنها سراب ، وضلال ، وخداع ، وأن الروح معها تعيش فى غربة متقطعة ، ظائمة إلى ما يروى غلتها ، ولكن العناد والكفر يحرق هذه الروح بظلمتها ، والتشبيه يصور الحالة فى صورة سراب يركض من ورائه الإنسان الظام ، والسراب هنا هو صالِح أعمال الذين كفروا كالإحسان وصلة الأرحام ، ومعونة المحتاج ، وإذا كان هذا سرايا فقيره من أعمال الذين كفروا من باب أولى ، وهذا يعنى أن السلوك الإنسانى فى هذا الجانب الأخلاقى والاجتماعى الحوى من حياة الإنسان لا بد أن يكون موصولا بالإيمان بالله ومخافته ماضيا على ما شرع الله يحل حلاله ويحرم حرامه وهذا هو النور .

وإذا كانت أعمال الذين كفروا سرايا فأعمال الذين آمنوا نور يسعى بين

أيديهم وبإيمانهم لأنهم حصلوها بنور الشريعة ، وقد قال العلماء إن نور الذين آمنوا يسمى بين أيديهم وبإيمانهم لأنهم يتسلطون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين فالنور هو أعمالهم ولك أن تتأمل التداخل بين النور الذي هو نور الله والنور الذي هو أعمال المؤمنين ثم تأمل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ، والمشي هو كل ما تعالجه من شئون الحياة ، يعنى الممارسات اليومية بدءا من حركة الخواطر داخل النفس وانتهاء بكل ما يعالجه الناس ولو كان وسوقه حتى الكلمة تخطها الأنامل على الورق فهناك كاتب جعل الله له نورا يكتب به فيكتب الحق والصدق والكلمة الطيبة وهناك كاتبا لم يجعل الله له نورا يعنى به لأنه قطع صلته بالله وسقط في الزيف والنفاق والكذب والزور ، خدعه عقله في ذلك أو خدع هو عقله فيه ، وهذا هو السراب الذى إذا جاء لم يجد شيئا ووجد الحقيقة الغراء التى عاش حياته يروغ منها « فوفا حساب » والله سريع الحساب .

وفى هذا المثل ملح آخر هو أن ركض الظالم وراء السراب فى الصحراء الحارقة المتوقدة يصف قصة الحياة المقطوعة من الله ترى الإنسان فيها قائما ظاهرا لأن الفطرة فى داخله تدهو إلى الله ثم هو مخدوع وراء سراب من الأباطيل والفلسفات وخدع العقول وضلال الحكمة تحرقه رمضاء هذا كله وهو قائم من النبع الذى يروى والذى أنبطله الله فى قلب أبينا الأول ، وجعلناه وصاة فى عقبه من بعده أن أقيموا الدين .

وشئ آخر يلتفت إليه فى هذا التشبيه وهو أن ذكر الماء والظلمى تذكر فى هذا السياق يعنى وصف الذين كفروا وتوجههم إلى غير الله سبحانه وأنهم حينما ينصرفون عن الله الذى له دعوة الحق إلى غير الله يكون مثلهم كمن يسط كفيه إلى الماء ليباغ فاه وما هو ببالغة قال سبحانه فى سورة الرعد « والذين يدهون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة » آية ١٤ .

تأمل الصورة تجد ظامنا كاللنى فى سورة النور وهو هناك يجرى وراء
سراب بقيمة وهنا على شاطئ نهر وهذا فارق كبير ثم إن مطالبه هنا وهو
الماء بين يديه ولكنه لم يحكم الوسيلة التى تمكنه من الانتفاع بالماء فهو بسيط
كفيه أى يوسع بين أصابعه كما قال المفسرون ليلبغ الماء بذلك فاه وهذا خطأ
لأن الماء يغترف باليد ، وبسط اليدين إلى الماء إشارة إلى الخطأ فى طريقة
النظر ومنهج التعقل والتدبر والتذكر الذى أمرنا الله به وجعل سداً
واستقامته طريقاً إلى الإيمان واليقين .

والصورة المسكانية هناك صحراء قيعه لا حياة فيها وإنما فيها ركض
وراء الوهم ، والصورة المسكانية هنا شاطئ نهر والمثال المذكور بسيط
يده إليه .

وصورة السراب الذى يحسبه الظمان ماء قريبة من صورة جاءت فى
سورة إبراهيم عليه السلام مثلاً لأعمال الذين كفروا ، قال تعالى مثل الذين
كفروا برهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، آية
والجامع بين الصورتين هو خلوك منهما من الماء وفى هذه الصورة الرماد
المحترق والذى تذهب به الريح فى مهاجها فى يوم عاصف ، وتأمل صياغة
الكلام تأمل حرف التعدية (اشتدت به) ولم يقل اشتدت عليه ليؤذن باقتلاعه
وإثارته ، وأما جته ثم تأمل إسناد المصنف إلى اليوم والأصل أن يسند إلى
الريح ، وأحكم دلالة إسناد الحدث إلى مائه وهو باب يبلغ من أبواب المجاز ،
الصورة هنا مركزة على الأعمال وتبددها وضيعها واحتراقها ، وأما صاحب
الأعمال فلا وجود له إلا فى التعقيب على الصورة فى قوله تعالى « لا يقدرُونَ
مما كسبوا على شيء » .

وهو تعقيب حكيم لأن كلمة (لا يقدرُونَ) فيها محاولة واستنفار أنهى
الطاقة لتبلغ القدرة مبالغاً يصل بها إلى اقتناص ما كسبت ثم إخلادهم إلى
التسليم والعجز ، وهذا وصف خفى للهوى الذى لا يحاط به ، وهذا التشبيه

الذى يخلص ويكثف حالة الضياع للشيء المرجو فقهه في وقت الحاجة إلى الانتفاع به جاء مغروسا في موضعه من السورة كما يفرس العضو من أعضاء الإنسان في موضعه الذى هو فيه ، بيان ذلك أن هذا التشبيه جاء متما لوصف عذاب صاحب العمل وقد وصف القرآن ذلك وصفا يخلع القلب تأمل : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد ... » تأمل اللغة والصور التى وراء اللغة . تأمل قوله « وخاب كل جبار عنيد » وكيف أسقطت هذه الكلمات صروح الطواغيت في مستنقع الخيبة والضياع ، ثم تأمل هذه الصورة الصارخة « ويسقى من ماء صديد » وكيف دل البناء للمجهول على أن هناك سقاة غلاظا يعالجون سقيه وهو كاره رافض وهم يصبون في فيه ماء الصديد صبا بعد معالجة ، ثم تأمل قوله « ويأتيه الموت من كل مكان » والمراد أسباب الموت ولكن العبارة جعلت الموت جيشا يقتحم بمشوده يحيط بهذا البئس التمس وقوله من « كل مكان » ، يعنى أشباح الموت الخفيفة المفردة قد تراجمت بها جنبات الأرض من حوله .

هذا تحليل لمساحة لغوية معدودة قبل التشبيه ، وجاء التشبيه امتدادا لحيط ونسج اللغة والمعاني والأحوال التى وصفها هذا الحيز اللغوى المحدود الذى يبناه ، وبيان الامتداد والاتساق ظاهر لأن مقتضى المعقول أن يفكر هذا المعذب الذى يسقى من ماء صديد في أى أمل يفرجه مما هو فيه ، ومن الطبيعى أن يذكر صالح أعماله التى تخفف عنه بعض البلاء ، وقد جاء وصف الأعمال بالرماد ليبين المدمى الذى صارت إليه أعماله من الاحتراق والتبديد والضياع .

ولا يمكن أن يوضع تشبيه سورة التور هنا ، لا يمكن أن يكون الكلام في سورة إبراهيم بعد عرض حالة هذا الذى يأتيه من كل مكان وما هو بميت هو كسر اب بقيقه بحسبه قلنا أن ماء ، وذلك لآمر ظاهر هو أن كل تشبيه

إنما هو امتداد للأنسجة اللغوية التي صاغت السياق كله . وهذا يعنى ضروبا من الانساق الخفى للمكين ، فصاحب الأعمال في سورة النور حتى طابق يركض وراء السراب ، وهذا متلائم مع سياق يحدد للناس ضوابط السلوك في جانب حيوى من جوانب الحياة فليس هنا موت ولا هذاب في جهنم وإنما هنا حياة فسيحة متسعة وفريق من الناس يستضيء بنور الشريعة التي هى كشكاة فيها مصباح إلى آخره ، وفريق آخر انقطع عن نور الشريعة فضل في أوهام الفكر وسرايب الضلال ، ولهذا كان وجود صاحب الأعمال في المثل حيا يسمى سعيه ويركض جهده أمرا طبيعيا .

وفي سورة إبراهيم « كرما واشدت به الريح في يوم حاصف » بنى المثل على العناية بالأعمال وأغفل صاحبها أنفليس له وجود وذلك لأن صاحب الأعمال انقطع عنها بموته وهو بين الزبانية يسقى من ماء صديد يتجرمه ولا يكاد يسيغه فكيف يكون راكضا وراء السراب ؟

وهذه لحظة سريعة تدل على ما نريده بقولنا إن التشبيه من حيث اخته ، وصوره ، ولونه ، وطبعه ، امتداد للأحوال الجارية في السدرة لأنه جزء منها يجرى فيه ما يجرى فيها ، بل هو جزء من كل له طبع واحد وفيه ماء واحد فلا بد أن تكون العلاقات بمثابة الشرايين الجارية في الجسد أو الدم الجارى في الشرايين فكما لا يكون الدم الجارى في بعض أجزاء الجسد من فصيلة مخالفة للدم الجارى في البعض الآخر كذلك لا تكون الأنسجة اللغوية والصور النفسية والرموز المعنوية الجارية في التشبيه موزولة عن الحركة اللغوية العامة الجارية في السورة كلها أو القصيدة كلها .

ثم ننتقل إلى المثل الثانى في بيان أعمال الذين كفروا في سورة النور وهو قوله سبحانه : « أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فلا له من نور » .

وقد جاء هذا المثل رادفاً للمثل الأول كسراب بقيمة وهو من الباب الذى ينتقل فيه الكلام من تشبيه إلى تشبيه وهو قليل فى القرآن كثير فى العصر الجاهلى ، وخاصة فى الصور المتحركة فى أوصاف الناقة أو حمار الوحش أو غير ذلك ترى الشاعر يقول بعد الفراغ من تشبيه أفتلك أم وحشية مسيوعة ، وما يهبه ذلك بما تراه فيه يبدأ فى تشبيه آخر ، كذلك الحال فى سورة النور جاء المثلان هكذا « حتى إذا جاء لم يجد شيئا ووجد الله عنده فواه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لئيم » .

وكما أننا لم نوف تشبيهات الجاهليين حقها كذلك لم نوف تشبيهات القرآن حقها يعنى لم نجيب عن أول الأسئلة وأقربها فى هذا الباب وهو ما مقصود الشاعر من هذا الانتقال ؟ وأى فرق بين الصورتين ؟ وأى معنى فى الثانى ليس فى الأول ؟ هذه الأمثلة القريبة لم نجيب عليها فى أى قصيدة فى الشعر الجاهلى ، نعم أجاب المفسرون عن بعض هذه الأسئلة فى تحليل تشبيهات القرآن ، وقالوا أنه يكون انتقالا من البليغ إلى الأبلغ ، وهذه إجابة سديده وإن كانت قائمة على التعميم والتشبيه فى الحقيقة انتقال من البليغ إلى الأبلغ والتعميم فى هذا نفسه لأننا نريد أن نعرف البليغ والأبلغ معرفته محددة فنقول مثلا إن هذا التشبيه الأول كشف من كذا والتشبيه الثانى كشف من كذا وهذا الثانى فيه ما ليس فى الأول وهو كذا ولهذا كان أبلغ ، وذلك لم يحدث ، كما أننا لم نحلل ومور التشبيهات ولحائنا اللغوية وأناساها الخفية ، ولندع هذا ولننظر فى التشبيه ونقول من غير تواضع أننا عاجزون عن الوصول إلى حاق القول فى هذا الشأن وإنما نطمح فى أكثر مما نستطيع أو نحاول فنحطىء ليعاود غيرنا فيصيب .

وأول ما يدورك فى هذا التشبيه أنه قابل الذى قبله مقابلة ظاهرة من حيث العناصر المكونة للصورة فالذى قبله صحراء مستوية (قيمة) يرتفع فيها الال ، وهذا بحر لئيم يفشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ، هذا

في البر وذاك في البحر والبر في الأول خراب ليس فيه إلا الصعرا وأهوالها
فلا زرع ولا ضرع ولا حياة والبحر في الثاني ليس فيه إلا مكونات البحار
موج فوق موج فوقه سحب ، والبر الخرب هناك ليس فيه إلا الإنسان
الظالم الذي يركض وراء الوهم ، والبحر هنا ظلمات مطلقة فحسب ، وهذا
الفارق مما يتبادر إلى الذهن من غير تأمل .

ثم إن هذا التشبيه الثاني بينه وبين التشبيه الأول ، مثل نوره كشكاة فيها
مصباح المقابلة التي بينه وبين السراب . ولكنها مقابلة من حيث النور والظلمة
فالأول نور على نور ، والثاني ظلمات بعضها فوق بعض ، وفي آخره
تقارب البناء اللغوي في المثليين فقد احتشد المثل الأول لبيان وهج النور
فذكر مشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة ، واحتشد المثل الثاني لتداخل الظلمات وأطباقها
وتكاتفها أحاديث الصياغة حذو الأول تأمل . يفهمه موج من فوقه موج من فوقه
سحاب ، ثم أن كل صورة من الصور تين لها مدد بعدها ولا ينضب في الأولى
شجرة مباركة يوقد منها ، وفي الثانية سحب علق فوق موج من تحت موج
في بحر لجي . وكما قال هناك أيضا يهدى الله لنوره من يشاء . قال هنا : ومن
لم يجعل الله نورا فلا له من نورا . وهذه روابط أسلوبية لا نهمل وكأنها
ضرب من التلامح أو التناغم بين المثليين . وقد ترى هذا التناهي يتجاوز
الأمثال إلى السورة كلها فلا تخلو سورة من سور القرآن من هذا الضرب من
التناغم والتقارب في الصيغ والكلمات ونذكر في هذا المقام بالصيغ المكررة
في مثل والذين يرمون الحصنات وما بنيت عليه سورة مريم من قوله تعالى :
« واذكر في الكتاب » فقد تكررت مع كل قصة وكيف كان هذا منسقا مع
مطلما ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إلى آخر هذا الباب الخافل بالبلاغة
العالية والتي لا تزال هاجمة في أوصال الكلام الرفيع ، وتدع هذا لنقول إن
هذه الروابط الأسلوبية بين المثليين لا يجوز لنا أن نهمل إدراكها واستحراجها .

والإشارة إليها ، وهذا متوقف على ضرب من التدقيق اللازم في القراءة ، ثم إن الوقوف عند إدراك الإشارة إليه تقصير لا يحمد وذلك لأنه لا بد من تفسير ذلك واستخراج سره وهذا لا يتأتى إلا بمزيد من الفقه والاجتهاد وهو مما يختلف فيه الأوهام ودلالته هنا أن المثليين من باب واحد يقتسوا لأن حقيقة واحدة من جهتيها المتقابلتين الإيمان والكفر ، فالمشكاة مثل أعمال المؤمنين الواقعة على الوجه الشرعي والظلمات مثل أعمال الكافرين غير الموصولة بالله ، وهذه الظلمات التي فوقها ظلمات هي العالم البهيمي الذي تدخله البشرية حين تنقطع صلتها بالله ، وبمقدار ما في عالم الظلمات هذا من وحشة وغدر تجرد العالم الذي تدخله البشرية أخذه بشرح الله نورا ساطعا يجعل كل ما في الحياة إشراقه ضياء تفيض من كوكب دري يوقد من شجرة مباركة .

وشيء أخير في هذين المثليين هو أنهما بمثابة تلخيص وتصوير لمعان جرت في القرآن كثيرا تدور حول بيان الكفر والجهل بالظلمات والإيمان والوحي بالنور فالقؤمنون يخرجهم إيمانهم من الظلمات إلى النور ، وأصحاب الجبوت والطافوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات والرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسله ربه داعيا بإذنه وسراجا منيرا وهكذا تجد هاتين الكلمتين في القرآن تدوران حول هذين الأصلين .

وليس في القرآن تشبيه حشد كل هذه الظلمات وكل هذه الأمواج وكل هذه السحب في صورة واحدة إلا هذا التشبيه ، وليس في الشعر الجاهلي صورة تقارب هذه الصورة من حيث كثافة الظلمات والسحب رغم ما في الشعر الجاهلي من روائع في وصف المطر ، بل إن هذه الصورة أشبه بصور الشمال الأوربي . ولذلك عقب عليها مالك بن نبي رحمه الله وذكر أنها قاطعة في أن القرآن ليس من كلام محمد صلوات الله عليه لأن من عاش في جزيرة العرب لا يستطيع خياله تسج هذه التصوير .

وهذا المثل له رجوع وصدى في موضع آخر من السورة الشريفة فقد جاء

بعد ذلك بآية واحدة قوله تعالى « ألم ترى أن الله يرزق سبحانه ثم يؤلف بينه -
ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها
من برد وهذا من جنس المثل الذي معنا تأمل يرزق سبحانه ثم يؤلف بينه ثم
يجعله ركاما ، يفشاء موح من فوقا موح من فوقه سبحانه ، وتأمل « مشكاة
فيها مصباح المصباح في زجاجة » تجد الكلام ينزل على حدو واحد وكأنه من
عشيرة واحدة وقد وجدت مثل هذا كثيرا في قصائد الشعر حتى كأن كل
قصيدة بنية واحدة متميزة تجرى فيها هذه التشابهات في نسج الكلام وهذا من
أسرار الفن وخفايا الصنعة فيه ومرجعه إلى امتداد نسج لغوى واحد في
السورة كلها وكان لإيقاع الكلمات إنما وقعت وتتابعت على خيوط واحدة ،
ولاشك أن آية « ألم تر أن الله يرزق سبحانه امتداد طبيعي لآية أو كظلمات في
بحر لجى وكأنه نمو الكائن الحى ، وقد زاد هنا جبال الثلج التى لا وجود لها
في أرت ييان العربية التى نزل بها القرآن وتسكلم بها النبى صلى الله عليه وسلم
وكان هذا حين يتقابل مع (سراب بقيقه) مؤذن بجمع أطراف الدنيا من
أنهى شمالها وربط ذلك بالصحراء التى انفجرت من مسخورها ينابيع
النور »

وهذه العناصر التى هى الماء والظلمات وما يتعلق بها من أمواج وسحاب
ورعد وبرق جاءت في سورة البقرة تشبيها ثانيا متصلا بتشبيه أول على طريقة
أو كظلمات في بحر لجى .. وذلك مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال تعالى
مثلهم كمثل الذى استوفد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم
في ظلمات لا يبصرون سم بهم فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات
ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواقي حذر الموت والله محيط
بالكافرين يسكاد الهرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم
عليهم قاموا ، التشبيه الثانى هنا قريب جدا من التشبيه الثانى في سورة النور ،
فالظلمات التى في الصيب قريبة من ظلمات البحر اللجى وإن كانت الصورة في
النور قد توارت فيها الكلمات والجل لتصور جبال من الظلمات بعضها فوق

بعض من غير أن يكون في داخل هذه الظلمات إنسان يعالج كروبها ،
والصورة في البقرة تنوعت عناصرها فهناك الصيب والظلمات والرهق
وفي داخل هذا كله إنسان مكروب يعاني هذه الأحوال بل إنه هو قطب الرحي
في الصورة ، والمآل التي نسجت عليه الصورة بكل عناصرها وخراطرها
ورموزها ، ويقول المفسرين في تفسير أو كصيب إن التقدير أو كدوى صيب
لأن المشبه به هو الإنسان الذي هذا حاله كما جاء في التشبيه الأول وكثل الذي
استوقد نارا .

تأمل كلمات تشبيه سورة البقرة : يجعلون .. أصابعهم .. آذانهم ..
أبصارهم .. لهم .. مشرا .. عليهم .. قاموا .. سمعهم .. تجد الضمير العائد
على الجماعة الإنسانية الضالة منبثا في الكلام كله والأحداث والأحوال
منسوجة عليه ، وليس الأمر كذلك في سورة النور لأن المثل هنا مثل الذين
اشتروا الضلالة بالهدى ، والمثل هناك أعمال الذين كفروا .

والتشبيه السابق في سورة البقرة ومثل الذي استوقد نارا .. ليس فيه ماء
حولا سحاب وإنما عقد المثل على صورة رجل يبحث عن الضوء ويكده تأمل
كلمة (استوقد) فلما أمكنه أن يستخرج ما يضيء به ذهب يد الله إلى لا تغالب
بهذا الضوء وأطبقت الظلمات حول هذا المخدول .

وهذا المثل هو المقابل للسراب يحسبه الظمآن ماء في سورة النور والفرق
هو أن المثل هنا يدور حول الإنسان والمثل هناك يدور حول السراب .

ويلاحظ أن هناك إيماضات من النور في أمثال سورة البقرة نجد هذا في
قوله (فلما أضاءت ماحوله) وفي قوله سبحانه « كلما أضاء لهم مشوا فيه »
ليس شيء من هذا في سورة النور وهذه الإشارات دالة على أن الذين اشتروا
الضلالة بالهدى أدركوا الهدى وأضاء لهم ولستكنهم ابتاعوا الضلالة وآثروها
وقد ذكر المفسرون أن الاشتراء هنا مجاز عن الاختيار والاختيار لا يأتي

إلا بالمعرفة فالذين اختاروا الضلالة وآثروها على الهدى لاشك أنهم عرفوا الهدى وإلا فلا يصح أن يكون اختيارا ، والهدى الذى أدركوه كان إيمانا سرعان ما يفوس فى أعماق ظلمات الضلال والعتاد .

وللمثل الثانى فى سورة البقرة أبلغ من المثل الأول كما قال الوجودى ولا حرج علينا حين نقول إن فى القرآن بليغ وأبلغ لأن البليغ قد بلغ حد الإعجاز ، وإن كان البعض يرى أن الاختلاف فى ظهور البلاغة يعنى أنها فى بعض الآيات أظهر منها فى البعض الآخر أما البلاغة فهى فى الشكل على حد واحد لا تفاوت فيها ، وفى المسألة كلام آخر والمهم أننا نرى فى المثل الثانى مزيدا من التنوع والغزارة فى العناصر والأحداث والمخاوف والأحوال ونرى المثل بهذا أفصح مدى من المثل الأول .

تأمل المحيط الذى تتحرك فيه الأحداث تجد الصيب والظلمات والرهق والهرق وخطف الأبصار ثم تأملى الاشارات القوية ذات الدلالات المتممة على الأحوال النفسية تأمل يجعلون أصابعهم والأصل أناملهم وقد دل هذا على أن القوم انغلخت قلوبهم وطاشت من هول المخافة لأنهم صاروا فى فم الموت ثم تأمل كلمة الخطف وما فيها من حدة وشراسة وقسوة ، وتأمل كلما أضاء لهم مشرا ، وكيف كانوا قائمين وهم خائفون يترصدون شعاعا من الضوء ليغفلوا من هول الهلاك وهكذا .

أما المثل الأول فليس فيه إلا المستوقد وحالته المخدولة من حيث نراه يكدر حتى يستخرج نارا أى نار تقطع هذه الوحشة المطبقة على النفس حتى إذا أضاءت ماحولة وآته الهدى ضربه الخذلان وذهب الله بهذا النور وبقي مفروسا فى جوف الظلمات ، وهنا إشارة لماحة فى إسناد الذهاب بالنور إلى الله الرحيم الرحمن هذه الإشارة هى فيض الخذلان الذى أصابه وما آل إليه من ضلال وفساد وجفوة . حتى إنت الله سبحانه الذى وسع كل شيء .

رحمة وعلا يذهب بتورهم ويتركهم في ظلمات لا يبصرون .
وهكذا نجد الأمثال تتقارب وتنفذ وتختلف .

والمثل الثاني في سورة النور : ظلمات في بحر جلى إلى آخره تصوير
لأعمال الفجور والفسوق والغدر وما هو من هذا الباب وليس في المثل ما يدل
على أن لهم فيها مطعما في الآخرة بخلاف السراب فإنه نوع من الأمل
وإن كان وما ولهذا قلنا إنه مثل لأعمال البر كصلة القربى والإحسان .

وهذا سر اختلاف المثلين فيما ترى وكذلك اختلف المثلان في سورة
البقرة وقد ضرب لجماعة واحدة هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ويبدو أن
المثل الأول تصوير لضلالة أهل الضلالة حين لا يخوضون صراعا مع
الحق وأهله يعنى تصويرا لضلالهم في أنفسهم من غير أن تحس هذه النفوس
لمواجهة الحق ، والمثل الثاني تصوير لضلالهم وقد خاضوا لمواجهة مع أهل
الحق ، وهذه الحركة وتلك الأحداث وهذا الصراع القائم بينهم وبين العالمة
(الصيب والظلمات والعدو والبزق الذى يخطف أبصارهم) ومن لهذا الصراع
الذى يخوضونه مع أهل الحق ولا تجد شيئا من هذا في المثل الأول وإنما
تجد رجلا يستوقد نارا ثم تنطفئ ويبقى في ظلماته من غير أن يكون حوله
عدو وبرق يخطف أبصاره ، ومن غير أن ينخلع قلبه من هول الخفاقة فيضع
أصابعه في أذنه وهكذا .

وأذكر بما قلته من أننا نحاول فتخطىء ليعاود غيرنا فبصيب وأرجوا
أن يغفر الله لنا بهذا القصد ما يقع فيه من فساد الرأى وإنما هايتنا أن نحرك
العقول نحو هذا الباب الزاخر بالإلافة العالمة وإلى انزال فى أحكامها .

وعلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن يتبعهم بإحسان ٩٠

من أسرار الحذف في بعض آيات القرآن الكريم

بقلم
د / فتحي أحمد إسماعيل حسن
مدرس في قسم البلاغة والنقد

تقديم :

الذكر والحذف من أحوال الكلام التي لا يخلو منها بحال ، فقد يذكر المتكلم جميع أجزاء الكلام غير منقوصة ، إذا اقتضى المقام ذلك ، وكان في الذكر فائدة تعود على المعنى والمخاطب كتثبيت المعنى وتأكيده في ذهن مستقبله ، عند ذلك لا يسأل عن سبب الذكر لأنه جاء على أصل تركيب الكلام ، أما إذا كان في سياق الكلام من القرائن والأدلة ما ينفي عن ذكر بعض أجزائه ، فالحذف آتئذ بلاغة يبحث عن أسرارها ودقائقه ، الوتوف هي المعاني التي ظهرت من خلال حجب الكلام وصفية عباراته من طريق حذف بعض أجزائه .

وبين الشيخ عبد القاهر الجرجاني أهمية هذا المبحث في الكلام فيقول :
« هو باب دقيق المسالك لطيف المآخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد الإفادة ، وتجهدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأنتم ما تكون بيانا إذا لم تبين » (١) . . .

(١) دلائل الإعجاز / ١٤٦ ط . الحامشي تحقيق محمود شاكر .

فإذا ما أحسن المتكلم تغيير مقاماته ، وسوقه في مجالاته ، أتى بالعجب العجيب ، من البيان الساحر ، والمعاني الفياضة واستخرج البكنوز من غير مظانها في ظاهر الأمر ، والأشياء من نقائضها وما نحن نعرض من القرآن صورا ، ترى فيها ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وعدم النطق أشد إهرابا من النطق ، والبكوت عن البيان أتم من البيان وهي :

حذف الحرف

الحرف نوهان :

الأول : هو جزء الكلمة ومتمم لبنيتها الأساسية ومكمل لصورتها النهائية وذلك النوع يطوى تحته جميع الكلمات العربية وما تحويه من حروف .
والثاني : هو الحرف النائب عن الفعل وفاعله ، وذلك مثل حروف النفي والعطف والنهي والاستثناء والتوكيد والاستهزام ، والنداء ، إلخ وهي حروف المعاني .

فعمدما نقول مثلا : ما قام زيد فالمعنى : أننى قيام زيد ، وعندما أقول حضر محمد وحلى ، فالمعنى : أعطى حضور على حضور محمد ، وقولنا : لا تفعل كذا ، معناه : أنماك من فعل كذا ، وقولنا : جاء القوم إلا زيدا ، تقديره : استثنى زيدا ، قولنا : هل حضر محمد ؟ معناه : استفهم عن حضور محمد . . . وقولنا : يا محمد ، معناه : أدع محمد . . إلخ .

فهذا النوع من الحروف يختصر عن الفعل والفاعل — كما رأينا — ولو حذف من الكلام لأدى ذلك إلى الإجحاف به ، لأن المختصر لا يختصر وكما قالوا : المصغر لا يصغر ، إلا إذا صح التوجه إليه ، وكان معناه ملحوظا لقوة الدلالة عليه ، حيث لا يجوز حذفه من اللفظ ، إذا كان المقام يتطلب هذا

الحذف وبرقى به الكلام ، حيثئذ يكون الحذف بلاغة للمعنى ، وثقة بفهم السامع أو القارىء . بالإحالة إلى عقله وذكاؤه ، وخاصة إذا كان فى الحذف من الدلالات ، والإشارات ما لا يوجد أولا يلحظ بسهولة مع ذكر المحذوف .

ومثل هذا المعنى يتحقق عند حذف بعض حروف الكلمة الأصلية - غير حروف المعاني - إذا أفاد الحذف ما لا يستفاد عند الذكر ،

ونسوق فى هذا المقام آيات قرآنية وقع فيها حذف لبعض حروفها ، لنقف على ما يوحى به هذا الحذف من بعض أسرار التراكيب فى الذكر الحكيم ،

وهذا النوع من الحذف نجده نادرا فى دراسات البلاغيين وكتاباتهم ، إذ لم يلتفت إليه البكثرة السائدة منهم ، ولم يفرده بدراسة خاصة ، لأن طبيعته لا تخضع لقواعد وأسس ثابتة ، ولكنها إشارات وقبسات يدركها العقل الذكى من سياق الكلام ووحى الألفاظ ومعطيات المقام ، وتقوم على الحذر التام من الانسياق ورله فكرة شاردة ، أو استنباط متعجل يأخذ المعنى إلى بسند ضعيف ، فيحمل العبارات ما لا يطابق عما يقع فى الأوهام وتخييله العقول .

وهى إشارات يجب على المشتغل بأسرار اللغة وبلاغتها أن يقبض إليها ، وهذا التنبيه لا يصدر من فراغ ، ولا هو بدع من القول ، بل هو جمع لطائف مسائل هذا الباب المتناثرة فى ثنايا كتب التفسير ، وأقوال العلماء السابقين ، واللاحقين والمعاصرين ، فى كلامهم إشارات تلمس الجانب البلاغى فى هذا النوع من الحذف .

وعلى فطنة القارىء - أو السامع - ودقة حسه معول كبير فى سلوك هذا الدرب الوعر من الدراسات البلاغية (١) .

(١) خصائص التراكيب ص ١١٢ بتصرف .

١ — فن حذف الحرف ما نجد في قول الله تعالى :

(يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبك إنك كنت من الخاطئين)
 مودة يوسف آية ٢٩ . حيث حذف حرف الفداء . والتقدير : يا يوسف .
 . ومن أسرار حذف الحرف هنا أن المتأدى — بفتح الدال — قريب من
 المتأدى — بكسرهما — فطبيعة هذا الحديث هي المسارة التي تقرب من الهمس ،
 فقام الكلام وسياقه أغنى عن ذكر المحذوف ، فجاءت العبارة مصفاة موجزة ،
 دلالة على المراد أبلغ دلالة ، وتجدد أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأنتم
 ما تكون بيانا إذا لم تبين ، (١) .

فهذا الحذف حقق أول أغراضه وهو الاحتراز عن العبث ببناء على
 الظاهر ، وفيه تقريب للمتأدى وملاطفة له ، وإشاعة جو الإيناس والاطمئنان
 حوله حتى يفضي إلى ما يقال ويأتسره ، خاصة وأن من يلاطفه صاحب
 سلطان وولاية عليه — في ذلك الحين — وهذا أمر نادر من الملوك وأصحاب
 القيادة والسلطان مع أنباهم وملحقهم ، وهذا يجعل هؤلاء الأنبا مع مشرعي
 الصدور ، فيقع القول لديهم موقع القبول التام ولا سيما إذا كانوا من
 أصحاب النفوس الكريمة والهمم العالية ، والمروءات النادرة والحلم وسعة
 الصدور والعفو الجليل كيوسف عليه السلام .

كما أن الموقف كان بالغ الحرج ، فالأمر متعلق بالعرض والشرف ،
 وسعة بيت الرئاسة ، وهيبة الملك ، فيحتاج إلى الحكمة والقرينة والملاطفة ،
 وتقريب طرفي الخصومة ، حتى يمكن الإحاطة بهذا الأمر الشائن ، وحصره
 داخل نطاق محدود لا يتعدى جدران البيت الذي حدث فيه تلك المحاولة
 — المرادة — ، والأفراد أبطال هذه الواقعة .

كان هذا أملاً يراد العزير وصاحبه من هذا التعرف اللطيف مع يوسف عليه السلام حتى لا يزاع الأمر ، وتزلزل أركان هذا البيت ، ولكن أن لم ذلك وهيئات هيئات ، فأحاديث العشق والغرام تنفذ إلى الأذان كما ينفذ الهواء إلى الصدور ، ويصنح الجدران آذان تصفى ويهون ترى ، والسنة تنبع ما يدور وراءها ، وخاصة هذه الجدران العالية ، وهذا المستوى الرأى من الخلائق الذين لا تشغلهم ضرورات الحياة فينقبون عن أشياء يقطعون بها ملهم ويقضون بتسليتها أوقانهم ، وما أنسب مثل هذه الأحاديث لمشمل هذه الطائقات من الناس .

وهذا ما أشار إليه الرمخسرى في تفسير الآية بقوله :

« (يوسف) حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مغاطن للحديث ومنه تقريب له وتلطيف لجله (أعرض عن هذا) الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .. » (١) .

وهو ما أوضحه صاحب خصائص التراكيب أيما إيضاح بقوله :

« أراد بقوله : (يوسف أعرض عن هذا) أكتم هذا الأمر ولا نتحدث به حياة لعرضنا وشرفنا في قومنا ، ثم قال لا مرأته : (استغفرى لذنبك) وكان رجلاً حليماً ، وقيل كان قليل الغيرة ، والشاهد حذف حرف النداء ، وله هنا رمز لطيف ، وكأنه يهمس بهذا الخبر في أذن يوسف محاذراً أن يسمعه أحد ، ثم فيه تقريب وملاطفة ليوسف عليه السلام ، وإيحاء خفي بأن الخبر كله يجب أن يضر في السرائر ، ألا يجرى به لسان » (٢) .

ومن أسرار الحذف أيضاً في هذه الآية ، أن الجملة تحمل في طياتها ذليلاً قوياً آخر على براءة يوسف عليه السلام من التهمة الظالمة التي أرادت أن تلصقها به امرأة العزيز ، فالهمس والتعريب والملاطفة ، والرجاء المتكامل

بالاسترحام بأن يكتم يوسف هذا الأمر ويعرض عنه ، لم يكن ليحدث
لولا يمكن يوسف عليه السلام برئنا وظهرت دلائل واضحة على بياض صفحته
وسلامة طويته ، وعلى ترفعه عن هذا الدرك المهبين ، وإذلال النفس وإرغامها
في مهوى الرذيلة السحيق ، ولو كان الأمر خلاف ذلك لسكان الحديث جبراً
والصوت عالياً ، ولاقتيد يوسف عليه السلام مكبلاً بالقيود ، ومجللاً بالفضائح
على رؤس الأشهاد ، ولنفذ فيه حكم يناسب الجرم ، ويرد الاعتبار لأهلى
البيت بما يناسب مكانهم ومكانتهم .

ومكثدا يكون أسلوب القرآن المعجز الذى لا تنقض عجايبه ، ولا يهاق
على كثرة الرد .

٢ - ومن شواهد حذف الحرف قوله تعالى :

« قالوا تالله تفتو تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من
الهابكين ، سورة يوسف آية ٨٥ .

وأصل الكلام : « لا تفتو تذكر يوسف » .

والدليل على أن في الكلام حرفاً محذوفاً هو جواب القسم « تفتو » الخالي
من التأكيد لأن جواب القسم يؤكد إذا كان مثبتاً ، ويترك التأكيد في حالة
النفي ، ففي خلو الجواب من التأكيد دليل على الاعتبار بحرف النفي المحذوف .

ويعلق ابن أبي الأصبغ على هذه الآية في باب اختلاف اللفظ مع
المعنى «^(١) ميثنا أن الله سبحانه أنى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى الألفاظ
الأخرى الأكثر دورانا واستعمالا عند السكاكة ، مثل : والله ، وبالله ، كما أن
الفعل المجاور للقسم أغرب صيغ الأفعال في بابه - وهو باب كان وأحواله -
فكان وبقية أحواله أكثر استعمالاً من « تفتو » هذه وأغرب عند الناس ،
وحقاً يتم سياق الغرابة والوحشة أنى بهما بأغرب ألفاظ الهلاك وهو أفظ .

والحرف ، ، وهذا كله مناصب المقام الذي يمتلئ بالوحشة والجفوة والآفة ،
وغريب المطالب ، فما أغرب ولا أعجب من أن يطلب من والد أن ينسى فلذة
كبدته . وقطعة منه - بل هي أغلاما وأقسما منه - وهي ولده الحبيب الذي
لا يعرف حقيقة مصيره فلا هو حتى فيطمئن عليه ، ولا هو ميت حقيقة
فيستريح من عناء الفكر فيه ، فليس في الوجود أغرب ولا أعجب ولا أنكر
من هذا الذي يريدونه من أبيهم وحذف حرف النفي - وهو خلاف الأصل -
يأتى متلائما مع هذا السياق الغريب ، ويرى في خضاه إلى حاجتهم ، وهي
فسيان يوسف وإيمانه من قلب أبيهم ، الذي مضى بهم ، وتولى عنهم من
أجل يوسف ، (١) .

٣ - ومن شواهد حذف الحرف قوله تعالى :

« قال ذلك ما كنا لنبغ فارتدا على آثارهما قصصا » سورة الكهف آية ٦٤ .

قراءة الجمهور « نُبِغ » ، بحذف الياء في حالتي الوقف والوصل .

وأثبتها ابن كثير في الحالتين ، وحذفها نافع وأبو عمرو والكسائي في
الوقف وأثبتوها في الوصل .

وقراءة الحذف لهذا الحرف يمكن وراءها سر بلاغي يعود على المعنى
المستفاد من سياق الكلام .

فسياق الأحداث يفيد أن موسى عليه السلام وقته خرجا للبحث عن
العبد الصالح وهو الحضر للوقوف منه على بعض أسرار علم الله عز وجل الذي
هله لإياه كما أوحى الله إلى موسى بذلك ، وجعل لها علامة ذلك أن يفقدا
الحوت الذي أعداه لعدائهما ، ففسياه عند بلوغهما مجمع البحرين ، ولم يتذكراه
إلا بعد إحساسهما بالجوع وحاجتهما إلى الطعام ، فذكر القى أنه نسي
الحوت بجوار صخرة عند مجمع البحرين .

(١) خلاص التراكيب ص ١١٤ - ١١٥ . ١٠ د / محمد أبو موسى .

وكانت هذه أمنية موسى عليه السلام التي تمق أن يظفر بها ، وخرج من
جن أجلاما مهتافا متلها ، فعندما أخبره القى أسرع بالعودة لتوه ، ولم يضيغ
وقتنا في الجوار والجدل مع فتاه ، فكانت غاية أن يصل بسرعة إلى مكان
الصخرة ، وتم له ما أراد في أسرع وقت .

وقد جاء التعبير القرآني الدال على هذا متطابقاً مع هذه الغاية ودالا عليها
أوضح دلالة ، في . العطب بالغاء وفارقاء الدالة على التعقيب وسرعة ملاحقة
عابدها لما قبلها زمانا وإحداثا .

ثم جاء الحذف لحرف الياء من كلمة نبيغ ، وإسقاطه من اللفظ ليدل
على اختصار المسافة ، والدلالة على أنه لسرعة رجوعهما كان المسافة أسقطت
لها إسقاطا ، ولم يقطعاها سميا .

وقد أشار العلامة الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين إشارة لطيفة إلى
سبب الحذف فقال : « ولما حذف تشبيها بالفواصل ، (١) » .

فقد كانت هذه الجملة فاصلا بين حالتين من أحوال موسى وفتاه ، حالة
البحث الجاد عن العبد الصالح ، وحالة العنور على أمارات وجوده ، والمسارة
إلى الوصول للأمل المنشود ، حتى إنه لم يعد لديه وقت لإتمام الكلام ، كمن
أخبر بمقصد حبيب غائب غيبة طويلة في الطريق فيترك كل ما في يده
ويسرع لملاقاته ، فلا يكلم الناس حوله إلا رمزا ، ولا يمشى على الأرض
إلا قفزا .

فدلت فواصل الألفاظ على فواصل المعاني لتحقيق الفائدة المذكورة ،
ويؤيد ما قلناه ، ويؤكد أيضا أن في هذه الكلمة - نبيغ - حذف آخر وهو
حذف صلة الموصول ، لأن دما ، موصولة حذف عائدها والتقدير : ذلك
ما كنا نبغيه ، وأرى لك الحذفين تكاتفا في إبراز المعنى المأخوذ من

بسياق الكلام ، وهو إثبات سرعة الارتداد خوفا من ضياع الفرصة أو بعد الوصول إليها .

وقد در العلامة الجمل - أيضا - فقد أشار إلى هذا المعنى عندما قال عن سبب حذف الياء من « تبغ » :

« وإنما حذف تسميها بالفواصل ، أو لأن الحذف يأنس بالحذف ، فإن « ما » موصولة حذف هاء « ها » (١) .

٤ - ومن هذا النوع من الحذف ما تجده في قوله تعالى :

« ونادرا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما تكون » سورة الزخرف آية ٧٣ .

قرأ سيدنا عبد الله بن مسعود ، يامالا ، بحذف الكاف للترخيم . وإذا كان ترخيم الكلام يدل على رفاة المتكلم أحيانا ، وعلى الحديث أحيانا ، وعلى التدلل على المخاطب أحيانا - الأمر الذي دعا سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن يقول عندما سمع بقراءة ابن مسعود : « ما أشغل أهل النار من هذا الترخيم » - إلا أنه - أي الترخيم - يأتي أحيانا ليدل على شدة الحول ، وضيق الصدر ، عما يصعب معه على المتكلم أن يكمل الكلمات فيقطع بعضها ، ليدل بهذا الحذف على يأسه وانقطاع أماله وخيبة رجائه في تحصيل أمانيته .

٥ - ذا فحوى الجراب على اعتراض ابن عباس على قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - .

وإنما حسن ه ذا الترخيم لأنه يدل على أنهم بلغوا في الضعف والنجافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها (٢) .

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٣٤ - ٣٥ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٢٨ ، والكشاف ٣/٤٩٦ .

وم لشدة غام فيه عجزوا عن إتمام الكلام ، وهذا توجيه بلاغى جيد
لقراءة من قراءات القرآن الكريم المتعددة ، وقد كن فيها من الأسرار
والدقائق مالا يحصى فى غير ما بوضوح إلا بعد تعمق فى الفهم ونظر
متدبر .

وهو لما نستشفه من القراءة المتواترة ، فاللهاء على أنفسهم بالهلاك -
« ليقض علينا ربك » - يدل على ضيق الصدور ، وبأس تام من الخلاص من
هذا العذاب ، فالمر كوزى الطباع أن الإنسان الحى لا يدعو على نفسه بالهلاك
إلا إذا كان العيش نكدًا ، وكانت حياته مصدر أذى دائم ، وألم لا ينقطع ،
و«ذاب أليم» عند ذلك بمعنى الموت حتى يستريح ، وهذا لن يتحقق لأهل
النار حتى يبلغ الجمل فى سم الحياط .

فهذا المعنى الذى أوضحناه مأخوذ من طبيعة الجمل المعبر بها فى هذا السياق
لما فى القراءة موضع الاستشهاد بالحذف الحرف هو الذى كشف ستر
هذا المعنى وقربه ، وأقام الدليل القاطع عليه ، لينضم إلى المعنى المستفاد من
الجملة الالهائية - « ليقض علينا ربك » - فتلتقى القراءتان فى تأكيد المعنى
المراد وإفهامه للخطاطين ، إحداهما أفادته بالحذف والأخرى أفادته
بالإثبات . وهذا من نزجوه الإعجاز فى النظم الكريم ، ومن خصائص
أسلوب القرآن الحكيم ، التى لا يشارك فيها غيره ، ولا عجب فى ذلك فهو
تنزيل من حكيم حميد .

• - ومته قول الله تعالى :

« وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، المطففين آية ٣ ... »

فالضمير فى « كالوهم أو وزنوهم » يرجع إلى الناس ، وهو منصوب ،
وفى نصبه وجهان ، إما بزعم الخافض . والأصل : كالوا لهم أو وزنوا لهم .
فحذف الجار وأوصل الفعل .

وأما على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والأصل : كالوا
مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم .

والحذف على الوجه الأول ملحوظ هام وسر بلاغى يكن وراءه ، حذف
اللام الجارة هنا وتعدي الفعل إلى المفعول - المجرور أصلا - يرمز في دقة
إلى شيئين :

أولا : - أن هؤلاء القوم - المطففين - قد تعدوا حدود حقهم إلى سلب
حقوق الغير ، وأن هذا التعدي أصبح عادة مألوفة لهم إلى الحد أنهم لا يجدون
فيها غشاضة ولا إنكارا من أحد لإفهم هذا العمل واشتغالهم به ، واكتفى
الناس بإضمار السخط ، وطى الإنكار في قلوبهم ، لعدم فائدة إظهاره مع
من عيبت بصائرهم ، وطمست معالم الحق في قلوبهم واستولى عليهم الطمع
والجشع المهلكان ، حتى يخيل إلى من يرأى أنهم يكادون أن يضموها الناس
في كفاف الموازين وأواني الكيل ، دل على هذا تعدي الفعل دكالا ، إلى
المفعول بنفسه وحذف حرف الجر ، ولا سيما إذا علمنا أن هذا الفعل يكون
متعديا ولازما ، وتوجيه كونه لازما متعديا بحرف جر محذوف ليبدل
على ما قدمنا .

ويؤيد هذا توجيه التعبير بد على مكان د من ، في الآية السابقة والذين
إذا اکتالوا على الناس يستوفون ، فقد قيل فيه : لما كان اکتيا لهم من
الناس اکتيا لا يضرهم ، ويتحامل فيه عليهم ، أبدا على ، مكان د من ،
للدلالة على ذلك (١) .

فإذا كان الضرر واقعا منهم هندا يأخذون ، فهم هندا يعاون أشد
إضرارا وأذى للمتعاملين معهم .

ثانياً : الحذف هنا يشير إسقاط جزء من الحق ، والمحذوف هنا جزء

أصيل في الكلام ، وكذلك السانط في التعامل - المحذوف - والمأخوذ غيبنا جزء أصيل من حق صاحبه .

والخلاصة : أن إسقاط الحرف الذي هو حق الفعل وحق الكلام ، متناسق مع إسقاط الحق الذي هيرت عنه الآية ، وتعدي الفعل بغير الوسيلة اللغوية المألوفة - المشروعة - يشير إلى تعدي القوم حدود الشرع المألوف ، ووصول أيديهم إلى ما يجب أن تكف عنه ، كالفعل الذي وصل ظلمنا إلى ما يجب ألا يصل إليه إلا بالطريق المألوف .

من أسرار حذف المضاف :

في قوله تعالى في سورة آل عمران : « وآتينا ما وعدتنا على رسلك ... » الآية ١٩٤ وقوله تعالى في سورة الأعراف : « أوعجبتم أن نجاهكم ذكر من ربكم على رجل منكم ... » الآية ٦٣ في الآيتين مضاف محذوف وتقدير أصل الكلام : على لسان رسلك في الأولى ، على لسان رجل منكم في الثانية ، لحذف المضاف « لسان » في كل منهما وهذا الحذف له فرض بلاغى اقتضاه معنى الكلام وتمام الفائدة وتربيتها ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يعلن أن منهج الله مهمة صعبة يحملها رسله ، ومشاق تبليغ هذا المنهج لا تقف عند البلاغ بلسان الرسول ، ولكن متاعب حمل الرسالة ومشاقها تشمل كل حياة الرسول .. لسانه ويديه ورجليه ، وعقله وخواطره وكل جوارحه ، ليله ونهاره ، حله وترحاله ، ماله ومناحه ، حربه وسلمه ، رضاه وغضبه ، ... الخ بمعنى أن الرسول يكون تطبيقاً شاملاً لمنهج رسالته بدقة وأمانة وإخلاص وتضحية وبذل ، يصدق هذا ما يرى من السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن ، أى أنه يتخلق بمنهج رسالته بما يستلزمه من متاعب ومشاق ، وهذا توجهه حتى لكل صاحب دعوة خير وإصلاح أن يتقلدها أولاً ويطبق مبادئها على نفسه ثم يدهو غيره إليها فيستجاب له آنذاك .

واقفه سبحانه وتعالى حينئذ يختار رسولا ، لا يختار شخصا ليداله على رقاب الناس وليكنه يختاره لمهمة شاقة متعبة ، فكل الرسل ماشوا على الكفاف ، وكانت حياتهم بعيدة عن أي نوع من أنواع الترف والرفاهية ، ولذلك لم يقل الحق : على لسان رجل منكم ، ولا على لسان رسلك ، لأن المسألة ليست بلاغا باللسان وليكنها دعوة تشمل حياة الرسول كلها في كل لحظة من عمره ، وكل حركة أو سكنون وكل لحظ أو لفظ^(١) أولئك الذين هدى الله فيهم دلالم اقننه^(٢) .

وهكذا نجد أن الحذف هنا وقع موقعه الصائب ونبه على أشياء بينهما لم تكن لتتضح وتبين لو ذكر المحذوف ، فلهذا القائل في بيان الحذف :

.. فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر . والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأنتم ما تكون ببيان إذا لم تبين^(٣) .

حذف المسند

ومنه قوله تعالى : وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ، الآية ٦ .

في هذه الآية الكريمة حذف المسند من قوله تعالى : وإن أحد من المشركين استجارك فأجره . ، والتقدير : وإن استجارك أحد من المشركين فالفعل المحذوف : أو المضمر - يفسره المذكور .

أو يكون التقدير : وإن طلب أحد من المشركين أن تجيره من القتل إلى أن يسمع كلام الله فأجره ، وقد تبين حذف الفعل هنا لأن : إن ، الجازمة .

(١) من خواطر الشيخ محمد متولى الشعراوى الواو الإسلامى العدد (٣٤٥) .

ص ١٢ بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٤٠٩ هـ - بتصرف .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٠ . (٣) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

الشرطية تختص بالدخول على الأفعال - المذكورة أو المقدر ذكرها - فهي الدليل على حذف الفعل بعدها .

ولبيان الغرض من حذف المستند لابد من عرض سياق الكلام في هذا الموطن يقول الإمام الرازي في تقرير هذا الكلام :

« .. لأنه تعالى لما أوجب - بعد انقضاء الأشهر الحرم - قتل المشركين دل ذلك على أن حجة الله قد قامت عليهم ، وأن ما ذكره الرسول قبل ذلك من أنواع الدلائل البينات كفى في إزاحة عذرهم وعلتهم ، وذلك يقتضى أن أحدا من المشركين لو طالب الدليل والحجة لا يلتفت إليه ، بل يطالب إما بالإسلام وإما بالقتل ، فلما كان هذا الكلام واقعا في القلب لا جرم ذكر الله هذه الآية إزالة لهذه الشبهة ، والمقصود منه بيان أن الكفار إذا جاء طالبا للحجة والدليل ، أو جاء طالبا استماع القرآن ، فإنه يجب إيماله، ويحرم قتله ، ويجب إيماله إلى مأمته ، وهذا يدل على أن المقصود من شرح القتل قبول الدين والإقرار بالتوحيد ، ويدل أيضا على أن النظر في دين الله أعلى المقامات وأعلى الدرجات ، فإن الكافر الذي صار دمه مهددا لما أظهر من نفسه كونه طالبا للنظر والاستدلال ، زال ذلك الإهدار ، ووجب على الرسول أن يبلغه مأمته (١) .

ولما كان ظاهر الأمر يقتضى إباحة دم المشركين بعد انقضاء الأشهر الأربعة وكان الذى يهم أى واحد منهم - أى من المشركين - الحفاظ على حياته وصون دمه من الإهدار، اقتضى المقام أن يطرى الفعل، ويقدم الفاعل على المفسر رعاية لهذا المعنى، وكما قال سيبويه : إنهم يقدمون الأعم والذى هم بشأنه أعنى ومعنى هذا : أن إبراز الفاعل حاريا من الفعل يعد أداة ليس احتضان هذا الفاعل من شأنها ، فيه إشارة إلى أنك يا محمد عليك أن تقبل

إيجارته وإن نضجه إلى جناحك ، وهو سالم آمن ، مع أن الشأن ألا يضم مثله إلى جناحك ليكفره وعناده ، ولكن مادام استجار فأقبل هذه الإجارة ، مغضيا عن أصل القاعدة التي هي إهدار دمه .

والخلاصة :

أن السكينة إن ، جاورت الاسم وما كان لها أن تجاوره ، وقبلته في حينها وهي سيدة الجملة ومعقد نظامها ، وكان الشأن فيها ألا تقبله إلا بعيدا عن جنابها مفصولا بينه وبينها ، وهذا الحال ليس بعيدا عن المعنى المقصود ، لأن المراد هو أن يدخل هذا المستجير في حيوك يا محمد وهو آمن ، وكان الشأن فيه ألا يدخل في هذا الحيز ، لأن قاعدته إهدار دمه ، وإنما طلبه الإجارة أخرجه من القاعدة .

ومن أصرار الخلف هنا أيضا المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ ، إذ لو قال وإن استجارك أحد من المشركين فأجره ، لفصل بين الاستجارة والأمر بقبولها (فأجره) بفصل هو (أحد المشركين) ، والمطلوب أن يكون الجواب عقب الإجارة بلا ريث (استجارك فأجره) . ولقاء هنا موقع جليل إذ وصلت الفعلين وهما طلب المشرك أن يجار وقبول الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الجوار وجعلتهما كأنهما فعل واحد .

وهكذا نجد أن حذف المستند هنا واستجارك ، أعطى من الأصرار ما لم يكن يظهر لولا هذا الخلف ، وصديق من قال عنه : (. . . فإنك ترى به ترك الذكر أفسح من الذكر ، والصمت من الإفادة أزيد للإفادة ، وتجنبك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأنت ما تكون يسافا إذا لم تبين ، (١) .

وقد يقع المسند ضدراً بجملة تكون صلة فيحذف مع المسند إليه والأسم
الموصول ، أو تكون صفة لشكرة موضوعة فتحذف جملة الوصف مع
الموصوف ، ومنه قوله تعالى :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت
 للمتقين ١٠٠ » ، آل عمران آية ١٢٣ ، في الكلام حذف وتقديره وسارعوا
 إلى ما يوجب مغفرة من ربكم .

فلا شك أن المسارعة إلى المغفرة لا تكون مباشرة إليها . بل إلى سببها ،
 فهي سببية عن هذا السبب المحذوف ، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات
 التي تؤدي إلى مغفرة من الله تفضلاً منه على عباده .

وتقدير المحذوف بأنه ما يوجب مغفرة - يحذف المسند والممند والمسند
 إليه - ليس معناه إلزام الله - سبحانه - بهذه المغفرة ، لأنه لا يجب عليه شيء
 إلا تفضلاً منه ونعمة ورحمة بعباده ، ولكن معنى الوجوب هنا هو التلازم
 والارتباط بين الأسباب والمسببات ، فالمغفرة سببها فعل الطاعات وترك
 الموبقات ، فإذا ما فعل العباد هذا استحقوا المغفرة من الله وآثور بجنهته تفضلاً
 منه وإنعاماً فهو سبحانه إن عفا فبمحض الفضل وإن عاقب فبمحض العدل .
 « ولا يظلم ربك أحداً » ، الكهف آية ٤٩ .

ومن أغراض الحذف هنا أنه يدعو إلى القور ويمنع التراخي في فعل
 ما يوجب هذه المغفرة وفيه إغراء للمخاطبين وحث لهم على تحصيل ما يدفعهم
 ويوصلهم إلى رضوان الله هو وجل فهم في الحقيقة لا يسارعون إلى أفعال
 الخير التي توجب المغفرة ، بل هم يسارعون إلى المغفرة نفسها عندما يفعلون
 ما يوجبها ، وفي هذا إدخال للطمأنينة في قلوبهم بأن ثمره عملهم «ضمونه»
 ومرجوة لشدة ارتباطها بعملهم هذا ولأنها نتيجة طبيعية له .

وفي هذا الحذف غرض آخر هو إعمال العقل والفسكر في تحديد المحذوف
 والمراد منه ولذلك أوله المفسرون بتأويلات كثيرة منها :

أن المراد به الإسلام ، وهو رأى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ،
ووجهه أنه نكر المغفرة والتذكير هنا يفيد التعظيم المنتهى في العظم ، وأيس
ذلك إلا المغفرة التي سببها الإسلام .

وقيل : هو أداء الفرائض ، وهو مروى عن الإمام علي بن أبي طالب
رضى الله عنه ووجه أن اللفظ مطلق فيجب أن يعم الكل .

وقيل . هو الإخلاص لأنه المقصود من جميع العبادات فبدونه لا يصبح
أبه عبادة وهو رأى سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه . وما أمروا إلا
ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء . . . ، البينة آية ٥ .

وقيل : هو الهجرة ، وقيل : الجهاد ، وقيل : الصلوات الخمس ، وقال
عكرمة : هي جميع الطاعات ، وقيل : هي التوبة من الربا والذنوب ووجهه :
أن الله نهي أولاً عن الربا في الآيات قبلها . يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا
أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ، آل عمران آية ١٣٠ .

ثم نهي عن الذنوب وأمر بطاعة الله ورسوله في كل شيء . واتقوا النار
التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ، آل عمران
آية ١٣١ ، ١٣٢ .

ثم قال : . وساروا إلى مغفرة من ربكم ، (١) .

فهذه الأقوال وغيرها ، كانت وليدة إعمال الفكر في تحديد المراد بهذا
المحذوف . سواء كان صدر جملة أو صدر جملة صفة . وفي ذلك إثراء للفكر
وإذكاء للعقل ، لم يكن ليحدث لولا ورد العظم الكريم على هذه الصورة الرائعة .
ويمكن أن يكون المحذوف من هذه الجملة المجرور المضاف ، ويكون
التقدير : وساروا إلى أسباب مغفرة من ربكم ، وهو الطاعات أيضاً ، ويقال
فيه ما قيل في الوجه السابق من بعض أغراض الحذف التي ذكرناها .

(١) التفسير الكبير ٥/٩ .

حذف المسند إليه

المسند إليه ركن أساسي من أركان الجملة - فعلية كانت أو اسمية - التي لا تقوم إلا به ، ولا يسقط منها بحال من الأحوال إلا إزدل عليه دليل ، وقامت قرينة تدل على مكانه ، لأنه إما أن يكون قاعلا ، أو مبتدأ ، وكلاهما يكون نصف جملة .

ومع أهمية هذا الركن من الجملة إلا أنه تعثرى الكلام أحوال وملاحظات يكون حذف هذا الجزء . أبلغ من ذكره وأدل على المعنى وتحقيق الغرض المطلوب من سياق الكلام وبناءه .

وفي موضوع بحثنا نجد أن حذف المسند إليه في بعض آيات القرآن الكريم له أسرار بلاغية ودلالات معنوية هامة تظهر بعض لمحاتها في دراسة الآيات الآتية :

١ - في قوله تعالى : د فقلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين الأعراف آية ١١٩ - ١٢٠ حذف المسند إليه - الفاعل - من قوله : د فقلبوا هنالك ، وبقي الفعل للمجهول ، لأن الغرض الأساسي الذي يهم السامع أن يعرفه ، بعد ما سمع هو هذا التحدى الخطير لموسى عليه السلام واجتماع الملأ من قوم فرعون . والسحرة الواقفين من سحرهم وتأثيره ، حتى إنهم طلبوا أجرا على قلبهم وتفوقهم . د أئن لنا لأجرا ١٢١ كئنا نحن الغالبين ، الصغراء آية ٤١ .

ومن فرط ثقتهم خولوا موسى عليه السلام أن يختار من يبدأ بإلقاء حاميته . د قالوا يا موسى إنا أن تلقى ولما أن نكون نحن الملقين الأعراف آية ١١٥ .

فبعد السحرة عليهم ويطلب منهم أن يلقوا أولا ثقة بجميعة الله وتأيدته ،

« قال ألقوا فلما ألقوا سحرروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، الأعراف آية ١١٦ .

بعد هذا كله من الجمع الحاشد من الملأ والسحرة وأدوات سحرهم الكثيرة ، والتحدى الخطير لموسى عليه السلام ، والتأييد الكبير من فرعون لجنده والوعود بمكافأة سخية في حالة الفوز ، في مواجهة موسى ، الذي يلاقيهم بمفرده - كما يظهر لهم - ليس معة إلا عصا واحدة لم يخطر على بالهم أن تصنع شيئاً أو تصمد في مواجهة سحرهم العظيم .

كان المتوقع - في ظاهر الحال - أن تكون موعة موسى مؤكدة لأجدال فيها ، والنصر الساحق للسحرة وأدواتهم ، وأنه سيكون يوماً مشهوداً لهم ، ولكن حدث ما لم يكن متوقفاً ولا في حسابهم ، وكانت النتيجة مفاجأة لم يخطر لهم على بال فاختفت حبالهم وعصيتهم وذهبت إلى المجهول في بطن العصا ، وهوى صرح هؤلاء القوم الذي بنى على خيالات وأوهام .

فكان الغرض الأول من هذه الجملة منصبا على بيان أن السحرة هلبوا ، وعلى إبطال سحرهم الذي كانوا فيه مشاهير .

وفي هذا التعبير القرآني - أيضا - إشارة إلى أن موسى عليه السلام ليس هو الغالب لهم في الحقيقة ، وإنما الغالب لهم قوة هائلة خفيت عن إدراكهم أبعدت موسى عليه السلام وجعلت العصا اليابسة حية تسعى تلقف ما يأفكرون عند ما ألقاها موسى على جمهم ، ولو أنه قال : فتلقيهم موسى ، لكان نصا على غلبة موسى عليه السلام لهم ، وأن له فعلا مؤثرا غلب به ، وليس كذلك ، فإن سيدنا موسى عليه السلام أوجس خيفة في نفسه لما رأى حبالهم وعصيتهم وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى^(١) ، « قال بل ألقوا

فلذا جبالهم وعصيمهم يحيل إليه من سحرهم أنها تسمى فأوجس في نفسه خيفة موسى فلما لا تخف إنك أنت الأعلى . . . طه ٦٦ - ٦٨ .

وفي قوله تعالى : « وألقى السحرة ساجدين » .

حذف منه المستند إليه وبني الفعل المجهول ، وقد قيل في الغرض من هذا الحذف إنه دلالة على السرعة الفائقة في وقوع الحدث ، وتصوير أن قوة مجهول استلبت عنادهم وكفرهم فحرروا في ساحة الحق ساجدين ، (١) .

وهذا التوجيه هو ما أشار إليه الزعزعي عند تفسير هذه الآية بقوله : (« وخروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خروجهم ، وقيل لم يتألموا ، وأرادوا فكأنهم ألقوا ») (٢) .

وهذا التفسير يعزوه نظرية اعتزالية - وقد كان جار الله من المعتزلة وهي الفكرة الإسلامية التي تنسب أفعال العباد الاختيارية إلى العباد أنفسهم وتقول بخلقهم لهذه الأعمال - ولذلك قال : « كأنما ألقاهم ملق لشدة خروجهم » ، فالتشبيه أخذ تصوير عظم المبادر منهم في شدة سرعة بفعل « أن ألقاهم » في قوة وسرعة فلم يتألموا نفسة فواضح أن الغرض من هذا التشبيه هو التصوير الدقيق لهذا العمل السريع المصادر منهم .

يبد أن هناك تأويلا آخر لا ينسب هذا الفعل إليهم ، بل ينسبه إلى الله عز وجل ، احتجاج به جماعة أهل السنة - وهي الجماعة التي تنسب جميع أفعال العباد إلى الله عز وجل سواء منها الاضطرارية أو الاختيارية وللعباد من أفعالهم الاختيارية الكسب فقط - ولذلك يقول زعفر الرازي في تفسير هذه الآية « احتجاج أصحابنا بقوله تعالى : « وألقى السحرة ساجدين » قالوا : ذلك الآية على أن غيرهم ألقاهم ساجدين ، وما ذاك إلا الله رب العالمين ، فهذا

يبدل هل أن فعل العبد خلق الله تعالى ، قال تعالى ، قال مقاتل : أنقام الله تعالى ساجدين ، (١) .

وكان بهم ينظرون إلى قول الله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيبض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » هود / ٤٤ .

فبما أنه ليس هناك فاعل لهذه الأمور الخائفة إلا الله فكذلك هنا لا يوجد فاعل لهذا الخور السريع إلا الله عز وجل ، وينتاب السحرة على ثمة هذا العمل وتنتائجهم وهو ما يسمونه بالكسب فعل هذا التأويل ليس هنا تصوير ، لكنه تمييز عن الواقع تعبيراً حقيقياً ، وحذف الفاعل هنا للعلم الجازم به حيث لا يقدر على هذا الفعل إلا الله تعالى الذي استلب منهم الكفر والعناد بقدرته غفروا في ساحة الحق ساجدين مستسلمين لدلائل قوته القاهرة وسلطان الحق الواضح غير مباليين بما يحدث لهم بعد ذلك بعد أن ذاقوا حلاوة اليقين ورأوا نور الحقيقة الساطع .

فانظر كيف آثار حذف الفاعل هنا هذا الفيض من البحث والدرس واختلاف وجهات النظر والتأويل ، وبينت على كل وجهة مبادئ وأفكار تمسك بها معتقوها وليس هذا إلا لأسلوب القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد .

والخلاصة أن الحذف على مذهب أهل السنة حذف حقيقي للفاعل المعلوم وهو الله عز وجل وعلى مذهب الممتزلة حذف تخييلي . لأن السحرة - على هذا المذهب - ألقوا أنفسهم إلا أنهم لشدة الإلقاء ومرعته كان ملقياً أنقام .

٢ - في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيبض

الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين . . .
هود / ٤٤ .

جاء الإخبار في هذه الآية على طريق حذف الفاعل وبناء الفعل المفعول لأغراض بلاغية استدعاهما المقام ، وكانت موضع بحث علماء البلاغة قديما وحديثا ، فهي شاهد أصيل وقاسم مشترك بينهم في شواهد حذف المسند إليه ويمكن أن نستخلص مما ذكره في سر الحذف فيها ما يلي :

(أ) الدلالة على الجلال والكبرياء وعلى القوة القاهرة التي لا تدانيها قوة ، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، ويكون قاهر (١) .

لأن السماء على علوها وانساعها . والأرض على عمقها وطبقاتها وأرجائها . وهذا الماء الكثير الذي ملأ الدنيا كلها ، وإبعاد الظالمين العتاة من ساحة الرضوان والقبول والقرب من الله عز وجل ، كل هذه أمور عظيمة . وهي مع هذه العظمة رهن إشارة الحق وطوع إرادته وأمره فهي أسرع إلى تنفيذ مراده من البرق الخاطف ، فمع بدء القول تكون سرعة التنفيذ والامتثال .

ولاشك أنه لا يقدر على هذا إلا من بيده ملكوت السموات والأرض ذو العظمة والجلال ، وهو الله عز وجل .

(ب) الدلالة على وحدانية الله عز وجل ، المطلقة ، حيث لا يشار كاحد في أفعال فهو والمؤثر الواحد ، فبناء هذه الأفعال المفعول دل على (أن) فاعلها واحد لا يشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوم إلى أن يقول غيره :
« يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اأفلمي » ، ولا أن يقضى ذلك الأمر الخائل

غيره ، ولا أن تستوى السفينة على متن الجودي ، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ^(١) ،

(ج) الدلالة على اختصاصه جل شأنه بهذه الأعمال الجليلة ، والإشارة إلى قوة ظهور الفاعل ، وفي هذا يقول الرازي :

(. . قوله : د وقيل ، وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة بحيث أنه متى قيل : د قيل ، لم ينصرف العقل إلا إليه ، ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو ، وهذا تنبيه من هذا الوجه على أنه تقرر في القول أنه لا حاكم في العالمين ، ولا يتصرف في العالم العلوي والعالم السفلي إلا هو ^(٢)) . حقا عندما تسمع صيغ هذه الأفعال في مثل هذه المقامات لا يسبق إلى الوم أحد على أنه الفاعل إلا المختص بها وحده ، وهو الله عز وجل ، فلا يتصور أن يقوم أحد غيره بمقامات هذه الأمور .

أما قوله تعالى : د وقيل بهذا القوم الظالمين ، ، بحذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول فتقدير الفاعل فيه احتمالان :

الأول : أن يكون هذا القول من الله عز وجل على سبيل المن والطرذ من رحمته جزاء كفرهم وعتادهم وظفولهم ، ولا يملك هذا إلا الله وحده . فلا يملك أحد إبعاد أحد من رحمته وهدايته سواء ، كما لا يملك أحد لأحد قربا من مساحة الرحمة ، وتعيم القبول ، إلا من وسعت رحمته كل شيء ، ومن لو شاء طردى الناس جميعا ، وخوطبوا بالبناء للمفعول دلالة على بعدم ، وعدم أهليتهم لشرف الخطاب منه سبحانه ، وفيه أيضا الدلالة على سرعة الإبعاد والطرذ .

الثاني : أن يكون هذا القول من كلام نوح عليه السلام وأصحابه ، جرى مجرى الدعاء عليهم ، لأن الغالب على من يسلم من الأمر الهائل النازل

حقا با لظلم بين فادح ، عمالا عليهم الظلمة من القوم حتى أصبح شغلهم الشاغل ، ووصفهم الغالب ، أن يقول هذا الكلام ، ودلت صيغة البناء للمفعول على كرامة القائلين أن يسلكوا مع الظالمين في أى سياق ، ولو كان سياق الألفاظ ، وأن لا يجاورم ، ولو كانت المجاوره في تراكيب الكلام ، فيلحق لإيهم القول من بعيد .

ورجح الإمام الرازى هذا الاحتمال - الثانى - ورأى أن جعله من كلام البشر أليق ... (١) .

ورد الألوسى هذا الاحتمال . لأنه مخالف لظاهر الكلام . ولا يحتمله فقال : ... وزعم بعضهم أن القائل : (بعدا) نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر ولا أثر فيه يعول عليه (٢) .

وهو ما أميل إليه لقوته ، ولأن نوحا عليه السلام بعد انقضاء الأمر بهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين ، رقى قلبه على ولده الكافر ، وطلب من الله أن يجعله في عداد أهل الموعود بنجاتهم ، وكان يعلم كفره قبل الطوفان ، وأثناءه ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .. ، هود آية ٣٩ .

فكيف يدعو عليه بالبعد — لأنه كان مع القوم الظالمين — ثم يطلب من الله نجاته بعد ذلك ؟ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .. ، هود آية ٤٠ .

بل إن الألوسى يذهب إلى أن الحذف في هذه الجملة سببين تعين الفاعل ، وأن الإسناد على هذا الوجه كناية عن تخصيص صفة — هى الفعل — بموصوفها ، يقول في هذا : والحاصل أن الفعل إذا تعين لفاعل بعينه استتبع ذلك أن

(١) التفسير الكبير ٢٤٤/١٧ بصرف .

(٢) روح المعانى ٦٥/١٢ ، ط . مكتبة دار التراث بمصر .

يترك ذكره ويبقى الفعل لمفعوله ، أو يذكر ما هو أثر لذلك الفعل على صيغة
المتبني للفاعل ويستند إلى ذلك المفعول ، فيكون كناية عن تخصيص الصفة
التي هي الفعل بموصوفها .. (١).

(د) ويدل حذف الفاعل هنا - أيضا - على السرعة الفائقة في تلاحق
الآحداث وتفتاتها ، يشير إلى هذا أحد علماء البلاغة المعاصرين بقوله :
« وحذف المسند إليه الحقيقي في قوله : (وقيل يا أرض ..) يشير إلى قوة
ظهوره وأن ذلك الفعل المائل - أعني غاطية الأرض وتوجيه الأمر المستعمل
عليها - لا يكون إلا من الذي خلقها فسواها ، وكذلك السماء ، وحذف
الفاعل في قوله : (وغيض الماء) للإشارة إلى الإجابة السريعة ، فإن أمرت
الأرض بأن تبلع ، والسماء بأن تقلع إلا وقد غيض الماء ، وكان قوة هائلة
مجهولة اختلطت وابتلعت ، فذهب معها إلى المجهول .. (٢).

ومن حكاية الكلام بيا فوخ رأسه أخرج الكثير من الأسرار التي لا يعلمها
هل وجه الإحاطة إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض .

وهذه الآية وحدها استخرج منها ابن أبي الأصم أكثر من عشرين
نوعا من أنواع البديع ، مع أن ألفاظها سبع عشرة لفظة .

وهذه الآية - خاصة - كانت سببا في صرف همة من حاولوا معارضة
القرآن الكريم من الكافرين والمؤمنين جميعا ، لما اشتملت عليه من روعة
البيان ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، فمنذما سمعها كفار مكة - وكانوا
قد فرغوا أنفسهم للمعارضة - قالوا : هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين ،
فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا .

ويروي أن ابن المقفع - وكان أفصح أهل زمانه - نظم كلاما وجعله

(١) السابق نفسه .

(٢) خصائص التراكيب ١٠١ د / محمد أبو موسى / ١٣١٠ .

مفضلاً وبمناه سوراً بقصد معارضة القرآن ، فسمع ضيقاً يقرؤها في مكتبه
تخفيف القرآن فرجع وعاماً عمل وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبداً ،
وما هو من كلام البشر (١) .

وفي الآية شاهد بلاغي آخر على سر ذكر المفعول به في قوله : (وقيل
يا أرض أبلعي ماءك) ، وحذفه في قوله : (ويا سما أأفلى) .

والفرض من الذكر في الأول (أبلعي ماءك) - والله أعلم بمراده - دفع
نوم غير المراد فلو حذف المفعول لتوهم أن الأمر بالبلع يتناول كل ما على
ظاهر الأرض ، وهو غير مراد ، فالمراد الأمر بابتلاع الماء فقط ، ولما علم
أن هذا هو المراد بالبلع حذف المفعول من (أفلى) :

يقول الألوسي في هذا الشأن :

« وإنما لم يقل : (أبلعي) بدون المفعول لئلا يستلزم تركه ما لبس بمراد
من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنت الماء بأسرها نظراً
إلى مقام عظمة الأمر المهيّب وكال انقياد المأمور ، ولما علم أن المراد ببلع
الماء وحده ، فلم أن المقصود بالإنفلاق إفساك السماء عن إرسال الماء ، فلم
يذكر متعلق .. » (٢) .

٢ - ومنه قوله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من
قبلك وبالآخرة هم يوقنون .. » البقرة آية ٤ .

فقد بنى الفعل « أنزل » للمجهول ، وحذف الفاعل ، وهذا الحذف يحقق
الأغراض الآتية :

(١) الدلالة على جلال الله وكبريائه وعظمته ، وأن اسمه الكريم جدير

(١) روح المعاني ١٢/٦٣ .

(٢) السابق ١/٦٥ - ٦٦ .

بأن عصان ويرتفع من الابتذال والافتنان ، ولذا يقول بعض الصالحين :
لولا أني مأذن لي في ذكر اسمه لربأت به من مسلك الطعام والشراب .

(ب) تنزيه النظم القرآني عن اللغو والعيب وزيادات الالفاظ التي دلت عليها معاني الكلام ، لأن هذا الفعل - وهو إنزال الوحي على الرسل - تعين ألا يكون له فاعل إلا الله وحده ، وإذا كان كذلك فيجب على ذكر الفاعل العلم به .

(ج) في الحذف إعلام بأن الله وحده متفرد بإيجاد هذا الفعل ومستأثر به . دون شريك أو معارض ، وهذا يتفق مع بعض أغراض الحذف في قوله تعالى :

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » هـ الآية ٤٤ .

فالفاعل لهذه الأفعال العظيمة كلها هو الله عز وجل وحده ، فلا يتأتى القول وأمر الأرض والسموات وتغييض الماء وقضاء الأمر كله إلا من الله الواحد القهار فلما كان هذا معلوما ضرورة وعقلا ، استغنى عن ذكره لفظا وخطا (١) .

٤ - ومن أسرار حذف الفاعل وبناء الفعل للدفع عن مناسبتة لما تقدم ، كقوله تعالى عن المنافقين الذين قسدوا على الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رضوا بأن يكونوا مع الخولاف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .
التوبة آية ٨٧ . وبناء « طبع » للجهول ، مع أن الفعل نفسه في بعد ذلك بقليل للمعلوم في قوله تعالى في نفس السورة : « إنما السبيل على الذين يستأذنونك ومم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخولاف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » . التوبة ٩٣ .

فبنى الأول المجهول لمناسبة لما قبله وهو قوله تعالى : « وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكفن مع القاعدين » التوبة آية ٨٦ .
فمناسب البدء الانتهاء والمطلع الختام .

أما ذكره في الآية الثانية « وطبع الله على قلوبهم » ، فلمناسبة ذكره جل شأفه مرات قبلها ، فكان المناسب أن يذكر ليحدث التناسب والانسجام بين أجزاء الكلام ، ولذا يقول الكرمانى فى تعليل الاختلاف بين الصيغتين :

« لأن قوله (وطبع) محمول على رأس المائة (١) ، وهو قوله « وإذا أنزلت سورة .. » آية ٨٦ مبنى للمجهول ، والثانى محمول على ما تقدم من ذكر الله تعالى مرات ، فكان اللائق « وطبع الله » ثم ختم كل آية بما يليق بها فقال فى الأولى : (لا يفقهون) وفى الثانية (لا يعلمون) ، لأن العلم فوق الفقه ، والفعل المستند إلى الله فوق المستند إلى المجهول (٢) .

وعين الفرض هنا بأنه المناسبة لما تقدم ، لأن الفعل فى الحالتين لا يمكن إيقاعه وحدوثه إلا من الله عز وجل ، فلا يقدر على طبع القلوب وختمها حتى تنغلق على جهلها وغيباتها فلا يصل إليها نور العلم ولا ذكاوة العقل إلا الله وحده مقلب هذه القلوب والمبادئ - من يشاء من أمثالها - إلى سواء السبيل .

هكذا ورعاية التناسق والتناسب بين الألفاظ والعبارات والمبادئ والنهيات أمر يحرص عليه ويعمل على تحقيقه فى الكلام الراقى ، وقد يكون هو المطابق لمقتضى الحال فيجب وعابته كما فى النظم الكريم .

(١) لفظ « المائة » غير واضح الدلالة هنا . ولله تصحيف الكلمة « الآية » .

(٢) البرهان فى توجيه مثابه القرآن للكرمانى . ط بيروت الأولى سنة ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦ م بتحقيق عبد القادر عطا .

٥ — ويطوى ذكر الفاعل من اللفظ إذا دل عليه دليل معنوي وتعين أن يكون واحداً بعينه ومن ذلك :

(١) قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » يوسف آية ٣٥ فأصل بناء الجملة : ثم بدا لهم أمر ، لحذف الفاعل وهو لفظ « أمر » ، لأن في الكلام ما يفنى عن ذكره ، وهو جملة « ليسجننه » بما تقتضيه عليه من التوكيد القوي ، فهي تصور ما حدث من هؤلاء القوم ، وتعتبر عما كان من أمرهم وهم يتهاورون في أمر يوسف عليه السلام مقلبين الأمر على وجوه الرأي بينهم ، ثم أصدر هذا القرار الحاسم « ليسجننه حتى حين » ، فكانت الآية حاكية لما حدث ومصورة له (١) .

كما أن النظم القرآني أسقطه من عبارته استخفافاً به ، لأنه أمر ساقط جائز ، والدليل على سقوطه وجوره أن هذا القرار جاء بعد ظهور الآيات والدلائل الواضحة على براءة يوسف عليه السلام ، فكانت متعلق العدل والحق ، أن تعلق براءته ، ويجازى على نزاهته وعفته جزاء حسناً ، إلا أن هيئة الملك وسمة بيت الرئاسة ، التي ستلوها الألسنة بعد إذاعة الحقائق في هذه القضية منعهم من الإقدام على هذا التصرف العادل فأمرُوا بأن يسجن بعد ظهور براءته ووضوحها ، فلما سقط الحكم في نظر العدل والحق أسقط من اللفظ دلالة على هذا المعنى (٢) .

وإن كان الأمر بسجنه قد كشف للناس ما حاولوا عليه وكشبهته عنهم عندما خاطبوه همساً « يوسف أعرض عن هذا » يسقط حرف النداء كما سبق بيانه في حذف الحرف .

(ب) ومن هذا النوع من الحذف قوله تعالى :

« كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق » القيامة آية ٢٦ - ٢٧ .

(١) من بلاغة القرآن د أحمد بدوي ص ١١٩ - ١٢٠ بتصرف .

(٢) خصائص التراكيب ص ١٣٣ .

القرينة الواضحة عليه حتى أصبح كالمتمتعين الذي تنصرف إليه النفس لأول وهلة (١)، فالآية في ذكر الموت ، ولا يبلغ التراقي عند الموت إلا النفس أو الروح ، وكان في إسقاطها من العبارة إشارة إلى ما هي عليه من وشك المفارقة (٢).

(ج) ومن ذلك قوله تعالى :

«إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب» سورة
ص آية ٣٢.

حذف فاعل الفعل «توارت» وهو الشمس ، لتعيينه وبيان أنه المراد من سياق الكلام وجو الحديث ، ولأنها توارت فقد لام الحذف دلالة الكلام (٣).

(د) ومنه ما حذف في قوله تعالى :

«ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم فركاء» لقد تقطع بينكم وحل منكم ما كنتم تزعمون سورة الأنعام آية ٩٤ بنصب «بينكم» .

نجد في هذه أن فاعل «تقطع» محذوف ، والتقدير : لقد تقطع الأمر ، ووجود الفعل دليل على الفاعل المحذوف ، ويكن في هذا الحذف أغراض بلاغية منها :

١ - الدلالة على وقوع الحدث والمبالغة فيه ، فيكون المراد أن التقاطع حل بينهم مكان التواصل ، فيكون المعنى : لقد وقع التقاطع بينكم ، وعلى هذا التقدير يكون الفعل «تقطع» مستندا إلى مصدره المحذوف لدلالة الفعل عليه ،

(١) خصائص التراكيب ص ١٣٢ . (٢) من بلاغة القرآن ص ١١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٢ .

والفرض منه المبالغة في حدوث هذا الفعل^(١).

٢ - الإشارة إلى أنه أمر منقطع ساقط، والفاعل المحذوف هنا الأمر، يراد به العلاقة الموهومة بينهم وبين شفاعتهم الذين زعموا أنهم فيهم شركاء^(٢). فانقطاع الفعل عن الارتباط بفاعله في اللفظ تصوير لانقطاع هذا الأمل للمؤمنين والأمانى الكاذبة بين المشركين ومن أشركهم في عقيدتهم، أوفى التأثير على مجريات حياتهم في الدنيا والآخرة.

٦ - وقد يحذف الفاعل الحقيقي في بعض الآيات القرآنية الكريمة إذا كانت الأفعال من الأمور الشاقة الثقيلة على النفوس فيكون المناسب للجلال الله عز وجل ألا تنسب إليه لفظاً - وإن كان هو فاعلها الحقيقي - رعاية لحسن الأدب معه سبحانه، وذلك كما في قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عني له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، سورة البقرة آية ١٧٨ .

وقوله : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » سورة البقرة آية ١٨٠ .

وقوله : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » سورة البقرة آية ١٨٣ .

وقوله : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » سورة البقرة آية ٢١٦ .

(١) الكشاف ٣٦/٢ بتصرف ، من بلاغة القرآن ص ١١٨ - ١٢٠ .

وقوله : « قل لو كنتم في بيوتكم لهرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » سورة آل عمران آية ١٥٤ .

وقوله : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في ينهى النساء اللاتي لا تؤمنن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحنهن والمستضعفين من الولدان وأن تقولوا اللينى بالقسط وما نهوا عن خير فإن الله كان به عليما » سورة النساء آية ١٢٧ .

الفعل « كتب » في الآيات السابقة مبنى للمجهول ومُسند إلى غير فاعله الحقيقي وهو الله عز وجل ، والمدكُتوب في هذه الآيات من الأمور الهامة على النفوس ، فالقصاص وهو إلتلاف النفوس ، والقتل وهو إزهاق الروح وإخراجها من الجسد عنوة ، والقتال وهو ميدان يمكن أن يفقد الإنسان فيه حياته وروحه في أى لحظة ، كل هذه الأمور من أشق التكاليف وأصعبها على النفس ^(١) .

وكذلك نجد أن الوصية ببعض الأموال وإعطائها من الأمور الثقيلة على النفس أيضا لدرجة تجعل البعض من الناس يرضى بها على أصحابها والمستحقين لها ، كحقوق النساء من النفقات مثلا ، التي لا يعطيها البعض إلا بإرغام وقهر من الحاكم وما ذاك إلا لأن المال يهدل الروح وعدة الحياة ، فأخراجه أو التوصية به شاق على النفس ، وإن كان حقا واجبا الأداء كمال اليتيم - المحتاج للمعون والرحمة - في ذمة ولي أمره .

وكذلك الصيام منهك للبدن ومضعف له وشاق على النفس ، لأنه يقطع عليها عاداتها ، ويحرمها ما ألفته من الطعام والشراب ، والملاذات المباحة في كل وقت من النهار والليل ويحملها على تحديد هذه العادات وضبطها في هذا الشهر

(١) من هدى القرآن لأمين الخولى ١٦٢/١ بتصرف .

السكرام ، وحمل النفس على ما يخالف عادتها فيه قهر لها ومشفقة عليها تحتاج معها إلى جهاد ومعاونة حتى تألفها .

ولما كان الشأن كذلك في هذه الأمور السابقة أوتر التعبير بلفظ وكتب ، المعنى للجهول دون ذكر الفاعل المعروف - وهو الله عز وجل - ودون أن تنسب إليه تأديها مع المولى - سبحانه - أن ينسب إليه عمل تبرم بعض النفوس من أدائه وتألم من تنفيذه لصعوبته عليها .

وهذا المعنى الشريف - وهو رعاية حسن الأدب مع الله عز وجل من عدم نسبة المكروه إليه ولو في اللفظ - هو ما لفت النظم السكرام الأذهان إليه في سورة الكهف عندما عرض علينا مشاهد من قصة سيدنا موسى مع الخضر عليه السلام ، وكان منها وقائع خرق السفينة في عرض البحر ، وقتل الخضر للغلام صغير ، وبناءه جدارا آيلا للسقوط في مدينة بخل أهلها عليهم بالطعام الذي كانوا في ميسس الحاجة إليه بدليل طلبهم له .

ولما استذكر موسى عليه السلام هذه الأعمال التي تبدو في ظاهرها شرًا محصنا في بعضها وخيرًا في غير عمله في البعض الآخر ، بين له الخضر وجه الحكمة في هذا الشر الظاهر - كما علمه الله من لدنه علما لم يعط لموسى عليه السلام وهو نبي رسول - وأنه يتطوى على خير كثير لمن فعل من أجلهم .

فقال سبحانه مبينًا ما سبق :

«أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلناهما بهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تدطلع عليه » سورة الكهف آية ٧٩-٨٢ .

فقد أضاف إلى الله سبحانه كل ما فيه خير ، وأضاف إلى نفسه عيب السقيمة رعاية لحسن الأدب ، لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يستند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما كانت يهدد لقومه نعم الله المتعددة عليه والتي أوجبت توحيده وعبادته سبحانه ، من الخلق والهداية إلى الرشاد ، والإطعام والإسقاء والإماتة والإحياء ، ثم قال وإذا مرضت فهو يشفين ، الشعراء آية ٨٠ .

فمنسب المرض الذي هو نقمة إلى نفسه ، والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب ، فالفعل قبله وبعبه مستند إلى الله تعالى ، والمرض أسنده إلى نفسه ، لأنه نقص ومصيبة ، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن منها ، دون ما يستقبح (١) .

بهذا يتبين لنا سر التعبير القرآني ببناء الفعل « كتب » للمجهول في الآيات التي ذكرناها بأنها مشاقق تناسب ألا تنسب إلى الله تعالى ، بدليل أننا نجد هذا الفعل نفسه قد بنى للفاعل الحقيقي وهو الله وأسند إليه لفظا ومعنى لما كان المكتوب رحمة ولطفًا ، وفيه خير ظاهر يعود على المؤمنين المتحدث إليهم أو عنهم .

وذلك كما في قول الله تعالى :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتأب عليكم وعفا عنكم فالآن بأشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ٥٥ ، البقرة آية ١٨٧ .

وقوله تعالى :

« قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعكم

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص ٤٧٨ ط . دار الشعب بمصر ، روح الساني للألموسي ٩٦/١٩ بصرف .

إلى يوم القيامة لا ريب فيسه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون
الأنعام آية ١٢ .

وقوله تعالى :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصاح فأنه غفور رحيم . . . الأنعام آية ٥٤ .

وقوله تعالى :

« كتب الله لأهلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . . . المجادلة آية ٢١ .

وقوله :

« أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . . . المجادلة آية ٢٢ .

فالمكتوب في الآيات السابقة خير ظاهر فنسب إلى الله تعالى لفظا ومعنى ومثل ما سبق ماورد في قول الله تعالى في سورة الاحزاب :

« يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتيها أجرا مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ، الايتان ٣٠ - ٣١ .

في مقام إيصال الخير وإزالة العطاء وتعظيم الثواب أسند الفعل « أتى » إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه الفاعل الحقيقي وهو الله عز وجل .

وفي مقام التهديد بإزالة العذاب الشديد المضاعف عند مخالفة الواضحة لمنهج الله ورسوله طوى ذكر الفاعل في اللفظ وبقي الفعل للمفعول وذلك تمكينا وتقديرا للفاعل الحقيقي - وهو الله عز وجل - أن يصرخ باسمه أو ضميره في مقام إزالة العذاب ، وذلك على قراءة « يضاعف » ببناء الفعل للمفعول .

ويقول الإمام فخر الدين الرازي معلقاً على الآيتين :

«... (نوتها أجزها مرتين) في مقابلة قوله تعالى : (يضاعف لها العذاب ضعفين) مع لطيفة ، وهي : أن عند إثناء الأجر ذكر المؤثي وهو الله ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب (يضاعف) ، إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند العذب لا يذكر نفسه... » (١).

وتعليق الإمام الكبير وإيضاحه لهذه اللطيفة لا مزيد عليه ولا يحتاج إلى زيادة بيان ولا إلى تعليق آخر وكما قيل :

« قطعت جبهة قول كل خطيب » (٢).

حذف الجملة

يقع حذف الجمل كثيراً في القرآن الكريم اعتماداً على ذكاء القارىء . وقطنته في إدراك ما يستلزمه السياق ويستدعيه فيه — النظام الكريم — حينذاك — إلى الاختصار وحبك الكلام وقوة سبك ، والمساواة إلى ذكر القاية التي انتهى عندها المعنى ، وهو ما يهم السامع أن يعرفه دون الخوض في تفاصيل تفهم من سياق الكلام .

هذا إلى جانب ما يتضمنه من إشارات أخرى إلى دقائق المعاني ولطائفها فمن ذلك قول الله تعالى :

«... اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم قول عنهم فانظروا ماذا يرجعون » ثم أحبه بقوله : « قالت يا أيها الملا إلى أنى إلى كتاب كريم ، الفصل آية ٢٨-٢٩ . فبين أمر الهدى بإلقاء الكتاب إليهم ، وبين إخبار بلقيس قومها بذلك تفاصيل كثيرة تضمنتها جمل كثيرة محذوفة وتقديرها : فأخذ الكتاب ، فألقاه إليهم ، قرأته بلقيس ، وقرأته ، وقالت يا أيها الملا... »

(١) التفسير الكبير ٢٥/٢٠٩ .

(٢) مجمع الامثال ٢/٤٧٤ .

فقد حذف هذه التفاصيل الكثيرة لإمكان فهمها من سياق الكلام المذكور وما يفهم من السياق يكون ذكره عبثاً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وفي طي هذه الجمل الكثيرة من سياق الكلام إشارة إلى طي الهدهد لهذه المسافة البعيدة بين مكان الانطلاق ومكان الوصول الذي وصله بسرعة فائقة ، وفي زمن قليل جداً وهي إشارة جعلت المسافة بين انطلاق الهدهد من هند سيدنا سليمان عليه السلام ووصوله إلى مقر بلقيس كالمسافة بين نطق كلمة « اذهب بكتاني هذا » وكلمة « قالت يا أيها الملك »

وفي ذلك أيضاً إظهار لأثر من آثار نعمة الله على نبيه سليمان عليه السلام بتسخير الطير له وجعله جنداً من جنوده يقطع المسافات الطويلة في وقت قليل .

ومنه قوله تعالى في سورة مريم :

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً قال رب أنى يكون لى غلام وكأنت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ، إلى قوله تعالى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ، الآيات من ٧ : ١٢ من سورة مريم .

ففي هذا منظم الكريم جل مجدوة ، وتقدير الكلام : فلما ولد يحيى ونشأ وترعرع قلنا له :

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » ، وفقد أغفل القرآن الكريم الحديث عن يحيى الغلام ونشأته وترعرعه مما ليس بنصراً أساسياً في القصة مادامت مخاطبته بأخذ الكتاب مغنية عنه (١) .

وهذا ما ارتآه الإمام الرازي في بيان سر حذف هذه الجمل . فسادل السياق عليه بتميز وجوده عبثاً بناء على الظاهر - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -

هذا غرض جليل من أغراض الحذف عموماً ، يقول الرازي مشيراً إلى هذا الرأي : « أن قوله (يا يحيى خذ الكتاب) يدل على أن الله تعالى بلغ يحيى المبلغ الذي يجوز أن يحاط به بذلك ، لحذف لدلالة الكلام عليه^(١) .

ويبلغ الألوسى سرا آخر من أسرار حذف الجمل في هذا المقام وهو المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم لذكرها عليه السلام ، يقول :
« .. (يا يحيى) ، على تقدير القول وكلام آخر حذف مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم ، أى فلما ولد وبلغ سناً يؤمر مثله فيه قلنا : (يا يحيى خذ الكتاب)^(٢) . ولا تناقض في المعنى بين ما رآه العالمان الجليلان ، فالنتيجة عن البحث كما رأى الرازي لا يتناقض المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم لذكرها عليه السلام ، بل الغرض الذي وجهه الإمام الرازي الحذف إليه هو الذي هيأ المعنى لما ذهب إليه الألوسى من المسارعة المذكورة ، فالإنجاز بحذف ما يدل عليه السياق أسرع إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم من بسط الكلام ونشره ، والفكات البلاغية لا تتواءم كما يقول البلاغيون .

— تحذف الجمل المطلوبة من الكلام — أحياناً — اكتفاء بالأسباب من المسببات إذا كان المذكور منها سبباً للمحذوف ، مثل قول الله تعالى :
(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين .
ولكننا أنشأنا قرونًا فتناول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين) القصص / ٤٤ - ٤٥ .

يقول بن الأثير مبيناً موطن الحذف في النظم الكريم :
« .. كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما جرى له وعليه ، ولكننا أوحيناك إليك . فقد كرر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب الذي هو الوحي على عادة اختصارات القرآن ، لأن تقدير الكلام : ولكننا أنشأنا بعد عهد

الوحي إلى موسى إلى عهدك قرونا كثيرة ، فتناول على آخرهم - وهو القرن الذي أنت فيهم - العمر ، أى أمد انقطاع الوحي ، فاندوست العلوم ، فوجب لإرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ، فالخدوف إذا جملة مفيدة وهى جملة مطولة دل السبب فيها على المسبب ، (١) ، ويقول البيضاوى :

... حذف المستدرك وأقام سببه مقامه ... ، (٢) .

ثم بين الإمام غفر الدين الرازى سرا من أمرار حذف المسبب وذكر السبب فى هذا المقام فقال : ... واعلم أن هذا تنبيه على المعجز ، كأنه قال : إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ، ولا تعلم من أهله ، دلالة ظاهرة على نبوتك ، كما قال : (أو لم تأتهم بيثة مائى الصحف الأولى) ... ، (٣) .

فالغرض من الحذف - كما يراه الرازى - إظهار وجه من وجوه الإعجاز القرآنى أو من وجوه المعجزة التى أوتىها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو : الإخبار بالغيب الذى لم يشاهده صلى الله عليه وسلم ولم يحضره أصالة ولا إناية ، وهو الإخبار الذى لم تنكذه اليهود وم المترصدون بالرسالة الحاتمة وصاحبها والحريصون على هدمها بكل الأساليب والوسائل ، وفى هذا التنبيه ردع لكل من ساوره - أو يساوره - أدنى شك فى صدق الرسول ورسالته .

وهذا الذى أشار إليه الإمام الرازى هو بعض ما تضمنته تفسير البيضاوى - الموجز - لسبب الحذف حيث إن السبب لا يقوم مقام المسبب إلا إذا كان سببا قويا وقاعلا فى مجرى الأحداث فعل مسببه وبحيث يمكن الاكتفاء به فى بقية الأسباب إن وجدت ، ومائبه إليه الرازى يدل على ما بيناه .

(١) المثل السائر ٢/٢٧٧ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢/١٩٥ .

(٣) التفسير الكبير ٢٤/٢٥٧ .

- ثم يذكر القرطبي وجهاً آخر من وجوه المعنى في هذا المقام فيقول :
 .. وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبيينا عليه السلام ذكر في ذلك
 الوقت ، وأن الله سيبعثه ، واسكن طالت المدة وغلبت القسوة ففسى القوم
 ذلك ، وقيل : آتينا موسى الكتاب ، وأخذنا على قومه العهود ، ثم تطاول
 العهد فكفروا ، فأرسلنا محمداً محمداً للدين ، وداعياً الخلق إليه .. (١) .

وبعد .. فما هو واضح كل الواضح أن في هذه الآيات الكريمة حذف
 جملة المسبب وأقيم السبب مقامها ، وذلك يدل على أهمية هذا السبب في سياق
 الأحداث ، والإيحاء بأنه من الأسباب الرئيسية التي يتوقف عليها الفعل
 المسبب .

وفي هذا الحذف من الإشارات :

أن فيه إعجازاً للنبي صلى الله عليه وسلم ودليلاً على صدق نبوته ، حيث
 لم يكن حاضراً لهذه الأشياء ولم يشهد الأمر الذي قضى إلى موسى عليه السلام
 ومع ذلك أخبرهم بما وقع تماماً فلم يستطع يهود - وهم أشد الناس عداوة له
 وأحرصهم على تكذيبه - أن تكذب هذه الأخبار عن أسلافهم ، لأنها
 صادقت صادق ما معهم من التوراة الصحيحة .

كما لم يستطع أهل مكة من المشركين أن يكذبوا رسول الله صلى الله عليه
 وسلم عندما نزلت عليه سورة الفيل تحذره بالحادثة التي وقعت عام ولادته
 عليه السلام ولم يشهدها ، وهي تعرض البيت الحرام للعدوان ومحاوله الهدم
 والتدمير من أبرهة الأشرم ، وحماية الله لبيته الحرام بمجنوده من عنده دحرت
 الأعداء وردتهم خائبين ، ألم تركب فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل
 كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . نرميهم بحجارة من سجيل .
 فجعلهم كعصف ما كول . .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥٠٧/٧ ط دار الشعب بمصر .

وفي هذا الحذف أيضا إشارة إلى أن تناول العهد على الناس ، وتركهم
أزمانا طويلة دون إرسال من يذكرهم بما نسوه ، أو يصحح لهم ما أخطأوه
أو يردم إلى حمى الإيمان الصاق عندما تزيف بهم الأهواء فتفسد عقيدتهم
لما يتعمصون له من إغراء على القرد والعصيان ، وما يزين لهم من سوء أعمالهم ،
كل هذا كان جدبرا بأن يرسل إليهم - أو يبعث فيهم - من يجدد لهم أمر
دينهم ويذكرهم عهد ربهم ويحيي بينهم سنة نبيهم وسيرة أسلافهم ، ويهديهم
إلى صراط الله المستقيم .

ولهذا يجب أن يذكر الناس برهم بين الحين والآخر ، ولا يترك العامة
دون وعظ وإرشاد ، حتى لا تتفرق بهم الأهواء ، وتخطفهم الشياطين
فيقيمون في صحراء الخرافة والجمالة والضلالة .

ولهذا أيضا كان من عاين ديننا الحنيف ما شرع لنا من شعائر ومناجات
دينية بتخللها النصيح والإرشاد والتوجيه ، كصلاة الجمعة والعيد ، وإحياء
شهر رمضان الكريم بالصلاة ومدارسة كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ،
ومن رحمة الله بهذا الأمة أنه يبعث إليهم - وفيها - على رأس كل مائة سنة
من يجدد لها أمر دينها .

هذه المعاني وتلك الإشارات أوحى بها حذف جملة المسبب وذكر السبب
في الآيات ، وصدق من قال عنه : « لا تنقض حجابه ، ولا يخلق على كثرة
الرد ... » .

ومن الدلالات البلاغية الدقيقة لحذف الجمل ما وقع في قول الله تعالى :
« بما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » ،
سورة نوح آية ٢٥ .

فالآية الكريمة عرضت موقف قوم نوح عليه السلام من رسالته حيث
قابلوها بالإعراض والعصيان والردة ، واتبعوا كبارهم الذين أضلواهم وأغروهم

بأيذائه ، فلم يستمع إليه أحد منهم ، ولأن كذا دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، سورة نوح آية ٧ .

فكان جزاؤهم على تلك الخطايا أن عاقبهم الله بالإغراق في الطوفان فاستأصل شأفتهم من الدنيا فلم يبق منهم أحداً ، إستجابة لدعوة نوح عليه السلام ، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، ، سورة نوح آية ٢٦ .

وهناك في الآخرة ينتظرهم عذاب عظيم ونار هائلة في سعيها ، يسألونها وليس لهم من الله قوة ولا ناصر ، ولا يجدون من يغنى عنهم من الله من شيء ، أو يفديهم من عذابه ، ولو كان الثمن ملء الأرض ذهباً .

وفي قوله : « أغرقوا فادخلوا ناراً » ، نلاحظ حذفاً ظاهراً بين المجلتين ، حيث أسقطت بينهما جملة متعددة لأن إدخالهم النار كان بعد إلتحاقهم - هالركين - من دار الدنيا التي أغرقوا فيها بالطوفان إلى الدار الآخرة التي يعذبون فيها بالنيران ، وتقدير المحذوف : هلكوا ، وبعثوا يوم القيامة ، وحوسبوا على معاصيهم ، فادخلوا ناراً .

وفي القصص مجال فسيح لمثل هذا الحذف الذي يسول معه ربط مواقف القصة بعضها ببعض ، مع استفاضة الذهن والخيال إلى تصور ما حذف من تفاصيل .

وسر جمال الحذف هنا أنه جمع بين الإغراق والإحراق ، وفاجأ بذكر عذاب الآخرة مع عذاب الدنيا حتى كأنهما مقترنان ، وفي ذلك إيقاظ للعقول وتقريب من تلك النهاية الآتية ، وقد أكملت عناصر الصورة المعبرة عن هذا العذاب الأليم بالتعبير بالفعل الماضي الدال على تحقق الوقوع مع الفاء المقيدة للعقيب ، « فادخلوا ناراً » ، وهو يوحى باقتراب العذاب .

حتى كأنه واقع فعلا ، وذلك لاقترابه ، ولأنه كائن لاحالة ، فكأنه قد كان ،^(١) .

لحذف قد طوى مدة البرزخ بين الإغراق وإدخالهم العذاب ، وأسقطت من اللفظ الدلالة على قرب وقوع العذاب .

ولهذا ترى الألومى - بعد أن ذكر رأى من ذهب إلى أن المراد بالنار هنا نار البرزخ وهى تاتى عقب الهلاك مباشرة - يقول :

« ويجوز أن يراد بها نار الآخرة ، والتمقيب على الأول^(٢) ظاهر ، وهو حل هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال ، فكأنه شبه تخال مالا يعتد به بعدم تخال شيء أصلا .. »^(٣) .

وذلك لعدم فائدته لهم وعدم غنائه فى دفع العذاب عنهم .
وقد سبقه الإمام البيضاوى إلى هذه اللفظة الدقيقة عندما علل هذا التعميق بعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال^(٤) .

ونلاحظ فى الآية حذف آخر لجزء من أجزاء الجملة وهو الفاعل فى قوله « أغرقوا فأدخلوا نارا » وبناء الفعل فيهما للفعول ، وذلك العلم اليقيني به ، حيث لا يقدر على إغراق هؤلاء الفراعين وإطباق المياه عليهم من الأرض والسماء ، وإقبارهم فى هذا الطرفان الشامل لإلجاء السموات والأرضين القهار لكل من نازع مالك الملك فيها يجب تركه لما لىه وخالفه ومن تسول له نفسه ارتداه ثوب العظمة والكبرياء والعناد والإشراك بالواحد الأحد

(١) الكشف ١٦٥/٤ ط . الحلبي .

(٢) الأول هو الرأى لقتال بأنها نار البرزخ .

(٣) روح المعاني ٧٩/٢٩ .

(٤) أنوار التنزيل للبيضاوى ٥٨/٢ ط الحلبي .

جل جلالة ، أو ادعاء الألوهية ، والعيث في الأرض فساداً وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ، سورة هود آية ١٠٢ .
وحذف الفاعل هنا شبه بحذفه في قوله تعالى في نفس القصة أيضاً وقيل
يا أرض أبلى مأك وبأسماء ألقى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على
الجلود وقيل بهذا القوم الظالمين ، سورة آية هود ٤٤ .

فلا يوجد من يقدر على الأفعال السابقة المحذوفة الفاعل إلا الفاعل
الواحد الذي لا ينصرف الذهن إلا إليه وهو الله جل وعلا .

وكذلك إدخالهم العذاب يوم القيامة أو في القبر ليس له إلا فاعل واحد
متعين وهو الله الواحد القهار ، فمما تذكر هذه الأمور الهائلة لا ينصرف
الذهن إلا إلى من بيده ملكوت السموات والأرض بإشارة الدلائل كلها
إليه عز شأنه .

عندئذ يكون النص على الفاعل في اللفظ لا ضرورة له ويقتضى المقام
حذفه ، ولهذا يقول الألوصي : « ولا يخفى ما في (أغرقوا فأدخلوا) من
الحسن الذي لا يجارى والله تعالى در التذليل » (١) .

والتمثيل في « فارقا » إما للتحويل ، أي فارقا هائلة ، لا يعلم كنهها
إلا خالقها ، وإما للنوعية أي أدخلوا نوعاً مخصوصاً من النار أعد خصيصاً
لهم متلائماً مع نوع خطاياهم .

هذا وباقة التوفيق

أهم مراجع البحث

- ١ - الإشارة إلى الإيجاز : عز الدين بن عبد السلام .
- ٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوى - ط : الحلبي الثانية سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٣ - البرهان في توجيه مشابه القرآن : للكرمانى - ط : دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .
- ٤ - البرهان في علوم القرآن : الزركشى - ط : مكتبة التراث .
- ٥ - بغية الإيضاح : عبد المتعال الصميدى - ط مكتبة الآداب .
- ٦ - تحرير التبيين : ابن أبي الإصبع .
- ٧ - الجامع لأحكام القرآن : القرطبي - ط : دار الشعب بمصر .
- ٨ - خصائص القرا كيب : أ . د / محمد أبو موسى - ط : مكتبة وهبة .
- ٩ - خواطر الشيخ محمد متولى الشعراوى : جريدة اللواء الإسلامى العدد (٢٤٥) .
- ١٠ - دلائل الإعجاز : الشيخ عبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمود شاكر - ط : الخانجي .
- ١١ - روح المعاني : الألوسى - ط : مكتبة التراث .
- ١٢ - الفتوحات الإلهية : الجبل - ط : الحلبي .
- ١٣ - الكشف : الزغنى - ط : الحلبي .
- ١٤ - المثل السائر : ابن الأثير - ط : دار نهضة مصر .
- ١٥ - مجمع الأمثال : الميدانى - ط : الحلبي .
- ١٦ - المطول : سعد الدين التفتازانى .

١٧ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير : الفخر الرازي - ط : دار الفكر .

١٨ - من بلاغة القرآن : أ. د/ أحمد أحمد بدوي - ط : دار نهضة مصر .

١٩ - من هدى القرآن : أمين الخولي - ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
سنة ١٩٧٨ م .

القسم الثاني

الدراسات اللغوية

١ - الدكتور عبد العزيز أحمد علام

٢ - الدكتور سمير أحمد عبد الجواد

النمو اللغوي والطفولة (٥)

بقلم

دكتور / عبد العزيز أحمد علام

إن الحديث عن نمو اللغة في مرحلة الطفولة يقتضي أن نلجح إلى :

ما هي اللغة ؟ وما وظائفها ؟ وما العلاقة بين اللغة والكلام ؟ وبين اللغة والفرد ، ثم بين اللغة والمجتمع ؟ وكيف تتم عملية التكلم ؟ وكيف يتقلد الكلام إلى السامع ؟ ثم كيف تتم عملية السمع والإدراك ؟ إلى آخر ما يوضح لنا حقيقة تلك اللغة التي تؤدي دوراً هاماً في حياة الأفراد والجماعات ، والتي هي من أجل نعم الله عز وجل على الإنسان : فهي يبين الإنسان عما في نفسه ، وعما يريد ، وبها يعارِس وظائفه وألوان نشاطه ، ومصدق الله إذ يقول : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان عليه البيان ^(١) » ، فكانت وسيلة البيان والإنصاح عما يريد به الإنسان آية من آيات الخالق عز وجل ، ونعمة من نعمه التي لا تحصى ، كما قد كانت معرفة وسيلة التفاهم للكائنات الأخرى من نعم الله التي أنعم بها على سليمان عليه السلام ، قال تعالى : « وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين ^(٢) » . كذلك كانت حكمة الله عز وجل ومنته على عباده في أن

(٥) بحث ألقى في دورة الأمومة والطفولة في كلية التربية للبنات بالنصيم وذلك بالتعاون بين رئاسة تعليم البنات و فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالنصيم في المناسكة العربية السعودية في عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

(١) سورة الرحمن آية ١ - ٤ . (٢) سورة النمل آية ١٦ - ١٧ .
(١٢) - مجلة كلية اللغة

يرسل رساله عليهم السلام كل بلغة قومه وبلسانهم ، قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يهواه وهو العزيز الحكيم »^(١) ، فتمت النعمة ، وتقوم الحاجة .

معنى اللغة : اهتم العلماء باللغة على اختلاف المصور ، وعلى اختلاف تخصصاتهم من لغويين ، وفلاسفة ، ومناطق ، ومن علماء النفس ، والاجتماع والانثروبولوجيا ، والفيزياء ، والطب ، والهندسة ، وذلك بناء على أهمية اللغة في حياة الإنسان . وحاولوا تعريفها ، كما حاولوا الكشف عن نشأتها ووظائفها . .

لقد عرفها علماء الاجتماع بأنها ظاهرة اجتماعية ، وضرب من سلوك الإنسان ، وحلقة في سلسلة النشاط البشرى^(٢) . ولكنه - كما يبدو - تعريف بالتصنيف ، أى أنهم صنفوا اللغة ووضعوها في قوائم الظواهر الاجتماعية .

كما عرفها الفلاسفة والمناطق بأنها : وسيلة للتفاهم والتخاطب ، والتعبير عن الحاجات والرغبات والانفعالات ، وأنها عون آلى على التفكير ، ووسيلة للتسجيل ، حتى يمكن الرجوع إلى ماسجل وقت الحاجة^(٣) . وهو تعريف بالوظيفة ، حيث إنهم يبنوا لنا وظيفة اللغة .

أما اللغويون فقد عرفوها تعريفا علميا ، فكشفوا عن حقيقتها وماهيتها : فهذا ابن جني يقول : « اللغة : هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »^(٤) ، فبين لنا ماهيتها حين يحدد أنها أصوات ، كما يضع أيدينا على عرقية اللغة ؛

(١) سورة إبراهيم آية ٤ .

(٢) انظر : الدكتور محمود السمران : اللغة والمجتمع رأى ومنهج ، ط ١٩٦٣م

ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥ ، وانظر أيضا : يسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع .

ترجمة الدكتور / عبد الرحمن أيوب ص ٨ ، ٩ ، ط ١٩٦٣م

(٤) الخصاص : ١/ ٣٣ ط دار الكتب المصرية .

وعلى اجتماعيتها ، وأخيراً على وظيفتها ، وبظل هذا التعريف الجامع المانع عزل اتفاق من علماء العربية ، إلى أن يأتي علماء اللغة المحدثون ، فيعرفون اللغة تعريفاً لا يزيد عن تعريف ابن جني لها ، وعن تصور العرب لها إلا في توسيع دائرة اللغة حين استبدلوا كلمة « أصوات » بكلمة « نظام من رموز » يقول « إدوارد ساپير » : اللغة : « وسيلة إنسانية خالصة لتوصيل الأفكار ، والانفعالات ، والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تعبر بطريقة (١) » .

وقد كان « ساپير Sapir » موثقاً في هذا التعبير : « عن طريق نظام من الرموز » لأنه نظر إلى الوظيفة اللغوية التي تؤديها الأصوات في داخل الكلمة ، والكلمات في داخل الجملة ، فوجد أن هناك أشياء أخرى تحدث في أثناء عملية التخاطب تقوم بوظيفة لغوية ، فتؤدي ما تؤديه الأصوات والكلمات ، مثل : الإشارات اليدوية والجسمية ، والإيماءات ، وملامح الوجه من تقطيب أو انفراج ، ومثل الذي يحدث من الإشارات الضمنية كإشارات المرور ، إلى آخر ما يعد رموزاً يعطى دلالة لغوية وليس بصوت . . من هنا اختار كلمة « الرموز » بدلاً من « الأصوات » .

وظائف اللغة : اللغة أكثر من وظيفة بناء على الدور الذي تؤديه على المستوى الاجتماعي ، والمستوى النفسي ، والمستوى العقلي :

أما الوظيفة الاجتماعية فتبرز في جوانب كثيرة من حياة المجتمع ، فهي وسيلة من وسائل المجتمع في الترابط بين جميع أبنائه ، وتكوين ما يسمى بالوحدة الاجتماعية ، وهي وسيلته كذلك في تحقيق الشعور بالانتماء ، وفي تبادل المنافع والمصالح المشتركة ، بها يمارس التعليم ، ويقوم القضاء ، ويتم البيع والشراء ، وتنفذ الصفقات ، وتدار المؤتمرات ، وبها تلتفت تشانج

(١) انظر : الدكتور محمود السمران : اللغة والمجتمع ط ١٩٦٣ ص ١٠ .

البحوث العلمية والعملية ، ولا عجب : فباللغة يمارس المجتمع جميع أنشطته الثقافية ، والفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والقرابية ، وبدونها لا يمكن تصور مجتمع يعيش بلا لغة .

الوظيفة النفسية : اللغة وظائف نفسية عدة منها :

١ - التأثير والإقناع : فهي تستخدم لإثارة الوجدان ، وتحريك العواطف ، فإذا أردت أن تستميل والدك نحو فكرة معينة ، أو أن تستميل طلابك تجاه سلوك مدين ، فإن وسيلتك في ذلك هي اللغة ، وكذلك إذا أردت أن تقوم سلوكاً معيناً عند طفلك ، فإن كلمات اللغة وأسايلها هي الأداة الفعالة في ذلك ، ومن ثم كانت الرسائل السبائية ، وكان تبليغ الرسل عليهم السلام لرسالات الله باللغة التي أرسلوا بها ، ولا عجب أن كان سلاح الدعوة الإسلامية الذي امتلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحابته وضوان الله عليهم أجمعين طيلة العهد المبكى الذي بلغ ثلاث عشرة سنة هو الكلمة ، والكلمة فقط ، وصدق الله إذ يقول لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) ويقول من وجل حينئذ لرسوله صلى الله عليه وسلم منهج الدعوة : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » (٢) ويقول : « ولو كنتم فظاً غليظ القلب لا نفختم من حولك » (٣) .. وهنا تبرز أهمية اللغة في وقتنا الحاضر في الدعوة إلى الله .

٢ - وسيلة الفهم والإدراك : إن فهم الأشياء وإدراكها في أعلى درجات الفهم والإدراك هو ما يأتي نتيجة التدقيق ، وفهم الشرح - مثلاً - يكون في أحسن

(١) سورة النحل : آية ١٢٥ -

(٢) سورة يوسف : آية ١٠٨ -

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩ -

صوره وأدقها إذا ما تذوق المرء هذا الشعر تذوقاً فنياً يصل به إلى عمق الفكرة وآفاقها . أما الفهم الذى يأتى بدون تذوق للنص ، فإنه يكون بعيداً عن درجة المكال ، وعن عمق الفكرة وأصالتها ، كما يكون عرضة للضياع والضياع .

٣ - الاستقرار النفسى والتكيف مع البيئة والمجتمع : فالإنسان فى حاجة إلى التعبير عن الرغبات النفسية ، حتى يشبع دواعيه وغرائزه النفسية التى خلقه الله عليها ، ولا يجد إلا اللغة وسيلته فى هذا التعبير ، وبذلك يتحقق له الاطمئنان والراحة النفسية ، ويصبح قادراً على التكيف مع من حوله : يعطى وبأخذ ، ويؤثر ويتأثر . أما إذا فقد وسيلة التعبير بالغة عما فى نفسه فإنه يصبح إنساناً مريضاً ، يعاني من القلق والاضطراب ، ويركن إلى العزلة ، ويعيش فى ضيق وألم .

٤ - التعبير عن الجانب الانفعالى : إن الكلمة تحمل إلى جانب معناها اللغوى شحنة انفعالية تصدر من المتكلم ، أو تحدث عند السامع نتيجة للتجارب والخبرات السابقة ، فتحدث أثراً انفعالياً علاوة على الأثر اللغوى ، وتأثيرك مما تحدثه كلمة نار ، وكلمة دلتج ، فى نفسية سكان الإسكيمو ، عن البشر والشوق مع الأولى التى تذهب معها المعاناة من البرد الشديد ، وعن الضيق والنفور مع الثانية^(١) . كذلك يظهر هذا الجانب الانفعالى فى طبيعة الشعر الذى يحاطب العاطفة والوجدان والشعور علاوة على مخاطبته العقل ، بخلاف النظم ، الذى هو شعر ، لكنه خال من ذلك حيث يحاطب العقل فقط ، كقول ابن مالك فى ألفيته :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف السكلم

(١) انظر : الدكتور إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، ط الانجلى المصرية ص

و انظر أيضاً : فن التدريس ، ص ١٥ وما بعدها .

واحدة كلمة ، والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم
بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

ولهذا كانت ترجمة النص من لغته إلى لغة أخرى انتقاصاً لدلالة الكلمة
أولاً على الجملة ، لأنها تهمل الدلالة الانفعالية أو النفسية ، ولا تستطيع
التعبير عنها .

— الوظيفة العقلية للغة : اللغة وعاء الفكر ، وأداة التفكير ووسيلته ،

بل هي جوهره في نظر علماء النفس ، والإنسان يصل إلى المدركات عن طريق
اللغة . ولا يستطيع التفكير الكامل حين لا يمتلك الكلمات التي تعبر عن
المعاني ، لأن التفكير عملية ذهنية لا تتم إلا باستخدام الألفاظ الدالة على
المعاني المحددة ، ومن هنا ناقش العلماء قضية أن الإنسان يفكر باللغة ، أو في
غيبه اللغة بمعنى أنه لا علاقة للغة بالتفكير ، واستقر رأيهم على أن الإنسان
لا يفكر إلا بمساعدة الألفاظ والتراكيب اللغوية ، وقد قيل : التفكير
كلام نفسى ، والكلام تفكير جهري^(١) ، وقال الشاعر :

إن الكلام لفي الغوادر وإنما جعل اللسان على الغوادر دليلاً

وتدرك العلاقة بين اللغة والفكر في أنها تنميه وتغذيه ، حين تقارن بين
آخرين : أحدهما قال القسط الوافر من التعليم ، ووصل فيه إلى أرق
الدرجات ، والثاني وقد حرم من التعليم ، وظل قابعاً بين بيته ومورعته ،
إن الفارق الفكري والثقافي بين هذين الآخرين تابع من تأثير اللغة في
الفكر . والمجتمع الذى ينتشر فيه التعليم ، وتعدد مصادره ، وتوزع
مؤسساته في جميع مناطقه مجتمع متقدم ، لأنه يمتلك فكراً جديداً ، وامتلك
وسيلة التفكير الراقية وهي اللغة .

(١) المرجع السابق ص ٢٩ وما بعدها .

واللغة هي التي تساعد الفكر في إدراك الكليات عن طريق الجزئيات التي يلاحظها ثم يجرد منها المعنى ، وهذا ما يعرف بعمليتي : « الملاحظة والتعميم والتجريد » ، كذلك فإن الأفكار لا تستقر في الذهن ، وتثبت فيه إلا إذا رمز لها بألفاظ اللغة ، وتصور معنى المصطلح العلمي ، فهو عبارة عن دلالة أو فكرة معينة ، أو مفهوم خاص رمزنا له بكلمة معينة ، فإذا أردنا أن نتذكر هذا المفهوم تذكرنا اللفظ الذي يرمز إليه ، وهكذا سائر اللغة .

واللغة أيضاً هي التي تساعد العقل في تحليل الصورة الذهنية أو في تركيبها ، فإذا قلت لأبيك : (إن الشتاء قادم ، وإنني أحتاج إلى مال لأشتري به ملابس الشتاء) : فهذا القول يمثل صورة ذهنية ، وأنت قد حللتها إلى جزئياتها وهي : الشتاء ، المال ، الشتاء ، الملابس ، وكون الشتاء قادم ، وكون المال في حاجة إليه ، والشراء للملابس ، ثم ألغت وركبت من الكليات الدالة على هذه الجزئيات هذا القول ، فقلت لأبيك ، وأبوك قد استقبل منك عبارة ، وتكون لديه عند سماعها صورة ذهنية مركبة من أجزاء ، فقام بتحليلها إلى جزئياتها وأدركها مع الكليات الدالة على الجزئيات ، وهكذا ترى عملية التحليل والتركيب للصورة الذهنية هندسة من المتشكك والسامع تقوم على أساس وضع الرموز اللفظية (الكلمات) للمعاني الجزئية ، ثم ربط هذه الرموز اللفظية بعضها ببعض فيما يسمى بالتركيب اللغوي أو بالجملة .

أنواع التعبير الإنساني : إن لغة التخاطب بين الناس يمكن التمييز فيها بين نوعين :

لفظي : ويتمثل في الأصوات والمقاطع والكلمات والجمل وفق القواعد النحوية والصرفية للغة .

غير لفظي : ويظهر - كما قلنا سابقاً - في الإشارات اليدوية والجسمية ، وملامح الوجه (١) .

(١) د/ نوال عطية : علم النفس النوي مكتبة الانجلو المصرية ص ٣٢ .

وكذلك الرموز غير اللفظية كإشارات المروز ، وكرويتيك للوحة
مرسوم عليها شكل الأشجار الخضراء على شاطئ البحر ، وكان تومىء
برأسك لمحكك ، فيفهم أنك موافق ، أو تومىء لإيماءة أخرى معينة ، فيفهم
أنك غير موافق ، أو لإيماءة ثالثة فيفهم منك أنك تحببه ، فيرد عليك التحية
قائلاً : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وكان ترى في حياتك اليومية
حادثاً مؤلماً ، فتستجيب لهذا المنظر ، وتتأثر به أكثر من تأثرك له
بالكلمات والجمل .

اللغة الانفعالية : سبق أن هرفنا أن الكلمات والجمل قد تحمل مع دلالتها
الافورية دلالة أو شحنة انفعالية ، فإذا قرأت في إحدى الصحف اليومية نبأ
وفاة صديق عزيز ، فإن نطقك لكلمات الخبر وجمله لن يكون نطقاً عادياً ،
ولنما نطقاً ملوئاً بشحنات انفعالية تعبر عن الشعور بالأسى والحزن ، وهذا
ما ينعكس أثره في الصوت ، وإذا ألقى التحية على زميلك في الصباح ،
وكان يعانى من حالة نفسية كالحزن على ما أصابه بالأمس ، فإنك تفهم ذلك
من صوته حين يرد عليك التحية ، فتسأله على الفور عما به ، وما الذى حدث ؟

وإن جملة مثل : ديهرخ الطفل من الألم ، إذا قالتها أم هذا الطفل ، فإنها
تنطقها نطقاً يفيض شعوراً وإحساساً وعاطفة ، بخلاف ما لو نطقها شخص
آخر ، ومن هنا فإن لغة الحوار المسرحى على خشبة المسرح تعطى دلالات
انفعالية بخلاف ما لو قرئ نص المسرحية ، فإن القارئ لا يستمتع بلغتها
استمتاعه بها من فرق خشبة المسرح (١) .

(١) انظر : الدكتور إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ص

العلاقة بين اللغة والكلام

لقد أفاض علماء اللغة في تحديد مفهوم كل من اللغة والكلام ، وحاولوا الكشف عن العلاقة بينهما : هل هما مترادفان ؟ أو متضادان ؟ أو مختلفان ؟ ونسوق هنا رأى كل من « دى سوسير » و « يسبرسن » :

يعرف الأول اللغة بأنها : « مجموعة من الصور الذهنية المستقرة في العقل الجمعي »^(١) فاللغة العربية - مثلاً - مجموعة صور ذهنية تعلمها العرب واستقرت في عقولهم الجمعي ، وعلى أساس من هذه الصورة المحفوظة في الذهن يتعاملون باللغة . والكلام عنده هو تلك الصورة الصوتية التي ينطقها كل فرد من أفراد اللغة ، وعلى ذلك فما يتكلمه الشخص المعين لا يسمى لغة ، وإنما يسمى كلاماً .

وعلى ذلك يتضح الفرق بينهما على أنهما شيان مختلفان : فاللغة أمر ذهني ، والكلام أمر مادي عسوس نسمعه ونُدركه ، واللغة صور ذهنية ، والكلام أصوات منطوقة ، واللغة مرتبطة بالجماعة ، والكلام مرتبط بالفرد .

أما « يسبرسن » فاللغة عنده ذات مظهرين : ذهني ومادي ، أى صور ذهنية تتحول إلى صور صوتية عند إرادة التعبير ، والنوعان لا ينفكان ، فهما جزءان في شيء واحد هو اللغة ، وهما كوجهي العملة لا يستقل أحدهما - في أداء وظيفته - عن الآخر ، واللغة على هذا موجودة عند الفرد بمظهرها الذهني والمادي ، كما أن هناك لغة الجماعة ، ولكنه يتوصل إليها بالمنهج الآتي :

تدرس لغة كل فرد من أفراد الجماعة ، فتبرز فيما يسمى بالأنواع اللغوية ،

(١) انظر : يسبرسن . اللغة بين الفرد والمجتمع ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب ص ١٥ وما بعدها .

ومن هذه الأنواع أو اللغات تستخرج لغة الجماعة ، وذلك بإسقاط الفوارق اللغوية بين الأفراد ، والإبقاء على الخصائص اللغوية المشتركة بين الجميع (١) .
وعلى هذا تكون اللغة ليست أمراً ذهنياً فقط - كما رأى دى سوسير - وإنما هي أمر ذهني وأمر مادي معاً لا ينفصلان ، وهي موجودة عند الفرد ، أي أن ما ينطقه الفرد الواحد من أبناء اللغة لا يسمى كلاماً فقط - كما ذهب دى سوسير - وإنما يسمى لغة ، ثم ، إن هناك لغة الجماعة ، ويتوصل إليها بالمتبع السابق ذكره .

وهكذا تتضح علاقة الكلام باللغة على أنه جزء منها والمظهر المادي لها ، وهذا ما يتفق مع نظرة علماء العربية ، فقد عرف التحويون واللغويون الكلام بأنه : اللفظ المفيد ، وفسروا اللفظ ، بمعنى الملفوظ والمنطوق ، و اللفيد ، بأنه ما يؤدي معنى يحسن السكوت عليه ، مثل : محمد ناجح ، وقد يستعملون الكلام مرادفاً للغة ، فيقولون : ليس هذا من كلام العرب ، وهذا كلام جيد ، أي لغة جيدة .

اللغة والفرد

إن الفرد من بين أبناء اللغة هو المستعمل الفعلي للغة ، فبجهازه اللغوي ينتجها ، وبواسطة جهازه السمعي يستقبلها ، ويعقله يدركها ويفهمها . ومن هنا ، فإنه يعبّر بها عن مواطنه وأفكاره ورغباته ، ويعملها أساسية وانفعالاته .

ولهذا ، فإن العلاقة بينهما قوية ومتبادلة ، فكل منهما يؤثر في الآخر ، ويتأثر به . ومن مظاهر تأثير اللغة في الفرد :
= أنها تعد سمة مميزة له عن الآخرين من أبناء لغته ، ولذا يقال : عرفته

(١) انظر : الدكتور عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، ص ١٦ ، ١٧ .

من كلامه أو من صوته ، فقد أصبحت اللغة جزءاً من شخصيته ، وهذا ما نشاهده في طريقة نطق كل منا : فقد يكون نطقه بطيئاً هادئاً ، على حين يكون الآخر سريعاً متعجلاً بطبعه ، وإذا تعمعنا في تحليل ظاهرة اختلاف الأصوات : التي تعنى أنه لا يتفق اثنان من خلق الله في صوتيهما تحليلاً علمياً وعملياً بواسطة أجهزة التحليل العلمية فإننا نرى أن المكونات اللغوية لكل فرد تختلف عنها عند الآخرين ، وذلك راجع إلى اختلاف صناديق الرنين أى الفراغات الموجودة في جهاز النطق بدءاً من الحنجرة والحلق والغم والأنف ، وهى التى تختلف في أحجامها وأشكالها وسعتها وعددها من شخص إلى آخر ، ومن هنا كان لكل شخص خصائص صوتية معينة لا يشارك فيها أحد ، وقد أفادت علوم الأمن والإجرام من هذه الحقيقة الصوتية واتخذت منها ما يسمى بصمات الصوت بدلا من بصمات أصابع اليد .

وهذه آية من آيات الله في خلقه ، خلق فسوى وقدر فهدى ، تجعلنا نقف أمام الآية القرآنية : ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ، نفهمها فهماً جديداً على أنه ليس المقصود باختلاف الألسنة اختلاف اللغات من عربية وحشية وفارسية وألمانية ، وإنما الاختلاف كذلك في داخل اللغة الواحدة بين أبنائها الذين وإن كانوا يتكلمون لغة واحدة إلا أن لكل واحد منهم إخصائص صوتية خاصة فليسوا موضع اتفاق أو اتحاد فيها .

== وتؤثر اللغة في الفرد فتصبح أدواته في تنمية فكره ، وإمداده بالمدرجات التى ارتبطت بالفاظها وكلماتها ، وكلما تقدم به العمر كلما زاد قاموسه اللغوى الذى يمنى وزيادة الأفكار والمعانى لديه ، وبذلك تصير اللغة أمام الفرد من أهم القنوات التى يستمد منها أفكاره ، وثقافته ، وألوان المعرفة ، وفنون القول ، وهذا ما يلفت نظرنا نحن المربين والمربين والثقائمين على تربية أطفالنا إلى ضرورة اللغة بالنسبة للنمو الفكرى والعقل عند الطفل ، فيجب

علينا أن نقدم له هذه اللغة بطريقة محسوبة ، وبعملية مخططة وفق مراحل
تدرجها ؛ لتواكب تطور مظاهر النمو المختلفة فيه .

== كما أن اللغة من بين وسائل الانتماء لدى الفرد : فيها يحقق انتماء لأسرته ،
وانتماء لمجتمعه ، وانتماء لدينه وعقيدته ، فباللغة يعيش مع أسرته ويتواءم
معها ، وبها يتكيف مع مجتمعه ، ويتفاعل مع الآخرين ، ويتم تبادل المنافع
والمصالح المشتركة ، وبها يعيش عقيدته ويتفاعل مع دينه ، ويمارس العبادات
التي فرضها الله علينا .

والفرد كذلك يؤثر في اللغة ، ومن مظاهر ذلك :

== أن اللغة وإن كانت أداة التفكير ووسيلته ، فإنها تتأثر بالنضج
الفكري والتقدم الحضارى والثقافى ، ومن هنا فإن الفرد بما يحققه من تقدم
فكرى ، وازدهار ثقافى يؤثر في اللغة . فلا يستعمل إلا العبارات القوية
الراقية ، والأساليب اللغوية السليمة ، ويمكننا أن نلاحظ أثر ذلك على أطفالنا
حينما نلاحظهم بروضة الأطفال فى سن مبكرة ، فنجدهم يرددون العديد من
الأنشيد والنصوص المتنوعة ، بينما نرى الأطفال الذين لم يتيسر لهم دخول هذه
المدارس ، وينتظرون دورهم فى المدارس الابتدائية عموماً من ذلك ، وهذا
بلاشك يؤثر على مستواهم الفكرى وعموم العقل ، كذلك نلاحظ هذا الفرق
بين الأطفال الذين يتعلمون فى المرحلة الابتدائية مثلاً حين يختلف مستوى
التعليم فى دقته ، وجديته ، وقوة أدواته ووسائله : فالأطفال الذين يتعلمون فى
مدارس راقية يتميزون فى تفكيرهم عن الذين يتعلمون فى مدارس متأخرة ،
ومن هنا كانت الفكرة الاستثمارية فى إنهاء مدارس أجنبية فى بلادنا ،
ويرتقون بالتعليم فيها إلى أعلى مستوى ، فتشدنا العاطفة تجاه أولادنا إلى
إدخالهم فى هذه المدارس تاركين مدارسنا الوطنية أو العربية ، وبذلك يصبح
أطفالنا لقمة سائغة فى فم هذا المستعمر ، وأداة طيعة فى أيديهم ، يشكونها

وفق أغراضهم وأفكارهم المسمومة . وهذا ما تستغله اليوم حركة التبشير في الوطن العربي ، وفي إفريقيا ، وغيرهما .

وهناك تجربة واقعية في مصر نلتس أثرها في النمو اللغوي بصورة واضحة وقد بدأت في النصف الأول من هذا القرن وهي : أن الآباء وأولياء الأمور كانوا يدخلون أولادهم « الكتاب » الذي كان يتوفر على تحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم التجويد القرآني في سن مبكرة تبدأ من الرابعة أو الخامسة . ويستمر الطفل في هذا الكتاب حتى ينتهي من حفظ القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، ويحدث ذلك في سن الحادية عشرة أو العاشرة ، ولا يتأخر عن الثانية عشرة ، ثم بعد ذلك يدخلون الأزهر الشريف ، ومنهم من يدخل التعليم العام الابتدائي (المتوسط) ثم الثانوي ثم الجامعة ، ويتخرج الواحد فيعمل طبيباً أو مهندساً أو محامياً أو مدرساً ، وكان الملاحظ على هؤلاء الذين دخلوا التعليم العام أن مستواهم اللغوي أعلى بدرجة كبيرة من أقرانهم وزملائهم الذين لم يدخلوا الكتاب ولم يحفظوا القرآن الكريم : أنهم أكثر نمواً في أسلوبها ، وفي مفرداتها ، وفي طريقة أدائها ، وفي كيفية نطق أصواتها . وكانت تختفي بينهم ظاهرة أمراض الكلام في مراحل الطفولة المتوسطة من الفأفة ، والنأفة ، والدأفة . والسبب في كل هذا أن القرآن الكريم - وهو أعلى وأزرق مستوى لغوي عرفته العربية إلى يوم القيامة - قد جاءهم وهم في أم مراحل النمو ، لحسن نطقهم ، وأكسبهم مرونة ودقة ، وزاد في رصيدهم اللغوي ، فكثرت مفرداتهم ، وتنوعت أساليبهم ، وارتقى تفكيرهم ، ونما نمواً كبيراً ، وانطبع هذا النمو اللغوي بكل صوره فيهم ، وظل ينمو ويزيد حتى نهاية مراحل الطفولة (سن الثانية عشرة) .

ويظهر أثر هذا التكوين اللغوي السليم الذي اكتسبوه من القرآن الكريم في مراحلهم التعليمية التالية ، ويحققون نجاحاً ، وتفوقاً كبيراً ، في علوم اللغة العربية بخاصة ، وفي العلوم الأخرى عامة ، وما زال هذا التفوق ملحوظاً عليهم بعد تخرجهم من الجامعة ، وشغلهم أهل المناصب .

ففيما جذا لو أفدنا من هذه التجربة، وحاولنا أن ندخل أبناءنا في مدارس
تحفيظ القرآن الكريم، لاسيما أن حكومة المملكة الرشيدة قد أولت هذا
الامر رعاية خاصة في السنوات الأخيرة، فأنشأت هذه المدارس في جميع مناطق
المملكة، وأصبحت هذه المدارس في متناول أبنائنا وأولياء الأمور بلا معاناة
ولا كلفة، بل إنها يسرت هذا الأمر، وشجعت على الالتحاق بهذه المدارس،
فأعدت المسكافات المالية الشهرية للطلاب في مدارس تحفيظ القرآن الكريم
فخلقتنا نتجه بأطفالنا إلى هذه المدارس؛ ليزداد نهم اللغوي والعقلي
والإسلامي.

وإذا ما تمكن أطفالنا في هذه المدارس، ونموا هذا النمو الواسع، فإنهم
سوف يؤثرون في اللغة؛ وسيؤدونها أداء سليماً، ويكونون جيلاً يحافظ على
اللغة ويرفع من شأنها.

ومن مظاهر تأثير الفرد في اللغة أنه لظروف معينة قد يثير في طريقة
خطق صوت من أصواتها، ومع عدم القربة اللغوية، وعدم تصويب أخطائه
بمرور في مراحل الطفولة يبقى هذا التغيير، ويتأصل في لغة هذا الفرد،
وينتشر إلى الآخرين، ومع مرور الزمن يصبح هذا الخطأ جزءاً من اللغة،
ويتوارثه الأجيال على أنه من اللغة.

وكثير من كلمات الإبدال والقرادف يرجع أصلها إلى أخطاء الأطفال،
وعدم الرقابة اللغوية من المشرفين على تربيتهم، فمثلاً: قد تنطق الراء - عند
بعض الأطفال (غيثاً) في مثل: «امرئيل الدرع»، بمعنى لبسه بالضرورة
المعروفة، ويحمل هذا العيب النطق، وينتشر فيصبح هناك صورة جديدة
هي «تسقبل الدرع»، ومع مرور الزمن تصير جزءاً من اللغة، فليس هذا
من قبيل الإبدال؛ لأن شرط الإبدال وجود علاقة صوتية بين الصوتين اللذين
وقع فيهما الإبدال، وإنما هذا من قبيل عيوب النطق (١).

(١) انظر: الدكتور إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، الطبعة الثالثة ص ٦٦
وما بعدها.

وإذا كان سجلنا بتاريخ الكلمة العربية لا يعطينا حكما دقيقا على التغيير الذى أصاب أصواتها، فإن ذلك لا يمنعنا من القول بأن كثيرا من الأصوات اللغوية التى اختلف نطقها اليوم عما كانت عليه قديما - كأصوات الضاد ، والذال ، والظاف ، والجيم - يرجع إلى استعمالات فردية نسيها التاريخ .

كذلك ، فإن كثيرا من المفردات اللغوية التى نراها فى حياتنا الحاضرة يظهر فيه الآثار الفردية الواضحة ، فقد صنع بعض الناس كلمات لا عهد لنا بها من قبل بتأثير دافع الحاجة إلى استعمالها ، وأوضح مثال على ذلك : تلك الكلمات الأجنبية التى تسرى على الألسنة اليوم ، ويتلقاها الناس بالقبول مثل : كهر وميكا ، بمعنى : د كهر بائية ميكانيكية ، و د كيا ، بمعنى : كيا ئية ، ومثل : د أنومايك ، بمعنى آلى ، ومثل : د فول ، بمعنى : املا خزان السيارة بالبنزين .. الخ .

وإن كلمة د نكسة ، بالمعنى الذى حدث فى سيناء سنة ١٩٦٧ من هذا القبيل ، فقد أخرجها بهذا المعنى الجديد شخص أو أشخاص ، ورددها الناس ، وانتشرت ، وما زالت فى وعينا وعلى ألسنتنا نحن العرب إلى اليوم ، ولم تستطع انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ م أن تغير هذا المعنى أو تزيله من الاستعمال .

اللغة والمجتمع

اللغة - كما يقولون - ظل المجتمع ، تنمو بنموه ، وتجدد بمجموده ، وأيضا تضعف بضعفه ، ومن هنا فإن العلاقة بينهما قوية ومتبادلة ، فكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به .

ومن مظاهر تأثير اللغة فى المجتمع :

= أنها علامته التى تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى ، لأن لكل مجتمع لغته الخاصة به .

== إنها ظاهرة اجتماعية من بين ظواهر المجتمع العديدة، ووسيلة لتجميع أفرادها، والربط بينهم .

= أنماهى التى تبني حياته الفكرية ، وتنميتها، فباللغة يتقدم فكر المجتمع، وبها يتم تسجيل أفكاره وآراء المصلحين ، ونظريات العلماء ، ثم يمكن نقلها من مكان إلى مكان، ومن عصر إلى آخر ، ولولا الكلمة المنطوقة والمحفوظة للشعر العربى فى الجاهلية لما وصلنا شيء من أدب العرب قبل الإسلام ، ولفقدنا عنصرأ مهما من العربية الفصحى هو الشعر ، بل الأدب الجاهلى كله ، وكذلك لولا تدوين العلوم الإسلامية والعربية ، أو بمسألة أخرى ، لولا اللغة المكتوبة لما وصلنا تراث السابقين .. إلخ .

= كذلك فإن اللغة هى أداة المجتمع فى ممارسة حياته الثقافية، والاقتصادية، والدينية، والسياسية، والاجتماعية، ولو أمكننا أن تصور مجتمعاً بشرياً بدون لغة كيف سيكون حاله ؟ إنه سيكون أشبه بالمرضى المشلول لا يستطيع حراكاً .

ومن مظاهر تأثير المجتمع فى اللغة :

= أن صورة الطبقات الاجتماعية من عمال وصناع وثقاة وأهاليين وحكام ومحكومين تنعكس على اللغة ، فنجد فى مثل هذا النوع من المجتمعات ما يسمى اللغات أو اللهجات الاجتماعية أو الطبقاتية . ومن هنا فهناك اختلاف ما بين استعمال الحرفيين للغة واستعمال الأمراء لها ، وكذا بين استعمال البدو واستعمال الحضرة وهم جراً .

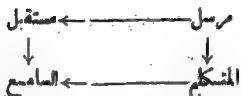
إذا أصيب المجتمع باحتلال مستعمر غاشم مدة طويلة من الزمن ، فإن هذا ينعكس بصورة سيئة على اللغة ، وإذا أنجز تحرراً منه ، وأصبحت حريته بيده فسرعان ما ينعكس ذلك على اللغة .

وإذا حقق المجتمع نهضة فكرياً ، وتقدم حضارياً انعكس ذلك على اللغة انعكاساً إيجابياً .

وأي تغيير - بالإيجاب أو بالسلب - تبرز ضرورته سريعاً على اللغة. لأن اللغة هي مرآة المجتمع، تنطبع فيها كل بصائته. وأقرب الأمثلة على ذلك هذا التغيير الذي أحدثته الإسلام الحنيف في المجتمع العربي فمكرياً، ونصافياً، وعلمياً، وخلقياً، وعقدياً، واجتماعياً... إلخ، فمرحان ما انعكس هذا التغيير الفاعل على اللغة العربية، فتمت ألفاظها، وتنوعت أساليبها، وارتقت في معانيها وصورها. ويمكننا مثلاً على ذلك: تلك الثروة اللفظية التي أضافها الإسلام إلى اللغة، ألا وهي المصطلحات، سواء أكانت فقهية، أم نحوية، أم صرفية، أم بلاغية، وسواء أكانت تنتمي إلى التفسير وعلموه، أم إلى الحديث وعلموه، أم إلى غير ذلك.

كيف تم حماية الكلام؟

اللغة يتم التفاهم بها بين طرفين :



ويكون بينهما الوسط الناقل الذي غالباً ما يكون الهواء، ومن هنا فعلينا أن نقف وقفة سريعة مع كل مرحلة من المراحل الثلاث : مرحلة النطق، وتتمثل بالمتكلم أو المرسل. ومرحلة الانتقال، وتتمثل بالوسط الناقل للرسالة التي أصدرها المتكلم، ومرحلة الإدراك والسمع، وتتمثل بالسامع أو المخاطب، ولكي يكون التوصيل جيداً فلا بد وأن تكون اللغة في هذه المراحل سليمة صحيحة تامة، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان المتكلم صحيحاً سليماً خالياً من العيوب النطقية، والأمراض الكلامية، وإلا إذا كان الوسط

(١٣ - مجلة كلية اللغة)

نناقل الكلام جيداً وخالياً من العوائق والعيوب ، وأن يكون المخاطب صالحاً لاستقبال الكلام أو اللغة المنطوقة ، بمعنى سلامته من العيوب السمعية والإدراكية ، وقادراً على الإجابة على الرسالة الواردة إليه ، فيكون جهازه النطقى كذلك سليماً .

وتحدث عملية الكلام بأن تكون الرتتان مملوءتين بهواء الشيق ، ثم يصدر الأمر من المخ - بعد عملية مركبة من التفكير ، واتخاذ قرار التكلم بالعبارة المعنية - إلى الحجاب الحاجز والقفص الصدرى بالضغط على الرتتين ، فيندفع الهواء منهما ماراً بالقنبة الهوائية ، فالحنجرة ، وإن كان الصوت الذى ينطلق مجهوراً صدر الأمر من المخ إلى الوترين الصوتيين فى الحنجرة بالاهتزاز ، وباهتزازهما يهتز الهواء ، وإن كان الصوت مهموساً جاءهما الأمر من المخ بالابتعاد ، وتكوين فتحة على شكل مثلث متساوى الساقين ، فيمر الهواء منها دون أن يحدث له اهتزاز ، ثم يمر ببقية جهاز النطق ، حتى يصل إلى المكان الذى ينطلق منه : فإن كان الصوت الذى يراد نطقه هو "الكاف" ، مثلاً فمتى ما يصل الهواء الذى لم يعمل بهتزازات الوترين إلى أقصى اللسان وأقصى الحنك الأعلى يكون الأمر قد صدر من المخ لهذين المصنوعين بإحداث التعلق المحكم الذى يحبس معه الهواء ، وبعد انتهاء فترة التعلق ، يأبهما الأمر بالابتعاد ، فيحدث ما يسمى بالفك أو الانفجار ، ثم يمر الصوت بعد ذلك من الفم إلى خارج الشفتين ، فيسمع المخاطب صوت الكاف ، ومع الأصوات الأنفية يخرج الصوت - بعد تكوينه فى مخرجه - من الأنف ، وذلك مع الملم والنون .

وبلاحظ أن عملية الضغط على الرتتين من قبل الحجاب الحاجز الذى يضغط من أسفل الرتتين إلى أعلى ، والقفص الصدرى الذى يضغط عليهما من الأمام والجانبين تحدث على شكل ضغطات متتالية بحسب عدد المقاطع التى

توجد في الكلمة ، فكلمة مستقر ، يحتاج في نطقها إلى ثلاث ضغطات ، لأن بها ثلاثة مقاطع هي :

مُسْتَقَرَّ + تَ + قَرَّ
↓ ↓ ↓
متوسط قصير طويل

كما يلاحظ أن كمية المواد مع كل مقطع تختلف باختلاف كمية المقاطع (١) ، فهناك المقطع القصير ، والمتوسط ، والطويل ، والطويل جدا . والكلمة التي معنا تبدأ بمقطع متوسط (مس) ، ثم المقطع القصير (ت) ، ثم المقطع الطويل (قر) ، وكمية المواد مع الأول أكثر منها مع الثاني ، ومع الثالث أكثر من الأول ، وهذا يتم بطريقة محكمة بدقة ، ومن هنا ففكر في هذا ، وفي كيف ينطق ويتكلم إذا وصديق الله العظيم إذ يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

* * *

(١) إن تقسيم المقاطع في اللغة العربية حسب الكمية على النحو التالي :

أ - مقطع قصير ، ويتكون من :

صامت + حركة ، مثل « ك » من « كتب » .

ب - مقطع متوسط ، ويتكون من :

صامت + حركة + صامت ، مثل « من » من « لن » .

ج - صامت + حركة طويلة ، مثل « ما » - لا .

د - مقطع طويل ، ويتكون من :

صامت + حركة + صامتان ، مثل : مصر - شهر .

هـ - صامت + حركة طويلة + صامت ، مثل : باب - ثاب .

و - مقطع طويل جدا ، ويتكون من :

صامت + حركة طويلة + صامتان ، مثل : حاد - ضال .

كيف يتم انتقال الصوت وإدراكه؟

إن الأصوات المنطوقة بمجرد أن تفادى فم المتكلم تتحول إلى أصوات فيزيائية لها خصائصها الطبيعية من الشدة والنغمة والزمن واللون ، وتنتقل عبر الوسط الناقل الذي غالبا ما يكون الهواء على شكل تضاعط وتخلخل ، بمعنى أن الهواء الخارج من فم المتكلم يضغط على جزيئات الهواء الملاصقة للفم ، فتستجيب لهذا الضغط ، فتتهزى الأخرى ذرات الهواء المجاورة ، ثم تعود إلى صورتها الأولى ، ووضعها السابق ، وهكذا تستمر عملية التضاعط والتخلخل ، حتى تصل إلى أذن السامع ، ومعنى ذلك أن الصوت الخارج من فم المتكلم لا يخترق الهواء بذاته حتى يصل إلى السامع ، وإنما بالاهتزاز ، كل جزيئات من الهواء تهتز وتضغط على الجزيئات المجاورة لها ، وهذا ما يسمى بالموجة الصوتية ، وهي تشبه تماما الموجة المائية عندما تلقى بحجر في ماء هادئ . أذكر أنك ، فإننا نلاحظ تكون دوائر سريعة تبدأ ضيقة ، ثم تتسع حتى تصل إلى نهايتها .

يصل الصوت إذن إلى أذن السامع على شكل اهتزازات ذات شدة ، ونغمة وذات زمن معين ، ولون خاص ، فيجمعها صيوان الأذن ، وتدخل منه إلى الصماخ ، ثم طبلة الأذن ، فتتهز الطبلة بنفس الصورة والقوة التي عليها اهتزازات الصوت ، فتتهز الركاب ، الذي يهز بدوره السندان ، ثم تنتقل الاهتزازات إلى الأذن الوسطى ، فتعبر بالقنوات الهلالية ، ثم بالسائل التيمى ، الذى يهتز ، فيهر معه أعصاب السمع المغموسة فى هذا السائل ، ثم تنقل هذه الأعصاب الاهتزازات إلى المخ ، فيدركها المخ ، ويتعرف عليها : هل هذه اهتزازات السين أو اللام ، وبعد أنت يتم التعرف على اهتزازات أصوات الكلمة الواحدة يدرك معناها ، وهكذا حتى ينتهى من إدراك الجملة المنطوقة ، والرسالة الصوتية التى أرسلها المتكلم ، فيبدأ المخ بعد ذلك فى خطوات الرد والاستجابة ، وبعد أن يحدد الفكرة التى سيرد بها على الرسالة ، يصدر

أو امره الأخصاب التي تحرك العضلات المعينة في أعضاء النطق ، ليأخذ دوره في عملية نطق جديدة ، ثم بعد نطقها تنتقل عبر الوسط الناقل إلى المتكلم الأول ، وهنا يتحول المتكلم إلى مستمع ، والمستمع إلى متكلم ، وهكذا تدور عملية التخاطب . .

وإذا عرفنا هذه المراحل الدقيقة في عملية الكلام والسمع أدركنا خطورة الأمراض التي تكون في جهاز النطق ، أو جهاز السمع لدى الأطفال وهم في أول مرحلة من مراحل التعلم اللغوي ، واللغة تنفعا لديهم - كما سيأتي توضيح ذلك - بواسطة وقوع الرسائل الصوتية على آذانهم ، ثم بعد الإلف بهذه القوالب الصوتية ، تبدأ عندهم مرحلة الربط بين الصورة الصوتية التي أحسها الأذن وأدركها المخ - وبين المعنى الذي تدل عليه ، وهذا ما يعرف باللفظ والمعنى ، أو الدال والمؤول ، ويخزن ذلك في المخ ، ثم تتسكّر هذه العملية مع الكلمة الغائية ، وكل مرة يدرّس صبيده اللغوي من الكلمات المتعلقة بلفظها ومعناها ، أو بصورتها الصوتية والمعنى الذي ارتباط به .

فأي خلل لدى الطفل يعوق إنتاج الأصوات سيكون له أثره البالغ على لغة الطفل مستقبلا ، وأي خلل في جهازه السمعي سيهوه الصورة المسموعة للأصوات ، فيؤثر ذلك عليه مستقبلا ، كما أن أي خلل في عملية توصيل الكلام إلى الطفل يضر بلفظه كذلك . ولذا يجب الالتفات في الفهور الأولى للطفل إلى مثل هذه العيوب النطقية أو الأمراض الكلامية ، كما يجب أن يعطى الوالدان إلى العلاج سريعا على أيدي المتخصصين ، حتى لا يجرم أبناؤنا القدرة على النطق الصحيح ، أو السمع السليم .

النمو اللغوى

إن الحديث عن النمو اللغوى أحوجتنا - كما سبق - إلى تلك المقدمة التى طالت نسبيا ، لىكى يقف القارئ على تصور مترابط ، وإن كان سريعاً من :
= أهمية اللغة التى هى من أجل نعم الله على الإنسان - فى حياة الإنسان -
= اهتمام العلماء بها على اختلاف المصور والأزمان ، وعلى اختلاف تخصصاتهم .

= الوظائف الاجتماعية للغة من خلال تليينها لأفراض المجتمع فى مختلف نشاطاته .

= الوظائف النفسية لها من واقع ارتباطها بالنفس البشرية وبرغباتها واقضائها .

= الوظائف العقلية للغة من حيث أهميتها فى بناء الفكر وتنميته لكل من الفرد والجماعة .

= العلاقة بين اللغة والفرد ، وبينها وبين المجتمع ، ثم بينها وبين الكلام .
= كيف تتم العمليات اللغوية الثلاث : عملية النطق ، وعملية التفاهة الكلام ، ثم عملية الإدراك .

وهذا يستطيع القارئ - أن يعيش مع مراحل النمو اللغوى ، ويفيد منه فى تربية أطفالنا .

إن اللغة - كما سبق - لها مظهران : ذهنى ، وهو عبارة عن الصور الذهنية المستقرة فى عقل الجماعة ، ومظهر مادى يتمثل فى الكلام الذى هو أصوات منطوقة للتعبير عن هذه الصور الذهنية .

والحديث عن نمو اللغة عند الطفل يدور حول أمرين هامين : اكتساب اللغة ، ثم التعليم اللغوى ، وما يستتبع ذلك من المراقبة النطقية ، والتربية اللغوية .

أولاً : اكتساب الطفل للغة :

يمر الطفل في اكتساب لغته بمرحلتين :

الأولى : مرحلة الوأيد ، أو التي تسمى «مرحلة الصراخ» ، وتبدأ بصيحة الميلاد التي هي بداية التنفس ، ثم الصراخ الذي يصل بمجموع زمنه إلى ساعتين في اليوم ، وفي هذا الصراخ تعبير عن حالته الانفعالية ، فقد أثبت علماء النفس بناء على التجارب العملية أن الصرخة الرئية تدل على الضيق ، والحادة تدل على الألم ، والصرخة الطويلة تدل على الغيظ (١) .

وعلى هذا فإن صراخ الطفل أمر ضروري له ، حيث يتخذ وسيلة للتعبير عما يحس به ويعاني منه ، ولهذا فإن من الخطأ الحيلولة بين الوأيد وبين صراخه ، كما أن الصراخ له أثره في تقوية الجهاز النطقي ، ومن المظاهر اللغوية في هذه المرحلة أيضاً إصدار الأصوات العشوائية التي لا تعبر عن معنى لأنها بطريقة غير إرادية ، غير أنها تعد للمادة الخام التي تتكون منها الأصوات والمقاطع والكلمات فيما بعد .

وفي هذه المرحلة يؤثر كل من النضج والبيئة في سرعة تشكيل هذه الأصوات العشوائية إلى الخط اللغوي ، ومن هنا فإن على الأسرة أن تلاحظ ذلك ، وتحاول تهيئة الجو للنمو اللغوي ، ومراقبة الطفل لغوياً ، وتشجيعه على استخدام الأصوات اللغوية بتكرارها بصورة واضحة على سمعه .

المرحلة الثانية : مرحلة الرضيع ، أو مرحلة الأصوات اللغوية التلقائية : وفيها تتحول الأصوات العشوائية إلى أصوات لغوية تفهمها الأم ، ويبدأ الرضيع في تقليد الأصوات اللغوية التي تقع على سمعه من محيطه ، وتبدأ هذه المرحلة في الشهر الخامس تقريباً ، وفيها يستجيب الرضيع لهذه الأصوات اللغوية المسموعة فينطقها معبراً عن سروره أو ألمه .

وبأخذ الرضيع في نطاق الأصوات ، وبناء على تنوعها بالنسبة لخارجها وكذا لصفاتها ، فإن الأصوات الحلقية (أ - هـ - ع - ح - غ - خ) تكون أول الأصوات التي ينطقها ، وقد تكون الصعوبة الموجودة في هذه الأصوات مناسبة لبذل الجهد في محاولة التعبير عن انفعالاته وآلامه ، ثم تظهر الأصوات الصفوية (م - ب - ف) حيث تكون عضلات الشفتين وأعصابهما قد مرنت عن طريق الرضاعة ، ثم يمزج الرضيع بين النوعين مثلاً : (أب - أم) ، ثم تظهر الأصوات الأسنانة (Dental) كالدال والهاء ، ثم الأصوات الأنفية (م - ن) ، وهكذا حتى يمتلك طريقة نطق الأصوات اللغوية جميعها (١) .

وينتقل الرضيع بعد نطق الأصوات اللغوية إلى نطاق المقاطع الصوتية مثل : (با) و(ما) و(وا) و(آ) ويكررها سعيًا بنجاحه في نطقها فتتكون من تكرارها كلمات مثل : (بابا) و(ماما) . . . وهنا يدخل الرضيع مرحلة تكوين الكلمة من المقاطع الصوتية ، وتظهر الكلمة الأولى في الشهر التاسع تقريباً ، وقد تتأخر إلى الشهر الخامس عشر عند الطفل العادي وتعد السنة الأولى من عمر الرضيع مرحلة الكلمة الواحدة ، حيث إنه يكون قد تمت عملية الربط بين الكلمة الصوتية ومدلولها ، وهذه بداية التعلم الفعلي والعمل ل لغة ، وذلك عن طريق التقليد لغة أبويه ، وفيه يتعرف على المعاني وعلى الألفاظ ثم على الربط بينهما .

ويلاحظ حين استعماله للكلمات أنه يدرك الأسماء ويستعملها قبل الأفعال وأن هذه الكلمات تأخذ لديه صفة العموم ، فزاد يطلق كلمة (بابا) مثلاً على كل رجل يراه ، ويطلق كلمة (لبن) على كل طعام ، وبعد نمو الإحساس والانتباه تبدأ مرحلة التمييز الفكري والتخصيص ، فيصبح قادراً على التمييز بين الأشياء ، والأنواع ، والأشخاص ، فلا يطلق كلمة (بابا) إلا على أبيه

(١) انظر المرجع السابق ص ١٤٢ وما بعدها .

فعلا . ثم يصل الرضيع إلى (الإدراك) الذى هو عملية عقلية ، وأول خطوة من خطوات التفكير . ثم يقوم بعملية (التعميم) تلك التى توصله إلى عملية (التجريد) وهنا يصل إلى (الإدراك السكى) . وعندما يحاول التعبير عن المدرك السكى فإنه لا ينطق إلا بكلمة واحدة ، فلم يصبح قادراً بعد على نطق الجملة وتكوينها ، فعندما يتعاقب الرضيع كلمة (محمد) مثلاً ، فقد يقصد بها التعبير عن جملة مثل : محمد ضربى ، أو : محمد أخذ لعبتى ، أو : أريد أن ألعب مع محمد وهذا هو ما يطلق عليه (الكلمة الجملة) .

وبعد أن يدخل نمو العقل خطوة جديدة من خطوات التفكير - يتمكن فيها من تكوين المقدمات واستنتاج النتائج - يصبح حينئذ قادراً على تكوين العلاقة بين الكلمتين فيكون الجملة . وهنا تبرز عدة عوامل ، يكون لها الأثر الفعال في النمو اللغوى لا بد من الالتئام إليها ، والعمل على توفيرها : منها : الذكاء ، وسلامة الجهاز العصبى ، وثراء البيئة الثقافية والاجتماعية والفروق الفردية ، والفروق بين الجنسين ، إلى آخره .

وعلى الأسرة في هذه المرحلة التى تنتهى ببلوغ الرضيع عامين أن تقوم بمساعدات هامة وبوسائل التربية اللغوية ، حتى يجتاز الرضيع هذه المرحلة الصعبة في حياته اللغوية ، فمثلاً : عند بداية نطقه للأصوات اللغوية تنطق أمامه حتى يقلدها تقليداً صحيحاً ، وإذا كان هناك بعض الأصوات يخطئ في نطقها بسبب أنه لم يوفق في وضع أعضاء النطق الموضع الصحيح ، فلا يترك هذا بلا علاج ، وقد يخطئ الأبوان حين يريان رضيعهما ينطق نطقاً خاطئاً فيكرران على سماعه هذه الصورة الصوتية الخاطئة كما نطقها ، طناً منهما أن ذلك يساعده على التمسك باللغوى ، إن ذلك يضلل الرضيع ، ويوصله إلى الخطأ ، فيصبح نتاجه منه في المراحل اللاحقة من الصعوبة بمكان .

كذلك عندما يدخل الرضيع في مرحلة تكوين المقاطع الصوتية ، فعلى

الأسرة مساعدته ليقنها ، ويدخل إلى تكوين الكلمة ، فعندما ينطق المقطع (با) مثلاً ، فعلى الأم أن تشجعه بتكرار هذا المقطع . ثم تحاول بعد ذلك أن تنطق له المقطع نفسه بكلمة مبتدئ به ، وتشير له إلى مدلوله ، فنقول : « با با » ، وبتكرار هذه العملية عند دخول الأب يستعمل الرضيع كلمة « با با » وهنا يتم ميلاد الكلمة ، وهكذا حتى يتعلم نطق العديد من الكلمات ، ويصبح لديه قاموسه اللغوي . ثم تساعده الأسرة في تحقيق عملية التمييز والفصل بين الأشياء والأنواع والأشخاص ، ثم عملية تكوين الجمل ، ثم في عملية تنمية الثروة اللفظية .

ويلاحظ أن هنا عقبة أمام الطفل العربي ، وهي مواجهة تامين من اللغة : الفصحى والعامية ، لكن الذي يتعلمه هو « العامية » ، ولو قدمنا الفصحى الرضيع في مرحلة تكوين الكلمات ، وتكوين الجمل ، لتعلمها بسهولة ، ولشدها عليها ، وهذا هو السبيل في القضاء على الازدواجية اللغوية ودل ، الممانعة التي يبذلها أبناؤنا في تعلم الفصحى لأول مرة في السنة الأولى بالمدرسة الابتدائية .

كما أنه من الممكن الآن نقل حامل « وسائل الإعلام » وبخاصة الإذاعة والتلفزيون ، وليست البرامج الإذاعية والتلفزيونية تمسح لتقديم برامج لتنمية اللغة لدى الأطفال ١١

المرحلة الثالثة : مرحلة الطفولة المبكرة من ٢ - ٦ سنوات :

إن هذه المرحلة أسرع مراحل النمو اللغوي عند الطفل ، ففيها يحصل أكبر قدر ممكن من معجمه اللغوي ، ويتكمن من التعبير عن الأفكار تعبيراً سليماً ، ويفهم لغة التخاطب فهماً دقيقاً ، ويعبر عن نفسه أصدق تعبير ، ويحقق التوافق الشخصي والاجتماعي والنفس ، ويكتمل نموه العقلي إلى درجة ملحوظة : ففي العام الثالث تبرز مظاهر النمو اللغوي في زيادة المفردات وزيادة كبرى ، وفي معرفة الصفات الكثيرة ، وبعض القواعد اللغوية مثل : الجمع

والفرد . وفي العام الرابع يصبح قادرا على تبادل الحديث مع الكبار ، وعلى وصف الأشياء ، وصفا بسيطا ، وعلى الإجابة عن الأسئلة . أما في العام الخامس فإنه يكون قادرا على تكوين الجمل الكاملة المشتملة على كل أنواع الكلام ، أي أنه يكون الجملة من الفعل والفاعل ومتعلقاتها بما يراوح عدد كلماتها من ٤ - ٦ كلمات . كما أن النمو اللغوي في العام السادس يصل بالطفل إلى إدراك معاني الأرقام ، ومعرفة الأوقات ومعانيها من الصباح ، والمساء ، والليل ، والنهار والصيف ، والشتاء ، إلى آخره .

وهكذا يظهر النمو اللغوي في هذه المرحلة بظهورين :

(أ) الجمل القصيرة التي تتكون كلماتها من ٣ - ٤ كلمات ، وتأتي سليمة من الناحية الوظيفية ، إلا أنه قد يكون بها خطأ من ناحية التركيب اللغوي ، وهذا ما يحدث في العام الثالث .

(ب) الجمل الطويلة التي تتكون كلماتها من ٤ - ٦ كلمات وتكون ، كاملة مفيدة ، تامة الأجزاء ، وأكثر تعقيدا ودقة في التعبير . وهذا ما يبدأ ظهوره من العام الرابع .

وليك هذا الجدول الذي يبين عدد كلمات الجملة مرتبطا بعمر الطفل (١) :

| العمر بالسنة | عدد كلمات الجملة |
|--------------|------------------|
| ٢٥ | ٣ |
| ٣٥ | ٤ |
| ٦٥ | ٥ |

وفي هذه المرحلة يجب أن توظف العوامل التي تدفع النمو اللغوي قدماً
إلى الأمام ، مثل :

٢ - توجيه البرامج الإذاعية والتلفزيونية ، وغيرهما من وسائل الإعلام
إلى النمو اللغوي .

٣ - التمسك بالتعليم وإلحاق الأطفال بروضة الأطفال ، التي يجب أن
تتبع التعليم بنظرياته الحديثة .

٤ - تجنب الطفل للاضطرابات الانفعالية والاجتماعية ، حتى لا تؤثر على
نموه اللغوي تأثراً سيئاً .

٥ - تجنب الطفل مخالطة أقرانه الذين لم يلقوا الرعاية اللغوية ، أو الذين
يستعملون الكلمات الفاحشة .

٦ - تحسين علاقة الأم بطفلها وكذا الجدة ، ونهضة الجو الأسرى بعامة
بما يساعد على النمو اللغوي .

٧ - التأكد من سلامة الجهاز النطق لدى الطفل ، والمحافظة على
صحته سليماً .

٨ - التأكد من سلامة جهاز السمع ، وضرورة المسارعة بالعلاج إذا
ظهرت أمراض سمعية .

٩ - الاهتمام بإصلاح هيوب النطق وأمراض الكلام ، حتى لا يكون من
العسير معالجتها في الكبر .

١٠ - الإكثار من سرد القصص المأدبة ، والحكايات المغيدة ، مع الحرص
على الإلقاء الجيد ، وحذاق الوكر فاعلى القصص الخاص بالأنبياء والرسل ،
والحكايات الإسلامية ، كقصص الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو تاريخ
صحابي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٠ - العمل على زيادة المحصول اللغوي من المفردات ، وقد دلت الإحصاءات والتجارب على أن متدبل نمو المفردات لدى الطفل على نحو ما هو موضح في الجدول الآتي (١) :

| العمر بالسنة | عدد المفردات | الزيادة |
|--------------|--------------|---------|
| ٢ر٥ | ٤٤٦ | ١٧٤ |
| ٣ | ٨١٦ | ٤٥٠ |
| ٣ر٥ | ١٢٢٢ | ٣٣٦ |
| ٤ | ١٥٤٠ | ٣١٨ |
| ٤ر٥ | ١٨٧٠ | ٣٣٠ |
| ٥ | ٢٠٧٢ | ٢٠٢ |
| ٥-٥ | ٢٢٨٩ | ٢١٧ |
| ٦ | ٢٥٦٢ | ٢٧٣ |

رابعاً : مرحلة الطفولة الوسطى من ٦ - ٩ سنوات :

وتوصف هذه المرحلة بأنها مرحلة التعبير التحريري ، ويتعلم الطفل في هذه المرحلة ، الجمل المركبة الطويلة ، وتنمو قدرته على التعبير التحريري بانتقاله في المدرسة من صف إلى صف ، ويلاحظ أن هذا النمو بطيء ، لأن عملية التعبير التحريري معقدة ،

وهنا تتضاعف مسؤولية الأسرة ، فلا بد من توفير الجو الملائم للطفل ، فتم المحافظة عليه من الاختلاط بالأوساط الاجتماعية الفقيرة أو غير المثقفة ،

(١) المرجع السابق ، جدول (١٧) «

وذلك؛ لأن الأطفال أو التلاميذ الذين يعيشون في هذه الأوساط في لغتهم استعمالات لغوية خاطئة أكثر من الذين يعيشون في أوساط منققة راقية .

كما يأخذ الطفل في الدخول إلى دور « القراءة » التي تقتضى التعرف على النجل ، وربط مدلولاتها بأشكالها ، وتحليل أجزائها من الكلمات والأصوات ، وتزيد سرعة الطفل في القراءة الجهرية مع انتقاله من صف إلى صف ، أى مع نموه العقلى .

وتتمتع مسئولية الأسرة مع مسئولية المدرس بالنسبة لغزو اللغة عند التلميذ في مراعاة ما يأتى :

١ - تشجيع التلميذ على الكلام والتحدث ، والتعبير الحر ، بعيدا عن الخوف والحجل .

٢ - تنمية عادة الاستماع من التلميذ ، وكذا تعويده على القراءة الجهرية .

٣ - مراقبة الاستعمال اللغوى ، واستعمال الكلمات ، ثم النجل استعمالا صحيحا .

٤ - عرض النماذج اللغوية الجيدة على الطفل ، ليتأثر بها في المنزل وفى المدرسة .

٥ - إعداد مكتبة له تناسب مع مستواه الفكرى ، وتيسيق قراءته فيها بصفة منتظمة .

٦ - المراقبة اللغوية وتصحيح الاستعمالات الخاطئة عند الطفل تدريجيا حتى لا يؤدى الإسراف فى التصحيح إلى شعور بالخوف من الخطأ ، فهرب نفسيا من القراءة ، ويضيع الهدف التربوى .

خامسا : مرحلة الطفولة المتأخرة : من ٩ - ١٢ سنة :

وفى هذه المرحلة يزداد فهم الطفل للمفردات ، التى تزداد لديه بشكل ملحوظ

كما أنه يتمكن من إدراك العلاقة بين الكلمات المتضادة ، والمترادفة ، والمشتقة والمتضادة ، كذلك يدرك تماماً معاني المجرّدات كالكذب ، والصدق ، والعدل والظلم ، والحرية ... إلخ . وأيضاً يمتلك القدرة على النقاش والمهاجاة ، ويتذوق ما يقرأ ، ويفهمه جيداً .

وهنا تتضاف جهود البيت مع جهود المدرسة ، في رعاية الطفل من جميع النواحي ، وبخاصة من الناحية اللغوية حيث ، إنه على أبواب مرحلة جديدة وخطيرة هي : المراهقة .

والتعاون مع المدرسة أمر ضروري يجب أن تدرك الأسرة ، ونذكر نفسها بهذا الواجب دائماً ، وعلى ولي الأمر أن يتابع ابنه ، ويكون قريباً دائماً من المدرسة ؛ ليقف على سلوك ابنه ، وليكتشف مبكراً أى مظهر سلبي في حياته . فطلب علاجه ، وهذا ما تنادى به مدارسنا ومعاهدنا ، وتناشد أولياء الأمور في أن يتخلصوا من هذه السلبية ، وهذا ما أقرته النظريات والتجارب التربوية ، حتى يؤدي التعليم رسالته ، ويصل أبناؤنا وبناؤنا إلى الصورة المثلى في أخلاقهم ، وسلوكهم ، وتفكيرهم ، ولقمتهم .

• • •

ثانياً : التعلم اللغوي :

بعد هذا الحديث عن عملية اكتساب الطفل للغة ، ومراحل نموها يأتي دور الحديث عن النظريات التربوية واهتمامها بمسألة التعلم اللغوي ، من حيث إنه طريق يسهم في اكتساب اللغة ، من طريق المناهج المقننة في مراحل التعليم الابتدائية والمتوسطة ، وكذا الثانوية .

لقد ظهرت طرق جديدة في التعلم اللغوي ، وبخاصة في بداية القرن العشرين لتوصل إلى النمو اللغوي السليم ، منها :

= الحفظ العم . وهو يعتمد على المادة اللغوية التى يصبح اللفظ فيها كثير ، وإدراك المعنى كاستجابة لهذا المثير .

= النظرية السكلية التى نذهب إلى إدراك المعنى السكل ، عن طريق الجملة اللغوية ، كصورة لفظية كلية دون تحليلها فى بداية الأمر إلى كلمات ، والكلمات إلى مقاطع ، والمقاطع إلى أصوات ، وإنما يتم هذا بعد أن يقطع الطفل شوطا فى التعلم اللغوى .

وقد زاد اهتمام العلماء بالتعلم اللفظى ، لمحاولوا اكتشاف طرق أكثر جدوى وكان منها :

(أ) طريقة الارتباط الثنائى : تلك التى بدأت بالاعتماد على تقديم المادة اللغوية للطفل ، فى شكل قوائم من الالفاظ ، مرتبة زوجيا ، ليسهل تعلمها واستذكارها ، ثم تطورت بما يخدم عملية التعلم بسرعة أكثر ، مثل : البحث عن الوسائل الجيدة التى تساعد على تذكر الربط بين الكلمات المتعلمة ، كتقسيم قائمة الالفاظ إلى مجموعات متجانسة من حيث المجموعات السهلة ثم الصعبة ، أو المجموعات التى سبق تعلمها ، ثم المجموعات الجديدة التى يتعلمها الطفل لأول مرة ، أو أن تنظم القائمة تنظيما خاصا ، كالتنظيم الرأسى للكلمات أو الأفقى . إلخ .

(ب) طريقة التسلسل اللفظى : وذلك بإعداد قائمة من الكلمات فى سلسلة معينة ، بحيث إن الكلمة الأولى تقود إلى الثانية ، والثانية تقود إلى الثالثة ، وهكذا ، فمثلا ذهب محمد إلى المدرسة ، نرى أن الفعل « ذهب » يثير فى عقلية المتعلم من الذى ذهب ؟ فتقدم له السلسلة اللغوية كلية « ذهب » ، وهذا بدوره يثير سؤالا ، إلى أين ذهب ؟ فتقدم له السلسلة اللغوية ذلك (إلى المدرسة) ، ويمكن أن يدهم هذا التسلسل بتعريف الطفل ببعض القواعد العامة للغة ، مثل : أين يكون موقع الفعل فى اللغة بعامته ؟ وأين يكون موقع الفاعل والمفعول ؟ إلخ .

(ج) طريقة الاستدعاء الحر : وذلك بأن نعرض على الطفل قائمة من الكلمات على فترات زمنية معينة ، ثم يطلب منه تذكر مايسمعه منها دون ترتيب ، ثم تتكرر هذه العملية مع تغيير الترتيب للكلمات في المرة الأولى حتى يتم حفظها واسترجاعها .

وهناك محاولات كثيرة من علماء اللغة ، وعلماء النفس ، في الوصول إلى أمثل الطرق المجدية في تعليم اللغة ، وهناك العديد من البحوث والتجارب التي تهدف إلى تطوير النظم اللغوية ، وتحقيق النمو اللغوي على أكمل وجه .

وهذه القضية - أعنى قضية تعليم اللغة - يجب أن نوليها عناية خاصة في مدارسنا ومعاهدنا ، وخاصة المرحلة الابتدائية ، حتى يتعلم أبناءنا اللغة العربية الفصحى بتمج سليم ، وطريقة ناجحة ، فإلى متى تظل العشوائية المسيطرة في تعليم العربية ؟ إن تعلم أطفالنا للعربية يحتاج إلى تحديد طريقة تربوية صالحة ، يلتزم بها المدرسون جميعاً في الوطن العربي ، بدلاً من الاعتماد على خبرة المدرس ومهارته أو عدم مهارته ، وعلى نجاح طريقته أو عدم نجاحها .. وهذا وباقة التوفيق ؟
وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد .

من أهم المراجع

- ١ - الدكتور / إبراهيم أنيس :
 = من أسرار اللغة - الطبعة الثالثة ، ط الأنجلو المصرية .
 = دلالة الألفاظ
 = اللهجات العربية
- ٢ - ابن جني :
 = الخصائص : تحقيق الشيخ محمد علي النجار ،
 ط دار الكتب المصرية .
 = سر صناعة الإعراب تحقيق الدكتور حسن هندأوى .
- ٣ - الدكتور / أحمد أبو زيد :
 = عالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الأول .
- ٤ - الدكتور / تمام حسان :
 = مناهج البحث في اللغة - الطبعة الأولى .
 = اللغة مبناها ومعناها - ط الهيئة المصرية
 العامة للكتاب .
- ٥ - الدكتور / عبد الرحمن أيوب :
 = أصوات اللغة - الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .
- ٦ - فندريس :
 = اللغة : ترجمة الدكتورين القصاص والدواخلى .

٧ - الدكتور / كمال محمد بشر :

= قضايا لغوية ، الطبعة الأولى .

= علم اللغة العام - الأصوات - دار المعارف ١٩٧٠م

٨ - الدكتور / محمود السمران :

= اللغة والمجتمع رأى ومنهج . دار المعارف .

الطبعة الأولى .

= علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دار المعارف ١٩٦٢م

٩ - الدكتورة نوال محمد عطية :

= علم النفس اللغوي - دار المعارف .

١٠ - إسبرسن : = اللغة بين الفرد والمجتمع ، ترجمة الدكتور /

عبد الرحمن أيوب .

= علم نفس النمو . ١١ -

= فن التدريس ، ١٢ -

١٣ - الدكتور مصطفى فهمي :

= سيكولوجية التعلم

(الكف اللفظي في ضوء الدراسات النحوية)

بقلم

د / سمير أحمد عبد الجواد

أستاذ مساعد بقسم اللغويات

معنى الكف :

الكف في لغة العرب معنيان : الجمع والمنع .

يقال : كف الشيء يكفه كفا : جمعه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم :
« المؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته » (١) أي : يجمع عليه مبعثته
ويضمها إليه .

وكففت الرجل من الشيء كفا : منعته : فكف هو ، يتعدى ولا يتعدى
والمصدر واحد . وقولهم : لغيت كفة كفة - بفتح الكاف - أي : كفاحا ،
وذلك إذا استقبلته مواجهة ، وهما اسمان جملا اسما واحداً وينيا على الفتح ،
كان كل واحد منهما قد كف صاحبه عن مجاوزته إلى غيره ، أي : منعه (٢) .

ويحتمل المعنيين قوله عليه الصلاة والسلام « أمرت ألا أكف شمرا »
ولا نوبا ، (٣) يعني في الصلاة .

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ١٩٠ / محمود محمد الطناحي

ط / دار إحياء التراث العربي .

(٢) انظر : تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري . (ك ف ف) ت / أحمد

عبد الفتور مطاير ط / دار القلم للدارين - بيروت - لسان العرب : لابن منظور
(ل ف ف) ط : دار المعارف .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ١٩٠ .

قال ابن الأثير : د أى لا أمنهما من الاسترسال حال السجود ليقعا على الأرض ، ويحتمل أن يكون بمعنى الجمع : أى : لا يجمعهما ويضمهما ، (١) .
أما الكف فى الاصطلاح فلم أأف على تعريف له فى كتب النحو ، ويمكن تعريفه بأنه (منع العامل من التسلط على المصمول) والعلاقة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى واضحة .

النقاط التى يتناولها البحث :

يتناول البحث النقاط الآتية :

١ - الكف بالالف .

٢ - الكف بما .

(ما الكافة عن عمل الرفع - ما الكافة عن عمل النصب والرفع - ما الكافة عن عمل الجر) .

٣ - الأشياء التى تكفى ما بعدها عن العمل فيها قبلها .

١ - الكف بالالف

من الظروف اللازمة للإضافة إلى المفرد (بين) ، وقد يقال (بيننا)
بإلألف كقول العرب :

فبيننا نحن نركبه أئانا معلق وفضة وزنادراع (٢)

(١) الرجوع السابق ١٩٠/٤ .

(٢) البيت من شواهد المكناب لسيبويه ٨٦/١ ط / بولاق ، المحدث فى بيان
وجوه شواذ القراءات / لابن جنى ٧٨/٢ ط / دار التجدد ناصف ، ط / دار التحرير
- شرح الفصل لابن عيش ٩٧/٤ ، ١١/٦ ط / الطباعة المنيرية - الاسان (بين)
ط / دار المعارف .

وختلف في هذه الآلف : فذهب ابن جنى إلى أنها إشياع ، وإلى أنه أراد (بين نحن نرقبه أنا) فأشيع الفتحة لحدث بعدها ألف .

فإن قيل : فالإم أضاف الظرف الذى هو (بين) وقد علمنا أن هذا الظرف لا يضاف من الأسماء إلا إلى ما يدل على أكثر من الواحد ، أو ما عطف عليه غيره بالواو دون سائر حروف العطف نحو : المال بين القوم ، والمال بين القوم ، والمال بين زيد وعمر ، وقوله (نحن نرقبه) جملة ، والجملة لا مذهب لها بعد هذا الظرف ؟

فالجواب : أن معنا واسطة محذوفة ، وتقدير الكلام (بين أوقات نحن نرقبه أنا) أى : أنا أنا بين أوقات رقبتنا إياه ، والجل بما يضاف إليها أسماء الزمان نحو : أنتك زمن الحجاج أمير وأوان الخليفة عبد الملك ، ثم إنه حذف المضاف الذى هو (أوقات) وأولى الظرف الذى كان مضافا إلى المحذوف الجملة التى أقيمت مقام المضاف إليها ، كقوله تعالى ذكره (واسأل القرية) (١) أى : أهلها ، (٢) .

ويرى الفراء أن أصل (بينا) : بينا لمحذوف الميم ، قال أبو على : فلهذا لا يعرف إلا بوحي أو خبر نبي (٣) .

وذهب السكاكى إلى أصله (بينا) بالتنوين ، والتنوين فيه للعوض عن المضاف إليه المحذوف وهو (الأوقات) ثم أبدل الآلف من التنوين فى الوصل لإجراء الوصل مجرى الوقف ، فثبت الآلف فيه ثبوتها فى الوقف بدل التنوين (٤) .

(١) سورة يوسف الآية ٨٢ .

(٢) سر صناعة الإعراب لابن جنى ٢٤/١ ت / د . حسن هندأوى ط / دارالكتاب - دمشق - خزانة الأدب الهندأوى ١٧٩/٢ ت / عبد السلام هارون ط / الهيئة العامة للكتاب . (٣) خزانة الأدب ١٧٩/٣ .

(٤) مفتاح العلوم لساكى ص ١١٤ تعليق زرزور ط / دار الكتب العلمية - بيروت . وانظر : الخزانة ١٧٩/٣ .

وهل هذا فالف (بينا) عوض العوض ، ومثله غير معروف ، ويقضى
أيضا أن يكون (بينا) غير مضافة إلى الجملة (١).

وقد ابن مالك إلى أن الألف زائدة من غير إشباع ، وعند زيادتها
يجوز وجهان : بقاء الإضافة وانكشافها ، إلا أن الانكشاف قبل اسم هين
أكثر من بقاء الإضافة (٢).

ويرى الرضى أن الألف إشباع وهى كافة لبين من الإضافة إلى المفرد
حيث قال : « ولما قصد إلى إضافة (بين) اللازم إضافته إلى المفرد إلى جملة
- والإضافة إلى الجملة كلا إضافة - زادوا عليه (ما) السكافة ، لأنها التى تكف
المقتضى من الاقتضاء ، أو أشبعوا الفتحة فتولدت ألف ، لتكون الألف
دليل عدم اقتضاءه للمضاف إليه ، لأنه كأنه وقف عليه ... وأصل (بين)
أن يكون مصدراً بمعنى الفراق ، فتقدير : جلست بينكما ، أى : مكان فراقكما ،
وتقدير : فعلت بين خروجك ودخولك ، أى : زمان فراق خروجك
ودخولك ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبين مستعمل فى
الزمان والمكان ، وأما إذا كف بما أو الألف وأضيف إلى الجمل فلا يكون
إلا للزمان (٣).

فا والألف - عند الرضى - كفتا (بين) عن الإضافة إلى المفرد وهما
للإضافة إلى الجملة .

(١) الحزانة ١٧٩/٣ .

(٢) شرح السكاكية للشاوية لابن مالك ٩٣٦/٢ د/ عبد النعم هريدى ط : دار
المأمون للطباعة .

وانظر : منى الأريب لابن هشام ٣٤٥/١ ، ٤١١ ت : د/ ملازن المبارك وآخر
ط : لاهور - الحزانة ١٧٩/٣ :

(٣) شرح السكاكية للرضى ١١٣/٢ ط : دار الكتب العلمية - بيروت - الحزانة

١٧٩/٣ .

وعلى هذا حمل قول هند بنت النعمان :

فبينما نسوس الناس والأمر أسرفنا إذا نحن فيهم سوقة ليس نصف (١)
وأجاز بعض النحاة كون الألف بمعنى (ما) الكفاة ، وهذا أبعد
الأقوال (٢) .

والأولى بالقبول من هذه الآراء ما ذهب إليه المحقق الرضى ، ويؤيده
أن (بين) قد أضيفت إلى المفرد في قول أبي ذؤيب الهذلي :

بيننا تماثله الكفاة وروعه يوماً أتبع به جرىء سلفه (٣)

فلا مانع من إضافتها إلى الجملة الاسمية أو الفعلية (٤) ، وإلى هذا حال
ابن مالك (٥) وابن عقيل (٦) .

٢ - الكفاة بما

تنقسم (ما) الكفاة ثلاثة أقسام :

(أ) ما الكفاة عن عمل الرفع

(ب) ما الكفاة عن عمل النصب والرفع

(١) البيت ف : أمالي ابن الجعفي ١٧٥/٢ ط : دائرة المعارف العثمانية - المنفى

٣٤٥/١ ، ٤١١ الخزائن ٣/١٧٨ . (٢) المنفى ٤١١، ٣٤٥/١ - الخزائن ٣/١٨٠ .

(٣) البيت ف : شرح الكفاة للشافعية ٩٣٦/٢ - شرح الكفاة للرضي ١١٥/٢ -

الخزائن ٣/١٨٢ المنفى ٤١١/١ - شرح أبيات المنفى للبندادي ٧٧٣/٥ ت : عبد العزيز

رباع وآخر ط : محمد هاشم السكتي . (٤) المنفى ٤١١/١ والخزائن ٣/١٨٠ :

(٥) للتسهيل لابن مالك ص ٩٣ ت : محمد كامل بركات ط : الهيئة العامة للكتاب

وشرح الكفاة للشافعية ٩٣٦/٢ .

(٦) المعاهد شرح تسهيل النوادر لابن عقيل ٥٠٤/١ ت : د / محمد كامل بركات

ط : دار الفكر - دمشق .

(ج) ما الكافة من عمل الجر .
وإليك تفصيل ذلك :

(١) ما الكافة من عمل الرفع :

تدخل (ما) على الفعل فتجعله يل ما لم يكن يليه قبل دخولها ، ولا اتصل
إلا بثلاثة أفعال هي : قل وكثر وطلب ، فتكفيها عن طلب الفاعل ، وعلة ذلك
شبهون رب (١) ، فلا يدخلن حيثن إلا على جملة فعلية مخرج بفعلها كقول
العربي :

قلما يرج اللبيب إلى ما يورث المجد داعيا أو مجيبا (٢)

والأصل في (قل) أنها النفي المحض ، فرفع الفاعل مثلوا بصفة مطابقة ،
نحو : قل رجل يقول ذلك ، وقل رجلا يقولان ذلك ، بمعنى : ما رجل ،
فإذا دخلت طيبا (ما) وليها الفعل ولا فاعل لها لإجرائها مجرى حرف النفي
فتقول : قلما يقوم زيد (٣) .

قال المبرد : وكذلك قل ، تقول : قل رجل يقول ذلك ، فإن أدخلت
(ما) امتنعت من الأسماء وصارت الأفعال ، فقلت : قلما يقوم زيد ، ومثل

(١) انظر : الخصائص لابن جني ١٦٧/١ ت : محمد علي النجار ط : دار الكتب
المصرية ، المسائل المشككة المرونة بالهنداديات ، لأبي علي الفارسي ص / ٢٩٥ ت :
صلاح الدين عبد الله السيكاوي ط : الماني ، بغداد ، شرح الكافية لرضي ٢/٢٤٥ ،
النفي ١/٣٣٩ .

(٢) البيت من هوامد : النفي ١/٣٣٩ ، شرح آيات النفي ٥/٢٤٥ ، التصريح
١٨٥/١ الشيخ خالد الأزهرى ط : المطبعة الأزهرية .

(٣) التسهيل ص ٢٤٩ ، المساعد ٣/٢٤٢ ، مع الموامع ، السبوطي ٥/٢١
ت : د . عبد العالم سالم وآخر ، ط : دار البحوث العلمية بالسكوت .

هذا كثير، (١).

وقد يليها الاسم كقول المزار الفقهى :

صددت فأطولت الصدود وقلبا وصال على طول الصدود يدوم (٢)
وفيه تأويلان :

أحدهما : أن وصالا فاعل تقدم على (يدوم) ضرورة .
والثاني : أنه مرفوع فعل مضمر يفسره (يدوم) أى : وقلبا يدوم
أو يبقى وصال ، نحو (وإن أحد من المشركين استجارك) (٣) .
قال سيدييه في باب الحروف التى لا يليها بعدها إلا الفعل : ومن ذلك
الحروف : ربما وقلبا وأشباههما ، جعلوا (رب) مع (ما) بمنزلة كلمة واحدة ،
وهيئوها ليندكر بعدها الفعل ، لأنهم لم يكن لهم تبديل إلى رب يقول ، ولا إلى :
قل يقول ، فألحقهما (ما) وأخلصوهما للفعل ...

وقد يجوز في الشعر تقديم الاسم . قال :

صددت فأطولت الصدود وقلبا وصال على طول الصدود يدوم (٤)
هذا وقد نسب ابن هشام والبيهقي إلى المبرد القول بأن (ما) في البيت
زائدة ، وليس كذلك إذ أنه يوافق سيدييه في كونها كافة (٥) .

وبذلك على إخراجهم (قلبا) بحرف ، وأنه لذلك يحسن ألا يقتضى
فاعلا - كما يقتضيه سائر الأفعال - لمشاكبته حرف النفي قولهم : قلما صرت حتى

(١) المنتخب ، المبرد ٢/٥٤ ، ت : الشيخ محمد عبد الحالى عضيمة ، ط : المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) البيت من شواهد : الكتاب ١/١٢ ، ٤٥٩ ، المنتخب ١/٨٤ ، المساعد
٢٤٢/٢ ، النى ١/٣٣٩ ، ٦٥٢/٢ ، الخزانة ٤/٢٨٧ ، المعجم ٥/٢١ .

(٣) سورة التوبة آية ٦ . (٤) الكتاب ١/٤٥٩ وانظر الكتاب ١/١٢ .

(٥) النى ١/٣٤٠ - الخزانة ٤/٢٨٧ . وانظر : المنتخب ١/٨٤ ، ٥٤/٢ .

أدخلها ، ألا ترى أنهم لم يرفعوا الفعل بعد (حتى) كما لم يرفعه بعد النفي فيه .
قوله : ماسرت حتى أدخلها ، فإجراؤهم هنا (قلنا) مجرى الحرف يقوى
أيضا إجراؤها مجراه في ألا تقتضى فاعلا ، ويحسن ذلك فيها في القياس ، فهذا
وجه مذهب سيديوه فيه وهو الجديد (١) .

وأما : كثيرا يقولون ذلك ، قلنا كان خلافه أجرى مجراه كعديان
وريان وشبمان وطيان ونحو ذلك مما يكثر تعداده مجرى خلافه ، فمكذلك .
كثير ما يقولون ذلك (٢) .

(ب) ما الكافة من عمل النصب والرفع (٣) :

إذا اتصلت (ما) بإن أو أن أو لكن أو كان أو لعل اتصلت وعارت
صالحة لأن يليها الأسماء والأفعال ، لأن عمل هذه الحروف العمل المخصوص .
إنما كان لأجل شبهها بكان في الاختصاص بالمتبدا والخبر ، وحين ركبت مع
(ما) صار الاختصاص مفقودا ، فبطل عملها لشبهها حيثئذ بالحروف المهملة
لعدم اختصاصها (٤) .

وذلك مثل قوله تعالى : إنما الله واحد (٥) وقوله سبحانه : الحسيبي
إنما خلقناكم عبثا (٦) ، وقول ساعدة بن جؤيه :

(١) المسائل المشككة (البنداديات) ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) المسائل المشككة (البنداديات) ص ٣٠٠ .

(٣) راجع : الأصول في النحو ، لابن السراج ٢٣٢/١ ، ت : د . عبد الجيسر
الثاني ، ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الإيضاح المضدي ، لأبي علي الفارسي ص ١٢٧
ت : د حسن هادي فرهود ، ط : دار التأليف بدمشق ، شرح الكافية الشافية ٤٧٩/١
البنداديات ص ٢٨٦ ، الرضى على الكافية ٣٤٨/٢ ، الثاني ٣٤٠/١ ، الباب في شرح
الآيات ١٠٤٧/٢ ، لجلال الدين عبد الله الحسيفي المروف بقره كار ، ت : د سميع أحمد
عبد الجواد رسالة دكتوراه بالكافية .

(٤) شرح الكافية الشافية ٤٧٩/١ . (٥) سورة النساء آية ١٧١ .

(٦) سورة المؤمنون آية ١١٥ .

ولكنما أهلى بواد أنيسه ذئاب تبغى الناس مثنى وموحد (١)
وقول امرئ القيس :

ولكنما أسعى لمجد مؤئل وقد يدرك المجد المؤئل أمثالى (٢)
وقوله جل ذكره : كأنما يساقون إلى الموت ، (٣) وقول امرئ القيس :
وكأنما بدر وجهل كتيفة وكأنما من قائل أرمام (٤)

وقول سويد بن كراع العملى :
تحمل وعالج ذات نفسك وانظرن أبا جعل لعلك أنت حالم (٥)
وتسمى المتأخرة بفعل مبيته .

قال سيبره : : هذا باب الحروف التى يجوز أن يليها بعدها الأسماء ،
وجوز أن يليها بعدها الأفعال وهى : لكن وإنما وكأنما وإذ ونحو ذلك ،
لأنها حروف لا تعمل شيئا ، وتركب الأسماء بعدها على حالها ، (٦) .

وقال فى (هذا باب وإنما) : : أعلم أن كل موضع تقع فيه (أن)
تقع فيه (إنما) وما ابتدئ بعدها صلة لها ، كما أن الذى ابتدئ بهم الذى
صلة له ، ولا تكون هى عاملة فيها بعدها كما لا يكون الذى عاملا فيها بعده ، (٧) .

(١) انظر : الكتاب ١٥ / ٢ ، المتضبط ٣ / ٢٨١ ، ابن عيسى ٨ / ٥٧ ، ديوان
الهندليين ٢٣٧ / ١ ط : دار الكتب المصرية .

(٢) انظر : ابن عيسى ١ / ٧٩ ، ٨ / ٥٧ لتصريح ١ / ٢٢٥ ، ديوانه ٣٩ .

(٣) سورة الأنفال آية ٦ .

(٤) البيت فى : رصف البانى فى شرح حروف البانى ، الملقى ص ٣١٨ .
ت : أحمد محمد الخراط ط : زيد بن ثابت ، ديوانه ص ١١٦ .

(٥) البيت من شواهد الكتاب ١ / ٢٨٢ ، الأصول ١ / ٢٣٣ ، البنداديات ، ٢٧٧
الخزانة ٤ / ٢٩٧ .

(٦) الكتاب ١ / ٤٥٩ . (٧) الكتاب ١ / ٤٦٥ .

وقال : « وأما لعلمنا فهو بمنزلة كأنما ... وقال الخليل : إنما لا تعمل فيها بعدها كما أن أرى إذا كانت لغوا لم تعمل ، (١) » .

وقال المبرد : « ونظيرهما قولك : إنما زيد أخوك ، منعت (ما) (إن) عملها ، (٢) » .

أما (ليتنا) فإن اختصاصها بالمبتدأ والخبر باق ، فلذا جاز إعمالها وإعمالها ، فمن أعملها فليبقا الاختصاص ومن أعملها فإلحاقا بأخواتها ، ولأنها بايئت (كان) حين قارنها مالا يقارن (كان) كما أمملت (ما) حين وصلت بان . لأنها بايئت (ليس) بمقارنتها مالا يقارنها (٣) .

وقد روى بيت النابغة الذبياني :

قالت ألا ليتنا هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد (٤)
بنصب (الحمام) ورفعه .

فن نصب (الحمام) - وهو الأرجح - فأزادة غير كافة و (هذا) اسمها و (لنا) الخبر .

ومن رفع فيحتمل أن تكون (ما) كافة و (هذا) مبتدأ ، ويحتمل أن تكون (ليت) حاملة و (ما) موصولة وهي اسمها ، و (هذا) خبر مبتدأ محذوف ، والحام صفة (هذا) أي : ليت الذي هو هذا الحمام ، و (لنا) خبر (ليت) ، وهذا ضعيف لحذف الضمير المرفوع في صلة غير (أي) مع عدم الطول ، وسهل ذلك لتضمنه إبقاء العامل ،

(١) السكتاب ٢٨٢/١ ، (٢) التتضب ٥٣/٢ .

(٣) راجع : التسهيل : ٦٥ ، شرح السكتانية الثانية ٤٨٠/١ ، الأمل في الشجرية ٢٤١/٢ الرضى على الكافية ٣٤٨/٢ .

(٤) انظر : السكتاب ٢٨٢/١ ، الأصول ٢٣٣/١ ، المساعد ٣٢٩/١ ، ابن عيش .

٥٨/٨ ، ألف ٣٤١/١ ديوانه ص ٤٥ .

قال سيوريه : د وأما لينها زيداً منطلق ، فإن الإلغاء فيه حسن (أى إلغاء ما فيه جرح النصب) - وقد كان رؤية بن العجاج ينشد هذا البيت رفعا ، وهو قول النابغة الذبياني :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا
إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فرمعه على وجهين : على أن يكون بمنزلة قول من قال (مثلا ما موضنة) (١) أو يكون بمنزلة قوله : إنما زيد منطلق (٢) .

هذا وقد بين ابن جني اختصاص ليت بجواز الإعمال والإعمال حيث قال : ومن ذلك (لينا) ألا ترى أن بعضهم يركبها جميعا فيسلب بذلك (ليت) عملها ، وبعضهم يلغى (ما) عنها فيقرر عملها عليها . فن ضم (ما) إلى (ليت) وكفها بها عن عملها الحقيقي بأخواتها من (كان) و(لعل) و(لكن) ، وقال أيضا : لا تكون (ليت) في وجوب العمل بها أقوى من الفعل ، وقد نراه إذا كف بما زال عنه عمله ، وذلك كقولهم : قلنا يقوم زيد ، فما دخلت على (قل) كافة لها من عملها ، ومثله كثيرا وطالما ، فكذا دخلت (ما) على الفعل نفسه فكففته عن عمله وهياته لغير ما كان قبلها متقاضيا له ، كذلك تكون (ما) كافة لليت عن عملها ومصيرة لها إلى جواز وقوع الجملةين جميعا بعدها .

ومن ألغى (ما) عنها وأقر عملها جعلها كحرف الجر في إلغاء (ما) معه نحو قول الله تعالى (فما نقصهم ميثاقهم) (٣) .. وفصل بينها وبين كأن ولعل

- (١) سورة البقرة آية ٢٦ . الزرع قراءة الضعاف وإبراهيم بن أبي عبة ورؤية ابن العجاج ، وقرأ الجمهور بالنصب ، و (ما) هي قراءة الزرع موصولة بمعنى الذى (انظر : البحر المحيط ١/ ١٢٢) . (٢) الكتاب ١/ ٢٨٢ . (٣) سورة النساء آية ١٥٥ ، سورة المائدة آية ١٣ .

بأنها أشبه بالفعل منهما ، ألا تراها مفردة وهما مركبتان ، لأن السكاف زائدة واللام زائدة ،^(١) .

وجوز قوم لإعمال (لعلنا) حملا على (ليت) لاشتراكهما في أنهما يغيران معنى الابتداء ، وكذا قالوا في (كأن) وبعضهم خض (لعل) بذلك لاشدية النقشابة لأنها وليت للإلغاء ، وأما كأن فلا خير^(٢) .

وروى أبو الحسن الأخفش في إنما وإنما الإعمال والإلغاء ، والإعمال قليل فيهما لضعف معنى الفعل فيهما ، لأن التأكيذ الذي هو معناهما تقوية الثابت لا معنى آخر متجدد : وعدم سماع الإعمال في كأنما ولعلنا ولسكننا ، وقياسها في الإعمال على (ليتنا) سائق عند السكافي وأكثر النجاة . إذ لا فرق بينها وبين ، ليتنا ، وإذا سمع في (إنما) مع ضعف معنى الفعل فيه فسا ظنك بهذه الحروف ، لكن الإلغاء أولى بالاتفاق لعدم السماع وفوات الاختصاص بسبب ما ، وسيبويه يمنع الإعمال في غير ليتنا لسماع المشهور فيه دون غيره^(٣) .

وكون (ما) مع هذه الحروف كافة هو مذهب الجمهور ، وزعم ابن ديمثوريه وبعض الكوفيين أن (ما) اسم مبهم بمنزلة ضمير الشأن في التفعيل والإيهام وفي أن الجملة بعده مفسرة له وغیرها عنه ، ويرده أنها لا تصلح للابتداء بها ولا لدخول فاسخ غير إن وأخواتها^(٤) .

هذا وقد نجى (ما) مع (إن) محتملة للسكاف والموصولية كقوله تعالى

(١) الحماض ١٦٧/١ ، ١٦٨ ، (٢) التنقيح ٣١٨/١ .

(٣) راجع : التوسيل ص ٦٥ ، شرح السكافية ٤٨٠/١ ، السامع ٣٢٩/١ ،

الرضى على السكافية ٣٤٨/٢ .

(٤) الرضى على السكافية ٣٤٨/٢ ، التنقيح ٣٤٠/١ .

(إنما حرم عليكم الميتة) (١). فن نصب (الميتة) فأكافة، ومن رفعها - وهو أبو رجاء العطاردي - فالأسم موصول والعائد محذوف (٢).

كما تجيء معهما محتملة للكسف والموصولية والمصدرية كقوله تعالى :
(يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ) (٣) فما في
(أَنَّمَا) إما بمعنى الذي أو مصدرية أو أكافة . فإن كانت بمعنى الذي فغير (أن)
(نسارع) والرابط محذوف لفهم المعنى تقديره : نسارع لهم به في الخيرات ،
وإن كانت (ما) مصدرية فالخبر (نسارع) على تقدير (مسارعة) فيكون
الأصل : (أن نسارع) - لحذفت (أن) وارتفع الفعل ، وإن كانت (ما)
مهيئة وكأفة فهو مذهب الكسائي فيها هنا ، فلا تحتاج إلى ضمير
ولا حذف (٤).

وقد ذكر الفراء ضابطاً يمكن الاستعانة به في تحديد نوع (ما) حيث
قال : « فإذا رأيت (إنما) في آخرها اسم من الناس وأشباهم مما يقع عليه
(١) سورة البقرة آية ١٧٣ .

كذلك هي في الآيات الآتية تحتل للكسف والموصولية : « إنما يخشى الله من
عباده العلماء » سورة فاطر آية ٢٨ ، انظر : البحر ٣١٢/٧ ، النفي ٣٤١/١ .
« إنما صنوا كيد ساحر » سورة طه آية ٦٩ ، انظر : معاني الفراء ١٠١/١ ،
البحر ٢٣/٦ « قل إنما يوحى إلي إنما الحكم إله واحد » سورة الأنبياء آية ١٠٨ .
انظر : البحر ٣٤٤/٦ .

(٢) معاني الفراء ١٠٠/١ ، ١٠٢ ، اليسان في غريب القرآن ١٣٩/١ ،
البحر ٤٨٦/١ ، النفي ٣٤١/١ .
(٣) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .

كذلك هي في قوله تعالى « إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » سورة طه آية ٧٢ .
انظر : البحر ١٢٦٢/٦ « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم »
سورة المنكحوت آية ٢٥ . انظر : البحر ١٤٨/٧ ، البيان ٢٤٢/٢ .

(٤) معاني الفراء ٢٣٨/٢ ، البيان ١٨٦/٢ ، البحر ٤٠٩/٤ ، دراسات لأسلوب
القرآن ٥٠٨/١ ، ٥١٣ ، الاسم الأول .

(من) فلا نعملان (ما) فيه على جهة (الذي) لأن العرب لا تسكاد تجعل (ما) للناس . من ذلك : إنما ضربت أخاك ، ولا تفل : أخوك ، لأن (ما) لا تكون للناس ، فإذا كان الاسم بعد (إنما) وصلتها من غير الناس جاز لك الوجهان فقلت : إنما سكنت دارك (بالنصب) وإن شئت دارك (بالرفع) (١).

ما الذي تفيدُه [إنما] ؟

قال ابن السيد : [إنما] عند البصريين لها معنيان : أحدهما تحقير الشيء وتقليله والثاني الاختصار عليه .

فأما احتقار الشيء وتقليله فكمرجل سمعته يزعم أنه يحب الهبات ويروى الناس بما له فتقول له : إنما وهبت درهما ، تحقير ما صنع ولا تعده شيئاً .

وأما الاختصار على الشيء فنحو رجل سمعته يقول : زيد شجاع وكريم وعادل وعالم ، فتقول : إنما هو شجاع ، أي : ليس له من هذه الصفات غير الشجاعة .

وتستعمل (إنما) أيضاً في رد الشيء إلى حقيقته إذا وصف بصفات لا تليق به كقوله تعالى (إنما الله واحد) (٢) وقوله (إنما أنا بشر مثلكم) (٣) وهذا راجع إلى معنى الاختصار .

وذكر الكوفيون أنها تستعمل بمعنى النفي ، واحتجوا بقول الفرزدق :
أما الذائد الخافي الذمار وإنما يدافع عن أحبابهم أنا أو مثلي (٤)

(١) معاني الفراء ١/١٠٢ ت : محمد بن النجار ط : دار المصرية للطباعة .

(٢) سورة النساء آية ١٧١ .

(٣) سورة الكهف آية ١١٠ ، سورة فصلت آية ٦ .

(٤) البيت في : المختضب ٢/١٩٥ ، ابن يميني ٢/٩٥ ، ديوانه ٢/٧١٢ .

قالوا : د معناه ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثل ، (١) .

وقال أبو علي الفارسي : د يقول ناس من النحويين في نحو قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) (٢) : إن المعنى ما حرم ربي إلا الفواحش ، وأصبحت ما يدل على صحة قولهم في هذا ، وهو قول الفرزدق :
أنا الذائد الحامي الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثل

فليس بخلو هذا الكلام من أن يكون موجبا أو منفيا ، فلو كان المراد به الإيجاب لم يستقم ، ألا ترى أنك لا تقول : يدافع أنا ولا يقاتل أنا ، وإنما تقول : أدافع وأناقل ، إلا أن المعنى لما كان : ما يدافع إلا أنا ، فصلت الضمير كما فصله مع النفي إذا لحقت معه (إلا) حملا على المعنى .

قال الزجاج : إنما تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه ، (٣) .

وكون (إنما) تفيد الإيجاب والنفي هو رأى ابن السجري (٤) والسبيل أيضا ، وهذا هو السبب في إفتائها معنى المحصر .

قال السبيل : د وأما قولك : إنما زيد قائم فقد انتظمت - يعنى ما - بأن وامتنعت معها وصارت كلمة واحدة ، و (إن) تعطى الإيجاب الذى تعطيه (إلا) و (ما) تعطى النفي ، ولذلك جاز : إنما يقوم أنا ، وأنا لا تكون

(١) الانتصاب : لابن السيد البطليوس ص ١٧ ، ١٨ ط : دار الجليل - بيروت

وانظر : البرهان في علوم القرآن : لأزركشى ت : محمد أبو الفضل ط :

دار المعرفة - بيروت ٢٣١/٤ .

(٢) سورة الأعراف آية ٣٣ .

(٣) المسائل الشريعات ، لأبي علي الفارسي ٢٣٠/٢ ، ت : علي جابر منصور ،

رسالة دكتوراه دلائل الإعجاز ، لهدى القاهر الجرجاني ص ٢١٤ ، ٢١٥ تطبيق :

أحمد مصطفى الراعى ، ط : الطبعة العربية .

(٤) الأمالي الشجرية ٢٤٣/٢ .

فاعلة إلا إذا فصلت بإلا ، تقول : ما يقوم إلا أنا ، ولا تقول : يقوم أنا . فإذا قلت : (إنما) صرت كأنك قد لفظت بما مع إلا . قال الشاعر :

أدافع عن أعراض قومي وإنما يدافع عن أعراضهم أنا أو مثلي (١)

وقال : د تقول : إنما يأكل زيد الخبز فحققت ما اتصل وعققت ما انفصل . . وتلخيص هذا الكلام : أنها في وإثبات فأثبت لزيد أكل الخبز المتصل به في الذكر ونفيت ما عداه ، فمعناه ما يأكل زيد إلا الخبز . . وما يوضح لك ما ذكرنا من النفي والإثبات في (إنما) قول همام :

أدافع عن أعراض قومي وإنما يدافع عن أعراضهم أنا أو مثلي

جمل الضمير المنفصل وهو (أنا) فاعلا وهو متصل في اللفظ بالفعل ، وما ذلك إلا أن بينه وبين الفعل جاحزا في المعنى وهو (إلا) فكأنه قال : ما يدافع عن أعراضهم إلا أنا أو مثلي .

فقد وضع لك النفي والإثبات المذكوران في (إنما) (٢) .

وليس معنى أن (إنما) تعيد الإيجاب والنفي أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه وأن سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد ، وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء وبين أن يكون الشيء على الإطلاق ، وما يبين أنهما لا يكونان سواء أنه ليس كل كلام يصلح فيه (ما) و (إلا) يصلح فيه (إنما)

وأبضا : (إنما) تجيء لخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صمته ، ولما ينزل هذه المنزلة من ذلك قول المتنبي لكافور :

إنما أنت والد والأب معا فطع أحق من واصل الأولاد (٣)

(١) نتائج المسكر ص ٤١١ ، ٤١٢ ت : د . محمد إبراهيم : البناط : منشورات

جامعة قايونس :

(٢) نتائج المسكر ص ١٧٥ ، ١٧٦ وانظر الإيضاح للقزويني ص ١٢٨ .

(٣) دلائل الإيجاز ص ١٦ - ديوانه ٢٥٧/١ .

أما الخبر بالنبي والاثبات نحو : (ما هذا إلا كذا) فيكون للأمر يشكره المخاطب ويشك فيه (١).

وإفادة (إنما) الإيجاب والنفي هو سبب إفادتها الحصر .

يقول الزمخشري - عند تفسير قوله تعالى : قل إنما يوحى إلى إنما الحكم لله واحد قل أنتم مصلون ، (٢) : إنما تقصر الحكم على شيء أو تقصر الشيء على الحكم كقولك : إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد ، وقد اجتمع المفلان في هذه الآية لأن (إنما يوحى إلى) مع فاعله بمنزلة : (إنما يقوم زيد) و (إنما الحكم لله واحد) بمنزلة زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الالة على أن الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مقصور على استنثار الله بالوحدانية (٣) .

وذكر السكاكي وجها لطيفا في إفادة (إنما) الحصر يستند إلى على بن عيسى الرضى ، وهو : أنه لما كانت كلمة (إن) لتأكيد إثبات المسند المستند إليه ثم اتصلت بها (ما) المؤكدة - لا النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو - ناسب أن يضمن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد ، فإن قولك : زيد جاء لا عمرو - لمن يردد الجملة - الواقع بينهما - يفيد إثباته لا يبدى في الابتداء صريحا وفي الآخر ضمنا ، (٤) .

هذا وقد اضطرأ أبو حيان في إفادة (إنما) الحصر ، فبينما يرد على الزمخشري رأيه في إفادتها للحصر بقوله : أما ما ذكره في (إنما) أنها تقصر ما ذكر فهو مبنى على أن (إنما) للحصر ، وقد قررنا أنها لا تكون للحصر ، وأن (ما) مع (إن) كهي مع (كان) ومع (لعل) فكما أنها لا تفيد

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٢) الأنبياء آية ١٠٨ . (٣) الكشف ٥٨٦/٢ ط : دار المعرفة - بيروت .

(٤) انظر : مفتاح العلوم ص ٢٩١ ، الإيضاح في علوم البلاغة ص ١٣١ ، ١٢٢ .

ط : السنة المحمدية .

الحصر في التشبيه ولا الحصر في الترجي فمكذلك لا تفيسده مع (إن) (١٧) .
لإذ نراه في موضع آخر يقرر إقامتها للحصر (٢) .

ونازع ابن هشام في إقادة (إنما) النفي والإيجاب والحصر حيث قال :
« وزعم جماعة من الأصوليين والبيانين أن (ما) الكفاية التي مع (إن) نافية
وأن ذلك سبب إقامتها الحصر . قالوا : لأن (إن) للإثبات و (ما) للنفي فلا
يجوز أن يتوجها معا إلى شيء واحد لأنه تناقض ، ولا أن يحكم بتوجيه
النفي المذكور بعدها لأنه خلاف الواقع باتفاق ، فتعين صرفه لغير المذكور
وصرف الإثبات المذكور لجاء الحصر . »

وهذا البحث مبني على مقدمتين باطلتين بإجماع النحويين : إذ ليست (إن)
للإثبات وإنما هي لتوكيد الكلام إثباتا كان مثل : إن زيداً قائم ، أو نفياً
مثل : إن زيداً ليس بقائم ، ومنه (إن الله لا يظلم الناس شيئاً) (٣) ، وليست
(ما) للنفي بل هي بمنزلة (إن) في أخواتها ، ليتما ولعلما وكأنا وليكنها .

وبعضهم ينسب القول بأنها نافية للفارسي في الشرعيات ، ولم يقل ذلك
الفارسي في الشرعيات ولا في غيرها ولا قاله نحوي . وإنما قال الفارسي في
الشرعيات : إن العرب ماملوا إنما معاملة النفي وإلا في فصل الضمير
كقول الفرزدق :

..... وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

(١) البحر ٣٤٤/٦ ، وانظر : البحر ٨٨/٥ ، ١٤٢ .

(٢) البحر ٥٧/٥ ، ٤٤٨ ، ٥٠١ ، ٥٣٨ ، دراسات لأسلوب القرآن ١/ ٥١٤ .

القسم الأول

(٣) سورة يونس آية ٤٤ .

فهذا كقول الآخر :

فقد علمت سلبى وجاراتها - ما قطر الفارس إلا أنا (١) (٢)
وقد سبق كلام أبى على الفارسي في الشيرازيات والذي يفيد أن (إنما) فيه
معنى ما وإلا (٣).

وقول ابن هشام (ولا قاله نحوى غيره) فيه تساهل ، فقد قال بذلك
ابن السجري والسهيلي كما تقدم (٤).

(ج) ما الكافة من عمل الجر :

١ - ما تكف مى من الإضافة :

يجوز في الاسم الواقع بعد (لا سيما) الجر والرفع مطلقا والنصب إذا
كان نكرة (٥). فإن جر في إضافة (سى) إليه و (ما) زائدة ، ويحتمل أن
تكون نكرة غير موصوفة والاسم بعدها بدل منها ، وإن رفع - وهو أقل
من الجر - ظهر مبتدأ محذوف و (ما) بمعنى الذى أو ذكره موصوفة بحملة
إسمية ، وإنما كان الرفع أقل لأن حذف أحد جزأى الجملة الإسمية التى هى
صلة أو صفة قليل . وذلك كقولك : أحب العلماء لا سيما العاملين بالجر أو
العاملون بالرفع .

(١) عمرو بن معديكرب ، انظر : الكتاب ١/ ٢٧٩ ، دلائل الإعجاز ص ٢٢١ .
ابن يمين ٣/ ١٠٩ ، ١٣٠ ، ١ ، المنى ١/ ٣٤٢ ، اللسان (قطر) .
(٢) المنى ١/ ٣٤١ ، ٢٤٢ ، وانظر : الشيرازيات ٢/ ٢٣٥ ، دلائل الإعجاز
ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٣) انظر ص ٢٢٦ من البحث . (٤) انظر ص ٢٢٦ من البحث .

(٥) انظر أملوب لاسيا في الكتاب ١/ ٢٥٠ ، التسهيل ص ١٠٧ ، ابن يمين ٢/ ٨٦ .
شرح السكاكية الشافية ٢/ ٧٢٤ ، الرضى على السكاكية ١/ ٢٤٩ - المساعد ١/ ٥٩٦ .
المنى ١/ ١٤٩ .

أما النصب فعلى التمييز كما يقع التمييز بعد (مثل) في نحو (ولو جئنا بمثله مددا) (١) و (ما) كافة لسي من الإضافة .

وقد روى بالأوجه الثلاثة قول امرئ القيس :

إلا رب يوم لك منهم صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل (٢)

واختلف في توجيه نصب (يوم) فالجمهور على أنه تمييز لسي وما كافة لسي من الإضافة فأشبهت الإضافة في : على الفترة مثلها وهذا (٣) ، وقيل : النصب على التمييز لما ، وهي ذكرة تامة كأنه قال : ولا مثل سي ثم فسره بالذكرة (٤) .

وقيل : دوما ، منصوب بإضمار فعل تقديره : أمي يوما (٥) .

وقيل : منصوب على الظرفية بما في « بدارة » من معنى الاستقرار وهذا قال ابن مالك (٦) .

هذا عن انتصاب الذكرة بعد « لاسيا » ، أما انتصاب المعرفة بهــها نحو : لاسيا زيدا فمنعه الجمهور .

وقال ابن الدمامي : لا أعرف له وجها ، وجهه بعضهم بأن دما ، كافة وأن « لاسيا » نزلت منزلة « إلا » في الاستثناء . ورد بأن المستثنى مخرج وما بعدها داخل من باب أولى . وأجيب بأنه مخرج عما أفهمه الكلام السابق من مساواته لما قبلها ، وعلى هذا يكون استثناء منقطعا (٧) .

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

(٢) شرح الكافية الشافية ٧٢٤/٣ ، الساعد ٥٩٧/١ ، شواهد توضيح

١٠٦ ، البحر ٩١/١ الرضى على الكافية ٢٤٩/١ ، النفي ١ / ١٤٩ ، الخزانة ٦٣/٢ .

ديوانه ص ١٠٢ .

(٣) الخزانة ٦٣/٢ . (٤) الساعد ٥٩٧/٢ .

(٥) الرضى على الكافية ٢٤٩/١ ، الخزانة ٦٣/٢ .

(٦) شرح الكافية الشافية ٧٢٤/٣ .

(٧) النفي ١٥٠/١ ، الخزانة ٦٣/٢ .

ب - ما تكلف بعض أحرف الجر عن العمل :

قد تكلف د ما ، بعض أحرف الجر عن العمل ، وهذه الأحرف هي :
(١) رب : رب حرف جر يختص بالدخول على التكررات ، فإن كفت
صاربت مهيئة للدخول على الجمل الاسمية والفعلية (١) .

قال المبرد : د وكذلك (رب) تقول : رب رجل ، ولا تقول : رب
يقوم زيد ، فإذا ألحقت (ما) هيأتها للأفعال فقلت : ربما يقوم زيد و (ربما
يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) (٢) (٣) .

وأكثر ما تدخل (ربما) المكفوفة على الماضي كقول جديعة الأبرش :
ربما أوفيت في علم ترفعت ثوبى شمالات (٤)
وقول أبي هطاء السندي :

فإن يمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود (٥)
والزم ابن السراج وأبو علي الفارسي في الإيضاح كون الفعل ماضياً (٦) ،
لأن رب إنما تأتي لما معنى فوجب أن تكون ربما كذلك أيضاً تدخل على
الماضي . وألعدر هندهما في نحو قوله تعالى : ربما يود الذين كفروا ، (٧) أن
مثل هذا المستقبل - أي الأمور الآخروية - غالب عليها في القرآن ذكرها
بلفظ الماضي .

(١) الأمالي للشجرية ٢/٢٤٣ ، شرح السكاكية الثانية ٢/٨١٨ . مذكرة النعاة
لابن حيان ص ٨ ، د . حبيب عبد الرحمن ط : مؤسسة الرسالة بيروت ، المجلد
٢٤٢/١ .

- (٢) سورة الحجر آية ٢ . (٣) المقتضب ٢/٥٤ .
(٤) انظر الكتاب ١/١٥٣ ، الأمالي للشجرية ٢/٢٤٣ ، إيضاح الفارسي ص ٢٥٣ .
(٥) انظر مفتاح العلوم ص ١٢٠ ، الخزانة ٤/١٦٧ ، الأبهاء والنظائر ٢/٨٣ .
(٦) الأصول ١/٤١٩ ، الإيضاح ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٧) سورة الحجر آية ٢ ، انظر : الأصول ١/٤١٩ .

أو على تأويل الحكاية ، وقال الرهسى : أصله (ربما كان يود) لحذف
كان لكثر استعماله بعد (ربما) وتكون (كان) هذه شائبة ، وليس حذف
(كان) بدون (إن) و (لو) الشرطتين سهلا ، ثم الخبر حيثند وهو (يود)
مخرج على حكاية الحال الماضية ، فلا حاجة إلى تقدير كان . والمشهور
جواز دخول (ربما) على المضارع بلا تأويل (١) .

قال أبو على الفارسي مبينا أن (ما) في (ربما يود الذين كفروا) (٢) كافة
ولمقت زائدة ولا مصدرية ولا نكرة موصوفة ، والدليل على أن (ما) في قوله
(ربما يود الذين كفروا) (٣) لا يجوز أن تكون لغوا ، ولا التي مع الفعل
بمثلة المصدر ، أنها لو كانت زائدة لوجب أن يضمربفد (ربما) (أن) ولو
أضمرت لمصبت الفعل كما نصبت بعد سائر حروف الخفض ولو نصبت الفعل
بعده كان غير جائز لأن (أن) مع الفعل بمثلة المصدر المخصوص المعروف
فإن (يود الذين كفروا) بمثلة ود الذين كفروا ، وإذا تعرف الاسم لم
يدخل عليه (رب) لأنها لا تعمل إلا في اسم شائع غير مختص لوقوع
التمكيد بدها دالا على أكثر من واحد ، وهذا مما يختص به التكررات
دون المعارف .

فلا يجوز لهذا أن تكون (ما) فيه زائدة ، ولهذا بعينه لا يجوز أن
تكون التي مع الفعل بمثلة المصدر ، لأن تلك مع الفعل مختص ، كما أن
(أن) مع الفعل كذلك .

ويبعد أن تجعلها التي هي اسم مشكور أيضا ، على أن يكون التقدير: رب
شيء يوده الذين كفروا ، لأن المعنى ليس على أنهم يودون شيئا ، وإنما

(١) الرضى على السكانية ٣/٣٣٣ ، وانظر : الكتاب ١/٤٥٩ ، والتعقيب ،

٤٨/٢ ، ٥٤ ، ابن بيش ٨/٢٩ ، البحر ٥/٤٤٢ ، المنى ١/٣٤٣ .

(٢) سورة الحجر آية ٢ .

الذي يودونه الإسلام لو كانوا منهم ، ويودون لو كانوا مسلمين . . فإذا لم
يجز أن تكون الزائدة ولا التي مع الفعل بمعنى المصدر ولا النافية ولا المنكورة
ثبت أنها السكافة (١).

هذا وقد يحذف الفعل الواقع بعد «ربما» عند القرنية كقول حاتم الطائي:
فذلك إن يلقى الكربة يلقيها حميداً وأن يستغن يوماً فربما (٢)
أي : ربما يتوقع ذلك (٣).

ولا يمنع دخولها على الجملة الإسمية خلافاً للفارسي وابن صفور (٤) ،
ولهذا قال في قول أبي دؤاد الإباضي :

ربما الجامل المؤبل فيهم وعناجيج بينن المهار (٥)

إن «ما» تكرة موصوفة بحملة حذف هبتوها ، أي : رب شيء
هو الجامل .

قال ابن مالك : « وإن ولي ربما اسم مرفوع فهو مبتدأ بعده خبره لا خبر
مبتدأ محذوف وما تكرة موصوفة بهما خلافاً لابي (٦) .
أما قول الغزي :

لقد رزقت كعب بن عوف وربما قفى لم يكن يرضى بشيء يرضيها (٧)

(١) المسائل المشككة (البنداديات) ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) انظر الرضي على السكافية ٣٢٣/٢ ، الخزانة ١٩٤/٤ ، الدرر ٤٢/٢ ، ليس
في ديوانه .

(٣) الرضي على السكافية ٣٢٣/٢ .

(٤) انظر : التسهيل ص ١٤٧ ، المساعد ٢٨٢/٢ ، المنى ٣٤٣/١ .

(٥) انظر : الأمل في الشجرة ٢٤٣/٢ ، شرح السكافية الثانية ٨١٩/٢ ، الوصف
ص ٣١٨ ، ابن يعيش ٢٩/٨ ، الخزانة ١٨٨/٤ ، ديوانه ص ٣١٦ .

(٦) التسهيل ص ١٤٧ . (٧) الأضواء والنظائر ٨٢/٢ .

فما محتملة لأن تكون كافة ودقي، مرفوع، أو مفعول بإظهار فعل.
تقديره: وربما رزئت قتي لم يكن يرضى.
ويحتمل أن تكون زائدة ودقي، مجرور، أو تكون نكرة موصوفة.
أي: رب شيء قتي لم يكن يرضى^(١).

٢- الكاف: تزداد ما، بعد المكاف فتعنعها من فعل الجر^(٢)، وتنبهة
للدخول على الجمل الإسمية والفعلية كقول نيشل بن حربي:
أخ ماجد لم يخرني يوم مشهود كما سيف عمر لم نخنه مضاربة^(٣).
وقول العربي:
تحالف يشكر والـؤم قدما كما جهلا قسا متحالفان^(٤).
وقول زياد الأعجم:
واعلم أنني وأبا حميد كالنشدان والرجل الحليم^(٥).
وبدخول ما، الكافة على المكاف يكون لهما ثلاثة معان^(٦):
أحدهما: تشبيه مضمون جملة بمضمون أخرى كقوله تعالى: واجعل لنا
إلهاً واحداً لهم آلهة^(٧)، وقول زياد الأعجم:

-
- (١) الأضواء والنظائر ٨٣/٢ .
(٢) راجع التمهيد ص ١٤٧، شرح الكافية الشافية ٨١٨/٢، المساعد ٣٧٨/٢ .
(٣) انظر: شرح الكافية ٨١٨/٢، المساعد ٣٧٨/٢، النقي ٣٤٣/١ .
(٤) مجهول القائل . انظر شرح الكافية الشافية ٨١٨/٢ .
(٥) انظر: البحر ٩٧/٢، النقي ١٩٤/١، شرح أبيات النقي ١٢٥/٤ .
(٦) القرطبي على الكافية ٣٤٤/٢ .
(٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ . انظر الكشف ١١٠/٢، البحر ٣٧٨/٤ .
لنقي ٣٤٣/١ .

فإن الخمر من شر المطايا كما الحيطات شر بني تميم^(١)
فلا يقتضى السكاف ما يتعلق به لأن الجار إنما كان يطلب ذلك ليكون
المجرور مفعولا ، وذلك لأن حروف الجر موضوعة لأن تفضى بالفعل
القاصر عن المفعول به إليه ، والمفعول به لا بد من فعل أو معناه ، فإذا لم
تجر فلا مفعول هناك حتى تطلب فعلا .

ومن ذلك قول العرب : كن كما أنت^(٢) أى كن فى المستقبل كما أنت كائن
الآن فأنت مبتدأ محذوف الخبر ، فانت تشبه الكون المطلوب بالكون
الحاصل له الآن .

وثانيها : أن يكون كما بمعنى لعل .

قال سيويه : سألت الخليل عن قول العرب ، انتظرنى كما آتيك فرهم
أن « ما » والسكاف جعلتا بمنزلة حرف واحد ، وصيرت للفعل كما صيرت
الفعل « ربما » والمعنى : لعل آتيك ، فمن ثم لم ينصبوا به الفعل كما لم ينصبوا
بربما . قال رؤية :

لا تشتم الناس كما لا تشتم^(٣)

وأشدد لآبى النجم العجلى :

فك لشيبان أدن من لقائه كما تفضى القوم من شوائه^(٤)
وجعل « كما » فى هذا البيت كالتى فى البيت الأول ،^(٥) .

(١) انظر : الأمالى الشجرية ٢/٢٣٥ ، شرح السكافية لشافية ٢/٨١٩ ، الرضى
على السكافية ١/٣٤٤ ، الخزانة ٤/٢٨٢ .
(٢) الأمالى الشجرية ٢/٢٤٣ ، البنداديات ص ٢٩١ ، الرصف ص ٢٠٠ ،
المنى ١/٣٤٣ .

(٣) البنداديات ص ٢٨٩ ، الخزانة ٤/٢٨٢ ، ديوانه ١٨٣ .

(٤) البيت فى الكتاب ١/٤٦٠ ، مجالس تلمب ١/ ١٢٧ ت عبد السلام هارون
ط : دار المعارف ، البنداديات ص ٢٩٠ .

(٥) الكتاب ١/٤٥٩ ، ٤٦٠ .

وثالثا : أن تكون بمعنى قران الفعلين في الوجود ، نحو قولك : ادخل
كما يسلم الإحام ، وكما قام زيد قدم عمرو .

وهذا وقد جعل السهيل « ما » في قول النبي - صلى الله عليه وسلم -
« صلوا كما رأيتموني أصلي »^(١) كافة للكاف ، حيث قال : « وأما قولهم :
اجلس كما جلس زيد و (صلوا كما رأيتموني أصلي) فقد ظن أ كثر الناس
أنها بمعنى المصدر هنا ، وقد تبين فساد هذا المذهب ، لأن الفعل هنا خاص
غير عام »^(٢) ، ولكنها كافة للخافض ومهيئة لكاف التشبيه أن يقع بعدها
الفعل ، كما كانت كذلك في (رب) من قوله تعالى « ربما يود الذين كفروا
لو كانوا مسلمين »^(٣) وفي (إن) من قولك : إنما يقوم زيد ، كفتها من
العمل وهيأتها لوقوع الفعل بعدها ، وكذلك كفت (رب) و (كفاف)
التشبيه من العمل وهيأتها لوقوع الجمل بعدها »^(٤) .

وزعم علي بن مسعود بن محمود الفرخان صاحب المستوفى أن الكاف
لا تكسف « ما »^(٥) ، وهو محجوج بما سمع من العرب كالأبيات السابقة .

٣ - الباء : ذكر ذلك ابن مالك^(٦) ، كقول مطيع بن إياس :

-
- (١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ١/١٦٢ ، ١٦٣ ، تصوير دار الشعب .
(٢) يذهب السهيلي إلى أن مدخول (ما) المصدرية لا بد أن يكون عاما غير خاص .
انظر : نتائج المسكر ص ١٨٦ ، بدائع الفوائد : لابن قيم الجوزية ١/١٤٢ ط : دار
الكتاب العربي - بيروت .
(٣) سورة الحجر آية ٢ .
(٤) نتائج المسكر ص ١٨٧ .
(٥) المستوفى في النحو ٢/٧١٨ ت : سيد أحمد جمان - رسالة دكتوراه بالكلية
وانظر : اليسر ٢/٩٧ ، الثنى ١/١٩٤ .
(٦) التمهيد ص ١٤٧ ، شرح السكاكية الثانية ٢/٨١٧ .

فلئن حضرت لا تحير جوابا لهما قد ترى وأنت خطيب^(١)
قال ابن مالك : إن دماء الكافة أحدثت مع الباء معنى التقابل كما أحدثت
مع الكاف معنى التعليل^(٢) في نحو : وأذكروه كما هداكم^(٣) .
والظاهر أن الباء والكاف للتعليل وأن دماء معهما مصدرية ، وقد سلم
أن كلا من الكاف والباء تأتي للتعليل مع عدم دماء كقوله تعالى : فبظلم
الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم^(٤) ، و : ويكأنه لا يقلح
الكافرون^(٥) .

ثم المناسب في البيت معنى التكثير لا التقليل^(٦) .

٤ — من : تستعمل (من) مكفوفة بما نحو قولهم : إني بما أفعل ذاك ،
قال أبو حية أنه يرى :

وإنما لما تضرب الكباش ضربة على رأسه تلقى اللسان من الفم^(٧)
قال المبرد : و تقول : إني بما أفعل على معنى ربما أفعل وأنشد البيت^(٨) ،
وقوله (إني بما أفعل على معنى ربما أفعل) إن أراد به أن (ما) كافة لمن ،
كما أنها كافة لرب فهو كما قال سيبويه^(٩) ، وإن أراد أنه للتقابل كما أن
ربما للتقليل كان ذلك مسوغا إذا ثبت مسموعا ، ويبعد ذلك في البيت فإنه
يلغى أن يكون غير مقلل لضربة الكباش على رأسه^(١٠) .

-
- (١) انظر : أمالي القالي ١/٢٧٠ ، شرح الكافية ٢/٨٤٢ ، الساجد ٢/٢٨٠ ،
المعنى ٣/٣٤٧ ، المنى ١/٣٤٣ ، الدرر ٢/٤١ .
(٢) القسطل ص ١٤٧ . (٣) سورة البقرة آية ١٩٨ .
(٤) سورة النساء آية ١٥٩ . (٥) سورة القصص آية ٨٢ .
(٦) المنى ١/٣٤٤ .
(٧) انظر : السكتاب ١/٤٧٧ ، المنتخب ٤/١٧٤ ، الأمالي للشجرية ٢/٢٤٤ ،
المنى ١/٣٤٤ ، الخزانة ٤/٢٨٢ .
(٨) المنتخب ٤/١٧٤ . (٩) السكتاب ١/٤٧٧ .
(١٠) البنداديات ص ٢٩٣ .

وذهب ابن هشام إلى كون (ما) في البيت مصدرية^(١).

ومن ذلك قول ابن عباس رضى الله عنهما : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفثيه »^(٢) بمعنى : وما^(٣).

(ح) ما تكلف بعض الظروف من الإضافة إلى المفرد : وهذه

الظروف هي :

١ - بعد : تأتي (ما) مع (بعد) لكفها من الإضافة إلى المفرد وتبينها لوقوع الجمل بعدها كقول المراء الفقمس :

أعلاقة أم الوليد بعدما أفنان رأسك كالنظام الخلس^(٤)

وكون (ما) كافة لبعده في البيت هو مذهب سيوريه^(٥) والمهود^(٦) وابن الشجري^(٧) والفارسي^(٨) والسبيل^(٩).

وذهب جماعة منهم الاسفرايينى صاحب الباب إلى أن (ما) في البيت مصدرية .

قال الاسفرايينى : « ليست ما في البيت بكافة لبعده من الإضافة بل مهيئة للإضافة إلى الجملة »^(١٠).

كما قال : « وما في البيت وأن حكم بأنها كافة إلا أن ذلك لا يعجبني ، فإن (بعد) في البيت على معناه الأصلي من اقتضاء الإضافة إلى شيء ، وهو

(١) النظم ٣٤٤/١ (٢) البخارى ٤/١ .

(٣) أمالى السبيل ص ٥٢ ، ت : د / عهد إبراهيم البناء السادة .

(٤) انظر : الكتاب ٢٨٢/١ ، المنتخب ٥٣/٢ ، الأمالى الشجرية ٢/٢٤٢ ،

البيداديات ص ٢٩٢ ، نتائج الفكر ص ١٨٧ .

(٥) الكتاب ٢٨٣/١ (٦) المنتخب ٥٣/٢ .

(٧) الأمالى الشجرية ٢/٢٤٢ (٨) البيداديات ص ٢٩٢ .

(٩) نتائج الفكر ص ١٨٧ (١٠) الباب في شرح الباب ٨١٣/٢ .

في المعنى مضاف لما بعده كأنه قيل : بعد حصول رأسك أشبهت كاللغام
المخلص ، فا ذكرت أقرب إلى الصواب ، (١) .

وتبعه في ذلك المحقق الرضى (٢) وابن هشام (٣) ، وسبقهم الأعلام
وابن خلف (٤) .

ومذهب سيويه ومن تبعه أولى بالقبول ، إذ صله (١٥) المصدرية
لا تكون إلا جملة فعلية عند سيويه (٥) ، ولا توصل بالجملة الإسمية إلا
قليلاً (٦) .

قال السهيلي :

« فإن قيل : فما بالهم لم يفعلوا في (قبل) ما فعلوا في (بعد) فيقولوا :
جئت قبل ما ذهب زيد ، كما قالوا : بعد ما ؟

قلنا : في امتناعهم من ذلك في (قبل) شاهد لما قدمناه من أنها ليست
بمصدر لأنه يمتنع : قبل أن يقوم زيد فيكون أن مع الفعل بمعنى المصدر ،
فإن قيل : فلم لا تكون كافة لقبول هيئة لوقوع الجمل بعدها كما كانت كذلك
في بعد ؟

قلنا : لا يصح أن توجد كافة لأسماء الإضافية ، فإنما تكون كافة
للحروف وما شارحها .

(١) حواشي الاسفرايين على الباب الورقة من ١٤٤ ، مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم ١٣ / م - نحو .

(٢) الرضى على الكافية ٣ / ٣٨٦ . (٣) المنى ١ / ٣٤٥ .

(٤) شرح أبيات المنى للبندادي ٥ / ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٥) الكتاب ١ / ٤١٠ ، ٤٥٣ ، ٤٧٦ - الرضى على الكافية ٢ / ٢٨٦ .

(٦) تعليق الترائد للدمايين ٢ / ٢٨١ ، الرضى على الكافية ٢ / ٣٨٦ ، حاشية

الأمير على المنى ١ / ١٥٢ ، ١٥٣ ، الحزانة ٤ / ٢٧٨ .

و (بعد) أشد مضارعة للحروف من (قبل) لأن (قبل) كالمصدر في لفظها ومعناها .

تقول : جئت قبل الجمعة ، تريد الوقت الذي تستقبل فيه الجمعة ، والجمعة بالإضافة إلى ذلك الوقت قابله ، كما قال الشاعر :

• نجح معاً ، قالت أعاما وقاهله • (١)

فإذا كان العام الذي بعد عامك يسمى قابلاً ، فعامك الذي أنت فيه قبل ، ولفظها من لفظ قابل . فقد بان لك من جهة اللفظ والمعنى أن (قبل) مصدر في الأصل ، والمصدر كسائر الأسماء لا يكف ولا يهياً لدخول الجمل بعده ، وإنما ذلك في بعض الحروف للعوامل لا في شيء من الأسماء .

وأما (بعد) فهي أبعد من شبه المصدر ... ألا ترى أنهم لم يستعملوها من لفظها اسم فاعل فيقولون في العام الماضي (بعد) كما قالوا في العام المقبل (قابل) • (٢)

٢ - بين : إذا دخلت (ما) الكاف على (بين) كفتها عن الإضافة إلى المفرد ، كقول حشیر بن لیید :

وبیننا المرء في الأحياء مغتبط

لأذهو في الرمن تعفيره الأعاصير (٣)

(١) عجز بيت حميد بن ثور وسدده :

• نلت امكنى حتى يسار لنا •

الكتاب ٢/٣٩ ، نتائج الدرر من ١٨٧ ، شرح آيات - بيوت ٢/٣١٧ ،
الخصم ١٧/٦٤ :

(٢) نتائج الدرر من ١٨٩ ، ١٧٧ :

(٣) انظر : سر الصناعة ١/٢٥٩ ، أمالي القالي ٢/١٧٧ ، الرصف ١/٣١٨ ،
اللسان (دهر) .

(١٦ - شجرة طيخة)

وقول كثير مرة :

بينما نحن بالبلادك فالفنا ع سراعاً والعيس تهوى هوى (١)

وقول جميل بغيته :

بينما نحن بالآدراك معاً إذ أنى راكب على جملة (٢)

وقيل : (ما) زائدة و (بين) مضافة إلى الجملة (٣) .

٣- حيث وإذ : من الظروف الملازمة للإضافة حيث وإذ إذا تجردتا ، فإن زادت بعدهما (ما) وضمتا معنى الشرط كفتا عن الإضافة وأصبحا جازمين فعلين .

قال سيوطي : « ولا يكون الجواز في (حيث) ولا في (إذ) حتى يضم إلى كل واحد منهما (ما) فتصير (إذ) مع (ما) بمنزلة (إنما وكأنما) » (٤) .

فلا يحرم بإذ وحيث إلا مقروتين بما ، لأنهما إذا تجردتا لزمتهما الإضافة إلى ما يلبيهما ، والإضافة من خصائص الأسماء فكانت مبنية للجزم ، فلما قصد جعل هاتين الكلمتين جازمتين ركبنا مع (ما) لتكفيهما عن الإضافة وتهيئهما لما يكن لهما من معنى وعمل ، فصارت (ما) ملازمة لهما مادامت المجازاة مقصودة بهما (٥) .

(١) انظر : لبنداديات ص ٢٩٢ ، ابن يبيس ١٣١/٨ ، اللسان (بلاكت م) ، ديوانه ص ٥٢٨ .

(٢) انظر : المسامد ٥٠٣/١ ، النني ٣٤٥/١ ، شرح أبيات النني لبندادي ٢٧٢/٥ ، ديوانه ، ١٨٨ .

(٣) المسامد ٥٠٤/١ ، النني ٣٤٥/١ ، شرح أبيات النني لبندادي ٢٧٢/٥ .

(٤) الكتاب ٤٣٢/١ .

(٥) شرح السكاكية الشافية ١٦٧٠/٣ .

وذلك مثل : إذ ماترني أورك ، وحيثما تكن أكن . قال العربي :
 جاز لك الله ما أعطاك من حسن وحيثما بك أمر صالح تمكن^(١)
 وقول عبد الله بن همام السلولي :
 إذ ماترني اليوم أزعجى مطيئى أصعد سيرا في البلاد وأفرع
 فاني من قوم سواكم وإنما رجالى فهم بالحجاز وأشجع^(٢)
 قال الفارسي - وهو يتحدث عن أقسام ما السكافة - : . . . والآخر أن
 تدخل على الاسم فتمنعه إضافته إلى ما كان يضاف إليه ويقع بعده فعل يعمل
 فيه . . . مثاله حيثما تسكن أكن وقوله :

إذ ماترني مزجى مطيئى ،^(٣)

ومذهب سيويوه أن (إذ) إذا ركبت مع (ما) فارقتها الاسمى وصارت
 حرف شرط مثل (إن)^(٤) .

ومذهب المهرد وابن السراج وأبي علي ومن تابعهم أن اسميتها باقية مع
 التركيب ، وأن مدلولها من الزمان صار مستقبلا بعد أن كان ماضيا^(٥) .
 والصحيح ما ذهب إليه سيويوه ، لأنها قبل التركيب حكم باسميتها لدلالاتها
 على وقت ماض دون شيء آخر يدعى أنها دالة عليه ، ولما سألناها بعض الأصنام
 على قبول بعض علامات الاسمى كالثنوين والإضافة إليها .

(١) انظر : شرح السكافية الشافية ١٥٨٢/٣ .

(٢) انظر : الكتاب ٤٣٢/١ - الأمل الشجرية ٢٤٥/٢ ابن يسيى ٤٦/٧ -

الرضى على السكافية ٢٥٤/٢ - وبرى (مزجى مطيئى) .

(٣) البنداديات ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

(٤) الكتاب ٤٣١/١ ، ٤٣٣ .

(٥) انظر : المنتخب ٤٧/٢ ، ٥٤ ، الأصول ١٦٥/٢ ، الرعيلى ص ٢٧٤ .

الرضى على السكافية ٢٥٣/٢ ، ٢٥٤ ، الثننى ٩٢/١ .

وأما بعد التركيب فنزلوها المجمع عليه : معنى المجازاة وهو من معاني الجبروف ، وهى مع ذلك غير قابلة لشيء من العلامات التى كانت قابلة لما قبل التركيب ، فوجب انتفاء اسميتها وثبوت حرفيتها كما ذهب إليه سيدييه (١) .

(ج) الأشياء التى تكلف ما بعدها عن العمل فيها قبلها (٢) :

فى اللغة العربية أدوات تكلف ما بعدها عن العمل فيها قبلها ، لأن هذه الأدوات لها صدر الكلام ، كما أنها تغير معنى الكلام وتؤثر فى مضمونه : وكل ما كان كذلك وكان حرفا فرتبته الصدر لإيدان السامع من أول الأمر على ما قصد المتكلم من الكلام (٣) .

وهذه الأدوات هى :

أدوات الاستفهام جميعها ، أدوات الشرط جميعها ، لام الابتداء ، أدوات العرض والتحضيض ، الموصولات ، كم الخبرية ، ما النافية إن وأخواتها ، لا النافية للجنس .

قال ابن السراج وهو يتحدث عن الحروف التى تكون صدور الكلام :
« هذه الحروف حاملة كانت أو غير حاملة فلا يجوز أن يقدم ما بعدها على ما قبلها وذلك نحو : ألف الاستفهام وما تنى النفى ولام الابتداء .

لا يجوز أن تقول : (طعامك أريد أكل) ولا (طعامك لريد أكل) وإنما أجزأنا : (إن ريد أ طعامك لا كل) لأن تقدير اللام أن تكون قبل .

(١) شرح السكاكية الشافية ٣/ ١٦٢٢ ، ١٦٢٣ .

(٢) راجع : الأصول ١/ ٢٢١ ، ٢٣٤/٢ - المنتخب ٢/ ٦٦ ، ١٩٧/٢ ، ١٢٨/٤ .

الأنصاف ١/ ١٥٩ ، ٢١٧ - ٢٢٣/٢ - شرح السكاكية الشافية ٢/ ٦٦ - الرضى على

السكاكية ٢/ ٦٠ ، ٢٥٦ ، ٢٤٧ ، ٣٨٧ - المساعد ١/ ٤١٢ - البحر ٨/ ٤٤١ .

(٣) الرضى على السكاكية ٢/ ٣٨٧ .

(إن) ... وإنما فرق بينهما لأن معناهما في التأكيـد واحد فلما أزيلت عن المبتدأ وقعت على خبره ، (١) .

أدوات الاستفهام لا يجوز أن يعمل ما بعدها فيها قبلها لصدورها ، قال المبرد - وهو يرد على من أجاز تقديم الفاعل على فعله : ... ومن فساد قولهم : أنك تقول : رأيت عبد الله قام فدخل على الابتداء ما يريـله ويبقى الضمير على حاله . ومن ذلك أنك تقول : عبد الله هل قام ؟ فيقع الفعل بعد حرف الاستفهام ومحال أن يعمل ما بعد حرف الاستفهام فيها قبله ، (٢) .

وكذلك لام الابتداء لا يعمل ما بعدها فيها قبلها لأنها تستحق الصدرة ، واستثنى من ذلك (إن) فإن لام الابتداء لا تمنع ما بعدها من العمل فيها قبلها - معها تقول : إن زيدا فيك الراغب ، وإن عراً طعامك لا كل (٣) .

ومن ذلك قوله تعالى (ثم أنكم بعد ذلك لميتون) (٤) فإن العامل في (بعد ذلك) هو (لميتون) (٥) .

وكذلك قوله تعالى (كلا إنهم من ربهم يومئذ لحجوبون) (٦) فعن ربهم ويومئذ متعلقان به (لحجوبون) (٧) .

وكذلك قوله تعالى (إن ربهم يومئذ لحجوبون) (٨) فيهم ويومئذ متعلقان به (لحجوبون) (٩) .

ولأنما عمل ما بعد اللام هنا فيها قبلها لأنها ، وخبرة من تقديم ، إذ الأصل

(١) الأصول ٢/٢٣٤ .

(٢) المنتخب ٤/١٢٨ وانظر : الانصاف ١/٥٩ - الرضى على السكاكية ٣/٢٥٦ .

(٣) الأصول ١/٣٣١ ، ٢/٢٢٤ ، الرضى على السكاكية ٢/٣٥٥ .

(٤) سورة المؤمنون آية ١٥ .

(٥) البينان ٢/٩٥١ .

(٦) سورة المطففين آية ١٥ .

(٧) البحر ٨/٤٤١ .

(٨) سورة العاديات آية ١١ .

(٩) البحر ٨/٥٠٥ .

في هذه اللام أن تكون متقدمة في صدر الكلام ، فكان ينبغي أن تكون مقدمة على (إن) إلا أنه لما كانت اللام للتأكيد وإن التأكيد لم يجمعوا بين حرفي تأكيد : فكان الأصل يقتضي أن تنقل عن صدر الكلام وتدخل الاسم ، لأنه أقرب إليه من الخبر ، ألا أنه لما كان الاسم على (إن) كرهوا أن يدخلوها على الاسم كراهية للجمع بين حرفي تأكيد : فنقلوها من الاسم وأدخلوها على الخبر .

والذي يدل على أن الأصل فيها أن تكون مقدمة على (إن) أنها لام الابتداء ولام الابتداء لما صدر الكلام .

والذي يدل على أن الأصل فيها أن تدخل على الاسم قبل الخبر أنه إذا فصل بين إن واسمها بطرف أو حرف جر جاز دخولها عليه نحو ، إن ههناك لزيداً ، وإن في الدار لعمراً^(١) .

* * *

وأدوات الشرط كذلك لا يعمل ما بعدها فيها قبلها لأنها لا تكون إلا صدراً^(٢) .

قال المبرد : « ولو قلت آتيتك متى أتيتي أو أقوم ابن قت على أن نجعل متى وابن طرفين لما بعدهما كان جيداً وكانتا منقطعتين من الفعل الأول إلا أنك لما ذكرته سد مسد جواب الجزاء .

فإن أردت أن يكونا ظرفين لما قبلهما استحال لأن الجزاء لا يعمل فيه ما قبله كما لا يعمل هو فيها قبله . ألا ترى أنك لا تقول : زيداً إن أتت بكرمك ، ولا زيداً متى تاته تحببه^(٣) .

(١) الانصاف ٢١٧/١ ، ٢١٨ . (٢) الأصول ٢٢٦/٢ .

(٣) المنتخب ٦٦/٢ .

ولذا لا يجوز عند البصريين تقديم معمول الشرط على أداة الشرط نحو:
زيداً إن تضرب يضربك وكذا معمول الجراء فلا يجوز : زيداً إن جئتني
أضرب بالجرم .

وذهب الكوفيون إلى أنه يجوز تقديم المفعول بالجاء على حرف
الشرط نحو : زيداً إن تضرب أضرب ، واختلفوا في جواز نصبه بالشرط
فأجازوه الكسائي ولم يجره الفراء .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا يجوز تقديم المنصوب
بالجاء على حرف الشرط ، لأن الأصل في الجراء أن يكون مقدما على
(إن) كقولك : اضرب أن تضرب وكان ينبغي أن يكون مرفوعا ،
إلا أنه لما أخر انجزم بالجوار وإن كان من حقه أن يكون مرفوعا .
والنبي يدل على ذلك قول جرير بن عبد الله البجلي :

يا أفرع بن حابس يا أفرع إنك إن تصرع أخوك تصرع^(١)

والتقدير فيه : إنك تصرع إن تصرع أخوك ، ولولا أنه في تقدير
التقديم لوجب أن يكون مجروما وقال زهير :

وإن أنا خليل يسوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم^(٢)

والتقدير فيه : يقول إن أنا خليل ، ولولا أنه في تقدير التقديم وإلا لما
جاز أن يكون مرفوعا .

وإذا ثبت هذا وأنه في تقدير التقديم فوجب جواز تقديم معموله على
حرف الشرط لأن المعمول قد وقع في موقع العامل .

(١) انظر : الكتاب ١/ ٤٣١ ، المتضبط ٢/ ٧٢ ، الأمالي الشجرية ١/ ٨٤ ،
لتصريح ٣/ ٣٤٩ .

(٢) انظر : الكتاب ١/ ٣٤٩ ، المتضبط ٢/ ٧٠ ، المحتسب ٢/ ٦٥ ابن سيدي
١٥٧/٨ ، ديوانه من ١٥٣ .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا إنه لا يجوز تقديم معمول الشرط والجزاء على حرف الشرط ، لأن الشرط بمنزلة الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام ، فكما لا يجوز أن يعمل ما بعد الاستفهام فيما قبله فكذلك الشرط ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال زيدا أضربت ؟ فكذلك لا يجوز أن يقال : زيدا إن تضرب أضرب .

والذي يدل على ذلك أن بين الاستفهام وبين الشرط من المشابهة ما لا يخفى . به ، ألا ترى أنك إذا قلت : أضربت زيدا ؟ كنت طالبا لما لم يستقر عندك كما أنك إذا قلت : إن تضرب زيدا أضرب كان كلاما معقودا على الشك ، فإذا ثبت المشابهة بينهما من هذا الوجه ، فينبغي أن يحمل أحدهما على الآخر فكما لا يجوز أن يتقدم ما بعد الاستفهام عليه فكذلك الشرط .

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين (إن الأصل في الجواز أن يكون مقدما على الشرط) .

قلنا : لا نسلم بل مرتبة الجواز بعد مرتبة الشرط ، لأن الشرط سبب في الجواز والجواز مسببه ، وعال أن يكون المسبب مقدما على السبب . ألا ترى أنك تقول : إن أشكرك تعطيني وأنت تريد : إن تعطيني أشكرك ، لاستحالة أن يتقدم المسبب على السبب ، وإذا ثبت أن مرتبة الجواز أن تكون بعد الشرط وجب أن تكون مرتبة معموله كذلك ، لأن المعمول تابع للعامل .
وأما قول الشاعر :

• إنك إن يصرع أخوك نهرح •

فلا حجة لهم فيه ، لأنه إنما نوى به التقديم وجعله خبرا لإن لأجل ضرورة الشعر ، وما جاء لضرورة شعر فلا حجة فيه .

وأما قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم

فلا نسلم أنه رفعه لأن النية به التقديم ، وإنما رفعه لأن فعل الشرط
ماض وفعل الشرط إذا كان ماضيا نحو : إن قمت أنوم فإنه يجوز أن يبق
على رفعه ، لأنه لما لم يظهر الجزم في فعل الشرط ترك الجواب على أول أحواله
وهو الرفع ، وهو وإن كان مرفوعا في اللفظ فهو مجزوم في المعنى^(١) .

* * *

كذلك (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأنها تستحق الصدارة^(٢) ،
ولذا منع البصريون تقديم معمول خبرها عليها فلا يجوزون : طاماك ما زيد
أ كلا وأجاز ذلك الكوفيون محتجين بأن (ما) بمنزلة لم ولن ولا النافية ،
وهذه الأحرف يجوز تقديم معمول ما بعدها عليها نحو : زيد ألم أضرب ،
وعمرأ لن أكرم ، وبشرأ لا أخرج ،

أما البصريون فأحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا إنه لا يجوز ذلك لأن د ما ،
معناها النفي ويلها الاسم والفعل فأشبهت حرف الاستفهام وحرف الاستفهام
لا يعمل ما بعده فيما قبله ، فكذلك ها هنا د ما ، لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

وأما الجواب عن حجة الكوفيين أنها بمنزلة لم ولن ولا فلا نسلم لهم
بذلك لأن د ما ، يلها الاسم والفعل ، وأما لم ولن فلا يلهما إلا الفعل فصارا
بمنزلة بعض الفعل بخلاف د ما ، .

د وأما د لا ، فلإنما جاز التقديم معها وإن كانت يلها الاسم والفعل ،
لأنها حرف متصرف فعمل ما قبله فيما بعده . ألا ترى أنك تقول : جئت
بلاشيء فيعمل ما قبله فيما بعده ، فإذا جاز أن يعمل ما قبله فيما بعده جاز أن
يعمل ما بعده فيما قبله ، فبان الفرق بينهما^(٣) .

(١) الإنصاف ٢/٦٢٢ : ٦٢٨ .

وانظر : الأصول ٢/٢٣٦ ، الرضى على الكافية ٢/٢٥٦ .

(٢) الأصول ٢/٢٣٥ ، البحر ٨/٤٥٥ .

(٣) الإنصاف ١/١٧٢ ، ١٧٣ - ابن سيش ٨/٦٦ ، الرضى على ١/١٦٤ ، ١٦٥ .

كما منع البصريون أيضا تقديم خبر «ما زال» عليها لأن «ما» للنفي والنفي له صدر الكلام بحرفى مجرى حرف الاستفهام في أن له صدر الكلام، والسر فيه هو أن الحرف إنما جاء لإفادة المعنى في الاسم والفعل فينبغى أن يأتى قبلهما لا بعدهما، وكما أن حرف الاستفهام لا يعمل ما بعده فيما قبله فكذلك هاهنا، ألا ترى أنك لو قلت في الاستفهام: زيدا أضربت؟ لم يجوز لأنك تقدم ما هو متعلق بما بعد حرف الاستفهام عليه، فكذلك هاهنا إذا قلت: قائما ما زال زيد يلبغى أن يجوز، لأنك تقدم ما هو متعلق بما بعد حرف النفي عليه^(١).

* * *

ومن الأدوات التى تستحق الصدارة «لا» التى تعمل في النكرة النصب. وتبقى معها، لا يجوز أن تقدم ما بعدها على ما قبلها وهى مشبهة بإن، وإنما يقع بعدها المبتدأ والخبر، فكما لا يجوز أن تقدم ما بعد «إن» عليها كذلك هى والتقديم فيها أبعد لأن «إن» أشبه بالفعل منها. فأما لا إذا كانت تلى الأسماء والأفعال وتعرفت في ذلك ولم تشبه بليس فلك التقديم والتأخير، تقول: أنت زيدا لا ضارب ولا مكرم وما أشبه ذلك^(٢).

* * *

وبرى ابن السراج أن ما بعد «إلا» الاستثنائية لا يعمل فيما قبلها فلا يجوز: ما أنا زيدا إلا ضارب تريد: ما أنا إلا ضارب زيدا^(٣).

كما لا يجوز: ما الخبر إلا زيد آكل، لا يجوز أن تعمل الفعل الذى بعد «إلا» في الاسم الذى قبلها بوجه من الوجوه، لأن الاستثناء إنما يجرى بعد.

(٢) الأصول ٢/٢٣٥.

(١) الانصاف ١/١٥٩.

(٣) الأصول ١/٢٨٤.

مضى الابتداء ، لأن المعنى : ما الخبر شيئا إلا زيد آكله ، فإن حذفت الطاء من آكله أضمرت ما ورفعت الخبر لا يجوز إلا ذلك (١) .

* * *

والموصولات أيضا لا يعمل ما بعدها فيها قبلها لأن الموصول وصلته كجزئ اسم وقد ثبت للموصول التقدم ليكون الصلة مبينة له فوجب الصلة التأخر ، فلا تتقدم الصلة ولا جزء منها على الموصول ولا تعمل الصلة وما يتعلق بها فيها قبل الموصول ، لأن ذلك الممحول إذن جزؤها ، وجزء الصلة لا يتقدم على الموصول (٢) .

ولتكون هذه الأدوات واجبة التصدر وجب رفع الاسم المشغول عنه إذا وقع قبل أداة منها ، لأنها لا تعمل فيما قبلها وما لا يعمل لا يفسر هاءلا ، قال ابن مالك : وهو يتحدث عن الأشياء التي تمنع من نصب الاسم الذي شغل عنه الفعل بضميره - :

والثاني من مانعي النصب أن يكون بين الاسم والفعل أحد الأشياء التي لا يعمل ما بعدها فيما قبلها كالاستفهام وما التنافية ولا م الابتداء وأدوات الشرط كقوله : زيد هل رأيت ؟ وعمر ومتى لقيته ؟ وخالد ما صحبتته وبشر لأجبه ، والحق أن ألفته أفلحت .

فالرفع بالابتداء متعين في زيد وعمر وخالد وبشر والحق لتقدمها على الاستفهام وما التنافية ولا م الابتداء وأداة الشرط (٣) .

(١) الأصول ١/٢٩٩ .

(٢) انظر : المنتضب ٣/١٩٧ ، الرضى على الكافية ٢/٦٠ .

(٣) هرج الكافية الشافية ٢/٦١٦ ، ٦١٧ .

وانظر : التسهيل ص ٨٠ ، للمساعد ١/٤١٢ ، الرضى على الكافية ١/١٦٤ ، ١٦٥ .

أهم مراجع البحث

- ١ - الأصول في النحو: لابن السراج ، ت/ د . عبد الحسين الفتلي ، ط : مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٥ .
- ٢ - الانضاب : لابن السيد البطليوسي ، ط : دار الجليل بيروت ١٩٧٣ .
- ٣ - أمالي السهيلي : ت/ د . محمد إبراهيم البنا ، ط : السعادة ١٩٧٠ .
- ٤ - الأمالي الشجرية : لابن السعادات هبة الله بن علي بن حمزة المعروف بابن الشجري ، ط : دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن ١٢٤٩ .
- ٥ - الإنصاف في مسائل الخلاف : لكمال الدين أبي الهركات الأنباري ومعه : الانتصاف : للشيخ محمد عيسى الدين عبد الحميد ، ط : المكتبة التجارية ١٩٦١ .
- ٦ - الإيضاح المصنعي : لأبي علي الفارسي ، ت/ د ، حسن شاذل فرهود ، ط : دار التأليف بمصر ١٩٦٩ .
- ٧ - الإيضاح في علوم البلاغة : لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني إشراف لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية ، ط : السنة المحمدية .
- ٨ - بدائع الفوائد : لابن قيم الجوزية ، ط : دار الكتاب العربي - بيروت .
- ٩ - الدرهمان في علوم القرآن : الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، ت / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار المعرفة - بيروت .
- ١٠ - البيان في غريب إعراب القرآن : لابن الأنباري . ت/ د . طه عبد الحميد طه ، ط : المؤسسة المصرية للتأليف ١٩٦٦ .
- ١١ - التبيين في إعراب القرآن : لأبي البقاء العسكري ، ت/ علي محمد البجاوي ، ط : عيسى الحلبي ١٩٧٦ .

- ١٢ - تذكرة النحاة : لأبي حيان الأندلسي - المجلد الثاني ت / د . عفيف
عبد الرحمن ، ط : مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٦ .
- ١٣ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : لأبي مالك ، ت / محمد كامل
بركات ، ط ١ : الهيئة العامة للكتاب ١٩٦٩ .
- ١٤ - تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان ، ط : دار الفكر - بيروت .
- ١٥ - حواشي الأسفراييني على اللباب : لفاضل الأسفراييني ، غطاوط
بدار الكتب المصرية رقم ١٣ / م نحو .
- ١٦ - خزانة الأدب : للبغدادي ، ت / عبد السلام هارون ، ط : الهيئة
للكتاب - ط : بولاق .
- ١٧ - الخصائص : لأبي الفتح عثمان بن جني ، ت / محمد علي النجار ، ط :
دار الكتب المصرية ١٩٥٢ .
- ١٨ - دراسات لأصوب القرآن : الشيخ محمد عبد الخالق عضية ،
ط : السعادة .
- ١٩ - دلائل الإعجاز : لعبد القاهر الجرجاني ، تعليق / أحمد مصطفى
المراغي ، ط : المطبعة العربية .
- ٢٠ - سر صناعة الإعراب : لأبي جني ، ت / د . حسن هنداوي ، ط :
دار القلم - دمشق .
- ٢١ - شرح أبيات معنى اللبيب : البغدادي ، ت / عبد العزيز رباح
وآخرين ، ط : محمد هاشم الكتبي .
- ٢٢ - شرح الكافية : رضى الدين محمد بن الحسن الأسفراياني ، ط :
دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢٣ - شرح الكافية الشافية : لأبي مالك ، ت / د . عبد المنعم هريدي ،
ط : المأمون للتراث .
- ٢٤ - شرح المفردات : لأبي يعيش ، ط : الطباعة المنيرية .
- ٢٥ - العباب في شرح اللباب : جمال الدين عبد الله الحسيني المعروف

- بنقرة كار ، ت / د . عمير أحمد عبد الجواد - رسالة دكتوراه .
- ٢٦ - المكتاب : لسيويه ، ت / عبد السلام هارون - ط : بولاق .
- ٢٧ - الكشف عن حقائق التنزيل : المزعشري ، ط : دار المعرفة - بيروت
- ٢٨ - لسان العرب : لابن منظور ، ط : دار المعارف .
- ٢٩ - المحاسب في تبیین وجود شواذ القراءات : لابن جني ، ت / علي النجدي ناصف ، ط : دار التحرير ١٩٦٩ .
- ٣٠ - المسائل الشيرازيات : لأبي علي الفارسي ، ت / علي جابر منصور - رسالة دكتوراه بجامعة عين شمس رقم ٤١٥ / ع . ج .
- ٣١ - المسائل المشككة المعروفة بالبغداديات : لأبي علي الفارسي ، ت / صلاح الدين عبد الله السيكاوي ، ط : العاني - بغداد .
- ٣٢ - المساعد شرح تسهيل الفوائد : لابن عقيل ، ت / د . محمد كامل بركات ، ط : دار الفكر - دمشق .
- ٣٣ - معاني القرآن : لأبي زكريا الفراء ، ت / محمد علي النجار ، ط : الدار المصرية للتأليف .
- ٣٤ - معني اللبيب عن كتب الأهاريب : لابن هشام ، ت / د . مازن المبارك وآخر ، ط : لاهور ١٩٧٩ .
- ٣٥ - مفتاح العلوم : للسكاكي ، تعليق : نعيم رزور ، ط : دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٣٦ - المختضب : للدود ، ت / الفبيخ محمد عبد الحاق عزيمة ، ط : المجلس الأعلى للفتن الإسلامية .
- ٣٧ - نتائج الفكر : للمبيلي ، ت / د . محمد إبراهيم الينا ، ط : منشورات جامعة قار يونس .
- ٣٨ - النهاية في غريب الحديث والأثر : لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، ت / محمود محمد الطناحي ، ط : دار إحياء التراث العربي .
- ٣٩ - معجم المواع : جلال الدين السيوطي ، ت / د . عبد العال سالم وآخر ، ط : دار البحوث العلمية بالكويت .

القِسم الثالث

قسم الدراسات البلاغية

١ - الدكتور أحمد محمد علي

٢ - الدكتور إبراهيم عبد الحميد التلب

مصادر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها

الدكتور / أحمد مطلوب

بقلم

الدكتور / أحمد محمد علي

الأستاذ المساعد بالكلية

عرف الدكتور أحمد مطلوب بفرازة الفنتاج وتفرعه في تخصصه اللغوي (البلاغة العربية) منذ أن بدأ الكتابة فيها عام ١٩٥٨ م^(١) وحتى الآن ، وقد كان كتابه الضخم «معجم المصطلحات البلاغية وتطورها» الذي صدر الجزء الأول منه عام ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م وصدر الجزء الثالث والأخير عام ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م والذي استغرق إنجازَه عشرة أعوام ، وتم طبعه وتصحيحه في سبع سنين^(٢) ثمرة لجهوده السابقة في البلاغة العربية ، وعاول النظر في مصادرهما ، ودراسته لها ، وتدريبها لطلابها ، وإشرافه على تلاميذه ، ومناقشاته للرسائل الجامعية . ورحلة تقرب من ثلث قرن في خدمة البلاغة العربية ليست بالشئ الثقيل ، ومن حق من خدم البلاغة العربية هذا التاريخ كله أن يطامح لوضع معجم لمصطلحات البلاغة وتطورها ، وهو حلم راود الكثيرين دون شك ولكنهم تهبوا خوض لجنه أو الاقتراب من ساحله .

وحلم الدكتور مطلوب حلم قديم ، ولعل كتابه «مصطلحات بلاغية» الذي صدر عام ١٩٧٢ م والذي عالج فيه مصطلحات : الفصاحة والبلاغة

(١) نشر له الدكتور مطلوب أول مقال في البلاغة تحت عنوان : «القرآن في نقاد البلاغة» في مجلة العلم الجديد المجلد ٣٣ مجلد ٢١ سنة ١٩٥٨ م .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ج ٣ ص ٣٦٤ . ط العراق .

والمعاني والبيان والبدیع معالجة تاريخية كان البذرة الأولى التي وضعا في حقل هذا المعجم ، يقول : « ولعل هذه المحاولة التي تقدمها اليوم تسكون سبيلا تقضى إلى دراسة مصطلحات البلاغة كلها وإيضاح تطورها التاريخي »^(١) . وحلم الدكتور مطلوب هذا جزء من الحلم الكبير الذي يراود علماء اللغة العربية لوضع معجم تاريخي للألفاظ العربية ، ولقد رأى في كتابه « مصطلحات بلاغية » أن هذا أمر لا يقدر عليه أحد^(٢) ، وفي معجمه لاحظ أن « الدعوة إلى وضع معجم تاريخي للغة العربية ظلت تتجدد ، وعقدت من أجل ذلك الندوات فما استطاعت أن تبدأ به »^(٣) ، وعلمته في الحكم بالاستحالة أولا وبعدم الاستطاعة في البدء به آخرها هو كما يقول « لأن تاريخ الألفاظ العربية تمتد في الزمن ، ولأن الكثير من النصوص ضاع في غمرة الأحداث »^(٤) .

ولإذا كان الحلم الكبير يستحيل تحقيقه أو يتعذر السبب الذي ذكره فإن حله يمكن تحقيقه لأن البلاغة أصل موردا وأقرب منالاً^(٥) لتأخر ظهورها في كتب ترمذ أحوالها .

وهذا هو الذي أطمع في تحقيق هذا الحلم ، وهو في الوقت نفسه أكبر مزاق في هذا الطريق الوعر .

إن سهولة المورد وقرب المنال التي حملت الدكتور مطلوب على تحقيق حله ربما كانت راجعة إلى أنه اعتاد السباحة في مصادر البلاغة في تجارب سابقة : « في رسالة الماجستير » البلاغة عند السكاكي « (١٩٦١ م) » ورسالة الدكتوراه « القرويني وشروع التلخيص » (١٩٦٣ م) .

(١) مصطلحات بلاغية ص ٨ ط : المراقي .

(٢) المرجع السابق ص ٧ .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٦ .

(٤، ٥) مصطلحات بلاغية ص ٧ ، معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٦ .

- وفي كتبه : « مصطلحات بلاغية » (١٩٧٢ م) ، « دمناهج بلاغية » (١٩٧٣ م) ، « وعبد القاهر الجرجاني بلاغته وتقدمه » (١٩٧٣ م) .
- وفي تحقيقه لبعض كتب التراث البلاغي بالمشاركة مع الدكتور خديجة الحديشي مثل : « التبيان في علم البيان المطلع على إيجاز القرآن لابن الروملكاني » (١٩٦٤ م) ، « البرهان في وجوه البيان لابن وهب » (١٩٦٧ م) ، « البيان في تشبيهات القرآن لابن نقيب البغدادي » (١٩٦٨ م) ، « البرهان بالكشاف عن إيجاز القرآن لابن الروملكاني » (١٩٧٤ م) .

إن هذه التجارب من شأنها أن تغري بتحقيق هذا الحلم الكبير .
والحقيقة أن الدكتور مطلوب لم يكن غافلاً عن مشقة الطريق ، وربما تبين له أن ما ظنه سهلاً قريباً في « مصطلحات بلاغية » لم يكن كذلك عندما خاض لجة المعجم . إن وضع المعجم البلاغي لم يكن هيناً فهناك مئات المصادر التي تحمل بين سطورها بذوراً أو ثماراً وكان على الباحث أن يقف عليها ويبعد النظر فيها لياخذ منها ما ينفع ويضمه إلى ما اقتبسه من كتب البلاغة والتقدم^(١) . الأمر إذن ليس أسهل مورداً ولا أقرب مثلاً ، وهناك فرق شاسع بين جمع مادة علمية لرسالة جامعية أو بحث علمي أو إعداد كتاب وبين جمع مادة علمية لإعداد معجم لتطور المصطلحات ، وكل التجارب السابقة للدكتور مطلوب كانت محصورة في إطار معين ، حتى كتابه « دمناهج بلاغية » لا يخرج على هذا الإطار المحدود وإن كان أوسع مجالاً من كتبه الأخرى بوسائله الجامعية .

إن وضع معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها يحتاج إلى إحاطة شاملة وعقيدة للتراث العربي كله ، وإغفال شيء منه يترك ثغرة في عمل كبير كهذا ، وكلما كان حجم المتروك أكثر كان حجم الثغرات أكبر ، ولا يفتى بعض

هذا التراث عن بعض في سد هذه الثغرات ، ولقد كان الدكتور مطلوب صادقا حينما ذكر أن هناك مئات المصادر التي تحصل بين سطورها بدورا أو ثمارا ، والبحث في مثل هذه المصادر ليس سهلا ، إنه بحث عن الذهب في هروق الترى على مسافة عميقة في باطن الأرض وليس التقاطا للحمى على سطحها ، ولعله ما يعين على هذا أن كثيرين نظروا في هذه المصادر وأخرجوا من أعماقها ما يتصل بالبلاغة ، فصاء اللغة والنحو والأدب والنفس والحديث والأصول والجدل والسكلام وغيرها لم تكن بمنأى عن دأريه البلاغة قبل الدكتور مطلوب ، ولم يكن ما توصلوا إليه في باطن هذه السكب بالشيء اليسير ، ولقد كان من المتوقع أن يفيد الدكتور من كل هذه الجهود وأن يوفى بما ذكره بشأن المصادر غير البلاغية والنقدية ، فإلى فعل الدكتور مطلوب هذا ؟

* * *

الحق أن نظرة واحدة في مصادر المعجم نصيبك بحجة الأمل والخبرة في أن أما حجية الأمل فردها إلى أن مصادر الدكتور مطلوب في مجمه يمكن أن تكون كافية لرسالة علمية أو تأليف كتاب ، ولكنها بالقول لا تصلح أن تخرج مجمعا للمصاحات البلاغية وتطورها .

وأما الخبرة فلأن كثيرا من المصادر التي اعتمد عليها الدكتور مطلوب في دراساته البلاغية السابقة أمثلها إحصاءا تاما .

لقد اعتمد الدكتور مطلوب في إخراج مجمه على ستة وثلاثين ومائة مصنف^(١) ، أحدثها في نظره أنوار الزبيح في أنواع البديع ، لابن موصوم

(١) سقط من ثبت المصادر : « كتاب الحيوان » للجاحظ . وقد اعتمد عليه كثيرا ، وكتاب « البلاغة » للبرد وقد رجع إليه قليلا ، ولم يذكر فيها كتاب « الحجة على من زاد على ابن حجة » . وفي الوقت نفسه كرر بعض المصادر كشرح التلخيص .

الادنى المتوفى سنة ١١١٧هـ، أى أنه توقف عند بداية القرن الثانى عشر الهجرى، لأن ذلك آخر ما وقفت عنده البلاغة كما يرى (١)، ولكنه رجع عن ذلك حينما نظر فى كتاب «الحجة على من زاد على ابن حجة»، الحاج عثمان بك الجليل المتوفى سنة ١٢٤٥هـ (٢) وبهذا امتد الزمن بمصارره إلى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى. والحقيقة أن مصادره امتدت إلى ما يقرب من هذا التاريخ من قبل النظر فى كتاب «الجليل»، فلقد رجسح فيما رجع إلى «حاشية الدسوقي، المطبوعة مع شروح التلخيص»، وصاحبها معاصر للجليل وتوفى قبله بخمسة عشر عاما فقط [عام ١٢٣٠هـ]. والوقوف عند هذا العدد من المصادر فى تراث يمتد من بداية التأليف فيه إلى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى بلىء عن تقصير كبير. واعتذار الدكتور مطلوب فى حاجة المعجم عند النظر فى كتاب «الحجة على من زاد على ابن حجة»، بقوله: «دول على هناك كتابا لم تقع على عليها وأنا أعد هذا المعجم» (٣) لا يقيه من هذا التقصير.

صحيح أن الدكتور نوع فى مصادر معجمه فلم يقصره على كتب البلاغة والنقد فقط، ولكنه فى الوقت نفسه لم يوف بما وعد من النظر فى مئات المصادر التى تحمل بين سطورها بذورا أو ثمارا غير كتب البلاغة والنقد، فأين هى هذه المثات من المصادر؟ وإذا اكتفينا بالمحد الأدنى لجدالة الجمع «مئات»، لكان عليه أن يرجع إلى ثلاثمائة مصدر من مصادر التراث العربى على الأقل غير كتب البلاغة والنقد، فهذا هو أقل ما ينطبق عليه قوله «مئات المصادر التى تحمل بين سطورها بذورا أو ثمارا».

• • •

وسائل البناء وسائل الجاهظ الذى يذكرها جملة نارة ثم يذكر محتوياتها بالتفصيل مرة أخرى

(١) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٧.

(٢) السابق ج ٣ ص ٢٦٢ - (٣) نفسه ج ٣ ص ٣٦٤.

وأول : ما يلاحظ هل مصادر معجمه القليلة أنه يعتمد اعتمادا كاملا على التراث المطبوع ، ولم يقرب من التراث المخطوط مجرد اقتراب .

ولا يستطيع الدكتور مطلوب أن يزعم أن التراث المطبوع وحده مهمة كان تراثه وغناه يكن لإصدار معجم لمصطلحات البلاغة وتطورها حتى لو نظر في كل التراث المطبوع قبل أن يخط حرفا واحدا في معجمه ، فالمطبوع من التراث - محققا أو غير محقق - لا يمثل إلا النذر اليسير من ذلك التراث الممتد في عمق الزمان والمكان ، وعلى الرغم من ضياع الكثير الكثير من هبنا التراث الفنى من حقد وعد غالبا وعن إهمال إحيانا فإن ما بقى من هذا التراث مخطوطا في مكتبات العالم المختلفة تنوء بمرآجته مراجعة شاملة جهود الرجال . وقد كان يستطيع الدكتور مطلوب أن يراجع ما تيسر له من المصادر المخطوطة في بغداد ودمشق والقاهرة وفي خزائن كتبها نفائس من التراث كان يمكن أن تثرى معجمه وتقل ثمراته ونفائسه .

ومن العجيب أن يرجع الدكتور مطلوب إلى بعض مخطوطات التراث في دراساته السابقة ولا يرجع إليها وهو يعد معجمه ، وإذا كانت المخطوطات ضرورة لدراساته السابقة فكيف لا تكون ضرورة لمعجمه ؟ إن الدكتور مطلوب يرجع وهو يعد رسالة الدكتوراة إلى المخطوطات التالية .

- ١ - إيضاح الإيضاح للأفصرائى .
- ٢ - حل الاعتراضات التي أوردتها صاحب الإيضاح على المفتاح للكاشانى .
- ٣ - روض الأذهان في علم المعانى والبيان لبدر الدين بن مالك ، وهو أحد مصادره أيضا في كتابه مناهج بلاغية .
- ٤ - شرح المفتاح لقطب الدين الشيرازى ، وكان قد رجع إليه في الماجستير .
- ٥ - المعيار في نقد الأشعار لمحمد بن أحمد الأندلسى .

٦ - طراز الحلة وشفاء الغلة للفرناطى ، وهو أحد مصادره فى « مناهج بلاغية » .

٧ - رجوع إلى غطوطة ، المفيد فى إعراب القرآن المجيد ، لابن الزمبلكانى وهى من فهارس البلاغة فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية . وهو يحقق كتابيه « التبيان » و « البرهان » (١) ، وهو الكتاب الذى صدر بعد ذلك بعنوان : « المجيد فى إعجاز القرآن المجيد » بتحقيق الدكتور شعبان صلاح . وهذه المصادر المخطوطة لا يظلل لها فى معجمه ، فهل كانت رسائله للدكتوراه وكتابه « مناهج بلاغية » وتحقيق « التبيان » و « البرهان » أخرج إلى هذه المخطوطات من معجمه ؟ أو أنه لم يجد فيها ما يستحق الرجوع إليه فى هذه الدراسة الموسعة لمصطلحات البلاغة وتطورها ؟

وثانى : ما يلاحظ على مصادر معجمه أنها تخلو خلوا كاملا من أى مصدر من مصادر علم أصول الفقه وعلم الجدل ، وإذا كان الدكتور مغلوب يجهل الصلة بين البلاغة وعلم الجدل - على سبيل الفرض - فإنه بالقطع لا يعمل صلة علم أصول الفقه بعلم البلاغة ، ولا أثر فيه وتأثيره عليه .

ففى دراسته « البلاغة عند السكاكى » التى حصل بها على درجة الماجستير عام ١٩٦١ م تعرض لأثر الأصوليين فى « مفتاح العلوم » بصفة خاصة ، وفى علم البلاغة بصفة عامة (٢) ، انتهى منها إلى أن الصلة بين البلاغة ولا سيما علم المعانى - وعلم الأصول وثيقة (٣) .

وفى دراسته « القروينى وشروح التلخيص » التى حصل بها على درجة

(١) التبيان ص ١٧ والبرهان ص ٢٢ . طبعا فى العراق : الأول ١٩٦٤ م والثانى ١٩٧٤ م .

(٢) البلاغة عند السكاكى ص ٢٠٤ - ٢٠٦ . ط العراق ١٩٦٤ م .

(٣) السابق ص ٢٠٦ .

الدكتوراه عام ١٩٦٢ م بين أن السبكي سيطرت عليه النزعة الأصولية ، ونقل عنه أن على أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل (١) .

وفي كتابه « مناهج بلاغية » ، خص فصله الثاني للفسرين والأصوليين ، وقد تعرض في الأصوليين إلى « الرسالة » ، الشافعي ، و « المعتمد في أصول الفقه » ، لأبي الحسين البصري المعنوي ، و « المستقصى » ، للزالي ، و « الإحكام في أصول الأحكام » ، للآمسي ، و « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإيجاز » ، للزمين عبد السلام ، و « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن » ، وهلم بهيان ، لابن قيم الجوزية (٢) . وقد أدخل الكتابين الأخيرين في كتب الأصول بحجة ضيقة وسندوا لا يقوم على ساق ، ولهم في ذلك أن صاحب المجموع لا يجهل ما في كتب الأصول من مباحث بلاغية لها أثر واضح في نشأة البلاغة وتطورها ، وإن كان قد اكتفى منها بما لا يفتيه في بيان أثر الأصوليين في البلاغة .

فأذا الذي حمله على تجاهل كتب الأصول تجاهلا تاما وهو يعد مجمله ؟ وكيف يتفق هذا التجاهل مع ما قرره في مقدمة المجموع من أن هناك مئات المصادر التي تحمل بين سطورها بدورا ونمازا وكان على الباحث أن يقف عليها ويعيد النظر فيها ليأخذ منها ما ينفع ويضمه إليها اقتبس من كتب البلاغة والنقد ؟

والعجيب أن كتب الأصول التي لم يرجع إلا إلى النذر القليل منها في دراساته السابقة لا تحتاج إلى القوس فيها وقراءة ما بين السطور لاستخراج مصطلحات البلاغة ، لأن مسائل البلاغة وقضاياها ومصطلحاتها ظاهرة واضحة فيها ، فما الذي حمله على إهمالها هكذا جملة واحدة وهو يعد مجمله ؟

* * *

(١) الفزويني وعروج التلخيص ص ٥٣٨ وما بعدها ط العراق ١٩٦٧ .

(٢) مناهج بلاغية من ص ٦٤ إلى ٧٨ ، بيروت ١٩٧٢ م .

وثالث : ما يلاحظ على مصادر معجمه هذا أن كثيراً من مصادر البلاغة المطبوعة - أو التي لها صلة بالبلاغة - التي رجع إليها في دراساته السابقة لا نجد لها ذكراً في معجمه ، مع أنه كان من المفروض أن يضيف إلى مصادره السابقة كل ما نصل إليه يده ويبلغه عنه وهو يعد معجمه لا أن ينتقص من هذه المصادر ويحذف منها .

ومن هذه المصادر المطبوعة التي رجع إليها قديماً ، حتى من دراسات وأعمالها في معجمه .

١ - تلخيص البيان في مجازات القرآن .

٢ - المجازات النبوية .

وكلاهما للشرif الرضى ، وهما أشهر من أن يذكرهما ، وقد رجع إليها في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

٣ - كشف اللثام عن التورية ، الاستخدام لابن حجة الحموى . وقد رجع إليه في الدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

٤ - الدر الدائر المختب من كنايات واستعارات وتسميات العرب للأغشى ، وقد رجع إليه في « مناهج بلاغية » .

٥ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ، وقد رجع إليه في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

٦ - شرح بدعية الباهونية ، وقد رجع إليها في « مناهج بلاغية » ، والعجيب أنها مطبوعة على هامش « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى ، وهو من مصادره في المعجم ، أى أنها كانت تحت يديه وهو ينظر في المصادر لإعداد معجمه .

٧ ، ٨ - « النقاية » و « تمام الدراية لقراء النقاية » وكلاهما للسيوطى ، وقد رجع إليهما في « مناهج بلاغية » ، وقد تكلم السيوطى في هذين الكتابين

عن علوم البلاغة بإيجاز وكان فيهما يتجه اتجاه القزويني في العرض والتقسيم والأمانة^(١).

٩ - مقدمة ابن خلدون ، وقد رجع إليها في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

١٠ - مفتاح السعادة و « صباح السيادة أطايش كبرى زاده » ، وقد رجع إليه في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

١١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وقد رجع إليه في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

١٢ - التفضيل بين بلاغتي العرب والمعجم لأبي أحمد العسكري ، وقد رجع إليه في « مناهج بلاغية » .

١٣ - الخراج وصناعة الكتابة لقدماء بن جعفر ، وقد رجع إليه في « مناهج بلاغية » .

١٤ - كشف القناع عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ، وقد رجع إليه في الماجستير .

١٥ - صبح الأمشق لعلفندي ، وقد رجع إليه في الدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

١٦ - خزانة الأدب البغدادي ، وقد رجع إليها في تحقيق « البرهان السكاشف من إعجاز القرآن » لابن الزمكاني .

ولست أدري ما الذي حمله على إهمال هذه المصادر وتجاهلها في إعداد المعجم الذي يحتاج إلى غوص في بطون مئات المصادر المتخصصة وغير المتخصصة حتى تضيق مساحة الثغرات فيه وتقل درجات القصور ؟

* * *

ورابع : هذه الملاحظات أنه أغفل جميع الدراسات الحديثة التي غاصت في التراث القديم واستخرجت منه مسائل البلاغة وقضاياها ومصطلحاتها ، خاصة الرسائل الجامعية التي قضى أصحابها فيها زهرة الشباب تحت إشراف على رخصين ، مع أن هذه الجهود المتفرقة كان ينبغي أن تكون التمهيد الطبيعي لوضع المعجم الشامل تماماً كما تسبق المعاجم النوعية المعجم العام ، ولقد رجح الدكتور مطلوب إلى هذه الدراسات وأفاد فيها وهو يضع بذرة المعجم الأولي في مصطلحات بلاغية ، الذي صدر عام ١٩٧٢ م ، فالذي عمله على أن يفغل هذه المراجع حينما وضع معجمه الشامل لمصطلحات البلاغة ؟ أم أنه رجع إليها وأفاد منها - ولا شك عندي في ذلك - ومع هذا أغفل الإشارة إليها في مقدمة معجمه أو في ثبوت المصادر ؟ ، وما يتصل بهذه الملاحظة أن كثير من هذه الدراسات الدقيقة كانت جزءاً من الرسائل الجامعية التي تقوم على التحقيق والدراسة مما ، وما أكثر التراث المنطوق الذي حققه طلاب العلم وقضيه مكتبات الجامعات ولم تتح له فرصة النشر بعد ، والدكتور مطلوب أغفل كل ذلك ولم يرجع إليه وهو يعد معجمه ، فكيف استقام له هذا ؟

وخامس هذه الملاحظات : أنه معلوم للسكافة أن كتب التفسير والإيجاز وعلوم القرآن من أكثر المصادر ثراءً بمصطلحات البلاغة ، ومع هذا فإن الدكتور مطلوب لم يرجع إلا إلى القليل الذي خدمته الدراسات النوعية الحديثة للخصصة وأهل الكثير ، إنه رجع إلى : الكشف والاتصاف عليه ، والبحر المحیط وجزاز القرآن لأبي عبيدة ، ومعاني القرآن لفراء ، من كتب التفسير ، وهذه المصادر حكفت عليها جهود الباحثين والدارسين حتى أصبحت كنوزها في متناول طلاب العلم ، ولا يزعم أحد أن كتاب البحر المحیط أولى بالرجوع إليه في مصطلحات البلاغة من حواشي الكشف - وقد حقق الكثير منها في رسائل جامعية - ومن تفسير ابن عطية وتفسير أبي السعود

وتفسير الرازي ونظم الدرر للبقاعي وحاشية الشهاب على البيضاوي وتفسير الشوكاني «فتح القدير»، والشوكاني يقع في نفس الفترة التي جعلها نهاية لرحلته مع المصطلح (توفي الشوكاني ١٢٥٠ هـ)، بل إنه ليس أولى من تفسير الطبري وتفسير القرطبي وغيرهما من كتب التفسير الغنية بمصطلحات البلاغة ولكن لأن هذه المصادر لم يصل إلى علمه أن طلاب العلم قد وجهوا إليها جهودهم لاستخراج كنوزها - وقد حدث ذلك بالفعل - فإنه خضع الطرف منها ولم يلتفت إليها.

بل إنه لم ينظر في «النهر الماد، المطبوع مع «البحر المحيط» ربما ظنا منه أن من قصد البحر استقل السواقي كما يقول المتنبي، مع أن أبا حيان ذكر في «النهر الماد» ما لم يذكره في «البحر»، ففي ج ٥ ص ٢٢٧ على سبيل المثال تعرض أبو حيان لقوله تعالى: «وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا بطن الأعظمي اغشي الماء وقض الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين» (هود آية ٤٤) وذكر فيها واحدا وعشرين نوعا من أنواع البديع، ولكن الدكتور مطلوب اكتفى بـ «البحر المحيط» دون «النهر الماد» المطبوع على هامشه متفتحا بمحمد الدكتور خديجة الحديثي فيه.

أما علوم القرآن والدراسات القرآنية فقد أحمل الدكتور مطلوب ما لا بد من الرجوع إليه، أحمله لأنه يحتاج إلى جهد في استخراج كنوزه مما بين سطوره، واكتفى منه ببعض ما يمكن أخذ المصطلحات من ظاهر سطوره، ولست أدرى كيف يغفل من مصادر الدراسات القرآنية: «درة التنزيل» وغرة التأويل، «للسكافي» و«ملاك التأويل»، «للفراطي»، و«أسرار التكرار» للسيوطي، و«إعراب القرآن»، المنسوب المزجاج، و«معاني القرآن»، وإعرابه المزجاج، و«إعراب القرآن» للنحاس، وكلها مطبوع متداول من قبل أن يبدأ الدكتور مطلوب في معجمه أو أثنائه، وكلها غنية بمصطلحات البلاغة وقضاياها، وبعضها يمثل البذور الأولى في البلاغة العربية مما يعطيها

أهمية خاصة ، ومن يرجع إلى « معجم الدراسات القرآنية » المذكورة ابتسام
مرهون الصغار المطبوع في العراق سنة ١٩٨٤ م يجد الكثير من المطبوع
الذي أمهله الدكتور مطلوب وهو يعد معجماً .

* * *

وسادس : هذه الملاحظات أن الدكتور وجمع في مجال الحديث إلى
كتابين هما :

- ١ - الباهت الحديث - شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير .
- ٢ - النهاية في هرب الحديث والآثر لابن الأثير .

وأهل ما عدا ذلك من تراث الحديث الشريف ، مع أن في هذا التراث
غنى و ثراء في مصطلحات البلاغة وأصنافها ، ففي « فتح الباري » لابن حجر ،
« وعدة القاري » للعيني و « إرشاد الساري » للقسطلاني - والشروح الثلاثة
لصحيح البخاري ، وشرح النووي لصحيح مسلم و دليل القائلين ، لمحمد بن
علاء الصديقي وغيرهما مابضاف إلى التراث البلاغي ، وقد أنجبت جهود
طلاب الدراسات العليا إلى مصادر الحديث في المرحلة الأخيرة ، ولا يقول
أحد إن مارجع إليه - مهما كانت صلته بالبلاغة - بأولى بما أمهله ، غير أن
ما أمهله يستغرق جهداً لاستخراج ما فيه من مصطلحات ومساائل بلاغية ،
ولو تيسر الدكتور مطلوب الاطلاع على هذه الجهود التي يسرت ما في هذه
المصادر لما أمهلهما ،

* * *

وسابع : هذه الملاحظات أن الدكتور مطلوب جعل شروح الشعر والنثر
من مصادر معجمة وحسناً فعل ، لأن في هذه الشروح - شأنها شأن كتب
التفسير والحديث - كنوزاً من المصطلحات البلاغية ، خاصة الشروح القديمة
التي تحمل البذرة الأولى ، ولكن المشكلة أن اكتفى بالقليل المشهور فيها

وترك الكثير ، فمن مصادره : جبهة أشعار العرب للقرشي ، وشرح ديوان الحماسة المرزوقي ، وشرح سقط الزند ، والنقائض ، والإيضاح في شرح مقامات الحريري . وهذه الشروح على أهميتها لا تغني عما سواها حتى مما هو مطبوع متداول . ولست أدري كيف يمكن لواضع معجم في مصطلحات البلاغة وتطورها أن يستغنى عن الرجوع إلى شروح المعلقات كشرح النحاس وابن الأنباري والتبريزي والوزني وهي مطبوعة متداولة ؟ وكيف يمكن بشرح المرزوقي للحماسة ويستغنى عن شرح التبريزي وهو الذي وجدته يدرس كثيرا من ألوان البلاغة في كتابه « السكاكي في العروض والقوافي » ، وهو عنوان لا يفرى الباحث البلاغي بالنظر فيه ^(١) ، فهل يمكن لمن فعل ذلك في كتاب عروض أن يغفل هذا في شروحه للحماسة وللفضليات وللمعلقات ؟ وهل يمكن لمن أغفل مثل هذه الشروح - وما على شاكلتها - أن يكون قد استوفى مصادره ؟

وبآء في هذا الإطار إهمال الكثير من الكتب التي تناولت شعر شاعر معينه ، وإذا نظرنا فيما كتب حول شعر المتنبي خاصة - على سبيل المثال - وجدنا الكثير مما يمكن أن يعد من مصادر المصطلحات البلاغية خاصة أن الدكتور مطلوب جعل من مصادره ما هو أقل شأنا من هذا الذي تركه .

لها كتب حول شعر المتنبي وأهمه الدكتور مطلوب :

- ١ - الرسالة الموضحة للحاتمي - ط . بيروت .
 - ٢ - شرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيده - القاهرة .
 - ٣ - التكملة وشرح الآيات المشككة من ديوان أبي الطيب المتنبي لابن الحسين بن عبد الله الصقلي المغربي - الأردن .
 - ٤ - الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي لابن جني - العراق .
- (١) انظر السكاكي في العروض والقوافي من ص ١٧٠ إلى آخر الكتاب ، تحقيق الحسني حسن عبد الله ، ط : القاهرة ١٩٦٩ .

٥ - الفتح على أبي الفتح محمد بن أحمد بن فورجه - العراق ، وهو مناقشة لابن جني في كتابه السابق .

٦ - الصبح المنبى عن حبيثة المتنبي الشيخ يوسف البديعى - القاهرة .

٧ - تفتيه الأريب على مافى شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب لبا كثير الطهرى - العراق .

٨ - الإبانة عن سرقات المتنبي العميدى ، ومعها رسالة الصاحب بن عباد والرسالة الحاتمية - القاهرة .

وأنا هنا لا أستقصى ، وإنما أذكر ما هو بين يدي أثناء إعداد هذا البحث بالفعل ، وإلا فهناك الكثير مما دار حول شعر المتنبي خاصة وشعر غيره من الشعراء مما يمكن أن يكون من مصادر مصطلحات البلاغة وتطورها ، فضلاً عن شروح ديوانه المتعددة ، فهل من الصواب أن يحمل كل هذا التراث الغنى وهو يعد هذا المعجم ؟ وأحب أن أؤكد أن بعض هذه المصادر استخدم مصطلحات لا وجود لها في معجم الدكتور مطلوب .

وكما أهمل كثير من شروح الشعر أهمل كثير من شروح المقامات ، ويأتى في مقدمتها : شرح الشريشى لمقامات الحريري ، وهو مطبوع متداول أكثر من طبعة ربما من قبل أن يفكر الدكتور مطلوب مجرد تفكير في معجمه ، وحتى لو لم ينص في الشروح ليستخرج المصطلحات مما بين السطور فإنه سيجهل في ظاهر السطور الكثير من المصطلحات ، ففي شرحه للمقامة الثالثة والعشرين الشعرية - على سبيل المثال - تكلم عن السرقات الشعرية وأنواعها (١) ، وهو باب في المعجم كثير من مصطلحاته ، وتحدث عن كثير من مصطلحات البلاغة تحت عنوان أنواع البلاغة في صناعة الشعر (٢) ،

(١) شرح مقامات الحريري للشريشى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ج ٣

ص ٨١ ط : القاهرة ١٩٧٢ .

(٢) السابق ج ٣ ص ١٢٣ .

وما أظن أن هناك شرحا من شروح هذه المقامات التي زادت على خمسة وثلاثين شرحا^(١) يمكن أن يتجاوز هذه المقامة دون أن يتحدث عن السرقات الشعرية والتجنييس وغيرها مما أورده الحريري في هذه المقامة ، وفي مقاماته الأخرى الكثير من المصطلحات التي سلكت سبيلها إلى كتب البلاغة ومن ثم إلى معجمه ، فكيف ماخ له أن يكتب بشرح المطرزي عما سواه وهو يعد معجمه ؟

• • •

وثامن : هذه الملاحظات أن كثيرا من مسائل البلاغة وقضاياها - خاصة علم المعاني - تعالجه كتب النحو كما تعالجه كتب البلاغة ، وللتجاة نظرات خاصة في أسرار العربية تثرى الدرس البلاغي ، ولهم استعمالات للمصطلحات يمكن أن يفيد منها البلاغي ، وللنحاة أثر معروف في البلاغة العربية كما كشفت عن ذلك الدراسات المتعددة ، ومن كان لابد من أن يرجع الدكتور مطلوب إلى مصادر النحو وهو يعد معجمه ، وبمراجعة مصادره رأيناه يتخذ من كتاب سيبويه والمقتضب وعقبي اللبيب مصادر له ، فهل يمكن أن تغني هذه المصادر عما سواها ؟

إنها بالقطع - على أهميتها - لا تغني ، والمسألة لا تتوقف عند قضايا التعريف والتشكيك والذكر والحذف والجر والطلب والتقديم والتأخير والإحياز والحروف والأدوات وغيرها مما يشترك في بحثه النحاة والبلاغيون كل على طريقته ، ولكنها تتعدى ذلك إلى ما هو أدخل في صميم البلاغة كالحقيقة والجزأ والسكناية والتعريض ، فقد نجد في بعض مصادر النحو معالجة لها ، وهي سبيل المثال نجد في « ارتشاف الضرب » لابن حيان النحوي - والدكتور يعرفه معرفة جيدة إن لم يكن بنفسه فبدراساته الدكتور خديجة الحديفي شريكته في كثير من أعماله العلمية - معالجة للحقيقة والجزأ ، في باب مستقل

(١) السابق ج ١ ص ١٥ ، ط ١٩٦٩ م.

هرف فيه الحقيقة والمجاز، وعد من أنواع المجاز : الاستعارة والقلب والحذف والزيادة والتشبيه وقلب التشبيه والكناية والتعريض والانقطاع، من الجنس وتسمية الشيء بما يقابله (المشاكلة) والتسمية بما يتول لإياه وإضافة الشيء إلى ما يستحقه ذلك والإخبار عن الشيء ووصفه بغيره وورود المدح في صورة الذم وعكسه وورود الأمر بصيغة الخبر وعكسه وورود الواجب والمحال في صورة الممكن والتفنيش والأمثال والتقديم والتأخير وتجاهل العارف . ثم ذكر تسعة عشر بيتاً من أرجوزته وخلاصة البيان في طلى البديع والبيان في الحقيقة والمجاز (١) .

ولسنا في حاجة إلى تقديم المزيد من الشواهد على أن واضع المعجم البلاغة عليه أن يوسع دائرة بحثه في مصادر النحو ولا يقتصر على النذر اليسير منها اعتقاداً أن بعضها يغنى عن بعض . ومن يرجع إلى كتاب المرحوم الدكتور محمد عبد الحاقى عزيمة « دراسات لأساليب القرآن » بأقسامه الثلاثة وجلداته الأحد عشر سيرى كثيراً مما يرى المصطلح البلاغى في القرائن النحوى وفي كتب معاني الحروف أيضاً ، وهذا مجال لا يغنى فيه مصدر عن مصدر .

وكما قصر الدكتور مطلوب في مصادر النحو قصر كذلك في مصادر اللغة ، وما أظن أنه يستقيم لو اضع المعجم أن يهمل « فقه اللغة ودر العربية » لأبى منصور الثعالبى ، وشطره « سر العربية » من صميم مسائل البلاغة ، ويهمل كذلك كتاب « تفهيف اللسان وتلقيح الجنان » لابن مكى الصغلى وفيه باب سماه « باب مظاهر لغظه مخالف لمعناه » يتصل بالبلاغة اتصالاً وثيقاً .

• • •

وتاسع : هذه الملاحظات أن الدكتور مطلوب أحمل إجمالاً تاماً أمالى العلماء ومجالسهم في اللغة والأدب كأمالى القالى وأمالى البزيدى وأمالى السبيل

(١) ارتشاف الضرب لابن حيان تحقيق الدكتور مصطفى الخناس - ٣ من ٢٢٧

القاهرة ١٩٨٤ .

وأمالى ابن السجري ومجالس ثعلب ومجالس الزجاجي وغيرها ، وهذه الأمالى ومجالس حافلة بما يمكن أن يثرى معجم البلاغة العربية ، ولست أدري لماذا أغفلها هكذا جملة ولم يفعل معها كما فعل مع المصادر الأخرى التى كان يكتفى فيها ببعض دون بعض . ولا يمكن أن نقول إن أمالى المرتضى التى رجع إليها نغى عنها فهو ليست من وادىها ؛ لأن المرتضى تدور أماليه حول آيات القرآن الكريم فهو إلى التفسير أقرب منها إلى الأمالى اللغوية والأدبية .

* * *

وعاشر : هذه الملاحظات أن الدكتور مطلوب أهمل بعض مصادر البلاغة المتخصصة مع أنها مطبوعة متداولة . وهذا عجيب جدا من رجل نذر نفسه لخدمة البلاغة العربية فراح يجمع مصادرها المطبوعة من الشرق والغرب فكيف خفيت عليه مثل هذه المصادر ؟
فن مصادرها التى أهملها .

١ - الإكسير فى علم التفسير للطوفي وهو كتاب فى صميم البلاغة ومساثلها ومصلحتها اثنى فيه مؤلفه ابن الأثير فى كتابه « الجامع الكبير » ، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين - مكتبة الآداب ، مصر ١٩٧٧ م .


٢ - أصول البلاغة لسكال الدين ميمم البحراني وهو مطبوع بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين أيضا - دار الشروق ١٩٨١ م .

٣ - الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة لمحمد بن على بن محمد الجرجاني ، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين أيضا - دار نهضة مصر ١٩٨٢ م .

٤ - روضة الفصاحة لزين الدين محمد بن أبى بكر الرازى وهو مطبوع بتحقيق الدكتور أحمد النادى شعلة - دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢ .

٥ - الرسالة البيانية للصبان المتوفى ١٢٠٦ هـ ، وهى مطبوعة بمصر ١٩١٥ م .

٦ - تجريد البتاني على مختصر السعد وقدوفى مؤلفه ١٢٢٠ هـ وهو مطبوع

٧- فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح الشريفي ، وهو مطبوع في أربعة مجلدات كبار بمصر ١٣٢٤/١٩٠٦ م ، وإذا قبل إن الشريفي يتجاوز المدى الذي وقف عنده الدكتور مطلوب في رحلته مع المصطلح البلاغي لأنه توفي ١٣٢٦ م والدكتور مطلوب توقف عند منتصف القرن الثالث عشر تقريبا ؛ إذا قبل هذا فإن حاشية عبد الحكيم على المطول وهي التي يدور حولها الشريفي تنتمي إلى القرن الحادي عشر الهجري  لأن عبد الحكيم توفي ١٠٦٧ هـ (١) .

٨- تبيان البيان على حاشية العلامة الصاوي لشرح تحفة الإخوان البولاق المطبوعة بمصر ١٣٠٥ هـ ، وإذا كان تقرير البولاق يأتي بعد الزمن الذي وقف عنده الدكتور مطلوب فإن حاشية الصاوي تقع في إطار الزمن الذي حدده لأن صاحبها انتهى منها ١٢١٩ هـ (٢) .

ولو رحنا نستعصي كتب البلاغة الخاصة التي أهلها الدكتور مطلوب لما اتسع له حيز كهذا ، خصوصا كتب البلاغة المتأخرة ، حتى لو التزمنا بتحديد الزماني الذي وقف عنده ، ومن يقرأ كتاب : « تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها » لأحمد مصطفى المراغي يدرك كم أهل الدكتور مطلوب من كتب البلاغة حتى المطبوع منها ، وما أظن أنه يمكن أن يفتي كتاب في البلاغة عن كتاب عند إعداد معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها ؛ لأن المناقشات في الكتب المتأخرة كثيرا ما تستخدم حول دلالة المصطلح فتتبادد الآراء والنظريات ، ومعجم بطمح لتتبع تطور المصطلح البلاغي يلزمه أن يقف على هذا كله إن كان يريد أن تقل الثغرات في معجمه .

• • •

(١) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغي ص ١٨٥ القاهرة ١٣٦٩/١٩٥٠

(٢) تبيان البيان البولاق ص ١٥٢ ط ، القاهرة ١٣٠٥ هـ .

هل انتهى الأمر عند الملاحظات الماضية حول مصادر معجمه ؟

لقد بقي ما هو أم من هذا كله في نظري ، ذلك أن الدكتور مطلوب أغفل عابدا بعض المحاولات السابقة في معجم المصطلح البلاغي ، ولم يفر في مقدمته إلى أي جهد سابق عليه ، ولم يذكر في ثبت المصادر أم هذه المحاولات وأصغرها بعمله ، حتى يوهمنا أن عمارته غير مصبوبة .

والمحاولات السابقة أنواع :

— أديها وضع معجم لمصطلحات البلاغة في عمل موسوعي كما فعل المرحوم عبد السلام هارون في « البيان والتبيين » للجاحظ ، و « خزائن الأدب للبغدادي » .

— وأرجحها أن يكون المصطلح البلاغي جزءا من مصطلحات الفنون أو الآداب أو العلوم العربية ، مثال ذلك عند القدماء كتاب « كشف اصطلاحات الفنون » ، لثناوى وهو من رجال القرن الثاني عشر الهجري ، وعند المحدثين : « معجم المصطلحات العربية في اللغة والآداب » لمجدي وهبه وكامل المهندس . ويمكن أن يدخل في هذا كتاب « التعريفات » للسيد الشريف الجرجاني ، غير أن هدفه الأول هو التعريف لا تحقيق المصطلح .

والدكتور مطلوب يعرف كتاب الثناوى معرفة وثيقة ، لأنه رجع إليه في رسالة الماجستير في طبعته الهندية ، وسكت هناك كتابا تاما وهو يقدم معجمه وذكر كتاب الجرجاني ؛ لأن اهتمامه لا ينصب على المصطلحات كالثناوى . وما كان يعيب الدكتور مطلوب في شيء أن يكون مصبوبا بمن يهتم بالترفيه أو بمن يهتم بالمصطلح ، وكان يمكن أن يبين نقائص هذه المحاولات السابقة . وأهمها أنهم لم يوجهوا جهودهم إلى تتبع تطور المصطلح البلاغي - وهو شاغل الدكتور الأول - وكان يمكن أن يكون هذا وحده مبررا لمحاولته على تلك المحاولات السابقة ، مع تلافى أوجه النقص الأخرى التي يمكن أن تؤخذ عليها .

وأعلى المحاولات وأدخلها في التخصص وأقرها إلى عمل الدكتور مطلوب هو كتاب . د معجم البلاغة العربية ، الدكتور بدوى طبانة ، وقد صدرت عنه طبعتان : الأولى في ليبيا ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٥ م ، أي من بعد أن صدر كتيب . مصطلحات بلاغية ، للدكتور مطلوب بثلاث سنوات ومن قبل أن يبدأ في معجمه ، وصدرت طبعته الثانية مريضة ومراجعة في الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م . وهذا المعجم في مجلدين ، وتضم طبعته الثانية أربعة وعشرين وتسعمائة مصباح بزيادة ثلاثة وعشرين مصطلحا عن الطبعة الأولى^(١) ، وقد استغرق إعداد هذا المعجم قبل أن يصدر في طبعته الأولى ما يزيد على عشرين عاما^(٢) ، أي أنه حينما بدأ العمل فيه لم يكن الدكتور مطلوب قد خط حرقا واحدا في البلاغة ، فهل خفي عليه هذا العمل وهو الذي يتابع كل جديد ينشر في البلاغة العربية ١٩

إن المكتبة العربية تتسع لمحاولتي الدكتور طبانة والدكتور مطلوب دون أن تغنى أحدهما الأخرى ، ويمكن أن تتسع لغير هاتين المحاولتين لاستكمال ما نقص فيهما ، تماما كما اتسعت من قبل لكل المعاجم العربية ابتداء من معجم العين ، للخليل بن أحمد وانتهاء بالمعجم الوسيط ثم المعجم الكبير الذي لم يكتمل صدوره إلى الآن من مجمع اللغة العربية في مصر ، فكل محاولة تألية ينبغي أن تسد بعض الثغرات في المحاولات الماضية ، وهذا تتكامل الجهود نحو واحد وغاية واحدة ، أما أن يتجاهل أحد ما سبقه من محاولات في مبدئه حتى يوهنا أن عمله هو الأول فيسجل لنفسه زيادة في هذا الميدان فلا يس هذا من الصواب في شيء . مهما تفوقت محاولته أو تميزت على ما سواها .

(١) معجم البلاغة العربية للدكتور بدوى طبانة ، ج ١ ص ٩ ط الرياض

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م .

(٢) السابق ج ١ ص ١٢ .

ثم إذا نظرنا في إفادته من مصادره - القاصرة - وهو بصدد بيان تطور المصطلح البلاغي فاذا نجد ؟

بداهة نقول إن أي نظرة تطورية للمصطلح في غيبة بعض المصادر المهمة نظرة قاصرة ، ولكن نريد أن نتعرف إلى تطور المصطلح هنا من خلال مصادره التي جعلها أصلا للمعجم ، فإن كان قد استوفى التطور في المصطلح من خلال هذه المصادر فيكون عيبه حينئذ مقصورا على عدم استيفاء المصادر فقط ، وإن أخل بهذا التطور فيكون العيب قد لحقه من جهات شتى .

ولنأخذ على ذلك مصطلحا واحدا هو من أقدم المصطلحات البلاغية ، " ذلكم هو مصطلح ، الإيجاز ، فاذا فعل به الدكتور مطلوب .

لأنه بدأ الكلام فيه ببيان معناه اللغوي اعتمادا على " لسان العرب " ، ثم ذكر تعريف الجاحظ له في " البيان والتبيين " و " الحيوان " ، ثم نقل كلاما لصغار العبدى في الإيجاز في حوار له مع معاوية بن أبي سفيان ، ثم كلاما لا كتم بن صيفي لجمهر بن يحيى البرمكي ثم نقل عن بعضهم - هكذا بالتجمل - كلاما فيه نقله عن " كتاب الصناعاتين " ، ثم عن أبي هبيدة ثم الجاحظ ثم ابن المقفع الذي رأى أن الإيجاز هو البلاغة ، ثم أشار إشارة مجملة إلى اهتمام البلاغيين والنقاد به ، وأحال في الخامس إلى تسعة وثلاثين مصدرا بدءا بكتاب سيبويه وانتهاء بأنوار الريح .

ثم بين أن الإيجاز ليس محمدا في كل موضع ، وفي هذا نقل عن ابن قتيبة وابن جني وأبي هلال . ثم ذكر حديث ابن رشيقة عنه وبين أنه ذكر تعريف الرماني ، ثم ذكر أن ابن سنان سماه " الإشارة " وذكر تعريفه له ثم ذكر تعريف السكلاهي فالرازي فالسكاكي فابن الأثير فالعلوي فالسجستاني ثم قال : " وهذه التعريفات كلها لا تخرج من القول بأن الإيجاز هو التعبير عن المعنى بالفاظ قليلة تدل عليه دلالة واضحة ، والإيجاز عدة أنواع تحدث عنها

المتقدمون ولكنهم أجمعوا على تقسيمه إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، (١).

أما إيجاز الحذف فساه أبو عبيدة د مجاز المختصر ، وسماه الجاحظ « الإيجاز المحذوف » ، ود السكلام المحذوف ، ، ثم انتقل إلى ابن الأثير فأخذ تعريفه منه وسر بلاغته ، ثم تحدث عن أدلة الحذف نقلا عن الإيضاح وشروح التلخيص ، ثم تحدث عن المحذوف وأنواعه تفصيلا نقلا عن المثل السائر ، ود الجامع الكبير ، ود يدبع القرآن ، ود الطراز ، .

ثم تحدث عن إيجاز القصر فبدأ فيه بالجاحظ ثم قفز منه إلى ابن الأثير فنقل عنه أبلغية آية القصاص على قول العرب ، القتل أنى للقتل ، ، وبين يديه ذلك أن إيجاز القصر عند ابن الأثير قسم لإيجاز التقدير وكلاهما داخل في الإيجاز الذي لا حذف فيه .

ومن مصطلحات الإيجاز التي تحدث عنها غير ما سبق « الإيجاز الجامع » ، عند ابن مالك في د المصباح ، والطيب في « التبيان » - وهو ليس من مصادره - نقلا عن السيوطي (٢) .

هذه هي معالجة الدكتور مطلوب لمصطلح « الإيجاز » ، وتطوره ، فهل وفي بما وعد من تتبع التطور ؟

وهل انتفع بما بين يديه من مصادر ؟ وهل أعطى كل عالم له إضافة في هذا المصطلح ما يستحق ؟

وهل التزم بالتمسك التاريخي ليكشف عن تطور المصطلح ؟

• إن النظرة في تتبع آراء العلماء التي نقلها الدكتور مطلوب تبين لنا أنه لا يلتزم بالتمسك التاريخي ، فقد يقدم متأخرا ويؤخر متقدما ، وقد يفرق كلام العالم الواحد دون ضرورة ، فيقدم بعضه ويؤخر بعضه ، وسأترك هذه السبيل لا يكشف عن التطور بحال .

(١) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٧ . وانظر أيضا ٢٨٦/١ .

(٢) السابق ٣٤٤/١ - ٣٦٤ .

• ثم إن النظرة الدقيقة تكشف أن الرجل لا يهتم بنسبة الإضافة العلمية إلى مصادرهما الأولى ولا يتبع تطورها ، وإنما قد يلتصقها من مصدر متأخر ، مع أن المصدر الأول بين يديه ، وليس هذا من النظرة التطورية المصطلح في شيء .

• إن تتبع المصطلح ينبغي أن يبدأ من إدراكه أولاً ، ثم وضع المصطلح له ثانياً ، ثم التفرقة بين أنواعه ثالثاً . . . وهكذا .

• أما إدراكه فهو قديم جداً في التراث العربي كما أشار في محله ، وهذا لا يحتاج إلى بيان .

• أما الوقوف عند أنواعه فإن إيجاز الحذف معروف عند النحاة من قديم الزمان ، وللخليل ابن أحمد في هذا آثار كشف عنها الدكتور عبد القادر حسين في كتابه : « أثر النحاة في البحث البلاغي » ، (١) .

• أما تقسيم الإيجاز إلى قصر وحذف فقد حكي الإجماع عليه ، ولم يكشف عن من قسمه أولاً .

ومن المعروف أن الرماني هو صاحب هذا التقسيم والناس في هذا تبع له (٢) . والغريب أن هذا الأمر ليس خافياً على الدكتور مطلوب ، فقد أشار إلى سبق الرماني إلى هذا التقسيم واقتفاء البلاغيين أثره في كتابه « مناهج بلاغية » ، حينما قال عن تقسيم الرماني للإيجاز : « وهذا التقسيم هو

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور عبد القادر حسين ص ٥٦ ، ٥٧ ط . القاهرة ١٩٧٥ م .

(٢) انظر في هذا : هروس الأنراح - هروس التلخيص ٢٠٧/٣ ، أثر النحاة ص ٢٤٦ ، لبلاغة تطور تاريخ للدكتور عوق ضيف ص ١٠٤ ، تاريخ نشأة البلاغة للدكتور عبد العزيز عرفة ص ١٩٠ ، الإيجاز البلاغي للدكتور محمد محمد أبو موسى ص ٩١ . إلخ .

الذى يبنى عليه البلاغيون 'مباحثهم فى الإيجاز' (١)، وفى مصطلح 'الاكتفاء'، ينسب الرمانى مصطلح الإيجاز بالحذف (٢).

وجهد الرمانى فى هذا الباب ليس مقصوراً على هذا التقسيم الدقيق ووضع المصطلحات فقط، ولكن يتعداه إلى ما هو أكبر من هذا، ومع ذلك فإن الدكتور مطلوب لم ينقل عن الرمانى فى هذا الموضوع إلا تعريفاً له أخذه عن ابن رشيق مع أن 'النسكت' بين يديه ومن مصادر معجمه.

• والموازنة بين آية القصاص وقول العرب الصائف التى نقلها عن ابن الأثير كان قد فتحت الباب فيها المورد فى كتابه 'البلاغة' (٣) ولا نعلم أحداً سبقه إلى هذا، ثم جاء الرمانى ووسع دائرة المقارنة (٤)، ثم اتسعت المقارنة بعد ذلك، ولا أثر لهذا فى المعجم.

• وأدلة الحذف التى أخذها عن 'الإيضاح'، و 'شروح التلخيص'، سبق أن أوردتها العز ابن عبد السلام فى كتابه 'الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز' (٥).

• وتقسيم الإيجاز الذى لا يحذف منه شئ، إلى نوعين : إيجاز التقدير وإيجاز القصر الذى أخذه عن ابن الأثير، وإيجاز التقدير هو ما سوى لفظه معناه يرد إلى الرمانى كما نقل عن ابن رشيق، قال : 'والإيجاز عند الرمانى على ضربين : مطابق لفظه لمعناه لا يزيد عليه ولا ينقص'، ومنه ما فيه حذف

(١) مناهج بلاغية ص ٤٥.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ٢٨٦/١.

(٣) البلاغة للمبرد تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ص ٦٧ ط : القاهرة

١٩٦٥ م.

(٤) النسكت فى إعجاز القرآن - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد أحمد

خلف الله والدكتور محمد زغول سلام ص ٧٧، ٧٨ ط : القاهرة ١٩٦٨ م.

(٥) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٣ وما بعدها - بيروت :

للاستغناء عنه في ذلك الموضع^(١)، أي أن الرمانى يرى أن المساواة جزء من الإيجاز، غير أنه هنا جعله قسيم لإيجاز الخلف، وابن الأثير جعله قسيم لإيجاز القصر، وانفرد بتسميته إيجاز التقدير، وكذلك فعل السجلماسى حينما أدخل المساواة في الإيجاز وجعلها قسيمة المفاضلة، حسب اصطلاحه^(٢)، وكون المساواة جزءا من الإيجاز يرجع إلى الرمانى ولا أثر لهذا المعجم.

وحق لو قال الدكتور مطلوب إن نص ابن رشيق الذى أوردهنا آنفا سبق أن ذكره عند مصطلح «الاكتفاء»، فإننا نقول له إن هذا لا يفي شيئا لأن حديثنا هنا عن دخول المساواة - تحت أى مصطلح - في الإيجاز الذى نسبته هنا إلى ابن الأثير، مع أن جذوره عند الرمانى وإن لم يذكر مصطلح «إيجاز التقدير»، ولا مصطلح «الاكتفاء»، ولا حتى مصطلح «المساواة»، فكان هذا الكلام هنا وليس هناك، حتى يكشف عن أثر الرمانى في مصطلحات الإيجاز وتقسيماته ومفاهيمه وأمراره البلاغية، وليس في مصطلح «إيجاز التقدير»، ما يفيد هذا إلا أن فيه إحالة على مصطلح «الاكتفاء»، ليكمل القارىء منه ما نقص هنا، ولا يفيد هذا إلا أن ابن الأثير هو الذى جعل إيجاز التقدير من الإيجاز الذى لا يحذف منه شيء^(٣).

. وتسمية الإيجاز «إشارة» التى نسبها إلى ابن سنان^(٤) ترد إلى قدامة

(١) السبعة لابن رشيق ج ١ ص ٢٥٠ تحقيق محيى الدين عبد الحميد - بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٢) المزعج البديع في تجنيس أساليب البديع للسجلماسى ص ١٨١ ط: القرمية ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٣٤٧.

(٤) السابق ج ١ ص ٢٤٦.

ابن جعفر^(١) وقد ذكر هذا بنفسه في مصطلح «الإشارة»^(٢) وقد أخذها منه الباقلاني بهذا المعنى^(٣) ، وقدامة والبلاقلاني أسبق من ابن سنان كما هو معروف ،

• والسكلام الذي نقله عن ابن الأثير في بيان قيمة الإيجاز بالحذف^(٤) هو نفسه كلام عبد القاهر الجرجاني في صدر باب «الحذف» من (دلائل الإيجاز)^(٥) . وإذا كان ابن الأثير لم يردّه إلى مصدره فقد كان على الدكتور مطلوب وهو يتحدث عن تطور المصطلح أن يأخذه من مصدره الأول .

• ثم إن الإيجاز عند السجلماسي (من رجال القرن الثامن الهجري) يختلف اختلافا جذريا عنه عند غيره ، فالإيجاز عنده أول أجناس البديع العشرة ، ويضم تحته ثمانية عشر مصطلحا تنتمي إليه انتهاء الفروع إلى الأصل ، أو الأنواع إلى الجنس أو الأبناء والأحفاد إلى الأم ، وقد يكون الانتهاء في الدرجة الأولى كافيا ، المساواة ، و «المفاضلة» ، وقد يكون في الدرجة السادسة كما في أنواع الحذف . وهذا شيء جديد في البلاغة لم يشر إليه الدكتور مطلوب مجرد إشارة ، واكتفى بنقل التعريف فقط من السجلماسي ، ولا يكفى التعريف طبيعه الإيجاز عنده بحال .

• كما أن الدكتور مطلوب قد أشار في رسالته للدكتوراه إلى أن السبكي أضاف أنواعا من إيجاز القصر^(٦) ولم يشر هنا إلى شيء من ذلك ، مع أنه

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٥٥ ط : القاهرة ١٩٨٠ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) إيجاز القرآن الباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر ص ٩٠ : ١٩٧٧ م .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٣٤٩ .

(٥) دلائل الإيجاز لمبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد عفا كرم ص ١٤٦ .

ط : القاهرة ١٩٨٤ م .

(٦) القزويني وشروح التلخيص ص ٥٦١ .

هذا كان ينبغي أن بينه وهو يتحدث عن التطور . ومعنى هذا أن الدكتور
مطلوب لم يقصر في التنبع الدقيق للمصطلح في مصادره المتاحة فقط ، ولكنه
قصر أيضا في الانتفاع بجهوده السابقة في هذا الميدان ، وهذا أمر يثير العجب
والدهشة !!

* * *

وأنا هنا لا أفضل القول في الإيجاز مفهوم ومصطلحا وأنواعا وصورا
ولمثلة وشواهد وتطورا ، ولكنني أكشف فقط عن ادعاء الدكتور مطلوب
تنبع المصطلحات البلاغية وبيان تطورها ، وقد تبين لنا أنه ادعاء لاحقة له .
وربما كان هذا القصور هو الذي حمله على أن يقرر في المقدمة أن معجمه
هذا دهدية تقدم على استحياء لأنها قد تكون بلغة ، أو لأنها لا تحقق الهدف
الذي من أجله يبذل الدارسون جهودهم في هذا السبيل ، (١) .

ويبقى للدكتور مطلوب أنه حاول وبذل جهدا نرجو الله أن يثيبه عليه
بمقدار ما أحلص فيه ، وبمقدار ما يتنبع بهذه المحاولة طالب العلم ، فلا شك أنه
جمل المصطلح البلاغي في متناول المتخصصين وغير المتخصصين على السواء
برغم ما في محاولته من نقص وقصور ، وهذا كسب جديد للبلاغة العربية
القديمة في وقت يشيع الدارسون بوجوههم عنها في كثير من الجامعات
العربية ، ولعل في هذه المحاولة ما يحفز الحميم على مواصلة الطريق لسد ثغراتها
واستكمال نواقصها ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

« الوضع » وصلته بالبيان

بقلم الدكتور

إبراهيم عبد الحميد التلب

ربما يبدو الحديث عن « الوضع » ، في نطاق البلاغة ترفاً علمياً زائداً عن الحاجة لأول وهلة ، والحق أنه وثيق الصلة بموضوع « علم البيان » ، ذلك العلم الذي يبحث في دلالة الألفاظ لبيان التفاوت في مراتب الوضع والخفاء .

والمعروف أن الدلالة تابعة للوضع ، فلا بد إذن من معرفة الوضع اللغوي ، والإلمام بالمعنى الوضعي للألفاظ قبل الحكم على اللفظ بأنه حقيقة أو مجاز أو منقول أو مرئيل ، وليس هذا بالأمر الهين إذا وضعنا نصب أميناً أن دلالة اللفظ تتطور من عصر إلى عصر كما أن بنية الكلمة ذاتها . يعثرها التغيير من زمن إلى آخر ، فاللغة كائن حي ، ولذلك فهي تخضع لسنة التطور والارتقاء كما تخضع سائر الكائنات الحية .

والحديث عن « الوضع » فيه شيء من التفغل في اللغة ، والغوص وراء المعاني والتبحر في خفايا الفكر اللغوي لاستيعاب معانيه ، والإلمام بشق أنسامه وفروعه ، وما تنطوي عليه هذه الأقسام والفروع من دقائق الفروق ، ولذلك فهو يحتاج إلى شيء كثير من الصبر والدقة والروية والأناة .

وفي النفس دوافع غريزية لاستطلاع المجمبول ، واستجلاء المعاني واستكناه الأسرار في خفايا العلم ودقائق المعرفة كلما تيسرت لها الأسباب . وفي ذلك إرضاء لنهم العقل إلى المعرفة ، وإدواء لظلم النفس التواقف لارتداد آفاق جديدة لم يسبق لها الوقوف عليها أو الدراية بها .
وقد اعتاد الباحثون أن يتحدثوا عن « الوضع » ، بين يدي « الحقيقة

والمجاز ، لبيان معناه والإشارة إلى أقسامه المختلفة ، لما يقترب على ذلك من التمييز الصحيح بين الحقيقة والمجاز والنقل والارتجال والاشتراك وغيرها من المصطلحات التي تجمع بها كتب التراث البياني .

وقد جاء حديث العلماء عن « الوضع » ، وأقسامه وما يتصل به ، من قضايا أخرى مثالا للدقة ، ونفاذ البصيرة ، والصبر على الفكرة الوصول بها إلى شأو بعيد . حتى أصبح لدينا علم من علوم العربية يسمى « علم الوضع » ، يضاف إلى قائمة علوم العربية . وقد عرفوه بأنه « علم يبحث عن أحوال اللفظ العربي من حيث ما يعرف به شخصية الوضع ونوعيته وخصوصه وعمومه إلى غير ذلك » .

أي أن موضوعه هو اللفظ العربي من تلك الحيلية . وهو من العلوم العربية ، لأنه يبحث عن أحوال اللفظ العربي ، وكل علم هذا شأنه فهو من العلوم العربية .

فما المراد بالوضع إذن ؟ وما أقسامه ؟

الوضع في اللغة : جعل الشيء في حيز . فكان الواضع بتعيينه يجعل المعنى حيزا للفظ . ويطلق على معان أخرى كوضعت المرأة وضعا ، ووضع الدين عن غريمه وضعا ، ووضع الحديث وضعا أي اختلفه من عند نفسه إلى غير ذلك .

وفي الاصطلاح : هو تعيين اللفظ بإزاء المعنى بحيث يفهم منه هذا المعنى عند العلم بذلك التعيين .

وقد زاد العلامة الرضي في تعريف الوضع قيوداً آخر هو قصد التواطؤ ، والإخراج محركات العوام . أي الألفاظ التي حركتها العامة عن أصلها ، حيث قال في شرح الكافية : « المقصود من قولهم وضع اللفظ ، جملة المعنى من المعاني مع قصد أن يصير متواطأ عليهما بين قوم . فلا يقال لكل كلمة بدت من شخص لمعنى لأنها موضوعة له من دون أنقران قصد التواطؤ بها . ومحركات

العوام على هذا ليست موضوعة ، لعدم قصد المحرف الأول إلى التواطؤ (١).

وأهمية هذا القيد تأتي من جهة أن الغرض فهم المعنى وتفهيمه من اللفظ ، ولا يتصور ذلك إلا بالتواطؤ بين الواضع وغيره .

ومعنى ذلك أن إعلام الغير بالتعيين شرط في حصول الوضع ، فليس هو مجرد التعيين ، بل هو تعيين اللفظ لمعنى بحيث يصير متعيناً عند الغير لذلك المعنى ، فلو عين أحد في نفسه لفظاً لمعنى لم يكن موضوعاً له ما لم يعلم به غيره من الناس ، لأن اللفظ إنما ينتفع به عند اطلاع الغير عليه واستعماله في معناه الوضعي .

أقسام الوضع

ينقسم الوضع إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة ، وسأذكر من هذه الأقسام ما هو وثيق الصلة بالدراسة البيانية ، وأحرب صفحاً عن غيره من الأقسام التي هي بعلم المنطق أولى .

أولاً : الشخصي والنوعي :

ينقسم الوضع باعتبار اللفظ الموضوع إلى شخصي ونوعي .
فالشخصي هو ما كان اللفظ الموضوع فيه معيناً مشخصاً ، أي ملحوظاً بعينه وشخصه بحيث يعتمد الواضع إلى لفظ بعينه ، فيضمه لمعنى من المعاني ، سواء أكان ذلك المعنى جزئياً أم كلياً صادقاً على كثيرين ، فالأول كزهد والثاني كالإنسان ، فالوضع فيهما شخصي لأن اللفظ الموضوع قصد لوحده بخصوصه ، حيث يقول الواضع : حيث لفظ « زهد » للدلالة على ذاته ، ووضع لفظ « إنسان » للدلالة على مفهوم الحيوان الناطق .

(١) خاشية الشيخ الأبياني على الرسالة البيانية لصبان ص ١٣٥ .

وبفهم من ذلك أنه لاهلاقة بين شخصية الوضع وشخصية المعنى الموضوع له فإن شخصية الوضع لا ترجع إلا لتعيين اللفظ الموضوع ، وعدم ملاحظته بقانون كلى من غير نظر إلى معناه . وإنما سمي الوضع شخصياً منسبته إلى شخص اللفظ الموضوع . فإن اللفظ قد لوحظ فيه بشخصه وعينه .

والنوعى : هو ما كان اللفظ الموضوع فيه ملحوظاً بقانون كلى . أى يكون داخل تحت قاعدة كلية بحيث تكون الجزئيات السكونية المندرجة تحتها موضوعة كلها بوضع واحد فى آن واحد بمقتضى تلك القاعدة السكونية .

وإنما سمي الوضع فيه نوعياً ، لأن الألفاظ الموضوعية فيه لم تلاحظ بشخصها ، وإنما لوحظت بنوعها ، كما فى وضع المشتقات ، فإن الواضع لم يضع كل اسم فاعل على حدة ، أى أنه لم يضع ضارباً بمخصوصه وآكلاً بمخصوصه ، وقائماً بمخصوصه ، إلى غير ذلك بحيث يكون منه أوضاع كثيرة بعدد أسماء الفاعلين مثلاً . بل وضع تلك الجزئيات كلها بوضع واحد فقال : وضعت كل ما كان على زنة ، فاعل ، للدلالة على ذات وحدث منسوب إليها ، قائم بها أو صادر منها . وضعت كل ما كان على زنة مفعول ، للدلالة على ذات وحدث واقع عليها وهكذا بقية المشتقات .

معنى ذلك أن الواضع قد استغنى بتلك القاعدة السكونية عن أن يستحضر كل جزئى من جزئيات أسماء الفاعلين والمفعولين ، فيضعه وضاً خاصاً به . بل رأى أن جميع جزئيات النوع لا تختلف دلالتها ، فاكفى بوضع واحد كلى لهذا النوع يشمل جزئياته فلا يحد منه شئ منها .

هذا هو الفرق بين الوضع الشخصى والوضع النوعى . فالأول يلاحظ فيه الموضوع بعينه وشخصه . والثانى يلاحظ فيه الموضوع بوجه كلى عام .

فن الوضع الشخصى وضع الآء سلام كريد فقد وضعه الواضع بينة وشخصه الذات المعينة خارجاً . ووضع : لإنسان ، المفهوم الحيوان الناطق .

ومنه وضع أسماء الإشارة والموصولات والحروف فإن الواضع رضعها
بهيئتها وشخصها بإزاء معانيها .

ومن الوضع النوعي وضع المشتقات كلها ، ووضع المجازات والكنايات
والمركبات ، إذ لا حاجة لتعدد الوضع فيها بتعدد جزئياتها ، فإنها لا تختلف
من هذه الحيثية . ففي وضع المجاز مثلاً يكفي الواضع أن يقول : وضعت كل
لفظ ليدل على المعنى الذى يكون بينه وبين معناه الأصل علاقة من العلاقات
المعتبرة بشرط أن يكون معه قرينة مانعة من إرادة ذلك المعنى الأصلى فى
المجاز ، أو غير مانعة فى السكناية .

وكذلك يكفي فى وضع المركبات أن يقول : وضعت كل مسند ومُسند
إليه ليدل ذلك المركب على ثبوت المسند للمُسند إليه أو انتفائه عنه ،
ولا حاجة إلى وضع كل جزئى من جزئيات المركب أو المجاز أو السكناية ،
لأنها لا تختلف فى الدلالة (١) .

ولكن هل بتعدد وضع المجاز بتعدد العلاقات ؟

يقول العلماء : يمكن أن تكثر المجاز موضوعها بوضع واحد لا بتعدد بتعدد
العلاقات . كما يمكن أيضاً أن تعتبر متعددة بتعدد ما بأن يقول الواضع :
وضعت كل سبب ليدل على سببه ، وضعت كل مسبب للدلالة على سببه إذا
لوحظت العلاقة والقرينة وهكذا بقية العلاقات .

وفى وضع المركبات يقول الواضع على هذه الطريقة : وضعت كل فعل
وفاعل ، ليدل على ثبوت الفعل للفاعل على وجه قيامه به أو صدوره عنه .
وكل مبتدأ وخبر ليدل على ثبوت الخبر للمبتدأ كذلك .

ووضعت كل فعل مبنى للجهول مع مرفوعه ، ليدل على إسناده إليه على
وجه الوقوع عليه . وإن شئت اعتبرته وضعاً واحداً بحيث يقول الواضع :

(١) خلاصة الوضع ص ٦ .

وضعت كل مركب إسنادى ليدل على ثبوت المسند للسند إليه كما أسلفنا .
والوضع نوعى على كلا الرأيين ، إذ يندرج تحته جزئيات كثيرة .

ثانيا : الوضع التحقيق والتأويل :

ينقسم الوضع إلى قسمين : تحقيق وتأويل :

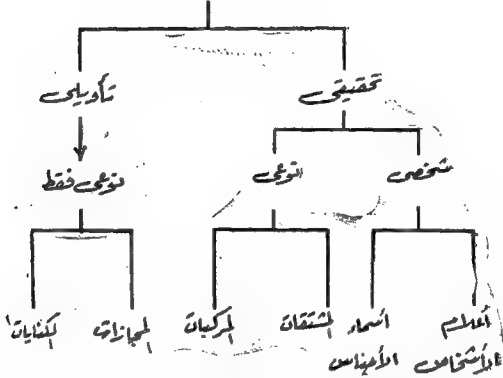
فالتحقيق : هو ما كانت الدلالة معه بواسطة الوضع ، وبعبارة أوضح :
هو ما لا يحتاج في دلالاته على المعنى الموضوع له إلى قرينة ، بل يدل عليه
بنفسه ، وذلك كما فى وضع الحقائق .

والتأويل : هو ما لا يدل بنفسه بل بواسطة القرينة ، كما فى وضع المجازات
والكنائيات ، على القول بأنها واسطة أو من المجاز . بأن يقول الواضع :
هيئت كل لفظ اسكل ما يكون بينه وبين معناه الحقيقى علاقة من العلاقات
المخصوصة بشرط أن يكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى كما فى
المجاز ، أو غير مانعة كما فى الكناية .

والمراد بالوضع عند الإطلاق التحقيق لا التأويل ، والسبب فى ذلك
« أن التأويل ليس بوضع حقيقة ، واللفظ عند الإطلاق إنما ينصرف إلى
معناه الحقيقى ، وعليه فى إطلاق الوضع على التأويل يجوز » (١) .

وبما هو جدير بالذكر أن الوضع متى كان تأويلياً كان نوعياً لا عاملاً ،
وأما إن كان تحقيقياً فقد يكون نوعياً كما فى وضع المشتقات لمعانيها
الحقيقية . وكما فى وضع المركبات كذلك . وقد يكون شخصياً كما فى أحلام
الأشخاص وأسماء الأجناس المستعملة فى حقيقتها . ويمكن توضيح ذلك
بالشكل التالى :

الوضع



وخلاصة القول في ذلك أن المركبات وضعها نوعى سواء أكانت حقائق أم مجازات أم كُنَايَات ، وأن المشتقات أيضا كذلك . وأما مفردات تلك المركبات فقد يكون وضعها شخصيا وقد يكون وضعها شخسيا وقد يكون نوعيا ، كما أنه قد يكون تحقيقيا وقد يكون تأويليا ، وهذه الأقسام المختلفة ليست من وجه واحد ، وإنما هي باعتبارات متعددة على غرار ما مضى .

كما أن شخصية الوضع بتشخص الموضوع ونوعيته وعمومه ، وكونه تحقيقيا يرجع إلى دلالاته على معناه بنفسه ، وكونه تأويليا يرجع إلى دلالاته على معناه بالقرينة :

وهناك أقسام أخرى أفاض فيها العلماء ، كتقسيم الوضع من حيث عمومته وخصوصه إلى ثلاثة أقسام : وضع خاص لخاص ، ووضع عام لعام ، ووضع عام لخاص .

والأول كريد وعمرو وخالد من أسماء الأعلام . والثاني كوضع المصادر وأسماء الأجناس لمعانيها السككية . والثالث كوضع أسماء الإشارة والضمائر

والموصول والحروف ، فالوضع فيها هام باعتبار آله ، كما أنه في النوع الثاني هام باعتبار الموضوع له .

ومعنى ذلك أن الوضع يكون هاما بأحد أمرين : الأول : مفهوم الموضوع له كما في وضع السكيات الملاحظة من جهة كونها كلية . والثاني : كون آلة الوضع غامة بأن يكون الموضوع له هو الجزئيات المشخصة ، ولكن استحضرت عند الواضع بقانون كلى كما في أسماء الإشارة والموصولات والضمائر .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة في الوضع الشخصى بلا خلاف . مثل زيد ورجل والذى . وأما الوضع النوعى فلا يكاد يذكر المتقدمون فيه إلا قسما واحدا ، وهو الوضع العام لموضوع له هام ، كأن يقول الواضع : وضعت كل مركب من المسند والمسند إليه ليبدل على مطلق ثبوت المسند المستند إليه ، وإن كان بعض المتأخرين قد أثبت القسمين الآخرين في الوضع النوعى أيضا على ضرب من التكلف وطريق من التعسف .

وأما القسم الرابع الذى تقتضيه القسمة العقلية ، وهو الوضع الخاص لموضوع له هام فلا وجود له ، لأن الخاص من حيث خصوصه لا يكون مرآة للعام من حيث عمومته أو السبب أنه لا يمكن أن تجتمع ملاحظة الخصوص الذى يجهل الوضع خاصا ، والعموم الذى يكون في الموضوع له .

* * *

الوضع بين الحقيقة والمجاز

من المعلوم أن اللفظ المستعمل إما أن يكون حقيقة أو مجازا . فالحقيقة هى الدلالة الأصلية للفظ ، والمستعمل عنها هو الواضع الأول لأنه كما يقول العلماء . والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع في أصل اللفظ .

ولكن : ما المعيار الذى يحتكم إليه البلاغيون في التمييز بين الحقيقة والمجاز ؟

بالرجوع إلى تعريفات البلاغيين لكل من الحقيقة والمجاز نستطيع أن نقف على المعيار الذي تقاس به دلالة الكلمة للحكم عليها بالحقيقة أو المجاز .

أما الحقيقة فقد عرفها البلاغيون بقولهم : هي كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح - وإن شئت قلت : في مواضع - وقوعا لا يستند فيه إلى غيره . وهذه عبارة تنظم الوضع الأول وما تأخر عنه ^(١) وقد عرفها السكاكي بقوله : الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع ^(٢) .

ويرى ابن حمزة العلوي أن أجمع تعريف لها هو ما ذكره أبو الحسن البصري ، إذ قال : هي ما أفاد معنى مصطلحا عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب ^(٣) .

وأما المجاز فهو كما يقول عبد القاهر : كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضحها للملاحظة بين الثاني والأول ^(٤) . وعلى ذلك فإن ضابط الاستعارة عند عبد القاهر : أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا عند الشواهد على أنه اختص به حين وضع . ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقل إليه نقلا غير لازم ، فيكون هناك كالمعارة ^(٥) .

كما عرفه ابن الأثير بقوله : ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة ^(٦) . وقال السكاكي : هو اللفظة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مأمنة عن إرادة معناها ^(٧) .

بالتأمل في التعريفات السابقة نستنتج أن « الوضع » أو « المواضع » هو المعيار الذي تقاس به دلالة الكلمة للحكم عليها بأنها حقيقة أو مجاز . فاللفظ إن

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨٠ ط النار ١٩٦٠ م - ١٣٧٩ هـ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٢ (٣) الطراز ١/ ٤٧ .

(٤) أسرار البلاغة ص ٢٨١ (٥) أسرار البلاغة ص ٢٠ .

(٦) المثل السائر ٢٣ ، ٢٤ (٧) مفتاح العلوم ١٥٢ ، ١٥٣ .

إن استعمل فيما وضع له في أصل اللغة يكون حقيقة . وإن تجاوز ما وضع له كان مجازاً .

ولكن هذا المعيار لم يسلم من النقد ، فقد تعرض لهجوم حنيف من الباحثين المعاصرين الذين رفضوه ، وبينوا أسباب رفضهم له فيما يلي :

١ - أن الوضع الذي قصده البلاغيون والأصوليون هو الوضع الأول ، وهو مرتبط بالنشأة الأولى للغة . والبحث في تلك النشأة أصبح من مباحث ما وراء الطبيعة ، أى أنه من البحوث الغيبية التي لا طائل تحتها . ولذلك عرفت هذه الدراسات اللغوية الحديثة .

٢ - أن القول بالوضع على النحو السالف قد تضمن كثير من الآراء البعيدة عن الصواب كالقول بأن ألفاظ اللغة كلها حقيقة ، أو كلها مجاز .

٣ - أن الاحتكام إلى الوضع الأول فيه إغفال لحقيقة التطور اللغوي . والنظر إلى اللغة على أنها أمر ثابت لا يتغير على مر العصور . ولا يتطور بتطور المجتمعات البشرية . مع أن تطور الدلالة ظاهرة شائعة يلمسها كل دارس لمراحل نمو اللغة ، وأطوارها التاريخية .

والنتيجة التي انتهى إليها هؤلاء المعاصرون هي أن المعيار الذي تقاس به دلالة الكلمة هو الذبوع وكثرة التردد ، فالحقيقة هي الاستعمال الفائع المؤلف للكلمة ، والمجاز هو الانحراف الدلالي أى الانحراف بالكلمة عن هذا الاحتمال الفائع المؤلف .

هذا ما قرره الدكتور إبراهيم أنيس في قوله : « وأبرز نواحي الضعف في علاج القدماء للحقيقة والمجاز أنهم وجهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء في الدلالة ، وركزوا نظرتهم نحو نشأتها ، فتصوروا ما سموه بالوضع الأول . وتعدثوا عن الوضع الأول الأصلي ، كأنما قد تم هذا الوضع في زمن متعين ، وفي عصر خاص من عصور التاريخ ، ولم يدركوا أن حديثهم عن نشأة الدلالات ليس في الحقيقة إلا خوفاً في النشأة اللغوية للإنسان ، تلك

التي أصبحت من مباحث ما وراء الطبيعة . والتي هجرها اللغويون المحدثون بعد أن يئسوا من إمكان الوصول في شأنها إلى رأى على مرجح . . . كذلك يبدو من بحوث القدماء أنهم نظروا إلى كل مصور اللغة على أنها عصر واحد ، ومن هنا ظهرت بعض الألفاظ على أنها حقيقة بعد أن شاع أمرها وتنوسبت مجازيتها فقال من قال إن السلام كله حقيقة . وتبين لآخرين أن معظم الألفاظ لها تاريخ مجازي ، فغلب إليهم أن كل الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة ولا حقيقة فيها ، وكان كذلك الفريق الثالث وهم جمهور العلماء الذين اعترفوا بكل من الحقيقة والمجاز على أساس الأصالة والفرعية في دلالة اللفظ . وبحوث القدماء قد تجاهلت أمراً هاماً هو في الواقع الأساس الأول للحكم على الدلالة ، ذلك هو أثرها في الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه ، فهو وحده الذي يستطيع الحكم على الحقيقة والمجاز . ذلك لأن الحقيقة لا تعدو أن تكون استعمالاً شائعاً مألوقاً للفظ من الألفاظ ، وليس المجاز إلا انحرافاً من ذلك المألوف الشائع . وشرطه أن يثير في ذهن السامع أو القارئ دهشة أو غرابة أو طرفة ^(١) فالحقيقة إذن هي الاستعمال الشائع المألوف ، والمجاز هو الانحراف من هذا الاستعمال الشائع المألوف . ومعنى هذا التسليم بتعاور الدلالة من عصر إلى عصر .

وهنا لابد من وقفة إزاء هذا الهجوم على قول القدماء بالوضع واستنادهم إليه في الحكم على الدلالة اللغوية للألفاظ ، والتمييز بين الحقيقة منها والمجاز . فهل يمكن القطع بأن الوضع الذي يعنيه البلاغيون في تعريف الحقيقة والمجاز هو الوضع الأول الذي صار من البحوث الغيبية؟ بالطبع لا .

ومل يعقل أن البلاغيين قد غفلوا عن تطور الدلالة من عصر إلى آخر ؟ إن الواقع يشير إلى خلاف ذلك كما تنطق كتب التراث البلاغي . والدليل إذا تعرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال كما يقولون .

إن كلمة « الوضع » في التراث العربي وردت بمعنىين :

١ - إن الوضع الأول : أى الصورة التى كانت عليها اللغة عند نشأتها الأولى .

٢ - الوضع العرفى : أى الدلالة الشائعة للفظ فى عرف الاستعمال لدى أوساط الناس . وهو تقريبا ما أطلق عليه فى الدراسات المعاصرة « الذبوع والتردد » .

ومبلغ على أن الاعراض موجه إلى الوضع الأول ، الذى يمثل - على حد قولهم - خوضا فى النشأة اللغوية للإنسان ، وقد يش الباحثون عموما من الوصول فيه إلى قول فصل أو قرار حاسم يشفى غليل النفس التوافقة لارتباد هذه الآفاق .

ومن الإنصاف أن نقول هنا إن القدماء حينما تحدثوا فى نشأة اللغة كانوا على وعى تام بأن هذا البحث من قبيل البحوث الغيبية التى لا طائل تحتها ، وإنما هو فقط لون من الرياضة الذهنية ، ولذلك لم تصدر عنهم آراء قاطعة فى هذا المجال بل جاءت آراؤهم مجرد حدس وتخمين ، وكل رأى منها جزعلا . كما أن القدماء لم يغفلوا عن طبيعة التطور اللغوى ، وتغير دلالات الألفاظ من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى ، بل وضعوا ذلك نصب أعينهم من منطلق إيمانهم بأن اللغة كائن حى يعترى ما يعترى سائر الكائنات من تطور ونمو ، ويخضع لما تخضع له الأحياء من قوانين وتنظيم شأن الحياة . وبكفى للتدليل على ذلك أن نذكر بعض النصوص التى تؤيد وجهة نظرنا من كتب التراث البياني . يقول عبد القاهر الجرجاني فى تعريف المجاز : « هو كل كلمة جرت بها ما وضعت له فى وضع الواضع إلى عالم توضع له ، من غير أن تستأنف فيها وضعا للملاحظة ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها » (١) .

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

فالذي تفهمه من هذا النص أن عيد الفاهر بسعة أفقه قد فطن إلى تطور الدلالة فهو يشترط لكن اللفظ مجازاً ألا يستأنف فيه وضع . أى لا يتفق الناس على استعماله في معنى جديد ، فإذا استأنف فيه وضع بأن اتفق الناس على استعماله في معنى جديد أصبح استعماله في هذا المعنى الجديد حقيقة لا مجازاً .

والزغشري في تفسيره «الكشاف» كثيرا ما يعرض لما يسميه «مجاز المجاز» ، ففي تفسير قوله تعالى : «ثم استوى إلى السماء . . .» (١) يقول : الاستواء الاعتدال والاستقامة . يقال : استوى العود ، إذا قام واعتدل ، ثم قيل : استوى إليه كالسهم المرسل : إذا قصده قصداً مستويًا من غير أن يلوى على شيء . ومنه استمير قوله تعالى : «ثم استوى إلى السماء» ، أى قصد إليها بإرادته ومشيتته ، (٢) .

فلاستواء حقيقة الاعتدال والاستقامة ، ثم نقل مجازاً إلى القصد المستوي من غير الميل إلى شيء آخر ، ثم شبه بذلك القصد الذي في الأجسام إرادة الله تعالى خلق السماء من غير إرادة خلق شيء آخر ، واستعير لها لفظ الاستواء . فهو استعارة مرتبة على مجاز في المرتبة الثانية أى مجاز المجاز .

وقد تكرر هذا المصطلح على لسانه أكثر من مرة في معجم «أساس البلاغة» ، وهذا يعني أن دلالة اللفظ غير ثابتة عند أحد معين ، بل إنها تتطور من زمن إلى آخر . ولذلك فإن الحكم عليها يختلف حسب تطور الاستعمال اللغوي ، فقد يشيع استعمال اللفظ في معنى من المعاني المجازية وتتداوله الألسنة فبوصير حقيقة يبنى على أساسها مجاز آخر . وهذا أمر شائع في ألفاظ اللغة .

والذي يقرأ تفسير «الكشاف» سوف يجد أن الزغشري يفهم بعض الكلمات على أنها حقائق . وهو الذي اعتبرها مجازات في «أساس البلاغة» . ففي مادة (خلق) يقول : «خلق الخداه الأديم والخياط الثوب قدره قبل

(١) سورة فصلت الآية ١١ . (٢) الكشاف ٣/ ٣٣٨ ، ٣٣٩ ط الحلبي .

القطع . واخلق لي هذا الثوب ، وصخرة خلفاء : ملساء وخلق الثوب خلوة . ومن المجاز : خلق الله الخلق : أوجده على تقدير أوجبه الحكمة وهو رب الخليفة والخلاتق ، فهو هنا يعتبر خلق الله الخلق ، من قبيل المجاز اللغوي - وهذا قول لاسمبيل إلى التسليم به ، ولذلك نجد أن الرعشري في تفسير قوله تعالى : الذي خلق فسوى ، يقول : . أى خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم . ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم وأنه صنعة حكيم ، (١) ، فالرعشري يفسر الخلق في الآية الكريمة على أنه التقدير والتصور المحكم الذى لاخلل فيه . وهو المعنى الحقيقي للخلق أى أنه كان على معنى بحقيقة تطور الدلالة من وقت إلى آخر ، فالجواز القديم يصير حقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها إلى الزوال والاندثار بتطور الحياة الاجتماعية للإنسان .

وعما تجد الإشارة إليه في هذا الصدد أن د الدلالة الحقيقية للفظ قد تعدد . أى أن اللفظ ينحرف من مجاله الحقيقي إلى مجال مجازى ، ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصير مألوفا ، وبعد حينئذ من الحقيقة ، وتظل تلك الدلالة القديمة ملازمة للفظ في حدود ضيقة ، ويكون للفظ دالتان أو استعمالان ، وكلاهما من الحقيقة ، غير أن إحدى الدالتين تكون أكثر شيوعا من الأخرى ، ومن النادر أن يكون للفظ الواحد دالتان مشهورتان بنفس النسبة في وسط من الأوساط ، (٢) .

ونخلص من ذلك إلى أن د الوضع الأول ، ليس هو الميار الذى تقاس به دلالة الكلمة المحكم عليها بأنها حقيقة أو مجاز في نظر البلاغيين والأصوليين فما الميار إذن ؟ إنه النوع الثانى من الوضع وهو د الوضع العرفى ، أى توطد ارتباط الكلمة بالمعنى الشائع في عرف الاستعمال . وهو ما يعنيه الشيخ

القرافي في قوله : « هو غلبة استعمال اللفظ في المعنى حتى يصير أشهر فيه من غيره » (١) .

وهذا يتفق مع ما توصل إليه اللغويون حديثاً من اتخاذ الذبوع والندرة ، مقياساً للتمييز بين الحقيقة والجاز ، فالمكلمة إذا استخدمت للدلالة على معنى شاع استعمالها فيه كانت « حقيقة » ، وإذا استعملت في معنى ندر استعمالها فيه ، أو لم يسبق استعمالها فيه كانت « مجازاً » .

وإذا كان المجاز يتحول مع شيوع استعماله إلى حقيقة لغوية ، فإن البلاغيين قد تنبهوا إلى هذه الحقيقة وأشاروا إليها في أكثر من موضع . يقول ابن الأثير : « إن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة » (٢) . ويقول العلوي : « الحقيقة قد تكون مجازاً ، والمجاز قد يصير حقيقة » ، أما صيرورة الحقيقة مجازاً ، فلأن الحقيقة إذا قل استعمالها صارت مجازاً هرفياً . . وأما صيرورة المجاز حقيقة ، فلأن المجاز إذا كثر استعماله صار حقيقة هرفية » (٣) .

ويقول الزعشمري في تفسير قوله تعالى : « قالوا إنكم تأتوننا من المين » : « قولهم : أتاه من جهة الخير وناحيته مجاز في نفسه ، فكيف جعلت المين مجازاً عن المجاز ؟ قلت من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق ، وهذا من ذلك » (٤) .

هذا وغيره يؤكد أن علماء اللغة قديماً كانوا على وعي تام بتطور اللغة على مر العصور والأجيال .

وضع الحقيقة

هو من قبيل الوضع التحقيقي ، لأن دلالة اللفظ على معناه بواسطة الوضع ، أي أنه يدل على معناه بنفسه ، لا بواسطة القرينة .

(١) تنقيح الفصول في علم الأصول القرافي ص ٢٠ .

(٢) الجامع الكبير ص ٣٢ .

(٣) السكشاف ٣/٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٤) الطراز ١/٩٩ ، ١٠٠ .

وقد قسم البلاغيون الحقيقة باعتبار الواضع إلى أربعة أقسام : لغوية ، وشرعية وعرفية عامة وعرفية خاصة ، لأن واضعها إن كان واضع اللغة ، فلغوية وإن كان الشارع فشرعية ، وإن كان العرف الشائع لدى أوساط الناس فهي عرفية عامة ، وإن كانت راجعة إلى مواضع طائفة خاصة من الناس ذوي حرفية معينة فعرفية خاصة .

فالحقيقة اللغوية : كإنسان يستعمله اللغوي في الحيوان الناطق ، وأسد يستعمله في الحيوان المفترس كما هو وضع اللغة .

والحقيقة الشرعية : كما الصلاة حين يستعملها الشرعي في العبادة المختصة .

والعرفية العامة : كلفظ ، دابة ، يستعمله المخاطب بالعرف العام في ذوات الأربع .

والعرفية الخاصة : كلفظ دفل ، يستعمل النحوي في اللفظ المخصوص وهو ما دل على حدث وزمن ، فهذا المعنى خاص بعرف النحاة .

والحقيقة اللغوية هي أصل السكل ، وكل من الشرعية والعرفية منقول عنها . وقد ذكر بعض الأصوليين أن الوضع في الحقيقة اللغوية غير الوضع في الحقيقة الشرعية والعرفية ، فإنه في اللغوية تعيين اللفظ بإزاء المعنى ، وأما في الآخرين فبمعنى غلبة الاستعمال ، فإنه لم يتقل عن الشارع أنه وضع لفظ الصلاة والصوم بإزاء معنيهما الشرعيين ، بل غلب استعمال الشارع لهما فيهما ، وكذلك لم يضع أهل العرف لفظ دلفارورة ، مثلاً لظرف من الزجاج على جهة الاصطلاح ، بل غلب استعمالهم فيه . (١) .

ومن هنا منع بعضهم إدخال الأنواع الثلاثة (اللغوية والشرعية والعرفية) في حد الوضع ، بل جعله مقصوراً على أحدها وهو « الحقيقة اللغوية » ، لاختلاف معنى الوضع فيها ، فإن التعيين غير غلبة الاستعمال .

وقد ذكر الشيخ القراني في « تنقيح الفصول » أن إطلاق الوضع على هذين المعنيين إنما هو بطريق الاشتراك حيث يقول : « الوضع يقال بالاشتراك على جمل اللفظ دليلاً على المعنى ، كتسمية الولد زيدا ، وهذا هو الوضع اللغوي ، وعلى غلبة استعمال اللفظ في المعنى حتى يصير أشهر فيه من غيره ، وهذا هو وضع المنقولات الثلاث : الشرعي نحو الصلاة ، والعرفي العام نحو الدابة ، والعرفي الخاص نحو الجوهر والعرض عند المتكلمين » (١) .

فإذا رجعنا إلى قاج الدين السبكي فسوف نجد أنه قد عرف الوضع بقوله : « هو جمل اللفظ دليلاً على المعنى » (٢) . فهذا التعريف يصدق على الوضع اللغوي والشرعي والعرفي ، خلافاً لقول القراني إن الوضع في الحقيقة العرفية والشرعية بمعنى كثرة استعمال اللفظ في المعنى بحيث يصير أشهر فيه منه في غيره . نعم يعرف فيهما بالكثرة المذكورة ، وتزيد العرفية الخاصة بالنقل عن أهل الفن والاختصاص .

يقول الشيخ السبكي : « ولناقل أن يقول : الوضع فيهما (أى في الشرعية والعرفية) كلوضع فيها (أى في اللغوية) إنما الاختلاف في سبب العلم بذلك الوضع ، ففي اللغوية الإجماع بأنه وضع لذلك ، وفي غيرها بتكررة الاستعمال » (٣) .

والحق أن سبب العلم في الحقيقة اللغوية أيضاً كثرة الاستعمال ، ويؤيده جعلهم إياها من أمارات الحقيقة ، ولهذا قال المصمم في شرح المعصية : « ولا يخفى أن معرفة الموضوع له لا تتوقف على السماع من الواضع ، بل مدار معرفته على تتبع الاستعمالات العربية .

(١) تنقيح الفصول في علم الأصول ص ٢٠ .

(٢) جمع الجوامع ١/ ٢٤٦ .

(٣) الرسالة البيانية ص ٦٣ ، ٦٤ .

وهذا هو ما يسمى بالوضع العرفي الذي سلفت الإشارة إليه منذ قليل ومبناه على كثرة الذبوع والتردد ، أى شيوع الاستعمال لدى أوساط الناس .

وهذا يؤيد ما ذهب إليه من أن « الوضع الأول » ليس هو المعيار الذى نحتسك إليه للتفريق بين الحقيقة والمجاز ، وإنما هو « الوضع العرفي » أى أى الدلالة الشائعة للفظ فى عرف الاستعمال ، وهو يتفق مع ما ذهب إليه المعاصرون من اتخاذ « الذبوع والتندرة » مقياساً للتمييز بين الحقيقة والمجاز كما تقدم .

المشترك : وما تجدد الإشارة إليه هنا وضع المشترك ، وهو اللفظ الدال على معنيين فأكثر دلالة مستوية مع قرينة معينة ، وهو يضى نتيجة تعدد الواضعين من القبايل المختلفة ، فهو موضوع للدلالة على كل من معنيه أومعانيه بنفسه ، بمعنى أنه وضع وضعين أو أكثر على وجه الاستقلال ، وهو فى كل وضع قد عين ليدل على المعنى بذاته لا بقرينه ، وعدم فهم المراد لعراض الاشتراك إلا بقرينه لا يتأفى ذلك ، فهو من الحقيقة ، وقد وقع فى استعمال المشترك فى معنوية خلاف طويل والصحيح جوازه ، وهو رأى البيانين .

وضع المجاز بين البيانين والأصوليين

ينقسم المجاز باعتبار الاصطلاح الذى وقع فيه التخطأ إلى أربعة أقسام أيضاً : لغوى وشرعى وعرفى عام وعرفى خاص .

فالمجاز اللغوى كأسد يستعمله اللغوى فى الرجل الشجاع ، والمجاز الشرعى كالصلاة يستعملها الشرعى فى الدعاء ، والعرفى العام كالعادة يستعملها المخطأب بالعرف العام فى الإنسان ، والعرفى الخاص كلفظ فعل يستعمله النحوى فى الحدث . والمجاز تابع للحقيقة فى الانقسام إلى هذه الأقسام الأربعة ، لأن المجاز فرع الحقيقة .

وقد عرف البيانون الوضع بأنه : تعيين اللفظ للدلالة على معنى بنفسه^(١) ومعنى الدلالة بنفسه أن يكون العلم بالتعيين كافياً في فهم المعنى عند إطلاق اللفظ .

فقرطوبم بنفسه ، احتراز من تعيين اللفظ للدلالة على معنى بقريئة - أى المجاز - فإن التعيين لا يسمى وضعاً في نظر البيانين . ويتضح ذلك من تعريفهم المجاز ، فهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قريئة مائنة من إرادة المعنى الأصل - فالمجاز عندهم غير موضوع لمعناه المجازي وإنما يدل بواسطة القريئة .

أما المجاز عند الأصوليين فهو : اللفظ المستعمل بوضع ثان لعلاقة بين ما وضع له أولاً وما وضع له ثانياً^(٢) . فالمجاز عندهم موضوع لمعناه المجازي .

وقد شاع هذا الخلاف بين الطائفتين حول وضع المجاز ، لدرجة أن سعد الدين التفتازاني أثبت الوضع للمجاز في التلويح مرة ، ونفاه في شرح المفتاح مرة أخرى ، وفي ذلك يقول العصام : « وما ينبغي أن ينبه عليه أن السعد أثبت في تلويحه الوضع للمجاز ، وأنكره في شرح المفتاح حيث قال : لم يثبت من يوثق به القول بكون المجاز موضوعاً ، وإنما قالوا لا بد فيه من اعتبار نوع العلاقة ، ففهم منه البعض أن هذا معنى الوضع الحقيقي ، ولم يتنبه لاشتراط عدم القريئة ، ويمكن أن يوفق بين كلاميه بأن ما في التلويح نظراً لاصطلاح الأصوليين ، وما في شرح المفتاح نظراً لاصطلاح البيانين^(٣) . »

والأصوليين أنفسهم خلاف في أن المجاز موضوع أم لا . ذكره السبكي في شرح المختصر ، لكن الشائع عنهم أن المجاز موضوع لمعناه المجازي .

(١) الإيضاح للقرطوبى ٨٥/٣ والطول ص ٣٤٩ .

(٢) جمع الجوامع للسبكي ٣٩٩/١ .

(٣) حاشية الأنيابي ص ١٣١ ، ١٣٢ .

ولا بد للتوفيق بين البيانيين والاصوليين من الإيحاء إلى ما ذكرناه سلفاً
من تقسيم الوضع ، فقد سبق أن الوضع النوعي ينقسم إلى قسمين :

١ — تحقيقي : وهو ما كانت الدلالة معه بواسطة الوضع .

٢ — تأويلي : وهو ما كانت الدلالة معه بواسطة القرينة ،

وبذلك يتبين أن الخلاف الواقع بين البيانيين والاصوليين حول وضع
المجاز خلاف لفظي ، فرجعه إلى الاختلاف في تفسير الوضع . فيحمل
الوضع في قول البيانيين لأنه ليس بموضوع على الوضع الحقيقي ، ويحمل
الوضع في قول الاصوليين لأنه موضوع على الوضع التأويلي . والوضع
التأويلي لا يكون إلا نوعياً .

فالمجاز موضوع لمعناه المجازي وضعاً نوعياً تأويلياً ، كما يقول علماء
الاصول ، ولذلك جاء تعريفهم للوضع خالياً من قيد « بنفسه » ، لأنهم
يريدون مطلق الوضع الصادق على النوعين : الحقيقي والتأويلي .

وقد سبق أن الوضع عند الإطلاق ينصرف إلى الحقيقي المقابل للتأويل
وإنما كان هو المراد عند الإطلاق ، لأن التأويل ليس بوضع حقيقة ،
واللفظ عند الإطلاق ينصرف إلى معناه الحقيقي ، وعلى ذلك ففى إطلاق
الوضع على التأويل تجاوز وتسامح ، خلافاً لمن دعى الاشتراك بينهما ، وهو
المصام في شروح الرسالة الوضعية .

هذا ، ولا يوصف اللفظ بأنه حقيقة أو مجاز إلا بعد الاستعمال ، فإذا
استعمل فيما وضع له يكون حقيقة ، وإذا استعمل في غير ما وضع له لعلاقة
وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي فهو مجاز .

وتعرف حقيقة اللفظ بالسماع من أهل اللغة الموثوق بهم ، أما المجاز
فمفروض مشروط بوجود العلاقة والقرينة المانعة ، ففى وجد شرطه صح ، وإن لم
يسبق به قائله .

وإذا كان استعمال اللفظ في معناه الحقيقي أكثر من استعماله في معناه

المجازى وجب عند عدم القرينة حمله على المعنى الحقيقي قطعاً ، لأنه الأصل ولم يوجد ما يعارضه فوجب العمل به ، وكذا إن استويا في الاستعمال فالعبارة بالحقيقة أيضاً عند أكثر الأصوليين^(١) . فلو وقف شخص ماله على حفاظ القرآن لم يدخل فيهم من كان حافظاً ونسى ، لأنه لا يسمى حافظاً إلا مجازاً باعتبار ما كان . ولو وقف على أولاده لم يدخل ولد ولده على الأصح ، لأن إطلاق الولد على ولد الولد مجاز .

وقيل : بل يحمل عليهما مما ، فيسكون حكمه حكم المشترك بين معنيين مثلاً عند عدم القرينة المعينة لأحدهما من أنه يحمل عليهما مما عند الإمام الهافعي^(٢) ، وقيل : هو حقيقة مشتركة بينهما باعتبار الوضع والعرف .

(١) جامعية الأنبياء ص ١٦٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٢٠٠ - مجلة كلية الشريعة)

القسم الرابع

الدراسات الأدبية

- ١ - الدكتور جابر عبد الرحمن سالم يحيى
- ٢ - الدكتور السيد العراقي
- ٣ - الدكتور أحمد السيد عيد
- ٤ - الدكتور محمد عبد الجواد فاضل
- ٥ - الدكتور محمد طه مصر

الإمام الشافعي بين شاعريته وشعره

بقلم الدكتور

جابر عبد الرحمن سالم يحيى

يوجد كثير من الشعراء العلماء الذين خلعت - أو كادت تغلق - شهرتهم العلمية على ما أبدعوه من الشعر ، وما أجادوه من البيان ، وربما عني الباحثون بما أنفقوه من العلم ، ولا يتجاوزونه إلى العناية بقتاجهم الشعرى الذى يظل جيشواً فى بطون كتب السير والتراجم .

ومن هؤلاء الشعراء العلماء : الإمام الشافعي (١) - رضى الله عنه - الذى خلقت شهرته الفقهية فى الآفاق ، وذاع صيته ، وانتشر مذهبه فى كثير من البقاع والأصقاع حتى قيل عنه : أستاذ الأساتذة ، وزين الفقهاء ، وتاج العلماء ، وأصدر السنة (٢) .

وهذه - بلا شك - جواذب عظيمة ، ينبغى أن يشار إليها بالبنان ،

(١) هو الإمام : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، ولد فى غزة - على الأرجح - فى سنة ١٥٠ هـ ، ونشأ فى مكة المكرمة ، وطلب العلم فيها ثم فى مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما سافر إلى اليمن حاملاً ، وإلى العراق معلماً ومتعلماً . وأخيراً استقر به المقام فى مصر ، وفيها انتشر مذهبه الفقهى ، واستمر ينفع الناس بطلعه حتى لقي ربه - جل وعلا - فى سنة ٢٠٤ هـ خلفاً لنا بعض الكتبة ومن أهمها : الرسالة والام على الأرجح . انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٤٨ وما بعدها ، تاريخ بغداد للخطيب البندادى ج ٢ ص ٥٠ وما بعدها والمحدثون من الفقهاء .

الخطيب ص ١٤٠ .

(٢) الإمام الشافعي أصدر السنة وواضع الأصول لعبد الحليم الجندى ص ٣٠٠ . وغير ذلك مما نضائق .

تقديرا لشان صاحبها ، واعترافا بمكانة من اتصف بها ، ولكن من الإنصاف - لهذا الإمام - أن يشار إليه - أيضا - على أنه شاعر مجيد ، وأديب بارع ، وآية ذلك شعره المثبوت في أمهات الكتب (١) والذي يدل على أن صاحبه - كان ذا شاعرية مبدعة ، وملسكة أصيلة ، تجيد التعبير عن خلجات النفس - وتصوير الحس ، ساعده على ذلك أمور كثيرة ، أشير إلى أهمها في :

حوامل شاعرية الإمام :

لا يخفى أن هناك عوامل كثيرة وراء شاعرية الإمام ، ولعل من أهمها :

١ - الموهبة : أنعم الله - عز وجل - على الشافعي بحظ كبير من المواهب . فقد كان قويا المدارك ، حاضر البديهة ، عميق الفكرة ، بعيد المدى في الفهم . سريع الحفظ ، يشير إلى ذلك ما روى من أنه كان يسمع المعلم - في الكتاب - يلحن النسي الآية من القرآن فيحفظها هو ، بل كان قبل أن يفرغ المعلم من الإلقاء يكون قد حفظ جميع ما أملى ، حتى قال له ذات يوم : ما يحل لي أن آخذ منك شيئا - من الأجر - (٢) .

والجدير بالذكر أن الشافعي قد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين (٣) أضف إلى ذلك ما روى من أنه قيل أن يذهب إلى الإمام مالك بن أنس (ت سنة ١٧٩ هـ) - رضي الله عنه - ليشق عليه العلم ، استمار (الموطأ) من رجل بمكة فحفظه في تسع ليال ظاهرا . ولعل في هذا كله ما يؤكد سرعة حفظه ، وحضور ذهنه .

٢ - الوراثة : لاشك في أن الدم العربي الذي كان يجري في عروق

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ص ١٥ وما بعدها ، وطبقات الشافعية للصبغي ج ١ ص ١٦١ وما بعدها .

(٢) مناقب الشافعي ص ١٥ . (٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

الشافعي كان له أثر كبير في نبوغه وبخاصة إذا علمنا أنه قرشي ومن قديم
 قيل : « ... قد علم الناس كيف كرم قریش وسخاؤها ، وكيف حقولها
 ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ... »

والعرب كالبدن وقریش روحها ، وبذوهاشم سرها ولبها ... ومعدن
 الفهم وينبوع العلم ... لم كلام يعرض في حلّ البيان ، وينقش في فصوص
 الزمان ... ولم لا يطؤون ذيول البلاغة ، ويمجرون فضول البراعة ، وأبوم
 الرسول ، وأهمم البتول ، وكلمهم قد فدى بدر الحكيم ، وربى في حجر العلم ،
 أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون ، وبلسان النبوة ينطقون ... » (١) .

ولقد أكد ذلك ابن فارس (ت سنة ٣٩٥ هـ) بقوله : « ... اجمع هذاؤها
 وكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغتهم ... أن قریشاً أفصح العرب
 ألسنة ، وأصفاهم لغة ... » (٢) .

فلا عجب إذا رأينا الشافعي - رضي الله عنه - قد أوتي فصاحة في اللسان ،
 وبلاغة في البيان ، وشدة تأثير بنبهاته ، وقوة توضيح بعباراته ، ولعل مما
 يؤكد ذلك ما روى من أن الإمام مالكاً رضي الله عنه - أراد أن يقرئته
 الموعظة على بعض أصحابه ، فعرض عليه الشافعي أن يقرأ عليه بمفنه ، فلما
 قرأ الشافعي تأثر به الإمام مالك حتى رغب في سماعه كله منه ، (٣) .

٣ - الذئبة : نشأ الشافعي في مكة المكرمة ، وذلك بعد ما رجعت به أمه
 من غزوة - سقط رأسه - لوفاء أبيه وهو صغير ، فعاش في مكة يتيمًا ، تنولى
 أمه حضنته ، وتتممه وترعاه ، وهي التي كانت ذات خدق ، وذكاة ، وقوة
 حجة يشير إلى ذلك ما قيل من أنها : تقدمت هي وامرأة أخرى مع رجل

(١) زهرة الآداب للشعرى ج ١ ص ٥٨ .

(٢) المزهرة للحيوطي ج ١ ص ٦٠٢ . (٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٣١ .

للإدلاء بشهادة أمام القاضي ، فأراد القاضي أنت يفرق بين المرأتين ،
ولكن أم الشافعي اعترضت على ذلك قائلة للقاضي : ليس لك ذلك !! لأن
الله - سبحانه وتعالى - يقول : . . . أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما
الأخرى . . . (١) فأسقط في يد القاضي ، وإنصاع لقولها (٢) ، فإذا صح
ذلك - من أم الشافعي - فلا غرابة إن بلغ الإمام ما بلغ من فصاحة وذكاء ،
وقد بما قيل : « الشيء من معدنه لا يستغرب » .

وما أحسن قول أبي بكر بن دريد (ت سنة ٤٠٠ هـ) في رثائه الشافعي
ثم أشار إلى نهايته بقوله (٣) :

أبي الله إلا رفاهه وعلوه وليس لما عليه الله واضح
وأنشأ له مذهبه من خير معدن خلأني هن الباهرات البوارع

أضف إلى ما سبق نشأته في قبيلة هذيل . وليته فيهم - كما قيل - سبع عشرة
سنة ، برحل برحيلهم ، وينزل بنزولهم ، فتعلم كلامهم ، ونهل من وردم ،
وكانت هذه القبيلة من أفصح العرب الذين نقلت عنهم اللغة العربية (٤) ، وقيل :
إن الشافعي كان يحفظ عشرة آلاف بيت لهذيل ، ومن هنا كان حجة في اللغة
لا يجارى ولا يبارى ، حتى لقد شهد بفصاحته الإمام أحمد بن حنبل (ت سنة
٢٤١ هـ) - رضى الله عنه - فقال : « كان الشافعي من أفصح الناس » ، وأكد
ذلك أيضاً الزبيح بن سليمان (ت سنة ٢٧٠ هـ) بقوله : « كان الشافعي عربى
النفس عربى اللسان » وبقوله - أيضاً - : « لو رأيت الشافعي وحسن بيانه ،
وفصاحته لعجبت منه » وغير هذين كثير (٥) .

(١) - سورة البقرة من الآية ٢٨٢ .

(٢) - تولى التأسيس بمالى ابن إدريس لابن حجر ص ٤٧ .

(٣) - تاريخ بغداد ج ٢ ص ٧١ . (٤) - المزهر ج ١ ص ٢١١ .

(٥) - انظر مناقب الشافعي ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها ، هذرات الذهب ج ٢ ص ١٠ .

معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣١٢ .

كما لا يخفى أن الشافعى قد تلقى العلم على أساتذة أجلة نهل من معينهم ،
وانتفع بعلمهم ، بالإضافة إلى عنايتهم به عندما وأوا فيه النبوغ الموكر ، ولا شك
فى أنه تأثر بهم فى ثقافته ، وفى أثناء تلمذته على أيديهم ، وقد سبق بيان طرف
من موقف الإمام مالك منه عندما ذهب إليه ، وبالإضافة إلى ذلك فهو ذا مسلم
ابن خالد (ت سنة ٥٠٠ هـ) - أحد أساتذته - يقول له - عندما بلغ الثامنة عشرة
من عمره : « أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفنى »^(١) ، فهذا القول من شيخه
يشير إلى ثبوت قدمه ، كما يدل على واسع علمه ، وبخاصة أنه يوجهه إلى ميدان
الإفتاء ، ولعمر الحق إنه لميدان جدد كبير وخطير ، ولا يثبت فيه إلا من
آتاه الله علما واسعا ، ورزقه فكرا ثاقبا ، وما كان لشيخه أن يطلب منه ذلك
لولا أنه رآه أهلا له .

٤ - الثقافة : من المعلوم أن الموهبة - وحدها - لا تكفى ، بل لابد من
تنميتها وعقلها ، وذلك لا يتأتى إلا بالثقافة واتساعها ، والخبرة وتنوعها ، وهذا
ما كان عند الإمام الشافعى ، إذ جمع بين الموهبة والثقافة ، ويؤكد ذلك ما قيل
عن أن شيوخه وتلامذته قد أجمعوا . . . على أنه كان حلما من بين العلماء
الاجارى ولا يبارى ، فلقد شغل الناس بعلمه وعقله ، وسعة ثقافته وتعددتها ،
ويزيد ذلك تأكيداً ما تركه من آثار ، من أقوال مأثورة . أو فتاوى منشورة
أو رسائل كتبها . . . أو خلاصات دونها ، أو مناقشات أقامها ، فى كل ذلك
الدليل على مقدار علمه ، ومقدار مواهبه واتساع أفقه ، وفصيح بيانه ، وقوة
جذاته ، فمكان أكبر من أديب ، وأكثر من فقيه ،^(٢) ،

ولقد تعددت روافد ثقافته ، وكان أهمها : القرآن الكريم الذى لا يخفى أثره
فى فصاحة الإمام ، وصحة أسلوبه ، إذ حفظه وهو ابن سبع سنين - كما سبق -
وكان كثير القراءة فيه ، دائم التأمل فى معانيه ، حتى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٦٤ و ٢٣ وما بعدها بتصرف .

(٢) الشافعى خبائه وعصره وآراؤه العلمية للشيخ محمد أبو زهرة .

وحكى الله عنه - : « ما رأيت أحدا أفقه في كتاب الله من هذا الفقيه القرشي » (١) والشافعي نفسه يقول : « حفظت القرآن فما عدت أنه مرّني حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد ما خلا حرفين . . » (٢) أضف إلى ذلك أنه كان إذا قرأ القرآن الكريم أبكى سامعيه حتى قال عنه بعض من جالسه : « كنا إذا أردنا أن نبكى قال بعضنا لبعض ، قوموا إلى هذا الفقيه المطلبي ، نقرأ القرآن فإذا أنشأه استفتح القراءة حتى يتساقط الناس بين يديه ، ويكثر هجيجهم بالبكاء ، فإذا رأى ذلك أمهك من القراءة » (٣) .

كما كان للحديث النبوي الشريف أثر كبير في ثقافة الإمام الشافعي ، إذ كان يحفظ منه الكثير ، حتى أصبح خبيرا بقواعده ، وبصيرا بمراتبه ، ويؤكد ذلك الذهبي (ت سنة ٧٤٨ هـ) بقوله عن الشافعي : « كان حافظا للحديث بصيرا بعلمه لا يقبل إلا ما ثبت عنده ، ولو طال صرعه لآزدا منه » (٤) ويؤكد ذلك تاجيد الإمام أحمد بن حنبل بقوله : « كان محمد بن إدريس الشافعي أفقه الناس في كتاب الله - عز وجل - وفي سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وما كان يكفيه قليل الطلب في الحديث » (٥) ، وقيل عنه أيضا : « كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل ، وأوتي علم الحديث ، وضبط قواعد السنة ، وفهم مراميها ، والاسقهاد بها » (٦) .

ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا الشافعي يشير إلى منزلة القرآن والحديث والفقه - الذي ينبغ في مسائله - بقوله (٧) :

كل العلوم سوى القرآن مشقة إلى الحديث وعلم الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين

-
- (١) مناقب الشافعي ج ١ ص ١٩ . (٢) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٦٣ .
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦ . (٤) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٣١ .
(٥) المرجع السابق . (٦) مناقب الشافعي ج ٢ ص ٢٠ .
(٧) ديوانه بتخقيق د . محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٣٤ .

وقيل : « أخذ الشافعي في روايته العلمية كذلك من آفاق واسعة فروى عن الرجال وروى عن النساء كالسيدة نفيسة بنت الحسن العلوية (ت سنة ٥٠٠ هـ) وكما روى عن أصحاب الحديث الحجازيين ، وأصحاب الرأي العراقيين . زوى عن غيرهم من أصحاب المقالات فكان له شيخان من المعتزلة ، أصحاب العقل الحر ، ولذلك التنوع كله أثره الذي يستبينه في جلاء من يقف لتحليل شخصية الشافعي ، (١) .

وإذا كان الفقه هو الرافد الثالث - بعد الكتاب والسنة - للثقافة الشافعي ، فإن الشعر يعد الرافد الرابع ، إذ حفظ منه الكثير وبخاصة في شعر هذيل - كما سبق - ما زاده تمسكنا في اللغة ، حتى قيل : إن الأصمعي الأديب اللغوي الراوية (ت سنة ٢١٦ هـ) قرأ ديوان الهذليين على شاب من شباب قریش يقال له : عماد بن إدريس الشافعي ، كما قرأ عليه شعر الشنفرى (٢) وبالإضافة إلى ذلك كان ذا علم بالأسباب وأيام العرب والأخبار . والنوادر ومن هنا اتسعت ثقافته بتمدد مصادرها ، وتنوع روافدها ، ولذلك قال عنه داود الظاهري (ت سنة ٢٧٠ هـ) : « للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه وسكانة دينه ومعرفته ، وسخاوة نفسه ، ومعرفة بصحة الحديث ومقبهه ، وناسخه ومنسوخه ، وحفظه الكتاب والسنة وميرة الخلفاء وحسن التصنيف » (٣) ، كما شهد الجاحظ (ت سنة ٢٥٥ هـ) بهرايته في تأليفه ، وجودته في تصنيفه بقوله : « نظرت في كتب هؤلاء النبعة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبى - الشافعي - كأن كلامه ينظم درا إلى در » (٤) .

ولقد أدرك الشافعي قيمة الثقافة وتنوعها ، ولذلك يرغب في الإقبال

(١) المجددون في الإسلام ، لشيخ أمين الخولي ص ٧٥ وما بعدها بتعريف .

(٢) مناقب الشافعي ج ٢ ص ٤٥ . (٣) مناقب الشافعي ج ١ ص ٩٠ .

(٤) للرجع السابق .

عليها ، والنزود منها بأحسن زاد فيقول : د من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر في الفقه نبه قدره ، ومن نظر في اللغة رقى طبعه ، ومن نظر في الحساب جزل رايه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه (٢٠) ويؤكد الربيع بن سليمان (ت سنة ٢٧٠ هـ) أن مجلس الشافعي في العلم كان جاعلا للنظر في كثير من العلوم فيقول : د كان الشافعي - رحمه الله - يجلس في حلقة إذا صلى الصبح فيجيشه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث ، يسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للذاكرة والنظر فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار (٢١) وقريب من هذا قول يونس بن عبد الأهل (ت سنة ٢٦٤ هـ) : د كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الفقه قلت : هو بهذا أعلم (٢٢) .

وذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا عندما ذكر (٢٣) أن ثقافة الشافعي « تجاوزت هذه المناطق الدينية من حديث وفقه ونحوهما ، والمناطق الأدبية من لغة وشعر ، وتاريخ إلى مناطق أخرى دنيوية ، روى قوله عنها ، في حديث له مع هرون الرشيد (ت سنة ١٩٣ هـ) حين حمل إليه بتهمة العلوية ، فجرى بينهما من الجواب والمساءلة ما لو صح لسكفانا في رسم دائرة ثقافة الشافعي الواسعة إلى حد بعيد ، فقد سئل عن علمه بكتاب الله وعلوم القرآن ، ثم سئل عن علمه بالسنة ثم عن العربية وعن الأنساب ، وعن الأحكام وعن النجوم ، بل سئل كيف علمه بالطب فذكر ما قالت الروم واليونان :

(١) مناب الشافعي ج ١ ص ٩٣ .

(٢) معجم الأديان ص ١٧ ، ٣٠٤ .

(٣) مناب الشافعي ج ١ ص ٩٣ .

(٤) المجددون في الإسلام ، ص ٧٧ بتصرف .

أرسطو ليس وبقراط - وجالينوس . . . وهي أسماء لعلماء لم تكن بعد قد
راجت وشاعت ، إذ لم تقو العناية بالترجمة في عهد الرشيد الذي جرى هذا
الحديث - في روايتهم - بينه وبين الشافعي كقوة تلك العناية بالترجمة في عصر
ابنه المأمون (ت سنة ١٩٨ هـ) . . . وذكر الشافعي في هذا الموضع - من
المحادثة - ما نقله أطباء العرب ، وقتننه فلاسفة الهند ، ونحته علماء الفرس . .
وفي كل حال ، مهما يكن في رواية هذه المسألة بين الرشيد والشافعي من
موضع للنظر فإنها تقدم للمتحدث من المجددين في الإسلام ، صورة وضيئة
لشخصيات العلماء منهم عند الأقدمين أنفسهم ، وما تمثلوه من تكامل شخصيات
أولئك المجددين العلماء وكيانهم الثقافي ، ونصيبهم من جواهر الثقافة المختلفة
التي تتلاقى جميعها في تكويهم . . . (١) ،

ولا يخفى أن هناك رافدا من روافد الثقافة ، ويلبوعا من ينابيع العلم ،
كان الإمام الشافعي قد وضعه نصب عينيه منذ الصغر ، إنه تقوى الله تعالى
علا بقوله - تعالى - : « واتقوا الله ويعلمكم الله . . . » (٢) ولقد نصحه أحد
شيوخه وهو وكيع (ت سنة ١٦٨) بترك المعاصي مبينا له أن العلم نور وهذا
النور لا يرزقه الله طاعيا ، وهذا ما سجله الإمام في شعره بقوله (٣) .

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

ومن هنا كان الشافعي يحامد نفسه ، ويراقب ربه ، وبخاصة عندما أوصاه
الإمام مالك بن أنس - عندما التقى به أول مرة - بقوله : « اتق الله
واجتنب المعاصي ، فإنه سيكون لك شأن من الشأن . . » ، فلا حجب إذا رأينا
الشافعي يكبح جماح نفسه ، فيقرر أنه : ما شبع منذ ست عشرة سنة إلا شعبة

(١) المرجع السابق الصفحة ثلثها . (٢) سورة البقرة من الآية ٢٨٢ .

(٣) ديوانه ص ٥٤ .

خطرحتها ، لأن الصبح يثقل البدن ، ويقسى القلب ، ويزيل الغلظة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة (١) .

هذا هو منهج الشافعي مع نفسه حزم وعزم ، وورع وزهد ، ويؤكد ذلك ابن خلسكان بقوله : « قد أجمع العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته - أي الشافعي - وأمانته وعده وزعمه ، وورعه ، وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه ... » (٢) .

ولا يخفى أن أثر ذلك كله قد ظهر في شعره ، إذ أشار فيه إلى أن الحياة الحقيقية للإنسان أساسها العلم والتقوى ، فإذا فقد أحدهما فلا قيمة لصاحبه (٣) :

وذا تفتى - واقف - بالعلم والتقى

إذا لم يكن كما لا اعتبار لدار

٥ - رحلاته : للرحلات فوائد كثيرة ، فهي - كما قيل - تفتق الذهن ، وتزهد النفس ، وتعطى الفكر مادة من الصور توضع صورة وتفتح له سالك من الفروض العقلية والمخائل الواقعية (٤) ومن هنا فأنما كبر في ثقافة الإنسان ، وتسمية مداركه ، وزيادته خبرة وحسنة .

واقف كانت الشافعي رحلات متعددة . وأسفار كثيرة ، منذ صغره ، إذ رحل إلى البادية صغير ، وأبث في هذيل سنين عددا ، فأفاد خبرة من بعض القبائل العربية ، وعادتهم بالإضافة إلى لغتهم ، كما رحل في طلب الحديث والفقه في المدينة المنورة ولازم الإمام مالك مدة من الزمان ، ثم ذهب إلى العراق أكثر من مرة والتقى فيها بإمام الحسن (ت سنة ١٨٩ هـ) صاحب الإلمام أبي حنيفة رضي الله عنه (ت سنة ١٥٠ هـ) ، أضف إلى ذلك رحلته إلى اليمن

(١) مناقب الشافعي ج ٢ ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٠٩ . (٣) ديوانه ص ٢٩ .

(٤) الإمام الشافعي ص ١٩ .

التي يتولى بعض أعمال ولايتها ، وأخيراً رحلته إلى مصر ، واستقراره فيها وفيها نشر مذهبه الجديد ، وذاع صيته ، وبها كان مثواه .

ولا شك في أن الشافعي قد أدرك فائدة هذه الأسفار ، ولولا ذلك ما رغب فيها ولا تحمل مشقتها ، في سبيل تحقيق مراده ، وما مراده إلا طلب المزيد من العلم فيقول (١) :

سأضرب في طول البلاد وعرضها : أنال مرادى أو أمسوت غريبها
فلن تلقت نفسى فلا درها وإن سلت كان الرجوع قريبها

٦ - عصره : عاش الشافعي ما يقرب من أربع وخمسين سنة (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) وذلك في العصر العباسي في مدة استقر الأمر فيها لهذه الدولة ، فازدهرت العلوم والآداب وتعددت الثقافات ، إذ وجدت ثقافة عربية خالصة ومصدرها القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والأدب العربي بالإضافة إلى بعض العلوم الأخرى التي لها صلة باللغة ، كما وجدت ثقافة شرقية وتشمل ما أخذ عن الفرس والهنود إذ كان العرب قد اختلطوا بأهل هذه البلاد عن طريق التجارة من ناحية والفتوحات الإسلامية من ناحية أخرى ، وهذا من شأنه تبادل المعرفة وترجمة الكثير من كتبهم ومعارفهم إلى اللغة العربية وبخاصة في الأدب وفنونه ، بالإضافة إلى الثقافة اليونانية وأكثرها كان يدور حول علوم الطب والرياضة والفلك والفلسفة .

ومن الجدير بالذكر أن المجتمع في هذا هذا العصر قد تشكلت فيه شعوب مختلفة الأجناس متعددة الأمشاج ، فكانوا ذوي عقليات وثقافات متنوعة ، كما كان من بينهم من دان بالإسلام ظاهرياً ، ومنهم من دان به وانقلب لفرقة معينة ومطابقة خاصة كالشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرهم ، بل كانت فرق أخرى تأثرت بديانات أخرى تأثراً له خطره الكبير على الإسلام وبخاصة أن العباسيين منحوا الناس حرية واسعة في غير ما يتصل بالسياسة ، فأباحوا

لهم حرية الفكر . وتسامحوا معهم في عقد مجالس للمناظرة والمجادلة في شئون الدين ، فانخذ بعضهم من هذه الحرية سيلا إلى نشر ما كانوا يخفونه من مبادئ خاطئة وتعاليم فاسدة ، فظهرت الزندقة وانتشر الإلحاد^(١) إلا أن خلفاء بني عباس وقفوا في وجه هؤلاء الزنادقة ، كما وقف العلماء في وجوههم بالحجة الدامغة .
وبعد :

فهذه العوامل تعد من أهم العوامل التي ساعدت في نبوغ الإمام الشافعي الشرعي فكان كما قيل : من أشعر الناس وأدب الناس وأعرفهم بالقراءات^(٢) ، وشاعرا مفلحا مطبوعا^(٣) وهذا يتضح من الوقوف مع بعض أشعاره والأغراض التي مالجها فأجاد وأقاد وحقا ، كان الشافعي كما قيل^(٤) :
للشافعي أجمل الناس منزلة وأعظم الناس في دين الهدى أثرا
العدل سيرته والصدق شيمته والسحر منظومه والبر إن ثرا
شعر الإمام الشافعي :

ومن يقف على ما حفظته لنا بعض كتب التراجم من شعر الإمام الشافعي يجد عدة أمور أهمها :

١ - أن شعر الإمام - في أكثره - مقطوعات قصيرة ، ولا ضيف في ذلك ؛ فيمكن أنها تسجل خواطره وأحاسيسه تسجيلا صادقا ، كما يبين فيها عما كان يجيش في صدره ولكن النفس تقسام : أصاح أكثر شعره ، فلم يبق إلا القليل ؟ أم إنه وجه جل اهتمامه إلى الفقه ، فغفل به عن غيره . أم إنه رأى الشعر لا يتلاءم وأخلاق العلماء فانصرف عنه وخاصة أنه أشار إلى مثل ذلك في قوله^(٥) .

-
- (١) الأتاني ج ٣ ص ١٤٥ ، ضحى الإسلام ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها في الإسلام ص ٩٨ وما بعدها والحيوان ج ٤ ص ٤٤ ، تاريخ الطبری ج ٣ ص ٨٨ وما بعدها .
(٢) مجمع الأدباء ج ١٧ ص ٣١ (٣) شذرات الذهب ج ٢ ص ١٠ .
(٤) معرفة السنن والآثار ج ١ ص ١٤٩ .
(٥) وفیات الأعيان ج ١ ص ٤٤٨ .

ولولا الشعر بالعلماء يذرى لكانت اليوم أشعر من إلبيد

الراجح الذى تميل إليه النفس أنه اشتغل بالفقه عن غيره ، أما قوله :
(ولولا الشعر ٠٠٠) فلا يدل على كراهيته للشعر وإنما يشير إلى أخلاق
بعض الشعراء التى لا تتفق مع جلال العلم ومكانة العلماء ، ولعل ما يؤكده
ذلك قوله عن الشعر : « الشعر كلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح
الكلام ، غير أنه كلام باق سائر ، فذلك فضله على الكلام » (١) .

بل إن الإسلام ليتحدث عن الشعر وفنيته في ثانيا ، يتناوله من علم الدين
الشرعى ، والدليل على ذلك أن يعقده فصلا في كتابه الأم ويجعل عنوانه
« شهادة الشعراء » ، يوفى فيه - كما قيل - على حديث خبير عن الصدق الفقى ،
وعمل الشاهر الوجدانى ، إذ يقول : « وإن كان - الشاعر - إنما يمدح
فيصدق ويحسن الصدق ٠٠٠ » ثم يضم إليه : « ومن يفرط في الصدق بما لا يتضمن
أنس يكون كذبا » ، ويحكم فيهما بأنه لا ترد شهادة واحد منهما ، فهو
بهذا يرى أن الصدق الفقى لا تقصد به مروءة ، ولو كان مدحا حتى إذا ما فرط
في الصدق الخلقى بما لا يعد كذبا معناه (٢) .

ولا شك في أن هذا الاتجاه من الإمام الشافعى يشير إلى أنه كما قيل :
« لا يؤتمت نزمت غيره من الفقهاء ، فيشكر شعر العاطفة والقلب ، بل هو
غيره » (٣) ويقول : « ومن شيب ظم يسم أحدا لم ترد شهادته » (٤) فهذا قول
فقيه في الشعر أواخر القرن الثانى الهجرى ، وهو يتلو مع الناس آيات سورة
الشعراء المعروفة « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون
وأنتهم يقولون مالا يفعلون ٠٠ » (٥) .

(١) الأم ج ٦ ص ٢٢٢ . (٢) المجددون في الإسلام ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٩١ . (٤) الأم ج ٦ ص ٢١٢ .

(٥) سورة الشعراء الآيات ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

فهذا هو رأي الشافعي في الشعر وهو - كما قيل - : «الرأي الإسلامي الصحيح»^(١).
ولعل مما يؤكد ذلك ما ذكره ابن رشيقي^(٢) من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنما الشعر كلام . مؤلف قسا وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه ، وقوله : «إنما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب» وقالت عائشة - رضى الله عنها - : «الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، نخذ الحسن وأترك القبيح» .

٢ - أن الإمام قد نظم شعره على كثير من بحور الشعر العربية تامة ومجروها ، بالإضافة إلى أن قافيته قد بنى رويها على كثير من حروف الهجاء ، ولا شك في أن هذا يدل على قدرة الإمام الشعرية ويؤكد ذلك ابن رشيقي بقوله : «وأما محمد بن إدريس الشافعي فكان من أحسن الناس افتنانا في الشعر»^(٣) ولولا أنشغاله بالفقه لترك لشاعريته العنان ، خلقت في كل الانثان وتبوات بين الشعراء أعلى مسكاته ، وقيل : «كان رضى الله عنه مع جلالة قدره شاعرا مطلقا مطبوعا»^(٤) .

٣ - أن شعر الإمام اشتمل على أغراض شريفة ، وأفكار لطيفة ، ليس فيها تملق في مدح ، أو تبذل أو مجون ، أضف إلى ذلك أنه لا يشم فيها رائحة الحزن على الرغم من شيوع كل ذلك في عصره ، مما يشير إلى أنه قد استمد شعره من معين خاص يثيق مع دينه وخلقه ، ومبادئه ، وتجاربه العميقة بالحياة والأخياء . كما يدل على نفسه أصدق دلالة ، ويوضح أن الحياة الإسلامية قد صبغت حياته كلها ، وجعلته يصدر عنها في سلوكه وفي أدبه وشعره ، ومن هنا حرص الإمام كل الحرص على أن يضمن شعرة الضمائم الخلقية والفكرية التي تحمل بها ، أو استشراف إليها ، أو تخليها مثلا علا ،

(١) دراسات ونصوص في الأدب العربي ، د : محمد مصطفى هدارة ص ١٦٤ .

(٢) أمدة - ١ ص ٢٧ (٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٠

(٤) هذرات الذهب لابن المهدي الخليل ج ٢ ص ١٠ .

وبالإضافة إلى ذلك كانت له مقطوعات أخرى في كثير من أغراض الشعر التي كانت معروفة في عهده كالقول والعتاب والزنا والشكوى من هموم الحياة وسوء معايشة بعض الناس والمدح، ولكنه ظل كما قلت يدور في إطار الحكم والهدم والحرص على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ولذلك إذا مدح مدح من يستحق، وإذا أنى أنى على من هو أهل للثناء مثل قوله في أبي حنيفة رضي الله عنه^(١) :

لقد زان البلاد ومن عليها إمام المسلمين أبو حنيفة
باحكام وآثار وفقهه كاياك الزبور على الصحيفة
غما بالمشرقيين له نظير ولا بالمغربين ولا بكوفة
فرحمة ربنا أبدا عليه مدى الأيام ما قرئت صحيفة
وفي أعزاه بنفسه، وبعده عما يشين، وحرصه على ما يزين يقول^(٢) :

على ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلاس فريدا
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها نفوس الودى كانت أجل وأكبرا
وماضى فصل السيف أخلاق غده إذا كان عضبا أين وجهه فرى
ويشير إلى قناعته التي أهداها سبيلا إلى مرته وإيائه فيقول^(٣) :

أمت مطامعي وأرحمت نفسي فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا في أحيائه عرض مصون
إذا طمع ألم بنفس عين علته مذلة وهلاه هون
وكثيرا ما حث على صيانة النفس والبعد عن كل ما يجلب لها العار أو الشغار بمثل قوله^(٤) :

صن النفس وأحملها على ما يزينها تعش سالما أو القول فيك جميل
ولا تولين الناس إلا تجملا نياك دهر أو جفاك خليلا

(٢) ديوانه ص ٨٢

(٤) المرجع السابق ص ١٠٤

(١) ديوانه ص ٦١

(٣) المرجع السابق ص ١٢١

ثم يبرز على بعض صفات الصديق ، مبيّنا بعض صفات الناس المتلونين
في أخلاقهم الخريصين على مصالحتهم فقط :

ولا خير في ود امرئ متلون إذا الريح مالت حيث تميل
وما أكثر الإخوان حين تعدم ولكنهم في الثابتات قليل

ويشير إلى إمام بعض ما انتشر بين الناس من وصف الزمان بالعيب والعيب
في الناس لا في الزمان (١) :

فعب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
ونهر زماننا بغير جرم ولو فلق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب وبأكل بعضنا بعضا هيانا

وفي التسليم لقضاء الله والرضا بحكمه ، والصبر عند الشدائد يقول (٢) :
دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الأملى فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدا وشيمتك السياحة والصفا

وقال مينا فصل التقوى وأنها خير زاد (٣) :

يريد المرد أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أراد
يقول المرء فادنى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا
كما بحث على السعى والتوكل على الله ، وعدم الركون إلى مخلوق مهما كان
شأنه فيقول (٤) :

إن الملوك بلاه حينما حلوا فلا يكن لك في أبوابهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
فاستغن بالله عن أبوابهم كرها إن الوقوف على أبوابهم ظل

(٢) ديوانه ص ٤٦

(١) المرجع السابق ص ١١٧

(٤) المرجع السابق ص ١٠٩

(٣) المرجع السابق ص ٧٤

ويؤكد ذلك بقوله (١) :

توكلت في رزقي على الله خالقى وأيقنت أن الله لاشك رازقى
ومالك من رزق فليس يفوتنى ولو كان في قاع البحار المواقى

ويقول في حب الصالحين ومدى تعلقه بهم ، ونفوره من أهل المعاصى
والبعد عنهم (٢) :

أحب الصالحين ولست منهم لعل أنى أنال بهم شفاعه
وأكره من تجارته المعاصى ولو كنا سواء فى البشاعة
ومن الجدير بالذكر أن الإمام لم يكن يعمل عما يجرى فى هذه من
بعض الفرق التى كانت تلتصق بالخلفاء الراشدين قبل الإمام على كرم الله
وجبه ورضى عنهم جميعا وبخاصة بعض الشيعة ، فيقول الإمام الشافعى (٣) :

شهدت بأن الله لا شىء غيره وأشهد أن البعث حق وأخلص
وأن هرى الإيمان قول بين وفعل زكى قد يزيد وينقص
وأن أبا بكر خليفة ربه وكان أبو حفص على الخير يحرص
وأشهد ربي أن عثمان فاضل وأن عليا فضله متخصص
أئمة قوم يهتدى بهداهم لعل الله من إمام يتفص
فما لعناء يشهدون سفاهة وما لم فيه لا يجيب فيحرص

ولقد تصارعت بعض المذاهب فى موضوع الجهر والاختيار ، فأكد
الإمام مذهب أهل السنة بقوله (٤) :

ما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت إن لم تقا لم يكن
خلقت العباد على ما علة ففى العلم يجرى الفتى والمن
فمنهم شقى ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم أحسن
على ذا منلت وهذا خذل ومنهم أعنت وهذا لم تعن

(٢) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٤) المرجع السابق ص ١١٨ .

(١) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٣) ديوانه ص ٨٨ .

كما حث الإمام كثيرا على العلم مبيّنا منزلة العالم بين الناس وذلك عن طريق المطابقة الجميلة في قوله (١) :

تعلم فليس المرء يولد عالما وليس أخو علم كن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه الجاهل
وإن صغير القوم إن كان عالما كبير إذا ردت إليه الجاهل

بل إنه ليبين في وضوح أنه كلما تعلم وازداد علما وقف على كثير من أمور لم يكن يعلمها (٢) :

كلما أدبى الذهب ر أرانى نقص عقلى
وإذا ما ازددت علما زاذنى علما يحوملى

هذا قليل من كثير من أغراضه التي وقف معها وعالجها أما أسلوبه فهو أسلوب بعيد عن الرقابة التي نصحها كثيرا في شعر العلماء ، ولكن - كما قيل - لا نجد هذه الظاهرة في شعر الشافعى أو على الأقل في معظمه (٣) .

ولقد وجدناه يعالج موضوعات عميقة كالجزر والاختيار بشاعرية مرهقة ، إلا أن هناك بعض الآثار بطبيعة الحال تشير إلى حقيقة كونه نقيها ولكنها لليلة مثل لفظ (القياس) في قوله (٤) :

صديق ليس ينفع يوم بأس قريب من عدو في القياس

كما وجدت بعض العبارات التقريرية ولكنها قليلة ، ولكن في الغالب الأعم يبقى الشافعى الأديب بعد ذلك كله أصالة ونصاعة بيانه وروعة أسلوبه ووضوح أسكاره ، وبهذا كل البعد عن الغموض .

ويكفى أن شعره قد اشتمل على دروس وعبر تأخذ بأيدي الناشئة إلى النهج

(١) المرجع السابق ص ١٠٥ . (٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٣) دراسات في الأدب والنصوي ص ١٦٧ .

(٤) ديوانه ص ٨٥ .

القوم ويجد فيه السكول غذاء روحيا يزيد من قربا من العراط المستقيم ،
وحبا في الزهد والورع .

الحكمة في شعر الإمام :

وإذا كان شعر الإمام الشافعي يدور حول الحكمة غالبا ، فلا حجب في
ذلك فمشر الحكمة كما قيل : « هو الذي يجمل بالفقهاء ، وهو أولى بالائمة » .
والملاحظ أن الحكمة في شعر الإمام ليست وليدة الفكر المتعمق أو
الفلسفة المبعدة غالبا ، وإنما هي ثمرة قراءاته المتمثلة في القرآن الكريم
والحديث الشريف والشعر العربي بالإضافة إلى التجارب التي أحدها متجاوبا
فيها مع ماسبقه من تجارب الآخرين ثم يصرغها في سهولة ويسر ، ولذلك
يفهمها القارئ دون كد ذهن ، أو إعمال فكر .

ومن الجدير بالذكر أن حكم الإمام مطبوعة بالطابع الديني الواضح ،
وهي بذلك تتفق مع حياته - التي سبق الحديث عنها - فشعره صورة صادقة
لحياته كفقيه متدين ، ومن هنا نجد أكثر حكمته يرتدى ثوب الزهد ، ويدور
حول الثقة في الله سبحانه وتعالى والتوكل عليه ، والرجوء إليه والحرص على
مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، ففي هذه المعاني تحتلط الحكمة المرسله
بالتصح الموجه والإرشاد القويم^(١) .

ولقد ذكر بعض الكتاب^(٢) أن شعر الحكمة - في القرن الثاني الهجري -
بدأ بتطور إلى شعر فلسفي خالص نجده في بيتات المتكلمين على الأخص
في مثل شعر شر بن المعتز (سنة ١١٠ هـ) ولا سيما في قصيدته التي جمع
فيهما - كما قال الجاحظ - سنة ٢٥٥ هـ - كثيرا من هذه الغرائب والقوائد

(١) انجماوات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د . مصطفى هادي

٤٥٢ وما بعدها بصرف

(٢) الحيوان ج ٦ ص ٢٨٤

ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والمواعظة البليغة (١).
 كما يتضح لنا هذا الشعر الفيلسفي في آيات سليمان الاعشى أخى مسلم بن
 الوليد ومنها قوله :

| | |
|---------------------------|----------------------|
| إن في ذا الجسم معتبرا | لطلوب العلم مقتبسه |
| هيكل الروح ينطقه | هرقه والصوت من نفسه |
| ... لا تعظ إلا اللبيب لما | يبدل الضلع على قوسه |
| رب مفروس يماش به | فقدته ككف مفرسه |
| وكذاك الدهر مائمه | أقرب الأشياء من عرسه |

مكذا تطور شعر الحكمة - إذن في القرن الثاني - ، فبعد أن كان خطرات
 منتشرة في الشعر القديم ، صار له شعر متخصصون ، وقصائد مقصورة عليه ،
 كما اشتهت معانية باتساع آفاق الثقافة في هذا العصر ، وباتصالها بأداب وحكم
 وأمثال الأمم الأخرى من فرس وهنود ويونان ... ومع انتشار الثقافة
 الفلسفية أخذ شعر الحكمة يتطور ، ويتخذ هذا السميت الفيلسفي الذي نجده
 في شعر المتكلمين أو من يلوذ بهم (٢) .

أما القيمة الفنية لشعر الحكمة فيفنى - كما قيل - : د ضئيلة للغاية لأن مثل
 هذا الشعر ينجح إلى ناحية عقلية محدودة ، قليلة الحظ من الشعور العاطفي
 والوجداني ولهذا يجهل الإنسان عقله عند قراءته ولا يحس بأى تهاوب
 عاطفي معه ، شأنه في ذلك شأن الشعر المذهبي (٣) .

بل لقد ذهب هذا الكاتب إلى أن غاية ما يقال في هذا النوع من الشعر
 أنه ضرب من النظم الذهنى فيه ناحية تعليمية عظيمة القيمة ، ولكنه ليس

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩٦ .

(٢) انجماوات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى ص ٤٥٢ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

بالشعر الذى يكون الشعور مداره ، والمحافظة أساسا فيه . . . ثم أكد حديثه بقوله : « وقد صدق ابن رشيقي (ت سنة ٤٥٦ هـ) حين قال : ، فلا يجب للشعر أن يكون مثلكه وحكمة كشمس صالح بن عبد القدوس (ت سنة ٦٧٧ هـ) فقد قدم به من أصحابه وهو يقدمهم فى الصياغة لا كثارة من ذلك ، »

وأرى أن هذا الحكم لا ينبغي له أن يعمم على أشعار الحكمة ، فقد يوجد شعر اشتمل على حكمة قائمة على أساس كبير من الخيال وجواب لا بأس به من الوجدان ، فمثل هذا الشعر جدير بأن ينظر إليه نظرة خاصة ، ولعل شعر الإمام من هذا النوع الذى عرج فيه صاحبه على رياض الشعر ، وغرس فيها بذور الحكمة أينعت ثم أثمرت قولا وبيانا فيه هداية للناس ، كل هذا من إنسان ذاق من الدنيا حلوما ومرها ، وخرج منها بتجارب وعظات ومن قرأها يتأثر بها ، ولا يمل من سماعها ، بل يكررها ولا يمل من تكرارها ، لأنها فى واقعها أضواء على كثير من مشكلاتنا التى نعانىها وتتألم منها ، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ قال : (إن من البيان لسحرا) وإن من الشعر لحكمة (١) .

ولعل ما يؤكد ذلك قول بعض الكتاب : « لقد ذكرنا . . . أن الشعر تعبير عن عاطفة لا تسجيل لقضايا عقلية . . . ونحن مع هذا نعتبر أن ما يسمى بالحكمة من صميم الشعر ولا تناقض فى رأى ، لأن الحكمة كما نفهما هى : موقف من الحياة ينطوى دائما على شحنة عاطفية ، إنها تجارب يتلقاها الشاعر من الحياة ومن الأحياء مباشرة ، ولا ينتزعها انتزاعا من الكتب ، والحكمة يودعها الشاعر شعره كالآمال المامية تحمل من الطاقة العاطفية ما يجعلها شيئا آخر غير التفكير الفلسفى والقضايا العقلية والمنطقية ، وموضع هذه الأخيرة هو النشر فى مؤلفاته المختلفة ، أما موضع الأولى فهو الشعر ، والتفرقة بين الحكمة بهذا المعنى وبين الفلسفة أو الأحكام العقلية أمر دقيق لا يمكن أن تقام

فيه الحدود الفاصلة ، ومثال الحكمة في الشعر العربي ما جده مثنياً في ديوان المتنبي (ت سنة ٥٠٠ هـ) منها ، وهي منزلة حاول الشعراء المتأخرون بلوغها ، ولكن أكثرهم وقع دونها ، كما أن شعر التصوف ينطوي على كثير من الحكمة ولكنها حكم كانت خلاصة تذوق وتجارب حتى ولو كانت أصولها الأولى قائمة على مذهب عقلي (١)

ديوان الإمام الشافعي :

يبدو أنه لم يكن الإمام الشافعي ديوان شعر خطه في حياته وأهل علم يرجح ذلك أن من ترجموا له بعد وفاته لم يشير إلى أن له ديوان شعر وإنما كانوا يذكرون بعض أشعاره .

ومما يمكن من شيء فيبدو أن بعض الكتاب وقف على بعض ما في كتب التراجم وغيرها من شعر نسب إلى الإمام فجمعه . وجعله في ديوان يحمل اسم الشافعي ولكن لا يدري من أول من قام بهذا العمل ، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن شعر الإمام متفرق في المناقب كتناقب الرازي ونحوها وفي كتب الطبقات كطبقات الشافعية وسواها ، وفي كتب التاريخ كتاريخ بغداد . . . ثم يقول : « وقد جمع منه أحد معاصرينا سنة ١٩٠٣ ، سماه : الجوهر النفيس في أشعار الإمام بن إدريس ، ورتبه على حروف المعجم في قوافيه ، وبقيت بعد ذلك مقطوعات لم يستوفها . . . وأهل أهدأ يخرج لاستيفاء ذلك الجمع ، ويخرج ذلك الديوان الخاص للشافعي الشاعر (٢) .

ولعل هذا الأمل المنشرد قد تحقق كله أو بعضه وذلك عندما أقبل بعض المشتغلين بالأدب على شعر الإمام وأولوه عنايتهم فكان هذا الديوان الذي

(١) ابن سناء الملك د ، عهد العزيز الأيوبي ص ١٤٨ وما بعدها بتصرف .

(٢) المجددون في الإسلام ص ٩٣ بتصرف .

يحمل اسمه ، وطبع عدة طبعات ، ونشر عدة مرات (١) .

ولاشك في أن من قام بهذا العمل قد بذل جهداً يشكر عليه ، وقام بعمل طيب يؤجر عليه ، إلا أن الملاحظ على هذا الديوان أنه لا يضم كل ما نسب إلى الإمام الشافعي من شعر ، إذ هناك أبيات في بعض كتب التراجم نسبت إلى الإمام ولكنها لم توجد في هذا الديوان - كما سنأتي - كما أن هناك أبيات في بعض كتب التراجم نسبت إلى الإمام وإلى غيره من الشعراء - كما سنأتي - ومن هنا تفاوتت طبعات الديوان المتعددة طويلاً وقصراً بالإضافة إلى الاختلاف في عدد أبيات بعض المقطوعات ، بل يوجد اختلاف أيضاً في ترتيب أبيات بعض المقطوعات (٢) .

كما وجدت مقطوعات في بعض النسخ لم توجد في بعضها الآخر مثل المقطوعة التي أولها :

واحسرة للفقى ساعة يمشيها بعدد أودائه (٣)

وأيضاً المقطوعة التي أولها (اذهب فودك من فؤاد طائي) (٤) .

وهناك أبيات نسبت إلى الإمام الشافعي ، ولكنها نسبت إلى غيره من

(١) منها : طبعة باعراف مصطفى محمد ولها الأولى ثم طبعة بجميع محمود إبراهيم هنية وطبعة بتحقيق زهدى يكن وطبعة بجميع محمد الزغبى وطبعة بتحقيق عبد العزيز سيد الأهل وطبعة بتحقيق وجمع د . محمد إبراهيم نصر وطبعة بتحقيق محمد عبد الرحمن وطبعة بتحقيق د . محمد عبد النعم خفاجى وهى أكثر الطبعات دقة .

(٢) انظر على سبيل المثال المقطوعة التي أولها : دع الأيام تفعل ما تشاء ، فالديوان بتحقيق د . محمد عبد النعم خفاجى ص ٤٦ ، وتحقيق محمد الزغبى ص ١٥ وجواهر الأدب السيد أحمد الهاشمى ص ٢٤٦ .

(٣) وجدت في نسخة الدكتور محمد خفاجى دون بعض النسخ ص ٤٥٢ ، ١٥٠ من نسخة الزغبى على سبيل المثال .

(٤) الديوان بتحقيق د . محمد خفاجى ص ١٢٠ ، تاريخ بغداد ج ٤ ص ٤٣٨ .

الشعراء أتت نسبت إلى الإمام لأنها تتفق مع منهجه العام في شعره ، أم نسبت إليه لأنه كان يتمثل بأبيات غيره فظن أنها له ، أم هي من نظمه وأخذها غيره منه ، كل هذه أسئلة تتوارد ، ولم أتمكن من مصادر أو مراجع تقطع بهذا أو ذاك ، اللهم إلا أن يوجد ما يرجح أحد هذه الأمور بأن نسبت بعض الأبيات إلى الإمام ونسبت إلى غيره من الشعراء الذين ماتوا قبل أن يولد الإمام الشافعي فمثل هذا الأمر يرجح أنها لغير الإمام .

١ - ومن ذلك ما روى أنه سمع صائح يصبح - في زمان بني أمية - :
لا يبقى الناس إلا عطاء بن أبي رباح ، وإياه عن الشاعر بقوله (١) :

سل الفتى المكي هل في تراور وضمة مشتاق الفؤاد جشاح
فقال : معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بين جراح

فلما بلغه البيتان قل : والله ما قلت شيئا من هذا ، ومن المعلوم أن عطاء توفي قبل مولد الإمام ، قيل في سنة ١٠٧ هـ وقيل في سنة ١١٥ هـ والإمام الشافعي ولد في سنة ١٥٠ هـ ، فإن صح ذلك فيكون البيتان لغير الإمام الشافعي .

٢ - وكذلك البيتان المذنان أولهما : (إني أعزك لا أني على ثقة ...)
نسبا إلى الإمام ونسبا أيضا إلى الأعشى سليمان بن مهران المتوفى في سنة ١٤٨ هـ (٢) .

وهناك أبيات نسبت إلى الإمام ولكنها نسبت إلى غيره من الشعراء الذين ماتوا قبل الإمام ولكنها بعد مولده بمدة يجوز فيها أن يكون الإمام قد قال شعرا ومن ذلك :

٣ - البيتان اللذان أولهما : (خبراً عن المنجم أني) نسباً إلى الإمام

(١) انظر ديوان الإمام ص ٦٥ وطبقات العبيدي ج ١ ص ١٦١ ، ج ٣ ص ٢٦١

(٢) انظر ديوان الإمام ص ١٢٠ ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٣ .

كما نسب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى في سنة ١٨٠ هـ^(١).

٤ - البيتان اللذان أولهما : (وأزلى طوى النوى دار غربة ..) نسباً إلى الإمام ونسباً أيضاً إلى بشار بن برد المتوفى في سنة ١٦٨ هـ . مع زيادة بيت قبلهما وهو :

لقد وضعت منى الأحداث جانبا بهيئنا على ريب الزمان تجامله^(٢)
٥ - وأيضاً البيت الذي أوله : (إذا نطق السفيه فلا تجبه ..) نسب إلى الإمام وإلى المرملة المحارب المتوفى في نحو سنة ١٩٠ هـ مع اختلاف في بعض الألفاظ^(٣).

٦ - وكذلك البيتان اللذان أولهما : (وعين الرضا من كل عيب كيلة ..) و (كلانا غنى من أخية حياته ..) نسباً إلى الإمام وإلى أبي الحسناء (نصيب الأصغر) المتوفى في نحو سنة ١٩٠ هـ مع بعض أبيات آخر^(٤).

٧ - وكذلك الأبيات التي أولها : (أحب من الإخوان كل موافق ..) نسبت إلى الإمام وإلى أبي القتاتية المتوفى في سنة ٢١١ هـ^(٥).

٨ - وأيضاً البيت (ترجموا النجاة ولم تسلك مصالحها ..) لأن السفينة لا تجري على اليبس) نسب إلى الإمام وإلى أبي القتاتية^(٦) وإلى أبي نواس.

(١) ديوان الإمام ص ٥٤ ، والشكامل للبرد ١٥/٢ ، وطبقات الشعراء لابن السكيت ص ٩٨ .

(٢) ديوان الإمام ص ١٠٧ ، والختار من شعر بشار للشاذليين بشرح أبو القفاور إسماعيل ص ٢١٥ .

(٣) ديوان الإمام ص ٥٢ ، وتاريخ بغداد ١٧٩/١٣ .

(٤) ديوان الإمام ص ١٢٧ ، وطبقات الشعراء ص ١٥٦ .

(٥) ديوان الإمام ص ٥٩ ، وديوان أبي القتاتية ص ٧٩ ، وفي تاريخ بغداد

٢٤٩/٤ نسبها إلى تفتويه ت سنة ٣٢٣ هـ .

(٦) ديوان الإمام ص ٨٦ وزهر العرب ٨١٥/٢ ، وديوان أبي القتاتية ص ٢٣٠ .

وديوان أبي نواس ص ١٦٥ طبعة بيروت .

(ت ١٩٩ هـ) (١).

٩ - والبیتان اللذان أولهما: (ولرب فائزة يضيق لها الفتي ..) نسب إلى الإمام وإلى إبراهيم الصولي (ت سنة ٢٤٣ هـ) (٢).

١٠ - والآيات التي أولها: (رأيت العلم صاحبه كريم ..) نسبت إلى الإمام وإلى منصور بن اسماعيل الفقيه (ت سنة ٣٠٦ هـ) (٣).

١١ - والبیتان اللذان أولهما: (على معنى حيثما يمحت ..) نسبت إلى الإمام وإلى منصور بن اسماعيل أيضا (٤).

١٢ - والآيات التي أولها: (ليت السكلاب لنا كانت مجاورة ..) نسبت إلى الإمام وإلى منصور بن إسماعيل أيضا (٥).

١٣ - والآيات التي أولها: (إذا أصبحت هندي قوت يوى ..) نسبت إلى الإمام وإلى البهتري (ت سنة ٢٨٤ هـ) (٦).

١٤ - والبیتان اللذان أولهما: (أقبل معاذير من يأتيك معتذرا ..) نسب إلى الإمام وإلى البهتري أيضا (٧).

١٥ - والآيات التي أولها: (قالوا ترافضت قلت كلا ..) نسبت إلى الإمام وإلى صاحب بن عباد (ت سنة ٢٨٥ هـ) (٨).

(١) ديوان الإمام ص ٦٤ ، وفيات الأعيان ١/٤٦ .

(٢) ديوان الإمام ص ١١٠ وديوان منصور بن إسماعيل ص ١٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠ و ١١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٧ و ١٦٣ .

(٥) ديوان الإمام ص ٧٣ وديوان البهتري ٢٥٤٨/٤ (ملحق الديوان) وقامد

الفريد ٣/١٥٦ .

(٦) ديوان الإمام ص ٨٠ وديوان البهتري ٢/١١٠٥ .

(٧) ديوان ص وديوان صاحب ص ٢٠٥ .

(٨) ديوان الإمام ص ٧٩ ، وديوان صاحب ص ٢٢٤ ، وديوان أبي الأنود

ص ١٠٩ ودمج الأدباء ١٨/٢٠٩ .

- ١٦ - والبيت الذي أوله : (إذا المشكلات تصدين لي) نسبت إلى
ضمن أربعة أبيات في بعض نسخ الديوان ، ونسبت إلى صاحب بن عباد
أيضا ضمن - أبيات كثيرة ، بل نسبت أيضا إلى أبي الأسود الدؤلي
(ت سنة ٦٧ هـ) (١) .
- ١٧ - والأيات التي أولها : (ولما أتيت أطلب عندهم ..) نسبت إلى
الإمام وإلى الأرجاني المتوفى في سنة ٥٤٤ هـ ضمن قصيدة تربو على السبعين
بيتا (٢) .
- ١٨ - والأيات التي أولها : (حنيت فار نفسي باشتغال مفارقي) نسبت
إلى الإمام كما نسبت إلى الطنراني (ت سنة ٥١٥ هـ) (٣) .
- ١٩ - الأبيات التي أولها : (تعصى الإله وأنت تظهر حبه) نسبت إلى
الإمام وإلى محمود الوراق (ت سنة ٣٢٥ هـ) (٤) .
- ٢٠ - والأيات التي أولها : (الدهر يوما ذا أمن وذا خطر ..) نسبت
إلى الإمام ونسبت إلى أبي الحسن قابوس بن أبي طاهر شمس المعالي (ت سنة
٤٠٣ هـ) مع اختلاف في بعض الأبيات (٥) .
- ٢١ - الأبيات التي أولها : (تمنى رجال أن أموت وإن أمت ..) نسبت
إلى الإمام (٦) وقيل إن يزيد بن حبيد الملك (ت سنة ١٠٥ هـ) تمثل بها
عندما تنقصه أخوه هشام (ت ١٢٥ هـ) (٧) وقيل تمثل بها محمد بن عباد

-
- (١) ديوان الإمام ص ٧٨ ، وديوان الأرجاني ص ٨٦ .
(٢) ديوان الإمام ص ٥٠ ، وديوان الطنراني ص ١٠١ وما يسدها بتحقيق
د . طي جوار واللهكتور يحيى الجبوري .
(٣) ديوان الإمام ص ٩١ ، والكامل للبرد ٤/٢ وزهر الآداب ١/١٣٩ .
(٤) ديوان الإمام ص ٨١ ، وفيات الأعيان ٤/٨٠ .
(٥) ديوان الإمام ص ٦٨ . (٦) المقفد الفريد ٤/٤٢ والألماني ٢/٢١٨ .
(٧) تاريخ بغداد ٢/٣٧٣ .

المهلبى (ت سنة ٢١٤ هـ) مع اختلاف فى بعض الالفاظ وقيل غير ذلك (١).

ولعل الإمام الشافعى تمثل بها فظنت أنها له وبخاصة أن أشهب تلميذه مالك المتوفى سنة ٢٠٤ هـ - بعد موت الإمام بمدة قصيرة - كان يدعو على الشافعى فأخبره بذلك ابن عبد الحكم كما ذكر ابن خلكان (٢).

٢٢ - والآيات التى أولها : (جزى الله عنا جعفرا حين أزلت . . .) نسبت إلى الإمام وإلى طفيل الغنوى الجاهل ورجح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى أنها لطفيل (٣) وكان الإمام الشافعى يرددها كثيرا .

وبعد : فهذا قليل من كثير عن شعر الإمام الشافعى رضى الله عنه وأست أرحم أنى أعطيت الموضوع حقه فى هذه العجالة ولكنى أرجو أن تتاح الفرصة للوقوف على شعره وتحقيقه والله المستعان . وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) وفيات الأعيان ١/٢٣٩ ، زوج الذهب للصمودى ٣/١٢٦ .

(٢) وفيات الأعيان ١/٢٣٩ .

(٣) ديوان الإمام ص ٦١ ، وديوان طفيل الغنوى ص ٩٨ وزهر الآداب ١/٣٣ .

من أهم مراجع البحث ومصادره

- ١ - الأمام : للإمام الشافعى .
- ٢ - الإمام الشافعى : عبد الحليم الجندى .
- ٣ - الإمام محمد بن إدريس : د . مصطفى الشكعة .
- ٤ - تاريخ بغداد : للبغدادى .
- ٥ - تاريخ الأدب العربى : د . عمر فروخ .
- ٦ - جواهر الأدب : السيد أحمد الهاشمى .
- ٧ - دراسات ونصوص فى الأدب العربى : د . محمد مصطفى هداورة .
- ٧ - ديوان أبى العتاهية .
- ٨ - ديوان أبى نواس .
- ٩ - ديوان البحتري .
- ١٠ - ديوان الشافعى عدة طبعات
- ١١ - ديوان الطغراني .
- ١٢ - ديوان طيفيل التنوى .
- ١٣ - ديوان منصور بن اسماعيل الفقيه .
- ١٤ - زهر الآداب : للحصرى .
- ١٥ - شذرات الذهب : لابن العماد الحنبلى .
- ١٦ - طبقات الشافعية : السبكى .
- ١٧ - العمدة : لابن رشيق .
- ١٨ - السكامل : للمهرى .
- ١٩ - المجددون فى الإسلام : أمين الخولى .
- ٢٠ - معجم الأدباء : لياقوت الحموى .
- ٢١ - مناقب الإمام الشافعى : البيهقى .
- ٢٢ - وفيات الأعيان : لابن خلكان .

إبراهيم عبد القادر المازني إسهام رائد في دوس الأدب المقارن

(٢)

بقلم الدكتور
السيد العراقي

إسهامات متنوعة :

في مقال سابق أشرنا إلى زيادة المازني في فهم المقارنة قبحا وإعيا ، يقترب مما هو شائع الآن في محيط الدراسات المقارنة ، وقد استنتجنا ذلك من مخطوط المازني ، وقع في أيدينا ولم ينشر ، يتضمن مجموعة من الأفكار الأساسية المبركة لمكتاب كان يستزم إعداده ونشره^(١) .

على أن أهم إسهامات المازني في مجال المقارنات الأدبية تطالعنا فبا نشر له من كتابات ، خاصة في كتابه "حصار المشيم" ، الذي اعتمدنا عليه اعتمادا كاملا في استخلاص باقي النتائج التي توصلنا إليها . ويتضح تميزه في تلك الإسهامات المنفردة في أنه تناول مباحثها - رغم عمق أفسكارها ووعورة مداخلها - تناول الأدب المبدع ، الذي يستعين على إبطال مضمونه إلى الملقى بالأسلوب الجيد ، والعرض الحسن ، والنموذج الكاشف ، والإلحاح على الفكرة من جميع جوانبها وتشخيصها ، وإبرازها في صورة حية ملبوسة ، وأنه ابتعد بها عن جملة العرض العلى البحث ، الذي يلقي الفكرة مجردة ، في أسلوب جاف ، لا ماء فيه ولا رواء .

ونستطيع أن نلح في هذه الإسهامات أبعادا ثلاثة :

(١) انظر : مجلة " الأزهر " شعبان ١٤١٠ هـ - مارس ١٩٩٠ م ص ٨٢٨ وما بعده .

البعد الأول : بعد نظري . نأش فيه عددا من القضايا التي تمتد من صميم الأدب المقارن وجوهره .

والبعد الثاني : بعد تطبيقي . قصد به أن يدعم آراءه في القضايا التي ناقشها بأمثلة تطبيقية ونماذج ملبوسة ، تؤيد دعاواه ، وتؤكد إنجازاته .

والبعد الثالث (وهو قريب من سابقه) : بعد عملي . قام فيه بمقد بعض المقارنات الأدبية ، التي قد لا تقل في عمقها ودقتها عما تضطرب به ساحة الأبحاث المقارنة في وقتنا الحاضر .

وسنعرض هنا بعض تلك الإسهامات إجمالا ، واضعين ما يدخل منها في إطار البعدين : الأول والثاني تحت عنوان : « قضايا وتطبيقات » . أما ما يقع في دائرة البعد الثالث فسنقدمه بعنوان : « مقارنة عملية » .

وحرصا منا على تجلية موقفه تجلية كاملة في كل ما تناوله من قضايا ، رأينا الالتزام بتعميراته ، بقدر الإمكان ، مع الاستعانة بما قدمه من شواهد وأمثلة ، فإذا وجدنا أسلوبنا يتداخل مع أسلوبه ميزنا عباراته بعلامات تنصيص ، حتى لو لم نشر إلى ذلك في الهوامش .

قضايا وتطبيقات

١ - المصادر الأدبية :

من أبرز القضايا التي أثارها المازني قضية الروافد الأدبية ، التي يتأثر بها الأدباء . ولا يخفى أنها قضية شغلت حيزا كبيرا في ساحة الأدب المقارن (١)

(١) انظر دراسات المصادر في :

Schumelin : Vergleichende Literaturwissenschaft, S.49ff

وانظر أيضا : محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ص ٣٤٢ وما بعدها ، ومحمد

عبد النعم خنجاوي : دراسات في الأدب المقارن ٩٧/٢ وتاليفها ، وحسن جاد حسن ، الأدب المقارن ص ١٤٨ وما بعدها .

وكان رأى المازنى فيها واضحا وعددا ، لذلك نجد من الأفضل أن نفسح له المجال ليدسط لنا القول فيها من خلال عرضه الشيق ، الذى بدأه بسؤال يتجه إلى لها وجوهرها .

قال المازنى : « ما هو الابتكار ؟ سؤال نحس بالحاجة إلى الإجابة عليه ، لما ركب الناس فى أمره من الخطأ ، ودخل عليهم فيه من الوهم ، حتى صاروا يفهمون من الابتكار أن يأتى المرء بشئ جديد ، لاصلة قربي له بالقديم . ولا حاجة نسب بينه وبين الحاضر المكتنفه . فإذا قيل : فلان شاعر أو كاتب مبتكر ، توقع جمهور القراء ، وطامة الخواص منهم ، الذين لا قبل لهم - لسبب ما - بالتقصى فى البحث ، والتدقيق فى النظر ، أن يفجأهم الشاعر أو الكاتب بما يختلف عن كل ما قروه أو سمعوا به ، إختلاف الإنسان عن النبات ، وذهبوا يطالبون هذا الشاعر أو الكاتب بأن يكون كالعنكبوت ، لا ينسج خيوطه بيته إلا بما تؤتیه إياه أمعاؤه . ولكن الطبيعة مقتصدة غير مفرقة ، وهى لا تكثر اللفظ تحتها للناس وأرادوا أن يفهموا منه معنى يخالف قوانينها وسننها ، ولا يتسع له ضيق الحياة الفردية . وقهر الأجل الشخصية . فهى تأتى إلا أن تجعل أعظم الشعراء أكرم ديناً . »

وباستطرد المازنى فى توضيح فكرته من خلال التشبيه والنشيل ، مستعيناً فى ذلك بما ذكره ارسون من تشبيه ظهور الشاعر فى قومه بالبطل فى المعركة ، فكأن البطل مدين لغيره من سابقيه ومعاصريه بكثير من العوامل . انتهى تهيم له التعمد كذلك ليس على الشاعر أن يخلق مادته ، ويوجد من العدم بضاعته ، ولما يلقى الطين مهباً ، والحجر مفتوحاً ، والقاعدة مرصوعة فيشيد على هذه بذاك ، ويخرج لك عما وجد بناء ، ليست قيمته فى انقطاع النظائر ، بل فى مبلغ اتساع الأفق ، وبعد المدى والإحاطة . »

وكانما يأتى المازنى - كعادته فى معظم الأحيان - أن يترك قارئه دون أن يهى له كل أسباب الاقتناع ، القسام على الحجة المدلوسة ، والرهان

المحسوس ، فعاد إلى التساؤل من جديد ، مولدا أدلته من خلال الإجابة :
 « وماذا عماها كانت تكون حال الإنسان ، لو أنه كان على كل فرد أن
 يخلق مادته التي يستخدمها ؟ كانت إذن كل حياة تكون تجارب ، لا ينتفع
 بها أحد ، تضعف فيها الأعمار ، ولا تكون فيها عائدة على الفرد ولا على
 الجماعة ، ولكن الطبيعة - لحسن الحظ - تأبى هذه الفردية الضيقة وترفضها ،
 ولا تسمح بالعظمة للفرد إلا مستخلصة من قوى الجماعة ، وقائمة على
 جهودها ، (١) .

ولم ينس المازنى أن يقدم لنا نموذجا تطبيقيا للتأثير الواعى المبدع ،
 مثلا فى عمل أدبى معروف ، هو مسرحية « تاجر البندقية » لشكسبير .

ومع أن المسرحية معروفة فى المحيط العربى ، نجد من الأفضل أن نقدم
 لها تلخيصا موجزا ، يوضح الجوانب التى تناولها المازنى فيها :

نبيلة من بلونت بإيطاليا ، تسمى پورتيا . مات عنها أبوها ، وكانت ذات
 مال وجمال وعقل ، فتقدم لخطبتها عدد من الأمراء والنبلاء ، من بينهم أمير
 مرا كشي ، وأمير أراجون بأسبانيا ، لكنها وجدت من نفسها ميلا إلى شاب
 فقير من بنى جنسها ، اسمه باسانيو ، استدان المال الذى قدمه إليها من تاجر
 صديق له من البندقية ، يدهى أنطونيو . وكان هذا بدوره - نظرا لتأخر
 سفنه التجارية فى البحر - قد اقترض ذلك المال من مراب يهودى ، يبادله
 المكرامية ، اسمه شيلوك ، اشترط عليه ، إذا تأخر من سداد الدين فى موعده
 أن يأخذ فى نظيره رطل لحم من جسده .

واستخارت الفتاة الله فى مستقبلها . وناطت أمر زوجها - حسب وصية
 والدها - بثلاثة صناديق : ذهبى ، وفضى ، ورساصى ، جعلت فى الأول
 رسم جمجمة ميت ، وفى الثانى رسم مهرج أبله ، وفى الثالث رسما ، على أن

(١) المازنى : عهد الحميم ٣ ، الطبعة القصيرة من ٢٨٨ وما بعدها .

تزوج هي عن يوفقه الله إلى اختيار الصندوق الذي به رهما . وكاهو متوقع
ألم الله حبيبها الصواب .

وحل موعد سداد الدين ، دون أن تصل السفن ، وأصر المراهبي على
تنفيذ شرطه ، فاحتالت الزوجة لإنقاذ صديق زوجها ، وذلك بأن تذكرت
في ذي عام . وأفتت في جلسة المحاكمة بأنه لا مفر من تنفيذ العقد ، مادام
شيلوك يصر على تنفيذه ، ولكن حين رفع اليهودي سكينه ليهورى بها في صدر
غريمه أفهمته أن عليه أن يقطع رطل اللحم دون إراقة قطرة واحدة من
الدم ، لأن العقد لم يتضمن أى قدر من الدم . حينئذ تراجع شيلوك عن
إصراره ، فأشارت بأن يطبق عليه قانون البندقية ، فيمن يحاولون الإضرار
بأهلها ، وذلك بتسليم نصف ثروته لغريمه والنصف الآخر للدولة . لكن
أنطونيو تنازل عن نصيبه اليهودي ، في مقابل أن يتنصر هذا ، وأن يترك
ثروته بعد وفاته لابنته جيسكا ، التي كان قد حرما من ثروته لأنها هربت .
بعض أمواله لتزوج من حبيبها المسيحي لوززو .

وحين أراد باسانيو أن يكافئ الحماني الشاب ، الذي أدار القضية ، لم يكن
يدري أنه سيكافئه زوجته المتسكرة في ذي الحمامة ، والتي أصرت أن تكون
مكافأتها خاتما في يده ، كانت قد أهدته إياه عقب خطبتهما ، وطالبت منه
آنذاك ألا يخلعه من يده ولا يفرض فيه ، لكنها الآن - بوصفها الحماني الذي
أنقذ صدقة من الموت - تصر على أن يكون الخاتم مكافأتها ، فلم يجد بدا من
إهدائها إياه ، وهو لا يدري أن هديته كانت لزوجته (١) .

وكان خليل مطران قد ترجم المسرحية إلى اللغة العربية ، وقدم لها
بمقدمة ، ضمنها القول بأن المسرحية مصدرها إيطاليا .

والنقط المازني خيط الحديث ، ليخرج عن رأيه في القضية ، منطلقا في ذلك
من رأى مطران هذا وما قاله دارسو شكسبير وشارحو مسرحيته .

(١) انظر :

قال المازني : « صدق الأستاذ المترجم ، فإن مصدر القصة إيطاليا .
ولسكنها لم تكن قصة واحدة ، كما جعلها شكسبير ، بل عدة قصص ، جمع
شئاتها ، وألف بينها من خمسة مصادر ، على ما يظن الشراح . أولها : جستارو
مانورام . وهي مجموعة حكايات باللاتينية . وفيها قصة الضمان ، ورطل
اللحم ، والتصول من شرط الضمان بنفس الحيلة . وثانيها : آل بيكوروني .
وهي كالأولى طائفة من القصص ، وردت فيها - فضلا عن حكاية الضمان -
حادثة تبادل الخواتم . وثالثها : الخطيب لسلفين . وفيه فصل عن يهودى ،
يريد في مقابلة دينه رطلا من لحم رجل مسيحي . ورابعها : قصة جرنوتوس
يهودى البندقية . وفيها - زيادة على ما سبق - ألف اليهودى يشحن سكينه ،
استعدادا لقطع رطل اللحم . وخامسها : يهودى مألعة لمازلو . وفيها تغدير
العلاقة لورنزو المسيحي وجسكا اليهودية . وذلك أن براباس اليهودى في رواية
مارلولة أجنة تحب مسيحيا وتقتصر لأجله . ومن المعروف أن مارلولة كان له
تأثير كبير في صدر حياة شكسبير . هذا إلى مصادر أخرى عديدة ، لا يعقل
أن يكون شكسبير قد أطلع عليها . »

وواضح أن المازني - بكثرة استطراداته وتفرعاته ، ثم بمرطبه المصادر
التي رجع الباحثون أن شكسبير قد اعتمد عليها في صرحيته كان يهدف من
وراء ذلك إلى وضع قضية المصادر الأدبية في بؤرة الضوء ، وتجليتها تجلية
كاملة ، كي يبعد عن بعض الأذهان ما قد ينسرب إليها من فهم خاطئ ،
ينحرف بها عن مجراها الصحيح .

ومن هنا عاد إلى الاستطراد مرة أخرى ، بقوله : « ومهما يكن من الأمر ،
فإن الثابت الذي لا مجاز إلى الشك فيه ، هو أن شكسبير لم يخلق حكايته .
ولكن ما قيمة هذا ؟ وكيف يفض من قدر الشاعر ويطامن من منزلته التي
نبأوا وحده ؟ إن القصص والحكايات التي تصلح للروايات التثيلية لا يأخذها
حصص ولا ينالها حساب ، وهي كالحجارة ملقاة في طريقنا جميعا . ولكن ،

ليس كل أحد يستطيع أن يخرج من إحداهما رواية كتاجر البندقية . فإن كان أحد يشك في ذلك فما عليه إلا أن يجرب ؟ هذا أصل القصة موجود في أكثر من كتاب واحد ، وتلك رواية شكسبير قريبة المثال من شاء ، فليأخذ هذه وتلك ، وليضع هو رواية مثلها ، ليقبس عجزه إلى قدرة شكسبير وعبقريته (١) .

ونترك كلام المازني هنا بلا تعليق ، لأنه - في رأينا - من أوضح ما قيل في اللغة العربية حتى الآن من قضية المصادر الأدبية ، وتأثير الأدباء بغيرهم ، ولاشك أنه يمدنا بقوة إلى ما قاله هول فاليري حول نفس القضية ، في استعارة أيقية : « ما الليك إلا عدة خراف مضمومة » ، وما قاله جيته لصديقه إكرمان ، حين جاءه هذا ليهنئه بصدر طيبة جديدة كاملة من مؤلفاته ، فأخذ جيته يسرده مصادر ما المتعددة من مختلف الآداب ، ثم أردف : « كل هذا موقع عليه باسم جيته » (٢) .

فقط نريد أن نعود إلى كلام المازني ، لنستخلص منه المنطلقات الأساسية ، التي تمثل رأيه في القضية ، وهي :

أولاً : أن التأثير والتأثر متبادلان - بصفة مستمرة - بين الأدباء والآداب ، وعلى نحو ليس من السهل إنكاره أو تجاهله .

ثانياً : أن التأثير الواعي المبدع ليس عيباً ، بل هو عمل مشروع ، يثرى الآداب وينمىها ، ويتفق مع سنن الطبيعة التي تجمل أعظم الأدباء أكرم ديناً .

ثالثاً : أن العبقرية لا تعني خلق المادة من العدم ، بل تعني حسن الانتفاع بما هو متاح ، والقدرة على تشكيله بصورة أفضل ، وبث روح الحياة فيه .

(١) حماد المشيم ط ١ ص ٣٥ وناليتها .

(٢) انظر : محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ص ١٧ وناليتها ، ص ٣٤٩ وناليتها .

غير أننا نلاحظ أن النموذج التطبيقي ، الذي اختاره المازني لشرح
تصوره عن قضية المصادر الأدبية ، وهو مسرحية « تاجر البندقية » ، قد
تحقق في اختلاف اللغتين بين الأدبيين مجال المقارنة ، فالمسرحية الإنجليزية ،
ومعظم مصادرهما الإيطالية ،

ومن الواضح أن هذا لا يتعارض مع كلامه الذي سبق الإشارة إليه
في مخطوطاته والذي يفهم منه أنه لم يكن يشترط اختلاف اللغتين في المقارنة ،
بل يفسح مجالها ، لتشمل ما يقع داخل أدب واحد ، وما يكون بين أدبيين
مختلفي اللغة .

لكن اختياره لنموذج بذلك القيد قد يحرك في الخاطر تصورا باحتمال
أن يكون قد بدأ ، خلال الفترة ما بين كتابته للمخطوطة وكتابته لمقاله عن
« تاجر البندقية » ، وهي حوالى خمس سنوات (١) ، يوائم فكره مع فكر
الاتجاه الفرنسي المحافظ ، الذي يجعل اختلاف اللغتين أساسا من أسس
المقارنة ، خاصة أن معالم ذلك الاتجاه كانت قد بدأت تتضح في تلك الأثناء .

٣ - النماذج البشرية :

ثم تنتقل إلى قضية أخرى ، لها صدى كبير في الدراسات الأدبية المقارنة ،
وحظيت بنصيب من اهتمام المازني ، وشغلت جانبا من تفكيره ، وهي قضية
النماذج البشرية في العمل الأدبي .

ذلك أن مطران في مقدمة ترجمته لمسرحية « تاجر البندقية » كان قد أبدى
كذلك رأيا عن جوانب إبداع شكسبير في تصويره لأبطالها . ورأى المازني

(١) يرجع تاريخ كتابة المخطوطة - كما سبق أن ذكرنا - إلى عام ١٩١٨ ، بينما
نشر الجزء الأول من مقال « تاجر البندقية » بصيغة « الأخبار » عام ١٩٢٣ .
انظر فهرس حصاد المشيم ط ١ .

أن ما ذكره مطران لا يكفي لتوضيح مدى عبقرية شكسبير في رسم تلك الشخصيات ، فمقرب على رأى مطران تمقيا تضمن وجوب نظرهما معاً ، جاء فيه : « وليس فضل شكسبير ومزيتته في أنه مامن خصلة من خصال الخير والشر إلا أحسن تصويرها ، أو كما يقول الأستاذ المترجم : (نجد الطمع فتقول : لا يصور بأدق من هذا . نجد الجبن فتقول : لو تمثل رجلاً لمكان هذا . تلح الحقد فتقول : كائن بفلان وفلان وفلان . وقد كشف كل عن جزء من الحقد الذي في قلبه ، فاجتمع من الثلاثة الأجزاء هذا النوع التام من الحقد ، بل النوع الأتم ، وهذا الحقد في كل ما تصدى شكسبير لإظهاره بمظهره البشري) . تقول : ليس الأمر كذلك ، لأن النفس الإنسانية ليست خزانة مرسوفة فيها الفضائل والذائل ، أو الصفات : كما ترصف الكتب ، بحيث نستطيع أن نتزج إحداها من بين أخواتها ، ثم نصورها ، كأنها شيء قائم بذاته ، لا صلة بينه وبين أخواته . وإنما النفس ميسدان لتنازع الغرائز والمواطف . والمزية كل المزية في رسم الخلق الحادث من تفاعل هذه الغرائز والمواطف والصفات وثورات البيئة والنشأة » (١) .

ويتضح من الفقرة السابقة أن المازني كان يجتهد في النموذج البشري أن يكون نملاً للإنسان بكل قسماته ومقوماته ، وتجاويزه وأخاذه ، وودافعه ونواذعه . بحيث لا تكون الشخصية بناء قائماً على جدار واحد ، أو كياناً مركباً على ساق واحدة . ذلك أن الإنسان ليس بعداً بسيطاً مجرداً ، أو خطأ مستقيماً مفرداً ، وإنما هو تركيبة معقدة متشابكة ، تنمذج فيه دوافع الخير بنوازع الشر ، ومكونات الإحسان بعناصر الإساءة : قناعة وطمع شجاعة وجبن ، صفاء وحقد ... إلى غير ذلك من طبائع الإنسان وغرائزه التي فرسها الله فيه . وهذا يتفق مع ما تنادي به الدراسات المعاصرة

للنماذج البشرية (١) .

وقد ضرب المازني مثلا للنموذج البشري ، الذي أجيد رسمه فنيا بشخصية شيلوك في مسرحية « تاجر البندقية » ، وحدد ملامح تلك الشخصية على نحو يمكن إجماله فيما يلي :

أوربا المصور الوسطى ، مصور الظلام والتمصب .

أفليات يهودية ، مشحونة بنزعات عنصرية مستفكرة ، وتعرات عرقية ودينية غير مفهومة ، وأغاليات مسيحية ، في حوزتها وسائل النوق والساطة . وقلوب الفريقين مفعمة بأحقاد متبادلة ، تمكروث على مر السنين .

هاش شيلوك في أنون ذلك التمسب . فثاله - بحكم اتبائه إلى الأفلية اليهودية مانال أبناء طائفته من بعلش الأغلبية القوية ونجوها : حربه وتعذيب ، وطرد وتشريد ، وسب وامتهان . فضلا عن الحرمان من مزاوله الأعمال المكرمة ، والمهن الرفيعة .

تماوت كل هذه العوامل النفسية ، والدينية ، والاجتماعية في تشكيل شخصيته وصياقتها ، لجأت نسيجا غريبا ، يمجج بأنفعالات شتى - فهو ليس شخصية مسطحة ، ذات بعد واحد ، بل شخصية مركبة . متشابهة العواطف ، متشعبة الأبعاد : خوف وملق ومدارة - شعور بالضعف والحران - حقد وتربص ورغبة في الانتقام - فقدان للثقة حتى بأقرب الناس - حرمان من العطاينة والراحة النفسية - حرص شديد على المال ونشع إليه - ولع قوى بالاسترباء ونجارة المال .

(١) انظر : محمد غنيمي هلال : الأذخ الإنسانية ص ٥ وما بعدها ، ومحمد عبد المنعم خفاجي : المرجع السابق ٨٠/٢ وما بعدها ، وحسن جاد حسن : المرجع السابق ص ١٨٣ وما بعدها ، ومحمد مندور : نماذج بشرية ومقدمة ملك عبد العزيز ص ٩ وما بعدها .

وفي ضرورة هذا كله يمكن أن نفهم تصرفات شيلوك ومواقفه :
فهو مثلاً - لحوفه - يوصي ابنته بأن تحكم لإبصاد الأبواب والنوافذ ،
التي يسميها « أذان بيته » ، ويحذرهما - كذلك - أن تطل من السكوة .
وهو - لعدم ثقته بأحد ، وتوقعه القدر حتى من أقرب الناس إليه -
يخشى أن يكون بينها وبين خادمه لانسوت اتفاق أو مؤامرة .

وهو - لشدة جشعه وحرصه على المال - لا يخفى تفضيله للنال على ابنته ،
حين علم أنها هربت بالمال ، فراح يصيح : وابنتاه ! فرت مع نصراني !
وإذا نابري المتنصرة ! ليت ابنتي ميتة عند قدمي وفي أذنيها الماستان .
وهو - لإحساسه بالظلم - لا يكتم تعطشه إلى الانتقام حين سأل به بامانيو :
وماذا تفيد بضعة من لحم أنطونيو ؟ فأجاب به بقوله : اتخذ منها طعاماً للسمك .
وحسبي بما قوتاً لغير انتقامي ، إذا لم تصلح لشيء آخر !

وهو - كمثل الضعفاء المضطهدين - إذا تمكن طغى ولم يرحم . ومن
هنا كان رفضه مرة بعد أخرى أن ينزل من رطل اللحم وأن يأخذ دينه
مضاعفاً أو مثله أضمافاً كثيرة .

ولكن شيلوخ ليس بوحش . . . وليس بغضه للنصارى شخصياً . بل
العامل فيه جنسى . ومظالم الفرد عنده مقمرة في مظالم الجنس كله .

ومع استهواك إن يذهب شيلوخ إلى المحكمة مستعداً بسكينته وميزانه ،
واستبشاك شعظه السكين على نعله ، كأنما تجرد من كل إحساس بشري ،
مع كل هذا ، وعلى الرغم منه ، نحس - إذ تنهار قضيته ، ويخرج من المحكمة
مصادرة كل أمواله - كان الرجل مظلوماً (١) .

٣ - ترجمة الأعمال الأدبية :

ومن القضايا التي ناقشها المازني أيضا قضية ترجمة الأعمال الأدبية من لغة أخرى ، وهي قضية لها أهميتها في الدراسات الأدبية المقارنة ، بسبب ما يتركه العمل المترجم عادة من أثر في اللغة المنقول إليها ، فهو من جهة - ينقل إليها أفكار المؤلف وإنطباعاته الذاتية والمكتسبة ، إلى جانب طريقتة في العرض والتصوير . كما أنه - من جهة أخرى - يكشف عن قدرات المترجم وإمكاناته على هضم النص المترجم وإستيعابه ، وعن مدى فهمه لمؤلف النص ومعرفة دلالاته وإيماءاته (١) .

غير أن المازني تناول القضية هنا في إطار محدد ، وهو ترجمة نصوص الشعر المسرحي إلى اللغة العربية ، عندما لاحظ أن الترجمة التي صاغها خليل مطران لمسرحية « تاجر البندقية » كانت ترجمة نثرية ، هذا بضدء هنري بيتا ، ترجمها شعرا ، بينما كانت صياغة شكسبير لنص المسرحية الأصلي صياغة شعرية ، سوى صفحات قليلة ، أجراها نثرًا على السنة بهن أشخاصها هدف معين . فوجد المازني في ذلك فرصة متاحة لمعالجة المسألة من أساسها . بإبداء رأيه في الشكل الذي ينبغي اختياره لترجمة نصوص الشعر المسرحي .

وكان مما قاله في ذلك : « ونحن ممن يقولون بأنه يجب أن تكون هناك - إلى جانب الترجمة الشعرية - ترجمة حرفية . ونقول إلى جانب الترجمة الشعرية ، لأن النثر - وإن كان أدمى إلى الدقة في النقل ، وأهون على الاحتفاظ بما في الأصل - مجرد الرواية من مزية الشعر . وليست هذه بالضئيلة التي لا يقيم لها وزن . ولو كان يستوى أن نقول الكلام نثرًا أو شعرا لما نشأت .

(١) انظر عن الترجمة الأدبية وعن كثير من قضاياها من الوجهة المقارنة :
 Schmelting : a . a . O. , S. 125 ff .
 ، ومحمد غنيمي هلال : الأدب المقارن . ص ١٢٥ وما بعدها ، ويعون طبعان : الأدب المقارن والأدب العام ص ٣٠ وما بعدها .

الحاجة إلى الشعر ، بل لكان الشعر قيداً اختيارياً لا معنى له ، ولا مزية فيه .
ولكن الواقع أن الشعر فن قائم بذاته ، لم ينفقه الإنسان ، ولكن سبق إليه ،
وتدفقت عواطفه - وهى الأصل فى كل شعر - على أوزانه ، ونشأ مع الجنس
الإنسانى ، منذ صار الإنسان حيواناً اجتماعياً . فنقل الشعر من لغة إلى أخرى
ثمراً لا ينفى وجوب ترجمته شعراً ، (١) .

وكلام المازنى هنا يوضح حرصه على أن يظل النص المترجم محتفظاً
- بعد الترجمة - بشكله الأصيل ، الذى صيغ به ، وقالبه الأساسى ، الذى صب
فيه ، بقدر ما يظل محتفظاً بأفكار صاحبه التى أرادها ، ومضامينه التى عنها .

ولتحقيق ذلك فى نص الشعر المسرحى رأى المازنى أنه ينبغى أن
توضع له ترجمتان : إحداهما نثرية ، الهدف منها ضمان الأمانة فى نقل
الفكرة والمضمون . والثانية شعرية . هدفها الحفاظ على شكل النص وقالبه .

لكن المازنى توقف هنا عند نقطة هامة ، وهى مدى صلاحية الشعر
العربى ببحوره التقليدية الخاليلية لاستقبال الشعر المسرحى المترجم إليه من
لغة أخرى . وعبر عن موقفه الحازم فى صورة تساؤل ، هو : « ولكن ،
كيف يكون ذلك فى لغتنا العربية ؟ هذا هو الإشكال . وأى البهجور تختار
لشعر شكسبير وغيره من الروائيين ؟ » .

واقصته الإجابة عن هذا التساؤل أن يقوم بمقد مقارنة بين طبيعة الشعر
العربى والشعر الأوربى ، قصد من ورائها أن يدعم وجهة نظره ويقويها .
وجاء فى مقارنته قوله : « لأنهم يستخدمون فى لغات الغرب الشعر المرسل .
وهو بحر سلس التدفق ، لا يكاد القارى يحس مقاطعه ، فضلاً عن إطلاقه
من قيد القافية . وبحور الشعر العربى أصح ما تكون للشعر الغنائى ،
أو ما يطلقون عليه فى الغرب لفظة (ليريك) . وهو لا يصلح لحوار الروايات

(١) حصاد المشيم ط ١ ص ٣٢ وناليتها .

الفنيلية ، انضط غلبة الموسيقى عليه . والحوار الذليل أحوج ما يكون إلى بحر لين ، لا يظهر فيه التوقيع الموسيقي كما يظهر في سواه . أضف إلى ذلك أن البيت من الشعر في القصيدة العربية وحدة تامة في ذاتها ، قائمة بنفسها ، من حيث التآليف اللفظي وتعلق الكلام ببعضه ببعض على معاني النحو . وليس يربطه بما قبله وبعده من الآيات - إذا ربطه شيء - إلا المعنى . وليس كذلك البيت أو السطر في الشعر الغربي ، فهو هناك ليس بوحدة ، ولا يجب فيه أن يكون مشتملا على جملة أو جمل تامة ، من حيث التآليف اللفظي . وكثيرا ما تستوعب الجملة الواحدة عدة أبيات أو أسطر متلاحقة . وإمكان مثل ذلك في الشعر العربي عسير إلى الآن . وواضح من موجز ما بيننا أن ترجمة شكسبير وأمثاله شعرا تستوجب اختراع بحر جديد ، شبيه بالوزن الأبيض - كما يسمونه - وتستدعي ألا يكون البيت أو السطر وحدة كما هو إلى الآن . ولم نشر إلى القافية ، لأن قيدها بما يسهل صدعه والتحرر منه : فليفكر معنا من يعنيه الأمر . وهو يعني كل أحد ، (١) .

والواقع أن المقارنة التي عقدناها المازني صحيحة . لكننا نختلف معه في الأحكام التي بناها عليها . وننتقل في ذلك من المنطقات الآتية :

(١) هناك مقولة مشهورة ، مؤداها أن كل ترجمة خيانة للأصل . ذلك يعني أن المترجم يحاول - قدر طاقته - أن يكون لصيقا بالنص الأصلي أو قريبا منه . لكنه - مهما بذل من جهد - لا يكون هو الأصل . قد يكون دونه ، وربما يكون فوقه ، لكنه لا يكون هو ، (٢) . ومن ثم لا نرى موقفا في ترجمة نصوص الشعر المسرحي أن نلزم المترجم بأن تكون ترجمته شعرية ، بل إن المنطق وطبيعة الأمور تقتضي أن نترك له الخيار : بأن ينقلها

(١) نفس المصدر ص ٣٣ وتالياتها .

(٢) انظر : سيد قطب : النقد الأدبي أسسه ونتاجه ص ٥٠ ، وطه حبيب : حافظ رهوق ص ٥٠ وتالياتها ، وأحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ص ٢٤٦ .

شعرا ، إن كان يجود الحبكة الشعرية ويمتلك أسبابها ، أو يترجمها نثرا ، طالما
في إمكانه أن يتقمص روح المؤلف ، ويخلق في سماءه ، ويسطر بمداده . وفي
هذه الحالة يمكننا أن ننظر إلى نزول المترجم بالنص من مرتبة الشعر إلى
درجة النثر على أنه مظهر من مظاهر « خيانة الأصل » . ولعل هذا الذي
نستشعره نحن من « خيانة الأصل » هو الذي دفع الجاحظ إلى القول بأن
الشعر العربي « لا يستطاع ترجمته » ، ولا يجوز عليه النقل . ومضى حول
تقمص نظمه ، وبطل وزنه ، وسقط موضع التعجب ، كالسلام المنثور (١) .

(ب) إن دعوة أى مترجم إلى عمل ترجمتين لنص واحد دعوة غير عملية
ورغم وجاهتها من الناحية النظرية ، ذلك أن أى أديب حينما يتجه إلى عمل ما
يجىء له نفسه تماما ، ويفرغ فيه كل طاقاته ومشاعره ، ويمارسه بنفسه
وخياله معايشة كاملة .

وقد يكون من دواعي الملل - بل ربما النفور - أن يرجع إليه بعد ذلك
ليعيد كتابته . فإذا نحن طالبنا المترجم بالعودة إلى العمل شعرا بعد أن انتهى
منه نثرا ، أو العكس ، فليس لنا إلا أن نتوقع منه أن يعود إليه بعاطفة فائزة ،
وخيانة شاحب ، وذهن كليل .

ومن هنا لا نؤيد الدعوة إلى ترجمتين للشعر المسرحى ، بل تكفى ترجمة
واحدة ، شعرية أو نثرية ، يحاول المترجم فيها أن يحاكي - كما ذكرنا - بجناحي
المؤلف ، ويرى بعينه ، ويشعر بأحاسيسه ، ويتفعل بعواطفه .

(ج) الصعوبات التى ذكرها المازنى عند التزام المترجم بالصيغة الشعرية
داخلة فى اعتبارنا . لكننا مقتنعون بأنها لا يمكن أن تقف حائلا أمام
هبة المترجم الحق ، إذ على كل من يتصدى لعمل أن يكون كفاء له ،
والأختار من الوسائل إلا ما يناسب طاقاته وإمكاناته . فإذا أراد مترجم
أن يتقيد فى ترجمته بالصيغة الشعرية ، فلا بد أن يكون شاعرا ، خبير الشعر

ومارسه ، وراد دروبه ومسالكه ، كى يستطيع أن يقترب بترجمته - قدر
الإمكان - من النص .

(د) إذا كان المازنى يقصد بقلبة الموسيقى على الشعر العربى التزام
الشاعر بآوى عدد التفعيلات فى كل أبيات القصيدة ، ويرى فى ذلك قيودا
يحد من قدرة الشاعر على النظم والصياغة ، فنحن لا نؤيده فى ذلك ، لأن
ما طرأ على معظم التفعيلات من تغييرات عروضية ، متمثلة فى الزخافات
والعلل ، إلى جانب التجاوزات المسموح بها فى ضرورات الشعر ، كل هذا
يتيح للشاعر - رغم تساوى عدد التفعيلات فى أبيات القصيدة - قدرا لا بأس
به من الحرية ، يجنب إيقاعه الرقابة من جهة (١) ، ويمنحه هو فرصة انتقاء
الكلمات الموحية والعبارات المؤدية من جهة ثانية . فضلا عن هذا ، من
المعروف أن وطأة هذا القيد لا تظهر فى الشعر المسرحى قدر ما تبدو فى
شعر القصيدة ، لأن شاعر المسرحية يستطيع أن يفير البحر والقافية ، أو أيا
منهما ، عند الانتقال من مشهد إلى آخر ، أو عند تغيير طرف الحوار ، أو
غير ذلك .

(هـ) أما أن البيت وحدة القصيدة العربية فلا ينبغي - كذلك - أن يقف
هذا أمام الشعر المسرحى ، لأن الالتزام به ليس عسيرا إلى هذا الحد المبالغ
فيه . فقد تعود الشاعر العربى عليه حتى أصبح سليقة فيه . فضلا من أنه
يمكن التخفيف منه فى أى وقت ، إذ أن عدم الالتزام به حتى فى شعر القصيدة
ليس سوى مجرد عيب . وأولى به ألا يتجاوز ذلك فى الشعر المسرحى .

(و) وأما ما نادى به المازنى من أن ترجمة شكسبير وأمثاله شعرا
تستوجب اختراع بحر جديد ، شبيه بالوزن الأبيض ، وتستهوى ألا يكون

(١) انظر : محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٤٧٠ وما بعدها .

البيت أو السطر - كما هو إلى الآن - وحدة العمل الشعرى، فمذا رأى لا نرفضه
ولسكننا لا نقبله بصورته هذه .

إن أوران الشعر العربى معروفة ، ولها قواعدها وأصولها التى ينبغى أن
نعتز بها ، ونحرص عليها . وليس من المنطق أن نرغم لغتنا على أن تتقبل
بحرا جديدا ، نختاره لها هكذا جهرا وقسرا ، لمجرد أننا نريد أن نترجم إليها
شكبير أو غير شكبير .

لسكننا نقول: إذا جاء هذا البحر هفوا ، وبلا تعمل أو افتعال ، ومتجاوبا
مع ذوق الشعر العربى وطبيعته ، فرحبا به .

إننا لا نرفض التجديد أو التطوير . ولسكننا على اقتناع كامل بأن التجديد
إذا لم يقيم على أساس من الأصالة ، كان بناء هشا ، مهتز الدائم .

(د) إن لكل لغة طبيعتها وذوقها ، ولها طرائقها وأساليبها فى نظم
الشعر وصياغته . وهى تصف الكلام بأنه شعر أو نثر متى تحققت فيه سمات
معينة ، تعترف هى بها حسب قواعد تكونت فيها خلال مسيرتها عبر الأجيال .
ولا يمكن لأية لغة أن تلزم بقواعد من خارجها إلا إذا طوعت تلك القواعد
لطبيعتها ، وإلا كانت كخليفة يراد لها أن تلتحم فى نسيم من غير
فصيلتها .

(ح) إن الشعر العربى تغلب عليه الموسيقية ، واشتهر بوحدة البيت .
جذبه طبيعته (١) .

والشعر الأوروبى أقل منه موسيقية ، وهرف بوحدة القصيدة . هذه
أيضا طبيعته .

وكما طوع الشعر الأوروبى لغة الحوار لطبيعته ، ينبغى على الشعر العربى

(١) ما أسدق من شبه استقلال البيت الشعرى فيما يجهل من معنى باستقلال الجملة
لأنثربية لما تؤدبه كذلك من معنى . فلماذا يصاب فى الشعر ما ليس عيبا فى النثر ؟ انظر :
محمد نابل : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٩٣ وما بعدها .

أن يطورها لطبيعتها كذلك . ولا نعتقد أننا مغالون إذا قلنا إن الشعر العربي قد نجح في ذلك إلى حد كبير . ولكن ، لعل المازني عذره فيما ذهب إليه ، لأن التجارب القليلة الرائدة من شعر المسرح العربي التي زاعمت مقالها هذا لم تكن تبشر بقوة الشعر العربي على تطويع نفسه للنصوص المسرحية ، لكن الأعمال الناضجة ، التي أعقبها أثبتت ذلك (١) .

٤ - الأدب ومجالات التعبير الإنساني :

وهناك قضية أخرى ، نالت قسطا من اهتمام المازني ، وشغلت قدرا من تفكيره ، وهي قضية العلاقة بين الأدب وغيره من ألوان الفنون والمعارف . فقد درس - على سبيل المثال - العلاقة بين الشعر وكل من فني التصوير والموسيقى ، سواء أكانت علاقة لإيجاب أم سلب ، يعنى علاقة تشابه أم تضاد ، وتناولها من عدة زوايا ، وبذلك يكون قد سبق بعض التيارات الحديثة في الدراسات الأدبية المقارنة ، تلك التي تنادي بالافتقار دور الأدب المقارن على دراسة العلاقة داخل الآداب ، بل ينبغي أن يضاف إليها دراسة العلاقة بين الأدب وغيره من مجالات التعبير الإنساني المختلفة : كالتمثيل ، والتاريخ ، والفلك ، وعلم الأديان ، وغيرها .

وسنعرض هنا لمقارنة المازني بين هذه الفنون الثلاثة ، بادئين بحديثه عن الشعر والتصوير ، ومثنيين بحديثه عن الشعر والتصوير والموسيقى ، مع حرصنا - لنفس السبب الذي ذكرناه آنفا - على استعمال أسلوبه وعياناته ، وإزائنا بما اختاره من أمثلة وشواهد .

(١) توالى ظهور مسرحيات غوثي لثناجية في تاريخ لاحق على كتابة المازني مقالها ، مع خلاف بين لبساحين في تحديد تواريخ ظهور الطبقات الأولى لأقسام مسرحياته . أما ما قبل مسرح غوثي من مسرحيات هجرية فلم يكن على درجة كبيرة من النضج . انظر : يعقوب لاندائو : في المسرح والسبنا عند العرب ص ٤٠٥ وما بعدها ، وأحمد هبكل : الأدب القصصى والمسرحى في مصر ص ٢٠٣ .

أولاً : الشعر والتصوير :

تناول المازنى العلاقة بين الشعر والتصوير من الزوايا الآتية :

(١) تصوير الحركة والسكون :

يرى المازنى أن التصوير حين يمالج منظرا لا يستطيع أن ينقل منه إلا لحظة زمنية معينة ، وحين يتلقاه المشاهد ببصره يتلقاه دفعة واحدة ، لا على التعاقب .

أما الشعر فيمكنه أن ينقل ما يسكون في المنظر من حركات متتالية ، يتلقاها السامع تدريجيا ، حسب قدرة اللغة على نقل الحركات وتواليها . أى أن التصوير - حسب تعبير المازنى - له لحظة في الفضاء ، بينما للشعر لحظات في الزمن .

ومن هنا كان الشعر أقدر من التصوير على نقل التابع الحركى في أبيات ابن الرومى الشهيرة :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللح بالبصر
ما بين رقبتهما فى كنفه كرة وبين رقبتهما قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تندساح دائرة فى لجة المساء يلقى فيه بالحجر

إذ لو أراد مصور أن ينقل إلينا مثل هذه الحركات المتتابة فى دحو الخباز الرقاقة ، وفى تتابع دوائر الماء بعد إلقاء حجر فيه ، لوجد نفسه مضطرا إلى تقديم أكثر من لوحة . وفى هذه الحالة لا يكون قد صنع شيئا ، لأنه لن يهى لنا رؤية ذلك كله فى لوحة واحدة ، كما فعل ابن الرومى بأبياته الثلاثة ، وإنما كان هذا هكذا لأن الشاعر يسهه أن يتدرج ، وأن ينتقل من وصف حركة إلى وصف أخرى وثالثة . وإذا كان لا يسهه أن يفعل ذلك بمثل السرعة التى تتوالى بها الحركات ، فليس على القارئ أو السامع حيلة إلا أن يتسامح قليلا ، وأن يغتفر ذلك البطء الذى فى طبيعة اللغة ، التى هى أداة

الشاعر . وليس الأمر كذلك بالنسبة للتصوير ، إذ أن البطء فيه يمد دجوها غير مقبول ، ولا سبيل إلى احتياله أو اغتفاره ، لأن وظيفة التصوير أن يعطيك المنظر دفعة واحدة لا على أقساط ، وأن يملكك - بنظرة واحدة - من أخذ جملة المنظر بكل ما فيه من تفاصيل .

فإذا أراد مصور - رغم كل هذا - أن يعبر عن الحركة في منظره ، فعليه أن يبحث عن وسيلة تساعد على ذلك ، كالإيهام البصرى مثلاً ، أى الإيهام بلحظة عقب لحظة أخرى . وذلك بأن د يتخير أحفل اللحظات بالمعاني والدلائل ، وأنما - إذا استطاع - على اللحظة التالية مباشرة ، وأدغم - إذا تيسر له هذا - على اللحظة السابقة . ولكن ، ليس له أن يعطيك في تصوير أكثر من لحظة واحدة ، أو رسم التعاقب الذى يقع فى الزمن . غير أنه يستطيع - بحسن تمييزه وانتقائه للحظة الحافلة - أن يجمع بين لحظتين متعاقبتين متداخلتين فى الحقيقة .

وعن هذا القليل صورة رسمت لرجل يلف عمامة ، طربوشها موضوع على إحدى ركبتيه ، وكفاه على طيات العمامة^(١) . فإن الناظر إلى هذه الصورة يرى ، من وضع اليد اليمنى ، من أين جاءت فى لأنها حول العمامة . يؤكد بحس أنها ستتحرك ماضية فى طريقها ، فالمصور هنا استطاع أن يثبتك عن الحركة التالية ، التى لم يرسمها^(٢) .

(ب) نقل الأثر الوجدانى :

يرى المازنى أن التصوير ينقل المنظر فى جملة وتفصيله^(٣) .

(١) شاهد المازنى هذه الصورة فى معرض أقيم بالقاهرة ، فكتب هذا عنها .

(٢) حماد المشيم ط ١ ص ١٤٧ وناليتها ، ص ١٦٣ وما بعدها .

(٣) يقول إروين إدمان فى نفس المعنى : « ولا حاجة بنا إلى القول بأن عين المشاهد وانتباه الرسام ينبض أن يتركز على القيم التشكيلية البحتة ، ولا أصبح فن الرسم لونا تأثريا من ألوان الشعر للنظري » . إروين إدمان : الفنون والإنسان ص ٦٠ .

أما الشعر فينقل وقعه النفسى وأثره الوجدانى . ذلك يعنى أن المصور
« إنما يلقى إايك المنظر مجرداً من خوارج النفس ومن وقعه فى الصدر .
تم . . . قد يحرك المنظر المرسوم عاطفة ، أو عاطفة ، أو إحساساً فى قلبك .
غير أن المصور لا يسمعه أن يضمن المنظر إحساسه هو ، أو ينهى إايك كيف كان
وقعه فى نفسه ، كما يستطيع أن يفعل الشاعر ، لأن الشعر - بطبيعته - مجاله العاطفة .
خذ مثلاً أبيات البحترى فى وصف الربيع :

أناك الربيع الطلق ، بخيال ضاحكاً من الحسن ، حتى كاد أن يتكلم ،

* * *

ورق نسيم الربيع ، حتى حسبته يحىء بأنفاس الأجنحة نغماً
فما يحبس الراح التى أنت خلها وما يمنع الأوتار أن تتكلم
فلم يحاول أن يرسم لك صورة ، وإنما أفضى إليك بما أناره الربيع من
المعاني فى نفسه . وبما حركة من طلب الإنشراح فى عيد الطبيعة .
ولو أنك جئت بأبداع صورة مرسومة ، ووضعتها إلى جانب هذا الكلام
أو غيره مما يجرى مجراه لما أغنت شيئاً .

« لأن وظيفة المصور ليست أن يؤدى إليك التأثير ، بل أن يدع الصورة
تؤثر بذاتها ، وبما تنطق به ، دون أن يمالج أداء الأثر الذى تحدثه .
« ولكن ، ليس معنى ذلك أن تميل الطبيعة تمثيلاً لا يتجاوز مجرد النقل
دون زيادة أو نقص ، هو كل ما يطلب من التصوير فن المسلم به أن إثبات
صورة الشيء ليس علائقياً ، وإنما يصبح كذلك إذا كان الإثبات بحيث
يرر صفة الشيء ، ويؤكد مميزاته ، وينفث فيه روحاً » (١) .

(١) وهذا الذى أكدته أيضاً إروين إدمان بقوله : « والرسم لا يحاول محاكاة
الطبيعة محاكاة منقادة مسلسلة . ولا هو يحاول - كالنحاتين - إعطاء صورة مطابقة
لواقع . عالم هو الواقع الجمالى ، أعنى الوضع الحسى ولتمة التشكيلية للحظة ما من
لحظات رؤية الفنان كما يجسمها بالحجر أو فى القوطة » . إروين إدمان : المرجع
للمابق ص ٦١ .

فإذا أراد مصور أن ينقل إليك بعض خواجه النفسية ، فعليه أن يجد وسيلة تعينه على ذلك ، كالإيحاء الفني ، أو ما يسمى بالرمز . وذلك بالألا يعتمد إلى نقل منظر الطبيعة كما هو في الحقيقة ، بل يستعين بالخيال ، ويستوحى الوجدان ، ويقدم لك في اللوحة لا منظرًا ، بل رمزا يشير به إلى ما يفهمه منه ، وبعبارة أخرى مختلفة ، يرفع لعينيك صورة رمزية ، ليس فيها نقل عن مشاهد الطبيعة ، بل عن الحقائق الروحية المركزية الخالدة ، التي يحوم ويلوب حولها الأدب والفلسفة أيضا ، ولكن من ناحية أخرى ، وبأسلوب آخر ، أي تصوير الفكرة .

وليك مثلا واضحا لذلك في لوحة لرسم تميمير تحمل اسم « الفجر » ، حيث لم يعتمد فيها إلى رسم ما يمكن أن تقع عليه العين من عناصر ذلك المشهد الجميل المألوفة والمعروفة ، بل اتجه إلى تمثيل « معنى الفجر » بأسلوب آخر ، وعلى نحو مختلف . فرسم « شيئا كالبوابة المعشوشبة » وقفت عليها امرأة . وشعرها متهدل مرسل ، يعبث به النسيم الندي . وهي كالذي يتمطى من سيات . وقد منتك ظهرها . وانصرفت بوجهها وصدرها إلى الحياة التي يتنفس فجرها ، ولا تزال نجومها طالمة . وعند قدميها طائر ناشر جناحيه ، ينفض عنه الغليل ، ويوقظ روحه ويعددها للحياة ^(١) .

(ج) مجال المذهب الانطباعي :

ومن هذا المنطلق ، وهو أن التصوير يتجه - أساسا - إلى نقل المنظر أكثر من اتجاهه إلى التعبير عن أحاسيس الشاعر وانطباعاته ، قرر المازني أن الانطباعية ، أو الإمبرشيزم - كما أسماها - لا تتلاءم مع التصوير . وذكر لذلك سببين . أولهما : أنها تقحم على التصوير ما ليس في إمكاناته ، وهو نقل الواقع النفسي تجاه المنظر ، والإحساس الذاتي به . وثانيهما : أنها تبعد به عن مجاله

(١) حصاد الحقيق ط ١ ص ١٤٥ وما بعدها ، ١٦٠ ، ١٦٨ وما بعدها .

الأصل ، الذى يتمثل فى نقل المنظر وتحديد^(١) .

ومع أن المازنى لم يتحدث عن علاقة المذهب الانطباعى بالشعر ، لكنه ترك كلامه يوحى بأن هذا المذهب يجمده مجالا واسعا فيه ، على أساس أن إمكانات الشعر تتلاءم مع القاعدة الفنية التى ينطلق منها هذا المذهب ، وهى أن مهمة الفنان الحقيقية ليست تصوير الحقيقة الموضوعية ، بل نقل انطباعات بصره وعقله عنها إلى المتلقى^(٢)

ولعل هذا هو السر فيما ذهب إليه المازنى من أن الشعر - حتى لو كان شعرا جيدا - إذا اتجه إلى مجرد نقل المنظر ورسمه ، يكون قد ضيق على نفسه فى مجاله الأساسى ، وتعدى على مجال لم يهيا له أصلا ، وهو مجال التصوير . ومن الأمثلة التى اختارها المازنى لتوضيح ذلك أبيات أبى تمام الشهيرة فى وصف روضة :

يا صاحبى تقصبا نظريكما
تربا وجوه الأرض ، كيف تعذور
تربا نهارا مشمسا ، قد زانه
زهر الربى ، فكأنما هو مقور

* * *

وجاء فى تعليقه عليها أن « الآيات فى حد ذاتها ، وبالقياص إلى أمثالها

(١) « وفى الواقع أن هناك بعض غلاة النقد الماصرين ، الذين يتبنون لرسم بأن يكون فنا خاليا من تمثيل الأحياء ، أيا كانت ، ويكون الانتباه فيه محصورا فيما يكون أمام العين بصفة مباشرة ، إذ أنه لئى يكون هناك هىة يشغل الانتباه والخيال ، إروين إدمان : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) أماد كثير من الأدباء من أسس المذهب الانطباعى فى الرسم . ولكن المذهب لم يتطور فى الأدب بصورة كافية . انظر مادة :

Meßers kleines Lexikon Impressionismus

عما فى القمر حسنة جميلة . ولكنها - من حيث القدرة على تصوير المنظر
للقارئ ، وإحضاره إلى ذهنه - ليست إلا مظهرا للفشل التام والعجز البين ،
الذين يعنى بهما من يريد أن يتخذ من القلم ريشة كريشة المصور ، ذلك
أن اللغة هاجرة من أن ترسم لك جملة المنظر الذى تأخذه عينك حين
تقع عليه .

ومع أن المازنى أثنى على الأبيات فى تعليقه ترى أنه لم يوفها حقه ، بل
ربما نقول جانبه التوفيق فى اختيارها نموذجا للقمر الذى يتجه إلى نقل
المنظر دون التعبير عن أثره النفسى . انظر إلى قول البحترى فى نفس
الأبيات :

دنيا معاش للورى ، حتى إذا حل الربيع فأنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها نظورها ثورا تمكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة تفرق بالندى فكأنها حين إليك تحدر

ألا تنطق هذه الأبيات بحرارة أنفاس الشاعر ؟ وتومج بحركة وجدانه ؟
وتزخر بانفاس عقله وقلبه ؟ إنها ليست مجرد نقل للمنظر ، بل فيها انفعال
الشاعر معه ، وتعاطفه نحوه . وماذا يراد من شاعر أكثر من هذا ؟

وربما كان النموذج التالى الذى اختاره المازنى من شعر بشار أدق من
سابقه فى توضيح ما يريد ، حيث قرأ أن « من السخف أن يجور شاعر
كشاعر بن برد مثلا على جمال المصور ويقول :

بنت عشر وثلاث قسمت بين غصن ، وكثيب ، وقمر

ويحاول بهذا الجمع بين هيف الغصن ، وضخامة الكثيب ، وبياض القمر
أن يحدث صورة معقولة لها معنى ، أو من ورائها محصور ، أو لها دلالة سوى
العجز المستبين ، والتقليد السمج ، إذ كان القمر مثلا ليس جميلا لأنه أبيض
أو مستدير ، بل لأن لياليه شائعة ، ولذا كرأها نوعة فى القلب ، وعلوق بضمير

الفؤاد ، ولأن حسنها عرك للأشجان ، مثير المرغبات ، وكذلك النفس ، ما أسخف أن يكون قد إنسان كفته ، وإنما يكون جميلا بما حوله من حاشية المعاني ، (١) .

(د) إبراز عناصر الدمامة والسخر :

يرى المازنى أنه لما كانت الفنون قوامها الجمال ، بحسبانه صفة داخلة في تركيب اسمها (الفنون الجميلة) ، وكانت الدمامة قبعا مثيرا للفؤاد ، كان الأصل عدم التقائهما ، أو عدم صلاحية الدمامة للمعالجة الفنية .

لكن الفن يجد طريقه إليها حين لا تكون مقصوده لذاتها ، بل لما يمكن أن تثيره في النفس من أحاسيس أخرى تتقن بها وتصبغها ، كالسخر أو العطف ، أو الألم ، إذا اتسم الدميم بالضعف أو العجز ، وكالرحب والفزع إذا توافرت للدميم القدرة على الأذى . ولهذا ترى الشعراء والمصورين ، الذين يدركون غايات فنيهما ، لا يطلبون الدمامة لذاتها ، وإنما يتخذونها سُلما إلى تحريك الإحساسات المتواوجة ، مثال ذلك أن يضيفوا إليها تكلف الرشاقة ، أو تصنع الوقار ، أو مبالغة الدميم في رأيه في نفسه ، أو غير ذلك مما يخرج لنا صورة مضحكة . . ذلك أن الدمامة ليست إلا نقصا أو عدم استواء ، قد يكون باعما على العطف . ولكن الروح قد توضح ذلك وتسد النقص ، كما يسده العلم أو الفضل أو غيرها ، ولكن إثارة الإحساس بالضعف لا تكون - في الغالب - إلا من طريق الدمامة التي هي نقص ، إذا اتخذ دعوى كال فتح الباب للسخرية . .

وعنى تيمنا للدمامة أن تصبح صالحة للتناول الفني يكون الشعر أقدر على تناولها من التصوير ، بمعنى أنه يجد له فيها مجالا أرحب مما يجده التصوير . وذلك لاعتبارات ناشئة عن نفس الاعتبارات سالفة الذكر :

(١) حساد المشيم ط ١ ص ١٦٥ وناليتها ، ص ١٧٠ وما بعدها .

أولاً : أنه لما كان السامع لا يتلقى الشعر دفعة واحدة ، بل يتلقاه بالتدريج ، من خلال السرد المتتابع ، فإن من شأن ذلك أن يضيف من حدة الشعور الناتج عن الدمعة . وليس الأمر كذلك في التصوير ، إذ يتلقى المشاهد اللوحة بنظره دفعة واحدة ، فيكون أثرها المنفر أشد وأقوى ، تضعف بجانبه باقي الأجاسيس المصاحبة لها .

ثانياً : أنه لما كان الشعر يعتمد - أساساً - على نقل ما يصاحب المنظر من خلجات نفسية ، كان - بطبيعة الحال - أحكم وأدق في نقل المشاعر الأخرى ، التي تثيرها الدمعة ، وتدفع إلى السخرية أو غيره .

ثالثاً : لما كان الشعر أقدر على وصف الحركة في المنظر ، كان - بالتالي - أقدر على تصوير الحركات المواقية للدمعة ، والتي تساعد - أيضاً - على إثارة ما يريده الشاعر من إحساسات مقترنة بها .

والشعر العربي حافل بالآثار الكثيرة من الشواهد التي تؤيد هذا وتدعمه . وهالك نموذجاً لذلك من أبيات لابن الرومي ، ركب فيها أبها بكر الرقي بالسخرية :

لأبي بكر كلام واحد لا يتعدى
ضرب الله عليه دون لفظ الناس سداً

• • •

وإذا قال : رسول الله مد الصوت مداً
فعل سامي من القصاص أعني ، يتجدي

فقد استعملت الأبيات لاستيعاب أشياء لا يقدر التصوير على استيعابها ، ذلك أن الشعر مد سمعه أن يفرق المجتمع ، وأن يتناول شيئاً بعد شيء ، وأن يضم إلى ما يتناول من مظاهره وجوهاً أخرى من المعاني والحركات لا تتألف في التصوير .

بيد أن التصوير - مع هذا - يستطيع ، بخروجه بعض الشيء عن غايته أن

يعطينا لمحة من بعض هذه المعاني . ومن هنا نشأ التصوير الهزلي ، حتى صار هذا قائما بذاته مستقلا في الحقيقة عن التصوير ، ذلك أن القواعد والأصول المتعلقة بالرسم ، والنسب الطبيعية ، والتلوين لا تراعى فيه . وإنما يكون هم المصور أن يبرز - إلى جانب الرسم الذي يريد أن يدلنا به على المرسوم - صفة تحيل المنظر مضحكا ^(١) .

(هـ) بث مشاعر الجلال :

يرى الماضي أن الشعر أقدر من التصوير على تحريك معاني الجلال ، التي يمكن أن تتفجر في نفس الإنسان عند رؤية المشاهد الطبيعية الضخمة ، كالصحارى المترامية ، والقصور السامقة ، والمهاوى العنيفة . ذلك أن الصورة - مهما كبرت وذهبت طولاً وعرضاً - محدودة السعة ، ضئيلة بالمقياس إلى هذه المشاهد . وتراعى الأبعاد - لا تقاربها - هو الذي يثير معاني الجلال في النفس ، وإن لم يكن وحده كل ما يبعثها .

والمصور مضطر أن يصغر المشهد حتى تضمنه رقعة صغيرة . ومن شأن هذا أن يحول دون الإحساس بالجلال ، بخلاف الشعر ، فإنه يستطيع أن يحرك في النفس إلى حد كبير ، كما ترى في قول مسلم بن الوليد في فدفد حافظ ملتب :

تمشى الرياح به حصرى مؤهلة

حيرى ، تلوذ بأكتاف الجلاميد

فليس للتصوير قبل بتحريك معاني الجلال والرهبة ، التي تتعلق بأطراف ذلك المشهد وحواشيه ، وتكمن في أعماقه وخوافيه ^(٢) .

(١) نفس المصدر من ١٧٤ ، ١٧٩ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر من ١٥٣ وناليتها .

(و) لغاية الاجتماعية :

قرر المازني أن التصوير لا يصل إلى مستوى الشعر في خدمة الأغراض الاجتماعية . ولكنه لا يعدم وسيلة يندرج بها للوصول إلى ذلك ، مثله في ذلك . مثل باقي العلوم والفنون . « وإذا كانت ريشة المصور لا تستطيع أن تجارى القلم في إيضاح القوانين ، التي ينبغي أن تجرى على مقتضاها حالات المعيشة وأنظمة الاجتماع وغير ذلك ، فإنها تستطيع - ولا شك - أن تمثل - بما تسمه قدرتها - آلام الفقر وحنان المروءين به ، وزوهم إلى السعادة ، ومكالحتهم لقوى الطبيعة ونظام الاجتماع ، وتسامى نفوسهم ، وتعاليلها عن الدرك الذي هم فيه إلى جوارق وأجود ، وأحفل بمعاني الحياة الحقيقية . وبذلك تحرك في نفوس النظارة العواطف ، التي تتولد منها الرغبة في التغيير ، والنزوع إلى الإصلاح » (١) .

ثانيا : الشعر والتصوير والموسيقى :

في مجال توضيح العلاقة بين هذه الفنون الثلاثة قرر المازني أن الموسيقى (نشاط إنساني) أداته صوتية ، بينما الشعر أداته لغوية . ومع أن الأصوات أسبق في تاريخ النشوء الإنساني من اللغات ، فإن الموسيقى لا تصلح للتفاهم ،

وهي - بطبيعتها - أقرب إلى الشعر وأسس به رحما ، لأن كليهما معوله . في الأساس . على عنصر الصوت ، كما أن وسيلة تلقيهما واحدة وهي السمع (٢) .

(١) نفس المصدر ص ١٥٩ .

(٢) حول العلاقة الصوتية بين الأدب عمومًا والموسيقى يقول إدوين إدمان إن « الصوت . ينتقل في انجمايين . وإن له منيين مترادفين . فقد يكون مجرد وقع على الأذن مستساغ . في حد ذاته ، ولكن لامتص له من ناحية الدلالة الواضحة . كما قد يكون أداة لنقل الأفكار . . . حين يصير الصوت أداة للدلالة ، لهذه هي اللغة ، التي تتحول في الشعر

بـخلاف التصوير ، الذى يكون وصوله إلى المتلقى من طريق المصادفة بالبصر .

والموسيقى - كفن - تختلف عن التصوير فى أنها لا ترسم لك المنظر ، ولكن تسمعك أصوات الحياة المعبرة له فى جميع مظاهرها الممكنة .

وتفترق عن الشعر فى أنها لا نصف خوالج مؤلفها ، بل تطلق عليها من الأصوات ما يحرك هذه الخوالج ، ويشعرك لإها بكل قوتها .

فإذا خطر لمؤلف موسيقى أن يؤلف مثلاً قطعة موسيقية عن الفجر ، فإنه لا يستطيع أن يرسمه على حقيقته ، كما يفعل المصور . كما لا يمكنه أن يحدثك عن الخوالج المتنوعة التى يحركها منظر الفجر فى النفس ، كما يصنع الشاعر . لكنه إن دمجزه مثلاً أن يسممك من الأصوات ما يدرك به ، ويخطر به ، ويألك ، ويجريه فى خيالك ، كان يحكى لك حفيف النسيم الوافى البلبل إذ يزيب مع الفجر ، ويوسوس فى آذان النبات والشجر ، وتغاريد العصافير التى تنبه فيها ساعته الغريزة المفردة ، وأغاني الرعاة ، الذين يستيقظون مع العصافير ، ويستولون على نفوسهم مثلها جماله وروعته ، فيحيونه بالغناء وبألحان المزامير . وبهذا وأشباه هذا ، يحضر إليك الموسيقى منظر الفجر ، بما ينتقيه من الأصوات المألوفة فى ساعته والنمى من شأنها أن تذكرك به ، ويعرب لك من ناحية أخرى عن الخوالج التى يعيشها ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، يجمع فيها بين شيء من التصوير التخيلى وشيء من الشعر ، (٧) ،

ولعلنا نلاحظ أن المازنى حين مد مجال المقارنة خارج محيط الأدب ،

وانتشر إلى فن . بيد أن الخواص السمية الخاصة لفئة قد تستغل وذلك الاستغلال هو الموسيقى ، التى لا تدل على شيء بالمفهوم اللغوى ، ولكنها من الناحية الجمالية ذات دلالة كبرى ، كما أنها تكون من الناحية العاطفية ذات وزن كبير . . . إروين إدلمان : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢) حماد الحشم ط ١ ص ١٤٩ وما بعدها .

لنشمل - إلى جانبه - فنونا أخرى ، كالتصوير والموسيقى ، اقتصر على جانب واحد من جوانب المقارنة ، وهو توضيح مجالات تميز أحد هذه الفنون على آخر أو تقصيره عنه . لكنه لم يتطرق إلى ما تطرق إليه بعض المقارنين المحدثين بعد ذلك ، من النظر فيما يمكن أن يكون بين هذه الفنون ، أو بين اثنين منها ، من علاقات تداخل وامتزاج تؤدي في النهاية إلى صياغة شكل فني آخر ، كأن يتداخل الأدب والموسيقى معا ، فتتكون منهما أوبرا ، أو الأدب والتاريخ ، فتنتج رواية أو مسرحية تاريخية ، أو الأدب وعلم الفلك ، فتتولد إحدى روايات الفضاء ، أو الأدب ومعتقد ديني ، فتتألف أسطورة أو ملحمة أو قصة دينية .. إلى غير ذلك (١) .

وإذا جاز لنا - بعد هذا العرض السريع - أن نخلص إلى صورة عامة لأهم القضايا ، التي اقتنح بها المازني نطاق الدراسات المقارنة ، رغم أنه لم يضع « المقارنة » عنوانا لها ، ولم ينسبها إليها ، فإننا سنصل إلى صورة تتألف عناصرها من القضايا التالية ، التي قام بمعالجتها معالجة تدخل في صميم المنهج .

- ١ - المصادر الأدبية : ناقشها نظريا . ثم أكدها بدراسة تطبيقية ، تتفق في مناهجها مع ما نادى به تيار المحافظين من المقارنين الفرنسيين .
- ٢ - النماذج البشرية : حدد وجهة نظره ، واستعان على دعمها بمثال تطبيقي ، لا يقع بعيدا عن محيط المقارنات الأدبية .
- ٣ - الترجمة الأدبية : وضع كثيرا من أبعادها ، من خلال نموذج تطبيقي مقارن .

(١) انظر : Schmeling : a.a.O., S. 157 ff. ، وأحمد أبو زيد وهوق
السكري : مقالتيئ لهما في مجلة « عالم الفكر » مجلد ١١ : عدد ٣ ، ص ٧
١٩٠١٢ .

وإذا كنا نختلف معه في بعض الأسس التي اقترحها ، فإن تلك الأسس لا تمس منهجية المقارنة ، بل هي أسس أدبية ونقدية عامة .

٤ - علاقة الأدب بفروع المعرفة : لم يففلها ، بل أقاض في شرح العديد من جوانبها . غير أنه ركز على توضيح مدى قدرة كل فرع منها على أداء وظائف فنية معينة ، دون أن يتطرق إلى بحث علاقات التداخل والتكامل بين الأدب وغيره من الفنون ، أو بينه وبين فروع المعرفة الإنسانية ومجالات التعبير المختلفة .

المصادر والمراجع

(باللغة العربية)

- إبراهيم عبد القادر المازني :
- حصاد الحشيم ط ١ ، المطبعة المصرية ١٩٢٥ .
- فلسفة الشعر والنقد الأدبي (مخطوط لدى كاتب المقال) .
- أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٢ .
- أحمد هيكل (دكتور) : الأدب القصصي والمسرحي في مصر من -
- أعقاب ثورة ١٩١٩ إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ط ٣ ، دار المعارف ١٩٧٩ .
- إروين إدمان : الفنون والإلهان ، ترجمة : حمزة محمد الشيخ ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر : الحيوان ج ١ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الحلبي ١٩٣٨ .
- حسن جاد حسن (دكتور) : الأدب المقارن ط ٣ ، دار المعلم للطباعة ١٩٧٨ .
- ريمون طحان (دكتور) : الأدب المقارن والأدب العام ط ١ ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٢ .
- سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الفكر العربي ١٩٤٧ .
- طه حسين (دكتور) : حافظ وشرقي ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المفتي ببغداد ١٩٣٣ .
- لنداو ، يعقوب : في المسرح والسينما عند العرب ، ترجمة وتحليق : أحمد المغازي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ .
- محمد عبد المنعم خفاجي (دكتور) : دراسات في الأدب المقارن ج ٢ ، ط ١ . دار المعارف المحمدية بدون تاريخ .

- محمد غنيمي هلال (دكتور) :
- الأدب المقارن ط ٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ .
- النقد الأدبي الحديث ط ٣ ، دار ومطابع الشعب ١٩٦٤ .
- النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة ، دار نهضة مصر
للطبع والنشر ١٩٥٧ .
- محمد مندور (دكتور) : نماذج بشرية ط ٣ ، دار المعرفة ١٩٦١ .
- محمد نایل (دكتور) : اتجاهات وآراء في النقد الحديث ، مطبعة
العاصمة ١٩٦٥ .
- مجلة د عالم الفكر ، مجلد ١١ ، عدد ٣ (أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٨٠)
- مجلة الأزهر ، الجزء الثامن السنة الثاية والسون شعبان ١٤١٠ هـ .
- مارس ١٩٩٠ م .

(بالفتين : الألمانية والإنجليزية)

Meyers Kleines Lexikon, Bd. 2, Leipzig 1966
Schmejing, Manfred (Hrg) : Vergleichende Literaturwissenschaft,
Athenaion Wiesbaden 1981
Shakesqedre : The Merchant of Venico, retold by Myatt &
Fullerton,
Stories of Shakespearc, 8, Plays 2, Hong Kiong, Oxford
University Press 1986

الاتجاهات العالمية للأدب المقارن

وتأثيرها في الاتجاه المصري

بقلم الدكتور
محمد السيد عيد

١ - نوطئة :

ربما لم يلق فرع من فروع المعرفة من الاضطراب في مفهومه ، وعدم
التحديد في مناهجه واتجاهاته ما لقي الأدب المقارن ، فخل الرغم من معنى
ما يقرب من قرن على استوائه فرعا من فروع الدراسات الأدبية المعترف
بها في كثير من البلدان فإن المختلفين به لا يزالون أبعد ما يكونون عن الاتفاق
على كلمة سواء . ولعل هذا الخلاف يرجع إلى أن مفهوم الأدب المقارن ظهر
مرتبضا بالنزعة القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الحين
وحتى الآن ظهرت اتجاهات في دراسة الأدب المقارن أطلق عليها - أحيانا -
مدارس الأدب المقارن . وليس هناك فارق كبير بين اتجاه ، و مدرسة
ولعل الأول يعني المنحى الذى يسير عليه جماعة من المفكرين والادباء في
اتباع نمط معين من التفكير والتعبير والثاني « مدرسة » يعنى أن يكون هناك
أساس فلسفى يصدر عنه الأديب والناقد أو المفكر في الإبداع والتقسيد
والتحليل ، فالاتجاه الواحد تشابه في الطريقة والأسلوب المنتهج ، والمدرسة
التزام بفكر خاص على أساس قواعد معينة لا يجيد عنها صاحبها إلا نادرا .

والأدب المقارن لم يثرم باتجاه واحد ولا بمدرسة معينة وإنما كان لكل
ناقد رأيه الخاص الذى يصدر عنه ، إلا أنه يغلب - أحيانا - وجود طابع
متشابه يهضم مجموعة من الباحثين في مجال الدراسات المقارنة ، فإذا تمهنا

من الانجاء الفرنسى أو الأمريكى فإنما تقصد ، النجمة الغالية ، ولا يعنى هذا - بالضرورة - أن كل الفرنسيين أو الأمريكيين يجمعهم رأى واحد تجاه الأدب المقارن . إذ لم يعد هناك اتجاه قاصير على بلد من البلدان وإنما هي آراء مختلفة تجد لها - غالبا - مؤيدين ومعارضين . إلا أنه يمكن القول أن المنهج العام للدراسات الفرنسية المقارنة إتبع - في البداية - المنهج التاريخى . وهذا يخالف المنهج الأمريكى الذى إتبع المنهج النقدي ، وسوف نوضح ذلك بعد قليل .

ولما كان الأمر كذلك تجنبنا الأخذ بالقول بمدارس الأدب المقارن وآثرنا أن نقول : اتجاهات الأدب المقارن ، لأن الاتجاه يمكن أن يكون لفرد واحد ويمكن - كذلك - أن يكون لجماعة . ويمكن أن يظهر في بلد ثم يسود في بلد آخر .

وسوف نحاول - هنا - أن نوضح تلك الاتجاهات العالمية بادئين بالانجاء الفرنسى لما كان له من أثر على كل أوروبا منذ القرن التاسع عشر ولا يزال له مؤيدوه حتى الآن .

٢ - الاتجاه الفرنسى :

يرى بعض الباحثين^(١) أن الأدب المقارن فرنسى المولد والنشأة وهذا وأبى له ما يبروه ، فقد كانت فرنسا بمثابة الوطن الأم للدراسات الخاصة باللغات الرومانية التى تفرعت عن اللغة اللاتينية ، وهى اللغة التى كانت سائدة في معظم دول أوروبا أثناء القرون الوسطى ، وكانت اللاتينية لغة العلم واللاهوت ولغة المثقفين ورجال الدين في القرون المسيحية كلها حتى عصر النهضة الأوروبية . لذلك كان الفرنسيون من أول المهتمين بالقرائن المشتركة

(١) انظر دكتور وجاء عبد المنعم جبر تاريخ الأدب المقارن ص ١٢٢ .

جيمهم وبين شعوب القارة الأوروبية ، وإهتم ملوك فرنسا وأمرائها بالأدب والدراسات الأدبية وجعلوا من باريس عاصمة للأدب في أوربا كلها بسبب ما تتميز به العقلية الفرنسية من قدرة كلاسيكية على التنظيم ، كل ذلك مكن فرنسا من أن تفرض في القرن التاسع عشر - مفهومها للأدب المقارن يلتقي - جزئيا - مع أكثر الاتجاهات السائدة في الأقطار الأوروبية مما يسر لهذا المفهوم أن يكسب لنفسه أرضا جديدة في أكثر البلاد الأوروبية معها بذلك عن اتجاه أوربي في الأدب المقارن (١) .

تألم الأدب المقارن في فرنسا ومنها إنتقل إلى معظم الدول الأوروبية على أساس فكرة لإتصال الثقافات بعضها ببعض وتبادل التأثيرات فيما بينها وتعود المكتنابات الأولى فيه إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حيث أخذت فرنسا تتقبل بالتدريج فكرة الأدب الذي لا ينتمى لبلد معين أو عصر بذاته وبخاصة بعد أن أصدرت مدام دي ستال *Madam de Staël* كتابها عن ألمانيا سنة ١٨١٠ م وذكرت فيه : « لا بد للألم أن تتواصل فيما بينها » . ومن الخير للأمة أن ترحب بالافكار التي ترد إليها من الخارج فإن الأمة المضيافة في هذا الخصوص هي التي تقم أكبر الغنى » (٢) .

وكلن من أهم أسباب ازدهار الأدب المقارن في فرنسا في القرن التاسع عشر هي :

١ - سيادة الروح العالمية التي وجدت في أوربا منذ مطلع القرن وهي روح تؤمن بالتقارب والانفتاح ، وتنبكر الانحصار والانزوائية .

(١) عبد الحكيم حسان : الأدب المقارن بين المومنين الفرنسي والأمريكي مجلة أصول ج ٣ ع ٣ لسنة ١٩٨٣ ص ١١ .

(٢) دكتور غوتي السكري : مناهج البحث في الأدب المقارن ، عالم الفكر العدد ثلث لسنة ١٩٨٠ م ص ٢٤ وانظر كذلك :

Madam de Staël : Ueber Deutschland, S. 16 . .

٢ - بدأ انحسار الذوق الكلاسيكي ، وهو ذوق يؤمن بالتعصب القوي والثقافي ، فقد أخذ الفرنسيون يكفون - بعض الشيء - عن دهوى تفوق ذوقهم ومحاولة فرضه على أوروبا ، وأصبح الناس يعترفون بنسبية الذوق وتعددته نتيجة لانتشار مقولات المناخ والإقليم التي قال بها عديدهن الكتاب والعلماء لتفسير أشكال التفاوت بين الشعوب ، كما أصبحوا في تقدم يقدمون التذوق والفهم على الحكم والتقدير .

٣ - مولد عديد من القوميات التي أخذت تتعرف على ذاتها وموقعها داخل إطار الجماعة الإنسانية ، وقد وصف القرن التاسع عشر بأنه عصر القوميات الذي يهتم بالإنسان بالتاريخ والتقاليد والترات الشعبية ، وذلك لأن القوميات الجديدة التي انبثقت من الإمبراطوريات الكبرى - بدأت في سبيل التعرف على ذاتها - بتحديد أديها القوي ، فحكفت على تراثها الشعبي والحضاري وعلى لغتها وتقاليدها ، لتضع منها جميعاً أديها الخاص ، والخاص والذي تحيده ملامح في صوره وضحه إلى جانب آداب الآخرين وتلك هي الخطوة الأولى نحو المقارنة .

٤ - ازدهار حر كات الكشف الجغرافي والرحلة إلى المناطق المجهولة من العالم ، وتعرف الاستعمار - برغم سيئاته - على مجتمعات جديدة ذات حضارات وثقافات تختلف عن مثيلاتها الأوروبية مما أدى إلى الإقبال على الحضارات الغربية ومقارنتها بالحضارات الجديدة في المجتمعات الأخرى .

٥ - وجود المثال الذي يحتذى ، ونعني به استعمال المنهج المقارن في العلوم الطبيعية - وهو منهج يقوم على مقارنة الظواهر المتقاربة لإبراز الخصائص المشتركة واستنباط لقوانين منها ، فقد وجد التشريح المقارن ، وعلم الفيزياء المقارن ، وعلم الأجنة المقارن كما وجد - في الدراسات الإنسانية - علم الأساطير المقارن والتاريخ المقارن ، والجغرافيا المقارنة ، والنحو

المقارن^(١)، والذي أشاع الاصطلاح في فرنسا، واهتم بالدرس المقارن للأدب هو الشاعر الفرنسي : فيليمان Villerman الذي ألقى محاضراته في الأدب الفرنسي بالسربون عام ١٨٢٨ — ١٨٢٩ م تحت عنوان صورة الأدب الفرنسي في القرن الثالث عشر (في أربعة أجزاء)، وتناول التأثير المتبادل بين إنجلترا وفرنسا وتأثير إيطاليا على فرنسا في القرن الثامن عشر، وذكر فيليمان في مقدمة الطبعة الجديدة (١٩٤٠) بأن محاضراته كانت أول محاولة تم في جامعة فرنسية (لتحليل مقارن) لعدة آداب حديثة^(٢).

ومن الرواد الذين أسهموا في بناء الأدب المقارن هو جان أمبير ابن العالم الفيزيائي أمبير، وكان يريد أن يحقق الدرس المقارن لكل الأشعار، وكان يرى أن الأدب علم يقع بين التاريخ والفلسفة وأن فلسفة الآداب والفنون تخرج من التاريخ المقارن للآداب والفنون عند كل الشعوب، وكان من المستعدين لقبول فكرة تفوق أدب آخر على الأدب الفرنسي، يقول : « وإذا نحن وجدنا فيما سنقوم به من مقارنات أن أدبا أجنبيا يتفوق على أدبنا في نقطة ما فنستعزف بتلك الميزة فنحن أغنى بجدنا عن أن نأخذ بيد الآخرين، ونحن أكبر من أن نكون غير منصفين^(٣) ». كانت تلك جهود فردية — وظلت كذلك — حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

وفي سنة ١٨٩٠ أصبح الأدب المقارن من مواد الدراسة الأكاديمية في الجامعات الفرنسية.

وفي سنة ١٨٩٧ كان هنالك أول كرسى للأدب المقارن في جامعة ليون Lyon شغله الأستاذ جوزيف تيكست Texte ثم أنشئ كرسى آخر عام ١٩١٠ في

(١) انظر : رجاء عبد النعم جبر — المرجع السابق .

(٢) انظر رينيه وليك : مفاهيم نقدية ، ترجمة محمد منصور ، عالم المعرفة - عدد

١١٠ ص ٢١١ .

(٣) رجاء عبد النعم جبر، المرجع السابق .

جامعة السربون ، ثم تولت الكراسى الأكاديمية والدراسات العلمية ، والمؤتمرات في فرنسا وخارجها حتى تحدد مفهوم الأدب المقارن ، ومن أم من أسهموا في تحديد هذا المفهوم : فان تيجم Van Tiggem الذي أخرج كتابا بعنوان الأدب المقارن (١٩٣١) عرف فيه هذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية وجدد فيه ميادينه ، وبين مناهج الدراسة فيه : ثم جان ماري كاريه M. Carre وفرنسوا جويار في كتيبه التعليمي الذي صدر في منتصف هذا القرن (١٩٥١) مع مقدمة قصيرة لـ جان ماري كاريه ، عرض فيه لتعريف الأدب المقارن .

وسوف تعرض لمفهوم الأدب المقارن عند فان تيجم وجويار ثم جان ماري كاريه باعتبارهم أم عند المدرسة الفرنسية الحديثة للأدب المقارن إبان ازدهارها في النصف الأول من القرن العشرين .

يحدد فان تيجم مفهوم الأدب المقارن فيقول : موضوع دراسة الأدب المقارن هو دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض^(١) ، فهو يحضر الدراسة المقارنة في تقرير المشابهات والاختلافات بين كتابين أو عشرين أو موضوعين أو صفتين من اثنتين أو أكثر ، وهذا - في رأيه - هو نقطة البدء الضرورية التي تتيح لنا اكتشاف تأثير أو اقتباس أو غير ذلك وتتيح لنا بالتالي أن نفسر أثرنا بأثر تقديرنا جزئيا .

ويرى جان ماري كاريه أن الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبي لأنه دراسة العلاقات الروحية الدولية^(٢) .

(١) فان تيجم : الأدب المقارن ، ترجمة سامي الدوي من ١٩٧٠ .

(٢) انظر : H.N.Fagen : vergleichende Literaturwiss, S.52

وانظر كذلك عبد الحكيم حسان ، المرجع السابق .

وبعزف جوارب الأدب المقارن تعريفا قريبا الشبه بالتعريف السابق فيقول أنه تاريخ العلاقات الأدبية الدولية ، غالباً بحث المقارن يقف على الحدود القومية والقومية وبراغ مهادلات الموضوعات والفكر والكتب والعواطف بين أدبين أو عدة آداب ، ومن ثم فإن منهجه في البحث يتطابق مع تباين بحثه .

من العرض السابق لمفهوم الأدب المقارن عند الرواد الأول للاتجاه الفرنسي يتبين لنا عدة حقائق :

أولاً : أن التحديد الفرنسي للأدب المقارن تحديد تعوزه الدقة لئلا زال المفهوم بمعنى من عدم التحديد بين الفرنسيين أنفسهم فقد تحدث فان تنجم في كتابه الأدب المقارن ، وحاول إيجاد فرق بين الأدب العام والمقارن ، فرأى أن الأخير يدرس علاقات ثنائية ، أي علاقة بين عنصرين لحسب ، كتابين أو كاتبين أو طائفتين من الكتب أو أدبين كاملين . أما الأدب العام فيتمثل في طائفة من الأبحاث تتناول الوقائع المشتركة بين عدد من الآداب سواء في علاقاتها المتبادلة أو في انطباقها بعضها على بعض .

وهذا ما أخذ به رينيه وليك من رواد المدرسة الأمريكية على فان تيجم ، وسوف نوضح ذلك عند عرضنا للاتجاه الأمريكي ،

ثانياً : أن المحور الاسامي في المفهوم الفرنسي هو الانطلاق من الأدب القومي باعتباره المحور الذي تدور حوله الدراسة ، فهما انتهت الدراسة المقارنة إلى آفاق عالمية فإن منطلقها يظل مع ذلك قومياً ، مع أن القومية — فيما يبدو — لا تزيد على أن تكون عاملاً مصاحباً في التمييز بين بعض الآداب من الوجهة الأكاديمية .

ثالثاً : ضرورة وجود علاقة ثابتة للتأثير والتأثر بين الآداب موضوع المقارنة فتوارد الخواطر وتشابه الأفكار بين الأدباء لا يعد من الدراسة المقارنة .

رابعا : اختلاف اللغات بين الآداب التى هى مجال البحث المقارن يستلزم شرطا أساسيا لدى المدرسة الفرنسية ، فلا يدخل فى نطاق الآداب المقارن ما يعتقد من موازات فى إطار أدب واحد سواء تضمن عنصر التأثير والتأثر أم لا كالموازاة بين مسلم بن الوليد وأبي تمام أو بين حافظ وعبد الرحمن شكري أو بين حافظ وشوقي ،

من ذلك يقين أن المفهوم الفرنسى للآداب المقارن منذ نشأته حتى من حدود من أوجه القصور كعدم التحديد الدقيق ، والمضوع للزعة التاريخية ، والولوج بتفسير الظواهر الأدبية على أساس من حقائق الواقع ، وعدم التنسيق بين المنطقتى القوى والهدف العالمى ، وكانت النتيجة الطبيعية أن احتلت العوامل المؤثرة فى الآداب المقارن المكان الأول من مناهج الباحثين المقارنين ، ف حين احتل الآداب نفسه - وهو موضوع الدراسة - المكان الثانى وبالإضافة إلى ذلك فرض هذا المفهوم الفرنسى تجربة العمل الأدبى أثناء دراسته ، بحيث لم تعد دراسته بوصفه محلا فنيا متكاملا أمرا يمكننا حسب المناهج وطرق التداول التى خطتها الفرنسيون أصحاب الاتجاه التقليدى وبذلك استبعدت عملية التقدم الدراسة المقارنة .

وإذا بحثنا عن السبب الذى حدا بالاتجاه الفرنسى السابق إلى هذا المنحنى فى الدراسة المقارنة نجد أن ذلك ربما يمكن فى الظروف التى أحاطت بنشأة الآداب المقارن فى القرن التاسع عشر وهى سيطرة منهج البحث فى التاريخ وسيادته الفلسفة الوضعية التى كان من أهم آثارها دراسة العلوم الإنسانية بنفس الطريقة التى تدرس بها ظواهر الكيمياء والطبيعة ، فقد تصور « برونتيير » تطور الأجناس الأدبية على أسس شبيهة بتطور الأجناس الحيوانية فقد اتبع منهج العلم فى تطبيقه على الآداب المقارن لجددت نظريته عند تطبيقه لها وجانبها الصواب لا تبعاه حرفة العلم لا روحه ومنهجه العام ، ومن اليسير عنده أن يقول إن جنسا أدبيا تطور إلى جنس أدبى آخر كالفصائل الحيوانية

هند دروين دون دقة وفي تقييم مريع (١).

١ - ٢ - الاتجاه الفرنسى المتحرر :

في الفقرة التالية مباشرة لصدور هذه الكتب : « الأدب المقارن لفساك تنجيم (١٩٣١) » وهو يمثل قمة ازدهار المدرسة الفرنسية (التقليدية وكتاب الأدب المقارن لفرنسوا جوبار (١٩٥١) تشهد الأدب المقارن عقب ذلك تطوراً كبيراً في فرنسا فأدى ذلك إلى أن فقدت هذه الكتب صدق تمثيلها للواقع الجديد فقد أصبحت البحوث في تاريخ الأفكار في أوج انطلاقها ، وكانت لازال في طور التكوين يوم ظهرت هذه الكتب وتقدمت بحوث علوم الاجتماع وزاد تدخل علم اللغة في النقد ، وتدخل النقد في الأدب المقارن مما نشأ عنه ظهور أشكال جديدة للتحليل والتركيب وفي سنة ١٩٦٧ ظهر كتاب جديد وهو كتاب الأدب المقارن للأستاذين كلود بيشوا وأندريه روسو وهو يمثل إلى حد كبير الاتجاه الفرنسى المتحرر ، حيث يلتقي فيه ماضى الأدب المقارن وحاضره وقد ترجمه إلى العربية الدكتور رجاء عبد المنعم جبر (١٩٨٥) وهو يركز على المبادلات الأدبية بين الأمم وعلى دور الرحالة والوسطاء والمترجمين والكتب ، ولكنه لم ينبج من الاتجاه الفرنسى التقليدى القديم وهو الاهتمام بتاريخ الأفكار وبالبيانات الأدبية والجديدة فيه أنه ينتقل بالأدب المقارن من دراسة العلاقات الروحية الدولية والعلاقات الواعية بين الأدب كما يقول جوبار وجان ماري كاريه - إلى دراسة العلاقات بين الأدب وفروع المعرفة والمعتقدات الأخرى وعلى الرغم من ذلك فقد خطأ المؤلف خطوة كبيرة في مجال الأدب المقارن ، ويبدو ذلك واضحا من خلال تعريفه له : « الأدب المقارن وصف تحليل ومقارنة منهجية تفاضلية ، وتفسير تركيبي للظواهر الأدبية بين اللغات والثقافات ، من خلال التاريخ والنقد

(١) انظر : خلال ، الأدب المقارن ص ٦٨ .

والفلسفة ، وذلك من أجل فهم الأدب بطريقة أفضل ، بوصفه وظيفة عميقة للروح الإنسانى ، (١) .

من التعريف السابق نرى أن الأدب المقارن في ثوبه الفرنسى الجديد قد اتجه إلى الفلسفة والنقد لفهم النص الأدبى ، فقد أصبح الأدب المقارن غاية النص الأدبى من خلال الاستعانة بالتاريخ والفلسفة والنقد وعلم اللغة وهذا الاتجاه كفيل بإخراجه من أزمنته ، واستمرار بقائه فرعاً نشطاً من فروع الدراسات الأدبية .

ومن أم الدارسين الفرنسيين الذى صححوا مسار الاتجاه الفرنسى المحافظ رينيه إيتامبل ، فقد هارض بشدة المنهج التاريخى وأيد المنهج التطبيقى الذى يدرس النص ويقارنه بغيره ، دون تحصب للأدب الغربية ، ولذلك أطلق عليه أصحاب الاتجاه الفرنسى التقليدى « الطفل الشارد » لأنه دعا إلى تناول آداب أخرى غير الآداب الغربية مثل آداب الشرق الأقصى كالصين واليابان ، والانتقال إلى مباحث جديدة تسمح بالمقارنة مع عدم وجود التائيدات روى المعرفة بدراسة التوازى ولعل إيتامبل تأثر بالمقدمة التى كتبها « لانسون » فى تاريخ الأدب حيث رأى ، إن الدارس الذى يكتب بالتطبيق للحرفى للمنهج المنظم سوف يكون مدرساً رديئاً للأدب ، لا يستطيع أبداً أن يطور لدى تلاميذه على وجه خاص - تذوق الأدب ، كما أن أحداً من المعلمين لا يستطيع أن يعطى لدروسه هذه الفعالية ، إذ لم يكن هاوياً قبل أن يكون عالماً (٢) .

ومن ثم يرى إيتامبل أن أولئك الذين يبالغون فى إتباع الهيكل الخارجى للمنهج قد يجدون أنفسهم بعيدين عن مجال الدراسات الدراسة الحقيقية

(١) رجاء عبد النعم جبر - المرجع السابق ص ٥١ .

(٢) انظر : دكتور أحمد رويش : الأدب المقارن ص ٣٣ .

للأدب في الوقت الذي يجدون أنفسهم وحدهم أيدئهم على واسطة محددة أو صلة مباشرة . وبذلك يكون إيتاميل قد سار في خط مواز للاتجاه الأمريكي الذي يدخل النقد الأدبي ودراصة النص والتذوق الأدبي في الأدب المقارن . وهذا ما سنعرض له الآن .

١ - ٢ - المفهوم الأمريكي للأدب المقارن :

ينبغي أن نلاحظ - منذ البداية - ما يأتي :

١ - أن الأدب المقارن في أمريكا كان يتميز بطابع خاص وأسلوب معين الأمر الذي حدا بمعظم الباحثين أن يطلقوا على ذلك اللون الأمريكي اتم المدرسة الأمريكية في مقابلة ما يدعى باسم المدرسة الفرنسية ، وقد أوضحنا وجهة نظرنا في هذا التقسيم عند التعرف بين المدرسة والاتجاه .

٢ - أن الاتجاه الأمريكي ينظر إلى الآداب نظرة كلية شاملة من طريق المقارنة بينها وتصنيفها والبحث في أسباب نشوئها وتطورها .

٣ - أن الأدب المقارن في أمريكا نما وتطور في أقل من جيل واحد نمواً يثير الإعجاب ويبحث على الدهشة ، وانتشر في حوالى أربعين جامعة متفرقة في أنحاء البلاد .

وكان أول من أدخل الأدب المقارن الجامعات الأمريكية هو القسم تشارلز شاكفور Shacford الذي شغل كرسي الأدب العام في جامعة كورنيل Cornell . وكان أول كرسي للأدب المقارن في الولايات المتحدة في جامعة هارفارد عام ١٨٩٠ وكان أول من شغله الأستاذ آرثر مارش Marsh . وقد وصف طريقة تناوله للأدب المقارن بقوله : « أن الأدب المقارن مازال في دور النظريات التي لم تقبلور بعد في صور نهائية حاسمة وأنه محدد في مدى فاعليته ، وأنه يتناول الأدب باعتباره كلا شاملاً يقارن بين الآداب وبعضها في مجموعات ويبحث في أسباب نشوئها والنتائج المترتبة عليها » (١) .

(١) انظر : هوق السكري المرجع ص ٢٢ .

وقد كانت دراسة الأدب المقارن في أمريكا مختلطة بالأدب العام حتى العشرينيات من القرن العشرين ، وبمدها أعطى منهجه الخاص وأصبح علما قائما بذاته وأدرج في المنهج المقرر على طلبة المدارس والكلية والجامعات ،

ظهر في عام ١٩٤٩ أول عدد من مجلة الأدب المقارن وفي سنة ١٩٥٠ ظهرت أول قائمة لمكتب المراجع اللازمة لتلك المادة وفي سنة ١٩٥٢ ظهر المجلد الأول من حوليات الأدب العام والأدب المقارن ، وفي سنة ١٩٥٤ تشكلت الرابطة الدولية للأدب المقارن ، ثم توالى بعد ذلك الكتب والمجلات والمؤتمرات الدولية التي أظهرت تتميز الاتجاه الأمريكي وسرعة تطوره ، ويرى هذا النمو العظيم لوجود بعض العوامل المشجعة التي توافرت له - ومن أهمها :

اشراك الأفراد إلى جانب الحكومة في القيام بشئون التعليم ، وتشجيع التجديد ورفض التقليد والروتين في البحث العلمي ، واختفاء الأفكار المسبقة عن الشعوب الأخرى ، والموقع المتميز بين أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية وسرعة البحث وتوافر الإمكانيات وجاذبية الجديد .

ونحن نرى إلى جانب ذلك - أن الاتجاه الأمريكي تم بهذه السرعة لأنه وجد ميراثا معدا من المدرسة الفرنسية فبنوا عليه أو عدلوا منه وطوروه ، فهم لم يبدؤوا من فراغ وإنما انتفعوا - من غير شك - بمن سبقهم في هذا المظهر من الفرنسيين والألمان .

وقد استحدث الاتجاه الأمريكي مناهج جديدة وطرق متطورة حتى تبدو أكثر مرونة من الاتجاه الفرنسي يتجلى ذلك في تحديد مفهوم الأدب المقارن على يد أبرز أعلامه هنري ريماك Remak فيقول .

«الأدب المقارن هو دراسة الأدب فيما وراء حدود بلد واحد معين ، وهو دراسة العلاقات بين الأدب من جانب ، وفروع المعرفة والمعتقدات

كالفنون . . . والفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والدين . . . إلخ من جانب آخر أو ببساطة موجزة هو مقارنة أدب أو أداب أخرى وهو مقارنة الأدب بمجالات أخرى من التعبير الإنساني (١).

من الملاحظ أن هذا المفهوم يحاول أن يوسع من مجال الأدب المقارن عن طريق تقديم مفهوم أوسع للعلاقات بين الأدبية من ناحية ، وعن طريق توسيع نطاق المقارنة لتشمل العلاقات بين الأدب والمجالات الأخرى للتعبير الإنساني من ناحية أخرى .

وهذا المفهوم الواسع للأدب المقارن يتيح للباحثين أن يتأملوا الأدب كلها - في حرية - من العصور القديمة حتى القرن العشرين ويمتدح كل ثقافة أجنبية فخرًا متساويًا من التعاطف ، إلا أنه تحديد لا يتخلو - من وجهة نظر المقارنين الفرنسيين - من التعسيف والتفسير المضلل ، كما أنه لا يقسم بالوحدة المتكاملة إذ يظهر فيه طابع الازدواجية ، ذلك أن الأدب المقارن حسب هذا المفهوم هو أولاً : المقارنة بين الآداب وهو ثانياً مقارنة الأدب بغيره من وسائل التعبير الإنساني . وهذه الازدواجية تؤدي إلى تكوين مفهومين لا مفهوم واحد (٢) للأدب المقارن .

ومن أعلام الاتجاه الأمريكي البارزين وبينه وليك Wellk الذي قاد حملة من الهجوم الفرنسي في مقال له بعنوان « أزمة الأدب المقارن » ، والذي ألقى في مؤتمر الرابطة الدولية للمقارن عام ١٩٥٨ وهو يرى أن العالم يعاني أزمة لازمة في البحث الأدبي منذ عام ١٩١٤ وقد ظهرت في الأدب المقارن من هذا التاريخ :

ففي إيطاليا كان كرونتش ، وفي ألمانيا كانت دلتاي وفي فرنسا كان

(١) عبد الحكيم حمان المرجع السابق ص ١٦ .

Aronaud Nivelle :

(٢)

فان نيجم^(١) وانتقد فان نيجم الذى حاول إقامة الاسوار المصطنعة بين الأدب المقارن والأدب العام لأن التاريخ الأدبى والبحث الأدبى يتناولان موضوعا واحدا هو الأدب والرضا في حصر الأدب المقارن في دراسة التجارة الخارجية معناه حصر اهتمامه بالخارجيات لأن التاريخ الأدبى الذى يحصر همه في تتبع تاريخ المواضيع الأدبية لابد من أن ينتهى إلى طريق محدود ، كما نرى من المدرسة الأوربية أنها لم تعد حدود القومية الضيقة إلى الإطار العالمى الشاهل فقد فشل دارس الأدب المقارن أن يعمل كوسيط بين الشعوب وكصانع لذات بينها بسبب المشاعر القومية الملتهبة التى سادت في تلك الفترة وفي ذلك الموضع ، فقد كان الدافع الوطنى يكن خلف العديد من دراسات الأدب المقارن في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها مما أدى إلى نظام غريب من . مسك الدفاتر ، الثقافة ، وإلى الرضا في تنمية مخدرات أمة الباحث عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التى أثرتها أمته على الشعوب الأخرى ، أو عن طريق إثبات أن أمة الكتاب قد مضت أعمال أحد العظماء الغرباء وفهمته أكثر من أى أمة أخرى .

كان وليك يدعو إلى الحرية في دراسة الأدب دون حدود لغوية أو قومية مكانية فليست هناك حقوق ملكية ، ولا مصالح لمترفي بها في البحث الأدبى . . وتبلغ به الثورة مداها على القيود المحكمة التى وضعها الفرنسيون على طريقة البحث في الأدب المقارن وتحديد مجال الدراسة فيه فيقول : « أما ملك المقاطعات المسورة التى تحيطها إشارات ممنوعة الدخول ، فلا بد من أن العقل الحر يكرهها وهى لا تنشأ إلا ضمن حدود المنهجية البالية التى دعا إليها ومارسها منظرو الأدب المقارن المعتمدون من الذين اعتبروا أن الحقائق تكمن في مثلها . تكشف قطع الذهب التى تفرى مكتشفها بإدعاء حق التمتع بها . . . »

(١) ريشيه وليك المرجع السابق ص ٣٦٨ .

ورأى واهلك أن تتعاون علوم أدبية أخرى في دراسة الأدب المقارن مثل علم النقد وتاريخ الأدب على أن يكون البحث الأدبي المتمثل في دراسة النص هو البؤرة الضرورية التي يركز الباحث المفاضل على دراستها ، لأن العمل القفى هو كل من عناصر مختلفة .

وإذا كان وليك قد أخذ على المدرسة الغربية عدم وضوح المنهج وعدم تحديد الموضوعات ، وانحصار البحوث في الدراسة الآلية للمصادر والتأثيرات ، والأسباب التي أدت إلى ظهور عمل أدبي ، ولكنها أغراض لا تنس جوهر الأدب ، وتدخل العوامل القومية والاعتبارات الإقليمية في البحث ، فإن أنصار الاتجاه الفرنسي يرون أن هذا النقد يركز على الجانب الأضعف للمناهج التي انتهت إليها الجسور سنة الماضية ، ولا يعترف بالمنجزات الإيجابية التي حققها المقارنون في تلك الفترة ، وبمحاول الدكتور رجاء عبد المنعم جبر أنصاف الاتجاه الفرنسي الذي تناوله وليك بالمجزم فيقول : الواقع أن التطبيق في الأدب المقارن قد سبق المنهج بمسافة بعيدة ، وأعمال كبار المقارنين شاهدة على ذلك ، كما أن الرواد من المدرسة الفرنسية لم يكونوا على رأى واحد فيما يتعلق بالمنهج ، فقد كان فان تيجم يشجع على دراسة الموضوعات مع أنه يراها أقل أهمية من المصادر والتأثيرات ، على حين كان هازار يستبعدا^(١) .

ونحن نرى أن الحدود الفاصلة الفاطمة بين الاتجاه الفرنسي المتحرر والاتجاه الأمريكي تمكاد تكون معدومة فالأجهاان وإن بدا كل منهما ذو منهج خاص وأسلوب مغاير إلا أنهما - في الواقع يسيران في اتجاه متقارب بل كثيرا ما يلتقيان ويتفقان فائتزع القومية التي استنكرها الأمريكيون على الفرنسيين والتي عدوها من مخلفات القرن التاسع عشر ، تروط فيها - كذلك - الأمريكيون بطريقة تفاسير - شكلا - الطريقة الفرنسية وتمثل في نظرة

(١) رجاء عبد المنعم جبر : المرجع السابق ص ٣٠ .

الأمريكيين الخاصة إلى التراث الأدبي الغربي بوصفه «منطقة حمراء بذاتها في نطاق الدراسة المقارنة» ، ويظهر ذلك واضحا في المنهج الذي أهداه الأمريكيون لدراساتهم في الأدب المقارن فقد كان المنهج في مجمله لا يتعدى - إلا في القليل منه - نطاق الأدب الغربي .

كما لم يستطع الأمريكيون التفريق الواضح بين مفهوم الأدب المسام ومفهوم الأدب المقارن مما أوقعهم في الخلط الذي كانوا قد عاينوه على المدرسة الفرنسية وعلى الأخص على فان تيجم .

وعلى كل حال فقد - نشأ في الوقت الحاضر - تقارب بين المحدثين الأمريكيين والفرنسيين فدعا الجميع إلى المزاوجة بين الدراسة التحليلية والدراسة التاريخية ودراسة العلاقة بين الأدب وفنون التعبير الأخرى وفروع المعرفة والمعتقدات والعلوم والدين ويلج على الاعتراف بالدور الرئيسي للنقد في أي دراسة مقارنة وشمل التاريخ وعلوم النفس والاجتماع ودخل فيه المنهج التاريخي والتوليدي والإحصائي والأسلوبي .

٣ - دراسات الأدب المقارن في مصر : وصلتها بالاتجاهات العالمية :

وأبنا أنه قد نشأ الأدب المقارن في أوروبا نتيجة للإيمان بفسكرتين : الأولى إثراء الأدب القومي من خلال رؤية الآداب الأخرى . والثانية الإيمان بالنسبية وهي فكرة تعتقد بأن هذا العالم الذي نعيش فيه لا يمكن فهم الظواهر التي توجد فيه فهما سليا إلا إذا وضعت في إطار النسبية ، بمعنى أن الأدب كغيره من الظواهر الفسكرية - أمر نسبي بالقياس إلى غيره من الآداب الأخرى .

ولما كانت أوروبا آمنت - منذ القرن التاسع عشر - وهو القرن الذي ظهر فيه دراسة الأدب المقارن - بهذه الأفكار فقد أدى ذلك إلى قيام العلم على هذه الأسس التي أرسوها وصدروا عنها في كتاباتهم .

وفي مصر وجد رجال آمنوا بتلك الأفكار من خلال الرؤية عن قرب
العالم الغربي ، فأروا أنه يمكن أن يطبق على الأدب العربي فأدى بهم ذلك
إلى البحث عن الصلات بين الظواهر الحضارية بصفة عامة ، والأدب
بصفة خاصة .

ولذا تأملنا الروابط الفكرية والأدبية - في بداية القرن التاسع عشر
بين مصر والعالم الغربي ، بدأ لنا أن الدراسات المقارنة في مصر مرت
بمرحلتين :

٣ - ١ - المرحلة الأولى : مقارنة الحضارات :

وكانت محاولة أولية مبسكرة في القرن التاسع عشر اتخذت طابع الموازنة
بين الحضارات والأدب وتمسكها بوضوح كتابات رواد النهضة في القرن
الماضي من أمثال رفاعه الطمطاوى^(١) .

تناول رفاعه الطمطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) في كتابه ، تخلص الإبريد في
تلخيص باريز ، الظواهر الحضارية بين مصر وفرنسا بالمقارنة من خلال
عبداً النسبية ، ومن هنا أخذت روح الأدب المقارن تبرز في معالجته لبعض
المسائل التي ترتبط بقضية مماثلة أو مخالفة موجودة في الحياة الفرنسية والأدب
الفرنسي . وقد تناول الطمطاوى في موازناته المسائل الآتية :

أولاً : الأدب :

واذن بين بعض الأنواع الأدبية فتعرض لقضية الشعر في كل من الأدب
العربي والفرنسي ، ورأى أن لكل أمة نظامها الشعري الخاص بها ، كما أشار
إلى أن الفرنسيين لا يكتبون العلوم نظاماً كما يفعل العرب ، وأعلن أن ترجمة
الشعر العربي أو الفرنسي تذهب بكل جمال شعري . كما لاحظ أن الفرنسيين

(١) انظر : عطية حامر : تاريخ الأدب المقارن ، مجلة أصول ، المجلد الثالث العدد

لا يتفزلون بالخر ولا بالمذكر كما يفعل العرب ، كما رأى أن لكل لغة أسلوبها وموسيقاها ، وأن معرفة المروض ليست كافية لقرض الشعر . وخاص إلى أن الأدب يختلف من أمة إلى أمة أخرى نتيجة لاختلاف الجنس .

ثانياً : اللغة :

رأى رفاعة أن لكل لغة قواعدها الخاصة بها وذلك لدفع الخطأ في القراءة والكتابة وقرر أن سهولة الفرنسية أهانت الفرنسيين على تحقيق التقدم في العلوم والفنون وأن العربية لم تصل إلى هذه السهولة ، وعناصر السهولة في رأيه هي : تبسيط قواعد اللغة ، والتحديد والوضوح ، ووضع المصطلحات لكل علم ، ووضع كل علم في إطاره الخاص به . ولاحظ أن الفرنسية لا يمكنها تعريف الأفعال كما في العربية .

ثالثاً : الظواهر الحضارية :

لم يقف رفاعة عند الظواهر الأخوية والأدبية ، وإنما ورن كذلك بين الظواهر الحضارية الأخرى : الثقافية والاجتماعية والسياسية وهو ما أطلق عليه « البدن الحقيقي » وكان يهدف إلى عرض اصطلاحى عن طريق تجميع مظاهر القوة وأهداف بين المجتمع الفرنسى والمجتمع المصرى رغبة في تطوير المجتمع المصرى وتقديره فرأى أنه يجب الاتصال المباشر بثقافة الأمم المتحضرة من خلال المعاشة كما يجب التمكن من لغات الأمم ولذلك أنشأ رفاعة بعد عودته من فرنسا سنة ١٨٣١ مدرسة الألسن لترجمة العلوم والفنون الأجنبية ، وترجم هو بنفسه كثيراً منها ويرى أن الترجمة من الفنون الصعبة وخصوصاً ترجمة الكتب العلمية لأنها تحتاج إلى معرفة اصطلاحات العلوم المراد ترجمتها (١) .

كان رفاعة الطهطاوى ظاهرة عظيمة وضعت الأدب المقارن في بدايه

(١) رفاعة الطهطاوى : تخلص الإبريز في تلخيص باريز ص ١٢٤
ط دار الكتب المصرية .

الطريق من خلال المقارنة المباشرة في اللغة والأدب والحياة بين أمتين : العربية والفرنسية فكان بهذا أشبه بمدام دي ستال عندما قارنت بين مظاهر الحياة في كل من ألمانيا وفرنسا واستطاعت بذلك أن تنبه الشعب الفرنسي إلى ما في ألمانيا من أفكار جديدة ، كذلك استطاعت رفاة أن تلفت نظر الأدباء والنقاد إلى المقارنة بين الآثار الأدبية واللغوية في الآداب العربية والفرنسية .

٣ - ٢ - المرحلة الثانية مقارنة الآداب :

بدأت هذه المرحلة بصورة أكثر حمقا وشمولا وتنوعا من سابقتها . كان ذلك في النصف الأول من القرن العشرين حيث أرسلت البعثات إلى أوروبا فتسكون جيل جديد يخالف جيل رفاة الذي كان إماما للبعثة المصرية في باريس . هاصر الجيل الجديد نهضة الأدب المقارن في جامعة ليون (أنشأت عام ١٨٩٦) ، وجامعة السربون (١٩١٠) وعرفت اللغات الفرنسية والإنجليزية واليونانية فأتتج في الأدب المقارن ما يمكن أن يقال عنه بدايات طيبة ولم تكنها سارت على خطوات أممها ما يأتي :

الخطوة الأولى :

بدأها أحمد ضيف (١٨٨١ - ١٩٤٥) حيث أعلن أنه لا بد لمدرس البلاغة من الملاحظة الصحيحة والموازنة والمقارنة وأكد أن مدرس تاريخ الأدب لا بد له من الموازنة والمقارنة ، وذلك لا يتحقق إلا إذا تمت بين الأدب العربي وغيره من الآداب أي خرجت عن نطاق الأدب العربي .

وقد طبق أحمد ضيف ذلك كله في كتابه : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، حيث تعرض لدراسة النقد في فرنسا وقارن بينه وبين النقد العربي ، فقرر أن النقد الفرنسي خضع للتأثرات الأجنبية وكان نتيجة للاطلاع على كتب اليونان القديمة وعلى آثار النهضة الأوروبية بهدف تقويم العقول وتطوير الأفكار ، وأن النقد في فرنسا تحليلي وأنه مبني على فلسفة خاصة .

أما النقد العربي فقد كان - في رأيه - بعيدا عن كل تأثير خارجي فلم يأت من الاطلاع على مؤلفات أجنبية ، والغرض منه شرح الشعر العربي فهو نقد يباتي ، هدفه إرشاد الكتاب والشعراء إلى الطريقة المثلى في الأساليب وصناعة الكلام ، ولم يقم على فلسفة خاصة به .

وأعلن أحمد ضيف أننا لا يمكن أن ننهض بلغتنا إلا إذا دفعنا بها إلى التحرك من مكانها الذي طال وقروها فيه ، لنأخذ مكانا يليق بها بين اللغات الحية .

الخطوة الثانية :

وهي التطبيق المقارن بين الأدب العربي والأدب الإنجليزي وظهرت بشكل جيد في مقالات في مجلة الرسالة في الفترة من يناير ١٩٣٥ إلى ديسمبر ١٩٣٦ حيث كتب الأستاذ نغري أبو السعود الذي كان يعمل مدرسا للغة الإنجليزية في التعليم الثانوي - عدة مقالات نقدية مستعملا مصطلح : « في الأدب المقارن » فكان بذلك أول من أدخله إلى الأدب العربي . وهذه المقالات أهمية كبيرة ، فقد طرحت في الحياة الأدبية المصرية مفهوما جديدا للأدب المقارن يقوم على الموازنة النقدية بين أدبين مختلفين في اللغة والتقاليد ، متخطيا النظرية إلى التطبيق .

وتناول نغري أبو السعود في مقالاته كثيرا من الموضوعات مثل : الظواهر المتماثلة بين الأدبين العربي والإنجليزي ، والخيال والمرأة ، والقول المكشوف ، والاثر الاجتماعي ، والثقافة ، والفكاهة ، وأسباب التباهة والخمول ، والطبيعة ، وأثر الدين والحرافة ، وشخصيات الأدباء ، والنقد وأثر نظام الحكم وعرض الأدب ، وأثر القزف في إبداع الأدباء مع التمثيل لكل ذلك من الأدبين العربي والإنجليزي .

كان نغري أبو السعود في دراسته تلك ناقدا لا مؤرخا ، ومعنى ذلك أنه كان يرى أن الأدب المقارن جزءا من النقد الأدبي ، وليس جزءا من تاريخ

الأدب ومرتزم نرى أنه قد طبق مفهومًا معاصرًا للأدب المقارن ، وسبق به الانحاء الأمريكى الذى ظهر ابتداء من عام ١٩٤٩ .

الخطوة الثالثة : الدراسة الأكاديمية :

ربما كانت كلية دار العلوم جامعة القاهرة من ألتى المعاهد العلمية التى دخلها الأدب المقارن منذ عام ١٩٣٨ فقد نصت لالتحقها الداخلية على أنه من الواجب دراسة الآداب الأجنبية فى السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة كما نصت اللائحة على أن تدرس مادة الأدب العربى المقارن فى فرقة التخصص ثم نص المجلس الأعلى لدار العلوم فى أكتوبر ١٩٤٥ على أن يصبح الأدب المقارن مادة مستقلة تدرس فى السنتين الثالثة والرابعة وأن يصير فرعا من قسم يحمل اسم ، قسم الأدب المقارن والنقد والبلاغة ، وتولى رئاسة هذا القسم الدكتور إبراهيم سلامة وعاونته فى هذا التدريس عبدالرزاق حميدة .

ويمثل الدكتور إبراهيم سلامة مرحلة هامة من مراحل دراسة الأدب المقارن فى مصر حيث وضع حجر الأساس فى نظرية الأدب المقارن وحدد معالمه على أساس علمى وأشار إلى الموضوعات التى يجب على الباحث دراستها وشرح النظريات الغربية التى أقام منها دارسوا الأدب المقارن . كان ذلك فى كتاب له بعنوان : تيارات أدبية بين الشرق والغرب - خطة ودراسة فى الأدب المقارن .

وهذا الكتاب يعتبر الكتاب الرائد فى التأليف فى نظرية الأدب المقارن ، تحدث فيه عن مكانة الأدب المقارن ، وعن العناصر المسكوتة له ، والاعتبارات المدونة لتقديمه والقوانين التى تحكم مسيرته .

وكان يهدف من كتابه هذا أن يكون عونًا للطلاب الذى يجدون صعوبة فى تلقى هذه المبادئ الجديدة بمحكم قلة زادم من اللغات والآداب الأجنبية ، وكذلك لمدرسى العربية بالمدارس الذين فرض عليهم فى تلك

الفتوة كتاب « التوجيه الأدبي » من تأليف الدكتور طه حسين .

يعرف الدكتور سلامة الأدب المقارن بأنه « دراسة التيارات الأدبية في مختلف النواحي وبيان أختلافها ومسايلها والعوامل التي تعمل على دفع هذه التيارات ، والعوامل الأخرى التي تغير مجراها » (١) .

وحارل كذلك أن يحدد الفرق بين الأدب ، وتاريخه فرأى أن أنسب تعريف للأدب هو . فكرة مصورة مزجاة بماطقة ، فالأدب الحقيقي - كما يراه هو - ما جمع العناصر الثلاثة : الفكرة والصورة والماطقة وزواج بينها ، ويرى أن مهمة تاريخ الأدب هي جمع الآثار الأدبية التي تحتوى على العناصر الثلاثة ودراسة حياة الأدباء وما تأثروا به وأما دراسة هذه من حيث علاقتها بعضها ببعض أو من حيث تشابها وانجاساتها فهي مهمة الأدب المقارن .

ويرى أن عوامل دفع الأدب المقارن هي الثقل من لغة إلى لغة أخرى من طريق الترجمة التي تعتبر الوسيلة الأولى للأدب المقارن أما عوامل إعاقة الأدب المقارن - كما يراها الدكتور إبراهيم سلامة - فهي في ذاتية الأدب وفي فهم فكرتي العبقرية والأصالة ، فالعنصر الذاتي في الشعور الأدبي خاص بطبيعته وهو الذي يعطى للعمل الأدبي قيمته وتميزه . والعبقرية تفرض التفرد والوحدانية وهو بهذا يرى ما يراه كروثه الناقد الإيطالي الذي يرى أن العمل الأدبي فكرة خلاقة خاصة بكتابه وغير قابل للتكرار غير أن الدكتور سلامة يرى أن الدراسة المقارنة ضرورية لفهم الأدب بطريقة أفضل ، لدراسة فولتير مثلاً لا تتم على الوجه الأكمل بدون التمرض لدراسة شكسبير .

ويرى - كذلك - أن الأدب المقارن علم يحتاج إلى نظرية وكثيراً ما نقدم

(١) رجاء عبد المنعم جبر المرجع السابق ص ٤٣ .

بنظرياته على العلوم الأخرى : مثل علم الاجتماع والنفس ، والتاريخ وقد استفاد المقارنون الغربيون في دراسة الأدب المقارن من تلك العلوم ، فنظرية مدام دي ستال ترى دراسة الأدب على هدى التقلبات السياسية والاجتماعية والتقدم الاقتصادي ، ودراسة الفكر في إطار الآلام والأمال الإنسانية على مستوى الأمم المختلفة .

ونظرية تين تقوم على الاتجاه التاريخي في الأدب والنقد وتفسير الأدب في ضوء العوامل الثلاثة : الجنى . والبيئة الإيمانية ، والمسكانية ، ونظرية بروتيير تقوم على تطور الأنواع الأدبية وتوالدها بعضها من بعض ، وتدرجها في النمو مثل المكان الحي : الطافرة ، والشباب ، ثم الشيخوخة .

ونظرية سانت بيف تدعو إلى الحياد التام في النقد وحرية الاختيار بين المذاهب والتخلص من النزعة الذاتية في النقد .

كما نعرض - الدكتور سلامة - إلى شرح نظرية التقليد ونظرية تلاقى المدينيتين ، فيرى أن التقليد ينحدر من الأعلى إلى الأدنى ويندفع حاملا الجدة والمستحدثات ليؤثر في التقاليد ويهاجمها فإلما لا تقلد إلا ما ترضى فيه وما يوافق عقائدها ، ولا تقف موقف المقلد إلا من أمة تفوقها في الثراء الفكري ، والتقليد ينجح في حوزة التقاليد الثابتة بما يستخدمه من تيار الجدة والاستحداث وهذه تعمل عمل بطء ومثارة ، مستخدمه سلاح الإقناع وحرية الاختيار .

وأما تلاقى المدينيتين فيرى أنه عبارة عن تلاقى مدينيتين بعد فراق طويل حدث خلاله أن تطورت إحدهما وبقيت الأخرى على حالها أو تخطفت . ويرى القانون أن المدنية التي ضعفت بعد قوة لا تندفع إلى تقليد الأخرى التي تقدمت وإنما تربت في أول الأمر وتبدى قدرا من المقاومة . ويستمر ذلك إلى أن تبدأ المدنية القوية خطوة التقرب نحو الضعيفة وهنا تبادلها نفس المسالك ، فيلتقيان وينتج من التقائهما مزيج واحد مدني واحد . ويرى

المؤلف أن هذا القانون ثبت صلاحيته في الدراسات المقارنة مثل التقاء مدنية العرب مع المدنية الأوروبية الحديثة ، والتقاء الأوروبية مع المدنية العربية في القرن الثامن والتاسع الميلادي .

وبعد فقد كان كتاب الدكتور إبراهيم سلامة من الكتب الهامة التي أرسلت نظرية الأدب المقارن من حيث توضيح المفهوم وتحديد الموضوعات وعرض النظريات وشرح القوانين فهو بهذا سابق فيما اشتمل عليه من موضوعات والذي حال دون شهرته هو ظهور كتاب الدكتور محمد خليل هلال والذي به تم الانتقال إلى مرحلة الدراسة المنهجية العلمية .

• الخطوة الرابعة :

تمثل نوعاً من الدراسة التطبيقية التي اتخذت شكل مقارنات حيناً وشكل موازنات حيناً آخر . وقد قام بها في كلية دارالعلوم الأستاذ عبد الرزاق حميدة في كتابه الذي ظهر عام ١٩٤٩ بعنوان ، في الأدب المقارن ، وذكر فيه تعريفاً واسعاً للأدب المقارن وهو : دراسة العلاقات بين الآداب وهذه العلاقات تشمل - في رأيه - تأثير أدب في أدب وتأثير أدب بأدب ، وأخذ عصره من عصر ، وتشابه حركات أدبية أو تباينها ، ونموض مدارس أدبية مختلفة أو متشابهة في أزمته ونفقات متعددة وبسطة بعض العوامل وتأثيرها^(١) في الآداب على اختلاف عصورها أو بيئاتها ومدى هذا كله .

فهي تدرس العلاقات الأدبية على مستويين :

مستوى داخلي في إطار الأدب القومي : ومستوى خارجي بين الآداب القومية وبين غيره من الآداب الأجنبية .
فهو يعقد مقارنة إذا وجد تشابه في الموضوع أو الفن الأدبي أو الأساليب أو الظروف الداخلية والتي لها صلة بتشكوين الأدب .

(١) عبد الرزاق حميدة : في الأدب المقارن ص ٣٧ .

وقد اختار عبد الرزاق حميدة تسعة موضوعات طبق عليها منهجه منها: ما كان في الموازنة مثل موضوع بين المتنبي وحمدونه . فهو موازنة بين موضوعين في إطار الأدب العربي ، ومنها ما كان في المقارنة مثل المقارنة بين الأدباء الذين وجدت بينهم ظروف متشابهة مثل نقد البصر بالنسبة لبشاش وأبي العلاء العربيين ، وملتن الإنجليزى ومنها ما كان في إطار الأدب المقارن بين المعرى وداتى .

وقد أخذ علمية أنه خلط بين الموازنة والمقارنة ، لفقد أنه شرط المقارنة من وجهة نظر الذين يشترطون اختلاف اللغات بين الأدباء موضوع المقارنة- والواقع أن الاستاذ حميدة قد فهم المقارنة بمعناها الواسع الذى يشمل الموازنة والمقارنة والنقد الأدبى .

٣-٣- مرحلة الكتابة المتخصصة في الأدب المقارن:

سادت المدرسة الفرنسية كل أوروبا في الأدب المقارن وذلك لما لفرنسيين من مقدرة فائقة على نشر أفكارهم خارج حدود بلادهم واهتمامهم الشديد بنشر الثقافة الفرنسية لاقتحام بتميزها ، وكان لتلك الثقافة تأثيرها - كذلك - في اتجاه الأدب المقارن في مصر في بداية النصف الثانى من القرن العشرين . وذلك للصلة القوية بين مصر وفرنسا .

ولما أراد القائمون على الثقافة في مصر إثراء المجال الأدبى أرسلوا النابذيين من أبناء الوطن إلى فرنسا في بعثات دراسية وكان الدكتور محمد غنيمى هلال أول جيل المتخصصين الذين أوفدوا إلى فرنسا للدراسة في هذا المجال . ثم عاد من بعثته سنة ١٩٥٢ بعد الحصول على الدكتوراة في موضوعين مقارنيين هما : تأثير النثر العربى على النثر الفارسى في القرنين الخامس والسادس الهجرىين ، وموضوع هيابايا - الفيلسوفة المصرية - في الأدبيين الفرنسى والإنجليزى . من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين .

وتوفرت لدى الدكتور غنيمى هلال كل عوامل النبوغ للدراسة المقارنة-

أفقد أنفنى الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والفارسية ، كما تملذ على يد دجان
مارى كاريه ، وهو من عمد المدرسة الفرنسية للأدب المقارن ، وكانت الفترة
التي أوفد فيها فترة ازدهار تلك المدرسة ، ولما عاد وجد المناخ الملائم من
تشجيع الدولة وإقبال الدارسين على البحث وحب القراءة فى هذا المجال .

كتب الدكتور غنيمى هلال كتابه د الأدب المقارن ، عام ١٩٥٢ سالكاً
فيه المنهج الفرنسى التاريخى وحدد فيه معالم الطريق التى سار فيها حتى وفاته
عام ١٩٦٨ . وقسم ميادين البحث فى الأدب المقارن إلى سبعة : هوامل
انتقال الأدب من لغة إلى لغة ، الأجناس الأدبية ، الموضوعات بحوث
المصادر والتأثير ، التيارات الفكرية ، ثم صور البلد فى أدب أمة أخرى .
وأكد الدكتور غنيمى هلال على استبعاد الموازنات من ميدان الأدب
المقارن تلك التى تعقد بين كتاب من أدب واحد أو من آداب مختلفة ، ولم
تتحقق بينهم صلات تاريخية ، ويبنى فى نهضة جمهورية على من قاموا بذلك
وزاعمين أن علمهم من الأدب المقارن .

ويؤكد - كذلك - على دراسة الأفكار الأدبية والأجناس والتيارات
الفكرية وليس الاختصار على الجوانب الفردية فى الإنتاج .

واستطاع الدكتور غنيمى هلال تأسيس ما يمكن أن يسمى مدرسة نقدية
مقارنة تقوم على المدرسة الفرنسية فى اتجاهها ودراساتها التاريخية .

وفى الخمسينيات من هذا القرن توالى الدارسون للأدب المقارن وكانوا
جميعاً على امتداد الخط الفكرى الذى بدأه غنيمى هلال ، ففى عام ١٩٥٧
حصل كل من أنور لوقا وعطية عامر على درجة الدكتوراه فى الأدب المقارن
من جامعة باريس ، وتتلذذا أيضاً على جان ماري كاريه ، وهو يعتبر الأستاذ
لهذا الجيل من المصريين الذين تخصصوا فى الأدب المقارن فى تلك الفترة .

وفى أواسط الستينات ظهر جيل جديد يمثل تنوعاً فى الاتجاه فيسمح
بمقارنة النصوص المتشابهة على أساس نقدي صرف وهو ما تقول به الدراسة

الأمريكية ، فقد وجدت لها في مصر في الآونة الأخيرة أتباعا من الدارسين والباحثين الذين شايعوها وساروا على نهجها .

أما في الأزهر الشريف فقد تولى تدريس هذه المادة - في أوائل الخمسينات - الدكتور الشيخ محمد الفحام بعد عودته من السربون ثم الأستاذ محمد البحيري . أحد أساتذة كلية اللغة العربية ثم توالى الأساتذة من أبناء الأزهر تدريس هذه المادة والتأليف فيها ومنهم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي . الذي كتب دراسات في الأدب المقارن ، (من جزأين) والأستاذ الدكتور حسن جواد في كتابه ، الأدب المقارن ، ثم أخيرا الأستاذ الدكتور السيد العراقي في كتابه ، الأدب المقارن ، .

هذا ولا يزال الأدب المقارن في مصر يعاني من صعوبات جمة ويواجه تحديات كثيرة تتعلق بقلة المصادر ، وركود حركة الترجمة ، والضعف في اللغات الأجنبية ، وعدم الاستقرار المنهجي ، واختلاف اتجاهات وثقافات الدارسين والمعاهد العلمية .

طبيعة الشعر بين حازم القرطاجنى وباكون

بقلم الدكتور
محمد عبد الجواد فاضل
مدرس الآداب والنقد

تقديم : Preface :

تمتاز الدراسات التفاضلية Contrastivestudies بالنشاط والحيوية Energy and Activity إذ يقابل فيها فكر يفكر وثقافة بثقافة وحضارة بأخرى ، فهي من قبيل الموازنة دالتى كانت أنحصب اتجاهات النقد الأدبى عند نشأته^(١) ، ومن هذه الدراسات ما نحن بصدد التعرف على طبيعة الشعر بين حازم القرطاجنى^(٢) وفرانسيس باكون^(٣) Francis Bacon وفيها

(١) أبو الهلاء النقاد الأدبى . دكتور السيد عبادة ص ٣٠ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م - دار المعارف .

(٢) أبو الحسن هبة الدين حازم بن محمد الأنصارى القرطاجنى (بفتح التاء) نسبة من قرطاجنة الأندلس لامن قرطاجنة تونس - وفي البنية : قرطاجى - وهو عالم فى البلاغة والأدب والفقه والعروض ، نازر ناظم ، ومن آثاره : منهاج البائلاء فى علمى البلاغة والبيان وكتاب فى القوافى ، والقصيدة للبيئة فى النعوى ، ولد سنة ثمان وسبعمائة هجرية (١٢١١م) وتوفى بتونس سنة أربع وثمانين وسبعمائة هـ (١٢٨٥م) انظر : بنية الوعاة فى طبقات الفنويين وللمصنف السبولى تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١/٤٩١ ، ٤٩٢ ، الطبعة الأولى - الحاسب ١٣٨٤هـ ، مجمع المؤلفين عمر رضا كعدالة ١٧٧/٣ مطبعة التراثى بدمشق ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبل ٦/٣٨٧ ، ٣٨٨ القديسى ١٣٥١هـ .

(٣) ولد بلندن فى أوائل ١٥٦١ واشتغل بالقضاء والحاماة وكان يملك - =

نواجه فكريا بفكر ورأيا برأى انرى أوجه الاتفاق والاختلاف من خلال المقارنة مع مراعاة الفارق الزمني بين حازم وباكون إذ النقد يتغير من عصر إلى عصر ومن جنس أدبي إلى جنس أدبي آخر .

وقد بدأت صلتى بباكون حينما عثرت على نظريته النقدية : « طبيعة الشعر The nature of poetry » ، في كتاب ، نظريات نقدية إنجليزية^(١) English critical theories وهذه النظرية قد أخذت - في الأصل - من كتاب « تقدم المعارف The Advancement of learning » لباكون وقد بذلت في ترجمتها جهدا لا يستهان به ، لأنها كتبت بلغة إنجليزية قديمة فضلا عن احتوائها على بعض الكلمات اللاتينية ، وما كنت أدري أن الأستاذ العقاد سبقني إلى ترجمة الجزء المتعلق بالعصر في هذه النظرية وترك الجزء الوارد في صدرها لأنه يتعلق بالحديث عن مصادر المعرفة وأقسام التاريخ وقد تفضل - مشكورا - الأستاذ الدكتور / إبراهيم الخولي بمراجعة الجزء الذي

في عداد العلماء والحكماء بل في عداد السادة والفقهاء قبل أن ينظر له الدخول باسمه وعمله في زمرة الأدباء ، وأكبر الظن أنه كان يأبى أن يحسب من أدباء اللغة الإنجليزية خاصة لأنه كان على سنة علماء عصره يقول في الكتابة الوضعية على اللغات القديمة ، كاللاتينية واليونانية دون هذه اللغات الحديثة التي تعرض العقل للانحلال كما قال :

من مؤلفاته : تقدم المعارف The Advancement of learning الذي أصدره سنة ١٦٥٥م انظر : المجموعة السكامة مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد - المجلد التاسع عشر (تراجم وسيرة) ص ٣٠٦ - ٣٢٠ دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨١م . « بتصرف » :

(١) انظر : Look at

English critical theories (1) from Aschom to Ben gouson.
P. 309—314—published by the anglo —Egyptian Bookshop.

تركة الأستاذ العقاد بل وأهاد صياغته بأسلوب أدبي راق وإن كان هذا الجوء لم يدخل ضمن الدراسة التي بين أيدينا .

وقد آثرت الاعتماد على ترجمة الأستاذ العقاد ، منها على ما جاء إليه من إجمال (١) أو تعرف في المعنى في بعض المواطن .

أما عن القضايا النقدية التي أثارها باكون في نظريته فهي تتمثل في بيانته حد الشعر ومقوماته وفي حديثه عن دوافع الفلوقية ، وأقسام الشعر ومكانته والتفاوت بين مستقبله .

هذه هي القضايا النقدية التي أثارها باكون في نظريته (٢) وهي - بالتالي - ستحدد لنا ما نرضه من القضايا عند حازم بقلة في تعريف الشعر وبحيث مقوماته والفلوقية وأقسامه ومكانته والرؤية المستقبلية له ، وهذا يثار سؤال لا بد لنا من الإجابة عليه ولكن في حدود ما توصلنا إليه ، وهذا السؤال هو : ما الصلة بين حازم وباكون ؟ وهل تأثر أحدهما بالآخر ؟

(١) حينما ترجم الأستاذ العقاد دوافع الفلوقية الشعر عند باكون أجعلها في اثنين دون الإهارة إلى الثالث وهو :

« ولأن التاريخ الصحيح يقدم الأعمال الناجحة وتنتج الإنجازات لا تكون متوافقة مع أهلية واستحقاق الفضيحة والذيلة ، فإن الشعر يختار في هذه الأمور لتصبح أكثر عدلا في الجزاء ، وأكثر مطابقة للدليل الواضح » وفي هذا الذي يقول باكون :

Because true history propoundeth the successes and issues of action not so agreeable to the merits of virtue and vice, therefore poetry feigns them more just in retribution and more according to revealed providence. Look at : English critical theories (1) P. 311

(٢) نص الترجمة موجود في : المجموعة الكاملة لأقوال الأستاذ عباس محمود العقاد ، المجلد التاسع عشر (تراجم وسيرة) ص ٤٢٣ ج ٤٢٦ .

والجواب : أن الصلة بين حازم وباكون مردها إلى أن كليهما متأثر بالفسكر اليوناني (١) أما تأثر أحدهما بالآخر فهذا ما لم أنف فيه على دليل . وقد أشار باكون في كتابه ، طوبى الجديدة The New Atlantis إلى العرب وذكر فيه بعض الأسماء العربية ولكنه لم يجد في كتبه كلها دليلا على استفادة مباشرة من مطالعة الكتب العربية المرفوعة إلى اللغات اللأوربية وكل ما استفاده من هذه الكتب فهو منقول من المصادر الأخرى كما ينقل التابعون عن السابقين شاعرين بذلك أو غير شاعرين .

ويكفي في « الدراسات المقارنة The Comparative studies » أن تكون هناك مظنة لتأثير وتأثر . . وقد تنهى الدراسة بتأكيدها أو نفيها ، وفي مثل هذا البحث : المظنة قائمة ، وإلى جانبها عامل آخر هو أن كلام حازم وباكون متأثر بالثقائ اليوناني وبأرسطو على الخصوص والمقارنة في مثل هذا تكشف عن مسيرة فكر في يمتين مختلفتين وكيف يكون تفككه بوعائهما الثقافي بل إن الدراسات النقدية التفاضلية يمكن لقيامها - في رأي - الاتفاق على إثارة قضايا نقدية معينة وأن اختلفت فيها وجهات النظر شريطة أن تنفي هذه الدراسة بالشواهد والمتغيرات - فيما تدرسه - فتحدد مكانها .

وتعرف بمقدارها وتركز على أوجه التلاق ، وصير المقارنة ، فكثيرا ما تختلف وجهات النظر ولكنها - في الوقت نفسه - لا تكون متعارضة . وخليق بنا أن نولي مثل هذه الدراسات حظها من العناية والاهتمام ، حرصا على إثراء تراثنا واكتشاف أصالته وتعميقا لفهمه وإدراكه ، ومن هذا المنطلق أقدم هذه الدراسة المتواضعة متوخيا فيها الإيجاز والتركيز وقد

(١) بالنسبة لباكون ينظر المرجع السابق ص ٣٠٢ - ٤١٠ ، أما عن تأثر حازم بالفسكر اليوناني فسيأتي بيانه في تعريف الفسعر .

حظيت بمراجعة أستاذين جليلين هما أ. د/ السعيد عبادة ، أ. د/ إبراهيم الخولي جزأهما الله عن العلم خير الجزاء وأسأله عونه وتوفيقه فهو سبحانه نعم الموفق المعين .

تعريف الشعر The poetry Definition :

الشعر عند حازم ، كلام موزون مقفى من شأنه أن يحجب إلى النفس ما قصد تعبيبه إليها ، ويكره إليها ما قصد تكريمه لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخيل له ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن حياة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو مجموع ذلك . وكل ذلك يتأكد بما يفتقر به من إغراب . فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى أفعالها وتأثيرها^(١) .

وواضح من هذا التعريف أن الشعر عنده لا يتحقق بمثل ما تحقق به عند قدامة من تألف واتفاق كاملين بين اللفظ والمعنى والوزن والقافية^(٢) بل لابد فيه - ليسكون خلقاً بهذه التسمية - أن يفتقر إغراباً ويحدث تعجباً عند السامع .

ولذا كان أفضل الشعر عنده ما حسنت محاكاته وهيأته وقويت شهرته أو صدقه أو غنى كذبه وقامت غرابته . . وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة واضح الكذب ، خالياً من الفراية^(٣) .

والمتمثل فى تعريف حازم للشعر يلمس كبير تأثيره بأراء أرسطو لحازم

(١) منهاج البلاغة وسراج الأدباء لأبى الحسن حازم القرطاجنى - تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ص ٧١ - تونس ١٩٦٦ .

(٢) نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر - تحقيق / كمال مصطفى ص ٢٥-٢٦ الطبعة الثالثة - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٦٨ هـ .

(٣) منهاج البلاغة ص ٧١ ، ٧٢ .

من غير شك قد أفاد كثيرا من مطالعته لكتاب فن الشعر للمعلم الأول^(١). وقد ذهب فيه إلى أن الشعر محاكاة^(٢) أي تمثيل أفعال الناس ما بين خيرة وشريرة، بحيث تكون مرتبة الأجزاء على نحو يعطيها طابع الضرورة أو طابع الاحتمال في تولد بعضها من بعض^(٣).

فإذا جئنا إلى باكون وجدناه يعرف الشعر^(٤) بأنه جزء من المعرفة في قالب كلمات مفيدة بعض التقييد، ولكنها فيما عدا ذلك غاية في الترخص والطلاقة، وجمعها الوصول إلى الخيال الذي لا تربطه قوانين المادة، ولهذا يحصل كما يشاء بين مافساته الطبيعية وبفضل بين ماوصلته وبزواج وبطاق بين الأشياء على غير السنة المشروعة كما قيل: إن الرسامين والشعراء قد أبيح لهم دائما ما يرومون.

والمأمل في تعريف جازم وباكون يرى أن من لوازم الشعر وضروراته التخيل Imagination لجوهر الشعر في نهاية الأمر هو الإفعال وظائفة التأثير في النفوس وإثارة العواطف كما قال أمير الشعراء:

والشعر مالم يكن ذكرى وهاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان^(٥)

وانفاقمهما في أعجاد الشعر على الخيال أدى إلى اقتناعهما بعد غايات الشعراء وامتداد آمادهم في معرفة الكلام واتساع مجالهم في جميع ذلك غير

(١) لناكد من ذلك، تراجع - على سبيل المثال - الصفحات (٦٨، ٦٩) (٨٥، ٨٦، ١١٦) في المنهاج وتقابل بالصفحات (١٦٩، ١٧٠) (١٦٦، ١٦٧)، (١٧١) فهذه الشعر لأرسطو طاليس. ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوه الدكتور/ عبد الرحمن بدوي مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣ م.

(٢) فن الشعر ص ١٠.

(٣) النقد الأدبي الحديث، تأليف الدكتور/ محمد غنيمي هلال ص ٤٩ الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م. دار مطابع الشعب.

(٤) المجموعة الكاملة - المجلد التاسع عشر ص ٤٢٣.

(٥) الشوقيات المرحوم / أحمد شوقي ١٠٣/٢ - دار الهدى - بيروت لبنان.

أن يكون قد عرض هذا المعنى بإيجاز في تعريفه الشعر ، وتناوله حازم
باستفاضة وفي مواضع شتى من كتابه مستشهدا على ذلك بقول الخليل
ابن أحمد :

والشعراء أمراء الكلام يعرفونه أنى شاءوا ويحوز لهم مالا يحوز لغيرهم
من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تعريف اللفظ وتعقيده ، ومد المقصور
وقصر الممدود والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته ، واستخراج ما كانت
الأسن عن وصفه ونعته والأذهان عن فهمه وإيضاحه ، فيحربون البعيد
ويعدون القريب ، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ويصورون الباطل في صورة
الحق والحق في صورة الباطل (١) .

ولكن تعريف الشعر عند خازم أتم وأوضح منه عند باكون فقومات
الشعر عند حازم هي الوزن *measure* والقافية *Rhyme* والتخييل *Imagination*
والحكاية *Resemblance* في حين لم يشر باكون إلى القافية كعنصر من عناصر
الشعر وكلمة *measure* التي أوردناها في نصه إنما تعنى الوزن أو التفعيلة (٢) فهل
الشعر الإنجليزي خال من القافية ؟ الجواب لا ، ففي الفرنسية والإنجليزية
تتفق قافية البيت مع قافية الذى بعده وهى القافية المتعاقبة *rime embrassée*
أو مع التالى لما بعده وهى القافية المتقاطعة *rime croisée* على حين القافية في
الشعر العربي القديم تسير على نمط واحد مع لزوم مالا يلزم أو بدون (٣) .
وإيضاحا لما ذكر من القوافى المتعاقبة والمتقاطعة اختار نصين لشاعرين
معاصرين لباكون :

النص الأول للشاعر توماس كامبيون *Thomas Campion* (١٥٦٧ -
١٦٢٥) بعنوان *There is a Garden in Herface* يقول في مطلعته :

(١) منهاج البلاغ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) المازد (قاموس إنكليزي عربي) منير البعلبكي ص ٥٦٦ .

(٣) النقد الأدبي الحديث د/ غنيمى هلال ص ٤٧٥ ، ٤٧١ .

There is a garden in her face
Where roses and white lilies grow.
A heavenly paradise is that place
Where in all pleasant fruits do Flow. (1)

فالذافية هنا متقاطعة حيث اتفقت قافية البيت الأول مع الثالث والثاني
مع الرابع ، ومعنى الإبيات :

هناك بستان في محياها
حيث تنمو الورود والسوسن الأبيض
جنة الفردوس في هذا المكان
فيه وفر من من الثمار الجميلة

أما النص الثاني فهو للشاعر توماس ناش Thomas Nashe (١٥٦٧ سنة
١٦٠٦) بعنوان الربيع Spring يقول في مطلع له :

Spring, the sweet spring, is the year's pleasant king
Then blooms each thing, then maids dance in ring
Cold doth not sting, the pretty birds do sing (2)

فالذافية هنا متعاقبة حيث جاءت في الإبيات الثلاثة متفقة ، ومعنى
الإبيات :

الربيع : ذاك الربيع الجميل ملك العام البهيج
فيه يتفتح كل شيء ، وترقص الفتيات في حلقات

(1) — poetry english An Anthology. M.L. Rosenthal Goneray
Editor P. 207 Oxford — 1987

(2) A Little Treasury of English poetry. Edited by Roshad
Rushdy P. 31 Anglo Egyptian Bookshop 4th edition 1970. printed
da dar wahan press.

لم يعد لسمع الصقيع ، بل شدو الطيور الجميلة
وليمست القوافي المتعاقبة والمتقاطعة هي كل مافي الإنجليزية، فبالرجوع
إلى المعجم^(١) وجدت أماطا أخرى من القوافي هي :

١ - القافية الأمامية أو الجناس الاستهلاكي Head rhyme or
Alliteration (تكرير حرف أو أكثر في مسهل لفظتين متجاورتين مثل^(٢))
(Threatening throng

٢ - القافية الداخلية أو الإيقاع الداخلي Internal rhyme (إيقاع بين
لفظة في بيت شعر ولفظة أخرى في نهاية ذلك البيت أو في بيت آخر^(٣) .

٣ - القافية الغنية Rich rhyme or rime rich وفيها تشابه الحروف
الصامتة التي تسبق مباشرة - الحروف المنبورة ولكن هذا النوع الأخير
من القوافي موجود في الفرنسية^(٤) وهو قريب الشبه بما نسميه هندا
دلاوم مالا يلزم .

فالقافية موجودة في الشعر الإنجليزي وإن لم يكن لها من المسكاة والهيمنة
ما للقافية في الشعر العربي إذ القصيدة الإنجليزية كثيرا ما يجتمع فيها أكثر
من نمط واحد من القوافي أما العرب فـ ، لم يكتفوا بالتزام الحرف الأخير
في القافية وهو حرف الروي بل التزم بعضهم تقفية أبيات القصيدة كلها

(١) انظر :

Chambers Twen's th century dictionary revised edition with
supplement, edited by A.M.

Macdonald OBE BA (OXon). P. 1160 Printed and bound
in great Britain, Latest Reprint 1981

Chambers .. Dictionary P 1160

(٢) المورد ص ٣٩

(٣) المورد ص ٤٧٥

بأكثر من حرف واتبع ذلك أبو العلاء في دلتوماته، وسموا هذا الوجه من وجوه البلاغة عندم دلتوم ما لا يلزم، وكان مقياس براعة في الشعر العربي لأنه يزيد وحدات الإيقاع الصوتية^(١) :

والخلاصة أن الوزن والخيال من مقومات الشعر والثوابت فيه عند حازم وبأكون أما القافية فهي كذلك عند حازم ولكنها قد تكون مهمة عند بكون إذ لم يشر إليها كعنصر من عناصر الشعر المهم إلا إذا كان قد دل على الشعر بأمر عناصره وهو الوزن كما فعل أبو العلاء حينما قال : الشعر كلام موزون تعيله الفريضة على شرائط ، إن زاد أو نقص أبانه الحسن^(٢) ، وقد يقال : إن وصف كلمات الشعر - عند بكون - بأنها مقيدة Restrained ببعض التقييد يتضمن إشارة ملائمة للقافية في أركان الشعر الإنجليزي .

الصدق والكذب (الفلو) في الشعر :

The Exaggeration in The poetry

« شغلت قضية الصدق والكذب حبوا واسعا في النقد العربي واتفق النقاد في صحتها إلى فريقين : فمن مؤيد للصدق وداع إلى حرفة الشعر ومطابقتها للواقع الخارجي ، وآخر ذاهب إلى نصرة الخروج عن رتبة هذه المطابقة ، ومنح الشاعر آفاقا رحبة يتجلى فيها خياله وتظاهر قدرته على استئصال الجواز ولا سيما الاستعارة التي تسكن وراءها موهبة الشاعر الحقة القادرة على التصوير وإبداع المعاني البعيدة في الفاظ تحس وتلمس^(٣) :

ولعل الفريق الأول - في رؤيته هذه - كان يصدر عن فكر إسلامي يتوخى الصدق في كل شيء حتى في الشعر متأثرا بهيت حسان :

(١) النقد الأدبي الحديث ص ٤٧٠ .

(٢) أبو العلاء الناقد الأدبي ص ١٣٥ .

(٣) أبو العلاء للمري ناقدا - تأليف وليد محمود خالص ص ١١٤ - دار الرشيد

لشعر - العراق سنة ١٩٨٢ م ،

وإن أشهر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا (١)
وثناء الخليفة عمر بن الخطاب على زهير لأنه كان لا يمدح الرجل إلا
بما فيه (٢) .

وفى كل هذا تأكيد لقيمة الصدق في الشعر والحث على اتباعه .
ولم يكن هذه النظرة تحد من فاعلية الخيال وتحول درن انعطافه فتظل
موهبة الشاعر كاملة ومعطلة .

ومن هنا لم يكن لهذه النظرة أصداء واسعة في النقد العربي كالذي
أحدثته النظرة المقابلة لها وهي التوسعة على الشعراء وتقبل مبالغتهم
فللشعر زفير الصفات والشعراء مطلق لهم ذلك لأن الآية شهدت عليهم
بالتخمس وقول الأباطيل ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون
علا يفتلون ، (٣) .

وإذا كانت قضية الكذب في الشعر لها جذور إسلامية - كما رأينا - فإن
لها مجازب ذلك أصلا يونانيا مرده إلى الفيلسوف اليوناني أرسطوطاليس
حينما تحدث عن الصدق والكذب في الشعر فقال : إذا قام النقد على دعوى
عدم الانطباق على الواقع والحقيقة فربما يمكن الرد على ذلك بأن نقول : إن
الشاعر زعم صور الأشياء كما يجب أن تكون ، (٤) .

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت - ضبط عبد الرحمن البرقوقي ص ٣٩ المطبعة
الرحمانية سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) طبقات غزل الشعراء لمحمد بن سلام الجعفي - فراه وشرحه محمود شاكر
٦٣/١ ، مطبعة المدني القاهرة .

(٣) رسالة الفهران لأبي السلاء المعري دراسة نقدية تأليف الدكتور عائشة
عبد الرحمن ص ٢٤٦ ، طبعة دار المعارف بمصر - القاهرة ٢٩٦٢ م .

(٤) ابن الشعر ص ٢٧٣ .

وقد عرض حازم هذه القضية مفصلاً القول فيها ومشيراً إلى أن الأقاويل الشعرية يجب أن تكون غير واقعة أبداً في طرف واحد من النقيضين (الصدق والكذب) وليكنها تارة تكون صادقة وتارة تكون كاذبة لأن ما تنقوم به الصنعة الشعرية وهو التخيل غير مناقض لواحد من الطرفين (١).

ونبه على أن الأقاويل الشعرية لها مواطن حقيقية يتوخى الصدق ومواطن لا يليق بها ذلك ، وأن مواطن الشعر باعتبار الصدق والكذب خمسة لكل مقام منها مقال (٢).

والأقاويل الصادقة - في رأيه - تحرك النفوس إلى ما يراد منها تحريكاً شديداً أما الأقاويل الكاذبة فهي لا تحرك النفوس إلا حيث يكون في الكذب بعض خفاء ، أو حيث يحمل النفس شدة ولها بالكلام لفرط ما أبدع فيه على الانقياد لمقتضاه ، ومع هذا فتحرى كها دون تحرى لك الأقاويل الصادقة إذا تساوى فيهما الخيال (٣).

ثم يكشف عن الظروف والملايسات التي تحمل الشاعر على القول بالكاذب فيقول : ولذا يرجع الشاعر إلى القول بالكاذب حيث يعوزه الصادق والمشهر بالنسبة إلى مقصده من الشعر نقد يريد تقييح حسن وتحسين قبيح فلا يجد القول الصادق في هذا ولا المشهر فيضطر حينئذ إلى استعمال الأقاويل الكاذبة (٤).

ويستشهد في هذا المقام بقول أبي علي ابن سينا .

ولدها كافة من التعجب ليس للصدق لأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ولا طرأة له . والصدق المجهول غير ملتفت إليه ، والقول الصادق

(١) منهاج البلاء ص ٦٢ - ٦٣ بتصرف .

(٢) منهاج البلاء ص ٨٥ بتصرف . (٣) منهاج البلاء ص ٨٢ .

(٤) منهاج البلاء ص ٧٢ .

إذا حُرف عن العادة والحق به شيء تستأنس به النفس فربما أقاد التصديق والتخييل معا وربما بما شغل التخيل عن الالتفات إلى التصديق^(١).

والشاعر متأكد في حقه أنت يعرف الوجوه التي تصير بها الأقاويل الكاذبة موهمة أنها صدق، والقول الكاذب يصير مقنعا وموهما أنه حق بتمويهات واستدرجات ترجع إلى القول أو المقول له^(٢).

والأقاويل الشعرية في تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان من حسن أو قبح حقيقة، أو على غير ما هي عليه تصويرها وإيهامها مثل ما تشفى لك آنية الزجاج من صورة ما تحويه. فلذلك صارت الأقاويل الشعرية أشد إيهاما وتحريكا للنفوس من غيرها فلعدة مناسبة الأقاويل الشعرية للأغراض الإنسانية كانت أشد تحريكا للنفوس وأعظم أثرا فيها^(٣).

ثم يفرق بين الممتنع والمستحيل بأن الممتنع : هو ما لا يقع في الوجود وإن كان متصورا في الذهن كتركيب يد أسد على رجل مثلا . والمستحيل : هو ما لا يصح وقوعه في وجود ولا تصور في ذهن ككون الإنسان قائما قاعدا في حال واحدة .

والكذب الإفراطى معيب في صنعة الشعراء إذا خرج من حد الإمكان إلى حد الامتناع أو الاستحالة^(٤).

ومن المبالغات التي يمكن أن تتصور لها حقيقة وأن تعرف إلى جهة الإمكان قول المتنبي^(٥).

(١) منهاج البناء ص ٨٩ . (٢) منهاج البناء ص ١٣ بتصرف .

(٣) منهاج البناء ص ١٢٠ - ١٢١ بتصرف .

(٤) منهاج البناء ص ٧٩ .

(٥) شرح ديوان المتنبي - وضعه عبد الرحمن البرقوقي ٣/ ٢٧٣ الطبعة الثانية

١٣٥٧/ ١٩٣٨ م مطبعة السعادة .

وأنى اهتدى هذا الرسول بأرضه
وما ممكنت مذسرت فيها القساطل (١)

ومن أى ماء كانت يسقى جياهه
ولم تصف من مزج الدماء المناهل (٢)

الجائر في حق مدوحه أن يريق من دماء الروم ما تذكر منه المياة مدة.
فأراد المبالغة في ما أراق هذا المدوح من دماء أهدائه فجعله بالغاً إلى ذلك.
المقدار ، ولا يلزم أبا الطيب أن يكون صادقاً في ذلك لأن صناعة الشعر لها
أن تستعمل الكذب إلا أنها لا تتعدى الممكن من ذلك أو الممتنع إلى
المستحيل ، وإن كان الممتنع فيها أيضاً دون الممكن في حسن الموضع من
النفوس (٣).

«ولما ساغ في الشعر وقوع الكذب في الممكنات ولم يسغ في المستحيلات.
لأن الأمر إذا كان ممكناً سكنت إليه النفس وجاز توييه عليها ، والمحال
تنفر منه النفس ولا تقبله أثبتة فكان منافضاً لغرض الشعر إذ المقصود
بالشعر الاحتمال في تهريك النفوس لمقتضى الكلام بإيقاعه منها بحمل
القبول بما فيه من حسن النحاة كآلة والهيئة بل ومن الصدق والشهرة في كثير
من المواضع (٤)» .

ويجوز - في رأيه - أن يوضع الممتنع وضع الجائر إذا كان المقصود
بذلك ضرباً من المبالغة فأما إذا لم تقصد مبالغة فلا يوضع جائز وضع ممتنع
ولا ممتنع وضع جائز . ومن أمثلة ذلك فيما لم تقصد فيه مبالغة قوله
بعضهم :

(١) القساطل : جمع قسطل وهو النبار الذي تثيره الخيل .

(٢) منهاج البلاء ص ١٣٥ ، ١٣٦ -

(٣) المناهل : الموارد .

(٤) منهاج البلاء ص ٢٩٤ .

فإن صورة رافتك فاخر فربما أمر مذاق العود والعود أخضر^(١)

فبنى على أن مرارة العود أكثر ما تكون عند اليبوسة وأنها في الأخضر على سبيل القلة ، والأمر بخلاف ذلك لأن وجود المرارة مع الخضرة هو الأكثر فكأنه وضع الواجب في الأكثر ، ووضع الجائز في الأقل وهذا غلط مستقيم في المعاني مؤد إلى انعكاس حقائق الأشياء^(٢) .

فإذا جئنا إلى ما يكون وجدناه يتحدث عن الفلو أو التريد شارحاً أسبابه وآثاره فيقول :

« ويؤخذ الشعر على ماخذين في كلماته أو مادته ، فهو على أحدهما نسق من الأسلوب يرجع إلى صناعات الكلام ولا شأن لنا بها فيما نحن بصدده الآن ، وهو على المأخذ الآخر - كما قيل قسم من أقسام المعرفة الهامة لا يعدو أن يكون في الحقيقة نمطاً من التاريخ الرمزي يدخل في المنسور كما يدخل في المنظوم .

وعرض هذا التاريخ الرمزي هو أن يعطى العاقل الإنساني ظلاماً من الرضا في تلك الأحوال التي تضمن طبيعة الأشياء بإرضائه فيها ، فالدنيا في وضعها بمرتبة دون مرتبة الروح ، ويحدث من أجل ذلك أن تحس الروح بعظمة أوسع وخير أحكم وتنوع أعم وأكبر مما تحتويه طبائع الأشياء .

ولما كانت حوادث التاريخ الصحيح لا ترتقى في مداها إلى مرضاة العقل الإنساني ، فالعصر يمثل له أعمالاً وحوادث أرفع وأقرب إلى البطولة لأن التاريخ الصحيح يمرض لنا الأعمال والحوادث المألوفة التي يقل النوع

(١) ثبت لخالد بن صفوان أورده قدامة بن جعفر والمزني ومثله لما هيب من معاني الشعر بسبب مخالفتها للعرف ، تعد الشعر لقدامة من ٢٩٥ - والموشح المرزباني تحقيق / على محمد البجاوي من ٣٦٢ - دار نهضة مصر ١٦٥ م .

(٢) منهاج البلاغ من ١٤٦ .

فيها فيهب لها الشعر قدرة وتنوعا غير متوقع أو معهود ، وهو ما يظهر منه أن الشعر ينزع إلى الطيبات ومحاسن الأخلاق وبهجة الخواطر وبهذه المثابة يعتقد دائما أن له حظا من الإلهام الإلهي مذ كان يرفع العقول ويقومها من حيث يربطها المخطط بطبائع الأشياء ويثنيها لسلطانها وبهذه الإيماءات والمطابقات بين طبيعة الإنسان والمروء مع مجاراتها للنغم الموسيقي والصوت الموزون كان للشعر مدخل وتقدير في تصور البربرية الخشنة لم يكن ليأبى آخر من أبواب المعرفة والتعليم (١) .

وقبل أن أعرض أوجه الاتفاق أو الاختلاف بين حازم وباكون في معالجتهما لقضية الفلو في الشعر أود أن أشير إلى أمرين فيما يتعلق بتقريب الأستاذ لعقاد لهذه الفقرة المتصلة بالفلو :

أولا : أنه أثر التعبير بالرمز Symbol - في التاريخ والشعر - هل الكذب والاختلاف أو الفلو والتزديد والرمز حيلة فنية تشير إلى شيء يختلف عما تعرضه (٢) .

ثانيا : أنه لجأ إلى الإجمال فأغفل ذكر أحد الأسباب الباعثة على إثارة التعبير عن الأحداث شعرا بدلا من التاريخ الصحيح (٣) .

والمأمل فيما عرضه حازم وباكون في مسألة الفلو يرى اتفاقهما في كون الغاية من الشعر المنفعة وتحريك النفوس ، ولبيان هذه الغاية - عند حازم - يطلعنا على موازنة بين الشعر وغيره من الفنون فليس ما سوى الأقاويل الشعرية مماثلا للأقاويل الشعرية في حسن الموقع من النفوس فحصل

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ / العقاد - المجلد التاسع عشر (تراجم وصيره) ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) في الشعر الأوربي المعاصر تأليف الدكتور / عبد الرحمن بدوي ص ١٣٤ : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م .

(٣) نبهت إلى ذلك في صدر التمهيد ووضعت ما أخفاه بين قوسين .

ماعد الأقاويل الشعرية كحصول العلم مثلا بامدلاء إناء أو خلوه بأن يبصر مثلا برشح أو يوجد ثقبلا أو يبصر مكنا ويوجد خفيها .

وحصول الأقاويل الشعرية مثل ما كشف لك آنية الزجاج من صورة محتويه فلذلك صارت الأقاويل الشعرية - عنده - أشد إبهاجا وتحريسا للنفس من غيرها (١) .

و كأنما نظر الناقد الأوربي سنتيانا - في نظريته من حقيقة الشعر إلى حاذب إليه حارم حين رأى أن الشعر يشبه الزجاج الملون في النوافذ ، فبينما الزجاج الشفاف لا يصلح إلا لتوفير النور نجد الزجاج الملون يسمح بنفوذ النور وصبغه بالوان تدهشها الأبصار وتفضل فيها فعل السحر ، فكذلك الشعر يصبغ الألفاظ بالوان تأمر الانتباه وتعنى على الألفاظ صحر (٢) .

فإذا جئنا إلى باكون وجدناه يحصر دائرة الموازنة بين الشعر والتاريخ . فالتاريخ الصحيح - في رأيه - يعرض الحوادث المألوفة التي يقل فيها التنوع فيجب لها الشعر ندرة وتنوعا غير متوقع أو محدود .

والصدق المشهور - عندهما - كالمفروغ منه ولا حارة له ، والقول الصادق إذا حرف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس كان أكثر إمتاعا والأجود إلى الكذب قد تلميه الضرورة ، وهي تتحقق عند حارم حينما يفتقد القول الصادق الذي يحقق مقصد الشاعر إذا أراد تعبيح حسن وتعميق قبيح . أما عند باكون فتتمثل في محاولة إعطاء العقل الإنساني ظلا من الرضا في تلك الأحوال التي تضمن طبيعة الأشياء بارضائه فيها .

ومن هنا لم تكن مهمة الشاعر عندهما محصورة في رواية الأمور كما وقعت فعلا بل أيضا رواية ما يمكن أن يقع .

(١) منهاج البلاغ ص ١٢٠ يتصرف .

(٢) في الشعر الأوربي المعاصر ص ١٢١ .

وتأكيدها لما ذهب إليه يرى الناقد الإيطالي فرنسيسكو روبرتو Francesco Robertello أن الشعر موهبة إلهية يستعين بها الناس مدخلا إلى الفاسفة وقيمتها الرئيسية في الخيال . . . والشاعر ليست مهمته أن يروى الوقائع كما حدثت Res gestae بل يروى الأشياء التي كان يمكن أن تقع أو كان يجب أن تقع ، فوظيفة الشعر إذن مزدوجة : محاكاة الأشياء والأحياء وفقاً للطبيعة أو خارجاً عن الطبيعة (١) .

ولذا ينبغي الحكم على الشعر من حيث هو شعر طبقاً لنوع التجربة الخالية التي يمدنا بها الخشب ، ولا يجوز الحكم عليه بمقياس مافيه من خير خلقى ، أو بمقياس صدقه بالنسبة لشيء يقع خارجه (٢) .

وإذا كنا قد لمسنا كثيراً من جوارب التلاق والافتاق بين حازم وباكون في معالجتهم لقضية الفن ، فهناك بعض النقاط التي انفرد بها حازم كـ مواطن الشعر باعتبار الصدق والكذب ، والتنبيه على أن الشعر مواطن حقيقة يتوخى الصدق ومواطن لا يليق به ذلك ، والتفريق بين الممتنع والمستحيل وبيان أن الكذب الإفراطى محبب في صنعة الشعر إذا خرج عن حد الإمكان إلى حد الامتناع والاستحالة ، الأمر الذي جعلنا نؤكد أن هذه القضية قد عولجت عند حازم بتفصيل وإسهاب وعند باكون بإيجاز وانتصاب .

تقسيم الشعر Division of the poetry

اتجه حازم إلى تقسيم الشعر إلى نوعين متباينين هما الجدى Earnest

(١) مقدمة ابن الشعر لأرسطو ص ١٥ .

(٢) الشعر والتأمل - تأليف روبرتو هاميلتون . ترجمة الدكتور محمد مصطفى

بدوى ، مراجعة الدكتورة سهير القلماوى ص ١٩ - المؤسسة المصرية العامة للتأليف

والترجمة والنشر ١٩٦٣ م .

والهزل Goky فبحث خصائصهما وتعرض لهما يليق بكل واحد منهما من الأغراض والمباني وبه أثر ذلك على جواز أخذ كل واحد من اللونين بشيء من ملائسات ومتعلقات الآخر متى دعت لذلك ضرورة بشرط أن لا يخرج به مثل هذا التجوز عن دائرته أو يفصله عن جنس ما أريد به ، وفي هذا يقولون : « والشعر ينقسم أولا إلى طريق جد وطريق هزل . فأما طريقة الجدد فهي مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه من مروءة وعقل بنواع الهمة والهوى إلى ذلك .

وأما طريقة الهزل فإنها مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه من مجون وسخف بنواع الهمة والهوى إلى ذلك (١) .

ويجب في طريقة الجدد ألا يتعرض فيها إلى منحنى من مناحي الهزل - ولو بإشارة - إلا حيث يليق ذلك بالحال والموطن (٢) .

« وتختص الطريقة الجديدة بأن يحتنب فيها الساقط من الألفاظ والمولد ، ويقتصر فيها على العرب المحض وعلى التصاريف الصريحة في النصيحة المأدبة في كلامهم . . . ويقسامح في إيراد الخوض والغريب فيها في بعض المواطن . . . وما تختص به العبارات في الطريقة الجديدة أن يتحرى فيها المثانة والرصانة كما تتحرى في طريقة الهزل الخلاوة والرشاقة .

وقد تأخذ الطريقة الجديدة بطرف من الرشاقة كما تأخذ الطريقة الهزلية بطرف من المثانة (٣) .

« ومما تختص به طريقة الهزل ويجب اعتياده فيها أن تكون النفس في كلامها مسفة إلى ذكر ما يقبح أن يوتر ، وألا تقف دون أقصى ما يوقع الحشمة . وألا تكبر عن صغير ولا ترتفع عن قازل وألا تطرح ماله باطن

(١) منهاج البلاغة ص ٣٢٧ .

(٢) منهاج البلاغة ص ٣٢٨ .

(٣) منهاج البلاغة ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

هزلى وإن كان له ظاهر جدى ، وأن ترد ما يفهم منه الجدل إلى ما يفهم منه
الهلول بتخليص ذلك إلى خير الهلول (١) .

وتأخذ طريقة الجدل من طريقة الهلول المعانى التى فى ذكرها فى بعض
المواضع أطراب وبسط للنفوس .

ومما تأخذ طريقة الهلول من طريقة الجدل إيراد بعض المعانى العلمية على
نحو من الإحالة عليها ببعض معانى الهلول والمحاكاة بها كقول أبى نواس :

صرت له رفعا على الابتداء وصار لى نصبا على الحال (٢)

ثم يطلق حازم على قوانين هاتين الطريقتين مؤكدا على ضرورة الإلمام
بها فيقول : « فهذه قوانين مقبنة فيما يتعلق بالطريقة الجديدة وما يتلاقى بالعارفة
الهلولية ، وما يتعلق بهما معا ، ومعرفتها أكيدة فى صناعة النقد والبصيرة
بطرق الكلام وما يجب فيها ، فكثير من وجوه النقد والنظر فى هذه الصناعة
يتعلق بها ، وأيضا لأنه إذا أريد الحكم بين شاعرين متباينين أيهما أشعر أو
بين جاد وماجن أيهما أعمى فى طريقته وأبرع فيها لم يكن بد من معرفة هذه
القوانين فى الطريقتين ، إذ بهما يتبين خطأ كلامه وإعراقه فى الطريقة التى هو
مبنى عليها وسلامته بحسب ما يجب فيها (٣) .

ولحازم تقسيم آخر للشعر بحسب ما قصد به من الأغراض ، وقبل أن
يوضح هذا التقسيم يذكر اختلاف الناس فى تسمية الشعر فسمه بعضهم إلى
سنة أقسام : مدح وهجاء ونسيب وروثاء ووصف وتشبيه . وذهب فريق ثان
إلى أن أقسامه خمسة لأن التشبيه راجع إلى معنى الوصف ، وفريق ثالث يرى

(١) منهاج البناء ص ٣٣١ .

(٢) هذا البيت لم أعر عليه فى ديوان أبى نواس ، وقد جاء فى هامش منهاج
(٣٢٤) ما يأتى : البيت غير موجود فيما جمع من شعر أبى نواس . وقد ورد منسوبا
لفرزدق فى اختراع الخراج القسدى :

(٢) منهاج البناء ص ٣٣٥ .

أن أركان الشعر أربعة : الرغبة والرغبة والطرب والغضب . وقال بعضهم :
الشعر كله في الحقيقة راجع إلى معنى الرغبة والرغبة^(١) .

وهذه التقسيمات كلها - في رأي حازم - غير صحيحة فكل تقسيم منها لا ينحصر
من أن يكون فيه نقص أو تداخل^(٢) . ويرى أن الوجه الصحيح والمأخذ
المستقيم في القسمة التي لا نقص فيها ولا تداخل أن أمهات الطرق الشعرية أربع
وهي التهنائي وما معها والتعازي وما معها . والمدائح وما معها والأماجي
وما معها ، وأن كل ذلك راجع إلى ما الباحث عليه الارتياح ، وإلى ما الباحث
عليه الاكتراث ، وإلى ما الباحث عليه الارتياح والاكتراث معا^(٣) .

هذا هو تقسيم الشعر عند حازم . ونأتي الآن إلى تقسيمه عند باكون
حيث يقول : ولشعر أقسام يشارك فيها التاريخ كتمثيل الأخبار والسير
وتمثيل الرسائل والمطرب وما إليها ، ولكنه فيما عدا ذلك ينقسم أفضل تقسيم
إلى فروع ثلاثة : وهي الشعر القصصي وشعر التصوير والتشبيه وشعر الرمز
والإيحاء أو الكناية .

فالشعر القصصي : إن هو إلا مما كاة للتاريخ مع الفلو والتزيد الذين
أشرفنا إليهما فيما تقدم وموضوعاته على الإجمال هي الحرب والحب والسياسة
منازرا والسرور والهم في بعض الأحيان .

وشعر التصوير والتشبيه : هو التاريخ الشاخص المنظور ، أو هو صور
الحوادث كأنها حاضرة من حيث يكون التاريخ صوراً لها في الطبيعة كما هي
- أي كما مضت - وشعر الرمز والكناية : هو سردي يراد به التعبير عن بعض
الأغراض الخاصة أو التورية . وقد كانت هذه الحكمة الرمزية شائعة في
الآزمنة القديمة على أشك حرافات أيسوب Aesop ومأثورات الحكما .

(١) منهاج البناء ص ٣٣٦ .

(٢) منهاج البناء ص ٣٣٧ .

(٣) منهاج البناء ص ٣٤١ .

السبعة وما يظهر من استخدام الكتابة الهيرغليفية ، وعلّة ذلك ضرورتها
التعبير عن المرامى التى هى أدق وأخفى على فهم الغوغاء فى تلك العصور لأن
الناس فى تلك العصور كان يعوزهم تنويع المثل ودقة التورية ، (١) .

وواضح من تقسيم حازم وباكون أن هناك مقارعة هائلة بينهما ،
فطريقة الجدل والحوار عند حازم لم يقصد بها ماعرف فى الأدب اليونانى
والأوروبى بالمأساة The Tragedy والمهابة The Comedy وإن كانت تعد فى
الشعر العربى - مرحلة تمهيدية لها .

والأجناس الشعرية التى ذكرها باكون لم يتعرض لها حازم لأن
الشعر العربى غنائى أو وجدانى Lyric poetry أما القصصى والمسرحى فهما
جنسان سبقتنا إليهما آداب الغرب عصوراً طويلة ، والشعر الغنائى مرحلة
تمهيدية للشعر الموضوعى الذى يعالج أفعالا عامة ، وهذا الإدراك للشعر
يختلف اختلافا جوهريا عن إدراك العرب له :

فالشعر العربى ينحصر أو يسكاد فى الشعر الغنائى وفيه يتغنى الشاعر
بعواطفه ومشاعره الفردية من حب ومدح وثناء وفخر وهجاء . . . حيث
ينطوى الشاعر على نفسه فيعبر عما يبدو له من خواطر لا يأبه فيها بأراء
الآخرين بل قد لا يعبأ بالحقائق والنظم الاجتماعية ، لأن ذاته وغاياته
وأهدافه الفردية هى شغله الشاغل فى نظمته ، وهى التى تشغل الجزء
الأكبر من مادة موضوعاته ، حقا لا ينسکر إنسان أن المشاعر الذاتية
الصاعدة قد تمثل ما تجيش به عواطف الشاعر أو خواطره ، بل قد تتلاقى
فيها مشاعر آخرين ممن يشبهون الشاعر ، ويكون لها بذلك دلالة اجتماعية
خطيرة ولكنها - على أية حال - ترجع إلى اعتبارات ليست فى جوهرها
موضوعية ، (٢) .

(١) المجموعة الكاملة - المجلد التاسع عشر ص ٤٢٤ .

(٢) النقد الأدبى الحديث د/ محمد غنيمى هلال ص ٥٠ .

وظل الشعر العربي غنائيا لم يعرف المسرحيات حتى جاء شوقي في العصر الحديث فظهرت مسرحيته (كليوباترا) ١٩٢٩ م وبها بدأ الأدب المسرحي الحقيقي لغة وفنا (١).

فالفارقة بين حازم وباكون مردها إلى أن كلامهما يذهب في تقسيمه الشعر مذهباً يسير طبيعة الشعر عنده والعصر الذي وجد فيه وبين حازم وباكون فاصل زمني مقداره ثلاثة قرون ونصف ولذلك فإن تقسيم حازم لا يناقض تقسيم باكون وإن كان يخالفه مخالفة كبيرة وقد فطن الأستاذ العقاد إلى موضع القصور في الشعر العربي وهو بنقد الشعر الفارسي في عام ١٩٠٨ إذ رأى أن ما يستلزم النظر هو إقفار الشعر العربي من القصر الروائي حتى يكاد يكون هذا الجنس الشعري مزية اختصت بها كل لغة غير العربية ثم يفرد ذلك لدورة الشعر العربي لما يلتزمه الشاعر من مراعاة الوزن والقافية والإتيان بالبيت منفرداً في إنسجام منسجماً في انفراد حتى لا يزيد المعنى عن البيت، (٢).

الرؤية المستقبلية للشعر :

THE FUTURE VIEW FOR THE POETRY

يصور لنا حازم كيف عني العرب قديماً بالشعر ، وكيف كانت النفوس محتدة فيه أنه حكم وأنه غريم يتقاضى النفوس الكريمة الإجابة إلى مقتضاه بما أسلها من هزة الارتياح لحسن المحاكاة هكذا كان اعتقاد العرب في الشعر .

(١) الأدب القارن د/ حسن جاد ، ص ٤٩ ، ٥٠ دار الطباعة المحمدية ، الطبعة

الثانية ١٩٧٥ م

(٢) هافرية العقاد في ميزان النقد د/ عبد الحى دياب ص ٧٨ ، دار

النهضة المصرية .

وكان لغير العرب بين الأمم في القديم أيضا من العناية بالشعر والتأثر به وحسن الاعتقاد فيه مثل ما كان العرب وإن كانت العرب قد انتهت من إحكام هذه الصناعة الجديرة بالتأثير في النفوس إلى ما لم تنشئه إليه أمة من الأمم^(١).

وقد أتجه لحاية هذه الصناعة والذود عنها راداً على من يدهى اقتصار الشعر على الكذب واتسامه به منبها على شرفه ومدى تقدير السابقين له فمستشهدا على ذلك بكلام ابن سينا في كرتهم ينزلون الشاعر منزلة النبي فينقادون لحكمه ويصدقون بكهنته^(٢). ولركن الطباع - في رأيه - قد دأخلها من الاختلال والفساد أضغاف ما بداخل الألسنة من اللحن فصارت تستجيب الفك وتستغث الجيد من الكلام^(٣).

وها هو ذا يطلعننا على ما آل إليه أمر هذه الصناعة بعد أن بلغت العناية بها - في القديم - مداها . مشهرا إلى تفاوت ما بين الحالين فيقول :

« وأما الاستعداد الذي يكون بأن يعتقد فضل قول الشاعر وصدهه بالحكمة فيما يقوله فإنه معدوم بالجملة في هذا الزمان ، بل كثير من أنذاك العالم - وما أكثرهم - يعتقد أن الشعر قصص وسفاهة . وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيها ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانغة على حال قد نبه عليها أبو علي ابن سينا فقال : « كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي فيعتقد قوله ويصدق حكمه ، وبؤمن بكهنته » فانظر إلى تفاوت ما بين الحالين : حال كان ينزل فيها منزلة أشرف العالم وأفضلهم وحال صار ينزل فيها منزلة أخس العالم وأقصصهم^(٤) . »

ثم يكشف عن الحثيات والأسباب المؤدية إلى هذا القردى فيقول :

-
- | | |
|-------------------------------|-------------------------|
| (١) منهاج البلاغة ١٢١ ، ١٢٢ . | (٢) منهاج البلاغة ٩٩ . |
| (٣) منهاج البلاغة ٢٩ . | (٤) منهاج البلاغة ١٢٤ . |

« وإنما كان الشعر على الناس هذا الهون لعجمة ألسنتهم واختلاف طباعهم فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائه المحركة فجعلوا أنفسهم إلى الصنعة ، والنقص بالحقيقة راجع إليهم ، وهو وجود فيهم ، ولأن طرق الكلام اشتمت عليهم أيضا ... ولكثرة القائلين المغالطين في دعوى التنظيم وقلة العارفين بصحة دعواهم من بطلانها لم يفرق الناس بين المسمى المصنف إلى الاسترقاد بما يحسنه وبين المحسن المرتفع عن الاسترقاد بالشعر فجعلوا قيمتهما متساوية ، بل ربما نسبوا إلى المسمى إحسان المحسن وإلى المحسن إساءة المسمى فصارت نفوس العارفين بهذه الصنعة ببعض المعرفة تستغذر التحلي بهذه الصناعة ، إذ نجسها أولئك الأخصاء واشتبكوا على الناس أمرهم وأمر أضدادهم ، فأجروهم مجرى واحدا من الاستهانة بهم فالمعرفة لا شك منسحبة على الرفيع في هذه الصناعة بسبب الوضع فلذلك هجرها الناس وحققوا أن تهجروا .

ولأن النفوس أيضا قد اعتقدت أن الشعر كله زور وكذب على ما رآه قوم قد حكى قولهم ابن سينا رادا عليهم (١) .

ومن أجل هذا كله يشير حازم إلى أن هذه الصناعة لا ينبغي أن تعطى من عناية النفس فوق ما يجب لها ، إذ قدر العناية بالشئ إنما يجب أن يكون بإزاء قدر المستفاد منه ، وقائدة هذه الصناعة بحسب ما سيجب عليها الزمان من أذبال الإذالة (٢) . وألحفا من معرفة الخول قليلة نذرة ، بل إنما غاية محكمها إذابة أهل القدماة له (٣) من يظن أن له قدما في القصاحة ، وهو منها بمنزلة

(١) منهاج البناء ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) الإذالة : الإهانة ، لسان العرب لابن منظور مادة « ذبل » ص ١٥٢٠ طبعة دار المعارف .

(٣) القدماة ، والندومة مصدر قدم ، والقدم من الناس المسمى عن الحجة والكلام مع ثلث ورخاوة وقلة فهم وهو أيضا تليظ السبق الإحق الجاني . لسان العرب مادة « قدم » ص ٣٣٦٥ .

الخصيض من السماء^(١) .

لذلك كان خليقا أن تكون العناية بهذه الصناعة غير بالغة أو تصرف
هنا العناية بالجملة ولا توفيق إلا بآله^(٢) .

هذه هي رؤيته المستقبلية لصناعه الشعر وهي رؤية مفعمة بالتشاؤم
والحزن أو جديتها أسباب هذه منها التكسب بالشعر وطلب الزوال به فهل
يشاركه فرسيس باكون هذه النظرة المثشامة أو تكون له وجهة نظر أخرى
فيها من التفاؤل ما يطمئن على مستقبل الشعر ويدعو إلى مزيد من العناية به
والحرص عليه ؟

والواقع أن باكون في رؤيته المستقبلية للشعر يقف على النقيض من حازم
فوق عطمة على مستقبل الشعر إذ لم تلحقه شائبة نقص ولا ضعف ولأنه أمر
كامن في النفس مغل النبات الذي ينحدر من رغبة الأرض في النباتات دون
بذرة سابقة ، فن شأنه أن ينمو وينتشر في كل اتجاه أكثر من أى نوع آخر
وفي هذا يقول باكون :

وفي هذا الجزء الثالث من المعرفة - وأقرب به الشعر - لا أستطيع أن
أشير إلى نقص أو آفة ، فإنه كالشجرة التي نبتت من شهوة الأرض بفير بذرة
سابقة فأصاب من النمو والجزالة عالم تصبه شجرة أخرى وعليها أن نعطيها
حقها وبوف لها قسطها في التعبير عن الخوارج والآهواء والمفاسد والمعادات
تلجأ إلى آثار الشعراء أكثر من لجوئنا إلى آثار الفلاسفة ، وليس التجاؤنا
إليها بأقل كثيرا من التجاؤنا إلى آثار الخطباء في معارض الفطنة
والفصاحة ،^(٣) .

(١) للشك : نجسم نير معروف . لسان العرب مادة « سمك » ص ٢٠٩٩ .

(٢) منهاج البیان ص ٣٧ .

(٣) الأعمال الكاملة - المجلد التاسع عشر (تراجم وسيرة) ص ٤٢٦ .

وواضح من رؤيتي حازم وباكون أن الأول في غاية الأسى لما آل إليه أمر هذه الصناعة ، فهو غير متفائل بمسيرها ولا مطمئن على مستقبلها لأنه يرى تتابع الزمن ومزور السنين يعضيان في غير صالح الشعر إذ تراه معرضا بأهل الصناعة الشعرية في هصره : فلم يوجد من شعراء المشرق المتأخرين منذ مائتي عام من نحو الفحول ولا من ذهب مذاهبهم في تأسيس مبادئ السلام وأحكام وضعه وانتفاء مواده التي يجب نحتها منها فخرجوا بذلك على مهبيع الشعر ودخلوا في محض التسكام ، هذا على كثرة المبدعين المتقدمين في الرجل الأول من قدامتهم والحليبة السابقة زمانا منهم^(١) .

وهذه الصناعة - في رأيه - قد أسوء فوجها وقلت الجدوى من وراثتها فلا ينبغي أن تعطى من عناية النفس فوق ما يجب لها أو تصرف عنها للعناية بجملة !

فإذا اجئنا إلى باكون رأيناه متفقاً مع صاحب المتهاج في أن الشعر كان له مدخل وتقدير في العصور القديمة لم يكن لباب آخر من أبواب المعرفة ، ولكنه مختلف عنه في كونه جد متفائل بمستقبل الشعر إذ لم يلحقه نقص ولا آفة على الرغم من تتابع الزمن وتوالي السنين لكونه نابعا من أعراق النفس الإنسانية ومعبداً من كوامنها ولذا يجب أن توليه كل عناية فنحن مدبرون بالفضل لآثار الشعراء أكثر من ديننا لآثار الفلاسفة وبما لا يقل كثيراً عن ديننا لآثار الخطباء في معارض الفطنة والفصاحة ، وأجدني متفقاً مع باكون في الاطمئنان على مستقبل الشعر ، فهو لا ينقرض كما قال حبيب بن أوس :

فلو كان يغنى الشعر أفناء ماقرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه ضوب العقول إذا انجلت صحائب منه أعقبت بسحاب^(٢)

(١) منهاج البلاغة ص ٩٠ .

(٢) رسالة التفران ص ٢٤٥ ، قرت : جمعت . الصوب : السحاب ذو المطر .

وقد أكد ذلك أبو العلاء وأيده بقوله في مقدمة شرحه لديوان ابن أبي حصينة :

والدهر مديد طويل ، يجوز أن يحدث في آخره كما حدث أوله ، لأن الله سبحانه - قدير على الممتنعات ، كل ما حكم به فهو آت ... ولا يمتنع أن ينشئ في هذه العصور من الشعراء من هو لاحق بالمتقدمين . وشبيهه من سلف من الفحول الأولين ، (١) .

ثم جاء العقاد فصوره شجرة تضرب جذورها في أعماق الأرض وتمتد غروها في كل اتجاه :

الشعر صورة كل معنى دائم عال على التبديل والإحصاف
وهو الحياة تظل حبة غرسها شتى الفروس غزيرة الأخلاق (٢)
بل ذهب في تصويره إلى ما هو أبعد من ذلك فجعله من نفس الرحمن مقتبسا (٣) .

وغنى عن القول أن - الحاجة إلى الشعر كامنة - دوما - في النفوس وحتى في هذا العصر ، عصر الصناعة الفنية والإنسان الآلى ، لا يزال للشعر مكان الصدارة بين الفنون لأن الحاجة إليه تنبثق من أعماق النفس الإنسانية بوصفه التعبير الحى المتجدد أبدا عن نزوعها إلى ما فوق الواقع وعن إحساسها بالروابط

(١) أبو العلاء لقائد الأدب ص ١٤٢ .

(٢) ديوان العقاد - نظم عباس محمود العقاد ص ٣٢٩ - مطبعة وحدة الصبابة والإنتاج بأسوان سنة ١٩٦٧ م . والأخلاق : جميع الحلف بالكسر وهو في الأصل حلة ضرب قلادة .

(٣) يقول العقاد في ديوانه ص ٤٧ .

والشعر من نفس الرحمن مقتبس . وللعقاد لشد يده الناس رحمان .

المستمرة بين ظواهر الطبيعة وعن مشاركتها في سر الإبداع والخلق ، وعن تعاملها مع سائر بني الإنسان ، وعن خفايا العواطف التي يتعبر بها الإنسان من سائر المكنائات (١) .

ود الشاعر يستهدف تحقيق المتعة والتسلية وتحويل الاتجاهات ولعله يشعر بعزلة من الرضا حين يستوثق من أن المتعة أو التحويل قد يتحققان لأكثر عدد من الناس (٢) .

وكما أدخل الناس في ماديات الحياة ، وأخرقوا في التفاعل معها كلما زادت همومهم فكانوا أشد حاجة إلى الترويح عن أنفسهم .

والشعر بما فيه من أحاسيس ومشاعر وفكر جديد وخيال رشوق وكلام موسيقى منغم يمرض علينا صورا متتابعة تتفصل بها عن حياتنا الواقعية فتسكن إلينا ونحس بغربة قليل من المتعة ونشعر كأننا نخاصنا من أعباء الحياة وانزاحت عنا إلى حين .

وقد دافع شكري عن رسالة الشعر وأكد صلته بالحياة فقال :

والشعر مرآة الحياة ة تطل في مرآتها
فترآه في آلامها وتراء في لذاتها
والكون آية شاعر يأتي بمبتكراتها (٣)

-
- (١) مقدمة كتاب في الشعر الأوربي المعاصر . تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي .
(٢) فائدة الشعر وفائدة النقد . تأليف : ت . س . لبوت . ترجمة وتلخيص
الدكتور يوسف نور عوض مراجعة الدكتور جعفر هادي حمن ص ٣٩ دار القلم
بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٢ .
(٣) في نقد الأدب الدكتور هوق صيف ص ١٥٠ ، ١٥١ ، بصرف ، دار المنار
الطبعة السادسة .

(٤) ديوان عبد الرحمن شكري تحقيق نقولا يوسف ٢٣٥/٤ ، ٣٣٦ .

وأقام الحجة على من يدعى غير ذلك :

• يقولون : إن الشعر ليس من لوازم الحياة . ولو جاز لنا أن نعد الإحساس غير لازم للنفس . أو التفكير غير لازم للعقل ، لجاز لنا أن نعد الشعر غير لازم للحياة . أليس مجال الشعر الإحساس بخروج النفس وشرح ما به، ورها، (١) .

ولم يكن الشعر - ولن يكون - في يوم من الأيام عقبة أمام تقدم الفكر ورق الحضارة لأن الشعر هو أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القومية لسكن الأمم التي عرفها التأريخ ، وإذن فالشعراء هم قادة الفكر في هذه الأمم، (٢) .

وإذا كانت نظرة الناس إليه قد تضائلت ، واستهتم عليه قد تناوالت . فإن التأسي هنا واجب بقول بيتته :

• إن الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه أباً كان القائلون ، (٣) .

وإذا كانت منابع الشعر قد أجديت وقرائح الشعراء قد تبلدت ، فلدى جميع الأمم عامة والعرب منهم خاصة من كنوز التراث الشعري ما هو كفيلاً بإثارة الانفعال في المشاعر والنفوس ، وتحقيق المنفعة للأفكار والقلوب .

ولو لم يكن للعربية شاعر سوى المتنبي والإنجليزية سوى شكسبير Shakespeare لكفى ولصح التباهى بقول البحري :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتوا لدى المجد حتى عد ألف بواحد (٤)

(١) مقدمة الجزء الخامس لديوان شكري ص ٣٦٢ .

(٢) الأدب والحضارة : الدكتور السيد تقي الدين ص ١٧ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٤٠٣ هـ

(٣) شاعرية المقادير في ميزان النقد (هامش ص ٤٩) .

(٤) زهر الأدب لأبي إسحاق المصري ٨٤/٢ طبعة الأولى الحلب ١٣٧٢ هـ

بلى الأمر أبعد من ذلك :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وبعد :

فهذه طيبة الشعر بين حازم وبأكون عرضها الأول باستفاضة وإطناب
وعرضها الثاني بإيجاز واقتضاب .

وقبل أن ننهي هذه الدراسة نجعل ما أسفرت عنه من أوجه الاتفاق
والاختلاف أو التلاق والمفارقة .

في تعريف الشعر كان الوزن والخيال عنصرين أساسيين عندهما ، ومن
هنا كانت للشعر عجالاته وأبعاده ولم تكن مهمة الشاعر محصورة في رواية
الأمور كما وقعت فعلا بل أيضا رواية ما يمكن أن يقع .

ولكن جاء الخيال مقيدا - عند حازم - بعدم الخروج عن حد الممكن
أو الممتنع إلى المستحيل ومطلقا عند بأكون .

وقد ترتب على هذه المفارقة إنكار الخرافة في الشعر عند حازم (١)
والإقرار بها عند بأكون (٢) .

أما القافية فهي عنصر أساسي في الأعر عند حازم وغير مصرح بها عند بأكون
وفي معالجتهما القضية القولية اتفقا على أن الغاية من الشعر تحريك النفوس
وإمتاعها ، وأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ولا طرامة له ، والقول

ولقد روى البيت في الديوان هكذا .

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت إلى الفضل حتى عد ألف بواحد

ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي ١/ ٥٢٥ ، دار المعارف ١٩٦٣ :

(١) منهاج البقاء ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) الأسماء الكاملة - المجلد التاسع عشر (تراجم وسيرة) ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

الصادق إذا حرف عند العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس كان أكثر إمتاعا لها .

والاجراء إلى الكذب قد تملية الضرورة عندهما ، وهي تتحقق عند حازم . حينئذ يفتقد القول الصادق الذي يحقق مقصد الشاعر إذا أراد تعبيح حسن ونحسن قبيح .

وعند باكون تتمثل في محاولة إعطاء العقل الإنساني ظلا من الرضا في تلك الأحوال التي تضمن طبيعة الأشياء بامتناع فيها .

ولحازم إضافات في هذه القضية لم يتعرض لها باكون ، وقد أشرت إليها في موضعها أما أقسام الشعر فلا تلاقى فيها فالأجناس الشعرية عند الأول غيرها عند الثاني ، ولكن هذا الاختلاف لا يعنى التعارض بينهما ، فكلاهما يذهب في تقسيمه مذهبا يساير طبيعة الشعر عنده والعصر الذي وجد فيه .

فإذا جئنا إلى النقطة الأخيرة وهي مكانة الشعر والرؤية المستقبلية له ، رأينا التلاقي بين حازم وباكون على أن الشعر كان له مدخل وتقدير في العصور القديمة لم يكن لباب آخر من أبواب المعرفة ، ولكن بمرور الزمن وتوالي السنين فقد الشعر هذه المسكنة عند حازم ، وظل محتفظا بها عند باكون ، فصار الأول قلقا على مصير الشعر ومستقبله ، ولسان حال الشعر عنده يردد قول الشاعر القديم :

مردت على المروءة وهي تبكي

فقلت : هلام تلتجب الفتاة ؟

فقلت : كيف لا أبكي وأهل

جميعا دون خلق الله مانوا .

وظل الثاني حنفظا بأمله في إردهار الشعر وتفاؤله بمستقبله ولسان حال
الشعر هتده يردد قول المتنبي :
هو الجد حتى تفضل العين أختها
وحق ! يكون اليوم اليوم سيداً (١)
نسأل الله أن يرزقنا عقلاً راشداً في الدنيا وحظاً عظيماً في الآخرة وآخر
« دعوا أنا أن الحمد لله رب العالمين » ،

(١) ديوان المتنبي ٩/٢ - وفي روايه أخرى (وحق يصير اليوم ٠٠٠)

من أهم المراجع

أولاً : العربية :

- ١- أبو العلاء المعرى ناقداً :- وليد محمود خالص - دار الرشيد للنشر ،
الجمهورية العراقية ١٩٨٢ م .
- ٢- أبو العلاء النافذ الأدبي : دكتور السيد عبادة ، الطبعة الأولى
١٩٨٧ م ، دار المعارف .
- ٣- الأدب المقارن : بقلم الدكتور حسن جاد حسن ، الطبعة الثالثة
١٣٩٥ هـ ، دار الطباعة المحمدية .
- ٤- الأدب والحضارة : الدكتور السيد تقي الدين ، دار نهضة مصر
للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ .
- ٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي : تحقيق : محمد
أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، الحلبي ١٣٨٤ هـ .
- ٦- ديوان البحري : تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف
بمصر ١٩٦٣ م .
- ٧- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري : ضبطه و صححه : عبد الرحمن
البرقوقي ، المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .
- ٨- ديوان عبد الرحمن شكري : تحقيق : نقولا يوسف ، الطبعة الأولى
دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٠ م .
- ٩- ديوان العقاد : نظم عباس محمود العقاد ، مطبعة وحدة الصيانة
والإنتاج بأسوان ١٩٦٧ م .
- ١٠- ديوان المتنبي : وضعه : عبد الرحمن البرقوقي ، الطبعة الثانية ،
مطبعة السعادة ١٣٥٧ هـ .

- ١١ - رسالة الغفران لأبي العلاء المعري : دراسة نقدية تأليف الدكتور :
هائلة عبد الرحمن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ١٢ - زهر الآداب لأبي اسحاق الحصري : تحقيق : علي محمد الجاوي
الطبعة الأولى ، الحلبي ١٣٧٢ هـ .
- ١٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي : نشر مكتبة
القدس ١٣٥١ هـ .
- ١٤ - شاعرية العقاد في ميزان النقد : الدكتور ، عبد الحى دياب ، دار
النهضة العربية .
- ١٥ - الشوقيات : للرحوم أحمد شوقي ، دار العودة - بيروت - لبنان .
- ١٦ - في الشعر الأوربي المعاصر : الدكتور عبد الرحمن بدوي ، مكتبة
الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م .
- ١٧ - في النقد الأدبي : الدكتور شوقي ضيف ، الطبعة السادسة ، دار
المعارف ١٩٦٢ م .
- ١٨ - لسان العرب : لابن منظور ، طبعة دار المعارف .
- ١٩ - المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ : عباس محمود العقاد ، المجلد
التاسع عشر . (تراجم وسيرة) - دار الكتاب اللبناني بيروت - الطبعة
الأولى ١٩٨١ م .
- ١٩ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى بدعشق ١٣٧٦ هـ .
- ٢١ - مناجى البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجنى :
تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة - تونس ١٩٦٦ م .
- ٢٢ - الموشع للرزباني : تحقيق : علي محمد الجاوي ، دار نهضة مصر .
١٩٦٥ م .
- ٢٣ - النقد الأدبي الحديث : الدكتور : محمد غنيمي هلال ، الطبعة
الثالثة ١٩٦٤ م ، دار ومطابع الشعب .

٢٤ - نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر: تحقيق: كمال مصطفى مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ .

ثانياً: المترجمة :

٢٥ - الشعر والتأمل : تأليف/ روستريفور هاملتن . ترجمة : الدكتور محمد مصطفى بدوي ، مراجعة الدكتورة : سمير القلاوي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٣ م .

٢٦ - فن الشعر لأرسطوطاليس : ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه : الدكتور عبد الرحمن بدوي - ملتزمة الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣ م .

٢٧ - فائدة الشعر وقائده النقد : تأليف / ت . س . إليوت - ترجمة وتقديم الدكتور : يوسف نور عوض ، مراجعة الدكتور جعفر هادي حسن ، دار القلم - بيروت - لبنان .

ثالثاً : الأجنبية :

28 - Al - Mawrid - A Modern english - Arabic Dictionary by munir Ba,aldaki - Dar - El- ilm - Laj - Malayan - Beirut - Lebanon 1988 .

29 - Chambers Twentieth Century Bictionary - Revised edition with supplem at - Edited by AM. Macdonald OBEBA (OXon) - Printed and bound in great ptitain - latest Reprint 1981 .

30 - Englieh Critical Theories (1) From Ashem to ben gonson - published by the anglo - Egyption Bookshop .

31 - Alitle Treasty of Englieh poetry - editib by Rashad Rushdy - Angle Egáptian Bookshop 4th Edition - 1970 - prioted by bar wahden press .

32 - Poelry - English An Anthology. M-L. Rosenthal General Editor. V. A. Deluca, Beryl Rowland, Sally. M. Gall, Rosemary A. Kent Hiatt Howare weibort. Oxford- 1987 .

(٢٨ - مجلة كلية اللغة)

عالمية فن العربية الأول

وإشكالات الحدائين

بقلم الدكتور
محمد طه عيسى

يجتاز الأدب العربي في صورته الراحنة محنة نغمة تلك التي إجازة في القرن الثالث الهجري ، ووجه الشبه بينهما هو التمداعى الذى أصاب نفرا من المثقفين - الشعريين والحدائين - التقوا على كلمة سواء هي تجريد فن العربية الأول من كل قيمة خلقية وفنية ، واتهام أصحابه بفساد الذوق ، وشغل الذهن وأن أدبهم أدب معدة وبطون وفقائيع ، وأدب صحرأوى جاف مليء بالمبالغات والتسكف ، والزخرف ووصف العقيلة العربية بأنها عقيلة سامية قاصرة عن استنتاج المعاني المجردة ، (١) .

ووجه آخر للشبه هو ظهور حركة التأليف والترجمة لكل ما من شأنه ذم العرب وامتداح غيرهم ، ووضع الشروح الغربية لتشويه الأدب العربي والذرية بما يفتوى عليه من قيم ومثل عربية ، وسارت هذه الهجمة الشرسة في خطين متوازيين نارية وتمدأخين أخرى ، ثم بدعت قرونها من جديدة في مشربنيات هذا القرن حين انمعت سوق الثقافة الغربية ، وفتحت نوافذ المستشرقين والمبشرين الذين عكفوا على دراسة الأدب العربي وتحليله بمنهج ظاهرها الموضوعية وباطنها تهكيك المثقفين العرب في معطيات تراثهم الأول على ما يظهر من حركة التمرد التي يأتي في مقدمتها أحمد أمين . وسلامة موسى ،

(١) أنور الجندي : نقطة - الأدب العربي في مرحلة ما بين الحربين ص ١٧٦ ط

في كي نجيب محمود ، ودأونيس ، على أحمد سعيد ، وغيرهم من رموز الحضارة
التفريبية الذين لجوا في النرد على التراث ووصفه بالحملية ، وأنه لن يصل إلى
درجة العالمية إلا بالتحرر من رقة الماضي واحتذاء القيم الفنية الأوروبية .

فهل حقا أن الادب العربي أدب على ؟ وما السمات التي زعم الحداثيون
أنها حقبة دون العالمية ؟ وقبل هذا كله لماذا هذه الهجمة الشرسة على هذا
الفن العربي ؟

إن هذا الادب هو أحد معطيات الحضارة العربية ، وقد أدى - على تاريخه
الطويل - دوره التاريخي ، العقدي أو الفكري والإنساني ، على أحسن
ما يكون الأداء فكان « ديوان العرب » ، وخزانة حكمهم ومستنبط آدابهم
ومستودع علومهم ، « دية حفظات الأنساب » ، وعرفت المآثر ومنه تعلقت
اللغة وهو حجة فيما أشكل من غريب القرآن والحديث النبوي وحديثهم
أصحابه والتابعين و (١) .

وأما دوره العقدي أو الفكري فهو خدمه الدعوة والدفاع عنها كما
يتضح من قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - ملتفتا إلى الانتصار : « ما يمنع
القوم الذين نصرنا رسول الله بسلامهم أن ينصروه بالسيف » .

وكان ما هو معروف من رد حسان بن ثابت وقول الرسول - صلى الله
عليه وسلم - « قل وروح القدس معك » (٢) .

ثم كان له بعد هذا كله دوره الحضاري الذي يتمثل في نقل معطيات
الحضارات التي توارثها في البلاد المفتوحة وكان ذلك بلغة القرآن إلى أن
جاءت النهضة الأوروبية وقامت على أكتاف الحضارة الإسلامية في العصور

(١) العسكري . الصناعيين ص ١٠٤ ط الآستانة ١٣٢٠ وكذلك ابن سلام في
طبقات مخول الشعراء ص ٢٤ تحقيق محمود شاكر .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ٤ ط التقدم ١٣٢٣ هـ .

الوسطى ، فكان العرب أينما حلوا حملوا معهم لغتهم ، تلك اللغة التي قد نلنا أن تصبح أداة أدب عظيم ، لغة كان من ثمارها أنها صارت الواسطة التي نقل بها علم أرسطو وجالينوس الذي كان قد أوشك أن ينسى ، (١) .

وأولية هذا الفن وأولويته لا ترجع إلى هذا فقط وإنما هي أولية أيضا في السك تنفرد بها دون الآداب الفارسية واليونانية والهندية ، ويتضح ذلك إذا ما قارنا بين مرويات العرب ومرويات تلك الأمم ، فالألياذة والأوديسة وما معظم شعر اليونان في جاهليتهم لا يزيد عدد أبياتهما على ثلاثين ألفا ، والمهبرات عند الهنود لا تعدو عشرين ألفا والزيامانة لا تزيد على ثمانية وأربعين ألفا ، أما العرب فيعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات ، وقد ذكروا أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار الجاهلية أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطع ، وكان حماد الرواية يحفظ سبعا وعشرين ألف قصيدة والأصمعي ستة عشر ألفا .

وبروي ابن قتيبة أن أبا ضمضم كان ينشد لما شاعر كلهم اسمه عمرو ، وأن حماد الرواية كان بروي سبعة قصيدة أول كل منها بابت سعادة (٢) .

من هنا نكون أولية الشعر العربي وأولويته الحضارية ويكون تشويمه أو النيل منه نبلا من القرآن الذي نزل بلسان عربي ، فتحدى العرب ولم يتحد الشعر لأن القرآن ليس شعرا وليس من مثله ، (٣) .

وننتقل الآن إلى دحض مزاعم الحداثيين حول شخصية الأدب العربي التي تبلورت عندهم - جريا وراء المستشرقين - في مجموعة من الخصال أبرزها :

(١) د. عبده بدوي . مجلة الشعر عدد ١٥ يوليو ١٩٧٩ ص ٥٥ .

(٢) إبراهيم حامد . اليونان والعرب ص ٣٥ ط الشباب بدون تاريخ .

(٣) جورجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامى ص ٣٤ ، ٣٥ ط ٤ الهلال .

البدواة وفاعليتها العرقية « السلفية وحرمة القديم ، جمود الشكل والأداة .
الصبغة البدئية ، النزعة التركيبية ، الحسية .

- ١ -

أول هذه الإشكالات هي البدواة أو برية الشعر^(١) كما يسميها أحمد أمين
ويعممها على الأدب العربي في مختلف عصوره . مستأنسا بمقولة زهير للناطقة
وقد استعصى على الأخير بيت من الشعر . أخرج إلى البرية فإن الشعر يرى ،
وجرويات الشعراء حول بوايت شاعرهم من طوائف كثير في الرباع
المخلقة والرباع المعشبة ، وإشراف الأحوص في نشر من الأرض يافع ،
وارتحال الغرزدق إلى جبل ريان بالمدينة ، وانحدار الأبيود في الوادي
مستخلصا من هذا أن طبيعة الشعر الأول طبيعة بدوية وأن العربي لا يشعر
إلا في هذه البيئة فإذا خرج منها اعتقل لسانه وأصيب بالحصر ، مهما كان
البلد الراحل إليه من جمال الطبيعة وجمال الحضارة مدلا على هذا أيضا بأن
أمر القيس خرج من بيئته إلى القسطنطينية ورأى عظمة حضارة الرومان
فلم يقل شيئا . ١١

والذي نراه أن حجة أحمد أمين في برية الشعر وفاعليتها العرقية حجة
داحضة ، ذلك أن المقصود بخروج الشعراء إلى البرية هو طلب الفراغ
والوحدة واختلاء الشاعر بنفسه « بعيدا عن اللغط ومضطرب الحياة والعزلة
في المنبسط القسيح ليواجه خواطره وانشوائه وبهي الأجواء لقمح ،
وناد قريحته »^(٢) فالمقصود هو الخلوة وبين البدواة في ذاتها حتى وإن كانت
هذه الخلوة في السجن أو أعلى السطح أو صهريج من الماء كما يدل على ذلك
مقولة مروان بن أبي حفصة - الأموي - « كان هدبة أشعر الناس منذ دخل

(١) فيض الحاطر ص ١٢٢ ج ٢ ط النهضة ١٩٥٦ .

(٢) د. عبد الحيار المطلي . الشعراء نقاد ص ١٥٩ ط وزارة الثقافة العراقي .

السجين أني أن أقيده منه،^(١) وما روى من أن جريرا كان يشمل سراحه
ويعنزل وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه ، رغبة في الخلوة
بنفسه ، وما روى من أن أبا تمام كان يدخل في بيت معمرج به ماء يتقلب
فيه يمينا وشمالا وما روى من أن نصيبا كان يركب راحلته ويسير في الشعاب
البحالية وواضح من كل هذا أن كلمة الخلوة ، ومرادفها اللقوية هي أبرز
مفردات إجابات الشعراء حول بواحث شاعرهم يستوى في هذا البادية
والحاضرة فالهم هو الاختلاء والبعد عن شواغل المجتمع حتى تنهيا للشاعر قواء
الوجدانية والإدراكية والذهنية ، ولعل هذا هو تفسير مقولة زهير ، وإلا
لكانت ملامحه الأسلوبية برة طالما أن الشعر يرى أما وقد كان شعره ينطوى
كثيرا على سمات حضرية سواء في ذلك الموقف والأداة ، أما الموقف فقد كان
يتسم بالموضوعية والتبصر والتفاء فذكره مع ما قرره الإسلام من مقولة
« البينة على من أدعى » واليمين على من أنكر حتى كان عمر بن الخطاب يذكر
من ترديد بيته :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

ويقول لو أدركت زهير لوليت الفناء لمحرقة به ، ، وأما أسلوبه فقد
وصفه عمر بالسباحة والألفة والسلاسة والوضوح والخلو من التعقيد
أو بالأحرى وصفه بالخلو من فاعلية البدواة وعدة أشعر الشعراء معلا ذلك
بقوله : « فكان لا يتبع حوشى الكلام ولا يماغل في المنطق ولا يقول إلا
ما يعرف ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه »^(٢) .

وأما ما ذهب إليه أحمد أمين من أن طبيعة الشعر الأول طبيعة
بدوية فقد يكون مرجع ذلك - لا بما ذهب إليه من تأثير البدوة

(١) الأصمطي في نسب ٢٩/٢٧٣ وابن قتيبة . الشعر والشعراء ٢/٥٨ ، وابن رشيق
السدة ٣/١١٤ تحقيق حمى الدين عبد الدين .

(٢) ابن قتيبة . عمه ١/٦١١ والأفان ٩/٤٤٤ .

ولكن إلى قلة الحواضر وكثرة البوادي فقد كان أول ما ناور الشعر العربي في قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس ، ومن أقدم شعرائها المهلهل ثم تحول إلى قيس عيلان وكانت شعوبها تملأ نجداً وأعلى الحجاز ومن قبائلها عيس وذبيان ، وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء ومن قيس انتقل إلى تميم وتيمم مسعر الحروب فاستقر فيها وكانت أول نشوئها في نامة ثم تزحمت إلى شرق نجد وبادية العراق ، ولم يظهر في مدركة إلا في بطون سكنت البادية كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وريبيعة ، كما غلب على من ساكنهم بها من نازجي قبائل اليمن كطلي. وكندة وغيرها أما الحواضر فكانت قليلة في ذاتها ولذلك كانت قليلة للشعر. (١).

وأما ما استدل به أحمد أمين على بزية الشعر بقصة خروج امرئ القيس إلى القسطنطينية وعجزه عن القول لأنه خرج من بيئته لحصر فع أن قصة الخروج مشكوك فيها إلا أن امرأ القيس قد روى في ذلك شعر يناهض على مقدمة تصف خيل الهيد ولا تصف الإبل إذ يقول (٢) :

إذا قلت روحنا أرن فرائق على جلد وامر الأباجل أبقرا
على كل مقصوص الدياجر معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا
وبهذا تسقط دعوى أحمد أمين حول بداعة العربي وفاعليتها التراثية .

— ٢ —

وتمت إشكالية أخرى يثيرها الحداثيون حول شخصية الأدب العربي وهي السلفية أو « عبادة الماضي » وجرمته وتقديسه وأن بلاد العرب هي

(١) السباعي السباعي : تاريخ الأدب العربي في المعبر الجاهل ص ١٠٨ ط
الطبعة ١٩٣٢ .

(٢) ابن رشيق : نغمه ١٥٣/١ .

ولاد السلف يحكونها وهم في قبورهم بأديهم وتقاليدهم وشرائعهم ، وليس للخلف الراهن سوى الإذعان ، وأنه لولا هذه السلفية لما نهقر الأدب العربي عن حدود عالمية وما نهطرى عليه من ابتكار وتطلع إلى الأمام بهين ترجاه والنقمة وأن هذه السلفية جعلت « عيون الشعراء في أفقيتهم » ينظرون إلى الخلف ولا ينظرون إلى الأمام ، كما جعلت الأديب ملتفتا دائما إلى الوراء يستوحى الماضي ، وأنه لن تتحقق للأدب عالميته إلا بالتحرر من هذه السلفية . وإلا إذا تهدمت البنية الذهنية السائدة التي وجهت الذهن العربي وما تزال توجمه ، وأن يتخذ المعاصرون من آداب الأمم الأوروبية إمامهم المبين في الابتكار والإبداع .

فما هي تلك السلفية التي يقصدها . هي السلفية العربية الجاهلية والسلفية الإسلامية ؟ كلا الأمرين وارد :

إذ يتحدث أحمد أمين^(١) عن جناية الأدب الجاهلي والإسلامي من خلال زهير وابن قتيبة ، ويتحدث سلامة موسى^(٢) عن سلفية القرن الثالث الهجري ويلح الشامي^(٣) إلى السلفية العربية بمامة ، ويركز زكي نجيب محمود^(٤) على الصراع بين بدو العرب وحضارة البلاد المفتوحة بينما يقصد أدونيس^(٥) السلفية الإسلامية ، مقررًا أن القوى التي حاولت أن تبدع شيئا غير ماعرفه الماضي قبل عنها إنها غريبة عن التراث واعتبرت الفئات السائدة خروجا وأعطته اسما يقصد به التشهير والذم وسمت أصحابه أهل الابتداع والأهواء

(١) نفسه ص ٢٤٠ - ٢٦٠ .

(٢) مقال خصلتان في الأدب العربي الهلال مجلد ٣٤ - ٢٠ ص ١٥٦ سنة ١٩٢٥ .

(٣) الخيال لشعري عند العرب ص ١٧ تونس ١٩٦١ .

(٤) هذا العصر وثقافته ص ١١٠ القاهرة دار الشروق ١٩٨٧ .

(٥) جاسم المبارك . مقال عن أدونيس . مجلة الرسالة الكويت ص ٨٠ عدد

يوليو ١٩٧٣ .

وحاربت البارزين بالقمع والسجن والقتل وقضت أخيراً على كل اتجاه مبدع ، وبلغت هؤلاء جميعاً حول الدعوة إلى التردد على هذه السلفية وبأسفون لانتصارها ويسمونهم « الفقاقيع » ، « والعنطرة السكاذبة » ، « والعقم والجود » ، « والزبد الذي يذهب جفاء » ، « والقرذلة الذهنية » ، وأن فاعلية الحضارة قد أضعفتها حصانة السلفية العربية جاهلية كانت أم إسلامية . ١١

ونحن لا ننكر أن الأدب العربي في حاجة إلى التشييط والتشيط أو بالأحرى حاجته إلى التطعيم والتقليم بما يلائم واقعنا الاجتماعي وتراثنا الحضاري وفي إطار الوعى بالمتغيرات المصرية ، ولكن الذي ننسكه هو تجريد هذا التراث من قيمة الخلقية والفنية ، ووصفه بالعقم والجود . ويبدو أن دعوتهم تلك لم تكن خالصة لوجه الخدانة بقدر ما كانت تمويذة تقي أصحابها مظنة الالتئام إلى إيدولوجيات وأقدة وبلورتها بلورة عربية .

فهل صحيح أن حصانة السلفية أضعفت فاعلية الحضارة وجعلت الإبداع وصادرت الهوية الفنية والفكرية التي تلائم الحضارة الجديدة ؟ ١٢

صحيح أن ابن قتيبة قال : « ليس لمتأخر الفعراء أن يخرج أعلى مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر ، ويكي عند البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العامي ، أو رحلوا على حمار وبغل فيصفهم بما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو برد المياه العذبة الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت الزجس والورد والاس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والخضرة والعرار » (١) ولكن هل هذه المقولة كما يزعم الخدائون هي حجر الزاوية في الإبداع العربي ، وأنها تمثل تعميذاً فنياً وأنها قبل هذا كله هي الأصل في فكر ابن قتيبة ؟

الحق أن هذه المقولة كانت لأسباب قومية هي الدفاع عن البادية العربية - مصدر الرواية - ضد تعرضات الشعوبيين الذين لجؤا في الذريعة على العرب وإتهمهم بخشونة الكلام وغلظ المخارج ومخالطتهم الإبل كما يروى (١) الجاحظ قوطم ، وأطول غلظتكم الإبل جفى كلامكم وغلظت مخارج أصواتكم، مبيتا أن عامة من ارتاب في الإسلام كان من الشعوبية فإن من أبغض شيئا أبغض أهله ومن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف (٢) .

وأهل مقولة ابن قتيبة تنطوى على معنى آخر هو الإشادة بالبادية فهي مصدر اللغة الحالية من لسكنة الأعاجم كما أنها مصدر الجبال العربي الخالص من التصنع الحضري على ما ينطوى عليه قول القطامي الشاعر الأموي (٣) :

فمن تمكن الحضارة أهجته فأى رجال بادية ترانا
ومن ربط الجماعش فإن فينا قنا سلبا وأفراسا حسانا
وقول المتنبي :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدى طلباء فلاة ما عرفن بها مضع الكلام ولا صبح الخواجيب
فالبادية هي مصدر النقاء اللغوي والجبال مما جعل واحدا كالأصمعي لا يحتاج بشعر ذي الرمة لملازمته الحضارة ففقد كلامه (٤) .

ثم إن مقولة ابن قتيبة تمثل الاستثناء وليس الأصل الذي يقاس عليه ، أما الأصل فهو القيم الجالية عند الشاعر حديثا كان أم قديما على ما ينضح من

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١١ .

(٢) الحيوان ج ٧ ص ٦٨ تحقيق الحلبي القاهرة ١٩٠٧ .

(٣) الإصحاحات رقمه ١٥٧/٩ .

(٤) الثعالب : يتيمة الدهر ١/١٥ .

قوله (١) : « رأيت من طوائف من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون آخرين بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره » فهو إذن يعتمد الأساس الجاهلي وليس التاريخي .

ومن الغريب أن هؤلاء الحدائين قد ركزوا على مقولة ابن قتيبة ونجاهلوا كثير من المقولات النقدية عند غيره من ، ينظرون على أساس القيم الجاهلية لا على أساس السبق الزمني : فالجرجاني يقول (٢) : « لست أفضل في هذه القضية بين القديم والحديث والجاهلي والمختصرم ، والإعرابي والمولد ، وكذلك ابن رشيق (٣) الذي يوصي إلى أنه لا داعي لهذا التقليد إلا ما كان حقيقة يذكرها الشاعر لاسيا إذا كان من بلد المدح يراه في أكثر أوقاته فما أصبح ذكر الناقة والفلاة حينئذ ، وكذلك ابن الأثير الذي يقرر أن المحدثين أكثر ابتداء للمعاني ، وألطف ما هذا ، وأدق نظرا ، لانه عظم الملك الإسلامي في زمانهم ، ورأوا ما لم يره المتقدمون (٤) .

ثم إنه لاصحة لما زعمه هؤلاء من أن حضارة السلفية تلك قد أضاعت قاعدية الحضارة الإسلامية في الشعر وأن الشعراء في الإسلام أشد كلفا بعبادة السلفية الجاهلية صحيح أن « ليبدأ ترك الشعر » وقال ما كنت لأقول شعرا بعد أن هلك الله سورة البقرة وآل عمران ، ولحسنته مع ذلك كان « إذا افتخر استغفر الله » (٥) ، لقد تبدلت أهراض الشعر في الإسلام وتطورت أفكاره « فلم يفلح فخرا بالعصبية القبلية ولا تلبا للأهراض وإنما دعوة للمفكرة الجديدة وذبا عنها كما فعل حسان وابن رواحة وكعب بن زهير لتأثر العمراء بالقرآن حتى لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن من البيان أفسح وإن من الشعر

(١) نقس ١/٦٣ .

(٢) الوساطة ص ١٥ .

(٣) نقس ١/١٥٣ .

(٤) اللؤلؤ السائر ص ١٥٢ .

(٥) ابن قتيبة : نقس ١/٤٤٤ .

الحكمة تعبيراً عن مهمته في الحياة الجديدة والإشادة بقيمته الفنية^(١).
 كما أن الشعراء لم يلتزموا هذه الصرامة الفنية المزدوجة فالمنفى بدأ بهض
 قصائده بوصف الخول بدل الإبل حين يذكر قومه إلى مصر :
 ويوم كليل العاشقين كفته أراقب فيه الشمس إيان تغرب
 وعيني إلى أذني أغر كأنه من الليل ياق بين عيني كوكب
 كما يذكر رحلاته على قدمه في بعض مطالع مدائحه^(٢)، وكان الهمجوى
 يستبدل بالناقة السفينة ويصفها^(٣).

لقد أضعف الإسلام من حصانة السلفية الجاهلية بعد أن خرج العرب
 من برزهم وبرزهم النعم والعيش الرفيع، فظهر الذوق الحضري في الغزل
 للعنري الذي ثبت في الحجاز، صحيح أن الشعر لم يسلم من روح البداوة
 وهيبته القبلية كما في النقائض ولكن ذلك لم يكن على سبيل العموم والدوام
 بل كان حسب الطائفة السياسية المعارضة وحاجة الحكم إليها في العراق والشام
 وعما له وشغلا للناس عن السياسة بدليل أنه ظل حضرياً في البلاد التي كانت
 بعيدة عن سدة الحكم كالحجاز كما هو معروف في شعر ابن قيس الرقيات وابن
 أبي ربيعة.

من هنا تسقط دعوى المدائنين أن الشعراء في الإسلام أشد كلفاً بعبادة
 الماضي الجاهلي وترك الرد على هذه الدعوى للمستشرق الإيطالي كارل
 فلينو (١٨٧٢ - ١٩٣٨) الذي يقول^(٤) : هذه الدعوى لا توافقها حقيقة
 الأمر البتة فإذا طالعت سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري

(١) شكرى فضل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول من ٢٦٤ دار العلم
 للملايين بيروت ١٩٦٦.

(٢) السدة : بقية ١٥٣/١.

(٣) الموازنة ص ١١٤.

(٤) تاريخ الآداب العربية ص ١٠٤ . المعارف مصر ١٩٧٠.

والاغاني وغيرهما وجدتم كثرة ما يروونه من أشعار صدر الإسلام التي لم
تول زاهية والتي لم ينصرف عنها الرواة .

ويبدو أن دعوى « السلفية » تلك لا تتم من أصالة فكرية عند الحدائين
وإنما هي بلورة عربية لفكر غربي كما ينطوى على هذا المعنى قول بعض
المستشرقين : إن الروح اليهودية دائماً تتجه إلى المستقبل بينما الروح العربية
تتجه دائماً تتجه إلى الماضي . . وأن الذوق الفني للعرب يدل على حب الماضي
وعدم الاهتمام بالمستقبل . . وأن الأدب العربي يتميز عن الأدب الأدي
بحب الماضي وبعدم القدرة على التبصر ، (١) .

أليست هذه الفكرة هي الأصل الحدثن الذي روج له كل من أحاديث
وأدونيس وسلامه موسى وزكي نجيب محمود ، فباسقت الإشارة إليه وعند
الشابى الذى يردد كثيراً : « أن الأدب العربى لا تشوف فيه إلى
المستقبل » (٢) .

ومن الغريب أن هؤلاء حين سموا العقلية العربية - وكذلك الأدب -
بعبادة الماضي وعدم التقهوف إلى المستقبل طوفوا على « ألف ليله وليله » ،
فذكروا أن الأسر فيها على النقيض ففيها عندهم تطلع إلى المستقبل ، لأنها
ليست من أصل عربى أو لأنها من الحكايات الشعبية لا من الأدب
الرسمى ، (٣) .

وهي نفس الرؤية الاستشراقية التي قرر أصحابها أن مؤلفها على بوضع
خطه ، مستقبلية مرحومة منذ استهلال الكتاب تقوم على التبصر
بالمستقبل ، (٤) .

والأغرب من هذا أن هذه السلفية التي اعتنوها الحدائين عقبه دون

(١) جوتية : المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص ٣٧ دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٢) نفسه (٣) أحمد أمين . نفسه .

(٤) جوتية . نفسه .

الإبداع أو الوصول إلى العالمية يحثونها - وباعترافهم - من مقومات العالمية في الأدب الإنجليزي الحديث الذي يسمون أصحابه بالأمم الحية ، لأنها تدرس لطلبتها الأدب القديم ، حتى كان من وطن ملاحظة الدكتور لويس هوش^(١) أن السلفية الإغريقية هي دواعي عالمية الأدب الإنجليزي المعاصر . فلقد أخذ عن الإغريق أشكال أدبهم وعروضهم وإذا أنت تأملت حال الشعر الإنجليزي في مختلف عصوره وجدته يقتات على جثة القدماء - اليونان والرومان - اقتياتا في شكل أدبهم وعروضهم وأوزانهم وقوافيم وفي الشعر التعليمي ، والمجاء ، وأن الكثرة المطلقة منهم ينهبون نهباً من الشعراء القدماء علناً وبترخيص من النقاد وبذلك تحققت عظيمة شبكسبير العظيم أما ميلتون فلا سبيل إلى فهم عبقريته إلا بالرجوع إلى الكتاب المقدس واستيعاب إنيادة فرجيل^(٢) .

السلفية العربية عقم وجودها والسلفية عند الغرب إبداع وعبقرية^(٣) وإن تعجب فعجب أن تكون السلفية الإسلامية عند الحدائين^(٤) - فردة ذهنية ، وفقائع ، وأوهام كاذبة وضغطة فارغة ، وعقم وجود بنيائهم هذه الروح الإسلامية هي إحدى مقومات العالمية عند الشاعر الإنجليزي ميلتون على ما تم منه بقوله الدكتور لويس هوش^(٥) : « نقرأ الفردوس المفقود ونهمل أن ميلتون مسلم قوى الإيمان في كثير من نواحيه ، تراه منظراً لا يؤمن بالقيس ووسايلته بين الخالق والمخلوق تراه شديد الإحساس بقيمة الحياة الدنيا ، عبا لها تراه يفسر الكتاب المقدس تفسيراً عملياً فيبيح الطلاق وتعدد الزوجات ويجعل الرجل صراحة قواماً على المرأة ، فالرجل عند ميلتون ظل الله والمرأة ظل الرجل تراه يعقت البطوس الكنسية ، وينكر تزوين بيوت الله بالصور والتماثيل ، ومع اعتراف الدكتور لويس هوش بفاعلية الروح الإسلامية تلك في بزوغ عالمية

(١) الهلال ج ٢ م ٤٩ ص ٣٠٨ سنة ١٩٤١ مقال الأدب الإنجليزي أدب عالمي .

(٢) نفسه .

ميلتون إلا أن مقولاته لم تكن خالصة لوجه السلفية الإسلامية أو الأدب العربي الذي عزمه في مقاله بأنه على ، وإنما يخلص من ذلك إلى القول إن هذه الروح الإسلامية عند ميلتون مستقاة من التوراة لا من الإنجيل (١) وهو هذا يلحج إلى أصالة الثقافة العبرية وتبعية العرب وتلك حجة دحضها العقاد مقررًا أن سبق العرب للعبريين في ثقافتهم الدينية أوضح من سبقهم اليونان ، (٢).

السلفية اليونانية عند الحدائين رخصة للإنجيل المعاصرين وأما سلفية العرب عند معاصريهم فشيء لا ترخص فيه بالرغم من أن السلفيتين الجاهلية واليونانية يلتقيان في الوثنية والقدم ، ولكن عند الحدائين العرب أن قدم الأوربيين ليس كقد يعمقنا . . كما أن أحدهم مهما قدم فهو وليد حضارة تشبه بينهم . . كما أن وثنياتهم ليست كوثنية العرب فقد رفعوا آلهتهم من الأرض إلى السماء وجعلوا الحب والجمال والشعر آلهة ، ثم إن النظرة الدينية عند الجاهلين نظرة مادية ضيقة لجاء أدبهم تبعاً لذلك في المادية والجنود ، (٣).

فإذا تجاوزنا الديانة الوثنية إلى الدين السماوي وجدنا أن الدين من مقومات العالمية في الأدب الإنجليزي كما يقرر الدكتور لويس عوض من أنه لا تفهم عبقرية ميلتون العظيم إلا بالرجوع إلى العهد القديم من الكتاب المقدس ، . ألا يجوز لنا أن نجعل الرؤية الدينية إحدى مقومات العالمية في الأدب العربي كما هو الشأن عند الغربيين ؟

ويقرر أحمد أمين أن ، نظرة الغربي إلى الدين على وجه العموم تتخالف نظرة العربي إليه من ناحيتين : إحداهما أنه يسود الغربي النظر إلى الدين

(١) نفسه .

(٢) الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين . ص ٥٢ ط الهيئة المصرية

لقاهرة ١٩٨٥ .

(٣) أحمد أمين نفسه ص ٢٥٣ .

كنظام اجتماعي والثانية أن نظره الدين لا تتغلغل في كل شيء عند الغربي
تغلغلها عند الشرقي، (١).

الرؤية الدينية عند العرب وخاصة هي العقبة دون بلوغ أديهم درجة
العالمية لتغلغلها في كل شيء. ١١

ولعل عبارة أدونيس ، تفصح عن تفسير هذا التغلغل الديني لهذه
الرؤية الدينية إذ يصفها بأنها « غيبية حياتية في آن وأحد فهي نظرة شاملة
للفسكرة والعمل للوجود والإنسان للدنيا والآخرة وأن الظاهرة الشعرية
يفسرها المبني الديني » .

وهذه الرؤية الدينية الإسلامية يأسف الحداثيون لا تنصارعها غالباً
وتغلغلها في كل شيء. وأنها منعت الأدباء من استئنان أي سنة جديدة وحواريت
البارزين بالشهد والقمع وبالسجن والقتل ونقضت على كل اتجاه مبدع، (٢).

إن الفكر الإبداعي ليس غريباً على روح ثقافتنا وأهمية الإبداع في
إطار الحضارة العربية الإسلامية أنه يمثل إطلاقات لطاقت الخلق والاجتهاد
دون قيد على العقل إلى الحد الذي ينال فيه المجتهد أجراً حتى ولو أخطأ على
شرط الالتزام بإطار أخلاقي لا يحكمه الهوى فإن من سن سنة حسنة فله
أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة (أي مفسدة
لحياة الناس) فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة (٣) هذا من
الرؤية الإسلامية للإبداع، وأما عن القمع الفكري المزعوم فإن أحدالم يحترم
الحرية الفكرية مثلاً يحترمها الإسلام على ما تنطوي عليه الأئتان الكريمتان
« لا إكراه في الدين » ، « لستم دينكم ولي دين » .

(٢) نفسه .

(١) نفسه ص ٥٢ .

(٣) د . عبد الحليم عود ، الإبداع ص ٦٥٥ ، الدار ١٩٧٠ .

وإذا كان الدين من مقومات العالمية في الأدب الإنجليزي كما يقرر الدكتور لويس هوض ، فإن الأدب العربي ينفرد دون الآداب الأخرى بالتصاقه المباشر بالقرآن وبأنه أدب الدين الذي يمثل لفته كتابه منطلقا إلى أرجاء الأرض حاملا إياها زباجا بناء ، بين معتنقيه ثم هو بعد ذلك كله أدب التراث .^(١)

وهذا المقياس فهو أدب عالمي .

- ٣ -

وتمت سمة أخرى يروج لها الحداثيون ويلجئون في الدعوة إلى تحرير الشعر العربي منها لكي يصل إلى درجة العالمية مثلما حدث في الأدب الإنجليزي ، تلك هي القيود الشكلية التي ينطوى عليها عمود الشعر بمستوياته النغمية والنحوية والفنية والموسيقية وقد زعم هذه الدعوة كل من قاسم أمين وأحمد أمين ولطفي السيد وطالبوا بإفراغ الشعر في قوالب أكثر مرونة بما يتلاءم مع العصر ويتيح للشاعر الحرية النغمية والنحوية والفنية ، وظهرت كثير من الصيحات تردد أن « آفة اللغة هذه الفصحى » و « آفة الأدب هذا العمود » و « آفة النحر هذا الإعراب » .

وقد دعا أحمد أمين إلى ظاهرة الوقف للتخفيف من وطأة الإعراب وكان معنى هذا على حد تفسيره « أن تنزل العربية درجات وأن ترتفع العامية درجات »^(٢) كما دعا أيضا إلى الخروج على عمود الشعر الذي وصفه « بالتعجر » وأنه لم يكن ولم يتغير فالبحر في البحور وكذلك القافية مع أن البحور ليست إلا أوزانا والأوزان ليست إلا موسيقى تختلف باختلاف الصور ، ثم يقرر أن هذا الجرد في الشكل كان مصدره جرد الرواة وعصبيتهم للقديم فكانوا علماء لغة

(١) محمد خلف الله أحمد دراسات في الأدب الإسلامي ط الاسكندرية ٥٧ ١٩٤٧

(٢) دعيده بدوى مجلة الشعر عدد ١٥ يوليو ١٩٧١ ص ١ .

(٣) مجلة كلية الآداب

أكثر منهم أدياء وفقدة أدب، ثم يأسف لاتصانهم ويرجع ذلك إلى دكرهم حين صبغوا دعوهم بالصيغة الدينية واتصلوا بالخلفاء، (١).

وراضح من هذه الدعوى أن عمودية الشعر وما يتصل بها هي التي حالت دون عالمية الأدب العربي وأنه ينبغي أن تكون هناك مرونة تنبج للشاعر الحرة في الشكل واللغة على السواء كما هو الشأن في الأدب الإنجليزي الذي يقرر الدكتور لويس عوض إن تلك الحرية من مقومات عالميته وأن مسببات عظمة اللغة الإنجليزية هي مفرداتها ورقتها ومرونتها وموسيقيتها اللفظية، (٢).

فهل صحيح أن اللغة العربية غير مرنة، وأن الرواة لم يرخصوا للشاعر . وأن الشعراء العرب التزموا بهذه الصرامة ؟

الواقع أن اللغويين والنحاة بالرغم من تحسبهم وعماقظتهم وخصوصتهم مع الشعراء قد رخصوا للشاعر التوسع في الضرورات الشعرية فهناك ما يشبه إجماعهم على أن الشعراء أسراء المكلام يقصرون الممدود ويمدون المقصور ويقدمون ويؤخرون ويومنون ويشيرون ويقتلسون ويفيرون، (٣) ومن هنا ظهر التوسع في الصرف والنحو لضرورة وغير ضرورة . . . من هنا رأينا الشعراء يترخصون في شعرهم حتى أصبح الإيغال في حقل الرخص أوضح ما يميز لغة الشعر عن لغة النثر، (٤).

فهل يقبل في النثر أن يختلف إعراب التابع عن إعراب المتبوع كما في قول الفرزدق :

وحض رمان يا ابن مروان لم يدع من الناس إلا مستحيا أو مخلف

(١) نفسه ص ٢٥٣ . (٢) نفسه .

(٣) د . محمد بدوي المختصون ببناء لغة الشعر مجلة الشعر عدد ٤٤ ص ٣٥ أكتوبر

١٩٨٦ .

(٤) د . تمام حسان ، الترخص في اللغة العربية ص ٢٢٣ .

وهل يقبل في النثر أن يتقدم المعطوف على المعطوف عليه كما في قول الشاعر :

ألا يا نخله في ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

أو يتقدم المستثنى على المستثنى عنه كقول الحكيم :

ومالي إلا آل أحمد شيعته ومالي إلا مذهب الحق مذهب

أو أن تسقط صلة الموصول كما في قول هيب بن الأبرص الأسدي :

نحن الأمى فاجمع جموعك ثم ووجههم إلينا

وهل يقبل في النثر أن تتحول الكلمة بالترخص عن بنيتها كما في قول

الراجز :

الحمد لله العلى الأجل

وهل يجوز في النثر أن يضرب المفرد إلى جملة مصدرة بإما تقول

تأبط شرا :

مما خططنا إما إزار ومنه وإما دم والقنن بالحر أجدر

أو أن يأتي خبر كاد وصفا صريحا كقوله في القصيدة ذاتها :

فأبأت إل فهم وما كدت آيبا وكلم مثلها فارتقا وهي تضفر

ومعنى هذا أن الشعر لغة خاصة به وأوضح ما يميزها هذا الترخص في

القرائن حين يكون المعنى هو الذي يقتضى القرينة وليست القرينة هي التي

تقتضى المعنى . .

هذا عن الترخص النحوى والصرفى فإذا عن الترخص فى الشكل :

ولقد لاحظت ترخصات مروحية عند امرئ القيس فيما سمى بالمسطح

كقوله :

مرايغ من عند خلعت ومصابف

يصيح بمفناها صدى وعواذف
وغيرها هوج الرياح العواصف
وكل مصف ثم آخر رادف
بأسجهم من نور السباكين هطال

كالو حظ في شعره أيضا كثرة الأقواء في الغافية والاكفاء ، وكثرة
التصريح في غير أول القصيدة واستعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وقد
نسب أيضا الإكفاء وهو نقصان حرف من فاصلة بيت الشعر إلى الناقبة
كذلك البناد والإيطاء إلى عبيد بن الأبرص وعمر بن قتيبة واعتبره بعضهم
حرية للشاعر وترخصا وأنه ليس من عيوب الشعر عند الجاهليين كما رأاه فيما
بعد علماء العروض (١) .

أفيد بهذا يقال أن الرواة متعصبون للقديم وأن عمود الشعر متجمر
لم يكن وأن اللغة ليس فيها شيء من الحرية وأن العالمية في الأدب العربي
لا تتحقق إلا بالتحروح على اللغة ومسنوياتها (٢) .

ترك الجواب على التساؤل الأخير إلى جان بيرك أستاذ الشعر العربي
في السكوليج دو فرانس إذ يقول : الشعر أساسا عمل في اللغة ، فإذا كانت
العالمية تعني بالنسبة للشعراء العرب تخليا عن قيم اللغة أو نسيانا للغة أو ضعفها
البناء القوي فذلك يعني ضياع هذا الشعر (٣) .

ثم تعود بعد ذلك إلى صعوبة الإعراب المزعومة فالجواب أنها ، وم من
الأوهام وأن التعليم في أدق أموره يمكن أن تستوعبه القصص بدقة (٤) .

(١) ذ . علي خليل . مجلة شعر نفسه مقال مع الشعر الحديث ص ١٤ .

(٢) مجلة المشرق ص ٦٧ عدد ١٣٦ حزيران ١٩٧٣ .

(٣) د . عبيد بدوي نفسه عدد ١٤ أكتوبر ١٩٨٦ ص ١ .

وأما البدائل المروضة وهي « الوقف والتسكين ، ووضع أجرومية جديدة للغة » فصحة « أو لغة خشي ، فالحق (١) أن الدعوة إلى التسكين « سيكون لها أثر سيء ، على الشعر ذلك لأن أوزانه تعتمد على الحركة والسكون فثلايت عنقرة :

فارتاع من وقع القفا بلبانه وشكى إلى بعرة وتصمحم

إذا سكنا العين في « فارتاع ، والياء في ، إلى ، والتاء في « بعرة ، والميم في « تصمحم ، فإن التسكين يحول الشعر إلى نثر .

وأما الدعوى إلى « الفصحمية » (٢) فقد كان من ورائها دكتور ميشيل الأستاذ بجامعة ليدز حيث اقترح تجميع لغة جديدة المثقفين العرب قدر لها أربعمائة ألف كلمة من العالم العربي حين لاحظ أن لغة الكتابة تناقض لغة الحديث وأن العالم العربي يتكلم طبعات عدة ، وكانت هذه الدعوة خطوة سبقها خطوة قام بها كل من المستشرقين الألمان ولهم سييتا والإنجليزى وليم ولكوكس حيث دعا كل منهما إلى تبني الفصحى وكتابة العلوم بالعامية ثم تبنت مجلة المقتطف هذه الدعوة سنة ١٨٦١ .

ثم ما جدوى هذا العناء في إنشاء لغة جديدة ندرسها من جديد نقرأ وحرفا ، ثم من أى البلد ستأخذ مفرداتها ومن أيها سندع وأخيرا فنحن قبل هذا كله ندرس السكى نقرأ قراءة صحيحة ولا نقرأ السكى ندرس فاللغة الفصحى لغة كناية وليست لغة كلام ، (٣) .

إن العربية هي لغة القرآن بها نزل وبها يتل وبها يتقدم العرب وتزدهر

(٢) لغة .

(١) لغة .

(٣) لغة .

حضارتهم ، وقد أدرك خطورة هذه الدعوة - التي لم تكن وليدة العصر - المخلصون فقامت حركة لتعليم العربية الفصحى وأعلن الزهيرى : ما أحدث الإنسان مروءة أحب إلى من تعلم النحو ، واعتبروا الخطأ في اللغة ذنباً ، يستوجب الاستغفار فكان أحدم حين يمثّر لسانه بشيء من اللحن يقول استغفر الله فلما سئل عن ذلك .

قال : إن من أخطأ فيها فقد كذب على العرب ومن كذب فقد عمل سوءاً ، ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً^(١) .

— ٤ —

وتمت حجة أخرى يتدرج بها الحداثيون ويلجئون في إثارتها وهي تتعلق بالذوق والمقاييس الجمالية عند العرب ، الذين يرمونهم بفساد الذوق وشطط الذهن وأن أدبهم أدب « الصنعة البديعية » و « البهرجة السكاذبة » و « الفرقة اللفظية » و « الخيال المصطنع » وأنه « تمثال بديع من المحسنات لا حياة فيه » وفي الجملة هو عندهم « أدب بطون ومعدة وفقايع ولا حظ له من الجوهر أو الزوج » وأن مرجع ذلك هو « الموقف الذي رسم الشاعر قديماً وهو خدمة السلطات :

يذهب إلى هذا أحمد أمين ، وسلامة موسى وزكى نجيب محمود ، والماذني ، والشاذلي ، وكثير من الحداثيين وهم في هذه الفرضية يجرّدون الأدب العربي من رسالته في الحياة ويعتبرون هذه السمة البديعية جنائية على الأدب وإمالة للذوق بأنها تضغف ملائكة الإبداع وتقمص بالأدب من العالمية .

(١) بالقرآن المجزى . معجم الأدباء ج ١ ص ٧٨ دار المأمون .

والحق أنهم حجة داحضة وقد أثارها من قبل كثير من الشعوبين الذين افتخروا على العرب بالذوق والبلاغة مما جعل الجاحظ يرد عليهم بقوله (١) « ونحن إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة في القصيد والأرجاز والمنثور وفي المزدوج وما لا يزدوج فعنا الحكم على ذلك في الديباجة الكريمة والرواق العجيب والسبك والنحت » .

على أنه إذا كان التائق البلاغي من مثالب الأساليب العربية عند الحدائين قد حال دون وصول الأدب إلى العالمية فن الغريب أن المستشرق الإنجليزي س . هاملتون جيب (١٨٩٥ -) يقرر أن التائق البلاغي هذا إحدى السمات التي يتميز بها الأدب العالمي وهو في هذا يجرّد الأدب العربي من هذه السمة وأن « التائق البلاغي الشرقي الذي أصبح نموذجاً هو أجنبي على التعبير العربي الطبيعي ، زحف إلى الأدب العربي من مصادر خارجية » (٢) ويذهب إلى هذا الرأي أيضاً المستشرق النمساوي حوشاف غرونهاوم (١٩٠٩ - ١٩٧٢) مقررًا أن الجمال عند العرب لم يكن سوى ذخارف وعن هذه النظرية الأرستوطالية نشأت النظرية النقدية العربية (٣) .

البديع إذن من مثالب الأدب العربي وهو سمة قدمت به دون العالمية ، ثم هو بعد هذا كله أصل يوفاني عقله العرب ولا ندري كيف يكون عربياً وأجنبياً في آن معا إن البديع (٤) كما يقول ابن المعتز معروف في القرآن وكلام العرب والحديث النبوي والأشعار المتقدمة ، ثم إن العرب الجاهليين لم يعرفوا المصادر الأجنبية فضلاً عن أن ينقلوها . أو يتأثروا بدهلياتها الجمالية وقد اعترف بهذا المستشرق كراتشكو فسكى مقررًا « أنه من الصعب إيجاد آثار

(١) السابق نفسه . (٢) الأدب العربي ص ٦٩ .

(٣) دراسات في الأدب العربي ص ٩ بيروت ١٩٦٢ ، ترجمته دهبان عباس وآخرين .

(٤) د . مندور النقد المنهجي عند العرب ص ٤٨ .

لأنغرد اليوناني في نشوء البديع العربي ، فقد ولد في بيئة تختلف عن البيئة التي نشأ فيها البديع اليوناني كل الاختلاف وأن ابن المعتز كان رائد البديع في الربع الأخير من القرن التاسع وأن منهجه نتيجة دراسته القرآن والحديث وشعر العرب الذي ظهر فيها هذا الاتجاه (١) .

وإذا كان الحداثيون العرب قد جردوا الأدب العربي من العالمية على هذا الأساس البديعي واعتبروه تمثالا بديعا ، وخيالا مصطنعا قائما على عبادة الماضي وأنه أفقد الأدب وظيفته الحياتية وقصره على الدعاية السياسية للحاكم فإن هذه الدعوى بلورة عربية لفكر غربي صدح بها من قبل كثير من المستشرقين وقرروا أن : الطريقة السائدة في الشعر العربي هي فن الزخرفة (٢) .

ويبدو أن غوستاف فرونيباوم قد نسي ما كان يدهو إليه من قبل من أن هذه الصنعة البديعية عند العرب إنما هي أصل يوناني وأنها من ملاح العالمية في الأدب إذ تراهم دون تمحيص يقررون هذه الصنعة هي السبب في تأخر المسلمين وتأخر أديبهم بسبب نزوعهم إلى حب الماضي وأن يكون الكتاب المسلم متقنا أنواع الأساليب في صفة أي حاكم في أية طريقة ومثل هذا يقضى على الطبيعة العقلية والجمالية في هذا النوع من الثقافة التي تحجر الذهن بسبب إشارها الشكل والشكلية على ما فيها من ميل إلى الظهور بمظهر جمالي (٣) .

على أنه إذا كان المتمردون عندنا على التراث العربي قد انهموا الذوق العربي بالفساد والشلط واتخذوا من الحدائث تويذة نقدية مطالبين الشعراء بالصدور عن أذواقهم هم وليس عن أذواق القدماء وألا يجمدوا على تمحيصاتهم التي لا توأم العصر صائحين بأنه (٤) : قد حلت الطيارة محل الإبل ولا زلنا نقول : التي حبسه على قاربه ، نقول إذا كان الأمر كذلك

(١) نفسه . (٢) جونييه السابق . (٣) نفسه . (٤) أحمد أمين . السابق .

فإن هذه المصباحات ماضى إلا بلورة عربيه لفكرة استشراقية نلح أصولها عند كراشكوفسكى حين يرى البديع العربى بالحقم والجلود وأن التجديد فى هذا المجال لم يكن سوى د إحلال شئ محل آخر فحل القطار محل الناقة وظلت التقاليد القديمة مهيمنة على الشعر العربى،^(١).

ومن الغريب أن المستشرقين جردوا الأدب العربى من أخص خصائصه وهى الغنائية التى هى سر الأمرار فى فن العربية الأول ، وأقدم نصاؤها لأنها تعبير عن خلجات النفس وهواطف الإنسان العربى وحاجاته فى تلك الحياة الأولية الساذجة التى تجعله يتم بحاجات نفسه ومطالبها قبل أن يتم بغيره،^(٢) ومع هذا يذهب جرونتياوم إلى نقص هذا الجانب فى الثقافة الإسلامية فى القرون الوسطى وأنه قد قعد بالعرب عن الإبداع والخلق،^(٣) ١١

- ٥ -

وثمت إشكاليه أخرى يروج لها الحداثيون وهى افتقاد الأدب العربى إلى النزعة الإنسانية التى هى إحدى سمات العالمية فى الأدب الإنجليزى الذى يقرر الدكتور لويس عوض^(٤) أنه ليس أدبا محليا كبعض الآداب الأخرى إنما هو أدب إنسانى شأن الأدبين الإغريق والفارسى هو أدب يعبر عن عواطف الجنس البشرى كله لاهن عواطف الإنجليز وحدهم هو أدب تقف فيه على تطور القيم الإنسانية الحقيقية كما أنه صلتها بالمجتمع قوية ودائمة وواضحة وبالجمله هو أدب حى وهو مستودع العواطف والآلام الإنسانية .

(١) دراسات فى الأدب العربى ص ١٨ موسكو ط ١٩٦٥ .

(٢) د محمد طاهر دزويش التند الأدبى عند العرب ص ٢٥٣ .

(٣) نفس ١٠٧-١٠٨ . (٤) نفس ٤ .

وواضح من عبارة الدكتور لويس عوض ، الآداب الأخرى ، أنه يغمز الآداب العربي في هذه السمة التي خص بها الآداب الإنجليزي فإذا أضفنا إليها عبارة أحمد أمين^(١) ، أن شعر العرب لا نتيجة شعور يتدفق وأنه من رأسهم لا من قلوبهم ، مع عبارة سلامة موسى بشأن الشعر العربي وأنه « بهرجة سخيفة المفزى والمفنى »^(٢) خرجنا بنتيجة حدائية وإذا ما أن الآداب العربي لم يؤد رسالته اللهم إلا أن يكون في خدمة السلطان الحاكم وإذنه لذلك يفقد النزعة الإنسانية !!

والحق أن الآداب العربي على اختلاف حضوره ينطوى في موضوعاته وتضايها على كثير من النزعات الإنسانية التي تعبر عن عواطف الجنس البشري بهامة وليس العرب القدماء وحدهم فقد تساءل عن الإنسان وألكون والحياة والموت والحرية والقدر وغير ذلك من مشكلات إنسانية تناوَلها الشعر الجاهل والإسلامي وأعطى من خلالها أموراً جد عظيمة . فلم يكن زهير ابن أبي سلى يعبر عن نفسه لحسب إنما كان يعبر عن مشاعر كل ذي هرم حينما قال :

سئمت تسكليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أباً لك يهرم
ولم يكن ليبد (٦٥٠ - ٦٦٠) يعبر عن موقفه فقط إنما كان يعبر عن موقف الإنسانية من قضية الموت والخلود حينما قال :

بلينسا وما تبسل أننجوم الطولع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وما المرء إلا كالشهاب وضروته يصير رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أنت ترد الودائع

ولم يكن أبو حنيفة الهذلي يترجم عن ذاته لحسب إنما كان يعبر عن مخاوف كل عاشق من عواقب الهجر حينما قال :

ولأنى لا أدري إذا النفس أشرفت على هجرها ما يفعلان في الهجر
فالتخوف من عواقب الهجر شعور كل عاشق وهذا ما جعل بعض من
صمعه يقول : الموت اللاحق واقع يا ابن أخى مادونه شيء (١) .

وكذلك ابن الرومي لم يكن يعبر عن ذات نفسه بحسب وإنما كان يعبر
عن مشاعر الإنسان من خوف المجهول حينما قال :

ألا من يربنى غايى قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب
والأمر كذلك بالنسبة للعربى حين قال :

صاح هنى قبررنا تملأ الرحب فأين القبور من مهد عاد
ولم تقتصر هذه النزعة الإنسانية في الشعر العربى على المشكلات التى تناوَلها
الحسب وإنما امتدت أيضا إلى أغراضه وموضوعاته ففي شعر المديح سجل المثل
الرفيع في الرجولة وما ينبغي أن يكون عليه التائبون في الخلق والسلوك حتى
يحدد فيهم الشباب النموذج الأول في البطولة والحمية والبطش بأعداء الإسلام .

وفي الشعر السياسى الاموى والعباسى عند الخوارج والشيعة يطالعا
النموذج الأول في النضال من أجل المبادئ وما ينبغي أن يتصف به الخليفة
من العدل والإلتزام .

وفي شعر الاطلال طالعا الفسكرة التى يرمز بها هذا الرسم العافى إلى
قضية الحب والحياة وما يلاهما من العدم .

في شعر الغزل العذرى وما تفرع عنه من حب صوفى يطالعا النغنى
بالجمال المطلق في السكون ومشاهده وما يبعثه هذا المشق من وجد ظالم لا يفتنى .
والخلاصة أن الشعر العربى القديم لم يكن بعيدا عن هذه النزعات
الإنسانية في موضوعاته ومشكلاته كما أنه لم يكن فقط في خدمة الحاكم كما
يرجع الخدائون مقررين في أكثر من موضع أنه أدب نقباء وبطون
ومعدة ولاحظ له من اللباب .

إن هذا الفن الأول يتلاءم مع العصر في جملته . فهو فن والفنون خالدة .
تعبير عن مشاعر الإنسان وعواطفه وهي خالدة في الناس على اختلاف مصورهم
فنحن والاسلاف نعيش نفس المواطن وكل ذلك لا يختلف من جيل إلى
جيل وإنما الذي يختلف هو العقل ومعهوله من العلم الذي يرقى مع الزمن
وبالجملة فالشعر العربي القديم يحمل غذاء فنيا رفيعا في كل جوانب الحياة في
تربية الشباب وبث المثل الاخلاقية فيهم وإشعال جذوة الطموح والثقة والمجد
الحربي في صدورهم وتجسيد العواطف الصافية وصقل خبرتهم بالحياة وفتح
كثير من النوافذ لتأملات نفسية وعقلية في الحياة والموت والقدر (١) .

ولعله بعد ذلك يجوز لنا أن نصف هذا الأدب بالعالمية وأن نقول عنه
ما قاله الدكتور لويس هوض عن الادب الإنجليزي وبهذا المقياس يسكون
الادب العربي أدب إنساني عالمي .

(١) د . شوقي ضيف : مجلة الشعر العدد السادس أبريل ١٩٧٧ ص ٦١ حوار
أجراه معه عاطف مصطفى .

أهم مراجع البحث

أولا : الكتب :

- ١ - الإبداع : د. عبد الحليم عمود ، المعارف القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٢ - الأغاني : الأصفهاني : ط التقدم ١٣٣٣ هـ .
- ٣ - البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق السندوني .
- ٤ - تاريخ الأدب العربي : السباعي السباعي : ط العلوم . القاهرة . ١٩٣٣ م .
- ٥ - تاريخ الفنون الإسلامي : جورجى زيدان : ط ٤ الهلال .
- ٦ - تاريخ الآداب العربية : ط : المعارف ، مصر ١٩٧٠ م .
- ٧ - الرخص فى اللغة العربية : د/ تمام حسان .
- ٨ - الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين والعبرانيين : العقاد ، ط : الهيئة المصرية ، القاهرة ١٩٨٥ م .
- ٩ - الحيوا : الجاحظ ، ج ٧ ط : الجلبى ، القاهرة ١٩٠٧ م .
- ١٠ - الخيال الشعرى عند العرب : أبو القاسم الشاذلى ، ط : المؤسسة الثقافية تونس ١٩٦١ .
- ١١ - دراسات فى الأدب العربى : غزو نباوم ، بيروت ١٩٦٢ م ، ترجمة إحسان عباس .
- ١٢ - دراسات فى الأدب الإسلامى : محمد خلف الله أحمد ، ط : الإسكندرية ١٤٩٧ هـ .
- ١٣ - دراسات فى الأدب المعاصر : كراتشكوفسكى ، موسكو ط : ١٩٦٥ .
- ١٤ - الشعر والعمراء : ابن قتيبة .
- ١٥ - العمراء نقادا : د/ عبد الجبار المطلىب ، ط : [وزارة الثقافة] ، العراق ١٩٨٢ .

- ١٦ - الصناعتين : العسكري ، ط : الأستاذة ١٣٣٠ هـ .
١٧ - طبقات لحول الشعراء : ابن سلام ، تحقيق محمود شاكر .
١٨ - العمدة : ابن رشيقي : تحقيق محمود شاكر .
١٩ - فيض الخاطر : أحمد أمين ج ٢ ، ط : النهضة ١٩٥٦ .
٢٠ - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول : شكرى فيصل ، ط : دار
العلم للملأين ، بيروت ١٩٦٦ .
٢١ - المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية : جوتييه ، دار الكتب
الأهلية ١٩٦٠ .
٢٢ - معجم الادباء : ياقوت الحموي ، ج ١ دار المأمون .
٢٣ - هذا العصر وثقافته : د/ زكى نجيب محمود ، القاهرة ، دار الشروق
١٩٨٧ م :
٢٤ - بقظة الادب العربي : أنور الجندي ، ط : زهران ، القاهرة ١٩٧٢ .
ثانياً : الدوريات :
١ - مجلة الشعر أعداد يولية ١٩٧٩ ، أكتوبر ١٩٨٦ .
٢ - مجلة الرسالة الكويتية عدد يوليو ١٩٧٣ .
٣ - مجلة الهلال مجلد ٣٤ ج ٢ سنة ١٩٢٥ .

القسم الخامس

الدراسات التاريخية والجغرافية

- ١ - الدكتور عبد العزيز فنيح
- ٢ - الدكتور السيد رزق حجاج
- ٣ - الدكتور مجاهد توفيق الجندي
- ٤ - الدكتور محمد صابر حرب
- ٥ - الدكتور طلعت أحمد عبده

خير النساء ... خديجة بنت خويلد

بقلم الدكتور
عبد العزيز غنيم

في الجمالية :

كانت خديجة بنت خويلد إحدى كرائم قريش وصواحب الرأي والعقل فيها كانت ذات مال كثير وثرى وفير . وكانت قد اتخذت التجارة مهنة لها بعد أن مات عنها زوجها . هند وعتيق . غير أنها لم تكن تخرج في قوافلها التجارية المتوجهة نحو الشام واليمن وغيرهم من أسواق العرب . وإنما كانت تختار من ذوى الشرف والأمانة من بنوب^(١) عنها في البيع والشراء والمضاربة شأنها في هذا شأن من سواها من النساء اللاتي كن يحتقرن هذه المهنة . وقد اتفق النسابون على أنها هي خديجة^(٢) بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية ، وأن أمها هي فاطمة بنت زائدة بن الأصم .
وأنها قد ولدت في مكة وأن ولادتها قد كانت في العام الخامس عشر قبل هجرة أبيه .

وهذا القول يختلف فيه بناء على الاختلاف في سنها عند تزوجها محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ولا خلاف بين الرواة في أن خديجة رضى الله عنها قد تزوجت مرتين قبل زواجها من النبي عليه الصلاة والسلام وإنما الخلاف^(٣) حول من تزوجته أولاً . أمر أبو هالة هند بن زرة أم عتيق بن

(١) السهيل : الروض الأنف ٢ ص ٢٣١ ط دار الكتب الحديثة .

(٢) ابن حجر : الإصابة ٤ ص ٢٨١ ط دار الفكر بيروت .

(٣) ابن عبد البار - الاستيعاب ٤ ص ٢٨٠ دار الفكر - بيروت .

(٣٠ - مجلة كلية الآداب)

عائده . وأياما كان فلانها قد أفضيت من كل منهما في وأن الحياة لم تعال بينهما وبينهما . فقد لقيار بهما واحداً بعد الآخر ، وهى ماتزال ترفل في بروء الصبا وأثواب الشباب . ويظهر أنها قد ستمت الزواج بعد أن أصيبت في كل منهما وهما في مثل عمر الزهور .

فقد كان الحطاب يتسابقون إليها من قریش وغيرها وكانت هى ترفضهم وتأتى عليهم حتى عرفت محمداً عليه الصلاة والسلام ، فأحبته ورغبت في أن تكون زوجة له . ومرجع هذا في تصورى إلى أسباب أحدها : أن محمداً قد كان في كفالة عمه أبى طالب^(١) . وأن هذا الرجل قد كان ذا عيال ، وكان ماله به من المال لا يكتفى للاتفاق عليهم وتوفير مأم في حاجة إليه ، فقال يوماً لابن أخيه يا محمد أن خديجة امرأة ذات مال وأنها تستاجر من يتاجر لها في مالها فلو ذهبت إليها وعرضت عليها نفسك لاضممت لك الأجر لما تمرفه ويعرفه غيره من طوارئك وأما تلك وصدق حديثك وحسن خلقك ، وامثل محمد عليه الصلاة والسلام لأمر عمه أبى طالب وتحدث إلى خديجة فأئنت عليه وأظهرت رغبتها في التعامل معه وخرج صلوات الله عليه في تجارتها إلى الشام ومعه غلامها ميسرة . وقد رأى هذا الغلام منه ما أدهشه وحير خاطره . رأى غمامة تدنو منه حتى تظله كلما حميت الشمس واشتدت الحرارة ورآه ، وقد تولوا على كئيب من صومعة راهب نصراني . اسمه نسطور^(٢) . وقد أظلمته شجرة لم يكن رآها من قبل في هذا المكان على الرغم من كثرة أسفاره وتكرار زيارته لهذه الصومعة . وصاحبها الراهب النصراني ، وأدهش من هذا وأعجب ما قاله له هذا الراهب وهو يسأله عن هذا الرجل الذى تظله هذه الشجرة ، فقد أكد له أنه نبى وأن زمانه قد اقرب وأن الله سوف يمدى على يديه العجم

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/١٢٩ ط بيروت - للطباعة والنشر .

(٢) السهيلي : الروض الأنف ١ - ص ٢٣٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى

والعرب وزاد يقينه ورسخ إيمانه عندما رأى من أهل الشام يلاحى بمحمد
حول شيئاً باعه له ويصأله أن يحلف باللات^(١) والعزى وقول محمد له والله
ما أبغضت شيء بضغى لهذه الأصنام ، وإنى لأمر عليها فلا أنظر إليها .

فقد عقب هذا الشاى على ما سمع من محممة ثلاً والله إنه هذا هو النبي
الذى يتحدث عنه الأخبار والزهبان والذي جاء ذكره في التوراة والإنجيل
وقد حدث مبسرة سنده خديجة عن هذا كله فور عودته إلى مكة وأضاف
إلى ذلك ما لاحظته في محمد عليه الصلاة والسلام من طيب العشرة وصديق
الحديث ودماثة الخلق ، وهذا التوفيق الذي حاله في بينه ومثرائه . ولم تشك
خديجة رضى الله عنها في صدق مبدرة ولا في حقيقة أقواله في محمد صلى الله
عليه وسلم فقد رأت هي بعينها طرف منه ذلك أن مبسرة قد قال لمحمد وهو
في طريق عودته وقد تزولا في مر الظهران يا محمد أذهب أنت إلى خديجة فاعلمها
ما وفقك الله فيه في البيع والشراء فإن ذلك سوف يكون له الأثر الحسن في
نفسها وأطلق صراوات الله عليه نحو مكة .

وكانت خديجة في شرفة لها تنتظر وصول القافلة فرأت محمداً قد اكتشفه
عليه كان - أحدهما عن يمينه والآخر من شماله ، وغمامة فوق رأسه تظله من
الهاجرة فدعت نساءها وسألتهن أن كن يشاهدن ما تشاهد فقلن نعم وعمل الفهم
وبعد أن قص عليها محمد أخبار الرحلة ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل^(٢)
وكان قد قرأ الكتب وتحنف ، فلما حدثته حديث غلامها مبسرة وما شاهدته
وهي في شرفها تنتظر القافلة أحتى رأسه قليلاً ثم رفعها وقال لئن كنت قد
صدقتني يا خديجة فإن هذا هو النبي الذي يتحدث عنه النكتب المقدسة وراح
ينشد أبياتا جاء فيها :

-
- (١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ١٣٠ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ١٣١ .
(٣) مرجع سبق ذكره ، الروض الأنف ٢/ ١٤١ .

لجوت وكنت في الذكرى لجوجاً ظم طالما بك النشيجا (١)
 ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجة
 بطن المسكين على رجائي حديثك أن أرى فيه خروجاً
 بما خدنا من قول قس من الرهبان أكره أن يعوجاً
 بأن محمداً سبود قوماً وينهم من يكون له حجيجاً
 ويظهر في البلاد ضياء نور يقوم به الهبة أنت تموجاً
 فيلقى من يحاربه خساراً ويلقى من يسأله فلو جاً
 فيأتي إذا ما كان ذا كم شهدت وكنت أولهم ولو جاً

وواضح من هذا الشعر الذي أنشده ورقة بن نوفل أن خديجة بنت خويلد قد نعت عليه مسميته من غلامها ميسرة في شأن محمد وما قاله الراهب نسطور في أمره . ولأن ورقة قد كان ممن قرأ الكتب ودرس الأديان فقد حكى عن محمد ما حكى وتوقع له ما توقع . وانتظر اليوم الذي يكون فيه حديث خديجة حقاً لا سبيل إلى إنكاره ولا إلى الشك فيه ، ويكون هو أول المعتنقين له والداخلين فيه .

والسبب الثاني وهو ما سجله المدائني عن عبيد الله بن عباس رضي الله عنهما أن نساء أهل مكة (٢) اجتمعن في عيد لمن في الجاهلية فتمثل لمن رجل فلما قرب نادى بأعلى صوته يا نساء مكة إنه سيكون في بلادكن نبي يقال له أحمد فن استطاع منكن أن تكون زوجة له فلفعل لخصنة إلا خديجة فلما عصت على قوله ولم ترض له .

وما أشك في أن ما رأته خديجة من أمر وما سمعته في شأنه من غلامها ميسرة وابن عمها ورقة . وهذا الرجل الذي أطلع على نساء مكة في عيدهن جعلها

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٦ ط مكتبة المعارف - بيروت .

(٢) الحافظ ابن حجر : الإصابة ٢/٤٨٢ ط .

تحب محمداً وتتعطش إلى اليوم الذي يجمعه وإياها فيه بيت واحد ورباط واحد ومن أجل هذا رأيناها تتابع أخباره وتكثر السؤال عن شئونه وأحواله ومن أجل هذا كذلك رأيناها ترسل إليه أختها أو إحدى صواحبها تسأله أو تسأل صديقه غمار^(١) . إذا كان يرغب في الزواج فإن آتية منه راحة صدر وإنشراح نفس وبشاشة خاطر حدثته أنها راغبة فيه وتم الأمر كما أرادت . فقد تحدثت أختها أو إحدى صواحبها إليه أو إلى صديقه . ومن الرواة من يقول بل إن محمد صلوات الله وسلامه عليه هو الذي مشى إليها ، ومهما يكن من شيء فقد تم اللقاء بينه وبينها وانقفاً معاً على الزواج ، وذهب صلوات الله عليه إلى عشيرته ، وهاذ ومعه عنه حمزة أو عنه أبو طالب وكانت خديجة قد ذهبت بقره وذعت أقاتها وذوى عشيرتها . واستوى أبو طالب قائماً وقال^(٢) : « أما بعد ، فإن محمداً عن لاي وزن به فقي من قريش إلا رجح به شرقاً وأبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قل ، فإنما المال ظل زائل ، وعاريه مسترجعة بوله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » فقال عمرو وهو الفحل الذي لا يفرق أنفسه ، وتم الاتفاق بين الأسرتين على المهر وهو عشرين بكرة^(٣) أو أربعون أوقيه من الذهب والفضة . وكانت خديجة آنذاك في الأربعين^(٤) ، وكان محمد في الخامسة والعشرين . ومن الرواة من يرى أنهما كانا في الخامسة والعشرين والرأى الأول أكثر تداولاً على الألسنة . وأكثر تناقلاً عن المسلمين قرناً بعد قرن ، وعصراً بعد عصر وقد اختلف الرواة في الوالى الذى زوج خديجة من محمد ، فلهذا بعضهم هو أبوها خويلد وقال هو عنها حمز^(٥) والرأى الثانى أرجح من الأول وذلك لسببين :

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ٢/٢٩٥ .

(٢) الروض الأنف - مرجع سبق ذكره ٢/٣٣٨ .

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية ٣/٢٩٤ .

(٤) الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - ٢/١٩٦ ط / دار القلم بيروت - لبنان

رابن سعد - الطبقات الكبرى ١/١٣٢ .

(٥) السهيلي - الروض الأنف - ٢/٢٧٨ .

أحدهما : أن خويلاً كان قد مات قبل حرب الفجار :

والثاني : أن أصحاب الرأي الأول يدعون أن خديجة كسبت (١) أباهما خويلاً حلة من حرير وراحت تسقيه الخمر حتى سكر فلما آفاق سئل عما يجري ، فقالوا له لقد زوجت خديجة من محمد . فأبى هذا الزواج ورفضه ولما رأى الشر قد أوشك أن يقع بين العشيرتين . أقر ما كان قد أنكر . وباركه وهذا كلام لا سبيل إلى تصديقه فإما كان لخديجة في عقلها وشرها أن تتخذ من أبيها مكذاً وتلبس الأمر عليه وما كان لمحمد في حسبه ونسبه أن يقبل زواجا قائماً على التزيف والتجويه . ومهما يكن من شيء ، فإن المأوى سبحانه قد بارك هذا الزواج وحفظه من كل ما يشين ويجعل السوء يخالطه أو يدنو منه فقد كانت خديجة كل شيء في حياة محمد . كانت الأم الحانية . والأخت الزاكية والزوجة الودودة الولود التي إذا أمرها أطاعت وإذا نظر إليها سرته وإذا غاب عنها حفظته في ماله وعرسه . وكان محمد كل شيئاً في حياة خديجة كذلك . كان الأب الحاني والأخ الحامي . والزوج العاوف الألوف الذي لا ترى منه إمرأته إلا ما يشرح صدرها ويسعد قلبها ويفجر ينابيع المحبة والمودة في أحماق فؤادها . وقد شاء الله تعالى ، أن يثمر هذا الزواج البنين والبنات ، فقد أنجبت خديجة من محمد ولدين (٢) ، أحدهما القائم والآخر الطيب . وقد اختارهما ربهما . وهما ما يزالان في حلل الطفولة المبكرة ، وأنجبت منه أربع بنات وهن زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية . وقد عشن جميعاً وهاجرن . ثم أخذن طريقهن إلى الحياة الأخرى واحدة بعد الأخرى ، ما خلا فاطمة فإنها لقيت ربها بعد وفاة أبيها بستة أشهر على أرجح الروايات ، ومع ما أصاب خديجة رضى الله عنها من موت ولديها القائم والطيب فإنها لم تسمع زوجها كلمة حزن ولا عبارة آسى وإنما كانت تستقبل البلاء بالصبر

(١) ابن كثير - البداية والنهاية - ٢/٢٩٩ .

(٢) ابن عبد البر - الاستيعاب - ٤/٢٨٠ - ٢٨١ .

وتستعين على الرزء بالطمع في رحمة الله ، والرغبة في عطائه . وهكذا أسمعنا
خديجة عمدا وملئت حياثاته سرورا وبهجة . ولما مالت نفسه إلى الخلوة
والانقطاع في حراء الليالي ذوات العدد يفكر في ملكوت السموات
والأرض وما خلق الله من شيء . لم تثبط خديجة له عزما^(١) ولا أوهنت
له همة . وإنما كانت على العكس من ذلك . تشجعه وتشد أزره وتمد له
ماهر في حاجة إليه من الطعام والشراب . فإذا طالت غيبته . وبهدت أوبته
بعثت إليه^(٢) من يسأل عنه ويأتيها بأحواله وأخباره . وفي العام الذي بعثه
الله فيه انقطع محمد في حراء ستة أشهر . كانت خديجة لا تنفك فيها تسأل
عنه وتبحث إليه ما يكفيه من الزاد والماء حتى إذا كانت ليلة السابع عشر
من شهر رمضان .

وقد رأى محمد عليه الصلاة والسلام الروح الأمين يهبط عليه ويقراه
الآيات الأولى من سورة العلق ، وهظم خوفه واشتد وجهه ، وارتعدت
أعضائه ولم يستطع التحكم في جوارحه غادر الجبل وأقبل إلى أحب الناس
إليه وآثرهم لديه أقبل إلى خديجة برجف فؤاده وهو يقول : زموتني ، زموتني
فأقبلت إليه ، حانية عليه مربةطة على كتفيه ، وهي تقول : كلا والله لا يجزيك^(٣)
الله أبدا إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتعمل السكك وتكسب المعدوم
وتعين على نوائب الدهر ، ولما سرى عنه أخذته وانطلقت إلى ابن عمها ورقة^(٤)
وكان شيخا قرأ السكك وتحنف رقت عليه خبر محمد ، ولم يكد الرجل يسمع
منها ومنه حتى طفق يقول قدوس ، قدوس رب الملائكة والروح ، هذا والله
الناموس الذي نزل على موسى باليتقى فيها جزعا وأهوى على رأس محمد وقبلها

(١) ابن حجر - الإصابة - ٢٨١/٤ .

(٢) السهيلي - الروض الأنف ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٣) ابن حجر - الإصابة - ٤ ص ٢٨١ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٥ دار بيروت للطباعة والنشر .

وقال ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال محمد ، أو يخرجني . قال
نعم ، والله ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ولئن يدركني يومك لأنصررك
نصراً مؤزراً ، وعادت خديجة وسعها محمد إلى بيتهما وفقر الوحى . ثم عاد بعد
ثلاث سنين فلما رآه صلوات الله عليه . اشتد خوفه وهرع إلى بيته فأجلسته
خديجة على كذب منها وقالت يا ابن عم أترى الشخص الذى رأيت أنفا . قال
نعم . فأدنته منها وكشفت عن شعرها ووجهها^(١) وقالت : أترأه الآن قال
لا : قالت : فأبشر إذن يا ابن عم فواقه إنك لملك وما هو بشيطان ونزل
الأمر من المولى سبحانه إلى محمد بالدعوة إلى الإسلام فكانت خديجة أول
من آمن به وانفادت لدينه لم يسبقها فى ذلك رجل ولا امرأة ولا صبي
ولا صبية ولأنها حازت نصب السبق إلى دين الله كما ترى فإن جبريل نزل على
محمد عليه الصلاة والسلام وقال . يا محمد أترى خديجة من الله السلام وبشرها
ببيت من نصب لاصخب فيه ولا نصب^(٢) ، ومنذ دخلت خديجة رضى الله
عنها فى الإسلام وهى تواسى النبي وتدافع عنه وتحرف الهموم والأحزان
عن قلبه وتكون عليه إنداء قومه له ولا يحابه وتؤكد له أن الله معه وأنه
أن يصبر على ما يصيبه من سفهاء قومه فإن الله سيخلق له اليسر من العسر
والفرج من الضيق وكم من ليلة عاد فيها صلوات الله عليه إلى بيته كاسفاً باله
ضيقت صدره يكاد يفجعه الأمى ويقتله الحزن لم تزل به خديجة تؤنس وتوسع
على قلبه حتى يتبسم بعد عبوس وينشرح بعد انقباض ويلتفتش فى نفسه
الأمل فى اكتشاف قومه للحق وانقيادهم له وتسابقهم إلى الدخول فيه .
ولما ضرب الحصار على رسول الله وأقاربه من بنى هاشم وبنى المطلب فى شعب
أبى طالب انحسارت خديجة إليهم لجاعت كما جاعوا وعلماة كما ظلموا .
وعانت من هجر الأحبة والأقارب ما عانوا لم تتأفف ولم تنهم ولم ترفع

(١) ابن حجر : الإصابة ٢٨١/٤ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢٧/٤ .

صوتها يوما فوق صوت النبي ولا جهرت له بالقول : وإنما كانت كما عرفها صلوات الله عليه الزوجة البارة التي تشاطر زوجها العسر واليسر والتهيب والراحة والحلو والمر لا تتركه ولا تمخذه ولا تظهر أنها دانت فضل عليه وقد شاع الله إلا تموت خديجة إلا بعد أن ينتهي الحلف الجائر وتمرق الصحيفة الظالمة ويرفع الحصار عن الشعب الذي ظل مضروبا عليه ثلاث سنين . وبعد أيام من انجلاء هذه الغمة وبعد ما ظن النبي وأصحابه أن الحياة سوف تعود كما كانت صافية راضية ماتت خديجة رضى الله عنها فلا تسلم عما قامى النبي عليه الصلاة والسلام وما هانى . ويكفى أن تعرف أنه قد أقام في داره لا يفارقها حتى لا يرى الناس ولا يرويه حزناً عليها وتألماً لمرافقها . ويقول الرواة : إنه عليه الصلاة والسلام لم يفترق طوال حياته . بل ولم ينس صراحها اللواتي كن يترددن على دارها حتى إن عائشة وهي أقرب الناس إلى قلبه وأدناهم من روجه كانت تغار منها وتعاتب النبي عليه الصلاة والسلام فيها روى (١) هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة وما أن أكون أدركتها ولو سكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله إياها وإن كان ليذبح الشاة فيتبع بذلك صدائى خديجة يهديها لهن . ولم يكن هذا الإهداء هو كل ما كان يذكر به هذه الزوجة البارة المخضمة وإنما كان لا يفتأ يطرئها ويثني عليها حتى إن ذلك قد كان يثير حفاظ بعض نسائه روى مسروق (٢) عن عائشة رضى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها فذكرها يوما من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت هل ، كانت إلا عجزوا فقد أبدلك الله خيرا منها فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال لا والله ما أبدبني الله خيرا منها آمنت بى إذ كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس وواستقنى فى مالها إذ حرمنى الناس ورزقنى الله منها أولادا إذ حرمنى

(١) ابن عبد البر - الاستيعاب - ٢٨٦/٤ .

(٢) ابن عبد البر - الاستيعاب - ٢٧٦/٤ - ٢٨٧ .

أولاد النساء . قالت عائشة فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً . ولم يقتصر ثناء النبي عليه الصلاة والسلام على خديجة عند هذا الحد وحسب . وإنما ذكر لها فضيلة^(١) لم يشاركها فيها سوى ثلاث نسوة وهن فاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم وهذه الفضيلة هي . أنها سيدة نساء العالمين . فرحم الله خديجة وأجزل لها الأجر والمثوبة .

(١) ابن حجر - الإصابة - ٢٨٣/٤ ، ابن عبد البر - الاستيعاب - ٢٨٥/٤ .

الثورة الأرترية في ضوء الوثائق التاريخية

بقلم الدكتور

السعيد رزق حجاج

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

إرتريا جزء لا يتجزأ من الأمة العربية وثورتها واحدة من أعظم الثورات التحررية في هذا العصر ونضال شعبها نضال هادئ يستحق مساندة العرب في كل مكان لاسيما وأن الوجود الإثيوبي في إرتريا يشكل من عدة أوجه وجوداً استعمارياً يستعيد ويحكم، ويقتل ويشرذم، ويحاول جاهداً طمس معالم القضية والإدعاء بأن إرتريا جزء من أرض الإمبراطورية الإثيوبية وتفتق لها تاريخها وأن الأرتريين يكالحن كقومية صغيرة، للانفصال عن أثيوبيا وهنا يكمن الخطأ الكبير في هذا الإدعاء فإرتريا لم تكن تابعة لأثيوبيا في يوم من الأيام.

وقبل الحديث عن الثورة الإرترية المسلحة التي انطلقت في بداية شهر سبتمبر عام ١٩٦١ بقيادة المجاهد حامد إدريس عواني لمقاومة الاحتلال الإثيوبي ومحققته تلك الثورة في ضوء الوثائق نود أن نذكر بعض الحقائق التاريخية عن هذه القضية.

١ - من الحقائق التاريخية أن الصراع الذي يدور رحاء على الساحة الإرترية منذ العهد الأول لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم هو في حقيقة صراع بين الصليبية والإسلام يبدأ حيناً ويستقر أحياناً كثيرة (١).

٢ - هناك أكثر من دليل على أن إرتريا كانت قبل إحتلال الإيطاليين

لها في أواخر القرن التاسع عشر دولة مستقلة لمدة ٧٠٠ سنة على الأقل ويستثنى من ذلك قطاع ضيق من الأراضي الساحلية التي كانت الإمبراطورية النمساوية تحتلها من عام ١٥٥٧ إلى أن وقعت البلاد تحت الاحتلال الإيطالي .

٣- أن الأوربيين الذين كانوا أول من وطأت أقدامهم الأراضي الأثرية في بداية عام ١٥٠٠ ذكروا أن لرتريا كانت دولة مستقلة يحكمها رئيس اسمه (بحري تماشى) أو (سيد البحر) الذي كان مشغولا بالدفاع عن حدوده ضد ملوك الخدمة المجاورين له .

٤- تبين خريطة برتغالية يعود تاريخها إلى عام ١٦٠٠ أن الحدود الجنوبية لـ "مدرى بحري" (الأراضي المجاورة البحر) هي في الواقع لرتريا المعاصرة (٢) .

٥- وصف ج . لودولوف العلامة الألمانية المعروف في دراسة له "مدرى بحري" بأنها أشبه مانكون جمهورية فيدرالية مستقلة .

٦- في عام ١٧٧٠ كتب ج . بروس المستكشف الإسكتلندي يقول إن الحدود بين مدرى بحري وإثيوبيا كان يحدها نهر بليرا وهو نفس النهر الذي تمتد على طوله حدود لرتريا الراهنة مع إثيوبيا (٣) .

٧- من الحقائق التاريخية الهامة أن صراع المصالح الدواية والإقليمية حق قضية لرتريا وشعبها الضحية الأولى التي يلتقي حول ذبحها تحالف واسع من قوى الأعداء والمستعمرين من الشرق والغرب على حد سواء والذين تنفخهم التناقضات وصراع المصالح وليكنهم متفقون على تصفية هذه القضية مستخدمين في ذلك شتى أنواع أسلحة القتل والدمار وأن اهتمام الدولتين العظيمين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بإيجاد حل لهذه القضية يأتي من اهتمام كل منهما بالسيطرة على منطقة القرن الأفريقي ذات الأهمية الاستراتيجية العالمية فكما هو معروف تمتد لرتريا لمسافة ألف كم على شاطئ

البحر الأحمر من رأس قنار على الحدود السودانية شمالا إلى باب المندب جنوبا ويكن في الأهمية التجارية لهذا الشاطئ الذي يقع عليه ميناء مصوع وعصب ومما من أهم موانئ القرن الإفريقي وساحل البحر الأحمر .

٨ - أن إرتريا ضحية قرار الأمم المتحدة الصادر في ٢ ديسمبر من عام ١٩٥٠ كمشروع قرار رقم 39x A (٧) والذي نص على إنهاء إتحاد فيدرالي أثيوبي لإرتريا مع احتفاظ إرتريا بالحكم الذاتي وأن يكون لها سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في حقل الشؤون الداخلية (٤) .

٩ - في الخامس عشر من نوفمبر عام ١٩٦٢ أعلنت أثيوبيا أن إرتريا أصبحت الولاية الرابعة عشر من الإمبراطورية الأثيوبية وكان لهذا معنى واحد هو بداية مرحلة جديدة من الكفاح المسلح خاضها الشعب الإرتري للدفاع عن حقوقه المشروعة وكفاحه العادل .

الاستعمار الإيطالي لإرتريا :

تشير الوثائق الإيطالية حول إحتلال إرتريا أن البداية كانت على يد المنصرمة ساينزو، وشركة روباتينو الإيطالية في عام ١٨٥٩ ثم كانت الخطوات الجادة بعد عام ١٨٨٢ حتى إعلان ملك إيطاليا تأسيس مستعمرة إرتريا في أول يناير ١٨٩٠ بعد توحيد الأقاليم التي احتلها الجيش الإيطالي وتنظيم الإدارة المدنية بها (٥) .

وبعد أن أثمت إيطاليا إحتلال إرتريا أعلنت قانون (التهديد العامة) . وبوجهه مارسو القتل والتنذيب والنفي والتشريد لتقضاء على المقاومة الوطنية الإرترية للاحتلال . وبمقتضى هذا القانون تم بالفعل تصفية عدد كبير من الزعماء الوطنيين وإبطال المقاومة .

وكانت نهاية الاستعمار الإيطالي عندما قامت الحرب العالمية الثانية وأعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا قامت القوات البريطانية بالرحف من

السودان على إرتريا عبر منخفضات بركة ودخلت أسمره في أول أبريل ١٩٤١ ثم سقطت مصوع في أبريل من نفس العام (٦) .

إرتريا في ظل الإدارة البريطانية ١٩٤١ - ١٩٥٢ :

تحولت إرتريا خلال فترة الاحتلال البريطاني إلى مسرح للهرعات الدولية بين القوى الكبرى ذاق أثناء الشعب الارترى وبيلات العنف الدموى والحروب الشامل للاقتصاد والإندم التام للأمن ، ودخلت إثيوبيا في ذلك الصراع الدامى تحركها أطباع التوسع على حساب إرتريا (٧) .

تكوين الاحزاب في أرتريا :

بدأ الارتريون يهتمون بقضاياهم الاجتماعية والثقافية والسياسية وكانت البداية عندما تأسست (جمعية حب الوطن) عام ١٩٤٣ أسسها بعض الشباب المثقفين في أسمره وكانت تضم الارترين بمختلف طوائفهم وأقاليمهم وكان مؤسسيها ١٢ شخصا ، ستة منهم مسلمون وستة مسيحيون ، وقد ركزت هذه الجمعية أهدافها في الاهتمام بالإصلاحات الاجتماعية والثقافية وكان من بين منجزاتها إجبار سلطات الاحتلال البريطانى على إلغاء قانون التمييز العنصرى الإيطالى وتشجيع الحركة التعليمية والثقافية والمطالبة بالحفاظ على وحدة الشعب الارترى بمختلف طوائمه (٩)

حرب الاتحاد مع إثيوبيا :

أنفجحت مساعي إثيوبيا التي كانت ترسل عملاءها إلى إرتريا منذ الاحتلال البريطانى ودعمهم الأموال في خلق حزب يدور في فلكهما باسم (حزب الاتحاد مع إثيوبيا) قاعدته العربية المسيحية وبه أغلبية مسلمة ، ولم يقدم الزعماء المسلمون في إرتريا الحججة لإنشاء حزب يمثلهم فكان أن عقد اجتماع في كرن وذلك في ديسمبر ١٩٤٦ . وفى مستهل ١٩٤٧ أعلن المؤتمر نأسيس

حزب الرابطة الإسلامية الأرترية ، الذي حدد مطالبه في الاستقلال والحفاظ على وحدة التراب الأرترى .

ومن ناحية أخرى أنشئت هذه أحزاب أخرى صغيرة دارت في فلك دول أجنبية وشهدت الأعوام الستة (١٩٤٦ — ١٩٥٢) صراعات سياسية حادة وأنشأت الأحزاب السياسية صحفها الخاصة التي تصدر بالعربية والتجريدية .

وهكذا تم تقسيم الشعب الأرترى ، وانطلقت حل الأرترين جيل والاستعمار الأنثوبوني والبريطاني ، وكان الشعب الأرترى هو الخاسر في النهاية كما برهنت الأيام (٩) .

قضية إرتريا في الأمم المتحدة :

تشكلت لجنة رباعية من قبل نواب وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى لإبارة المستعمرات الإيطالية للحصول على معلومات تتعلق برغبات السكان والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما يحفظ السلام والأمن العام بوجه عام .

وفيما يتعلق بمصير إرتريا ظهر خلاف حاد في اللجنة الرباعية بين وجهة نظر الجانب الأمريكي والبريطاني من جهة وبين وجهة نظر الجانب السوفيتي والفرنسي من جهة أخرى بشأن قوة الأحزاب الارترية ونسبة مؤيديها ، كما تمايزت وجهات نظرها بعد ذلك بين المطالبة بوضع إرتريا تحت الإدارة الأنثوبونية المؤقتة أو تقسيمها وإعطاء الجزء الجنوبي إلى أنثوبيسا مع تأجيل البت في الجزء الباقي أو وضعه تحت الوصاية لإيطالية أو بوضع جميع الأراضي الارترية تحت الوصاية الجماعية للأمم المتحدة (١٠) .

وفي عام ١٩٤٩ افتتحت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورة انعقادها الرابعة في ٢٠ سبتمبر ١٩٤٩ وتنوعت وتعددت مشروعات القرارات التي

قدمتها الوفود المختلفة وتضمنت ثلاثة مشروعات منها توصيات بشأن مستقبل
إرتريا .

١ - مشروع القرار الجاكستاني ويقضى بمنح إرتريا إستقلالها بعد ثلاث
سنوات مع إعطاء أثيوبيا منفذا إلى البحر الأحمر عن طريق عصب .

٢ - مشروع القرار السوفيتي ويقضى بمنح إرتريا إستقلالها بعد خمس
سنوات . تكون خلالها تحت وصاية الأمم المتحدة ، وأن تمنح لإثيوبيا منفذا
إلى البحر الأحمر عن طريق عصب .

٣ - مشروع القرار الأمريكي ويقضى بضم إرتريا فيما عدا المقاطعة
الغربية إلى أثيوبيا وضم المقاطعة الغربية إلى السودان .

وبعد مناقشات مستفيضة حول هذه المشروعات وغيرها عقدت اللجنة
العامة عدة جلسات ما بين ٢٥ و٢٨ نوفمبر ١٩٥٠ ثم تقدمت الوفود المختلفة
بمشروعات قراراتها في ضوء دراسة اللجنة الخامسة وفي ٢٤ نوفمبر ١٩٥٠ بدأت
اللجنة السياسية بالنصريات على مشروعات القرارات المقدمة وبذات الولايات
المتحدة جهودا كبيرة ومارست ضغطا مختلفا حتى تم إقرار مشروع
المجموعة الأمريكية بأغلبية ٣٨ صوتا ضد ١٤ وامتناع ٨ أصوات عن
الافتراع (١١) .

ويدهو هذا القرار الذي تقدمت به الولايات المتحدة وبوليفيا والبرازيل
وبورما وكندا والدانمرك وأكوادور واليونان وتركيا وإثيوبيا والمكسيك
ونجما وبرجواي وبيرو وتوجي فيه بإقامة اتحاد فيدرالى بين إريتريا وأثيوبيا
تحت سيادة التاج الاثيوبى على أن تسبق ذلك فترة انتقال لا تتجاوز ١٥
سبتمبر ١٩٥٢ ، ويتم خلالها تنظيم جمعية وطنية ودستورية وحكومة إرترية
بمساعدة مندوب مختار من الجمعية العامة وخبراء مختارين من قبل السكرتير
العام للأمم المتحدة (١٢) .

إرتريا في ظل الاتحاد :

كان النظام الفيدرالى بالنسبة لإرتريا يعنى من وجهة نظر المنظمة الدولية (حلا وسطا) بديلا بين الاستقلال التام الذى طالبت به أغلبية الشعب الارتري وبديلا عن الضم السكلى الذى طالبت به أثيوبيا وممعا أقلية من عملاتها فى إرتريا وكان القبول بهذا الحل هو أهون الضررين بالنسبة للحركة الوطنية بينما نظر إليه بحكم أثيوبيا على أنه يقف جانبا دون تحقيق مزاجهم الثأرية فى السيطرة على البحر الأحمر. وبدأ يسعون جديدا للقضاء على الكيان الارتري المتميز فى ظل النظام الفيدرالى ويقضون على كافة مظاهر الاستقلال الارتري المتبقية والتمهد لهم إرتريا نهائيا إلى أثيوبيا لتتبعج الولاية رقم ١٤ من أقاليم أثيوبيا بدلا من كونها طرفا فى اتحاد فيدرالى نشأ بمقتضى قانون الوحدة الدولية (١٩٤٥).

ويعتقد البعض أن الشعب الارتري إذ شعر بالأمن فى الضمان المنصوص عليه فى مشروع قرار الأمم المتحدة وتأكد من وقوفه على قدم المساواة مع الأثيوبيين المتقدم بأنه سيكون فى استطاعته أن يسأل عن مصالحه ويبحثها ويدافع عنها ولكنه أصيب بصدمة من الموقف الاستبدادى الذى وقفه الإمبراطور د. هيلا سلاسى ، الذى قام بإلغاء نصوص الدستور الارتري ومشروع قرار الأمم الخاص بحقوق الإنسان والحريات الأساسية ، وقام بعمليات قمع للفتيات العالية وقضى على حرية الصحافة ، وجرد الحاكم من السلطة المخولة لها ، كما جرد رئيس الحكومة الارترية من سلطاته ، وأصدر أوامره بقمع المظاهرات والانتفاضات التى يقوم بها الارتريون بكل هف وقسوة .

وأخيرا فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٩٦٢ أذاع راديو أديس أبابا أن إرتريا أصبحت الولاية الرابعة عشرة من الإمبراطورية الأثيوبية وكانت (٣١ - مجلة كلية اللغة)

هذه بداية السكفاح المسلح الارترى والتي استمرت حتى اليوم لاستعادة حقوقه والحصول على استقلاله (١٤).

المجاهد الشهيد حامد إدريس هوائى وبداية الثورة :

تؤكد وثائق الارترية أن البداية كانت في الفاتح من سبتمبر ١٩٦١ حينما انطلق المقاتلون الأوائل في ذلك اليوم بقيادة الشهيد إدريس هوائى ومعهم بدقية واحدة إنجليزية الصنع من مخلفات الحرب العالمية وتسعة بنادق إيطالية وهى غير آلية ويعود صنعها إلى مستهل هذا القرن. ولا تتوفر لها الذخائر بالإضافة إلى بدقية تركية تعبأ بطلقة واحدة بهذه الأسلحة العتيقة بدأ المجاهدون الأرتريون ثورتهم على جيش الاحتلال الأثيوبي قوامه خمسون ألف جندي مسلح بأحدث الأسلحة الأمريكية معززة القاعدة الأمريكية في أسمرأ بكل أساليب التخطيط الحديثة لمقاومة حرب العصابات (١٥).

وقد مر المناضلو جبهة التحرير الارترية بمرحلة غاية في القسوة والخطورة فقد واجهتهم قوات أكثر منهم عددا وأحسن عدة في الوقت الذي كانت تنقصهم فيه الذخيرة والأسلح الجيد وكانوا يكتبون بالمناورة ثم الانسحاب ثم انتهت هذه المرحلة الحرجة بفشل السلطات الاستعمارية الأثيوبية أن تنال من الثوار وازداد التصاق الشعب الارترى بثورته واستطاع المناضلون أن يحصلوا على كمية لا بأس بها من الأسلحة الحقيقية وأصبحوا يخوضون القتال على نطاق أوسع قليلا ضد القوات الاستعمارية (١٦).

مرحلة جديدة من مراحل الثورة :

بعد سبعة أشهر من بداية الثورة ، بدأت مرحلة جديدة وأصبح زمام المبادرة في يد الثورة لأول مرة بعد أن ازداد عددهم وحصلوا على كميات من

من السلاح . فأخذوا يشنون الهجمات على مراكز الجيش والبوليس
الأيووبي خارج المدن ، وقام فدائيون جبهة التحرير الارترية بعمليات رائعة
في داخل المدن ، ولعل حادث أغردات الشهير هو أهمها . فقد قامت السلطات
الأيووبية بتدبير اجتماع كبير في مدينة أغردات جمعت فيه عدداً من عملائها
وحضر هذا الاجتماع نيابة عن الإمبراطور الجنرال أبيي ، ومعظم الوزراء
والموالين لأيووبيا . ولجأة قام أحد الأرترين بالقاء قنبلتين انفجرت إحداهما
وتبع من ذلك قتل وجرح عدد من الحاضرين وكان من بين المعابين ممثل
الإمبراطور وقتل أحد الوزراء .

وفي أسمر استطاع الفدائيون أن ينسلقوا إلى مطار أسمر الحربي على
الرغم من الحراسة المشددة وأن يفسقوا طائرتين حرييتين كانتا تربضان
هناك كما أصابوا طائرتين أخريتين بمعلب كبير .

ثم هاجموا قصر ممثل الإمبراطور بالقنابل وقامت مجموعة قليلة من الثوار
بالحاق الهزيمة بقوات أيووبية تفوقهم عدداً (١٧) .

بوليس مصوع يعلن الثورة :

وفي مصوع قام المناضلون بأعمال فدائية رائعة حيث استولوا على مخزون
للأسلحة وقام مجموعة من رجال البوليس بثورة أعلنوا خلالها انضمامهم إلى
إخوانهم في جبهة التحرير الارترية .

وفي سبتمبر ١٩٦٣ قام الثوار الأرتريون بعملية جريئة إذ دخلوا مدينة
هيكوتة متسكرين في زى ريفي واستولوا سيارة ركاب إلى مركز الجيش
وقالوا الحراس في منتصف الليل فقتلوا ثلاثة منهم واستسلم الباقون وجردوهم
من أسلحتهم وهي ٥١ قطعة من البنادق والرشاشات .

وهكذا مضت الثورة الارترية تحتل المواقع الهامة وتكبد القوات
الأيووبية الخسائر الفادحة ولم يستطع ١٣٠ ألف جندي أيووبي يرا بطون في

بعض المدن الارترية من اجتياح الريف الارترى على الرغم من استعمالهم
النازات السامة وقنابل النابالم المحرقة مما جعل السكرتير العام للأمم المتحدة
يعبر عن قلقه للشندوب الاثيوبي حول هذا الموضوع بعد أن تأكد له
بهاعة ما تقوم به القوات الاثيوبية من خلال تقارير المنظمات الإنسانية
الدولية العاملة في ارتريا .

ويمكن القول بأن جبهة التحرير الارترية قامت في الفترة من ١٩٦٩ -
١٩٦٥ بتعبئة الارترين في الخارج وجمع التبرعات لشراء الاسلحة مع حملة
إعلامية تركزت في الدول الصديقة وقد استجابت بعض الدول الإسلامية
العربية مثل السعودية ومصر والبراق .

ثم كانت الفترة الثانية من ١٩٦٥ - ١٩٦٩ وقد اجتازت الثورة الارترية
مرحلة التعبئة العضوية إلى مرحلة الثورة المسلحة الشاملة وهي المرحلة التي
شهدت انتقال الثورة من حرب العصابات إلى السكناح الجماهيري المسلح مع
تعبئة كافة العناصر وضم جميع الطوائف مسلمة ومسيحية ومحاولة استخدام
تقسيم الولايات إلى مناطق عسكرية ذات قيادات وأنشطة مستقلة وتقسيم هذه
الفترة أيضا بتأكيد الثورة الارترية لوجودها على الساحة الدولية بالاتصال
بدول الكتلة الشرقية ودول العالم الثالث (١٨) .

ومن الجدير بالذكر أن الثورة الارترية دخلت في عام ١٩٦٥ مرحلة
جديدة إذ رأى المسؤولون فيها توزيع القوات المقاتلة إلى أربع ثم خمس
قيادات عسكرية منفصلة ، وكانوا يهدفون من ذلك نشر الثورة في جميع
أرجاء إرتريا ولكن هذا التفكك أدى إلى تقوقع وجود في العمل الثوري
لا أكثر من ثلاثة أعوام ثم بدأت يصد ذلك محاولات جادة لتحقيق وحدة
الجيش تمهيدا لتحقيق الوحدة الوطنية الشاملة (١٩) .

وفي بداية السبعينات وأواسطها بلغت الثورة في إرتريا من القوة والمنعة
ما مكنتها من تحقيق انتصارات عسكرية رائدة ضد الجيش الاثيوبي مما أدى

إلى سيطرة الثورة العمالية على الأغلبية العظمى من مساحة إرتريا وحصار الثوار المشدد حول المدينة الرئيسية خاصة العاصمة د أسمرأ، ومينائي عصب ومصروع وقطع الطرق الرئيسية التي تربط تلك المدن بالعاصمة إديس بابا، ونهول الجيش الاثيوبي إلى مراكز ومعسكرات متفرقة ومحاصرة لا تصلها الإمدادات إلا بالطائرات من الجو الأمر الذي وضع النظام العسكري الذي جاء بعد الإطاحة بالإمبراطور في أسوأ مأزق تعرض له منذ جاء إلى الحكم واعدأ بتعطيم د المحربين من دعاة الانفصال في إرتريا، (٢٠).

انتصارات باهرة للثورة الإرترية ولكن...

دخلت الثورة في إرتريا منعطفا جديدا بعد أن تعدت رحلة القلق في ظل اشتباكات متبادلة - إلى مرحلة هجوم واسع شنته جبهات التحرير الثلاث (جبهة تحرير إرتريا والجبهة الشعبية والقوات الشعبية على المدن الرئيسية بعد أن أحكت قبضتها على الزيف والمدن الصغرى وأصبح الجيش الاثيوبي في جور محاصرة ومنعزلة لا رابط بينها برياً وبحرياً وخلال سبعة عشر عاماً من عمر الثورة الإرترية لم يكن حلم الاستقلال قريب المنال بمثل ما كان في أاية عام ١٩٧٧ وبداية عام ١٩٧٨ .

لكن الهجوم الإثيوبي المضاد والذي ركزت فيه أثيوبيا كل قواها العسكرية بعد أن هدأت الأمور على الجبهة الصومالية، بدد هذا الحلم مؤقتاً وأضاع انتصاحات كبيرة بذلها الشعب الإرتري على مدى سبعة عشر عاماً تماماً مثلاً بدده وأضاعه تمرق حركة الثورة الإرترية إلى ثلاث جبهات متنافرة كل الوقت لا تقتارب إلا في أحيان نادرة (٢١) .

ومن ناحية أخرى فقد ساندت كوبا والاتحاد السوفيتي النظام العسكري الاثيوبي وقدمت له المساعدات الضخمة التي كففت له التفوق ضد الثورة الإرترية إبان على ١٩٧٨ .

وفي غياب التنسيق العسكري بين جبهة تحرير إرتريا ٢٠ ألف مقاتل - التي كانت تحتل معظم مناطق الحدود بالإضافة إلى سهول الداخل وبين الجبهة الشعبية ١٠ آلاف مقاتل التي كانت تسيطر على المناطق الوسطى والشرقية نجح الهجوم الأثيوبي الذي انتظم على ثلاثة محاور قتال رئيسية ثموق إرتريا ليعتزل المدن الكبرى أولاً ثم يعود فينتشر على شكل المروحة مستخدماً قوة فيران هائلة .

ونضع أثيوبيا خططها العسكرية التي بدأت باستعادة المدن من الثوار كخطوة أولى ثم تطورت عملياتها كخطوة ثانية في شكل حملات عسكرية لمطاردة قوات الثورة في الريف والجبال تدريجاً وإعادة فتح الطرق ، والخطوة الثالثة في القيام ببعض الإصلاحات الاقتصادية المظهرية والعمل على تصفية الثورة الأرترية في أسرع وقت ممكن أما الدبلوماسية الأثيوبية فقد ركزت جهودها على حجب الدعم السياسي عن القضية الأرترية مدعية أن أي دعم يقدم لإرتريا إنما هو تدخل في شئون أثيوبيا الداخلية (٢٢) .

ولكن ماذا بعد ؟

على الرغم من هذه التحولات التي رافقت التفوق العسكري الأثيوبي فقد اعتبرها الأرتريون انحصاراً وبدأوا يعيدون حساباتهم للمستقبل ووضعوا خطاً استراتيجياً يتضمن ثلاثة عناصر أساسية هي :

(١) التمسك بطرح الحل السلمي بشرط أن يكفل للأرتريين حقهم المشروع في تقرير المصير واستعادة حقوقهم الممنوعة .

(ب) ضرورة العمل على تحقيق الوحدة الوطنية بين الثوار الأرتريين لاسيما وأن الواقع السياسي والعسكري الجديد يعتبر عاملاً مساعداً وضاملاً لتحقيق هذه الوحدة في مواجهة الخطر الداهي .

وفبا يتعلق بتحقيق الوحدة الوطنية عقد مندوبو فصائل الثورة الأثرية سلسلة من الاجتماعات بتولس في الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ مارس ١٩٨١ تدارسوا خلالها كل المسائل المتعلقة بقضية الوحدة وقد تم الاتفاق على أن هدف النضال هو تحقيق الاستقلال الوطني وحدة التراب الأثرى وإثـة لتحقيق هذا الهدف أجمع المجتمعون على ضرورة إزالة جميع الخلافات وتوجيه كل الطاقات والجهود لتحقيق الاستقلال .

ومن هنا يجب العمل على :

(١) وقف الاقتتال بين فصائل الثورة بجميع أشكاله وتوجيه كافة الإمكانيات لمحاربة العدو المشترك وإعطاء حرية التحرك لكافة التنظيمات داخل الساحة وإيقاف أسلوب الاحتكام إلى السلاح لحل الخلافات القائمة .

(ب) وقف الحملات الإعلامية المسادية بين فصائل الثورة وأبناء الشعب الأثرى .

(ج) توجيه كافة الجهود ولا سيما الإعلامية من أجل نهضة الأحواء لمرحلة الوحدة المقبلة .

(د) تشكيل لجنة مشتركة تمثل جميع فصائل الثورة الأثرية تتابع الجهود خلال هذه المرحلة الانتقالية .

وقد اتخذت خطوات عملية جادة لتحقيق الوحدة ساهمت فيها بعض الدول العربية مثل المملكة العربية السعودية والكويت والعمال حتى كانت اتفاقية جدة الموقعة في يناير ١٩٨٢ .

وأخيرا نرى أن هذه القضية لن تحل على يد دولة شرقية أو غربية ولكنها يمكن حسمها على يد أبنائها بوحدهم وعودتهم لدينهم .

حيث أنه من المؤكد أن الإسلام بما ينطوى عليه من قوة روحية
إيمانية وتجربة تاريخية مأمونة ولكونه الدين يتمسكون به ذرعا واقيا من
ناثيات الأيام وبما أن إرثها بلد غالية سكانه من المسلمين فإن القضية شأنها
شأن كثير من القضايا الإسلامية لن تحل إلا برؤية إسلامية وهؤذة
ساذقة إلى الإسلام وما يحتاجه الأتريون بالإضافة إلى ذلك فزبد من
الدعم العربي والإسلامي .

أسانيد المقال

- ١ - فتحي غيث : الإسلام والحبيشة عبر التاريخ ، ص ٣١٥-٣١٦ .
- ٢ - إرتريا ضحية قرار الأمم المتحدة ، نداء الشعب الأرتري إلى الدورة السادسة والعشرين للأمم المتحدة ، ص ٩ .
- ٣ - المرجع السابق ، ص ٩ .
- ٤ - وثائق الأمم المتحدة حول إرتريا ، أصدرته جبهة التحرير بالغات العربية والإنجليزية والفرنسية .
- ٥ - وثائق الخارجية الإيطالية حول إحتلال إرتريا ، جزءان ، ١ ، ص ١٨ - ١٩ .
- ٦ - د/السعيد رزق حجاج : إرتريا قضية شعب ومصدر أمة ، مجلة الثورة الأرترية العدد ١ السنة ٩ يناير ١٩٨٤ ، ص ٣٤ .
- ٧ - د/السيد رجب حراز : الأصول التاريخية للمشكلة الأرترية ، ١٩٧٧ ، ص ٤٢ - ٤٣ .
- ٨ - ندوة القضية الأرترية وتطوراتها ، التي عقدت بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة تحت إشراف قسم التاريخ ١٩٨٤ .
- ٩ - د/السعيد حجاج : المرجع السابق ، ص ٣٩ .
- ١٠ - د/السيد رجب حراز : الأمم المتحدة وقضية إرتريا ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٤ ، ص ٤٧ .
- ١١ - لإرتريا بركان القرن الإفريقي ، جبهة التحرير الأرترية ، ص ٥٥ .
- ١٢ - المرجع السابق ، ص ٥٦ .
- ١٣ - حامد صالح تركي : إرتريا والتحديات المستقبلية ط ١٩٧٩ ، ص ٢٤٢ .

- ١٤ - نداء الشعب الارترى إلى الدورة السادسة والعشرين .٠٠ ، سابق ،
ص ٥٨ .
- ١٥ - مجلة الثورة ، يوليو ١٩٨٣ ، ص ٤٧ .
- ١٦ - كفاح إرتريا ، مجموعة وثائق صادرة عن جبهة التحرير الارترية
(بدون تاريخ) ص ١٥ - ١٦ .
- ١٧ - المرجع السابق ، ص ٢٣ .
- ١٨ - د/ جلال يحيى ، د/ محمد نصر مهنا ، مشكلات الاقلية في الوطن
العربي ، دار المعارف ١٩٨٠ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .
- ١٩ - المرجع السابق ، ص ١٦٩ .
- ٢٠ - د/ السعيد رزق حجاج ، سابق ص ٣٩ .
- ٢١ - صلاح حافظ (المصحف) صراع القوى العظمى حول القرن
الإفريقي ، عالم المعرفة ١٩٨٢ ، ص ١٧٣ .
- ٢٢ - د/ السعيد رزق ، الاستعمار الأوربي في أفريقيا وآسيا ، القاهرة
١٩٨٨ ، ص ١٨٥ .

رواق الأتراك بالجامع الأزهر بالقاهرة

وعلاقة المالك الجراكسة بالعثمانيين

صفحة مشرقة في تاريخ مصر

إعداد

د/ مجاهد توفيق الجندى

أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة

بكلية اللغة العربية بالقاهرة

تمهيد :

خدم الجامع الأزهر بالقاهرة العالم الإسلامى فى شق أنعام الكرة الأرضية ، حيث قدم لطلابه وشيوخه كل عون وكل مساعدة فى كل ناحية من النواحي ، فالشيخ والطالب لا يتحمل كل منهما ما جاء أو فاسا واحدا مقابل طلبه للعلم بالجامع الأزهر ، فيحصل كل منهما على جزية يومية وجامكية (مرتب) ومخصصات شهرية وكسوتين أحدهما شتاء والاخرى صيفا . بالإضافة إلى الشورية باللحم فى الغذاء والشورية بالعص في الصباح وغير ذلك من الحلوى والهدايا .

أول من أنشأ المدن الجامعية فى العالم :

أنشئ الجامع الأزهر سنة (٣٥٩ / ٩٦١ هـ) حيث أفتتح الصلاة على المذهب الشيعى فى عهد المعز لدين الله الفاطمى وبدأت به بعض الحفقات العلمية البسيطة فى فقه الشيعة ..

وفى عهد العزيز بالله ، بن المعز لدين الله الفاطمى ، بدأ الأزهر يأخذ صفته الجامعية فتحول من جامع إلى جامعة على يد الوزير النشيط يعقوب بن كلس الذى شاور الخليفة العزيز بالله فى تكوين أول هيئة رسمية بالأزهر فاختار لذلك خمسة وثلاثين أو تسعة وثلاثين فقيها كون بهم أول حلقة علمية

رسمية بالجامع الأزهر وسجلاته وأجرى عليهم الجرايات والأوراق
وبنى لهم بيتا بجوار الجامع الأزهر ، يفتش هو الأساس للإسكان والإعاشة
الكاملة ، وأول مدينة جامعية في العالم .

وهذا البيت أو المنزل هو النواة الأولى للأروقة التي بنيت حوله في أمانة
اللاحقة ، ومنها رواق الأتراك (١) .

ورواق الأتراك بمصر هو أحد ثلاثة أروقة كبار بالأزهر هي : رواق
الأتراك ، ورواق المغاربة ورواق الشوام ، وكان لها دور بارز في تاريخ
الجامع الأزهر ، وساهمت مساهمة مشكورة في خدمة الدين الإسلامي وعلومه
وثقافته وحضارته .

وعما لا جدال فيه أن « الأتراك » خدموا الإسلام خدمات جليلة
لا يشكرها إلا جاحد أو مكابر ، ويكفيهم نفراً أنهم منعوا ريح الغرب الملوث
أن يقرب من العالم الإسلامي طيلة حكمهم له ، ومن كان في ريب من ذلك
خفيه بقراءة تاريخهم وحضارتهم وآثارهم بموضوعة المتجرد الزيه ، وذلك
من خلال « مكتبة رواق الأتراك بالأزهر » المملوءة بالمخطوطات والكتب
النادرة ، وغير ذلك مما هو موجود في مكتبات تركيا ، وبشرط إلا يرجع

(١) ويقال له أيضاً بعض المراجع « رواق الأورام » والرواق في عرف اللغوي
السكان الذي يروق له الجلوس فيه ، ويقال له أيضاً « الأيوان » وهو الذي يرف في
حضرنا الحاضر باسم « قاعة المحاضرات »

وكان يقيم بهذا الرواق كل طالب من أصل تركي أو يكون أحد رعايا الدولة
عثمانية وقد وقف الأتراك على بنى جملتهم « الأوقاف » الكثيرة التي تجملم يمشون
بالقاهرة في مجبوحة من البيض ، فوقفوا الأطليان والقنارات والطواحين والتمج وغير
ذلك من النكسة والحلوى بالإضافة إلى الجراية اليومية ومصرف اليد كل شهر .

(راجع مذكورة بمأخرات ربح وقف الأميرة نجوان هانم على طلاب رواق الأتراك
بمحبة وقفها أمام محكمة نثر الإستكفافية له ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ الموافق
١١ من مارس ١٩٢٠ م) وثيقة تنشر لأول مرة ملحق رقم ١ بهذا البعث .

للكتاب الغربيين الذين يميل معظمهم إلى تجرييح ونشويه الدولة العثمانية-
لحاجة في نفس بمقوب (١) .

كيفية حصول الطالب على الجراية :

ولما كانت الأوقاف لا تكفي كل الطلاب الأتراك ، حيث حدد الأوقاف
عددا مميّنا لا يتعداه ناظر الوقف ، ومن ثم فعل الطلاب الخارجين عن
السجلات ويسمون الفوات (الذين قاتم الحصول على الجراية) أو المنتظرين
أى الذين ينتظرونها .. وهؤلاء المنتظرون يجلسون خاصة حسب أقدمية كل
منهم فإذا تخرج طالب أو أكثر ، أو سافر ولم يعد أو توفى إلى رحمه الله ،
فلن ناظر الوقف يشطب اسمه من السجلات ، ويضع مكانه أول طالب فى سجل .
المنتظرين للجراية ، ثم الذى بعده والذى بعده وهلم جرا .

أما الجراية فينص عليها فى حجج الوقف بأن تكون « من الخبر القرصة
الجيد العلامة .. لكل طالب ثلاثة أرغفة (غداء وعشاء وإفطارا) وزن
القرصة الواحدة رطلا ، والشبغ ضعف ما الطالب . ولا شك إن رواق
الأتراك خدم طلابه فوفر لهم السكن والغذاء والكساء ، بالإضافة إلى أنهم
يقومون بمجوار الخلفات العملية فلا يبحثون عن مواصلات أو طعام أو
غير ذلك .

مكتبة رواق الأتراك وما بها من ثراث :

يوجد بمكتبة رواق الأتراك مجموعة هائلة من التراث الإسلامى تشمل
العلوم الإسلامية (الشرعية) أو الدينية خاصة الفقه الحنفى كما تشمل للعلوم
العربية المساعدة لها ، وكذلك العلوم العقلية والفلسفية وبعضها كتب وشرح
باللغة التركية مما يدل على أن هذه اللغة كانت إحدى لغات الدراسة بالجامع
الأزهر لمن أراد تعلمها ..

(١) راجع : د . عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إعلامية مقترحة .
عليها ، أجراء طبع الانجلى المصرية ، للطبعة الأولى .

مكتبة رواق الأتراك تضيع فانقذوها ١١٩١

هذا التراث العظيم الآن يتعرض للضياع والتلف ، هو امل القضاء عليه متعددة منها المياه التي غرقت معظمه ، ومنها القطلط والفئران الأرضية وغيرها .. والحقيقة أن الأتراك المغاربة والشوام لم يسلموا مكتبتهم للشيوخ محمد عبده وهو ينشئ المكتبة الأزهرية ، فبقيت في مكانها قائمة الآن .. ولم تدخل سجلات أو فهرس مكتبة الأزهر ، وفي هذا من الخطورة ما فيه . لعدم إلقاء المسئولية على أحد بحيث لهذا ينبغي سرعة جرد هذه المكتبة وتسجيلها وفهرستها بفهارس جديدة (١) .

واقترح تكوين لجنة عليا من تركيا وبعض رجال الأزهر المهتمين لتصنيفها وتويريها وتصويرها وتجليدها وتحقيقها ولدينا بعض المخطوطات الثالفة بكل الطرق السابقة وليس لدينا تعليق أكثر من هذا .

• • •

ورواق الأتراك يعطينا صورة كاملة عن العلاقات الثقافية بين مصر والدولة العثمانية في عصرى المماليك . وهو الشق الأول في البحث . والشق الثانى هو : العلاقات السياسية بين المماليك والجر اكسة والعثمانيين .

هذا وبالله التوفيق ؟

(١) نشرت بحثا في مجلة منبر الإسلام سنة ١٩٨٣ م في عددها التذكارى الثمير بمناسبة الاحتفال بالعيد الالفى للأزهر تحت عنوان « أنقذوا مكتبة الأزهر ٥٥٠ » ، وقد استجاب الله لندائى حيث أعيد فهرسة المكتبة بعد جردها من جديد لنقل إلى مبناها الجديد في حديقة الخالدين بالدراسة على طريق صلاح سالم ولحد صدور هذا العدد من الحولية هذه ونقل الكتب والمخطوطات يتم على قدم وساق إلى هذا المبنى الذى يتكون من ثلاثة عشر طابقا وسيتمتع هذا المبنى في احتمال مهيب يليق بمكتبة الأزهر وهي ثانى مكتبة في مصر (الباحث) وبها مخطوطات نادرة لا يوجد لها نظير في العالم يعرفها أهل البصر بالكتب والمخطوطات .

كيف ينتسب الطلاب إلى الرواق وكيف يعيشون بداخله (١٩٢١)

ألفنا منذ قليل إلى أن الطالب الذي يريد الإقامة في الرواق ، كان عليه أن يسجل اسمه أولا في قائمة المنتظرين ، حتى يخلو مكان طالب قد أنهى دراسته بالأزهر مصريا أو مغربا . ولذا أيضا أن المدلة لم تأخذ جراحها الطبيعي ، بل ضلت أحيانا ، ففرقت في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج ظلمات . فلقد كان من له قريب أو نسيب كان يقدمه على غيره من أقرانه ولو كان أكثر نفورا عليه . ولهذا كثرت الشكوى وقل الشكر من هذه الحالة المتردية .

أما عن الحياة الداخلية بالرواق ، فكانت في بدايتها صعبة حيث يعيش الطالب الغريب من أهله مع مجموعة من الزملاء يعرفهم شيئا فشيئا يأمن إليهم ، وعادة كان أهله يمدونه بالمسال حتى يعيش في مجموعة من العيش إلى أن يتسلم الجراية وقل من يأتي من الطلاب بلا زاد وهم الفقراء جدا .

ولكي لا يحدث الشجار المؤدى إلى الشقاق والمخاصمة بين الطلاب ، وضع المسئولون بالأزهر عدة قواعد تشبه القانون الذي يجب أن يحترمه الصغير والكبير على حد سواء ، وعلى الطالب أن يراعى هذه الآداب العامة التي تتمثل في :

١ - عدم الخروج من دائرة الاستقامة .

٢ - على الطالب الجديد حين يفد من بلده أن يسلم إلى من يتعمده بالرعاية والعناية ، ويعطيه المعلومات اللازمة للبتدى . ، ويوقفه على الإصلاحات والرسوم المتبعة والآداب اللازمة ، والكيفية الجارية في التعليم والتعلم ،

(١) راجع ملحق رقم ٢ بأسماء بعض طلاب الرواق سنة ١٩١٨ في سجل الأروقة والجريبات ص ٥٢٨ .

ويرشده إلى المنون التي ينبغي أن يحفظها والكتب التي يقرأها وأنماها ،
ويعرفه عادات وتقاليد البلد التي يقطنها وإصطلاحاتها وآدابها . الخ .

٣ - الاهتمام والإعتناء بهذيب الأخلاق وتعلم الآداب .

٤ - كان على الطالب أن يتبع الإرشادات والتعاليم اللازمة ، والتي
تسلك به ممالك التربية العالية وتوصله إلى غاية السكال من أسهل الطرق
وأقرب المناهج .

٥ - الاعتناء بتربية العقل الراجح الواسع الكبير وتنويره ، كالاقتناء
بتربية منسكات الفنون وتحصيل مسائل العلوم .

٦ - تطبيق العلم على العمل وجعل التوابع منطقية على الأمور المحاصرة ،
وعلى حاجيات الزمن ولوائمه .

٧ - حب الطلاب على الاستطلاع ومساعدتهم على الاختراع والتفكير
ومعرفة نظامات الأشياء وحقائقها ، والإلماع إلى الأحكام والشرائع
والديانات الموجودة في العالم ، ومعرفة حقائقها ومقاصدها وحكمها . الخ .

٨ - الإعتناء بتصوير السكال الذي ينبغي أن يصل إليه ، ويكون عليه
الطلاب والعلماء ، وبيان من هو العالم وما هي وظيفته . الخ .

٩ - تعويد الطلاب على النظام وتعيين أوقات للعمل ، وأخرى للأكل
وأخرى للنزهة ، وتعميرهم على النظافة والاستحمام صيفا وشتاء ، وإعطائهم
الأصول والقوانين الصحية . الخ .

١٠ - العمل على عو سلطان العادة من قلوب الطلاب ، وتعويدهم مبدأ
(لا تفسد العادة ولا تثق بفسرك) .

١١ - تربية المنسكات الروحانية الدينية ، وتنمية الشوق إلى العالم الأعلى
في نفوسهم .

١٢ - تعهد الطلاب في غير أوقات الدرس إما من أساتذتهم أو أوقائهم .

١٣ - تعيين أوقات يخرجون فيها للرياضة مع أساتذتهم بنظام محكم ،
وتسكون هذه الأوقات للتذاكر في الأمور العامة والآداب ، والاستفادة
من أحوال الناس على اختلاف مشاربهم .

١٤ - انتخاب وترشيح عدد من العلماء والطلاب لزيارة معاهد التعليم
وبشاهدوا ما بها من نظام وأحوال طلابها وأسائذتها ... إلخ (١) .

هذه هي الآداب التي يجب أن يسير عليها غالباً الطلاب الذي ينسب
للرواق حين قدومه من بلدته (٢) .

ولم يترك الأمر على هوانه بالنسبة لشيخ الرواق ، بل وضعت له عدة
قواعد يجب أن يسير عليها ، وحتى لا يستبد برأيه ، مما يشهر عليه فائرة
الطلاب ، وهذه بعضها :

١ - لا يملك شيخ الرواق إلا أن يصلح بين المجاورين بالمعروف والقدر
الحسن إذا حدث شجار أو شقاق بينهم .

(١) محمد إبراهيم الأحمدى الظواهري : العلم والعلماء ونظام التعليم في الأزهر
ص ١١٧ - ١٢١ طبعة أولى بالقاهرة .

(٢) يشبه هذا النظام الآن الدراسات الخاصة بالأزهر ، حيث يتجمع الطلاب
حسب مذهبهم للفقهي ، ليتقدم أساتذة من مجمع البحوث الإسلامية بتعليم اللغة العربية
والقرآن والتجويد والفقهاء حسب مذهبهم ، وغير ذلك من الآداب العامة والحلق
الإسلامي ، وكانت تقوم هذه الدراسة بالمعاصرة رقم ٣٩ بالمدينة السكنية للطلاب
بالدراسة ، حيث تشمل الدراسة الطابقين الثاني والثالث ، ويشرف على هذه الدراسة
جامعة تخصصوا في اللغات الأجنبية من الموظفين بالجميع تحت إشراف الأمين العام ،
ويقيم هؤلاء الطلبة الجدد بمدينة نصر ، وقد نشأت هذه الدراسة حالياً بالمبنى الجديد
لمجمع البحوث الإسلامية بمدينة نصر بالقاهرة حتى ينتهوا من الدراسات الخاصة
ويحولون إما إلى السكيات بجامعة الأزهر أو المعاهد الدينية الأزهرية (الباحث) .
(٣٢ - مجلة كلية اللغة)

٢ - إذا لم يمثل المجاورون لنصح هذا الشيخ فليصلح بينهم السادة العلماء بالأزهر .

٣ - ألا يضر أحدا من مجاورى الرواق بأية وسيلة من وسائل الأضرار ، وأن يقدم لهم الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٤ - ألا يطرد أحدا من مجاوريه إلا إذا استحق الطرد بعد التحقيق في ذلك ، وبعد أن يندره أكثر من مرة .

٥ - ألا يوقف مرتب أحد من مجاوريه إلا بعد التحقيق واستحقاقه هذه العقوبة .

٦ - ألا يتخذ قرارا أو أمرا يخص مجاورى الرواق إلا بعد إطلاع أعيانهم عليه وإقرارهم ورضاهم به ، فإذا خالف ذلك واتخذ قراره منفردا مستبدا فهو مردود عليه .

٧ - إذا صدر ذنب موجب للعقوبة من أحد طلبة الرواق ، فلا توقع عليه إلا بمعرفة مجموعة من علماء الأزهر وأهل الرواق ، وحتى يكون ذلك أيضا رادعا لغيره ، بعد أن تثبت عليه هذه العقوبة ثبوتا شرعيا .

٨ - إذا خالف شيخ الرواق بندا من هذه البنود وغيرهاتصيح مشيخته وولايته على أهل الرواق باطلة (١) .

أما من أعاشيهم داخل الرواق فيحكمها عدة نظام منها :

١ - نظام التغذية :

يعيش الطالب في الرواق على جارية الخبز التي يتلقاها كقرور يوى لا ينقطع من الأوقاف العامة ، بالإضافة إلى ما يحصل عليه من الأوقاف الخاصة برواقه الذي يقيم فيه .

(١) أوراق بدشت في رواق الأثرالك عثر عليها الباحث سنة ١٩٧٩ م .

والتغذية في الأزهر قديمة كقدمه ، فأول تغذية قامت في الجامع الأزهر
الأرزاق ، والجرايات التي رتبها الخليفة الفاطمي العزيز بالله في سنة ٣٧٨هـ -
٩٨٧ م لفقائه ومجاوريه (١) ، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

وكانت التغذية بالأزهر تدعم بين الحين والحين بما كان يوقفه ذوي اليسار
والغنى من السلاطين والأمراء والتجار والخيرين على أروقة الأزهر (٢) .

فثلا في سنة ٨٨١هـ - ١٤٧٦ م رتب السلطان قايتباي ، لمجاوري الأزهر
عموما من « الشؤون الأميرية » قحبا يصنع خبزا ، وقحبا يصنع منه شوربة قح
ولما يضاف إلى هذه الشوربة ويطبخ معها . ويقدم كل هذا لمجاوري الجامع
الأزهر كوجبات غذائية في نهار كل يوم ، كما رتب لمجاوري هذا الجامع
وجبات غذائية من طعام « العدس » تقدم لهم في مساء كل يوم ، وخص
شهر رمضان المعظم بتقديم وجبات إضافية من الحلوى لمجاوري هذا
الجامع (٣) .

لأن الأساس في التغذية هو « الرغيف » الذي عليه المولود في الطعام ،
وهو القاسم المشترك بين المجاورين جميعا ، حيث يحتل مرتبة أولى وبإليه
مرتبة في نظام التغذية « الأدم » أو الإدام سواء أكان لحما أو عدسا أو شوربة
أو غيرها ، أما الحلوى كغذاء فتقع في الدرجة الثالثة .

(١) خطاط المقرئ ج ع ص ٤٩ ، ط لنيل بمصر سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨ م .
(٢) الشيخ عبد الله بن مراد بن يوسف الرومي الأزهرى : الكنز المئيد الأنور
في ذكر نبذة يسيرة من فضائل الجامع الأزهر مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة
رقم ٨٠٩٠ ح عن مخطوطة عربية بإحدى مكتبات أوربا ، اللوحستان رقم ٨ ، ٩ ،
الأزهر : تاريخه وتطوره ، ص ١٧٤ ، ط وزارة الأوقاف .

(٣) الشيخ عبد الله بن مراد بن يوسف الرومي الأزهرى : الكنز المئيد الأنور
في ذكر نبذة يسيرة من فضائل الجامع الأزهر ، مخطوط مصور ، بدار الكتب بالقاهرة
رقم ٨٠٩٠ ح عن مخطوطة عربية مخطوطة بإحدى مكتبات أوربا ، اللوحستان رقم ٨ ، ٩ .
وانظر أيضا : سليمان رصد الحنفى الرباطى : كنز الجواهر في تاريخ الأزهر

د . ت . دون مكان الطبع ص ٥٩ - ٦١ .

وكان مطبخ « الشوربة بالأزهر » يعد الوجبات المطهية الساخنة من لحم وشوربة وعدس وغير ذلك ، أما الخبز فقد كان يصرف دقيقه من مخازن الجامع الأزهر ، ويتولى الناظر أو المحتسب محاسبة الخباز أو المتعهد لعمل الخبز في أفران خارجية تشبه أفران القطاع الخاص الآن ، كما يماثل هذا المتعهد إذا أخل بشرط من شروط توريد الخبز كنقص الوزن أو الاستدارة الغير كاملة في الرغيف أو يكون غير كامل النضج وغير ذلك .

ويوضع الخبز بعد نضجه « في قفاف كبار » وتسمى كل قفة باسم الرواق أو الحارة حتى لا تختلط بغيرها من قفاف الأروقة أو الحارات الأخرى . وكانت تسمى أحيانا بأسماء الممولين من الواقفين . وقد اعتمد توزيع الغذاء الجاف والمطبوخ على « نقباء الأروقة » الذين اضطلعوا بمهمة توزيعه بالعدل على المجاورين بالأزهر من علماء وطلاب ، وقد ظل هذا النظام سائدا في الأزهر إلى أن استبدل الخبز بنقود^(١) .

ورغم أن هذه الجراية تصرف لجميع المجاورين بالجامع الأزهر طلابا وشيوخا وهي حلال لهم فإن السلاطين والأمراء حين وقفوا على الأزهر هذه الأوقاف لم يدفعوها من بيت أبيهم أو أمهم فالأرض أرض الله والمال مال الله ، إلا أن طائفة من علماء الأزهر تورعت عن أخذ الجراية هذه ، حتى لا يصبحون وهم في قبضة السلاطين أو الأمراء ومن يسرون في فتوام وفق هوام ، وكان على رأسهم للشيخ زكريا الانصارى السنيكي الأزهرى الهافى^(٢) (ت سنة ٨٩٢٦ - ١٥٢٠ م) فقد امتنع مبالغة في الزهد والورع عن .

(١) أوراق في الفتى عشر عليها الباحث في رواق المناربة والأزاه ، وهي بخط اليد لكنها متلفعة بعضها عن بعض أضعفت الرطوبة والمياه تأريخها وأجزأ من وسطها وأطرافها ، وبعد مجهود ولأى استطدنا أن نستقرى هذه الوثائق وبهذهها مكتوب بالخط العربى الذى يصعب قراءته ، وقد حاول الباحث ترتيبها حسب سياق الكلام ، واستطاع بفضل الله ومساعدة زملاء الاستفادة منها .

(٢) ينسب إلى سنيكة إحدى قرى مركز أبو حماد محافظة الشرقية وتسمى

أكل تغذية الأزهر ، وفضل عليها خبز خائفاء سعيد السعداء ، حيث كان لا يأكل منه في الوجبة الواحدة ، أكثر من ثلث رغيف ، ويقول : « إنما أخص خبزها بالأكل لأن صاحبها كان من الملوك الصالحين عمر الخائفاء بإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيا صادقة » (١) .

ولم نستطع أن نعثر في المراجع المعاصرة على كميات اللحم والعسل والشوربة لكل مجاور ، أما الخبز فلا يقل عن رغيف في كل وجبة أي ثلاثة أرغفة في اليوم الواحد ، بالإضافة إلى ما يحصل عليه من الأوقاف الخاصة برواقه ، وقد منع الطلاب المجاورون بالأزهر من استلام جرايات أخرى من غير المرصودة لرواقهم ، ولم يمنع شيوخ الأروقة من ذلك حيث كان بعضهم يدرس بأكثر من رواق ومن ثم كان الواحد منهم يحصل على عشرات الأرغفة .

ولم يقتصر بعض المجاورين على التغذية التي كانوا يتلقونها من الجامع الأزهر ، بل بعضهم كان يفضل أكلات معينة - خاصة الوافدين - تطبخ في بلادهم الذين أتوا منها ، ولذلك كانوا يشقرون الخانات ، ويقومون بإعداد الواجبات داخل مطبخ الرواق الخاص بهم ، ثم يحملون جماعات حيث يأكلون سوياً (٢) ويستدل على ذلك أيضاً من أواني الطبخ الموجودة برواق المغاربة ، وبعضها أواني خشبية كبيرة جداً ، يرجع أنها قديمة ، كان يطبخ فيها الطعام بكميات كبيرة تكفي تقريباً لعدد ستين طالباً من المجاورين ، ثم يوضع المطبوخ في أوان مسطحة أكثر اتساعاً حيث يعمل فيها المزيد من

« الآن » الحلية » بها مهدي أزهرى يحمل اسم الشيخ ذكرها الأنصاري . راجع ما كتبناه هذه سنة ١٩٨٣ م بمجلة منبر الإسلام تحت عنوان : من شيوخ الإسلام (الباحث) .

(١) نجم الدين الغزي : السكواكب السائرة ، في أعيان من بسد المائة العاشرة

قنزي ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) لقاء مع المرحوم الشيخ صالح الجعفري والشيخ عبد السلام الشبراوي ، حيث

كان الأول يشغل - بدون أجر - وظيفة واعظ الأزهر ، ويشغل الثاني مسئول البحوث والأروقة بالأزهر لمدة ٢٥ سنة ، وهما من الأزهريين القدماء الذين عاصروا لنظم

القديمة بالأزهر (الباحث) .

الحجب الجاف ثم بالشوربة (١) .

٢ - نظام المذاكرة والمناظرة :

كان على الطالب المتقدم في السن والمقيم بالرواق ، أن يساعد الطالب الصغير المبتدىء فيستذكر له الدروس حتى يوقفه على الطريق الصحيح للمذاكرة . وقد سجت العادة أن الصغير كان ينزل بالرواق على أحد أقاربه المقيمين فيه والذي يأخذ بيده ويرشده على الكتب السهلة ويندرج معه فيها من الأسهل إلى الأعمق وهكذا . ثم يمرر بعد مدة يكون قد درس فيها بعض الكتب السهلة كمدخل إلى العلوم على بعض الشيوخ الذين يسمحون له بالانتقال إلى مرحلة أخرى حيث يدرس فيها الكتب الأوسع والأشمل والأعمق في العلوم التي درسها . وكانت مذاكرتهم على ضوء الشموع ، وهو من وسائل الإضاءة النظيفة ، حيث لا يحدث دخاناً كثيفاً ، يؤدي بالتالي إلى أن تسود المساكن . أما الطريقة الثانية للإضاءة فهي « زيت الزيتون » حيث يوضع في مسارج ويعمل فتيلة تنفس في هذا الزيت تعطينا ضوء قويا ، لكنه أقل جودة من ضوء الشمع . ويرى بعض الباحثين أن رواق الأتراك وغيره من الأرقعة كانت مخصصة لإقامة الطلاب بها ، وإعاشتهم فيها فقط ، إلا أنهم جانبوا الصواب ، فالواقع التاريخي يقرر أن الأورقة - كما كانت ميدانا للعبادة والتبتهل آفاء الليل وأطراف النهار - كانت ميدانا لمجالس المعلم الكبيرة والمناظرات الحقيقية الجادة ، وقراءة القرآن في جوقات أي جماعات وفراشي ، وكان صوته يرتفع بالدعاء للواقف في نهاية القراءة ، ولهم دعاء ختم القرآن بعد الانتهاء من قراءة الربعة الشريفة (٢) ، وهي في أحسن صورها تتكون

(١) هو لباحث داخل رواق المنارية - وكان يقيم به الشيخ صالح الجفري على حلى ثلاث « حلى » كبار من النحاس تشبه الأذان الكبير وكذلك هو على إناء من الخشب ، لم أر مثلهما قط ، أحدهما عميق والآخر مسطح ، ويرجع أنهما المستخدمان في عمل التريد (الباحث) .

(٢) هو الباحث على غودج دعاء « ختم القرآن » برواق السادة الأتراك ،

من ثلاثين قارئاً وعلى رأسهم شيخهم ، ويقوم كل قارئ بقراءة جزء من القرآن العظيم ، يساعد في هذا شيخهم وحافظ نسخ أجواء القرآن .

كما كان بالرواق مجموعة عظيمة من كتب العلم التي ألفها علماء الأزهر في مختلف عصوره ، كما كان بالرواق أيضاً مجموعة من نسخ الكتب ، ومعهم أدواتهم من أقلام ومداد ودوى وقراطيس لينسخوا ما يقدرون على نسخة منها حتى تزود المكتبة بزيادة لا ينقطع من الكتب^(١) .

وكان على الطالب الذي يريد استذكار دروسه بالرواق ، ألا يرفع صوته حتى لا يزعج غيره من زملائه أو شيوخه ، وبعضهم قائم وبعضهم مريض ، فإذا أراد الطالب رفع صوته في المذاكرة خرج من الرواق إلى صحن الأزهر فإذا كر منطلقاً ، يرفع صوته كيفما شاء وحسبما يريد ، أو بأحد المساجد المجاورة للأزهر ، كجامع الفاكهاني أو الغوري أو المؤيد شيخ .

وكان هناك نوحان من المذاكرة والمناظرة داخل الرواق يسمى (التعليم بالملازمة) حيث يلزم المجاور أستاذه مدة لا يفارقه إلا بعد أن ينسام ، وبالطبع كان ذلك لمحبي الشيخ ومريديه من الطلاب ، حيث يتعلمون منه كل ما يتعلق بالعبادات والعادات اليومية والأخلاق الرفيعة ، وما كانت عليه السلف من فضل وعلم ، وهم يناقشون شيخهم فيما يصعب عليهم فهمه من العلوم وهو يجيب على أسئلتهم بكل الإخلاص مادامت أسئلتهم موضوعية هادفة مع كمال الأدب وحسن اللياقة واللباقة في السؤال والاحترام الشديد للشيخ :

مكتوب بالخط النسخ الممتاز ، وعرجته على بعض مصاحف القرن التاسع الهجري الموجودة برواق الأتراك ، حيث يوجد في نهاية أحدها مثل هذا الدعاء بنفس الخط ، يرجع أنه من القرن التاسع الهجري .

(١) راجع حجة على بن سليمان على الأبداني ، رقم ٢٧٨ دار الوثائق القومية .

أن المعلم والطبيب كلاهما ، لا ينصحان إذا هما لم يكرما .

أما الطلاب السكار نوعا فسكانوا يستعرون ملازما من المكتب خارج الرواق يعطون عليها اسم « التغيير »^(١) فإذا انتهى منها ردها وأخذ غيرها .

وعند انتهاء الطالب من استذكار دروسه يعطى المصباح ، ويذهب إلى فراش نومه ، فيقرأ بعض الآيات القرآنية التي يركتها بحفظه الله أثناء نومه ، فإذا أذن الفجر قام إلى الصلاة ، وكان لكل طالب سرير ينام عليه داخل الرواق ، أما الطلاب والمتنظرون ، الغير قادرين على شراء أسرة لهم فسكانوا ينامون على الحصير فإذا كان الجو صيفا وحارا فإنهم ينامون في صحن الجامع .

طرق المذاكرة :

كانت طرق المذاكرة داخل الرواق هي فهم النصوص ثم حفظها كالماء الجاري ، وكانت هذه هي الطريقة الغالبة على طلاب الأزقة ، في استذكار دروسهم ، حيث يكتبون النصوص من حديث وتفسير وفقه ونحو وبلاغة وغيرها على ألواح من الخشب والمداد ليسهل إزالة الكتابة ، ثم يكتب عليها مرة ثانية وثالثة وهم جرا .

٣ - النظام الإداري بالرواق :

كان لرواق الأتراك بالجامع الأزهر شيخ ينتخبه الطلاب والعلماء من ذوي الخبرة بشئون الإدارة ، بالإضافة إلى كونه أحد العلماء المتصفين بالعلم والزهد والورع والفضل والخبرة وشيخ الرواق مفوض من قبل المسؤولين بالجامع الأزهر ، ومن الطلاب الذين هم تحت رئاسته لقضاء حاجات الرواق التي لها اتصال خارج الأزهر ، وغالبا ما يكون شيخ الرواق ناظرا على

(١) تاريخ التربية في مصر ، ص ٢١١ .

أوقافه ، ولذلك كان عليه أن يقوم هو أو وكيله بجمع ريع الأوقاف المرصودة على الرواق ، وإذا تخلف بعض المؤجرين عن دفع إيجار ماتحت أيدهم لشيخ الرواق فعليه مقاضاتهم أمام المحاكم إذا اقتضت الضرورة ذلك . وعليه كذلك أن يؤجر الأطيان أو العقارات لمدة سنة فقط (مسانئة) قابلة للتجديد ، ويكون التعاقد بأعلى الأسعار ، فإذا أخسل الطرف الآخر (المستأجر) بشروط من الشروط كان على شيخ الرواق فسخ العقد . وما إلى ذلك مما يتعلق بمصالح الطلاب اليومية .

وبالإضافة إلى ذلك كان على شيخ الرواق واجب على ، حيث يعقد حلقاته العلمية الدراسية بالرواق ، وقد قلنا أن مشيخات الأروقة تعقد لأفضل القاطنين بها علما وزهدا وورعا ، ويكون ذلك بتشجيع واختيار من معظم وأغلبية المجاورين في كل رواق وبرضاهم ، لكنه في حالات غير مضطردة كانت مشيخة بعض أروقة الأزهر تعقد بصورة استبدادية ، وتضطرب الهيئة الحاكمة للتدخل لصالح من يرغب الطلاب فيه من العلماء ، كما كانت تحدث بعض صراعات على مشيخة بعض الأروقة تنتقل إلى ساحات القضاء (١) . بل وصل الأمر إلى اغتيال أحد مشايخ الأروقة (٢) .

ومن ثم خشي العلماء على أنفسهم من الاغتيالات والمناوشات التي لا تنتهي ولا تهدأ إلا لتبدأ من جديد أعنف وأقوى ، فأجمعوا على ترشيح أنفسهم لتولي هذا المنصب القاتل ، وتركوا الأمر فوضى يسير حسبما قدر له .

ولهذا اهتم المسؤولون بالأزهر بهذه الظاهرة الخطيرة التي تهدد الدراسة

(١) د عبد الجواد صابر إسماعيل : مجتمع علماء الأزهر في العصر العثماني (رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة ص ٦٠١ وما بعدها .

(٢) اغتيال بعض الطائفة المناوئة للشيخ صالح المزاني شيخ رواقه طمنا بالسكين أثناء صلاة الجمعة بالجامع الأزهر (د . سعاد ماهر : مساجد مصر ، ٦١/٢) .

بالأزهر، فوضعوا عدة قواعد ونظم للحد من هذه الفوضى والبحث والتدري،
فصدر مرسوم باعتبار اللائحة الداخلية للمعاهد الدينية^(١).

(١) صدر هذا المرسوم في العدد الخامس والأربعين من «جريدة الوقائع المصرية»
الصادر في ١٩ ذي الحجة ١٣٤٩ هـ / ٧ مايو ١٩٣١ م، وتتكون اللائحة هذه من
عدة مواد أهمها : مادة ٣٩ : يكون لكل رواق من أروقة المصريين والترباء بالجامع
الأزهر شيخاً إذا قضت الصاحبة أو شروط الواقفين بذلك ، وكذلك يكون الأمر
بالسبة لكل حارة ، ويجوز ضم رواق إلى آخر ، أو حارة إلى غيرها ، إذا قضت
الصاحبة بذلك ولم يخالف شرط واقف .

مادة ٤٠ : يكون تعيين مشايخ الأروقة والخانات من أهل الرواق أو الحارة ،
ويختار منهم العلماء الموظفون في الأزهر .

مادة ٤١ : يعين شيخ الجامع الأزهر مشايخ الأروقة والخانات ويفصلهم من هذه
الوظيفة ، إذا خالفوا أوامرهم أو تعليماته ، أو أصبحوا غير قادرين على أداء العمل
المسؤولين به ، وله أن يعاقبهم بالإعذار أو قطع شيء من راتب الرواق إذا كان
لمشايخ الرواق راتب .

مادة ٤٢ : لا يجوز الجمع بين راتب وظيفة ، وراتب مشايخ رواق أو حارة ،
كما لا يجوز في المستقبل تقرير راتب لمشايخ الأروقة والخانات غير الموظفين إذا كان لهم
من ربح الأوقاف ما يتناسب والعدل الذي يقومون به .

مادة ٤٣ : يعامل مشايخ الأروقة والخانات معاملة أمثالهم من المدرسين
أو الطلبة فيما يتعلق بالأجازات ، ويجوز إعطاء الترباء إجازة عادية خارج لقطر مادة
لا تتجاوز أربعة أشهر إذا وجد من يقوم مقامهم في محلهم .

مادة ٤٤ : لا يكون شيخ الرواق أو الحارة وكيل إلا إذا كان بشرط الواقف ،
أو قضت الصاحبة بذلك .

مادة ٤٥ : إذا كان شيخ الرواق أو الحارة بصفته هذه ناظرًا على وقف ما تملكه
إدارة عشرون هذا الوقف والمحافظة عليه ، وعدم إجراء عمارة فيه إلا بعد استئذان
شيخ الأزهر وتقديم إليه حساب كل عمارة عقب إتمامها مؤيداً ذلك بالسندات
الكتابية . وعليه أن يقدم في أول كل سنة مالية حساباً عن جميع إيرادات الوقف ، ومصرفه
في السنة الماضية مصحوباً بالسندات المؤيدة له .

ماذا من موت عالم أو طالب تركى بمصر :

كان الطالب أو الشيخ إذا مات غسل وكفن ودفن في مقابر المجاورين ، وإن كانت له شهرة في العلم كان يكون أحد الشيوخ المرموقين بالجامع الأزهر ، أو يكون شيخا لرواياته دفن في مدافن خاصة .

وبعد أن تنتهى مراسم الدفن والعزاء ، تقوم لجنة من زملاء الفقيد على رأسهم قتيب الرواق بمجرد مخطافته من أدوات وكتب وغير ذلك ، والموجود بحوزته من نقود وملبوس وما إلى ذلك وتسلم اللجنة هذه المخطافات إلى شقيقه

== وعليه أن يودع كل مبلغ حصته في خزانة الأزهر في ظرف ثلاثة أيام من تاريخ تحصيله .

مادة ٤٦ : لا يلتحق طالب برواق إلا بعد قبوله في قسم من أقسام التحاق .
ويبقى في الرواق مادام منتقيا نفسه ، ومنقطعاً لطلب العلم .

مادة ٤٧ : يصدر شيخ الأزهر من التعليمات ما يراه لازماً لمصلحة العمل ، بما لا يخالف نصوص القانون أو هذه اللائحة .

مادة ٤٨ : على وزير الأوقاف تنفيذ هذا القرار ، يعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية في ٩ ذى الحجة ١٣٤٩ هـ / ٢٧ من أبريل ١٩٣٠ م .

وبهذا عالجت هذه البنود والمواد تقريباً معظم الثغرات التي أدت إلى هذه للتنازعات اللانهاية من استيلاء بعض مشايخ الأوقاف على المصدرة على روايتهم بالإضافة إلى مجموعة وظائف أخرى ، ضمت بعض الأوقاف والمخازن بعضها إلى بعض حتى يمكن التحكم في الميزانية وكثرة الخلافات ، ولا بد أن يكون شيخ الرواق من العلماء العاملين بالأزهر وليس من السكالي الذين لا يحمل لهم ، ومما علة الشيوخ والطلاب بالنصيحة . للأجازه لاضل لأحد ولا مفاضلة ، وعلى شيخ الرواق مباشرة ما تحت يده من وقف ولا يعمل شيئاً بالرواق إلا إذا استشار شيخ الجامع الأزهر حتى ينعى القيل والقال ، كما لا يجوز لطالب أن يجلس بالرواق دون أن يكون منتقياً لقسم من أقسام الأزهر العامة والخاصة ، وبهذا يمنع الحاسيب وذوى المنابر والاصطفاء من سكنهم بالرواق بدون وجه حق إذا خالف شيخ الرواق هذه التعليمات فصل من مرسومه . وكانت البركة كل البركة في هذه البنود .

إن كان موجودا ، أو أحد ورثته أو أحد أقاربه فإن لم يوجد وارث شرعى ، ورثه زملاؤه حسب المنشور الذى وضعه السلطان برقوق بالجامع الأزهر ، والذى جعل المجاورين المقربين الدارسين به أخوة يرث بعضهم بعضا إذا لم يوجد الوريث الشرعى وهو تقليد قديم سار الأزهر عليه منذ ذلك الوقت .

وبعد ذلك يشطب اسمه من دوائر وكشوف الرواق ، ويقوم اشبهخ بتمكين فرد جديد من المنتظرين ، ويعطى جناية الفقيد ، وهكذا كل مات شخص حل محله آخر من المنتظرين للجناية وهكذا .

سفر طلاب وشيوخ الرواق :

لم تنقطع الصلة بين طلاب الأروقة بالجامع الأزهر بالفاخر وبين أهلهم وذويهم فى البلاد الإسلامية فكانوا يذهبون - أغلبهم - لزيارة أوطانهم ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ولعل فى سفرهم مقائم كثيرة منها الترفيه عن النفس ، وتجديد العهد ، وإزالة الكسل الذى ربما سببه طول المكث فى مكان واحد .

ونظرا لعدم وجود العدالة حين عودة المبعوث من سفره حيث يجد من حل محله فى الرواق واستلم الجناية لا يريد أن ينازل عنها ، رغم سفره باستئذان الجهات المسئولة ، كان بعض الطلاب يلجأون إلى التعايل على القانون والقواعد المتبعة ، فيسافر إلى بلده خارج مصر ، وينزل هو مكان نفسه من محل محله فى قراءة الرتبة الشريفة بالرواق حسب ترتيب بعض الواقفين ، وغير ذلك مما يخفى شخصه تماما عن المسئولين .

العراك بين الطلاب :

كما أن الأشياء فيها الغث والسمين وفيها الجيد والردىء ، فكذلك الحيوان والمفروض فى الإنسان الذى يتعلم العلم أن تهذب به أخلاقه ويتغير به

سلوكه وأخلاق حياته ، فإذا كان كذابا فإن القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يمنعه من المكذب ، وكذلك إذا كان إنسانا غصوبا شرسا في أخلاقه وغير ذلك . ولكن بعض المجاورين كان لهم طبع جاف وجود ورتابة قاتلة ، لا تتفق مع ظروف الإقامة الجماعية ، وما تعودوه من المرح والهز ، الذي يخفف عنهم آلام الغربة عن الأهل والوطن . ولهذا كان الآخرون من المرحين يقتدرون بهم ويشاكسونهم ، حتى يضطرون إلى ترك هذا المكان . وهم معذورون فيما هم عليه من التعمد ، فن شب على شيء شاب عليه ، ومن شاب على شيء مات عليه .

وبالإضافة إلى ذلك كان بعض الطلاب شاذا في خلقه ، صعبا في طبعه ، غشوما غشوما ظلوما متعديا ، كل همه النقد الهدام ، يعلق على كل شيء حمن أو قبيح ، إذا رأى بعض الطلاب يحد في درسه عمل على تعطيله وإماتته . وإثامه بالغبا ، ثم يلقى عليه أسئلة بقصد تعجزه عن الإجابة عليها . وغير ذلك .

وهذا من طبيعة الأشياء ، فإن العراك بين بعض الطلاب وبعض الآخر ظاهرة محمية ، فالعراك والنزاع بين الخير والشر لا ينتهى أبدا مادامت الحياة ، فإذا انتهت الحياة انتهى كل شيء بما فيه الخير والشر .

ولم يكن من أسباب السفر ما ذكرنا فقط ، بل كان السبب أحيانا الحج ، والمجاورة بمكة والمدينة ، وكان بعض الطلاب والضيوف ينتظرون بفارغ الصبر ، وصول ركب الحاج التركي لتكوين سفرة جماعية مع الخير والبركة وزيارة الأماكن المقدسة ، وكان بعضهم يجمع كل سنة ، أو يعتمر لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وإلقاء بعض دروس التفسير والحديث والفقهاء هناك .

كما كانت هناك الرحلة في طلب العلم إلى كل البلاد الإسلامية شرقا وغربا .

فكلما سمعوا - أى طلاب العلم - أن عالما ظهر فى أى مكان ، وله منهج جديد فى التدريس هرعوا إليه يلتصقون منه العلم والحكمة .

ولما كانت هناك قيود على السفر تنظمه وتحدده جميع الوقت الشرعية حتى لا تضيق الفائدة من التعليم ، فإن بعضها كان يشترط لحصول الطالب أو الشيخ على الجراية وما يترتب عليها من ميزات أخرى ، أن يكون الطالب متفرغا لطلب العلم الشريف بالجامع الأزهر ، ويسمح له فقط بالسفر لمدة الإجازة السنوية بالجامع الأزهر ، بشرط أن يقدم طلبا لشيخ الرواق يستدثنه فى مغادرة البلاد إلى وطنه (١) ، وأنه سوف يعود بعد ثلاثة أشهر من تاريخ سفره أو أربعة أشهر ، وفى هذه الحالة ينزل مكانه طالب آخر غيره من المنتظرين للجراية ، فإذا عاد إلى رواقه بعد إنتهاء إجازته ، تعلمت جراية غيره ليحل هو محله ، على أن يقدم لشيخ الرواق طلبا بعودته من سفره ، ثم يعطيه شيخ الرواق شهادة بذلك .

أما إذا سافر بدون إذن من شيخ رواقه ، فإن جرايته تقطع مطلقا ، فإذا قدم هذا وقبل صدره ، وضع أول شخص فى قائمة المنتظرين ، والحقيقة أن هذه القاعدة لم تطبق كما ينبغي أن يكون ، فكان بعض الطلاب يتأخرون من أربعة أشهر فأكثر ، ويحضرون فلا تقطع جرايتهم ، وكان هذا مثار شكوى من الطلاب المنتظرين وكثر شغبهم ومشاجراتهم من جراء عدم التطبيق السليم على شرط الواقفين .

بل أن بعض الطلاب كان يفكروا إلى المسؤولين بالأزهر من الشكوى ، مما جعلهم يحذرون مشايخ الحارات والأروقة من المواقب الوخيمة التى سوف تترتب على ترك الأمر على عوامته ، ويأمرونهم بعمل جرد وفتيش

(١) عبد الكريم سلمان أعمال مجلس إدارة الأزهر الأعلى ص ١١٧ .

وحصر الطلاب بكل دقة ، ويعمل كشف بالمنفسين والمنتظرين ومستحق الجراية من الطلاب ، وتقديم هذا الكشف إلى مشيخة الأزهر في أقرب وقت ممكن .

أما وكيل الرواق فهو الشخص الثاني بعد شيخه مباشرة ويكون من كبار علماء الرواق أيضا ويتصف بما يتصف به شيخ الرواق ويتوب عنه عند غيابه أو سفره فيكون شيخا مؤقتا للرواق ، وله صلاحية الشيخ ويقوم بالأعمال والخدمات المخولة له ، وقرارات نافذة المفعول في الحدود المرسومة والمتعارف عليها داخل الرواق .

نقيب الرواق : طالب من الطلاب الكبار بالرواق عن أشرفوا على الانتهاء من دراساتهم وينتخبه أيضا أعيان الرواق من صفات ظهرت عليه وميزته عن غيره ، كان يكون عالما شجاعا ، لا يهاب في الحق أحدا في الله لومة لائم ، شعاره العدل الذي هو أساس الملك .

أما عمل النقيب فيتمثل ويتلخص في رعاية شئون المجاورين من زملائه وشيوخه ، وتقدير حقوقهم داخل الرواق وخارجه ، والعناية بتوزيع حقوقهم وقسمتها عليهم بالسوية بينهم . وغير ذلك من الأعمال التي تناط بهم والتي تمثل في مجموعها خدمات جوهرية للعلماء والمجاورين بأروقة الجامع الأزهر وحاراته .

هذه تقريرا الأنظمة التي تحكم سير العمل الداخلي بالرواق ، ورأينا أنها كانت تنبذت أحيانا بين القوة والضعف إلى أن خلت الأروقة في العصر الحديث من الحياة التي كانت تنبض بالحركة والنشاط ، وإلى أن توقفت غالبا ولم يعد فيها الآن إلا أناس قلائل : ثلاثة في رواق الأثرية منذ ثلاثة سنوات ، ويقوم به حاليا طلاب أغارقة بالدراسات الخاصة بالأزهر . إن مدينة ناصر للبحوث الإسلامية قد حلت محل الأروقة ، وقدمت خدمات طيبة للطلاب .

العلاقات بين الممالك الجراكسة والعثمانيين :

ينبغي أولاً توضيح المعالم وظهورها أن مهد الأرض التي تقف عليها وهودتنا بالذاكرة إلى الخلف إلى ما قبل عصر السلطان سليم ، وقبل بدء الحديث عن فتحه للشام ثم مصر يتيح لتأخره التعرف على مسار الخط البياني في العلاقات بين الممالك الجراكسة والعثمانيين ، وتندلس الأسباب التي أدت إلى هذا الصراع وما أعقبه من معارك كانت سبباً في انقضاء العثمانيين على الممالك والقضاء على دولتهم قضاء مبرماً ، فإن العراك الذي حدث بين الذوري وسليم وبينه وبين طومانباي من جهة أخرى ، لم يكن وليد مدة حكمهم القصيرة بل كان لها أصول وجذور عميقة ترجع إلى سنين وسنين سبقت حكم هؤلاء .

كيف بدأت العلاقات الدولتين :

بدأت العلاقات بين الدولتين العثمانية والمملوكية في أول مهدها طيبة للغاية ، ولم يحدث بينهما ما يؤدي إلى الصدام أو العداء ، لحدود الدولتين بعيدة كل البعد ، وليس هناك تضارب وتعارض في المصالح المشتركة بينهما ، مما كان له أكبر الأثر في عدم حدوث اشتباك .

وقد وجهت الدولة العثمانية كل جهودها لمحاربة المسيحيين المجاورين لحدودها خاصة البيزنطيين ، وكان هذا سبباً لعلاقات حسنة مع الطرفين لعدم وجود أطماع لأي منهما في الأخرى^(١) .

ومع ذلك شيء هام زاد الروابط بينهما وهو « المغول » الخطر المشترك المتجه إلى الغرب ليهدم بلادهما .

وقد يخيل لبعض الباحثين أن استيلاء السلطان سليم العثماني على الشام

(١) د . أحمد فؤاد متولي : المنهج العثماني للشام ومصر ، ومقدماته من المسح

ومصر كان ابن وقتة ، وأن سبيه مناصرة السلطان الغوري لشاه إيران ،
ولكن الحقيقة توحي بأن مطامع الأتراك العثمانيين في البلدان العربية تمتد
إلى عصر السلطان العثماني محمد الفاتح ، فبعد أن تم له النصر على البيزنطيين
بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م تطلعت عينه - بعد أن وطد أركان
ملكه ووضع القوانين لدولته - إلى البلاد العربية ليقوض أركان أعظم دولة
في ذلك العصر هي دولة المماليك المؤلفة من بلاد الشام ومصر (١) .

ونفصل العلاقات الودية الآن ثم نتبعها بالاشتباك بينهما وأسبابه :

(١) علاقة السلطان برقوق بالعثمانيين :

كانت العلاقات ودية للغاية ، فقد أرسل السلطان مراد الأول (٧٦١ -
٧٩٢ هـ - ١٣٤٩ - ١٣٩٠ م) سفراءه وقاصده إلى برقوق ، ليحذره من تيمورلنك
ومن مغبة أنجاهه نحو العرب ويسببه من القضاء على دولتيهما على السواء (٢) .
ولما هاجم السلطان الجديد ، بايزيد الأول ، (٨٠٥ - ٨٧٩ هـ - ١٣٩٠ -
١٤٠٢ م) قيصريّة في سنة ٧٩٣ - ١٣٩١ م وامسك بقائدها المملوكي ، سرطان
ما أحس بجرم ما صنع بخرج موقفه ، فاعتذر لبرقوق - حيث أخطر المغولي
يقرب من بلاده ولا نصير له إلا المماليك هما اقترقه في حقه ، وأرسل له
هدية قيمة مع قاصده ، مع طلبه لطبيب برقوق الماهر ليشرف على علاجه ،
فلبى برقوق الطلب وأرسل طبيبه د شمس الدين بن صغير ، يحمل معه بعض
المقايير والأدوية (٣) .

(١) محمد أحمد دحمان : التراك بين المماليك والأتراك : بحث في كتاب التاريخ والآثار ، الحلقة الدراسية الأولى ص ١٨٧ ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة .

(٢) الخطيب الجوهري : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٥ ، ١٦ ، مخطوط بدار
المكتب المصرية رقم ١١٦ ، تاريخ م .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٠ ، راجع أيضا ج ١ من بدائع الزهور ص ٦٢٣
ط ألمانيا حيث وصل رسول بايزيد عملاً بالهدايا .

وقا كيدا لروابط الصداقة بينهما ، تبادل السلطانان الرسائل فيما يمن
لها من أمور ، فقد بعث « برقوق » مع سفيره « سعد الله اليربدي » رسالة إلى
« بايزيد الصاعقة » ، قال له فيها : « أن المملكتين كروحين في جسد وساعدين
في عقد وشكاه ، الجنوبيين » ومعاملتهم السيئة للتجار المسلمين ، وفي ٦
شوال ٧٩٣ هـ - ٦ سبتمبر ١٣٩١ م رد « بايزيد » عليه برسالة لخواها أنه
أرسل رسوله وقاصده إلى أمير جنوة ومشركي كفة منبها لهم إلى عدم
التعرض لأموال تجار المسلمين بسوء ، وإطلاق سراح من سجن منهم
وتسليمهم أمورهم كاملة ، كما طلب من « برقوق » الاستمرار في المراسلة
تا كيدا على أواصر الصداقة بينهما^(١) .

ومما يدل على عظمة السلطنة المملوكية وسيادتها الإسلامية العليا في
الجال الدولي العالمي في عهد « برقوق » أن السلطان العثماني « بايزيد الأول »
كان كثيرا ما يؤكد صداقته واحترامه للقاهرة ، فأرسل في سنة ٧٩٧ هـ -
١٢٩٤ م تحفا ومعدايا إلى « المتوكل على الله » الخليفة العباسي - في ذلك
الوقت - ويطلب منه تقليدا وتكريفا باعتداده سلطانا ، فبعث « المتوكل » له
بهذا التقليد^(٢) .

(ب) في عهد الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨١٥ - ١٣٩٨ - ١٤١٢ م) :

كثيف العثمانيون من وجههم الحقيقي - في عهد هذا السلطان - في أطماعهم
التي تدفعهم من آن لآخر على المناطق المشمولة بحماية الممالك الجراكسة ،
وقد توجه الممالك خيفة من هذه الاطماع ، التي جعلت كلا الطرفين
يتحسرس بالأبحر وبالطبع لم تستمر العلاقات بينهما على صفاتها القديم .

ففي سنة ٨٠٢ هـ - ١٤٠٥ م حاصر « بايزيد » « دارندة » واستولى على

(١) د/ أحمد زؤاد متولى ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

(٢) د/ محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ، المجلة التاريخية

المصرية ، مجلد ٤ ، عدد ١ ، ص ٢٠٠ ، مايو ١٩٥١ م .

« ملطية »^(١) وبعدها طلب إلى الناصر فرج التحالف معه ضد خطر المغول المتوغل على بلادهما ، لكن « فرج » رفض التحالف معه بعد مشاورة أمراءه وخاصته .

ولذا السبب تمكن تيمور لنك من هزيمة كل منهما على حدة ، فقد هزم « بايزيد » وأمره في معركة « جوبوق أور » بالقرب من أنقرة (١٤٠٤ هـ - ١٤٠٢ م) ، كما أنزل بالممالك هزيمة ساحقة بالقرب من دمشق سنة ١٤٠٠ م ، ولو تخاصم هذين العاهلين خلافهما وأطاحا بهما لكان لهما شأن آخر^(٢) .
ولكن العلاقات حدثت بين الدولتين إلى سيرتها الأولى من الصفاء والوثام بعد وفاة تيمور لنك سنة ١٤٠٥ م .

(ج) في عهد المؤيد شيخ المحمودى (٨١٥ - ٨٢٤ - ١٤١٢ - ١٤٢١ م) :

عندما تولى « المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى » السلطنة المملوكية ، لم يسارع السلطان العثماني الجديد « محمد الأول » (٨١٦ - ٨٢٤ - ١٤١٣ - ١٤٢١ م) كسابق عهد سلفه بإرسال رسالة للتهنئة ، وتقديم الهدايا ، لكنه في أواسط ذي الحجة ٨١٧ هـ - ١٤١٤ م ، أرسل مع قاصده « قوام الملك والدين » قاضى « ابنه كول » من أعمال « بروصة » رسالة اعتذار إلى « المؤيد شيخ » بسبب النزاع الذى نشب بينه وبين أخوته للتنازع على العرش بعد موت أبيهم سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م ومساعدة « تكفور »^(٣) . وتمحيضه لإياهم مده ، ويطلب منه تجديد أوامر الصداقة مهتما بإياه باعتلائه عرش سلطنة الممالك . وكالعادة أرسل إليه محمد الأول هدية مع نفس القاصد

(١) عقد الجمان ، القسم الأول من الجزء ٢٥ ، ورقة ٧٨ (مخطوط ١٨٥٤ تاريخ بدار الكتب المصرية) .

(٢) د/ أحمد نواد متولى ، مرجع سابق ، ص ٩ .

(٣) كلمة « تكفور » يقصد بها حكم ولايات قروملى والإناضول عن الدولة البيزنطية قبل إسبلاء العثمانيين عليها .

جبارة بن خمس « طقوزات »^(١) من أقنعة متنوعة ، وثلاث طقوزات منه أقنعة فرنجية متنوعة ، و « بوغجيتين »^(٢) من الأقنعة العجمية^(٣) .

(د) في عهد السلطان « برسباى » (٨٢٥ - ٨٤١ - ١٤٢٢ - ١٤٢٨ م) :
كانت العلاقة بين السلطان « برسباى » والعثمانيين في البداية غاية في الصفاء والمودة ، وذلك لأسباب منها : مادة « شاه رخ » بن « تيمورلنك » لسكر من « مراد الثانى » (٨٢٤ - ٨٥٥ - ١٤٢١ - ١٤٥١ م) وأبوه محمد الأول من قبله ، والسلطان « برسباى » من ناحية أخرى ، مما جعل الاثنين يتقربان .
بعضهما إلى بعض متحالفين لمحاربة هذا الخطر .

ومن أجل هذا ، لم تنقطع السفارات بين الدولتين ، فعند اعتلاء « برسباى » عرش السلطنة المملوكية ، حضر إلى القاهرة - العاصمة المملوكية - رسل بنى عثمان سنة ١٠٢٣ م يحملون تهنئة السلطان العثماني ، ومعهم الهدايا الفخمة ، و « برسباى » بمقدمهم ، ورد عليها - حسب التقاليد المرمية - وأعرف المملوكى - بأحسن منها ، وبزعم عدم وصول هذه الهدايا إلى السلطان العثماني لوقوعها في يد القراصنة والمتجربة من أهل « قبرص » ، فإن السلطان العثماني برسل محبة قصاده مرة أخرى هدايا عظيمة من باب التهنية على ما أحرزه الممالك من نصر تلو نصر في حملة قبرص وذلك سنة ١٤٢٦ م .

وقد بقي هؤلاء السفراء بالقاهرة ليشهدوا الخلة المملوكية الثالثة المظفرة .
التي طادت من قبرص سنة ١٤٢٧ م مكللة بأسمى آيات النصر ، وفي حوزتهم .

(١) كلمة طقوز تعنى في اللغة التركية للعدد ٩ تسعة ، كما تستعمل في التركية فضلا عن العربية والأردنية والقارسية أحيانا بمعنى « هدية » .

(٢) كلمة تركية تعنى « الصرة » أو « الرزمة » وينطقها العامة من المصريين

« بجة » .

(٣) (د) أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

عدد من الأسرى القبارصة من بينهم ملكهم نفسه د جانوس الثاني لوزنيان،^(١).

وقد جرى هذا الملك عارى الرأس مقيدا بالسلاسل ، وكانت حضرة السلطان بالقلمة مزدانة بأولئك القصاد العثمانيين وغيرهم من الرسل الذين صادف وجودهم بالقاهرة ، وهذا شهد القريب والبعيد ما قدمه جند الممالك لخدمة الإسلام^(٢).

وقد أرسل د برسباي ، قاصده د تفرى بردي،^(٣) إلى مراد الثاني ليتعرف على أحوال العثمانيين ومعاركهم مع المجر وغيرهم ، وفي ١٠ ذى الحجة ١٤٢٨ م جاء إلى القاهرة د جمال الدين بن حسن ، رسول السلطان العثماني يحمل كتابا إلى د برسباي ، وأخبره بانتصار العثمانيين على المجر عند د نهر الطونة ، والاسنيلا. على قلعتين من قلاهم^(٤) ، كما أرسل السلطان مراد الثاني - عقب انتصاره على المجر عند الطونة - بمحمدسين أسيرا مسيحيا وذلك سنة ٨٣٢ هـ - ١٤٢٩ م كرد فعل لمسا رآه قصاده قبل ذلك من شهر الأسرى القبارصة في القاهرة^(٥).

(١) راجع قبل هذه الواقعة قائمة أخرى في التاجم القاهرة ، ج ١٤ ص ٢٧٠ ،

ص ٢٩٠ - ٣٤٠ .

(٢) د . سعيد طاهر : الأيوبيون والملوك في مصر والشام ، د . محمد مصطفى زيادة ، مرجع سابق ، ص ٢٠٠ ، والفزوات : في تزهة النفوس ، الأولى ص ٧٧ ، والثانية ص ٧٧ - ٨٤ ، والثالثة ، ص ٨٤ - ٩٤ .

(٣) هو تفرى بردي بن عبد الله البكشي الدوادار المعروف بالوذى سيف الدين أحمد ، في عهد برسباي ، تولى إمرة الطليخانات سنة ٨٣٤ هـ ، ثم جله مقدم القبا بالدار المصرية سنة ٨٢٩ هـ ، توفي سنة ٨٤٦ هـ - ١٤٤٢ م ، ترجمته بالنهل الصافي وخطوط بقلم ١٢٠٩ تيغور - دار الكتب المصرية ٤٤٣/٢ .

(٤) د . أحمد فؤاد متولي : مرجع سابق ص ٧ .

(٥) د محمد مصطفى زيادة ، مرجع سابق ، نفس الصفحة .

وبالطبع رد السلطان « برسباي » على هذه الرسالة معبرا عن فرجه الشديد.
ينصر الإسلام وجند المسلمين ، وقد ظلت العلاقات الطيبة ، فكلما تحقق
لأحد الفريقين نصرا على عدوه سارع أحدهما بإيقاد قاصد إيمان عنده إلى
الطرف الآخر بالتفاني بفتح الإسلام المبين .
إلا أن العلاقات لم تدم على ما هي عليه ، ودوام الحال من الحال - كما
يقولون - فقد حدث ما أحفظ العتائين على الممالك وأدى إلى الحشونة
بينهما وبدأ نذير سوء والشوم .

ففي سنة ٨٣٧ هـ - ١٤٣٣ م لجأ إلى القاهرة - فرارا من السلطان مراد
الثاني - كل من الأمير سليمان العثماني وشقيقته الأميرة « فاطمة » فاستقبلهما
السلطان « برسباي » استقبالا يليق بهما وأحسن وقادتهما وأنزلهما القصور
السلطانية . وعندها طلب « مراد الثاني » من « برسباي » ردهما إليه ، رفض
الأخير طلبه ، فسادت العلاقات بين الطرفين ، وإمعانا في العناد ضم « برسباي »
« سليمان » إلى حاشية ابنه « يوسف » وضم « فاطمة » شوزادة «^(١)» إلى حريم
القصر ليتزوجها سنة ١٤٣٦ م (٢) .

(١) زادة خوند شاه : ابنة الأمير أرض بك بن الأمير محمد كرهجي بن يلدزم
بايزيد بن عثمان جق غرومية ثم القاهرية ، أخت سليمان والي قدمت معه إلى القاهرة
فأكرمها الأشرف برسباي وأنزلها بالبور السلطانية من القلعة مدة ، ثم ضمن بعض
الأروام للانتهاء الحرب بهما ، لكن السلطان أدرك هذه الخدمة بعد أن كادت تنجح
فردوا إلى القاهرة من رغيد ، وقتل عدد من الأروام وقطع أيدي آخرين (راجع
حالة فرارهم من مصر والقبض عليهم وتوسط من كسب في هذا الفرار في نزهة
النفوس ٣/٢٧٣) ولما مات سليمان سنة ٨٤١ هـ - ١٤٣٧ م تزوج « برسباي » هذه ،
ثم تزوجها بعد موته لظاهر جقمق ، ثم طلقت منه بعد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٤٩ م ،
ونزلت بيتها بالجودرية ، ثم تزوجها « برسباي الفيحاني » ، انجوم القاهرة ١٦/١٧٨ ،
الضوء اللامع ٢٧/١٢ ترجمة رقم ٢١٣ .

(٢) د. أحمد فؤاد متولي ، مرجع سابق ، ص ٢٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، الضوء اللامع
٢٦١/٣ - ٢٦٢ ترجمة رقم ٨٩٨ ، نزهة النفوس ٣/٢٧٣ .

(٥) في عهد جقمق^(١) (٨٤٢ - ٨٥٧ - ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م) : تحسنت العلاقات غاية التحسن بين السلطان « جقمق » والسلطان « مراد الثاني » العثماني ، وعلى جارى العادة كانت الرسائل بينهما لا تركاد تنقطع ، فعند اعتلاء السلطان الظاهر أبي سعيد جقمق ، في ١٩ ربيع الأول ٨٤٢ - ١٤٣٨ م أرسل إلى مراد الثاني مع سفيره « استدمر الخاصكي » رسالة مصحوبة بالهدايا في ١٠ جمادى الأول من نفس السنة ، يخبره بوفاة « برسبای » الذي عهد لابنه « يوسف » بالسلطنة وسنه حينئذ ١٤ سنة ، وجعل جقمق وصيا عليه « قايما بأعباء أردملكته ومرشدا له في أقواله وأفعاله إلى أن يأنس رشده ، ثم حكى له عن تطور الأحداث بعد ذلك قائلا : « وفي غضون ذلك لاذ بالطفل المشار إليه زمرة من أحداث عماليك والده وأخذوا في اضجار أمور يضحك السقاء منها ويبيكي من عواقبها اللبيب ، منها السعى في تفريق السكمة المنتظمة ومنها ألقاء الفتن والخلف بين العساكر ، ومنها سلب خليقة الله الأمن على أنفسهم وذوهم ، ومنها استباحة ماحرمة الله عز وجل من أموال المسلمين ودمائهم وما وراء ذلك إلى أن كاد - والياذ بالله تعالى - أن يقع الخلل فيما نحن قابضون عليه من زمام المملكة ، .. ثم اجتمع القضاة والمشايخ والخليفة العباسي بالقاهرة والخطباء والفضلاء ، وهم أهل الحل والعقد وبعض العساكر ، وهرضوا على جقمق الخلافة .. وقالوا : « القبول لازم بل واجب علينا منهم ، وعند ذلك استخرنا الله تعالى ... وفرض مولانا أمهر المؤمنين المشار إليه السلطنة علينا » (٢) .

بعد اعتلاء جقمق السلطنة المملوكية أرسل إلى نوابه على الحدود العثمانية ، أن يحسنوا العلاقات مع أحمد بك ابن السلطان والحاكم لولايات

(١) كان جقمق أو جقمق وجائز في اللغة التركية « قداحة » .

(٢) د. سعيد طغور ، الأيوبيون والمماليك ص ٣١٧ ، د. أحمد نؤاد متولى ،

« توقات وأماسيا وسيواس » ، ثم لى الطلب القديم الذى طلبه مراد الثانى قىلا من برسباى ، وأوصاه فى نهاية رسالته أن يسهل رجوع التاجر المملوكى خواجه زين الدين بكسيباى ، وما معه من الممالك الأجلاب إلى القاهرة (١) .

وقد رد مراد الثانى على رسالة جقمق بعبارات التبريل والاحترام وجدله فى مقام والده ، وصحبها بعدة هدايا مع قاصده دولة بك سنة ٨٤٣هـ - ١٤٣٩م مهنتا بالسلطنة ومبشرا بفتح قلعة سمندرة ، وانتصاره على اللاز وبى الأصغر وتخريب طمشوار وكوهين وبلغراد ، ثم أكد على استمرار الصداقة وحسن الجوار (٢) .

وكان السلطان « جقمق » يحظى باحترام السلطان محمد الثانى ، بعد « مراد الثانى » فقد أرسل هدية إلى القاهرة سنة ١٤٤٥م . ولما تولى محمد الثانى (٨٥٥ - ٨٨٦ - ١٤٥١ - ١٤٨١م) عرش السلطنة العثمانية نهائيا بعد وفاة مراد الثانى ، سارع « جقمق » بإرسال وفد خاص للتهنئة وفى حوزتهم الهدايا الراقية (٣) .

(و) فى عهد إينال المملوكى (٨٦٥هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١م) خلف « جقمق » بعد وفاته « السلطان الأشرف سيف الدين إينال » ، ولما كان السلطان العثمانى « محمد الثانى » مشغولا بفتح القسطنطينية تأخرت رسالته بتهنئة إينال ، لتوايه العرش المملوكى ، لكن لما افتتحت القسطنطينية

(١) نص هذه الرسالة فى الملحق رقم (٧) من كتاب د . أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق .

(٢) نص هذه الرسالة فى الملحق رقم (٨) من كتاب الدكتور أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق .

(٣) د . محمد مصطفى زيادة ، مرجع سابق ص ٢٠١ .

سنة ٥٨٥٧-١٤٤٣ م ، سارت القاهرة بدق الطبول وإضاءة الشموع ونزيب
الشوارع والأسواق ابتهاجا واحتفالا بهذا النصر العظيم (١) .

وجاءت رسالة السلطان العثماني ومحمد الفاتح ، يحملها قاصده وجلال الدين
يوسف القابوني ، لتهنئة إينال بأخلاقه العريضة ، وببشره بفتح عاصمة
اليونانيين ، وقد أرسل معه قاصده بعض الخيل والأسرى وبعض الأقدسة
وغيرها كهدية يبرهن بها على عظمة انتصاره على الكفار وفتحهم لعاصمتهم (٢) ،
وفي هذه الرسالة يبجل السلطان « إينال » ويصفه بأنه بمنزلة الأب ، مما يدل
على مدى قوة العلاقة بينهما .

وقد ذهب إلى عاصمة العثمانيين « برسباي الأشرف » حامل رسالة السلطان
المملوك « إينال » ردا على رسالة ابن عثمان ، يهنئه بالفتح المبين « الذي
أدخلك الله لأيام سعادة » ، ويحمل معه بعض الهدايا تذكيرا لأسباب الوداد
وتوثيقا لعرى الاتحاد ، كما كانت سنن الأقدمين من السلاطين (٣) .

بداية سوء العلاقات بين المماليك والأتراك العثمانيين :

(ز) عهد خشمقدم (٨٦٥ - ٨٧٢ - ١٤٦١ - ١٤٦٨ م) : بدأت أطماع
العثمانيين في الأناضول ، وتدخلهم في شئون بعض الإمارات المشمولة برعاية
وحاية المماليك ، مثل أمارتي « قرامان » و « القادر » ، ولهذا بدأ الصدام بين
الدولتين في شرق وجنوب الأناضول ، وكان ذلك منذ أن تولى السلطان

(١) د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص ٣٢٦ .

(٢) راجع الرسالة في الملحق رقم (١٢) من كتاب الفتح العثماني للشام ومصر ،
مترجم سابق .

(٣) المرجع السابق وأما الرسالة في الملحق رقم (١٣) من كتاب الفتح العثماني
للشام ومصر لأن أراد لتوسع في هذا الموضوع .

(خشقدم) حكم المماليك ، فسأت العلاقات بين الدولتين ، ولم يستطع (خشقدم) الرد على هذا التدخل السافر حيث وافقه المنية^(١) .

(٣) عهد قايتباي^(٢) ٨٧٢ - (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) نظرا للتنافس بين العثمانيين والمماليك والتي اشتدت بتدخل كليهما في الإمارات السكائنة على الحدود ، توترت العلاقات بين (قايتباي) و (محمد الثاني) العثماني ، وأصبح الصدام وشيكاً ، والموقف يندرج بالخطر ، وبدأ كل منهما يرسل الحملات انتقاماً من الآخر برغم الاتصالات في طلب الصالح^(٣) .

ففي سنة ٨٧٠ هـ - ١٤٦٥ م اغتيل نائب (الأبلستين) (سيف الدين ملك أصلان) وهو في صلاة الجمعة ، فأحضر سيفه إلى القاهرة ، وأخير السلطان (خشقدم) بما حدث ، فعين بدلاً منه نائباً عن الأبلستين وأعمالهما أخاه (شاه بداق) .

ولم يعجب هذا التعيين (الأمير سوار)^(٤) - وهو أخ ثان للمغفور - فأعلن الثورة على الدولة المملوكية ، واستعان بالسلطان محمد الفاتح ، متهماً سلطان القاهرة باختياله أخيه^(٥) .

وقد ساعد السلطان العثماني الأمير (سوار) في ثورته متطعماً إلى الاستيلاء على دولة المماليك منذ ذلك الوقت . وقد أهتم (قايتباي) بهذه الثورة ،

(١) د. سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٢) راجع ص ١٦٦ - ١٦٧ من كتاب : قايتباي الحمودي لعبد الرحمن عبد التواب .

(٣) راجع ترجمة جانيك حبيب سفير السلطان قايتباي إلى العثمانيين ، في الضوء

للإمام ٥٩/٣ .

(٤) راجع ترجمة شاه سوار بالضوء للإمام ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ولم ١٠٤٦ .

(٥) محمد أحمد دهمان : المراكب بين المماليك والأتراك ، بحث مستخرج من كتاب

التاريخ والآثار - الحلقة الدراسية الأولى - المجلس الأعلى لدراسة الفنون والآداب -

د . ت ص ١٨٧ .

وأرسل سنة ٨٧٧ هـ = ١٤٦٨ م ، حملتين عسكريتين إحداهما تلو الأخرى ، فهزمت الأولى هزيمة منكرة ، وأخفقت الثانية أيضا . وفي ٨٧٣ هـ = ١٤٦٩ م أرسل حملة ثالثة فهزمت ، ولم تنجح ، والمطالع في الضوء اللامع للسخاوي كثيرا ما يرى في تراجم الممالك أن فلانا قتل في كائنة سوار وفلانا قطعت يده أو ساقه ، وفلانا قُلت هيئته أو قُتل ... إلخ (١) .

وقد استطاع الأمير (يشبك بن مهدي) (٢) القضاء على هذه الثورة نهائيا والقبض على (سوار) والإتيان به إلى القاهرة ليصلب على باب زويلة سنة ٨٧٦ هـ ، وذلك في الحملة الرابعة ، بعد أن انتهكت الحملات المتقدمة خزينة الدولة وأوقعتها عددا كبيرا من عظماء رجالها ، وانحطت هيبتها أمام أعين الدول المجاورة ، وطمعت في الاستيلاء على بعض حدودها ، وذلك بعد أن زودته الدولة المملوكية بجيش لجب ، وقدمت له كل ما تستطيع من قوة ورجال وعتاد وجبرته بعدد من المكاحل (المدافع) كما ساعدت كل البلاد الشامية بالأموال والجنود (٣) .

ولكن القضاء على (سوار) لم يلطف لظى الثورة ، فإن السلطان محمد الفاتح حرص (على دولات) أخا شاه سوار على إشهار الثورة والحصيان على الممالك ، فعادت الدولة المملوكية تجهز الجرش تلو الجيش حتى أضى على هذه الثورة أيضا .

(١) راجع ترجمة رقم ١٠٣٦ في الضوء اللامع ١٠/٢ .

(٢) فتوسيع راجع : قابقيساي المهدوي ، ص ١٣٩ - ١٥٦ ، الضوء اللامع

٢٧٥ / ٣ ، ٢٧٥ .

(٣) بعد القبض على سوار بنيت قبة تذكارية على سفح جبل « تاسون » المطبق على مدينة دمشق عرفت بقبة النصر على سوار ، بقي بعض أطلالها إلى سنة ١٩٤١ م فهدمتها جيوش الحلفاء في الحروب العالمية الثانية خشية اتخاذها نقطة بارزة وعلامة لضرب المواقع العسكرية .

وأخيراً أسفرت هذه الحملات عن بروز السلطان العثماني إلى الميدان متظاهراً بالعداء للدولة المملوكية ، وكانت بينهما معارك عديدة كان النصر في أكثرها لحليف دولة مصر ، وأسر في إحدى هذه المعارك صهر السلطان محمد الفاتح (أحمد مرسل) سنة ١٤٨٥ - ١٤٨٩ في معركة قادها (أربك أليوسني)^(١) .

وكانت العلاقات بين العثمانيين والمماليك تزداد سوءاً على سوء ، وبعد أن أتولى بايزيد الثاني عرش العثمانيين (٨٨٦ - ٩١٨ - ١٤٨١ - ١٥١٢ م) ومنازعة أخوه (جم) له على العرش ، ولم يستطع (جم) التغلب على أخيه ، فغرب إلى مصر طالباً معونة (قايتباي) الذي أمدّه بها ، مما جعل العثمانيين يتقدمون لأنفسهم من المماليك الذين آووا الأمير الهارب .

(ط) في عهد قنصوة الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ - ١٥٠١ - ١٥١٦ م) :
ظلت العلاقات بين الدولتين حسنة طالما لم يكن هناك تدخل من جانب أحدهما في شؤون الأمارات التي تقع بينهما ، والتي كان بعضها تحت حماية المماليك والبعض الآخر مشمولاً بحماية العثمانيين .

وقد ظلت العلاقات حسنة بين (الغوري) و (بايزيد العثماني) خاصة بعد أن وقع على صلح سنة ١٤٩١ م ، حتى نهاية حكم بايزيد الثاني المذكور ، فقد أرسل هذا الأخير رسالة مع قاصده (حيدر) رئيس السلاحين لثمنه الغوري باعتلاء عرش السلطنة جرياً على سابق عاداتهم وتتضمن الرسالة مدح الغوري مع حبه على عمل الخير وإقامة العدل ، وقد رد الغوري على هذه الرسالة ومعها التحف والهدايا وبين لبازيد الثاني أن سلفه قايتباي اتعوج عن سبيل مصادقتنا أما هو فقد أصلح ما أفسده قايتباي وأرجع العلاقات الطيبة بين الدولتين^(٢) ، وقد أرسل بايزيد إلى الغوري بلمس منه العفو عن (دولتباي)

(١) محمد أحمد دحان ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، د . أحمد نؤاد متولى ،

ص ٢٤ - ٤٠ .

(٢) نص هذه الرسالة بين ملاحق كتاب د . أحمد نؤاد متولى .

حاكم طرابلس لما هذا منه من أخطاء . وقد استجاب الغورى لطلبه ، مما دعا
ببايزيد إلى شكره في رسالة أرسلها إليه في ربيع الأول سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م.
يذكر فيها على ما قام به وكثر تبادل الرسائل بينهما مما يدل على حسن
العلاقات (١) حتى إذا توفي بايزيد بكى عليه الغورى وأظهر الحزن والأسف
وأمر بصلاة الغائب عليه بالجامع الأزهر والجامع الطولوني وجامع الخاكيم
وجامع السلطان بالشرابشين ، وقد حزن عليه الناس لقمعه الفرنج لا بفتنة
من ذلك ليل نهار (٢) إلا أنه بعد موت بايزيد الثاني وتولى ابنه سليم العرش
حدث بينه وبين الغورى توتر شديد فوهد وتهديد ، واختلفت لهجة
المراسلات بين الطرفين ثم حدث الصدام الذي قضى على دولة المماليك
في النهاية (٣) .

واقعه ولى التوفيق ٩

د . مجاهد توفيق الجندى

(١) راجع بدائع الزهور ٣/٢٠١ ، حيث وصلت عدة مراكب مشحونة بالأسلحة
كان قد طلبها الغورى من القناتيين فلم يقبلوا الخن وأرسلت هدية .

(٢) بدائع الزهور ٤/٢٧٠ .

(٣) د . سعيد حافور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، ص ٣٣٩-٣٤٢ .

ملحق رقم (١)

جاء بمحجة وقف الأميرة نيجوان هانم الصادرة أمام محكمة نجر الاسكندرية في ربيع الأول ١٣٢٨ هـ الموافق ١١/٣/١٩٢٠ مآباً :
والنصف الباقي من الربيع يقسم إلى ثلاثة أقسام تلك بصرف على طلبية
العلم الشريف من الأتراك والجراكسة الموجودين برواق الأتراك بالأزهر
المقيمين الفقراء والمعتقلين بطلب العلم بالأزهر ومن يكون مشغلاً منهم بطلب
العلم بالأزهر وكان مقيماً بأحد المساجد الموجودة بمصر أو بإحدى التكايا
بها يستحق حسب ما يراه من يكون شيخاً على رواق الأتراك من طلبية المعلم
والعلماء والفقراء منهم ومن يكون عالماً منهم يستحق مثل طالبين تلميذاً
لهم ، والثالث الثاني بصرف على من يكون من العلماء الفقراء المدرسين بالأزهر
الذين لا تفي رواتبهم بما يكفيهم وعائلتهم فإن لم يوجد من العلماء الفقراء فلمن يكون
من طلبية العلم بالأزهر الفقراء حسب ما يراه من يكون شيخاً على الأزهر ،
وبتاريخ ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٥ كتبنا بشأن إرسال استحقاق المشيخة في
هذا الوقف عن صفى ٥٣ و ١٩٥٤ .

وبتاريخ ١/٢/١٩٥٦ ورد كتاب الوزارة رقم ٢٥٧ ومرفق به الشيك

رقم ٥٠٦٣١٤ مبلغ ٢٩٤٤/٧٦٦ ^{مليم جنيه} وموضح بالكتاب أن هذا المبلغ هو قيمة
صافي ما خص طلبية العلم الأتراك والطلبة الفقراء في وقف الأميرة نيجوان
هانم من سنة ١٩٥٤ ومرفق به كشف حساب هذا الوقف من السنة المذكورة

وبالإطلاع على هذا الكشف تبين أن ماورد للمشيخة وقدره ٢٩٤٤/٧٦٦
يوازى في صافي الربيع وبالرجوع لشرط الموافقة تبين أن استحقاق الأزهر
في هذا الوقف هو في ما يبق من غلة الوقف بعد أشياء ينفذها الواقعة في حجة
وقفها ومن هذا يتبين أن المقدار الوارد للمشيخة يتقص من المستحق بمقدار

^{مليم جنيه} ١٦٤٩/٦٢٤ مع الإحاطة بأن دائرة الوقف قبل أن تسلم الوزارة لأهليته

واظبت على تسديد حصة الأزهر كاملة بواقع ١٢/٢/١٩٥٦ فاضل الربع اغاية سنة ١٩٥٢ ولهذا طلبت من وزارة الأوقاف في ١٢/٢/١٩٥٦ إرسال باقي الاستحقاق عن سنة ١٩٥٤ وبيان السبب الذي لم تسدد الوزارة المستحق للأزهر عن سنة ١٩٥٣. فجاء رد الوزارة رقم ٢٤٨ فيعيد أن ماورد للأزهر هو الاستحقاق بعد أداء المرتبات لمن يبيتهم الواقعة بحجة وقفها وجاء رد آخر بتاريخ ٢٣/٤/١٩٥٦ بأن المبالغ الميينة بكثف الحساب هي كل ماخص المشيخة بحق ال ١٢ وليس لدى الوزارة أية مبالغ أخرى سواء .

وقد اعترضنا بعدة مكاتبات على هذه الردود وأرفقنا بها كشف حساب مبين فيه مقدار الثلث على أساس صافي الربع الوارد بكثف حساب الوزارة فورد في ٣١/٥/٥٦ مايقيد أن المبالغ المخصصة للأزهر في ربيع هذا الوقف ليست مبالغ معينة بالشرط وإنما تتوقف على ربيع الوقف أما بالزيادة أو بالنقصان وأن المبلغ المبين في كشف الحساب الوارد من الوزارة هو ماخص الأزهر في فاضل ربيع سنة ١٩٥٤ حسب الإيرادات التي دخلت في حسابات هذه السنة. ومن هذا يتبين خطأ الوزارة في تقدير ١٢ صافي الربع حسب العملية الحسابية السليمة ولا دخل للزيادة والنقصان واستبعاد المرتبات الأخرى من الشرط. أما فيما يتعلق بعدم سداد الربع عن سنة ١٩٥٣ فقد جاء بكتاب دائرة الوقف رقم ٢٤ المؤرخ ٢٨/٤/١٩٥٤ بأن الوزارة تسلمت أعيانه بمقتضى القانون رقم ٤٢٨ وهي المسئلة عن ربيع هذه السنة وبمطالبة الوزارة بهذا الربع أجابت في ٢٧/٢/٥٦ رقم ٣٤٨ أنه لم يتحصل ربيع هذا الوقف سنة ٥٣ وإسأل عنه الدائرة السابقة فكتبنا بعد ذلك للدائرة عدة مكاتبات ولكن هذا المكاتبات أهدت المشيخة ومؤشر عليها من مصلحة البريد بأن الدائرة المذكورة نقلت إلى مكان آخر وليس لدى قسم حسابات الأوقاف عنوان آخر لها .

نمرض الامر للنظر والامر بما يتبع صفر ١٢٧٦ هـ - سبتمبر ١٩٥٦ م .
١ - يكتب لديوان المحاسبة لإرسال أحد السادة المفتشين لبحث هذا الموضوع من واقع كشوفات التحصيل .
٢ - يكتب لمعهد إسكندرية للبحث مرة أخرى عن مقر هذه الدائرة .

ملحق رقم (۲)

| رد | رغیف | الاسم |
|----|------|--|
| ۱ | ۴ | الشیخ محمد أفندی أمين الشجيمی شيخ الرواق |
| ۱ | ۴ | جرکسی عبد القادر قانی بن بشاف (ضم له رفیف) |
| ۱ | ۴ | د احمد حیدر |
| ۱ | ۴ | د قبرصل مصطفی سالم بن احمد |
| ۱ | ۴ | د جرکسی حسن بن علی |
| ۱ | ۴ | د جرکسی عثمان بن حسن المهدی |
| ۱ | ۴ | جرکسی اسحاق رمزی |
| ۱ | ۴ | قبرصلی رجب أفندی بن احمد |
| ۱ | ۴ | جرکسی محمد علی تیاغلی بن صالح |
| ۱ | ۴ | جرکسی صالح بن سماج |
| ۱ | ۴ | اورنگه لی حسین بن حسین |
| ۱ | ۴ | جرکسی محمد بن عثمان حسن المهدی |
| ۱ | ۴ | داغستانلی احمد بن محرم |
| ۱ | ۴ | استامبولی مصطفی صایم |
| ۱ | ۴ | قبرصلی عثمان اسماعیل |
| ۱ | ۴ | داغستانلی محمد بن أمير حمزة |
| ۱ | ۴ | آزمیرلی سلیمان بن خليل |
| ۱ | ۴ | طرابزونلی محمد عارف بن حمید |
| ۱ | ۴ | جرکسی یوسف بن احمد |
| ۱ | ۴ | جرکسی عبد العزیز بن شعیب |

| عدد | رغیف | الاسم |
|-----|------|--|
| ۱ | ۴ | قزاقی ابو النصر بن عبد الغنی |
| ۱ | ۴ | جرکسی مومنی صالح |
| ۱ | ۴ | د احمد بن شجرتوقه |
| ۱ | ۴ | قوزیه لی محمد بن اطنه لی اوغلی علی آفندی |
| ۱ | ۴ | ایطالیه لی مصطفی نقاشی بن مصطفی |
| ۱ | ۴ | جرکسی عبد الحمید بن طاهر |
| ۱ | ۴ | داغستانی علی بک بن محمد |
| ۱ | ۴ | د احمد بن محمد |
| ۱ | ۴ | جرکسی عبدالله علی شویان |
| ۱ | ۴ | د عبدالله بن اسحاق |
| ۱ | ۳ | اطنه لی علی بن مصطفی |
| ۱ | ۳ | بلغاری علی بن حسن هزار علی اوی |
| ۱ | ۳ | استامبولی ایوب بن محمود |
| ۱ | ۳ | کوتاهیل سلیمان بن اسماعیل |
| ۱ | ۳ | جرکسی رمضان بن قاص |
| ۱ | ۳ | ایدین محمد بن حسام |
| ۱ | ۳ | توة ملا علی ارغلی مصطفی بن حسن |
| ۱ | ۳ | بوسنه لی محمد بن عثمان |
| ۱ | ۳ | استامبولی ابراهیم بن حسن |
| ۱ | ۲ | سلانیک مصطفی بن علی |
| ۱ | ۲ | استیالی بن مدرکری |
| ۱ | ۲ | انقروی مصطفی صالح |
| ۱ | ۲ | ایدین احمد حسن |
| ۱ | ۲ | جرکسی خالد بک |

| الاسم | مدد | رغیف |
|---------------------------------|-----|------|
| ایبستانی ابو بکر بن احمد | ۲ | ۱ |
| جرکسی حضر عیداقه | ۲ | ۱ |
| د حسین شعیب | ۲ | ۱ |
| اٹنہ لی محمد بن مصطفیٰ | ۲ | ۱ |
| جرکسی ہارون اسحاق | ۲ | ۱ |
| داغستانی علی ابراہیم خلیل | ۲ | ۱ |
| جرکسی حافظ علی ناخو موسیٰ | ۲ | ۱ |
| د علی شامل اسحاق | ۲ | ۱ |
| انالوک کولری مرزا کو | ۲ | ۱ |
| جرکسی علی موسیٰ سارکو | ۲ | ۱ |
| د محمود عبد البکریم | ۲ | ۱ |
| د آقا جروہ امی احمد | ۲ | ۱ |
| ایبستانی محمد حاج عثمان | ۲ | ۱ |
| سیواسلی الحاج عمر حسین احمد | ۲ | ۱ |
| مناستریولی اسماعیل بیوت | ۲ | ۱ |
| مناستریولی شعبان محمد علی عمر | ۲ | ۱ |
| مناستریولی خلیل محمد علی عمر | ۲ | ۱ |
| ارض روملی طورسون محمد شریف | ۲ | ۱ |
| استامبولی احمد علی حسین عیداقه | ۲ | ۱ |
| عشاق مصطفیٰ عثمان | ۲ | ۱ |
| جرکسی احمد توفیق ابدار | ۲ | ۱ |
| مناستریولی اطرن شکری احمد | ۲ | ۱ |
| سلانکی احمد مصطفیٰ یوسف | ۲ | ۱ |
| قرانی منہاج الدین اسماعیل | ۲ | ۱ |
| مناستریولی نعمان حاجی عمر نعمان | ۲ | ۱ |

| الاسم | رہیف | عدد |
|-------------------------------------|------|-----|
| قوانلی ملیان ملاخان | ۲ | ۱ |
| جرکسی محمد توفیق داود | ۲ | ۱ |
| پولی سفجافی محمد سعد الدین حاجی علی | ۲ | ۱۰ |
| ایدین سلیمان ابراہیم | ۲ | ۱۰ |
| قونیہ لی علی محمد کریم | ۲ | ۱۰ |
| جرکسی ہابیل اصلان زاوور | ۲ | ۱ |
| ایدین ایوب حاجی موسی زکریا | ۲ | ۱۰ |
| کورتا ہیلی اسماعیل حق اسمیل | ۲ | ۱۰ |
| اسکوپہ عبد الرحمن بن مواد | ۳ | ۱۰ |
| بشانی | ۳ | ۱۰ |
| قونیہ لی مصطفی عثمان | ۳ | ۱ |
| جرکسی علی یوتہ | ۳ | ۱۰ |
| د اسحاق ابراہیم | ۳ | ۱۰ |
| د زکریا احمد | ۳ | ۱۰ |
| د مصطفی بن داؤ عثمان | ۳ | ۱ |
| طراپز نی عثمان محمد عثمان | ۳ | ۱۰ |
| جرکسی اسعد بن الیاس | ۳ | ۱۰ |
| د علی بن احمد | ۳ | ۱۰ |
| قونیہ لی محمد بن عثمان | ۳ | ۱۰ |
| د احمد بن الحاج محمد | ۳ | ۱۰ |
| د عمر بن عثمان | ۳ | ۱۰ |
| ددرتہ لی علی رضا | ۳ | ۱۰ |
| جرکسی شعبان بن حاجی عبد اللہ | ۳ | ۱۰ |
| قنیہ لی عبد الوہاب بن علی | ۳ | ۱۰ |

| الاسم | رقیف | عدد |
|-----------------------------------|------|-----|
| جرکسی أسعد بن أحمد | ۲ | ۱ |
| سیوسلی مصطفی بن مصطفی | ۲ | ۱ |
| جرکسی حاجی نرحان بن السید علی | ۲ | ۱ |
| قوفیة لی علی زکی | ۲ | ۱ |
| ازمیری محمد بن سلیمان | ۲ | ۱ |
| جرکسی عبد القادر بن إسحاق رمزی | ۲ | ۱ |
| د عبد بن عبد الله | ۲ | ۱ |
| أطنه لی محمود بن عبد الله | ۲ | ۱ |
| طرا بزوئی اسماعیل عثمان | ۲ | ۱ |
| اسکویه رفیق بن عبد الرحمن | ۲ | ۱ |
| أرض روملی سعید بن حسین | ۲ | ۱ |
| قسطنون حسین اسماعیل | ۲ | ۱ |
| جرکسی عثمان کولی ار النافوقی | ۲ | ۱ |
| دودسلی ماهر بن حسن | ۲ | ۱ |
| رودسلی محمد ثغری بن عبد الحمید | ۲ | ۱ |
| شمس الدین بن حاجی مصطفی طرا بزوئی | ۲ | ۱ |
| طرا بزوئی حسین بن عثمان | ۲ | ۱ |
| أطنه لی مصطفی عثمان | ۲ | ۱ |
| مناستری علی بن أحمد | ۲ | ۱ |
| ملا طیه لی حسن بن حسن | ۲ | ۱ |
| أطنه لی حاجی صاری حسین | ۲ | ۱ |
| د حسین منلا بکر | ۲ | ۱ |
| د مصطفی مصطفی ابراهیم | ۲ | ۱ |
| د علی منلا علی أحمد | ۲ | ۱ |
| د خلیل طر و مش همت | ۲ | ۱ |

| الاسم | رقیف | عدد |
|----------------------------------|------|-----|
| قونية لی عمر شاکر | ۲ | ۱۰ |
| جرکسی علی رضا یوسف | ۲ | ۱۰ |
| د ابراهیم حکاکشه موسی | ۲ | ۱۰ |
| د فوزی شعیب | ۲ | ۱۰ |
| د محمد صالح شو جنوقه | ۲ | ۱۰ |
| د یعقوب عبد الجلیل | ۲ | ۱۰ |
| قوانلی حمزه طاهر عارف | ۲ | ۱۰ |
| کوتا هیل بی اسما هیل سلیمان | ۲ | ۱۰ |
| داعستانی محمد سیله | ۲ | ۱۰ |
| ترکستانی محسن یونس محمد یوسف | ۲ | ۱۰ |
| د عبد المؤمن بن اکرم | ۲ | ۱۰ |
| قزاقلی عبد السلاح العظیمی | ۲ | ۱۰ |
| جرکسی حسین بن اسحاق رمزی | ۲ | ۱۰ |
| د مصطفی محمد | ۲ | ۱۰ |
| د عبد المنعم بن عثمان حسن المهدی | ۲ | ۱۰ |

أرباب الوظائف

| | | |
|-------------------------------|----|----|
| الشیخ أمين السحیمی شیخ الرواق | ۱۶ | ۱۰ |
| مدير کتبخانه الرواق | ۴ | ۱۰ |
| معاون الوقف | ۸ | ۱۰ |
| أمام الرواق | ۴ | ۱۰ |
| مبلغ الرواق | ۴ | ۱۰ |
| جاني الوقف | ۹ | ۱۰ |
| کاتب الوقف | ۱۰ | ۱۰ |
| کاتب الرواق | ۱۰ | ۱۰ |

| الاسم | عدد | رغيف |
|----------------------|-----|------|
| قراش الرواق | ٩ | ١ |
| تقيب الرواق | ١١ | ١ |
| إجمالي جرايات الرواق | ٤٤٦ | ١٤٥ |

| | رغيف | رغيف |
|---------------|------|------|
| من الأوقاف | ١٢٨ | ١٢٨ |
| د مصطفى أفندي | ٧ | ٧ |
| د عثمان باشا | . | ٨٦ |
| أحمد باشا | ٢٢ | ٢٢ |
| د حسين باشا | ٦٦ | ٦٦ |
| د يعقوب باشا | ٤٣ | ٤٣ |
| د عفيفه هانم | ١٨ | ١٨ |
| د النشوران | ١١ | ١١ |

المنهج التاريخي في كتابات سالم بن حمود السبائي

بقلم الدكتور

محمد صابر إبراهيم عرب

أستاذ مساعد التاريخ العربي الحديث

تعريف بالشيخ السبائي :

هو الشيخ سالم بن حمود بن شامس بن خميس بن علي بن هبيد السبائي .

مولده ونشأته :

ولد بقرية دغلا ، التابعة لبوشر سنة ١٣٢٦ هـ ، ١٩٠٨ م حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ثم انتقل إلى سمائل ، حيث درس على الشيخ خلفان بن جميل السبائي أصول الدين والفقه كما درس على الشيخ أبا هبيد حمد بن هبيد السليمي كما جالس الإمام الرضوي محمد بن عبد الله الخليلي مما أتاح للشيخ السبائي فرصة واسعة للتزود من الثقافة الإسلامية وكان لتنوع معارفه أكبر الأثر على تنوع كتاباته ما بين الفقه واللغة والأدب والتاريخ .

الوظائف التي شغلها :

عمل مدرسا بولاية بوشر ثم قاضيا لنفس الولاية ثم عمل واليا وقاضيا على نخل ثم واليا على جعلان بن بو حسن ثم استدعي إلى مسقط في عهد السلطان سعيد بن تيمور ، حيث عين رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم انتقل واليا على السيب ثم قاضيا في المحكمة الشرعية بالعاصمة .

وفي ١٩٨٢ نقل إلى وزارة التراث القومي والثقافة ليتفرغ لكتابة وتحقيق الكتب الفقهية والتاريخية والأدبية .

أهم مؤلفاته :

كتب الشيخ السيابى أكثر من خمسين مؤلفاً في كل مجالات الثقافة العربية والإسلامية لعل من أهمها :

- ١ - إرشاد الأنام في الأديان والأحكام (عشر مجلدات) .
- ٢ - العقود المفصلة في المسائل الموصلة (مجلدان) .
- ٣ - العرى الوثيقة شرح كشف الحقيقة في المذهب الإباضى وأصوله .
- ٤ - جوهر التاريخ المسمى في سيرة الرسول الأعظم .
- ٥ - العنوان في تاريخ عمان (مطبوع) .
- ٦ - الحقيقة والحجاز في تاريخ الإباضية باليمن والحجاز (مطبوع) .
- ٧ - إزالة الوغى في اتباع أبى الصغناء (مطبوع) .
- ٨ - طلاقات الممد الرياضى في حلقات المذهب الإباضى (مطبوع) .
- ٩ - عمان عبر التاريخ (مطبوع في أربع مجلدات) .
- ١٠ - فصل الخطاب في السؤال والجواب .
- ١١ - العقود المفصلة في الأحكام الموصلة (مطبوع) .
- ١٢ - العقود المنظمة في الخيل المصومة (مطبوع) .

مفهوم التاريخ عند الشيخ السيابى :

لقد ارتبطت الكتابة التاريخية عند المسلمين منذ صدر الإسلام بالعلوم الدينية ، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في السيرة النبوية وفي أنساب النخاسى وفي أنساب القبائل العربية وفي الطبقات وفي التراجم لرجال الفقه والحديث وكبار الصحابة وعلى هذا النهج مضى شيخنا السيابى مستلهماً ففضل التاريخ وأهميته ، مشيراً إلى دوره في حفظ قصص النبيين ورسالات المرسلين وكيف أنه حفظ لنا تاريخ الأكامرة والقياصرة ودون لنا أعمال الأمم ، سواء في إقتصاراتها أو هزائمها ثم يترجم دوافعه العربية بصديق

شديد حيث يقول « وهل تعلم لولا التاريخ ما فعل أئمتنا الأولون وما عمل أهل الحق ، والعلماء الأكرمين (١) » .

لقد جمع الشيخ السبائي بين علوم الشريعة واللغة والتاريخ وعلى الرغم من ثقافته الشرعية واللغوية الواسعة إلا أنه لم يفضل أهمية التاريخ ومكانته بين العلوم الإسلامية على إعتبار أن القرآن الكريم قد جاء بنظرة عالمية إلى التاريخ ممثلة في تتابع النبوات إضافة إلى حرص القرآن الكريم على التأكيد بأن سيرة الرسل مثل المسلمين يقتدون بها وكان لهذا التأكيد أثره في عناية العرب بدراسة السيرة النبوية ودراسة حياة الرسول (٢) .

وعلى الرغم من أن الدراسات الأولى لحياة الرسول قد سميت باسم المغازي على اعتبار أنها تعنى دراسة أعمال الرسول الحربية إلا أنها في حقيقة الأمر تشتمل على عصر الرسول كله (٣) .

وتأكيداً على أهمية التاريخ ودوره في إثراء التجربة الإنسانية ينقل الشيخ السبائي رأى ابن خلدون في التاريخ قائلاً : « إن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال وثقافس فيه الملوك والأقبال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى ، تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وتطرق بها الأندية إذا غصها الاحتفال وتودى إلينا شأن الحليفة كيف تغلبت بها الأحوال ، واتسع الدول فيها النطاق والجمال وعمرها الأرض

(١) سالم بن حمود السبائي ، عمان عبراً ط ٥ ص ١٦ سلطنة عمان ١٩٨٦

(٢) د / السيد عبد العزيز بسالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ص ٢٦
الإسكندرية ١٩٨٧

(٣) عبد العزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٩ ، ٢٠

حتى نادى بهم الإرتحال وحان لهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل
للسكانتات ومبادئها دقيق وعلم بحكيفيات الوقائع وأسبابها عريق ، فهو لهذا
أصيل في الحكمة عريق .

وهذا القوم الدقيق من الشيخ السياني لطبيعة التاريخ ووظيفته وفقا
لرواية بن خلدون يؤكد بأن الشيخ على وعى حقيقى لطبيعة التجربة الإنسانية
فهو في باطنه (التاريخ) نظر وتحقيق أى تفكير وتدبر في طبائع البشر
وتكوين المجتمعات وتحليل دقيق للحوادث ونتائجها ، ولذا فهو كما يقول
إبن خلدون « أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها خليق »
والحكمة في المعارف العربية هي أعلى مراتب العلم وقد قرنها الله سبحانه
وتعالى في القرآن الكريم ثمانى مرات وعبارة الكتاب والحكمة ، عبارة
قرآنية لا تزال تتردد في الأسماع والقلوب .

لقد بالغ العلماء ككثيرا في تحميل بن خلدون مسئولية إدراج التاريخ
بين الفنون دون إعتباره علما تتوافر فيه كل مواصفات العلم . باعتبار أن
الفن أقل منزلة وأهمية من العلم الذى هو معرفة أكيدة .

لعل مواصفات العلم والفن لم تكن دقيقة في نظر بن خلدون فهو تارة
يقول عندما أفرد فصلا عن فائدة التاريخ « في فضل علم التاريخ وتحقيق
مذاهبه الخ .. وتارة أخرى يقول وفي نفس الفصل : « اعلم أن فن التاريخ
فن مزيج المذهب الخ .. » وأعتقد أنه لم يكن يفرق بين طبيعة الفن وطبيعة
العلم وليس كما يعتقد بعض المؤرخين^(١) من أنه كان غير مقتنع تماما بأن
التاريخ علم مستكمل لاشراط العلوم .

ولعل الشيخ السامى قد تجاوز هذه الإشكالية ، مستهدا على وجهة نظر
الشيخ نور الدين السامى باعتبار أن علم التاريخ بما يصير على الاقتداء بالصالح

ويرشد إلى طريقة المتقين . ثم يعود الشيخ السيادي مؤكداً على أن التاريخ سر من أسرار العلوم الكونية وضع الله أصوله في كتابه العزيز حيث قال : « أولم يأتيهم نبا الذين من قبلهم قوم نوح وهاد وثمود إلخ ... » .

ومن المؤكد أن الشيخ السيادي لم يقصر أهمية التاريخ على معرفة سيرة الأنبياء والمرسلين وحياتهم باعتبارهم قدوة صالحة لذلك الأجيال فقه وإنما باعتباره أيضاً تجربة إنسانية جديدة بالدراسة في محاولة لفهم الإنسان طبيعة الحياة على وجه الأرض ، لعل هذا المعنى لم يكن خافياً على الشيخ السيادي ، حيث استشهد بتجربة الإمام الساملي قائلاً : « لما أراد الإمام الساملي إعادة الإمامة .. قام بنشر تاريخ عمان حيث عرف العمانيون تاريخ أسلافهم وأعمال آبائهم فبهوا منشوقين إليها وكذلك طبع دواوين الشعر الحماسي الداعي إلى نبذ الخلول واعتناق النشاط فكان ذلك من أعظم عوامل النهوض بالامة .. كل ذلك بفضل دراسة الأبناء لسالف الآباء إلخ » (١) .

لعل ما يقيد الشيخ السيادي هو التجربة الإنسانية التي لها وقع هائل على حياة البشر ، مهما كانت هذه التجربة متواضعة ، فلا توجد في التاريخ حوادث كبيرة وأخرى صغيرة لأن الحوادث الكبيرة إنما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها إلى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق . كما أن السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار فإن وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة مشا كل بشرية وسياسية وثراكتها وتناهي الخصومات والحزازات وتصادم المصالح والأهواء مرة تلو أخرى وهكذا .

والتجربة الإنسانية التي وجبها السيادي أراد أن يعضها أمام معاصره بهدف إبراز دور المذهب الإباضي في تجسيد القضايل والتضحية في سبيل الدين والوطن ولعله لا يختلف في هذا من مرحان الأركوي ، الذي نجح في التاريخ للمذهب من خلال تاريخه لعمان ويعترف بذلك قائلاً : « لقد اصنفت هذا

(١) سالم بن حمود السيادي ، عمان عبر التاريخ ، ص ١٠٣ .

المكتتاب وجهلت ظاهرة في القصص والأخبار وباطنه في المذهب المختار...
سمى أنهم لأصروهم يعرفون ولاهل الحق بالحق يعرفون^(١).

وكذا فعل الشيخ السياب في محاولة ناجحة لإبراز أهمية العقيدة الدينية في سلوك الأفراد حكما وعكس حيث يقول : « إن ذكر التاريخ عموما أو تاريخ عمان على الأخص - يهدف أن يتحدث الناس عن أعمال الرجال كمثل أو عن الأعمال الفاضلة التي يعتمد عليها الرجال المعينون بحب لوطنهم أو باستقامة دينهم أو بسعادة شعوبهم^(٢) ».

وشرح أحوال المجتمع العماني وحوامل قوته وضعفه ، ولذا فقد تميزت كتاباته بالبساطة والسهولة والوضوح والسلاسة فضلا عن عنايته بتحليل ودراية كثير من الموضوعات بطريقة يحمدها عليها .

وفي سبيل ذلك طاف الشيخ السياب باحثا ومنقبا مستلها معايرته من ثقافته الواسعة ومن قراءاته في أممات الكتب ومن شهادات مشيوخ والمعاشرين للأحداث ولذا فقد جاءت كتاباته التاريخية وأقية شاملة مع ملاحظة أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الحقيقة المعالقة لأن هذا أو أواخر مستطاع لأسباب كثيرة مثل قلة المراجع واختلاف وجهات النظر حول القضية الواحدة ولا يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة ذاته ، حتى يعرف حقيقة غيره ، فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ دوها هي حقيقة نسبية كلما زادت نسبة الصدق فيها اقرب التاريخ من أن تصبح تاريخا بالحق الصحيح .

واللافت لنظر في كتابات السياب أن التاريخ عنده يؤدي وظيفة تعدي

- (١) سرحان بن سعيد الاز كوى تاريخ عمان المتنبس من كتاب كشف النسي
لجامع لأخبار الأمة تحقيق عبد الحميد القيس ص ٣ .
(٢) السياب ، مرجع سبق ذكره ص ٣٦ .

مدلول التجربة السامية إلى التجربة الخاصة القائمة على فكرة الإيمان فضدهم الحكم دائماً مرجعه إلى بعد من سيرة السلف الصالح ومن ثم لإنهيار الدولة ولأن حركة التاريخ مستمرة فمن بين الظلام تنبثق الحقيقة من خلال رجال وهيرا أنفسهم دفاعاً عنها - وإيماناً من السباني بأهمية العقيدة ودورها في حركة التاريخ فإننا نلص ذلك بكل وضوح من خلال كتاباته جميعها حيث يحاول أن يجسد هذه الحقيقة من خلال فهم حقيقى لحركة التاريخ باعتباره ميداناً واسعاً وأن مادته متسعة كاتساعه .

وبلاحظ أن الأساطير من أم أنوار الروايات الشفوية و يوجد عصر أساطير في تاريخ كل أمة مثل أساطير قدماء المصريين وأساطير الفرس والهنود واليونان والرومان إلخ وفي عهود الحضارة تستمر الأساطير الشعبية وغالباً ما تشكل كما من الروايات ذات التأثير في أذهان الناس وحينئذ تبدأ أمة من الأمم في تدوين تاريخها بأسر ب قدر من الروايات الشفوية ، حيث تختلط بالحقائق وعلى ذلك تنشأ النواذر أو القصص المسماة بالأساطير مثل الإلهاعات والأوعام^(١) إلخ .

ولما كان السباني من الجيل الذى يعنى بالثقافة الإسلامية عموماً ، لذا فإنه كان تصنيفه على اعتبار أنه ينتمى إلى ما يعرف بشمولية المعرفة ، حيث يختلط التاريخ بالفقه وغالباً ما يحاول أن يؤصل قضية فقهية ومن ثم فلا بد من العودة إلى القرآن والحديث وهكذا تتفاهل المعارف الإسلامية ولذلك فن الصعب وضع كتابات السباني التاريخية أمام منهج تاريخى محدد بحكم ارتباطها بكثير من المعارف الإسلامية .

وعموماً فإن رؤية السباني للتاريخ تعد رؤية عالمية مستمدة من القرآن الشكريم الذى أنى بأمنه لشعوب وحضارات وملوك ورسل وأنبياء وكان

لهذه النظرة أثرها العميق في اهتمام كتاب العرب عموماً بدراسة تاريخ الرسل والأنبياء يضاف إلى ذلك أن القرآن نص على أن سيرة الرسول مثل المسلمين يقتدون به وقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول باسم المغازى وعلى الرغم من أنها تعنى لغوياً بدراسة أعماله الحربية إلا أنها في الحقيقة تشمل عصر الرسول كله^(١).

ولما كانت العقيدة الإسلامية هي محور الاهتمام الأول عند العرب فقد جمع كثير من أئمة المسلمين بين الفقه والتاريخ فكان الطهري وابن كثير يجمعان بين التفسير والحديث وكان شمس الدين السخاوي يجمع بين الفقه والتاريخ ولعل وجهة نظرهم كانت قائمة على أساس على حتى يصبح التاريخ على هذا النحو وسيلة لفهم الشريعة ولا يمكن معرفة تاريخ شعب من الشعوب إلا بمعرفة عقيدته الدينية ولذلك فلا تعد كتابات السبائي في مذهب أهل عمان^(٢)، من قبيل إفعام المذهب في التاريخ، بل يعد التاريخ اتجاهاً طبيعياً للمذهب وهي حقيقة أساسية يصعب تفسير أحداث التاريخ بدونها ولقد أدرك السبائي هذه الحقيقة حيث قال : « لما كان تاريخنا هذا خاصاً بهمان وحوادثها ».

وأينا أن نذكر مذهب أهل عمان حتى يكون تاريخنا هذا آخذاً من كل شئون عمان^(٣)، ولعل هذا يتطابق مع المفهوم العام للتاريخ والذي يعنى بدراسة كل ما يطرأ من تغير على حياة البشر وكل ما يطرأ من تغير على الأرض أو في السكون متصلاً بحياة البشر.

(١) د. السيد عبد العزيز سالم، نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٣، ٢٠.

(٢) سالم السبائي، سبق ذكره ج ١ ص ١٥٤ - ٢٠٣.

(٣) نفس المرجع ص ١٩٤.

ولا يمكن فهم طبيعة العلاقة بين عمان عاصمة الخلافة الإسلامية إلا من منطلق ديني ، فعمان جزء من الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء وأهل عمان دعاة للإسلام وجنود للدعوة في كل مكان إلا أن الموقف يختلف منذ عصر معاوية ، حيث اختلفت صورة الخليفة ومن ثم اهتزت أركان الدولة ، حيث يمنح الأمويون سياسة جديدة مغايرة لسيرة الخلفاء ومن أجل العقيدة فقط تغيرت أهل عمان بالخلافة الأموية ومن ثم يمكن تفسير حركة التاريخ من هذه الوجهة وهو أمر لا يمكن فهمه إلا من منطلق ديني .

ثم يتناول السيابي هذه الحقيقة بقوله : « لما رأى العانيون تدهور صرح الأيوبيين قاموا يديرون الرأي بينهم في الانفصال عن القوم ، فرأوا أن نطاق الإسلام قد توسع وأن روافده قد امتدت وأن سلطانه قد قوى ودخل في حظيره ملوك واحتوى على أقاليم .. ورأوا أن سلطان المسلمين ظالما الخ ، رأى العانيون ضرورة إقامة إمام لهم ونظروا فيمن هو الأصح لهذا الأمر الجسم .. حتى وقعت خبرتهم على الجلندي بن مسعود ،^(١) واللائق للنظر في هذا النص الذي أورده السيابي أن محور الإتفاق أو الإختلاف هي العقيدة الإسلامية ومدى التزام الخليفة بها ، وحيث أن الأمويين قد بدلوا وأباحوا لأنفسهم بما يتعارض مع الإسلام فكان لابد من التدبر في الأمر وإعاده النظر في علاقة أهل عمان بدار الخلافة إضافة إلى ما يشير إليه السيابي من أن أهل عمان لم يقدموا على هذا الموقف إلا بعد أن استقر الإسلام وثبتت دعائمه وههنا إشارة ذكية من السيابي حتى لا يتحمل العانيون مسؤولية الانفصال عن دار الخلافة .

وإذا كانت العقيدة الإسلامية هي الدافع لكي يكتب السيابي كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ » ، فلا يمكن أن ننحى الدوافع الوطنية جانبا لأن سيرة عظماء الرجال ونجارب الأجيال موضوع هام ومطلوب دائما لأن

(١) نفس المرجع ص ٢٢٧ .

النفس الإنسانية تميل دائماً إلى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال وهو نوع من الحوار التاريخي بين الحاضر والماضي ، وحتى تعرف أين أخطأوا لكي لا تقع فيما وقعوا فيه . ومن هنا يجوز لنا أن نقول إن الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآه الجيل السابق علينا وكما يراه الجيل الذي سيأتي بعدنا ومن هنا يصدق القول بأن للأمة الواحدة أكثر من تاريخ ولهذا لا بد لسلك عصر أن يكتب التاريخ من وجهة نظره وهذا لا يقلل من المكتابات السابقة أو من كتابتنا التي ستتحول إلى تراث في المستقبل ولعل المستقبل ينسب من كم من المخطوطات والوثائق التي تفصح للمؤرخ رؤيا أفضل وتحليل أدق ولذلك فإن كتابات السياني والسالمي وابن زريق وغيرهم هي أساس لا بد منه وعلى الأجيال الشابة الواعدة من العمانيين المتحمسين لمعرفة الحقيقة أن يواصلوا وكما قلت فالحقيقة التاريخية دائماً ليست مطلقة وإنما هي نسبية تختلف من شخص لآخر ومن جيل لجيل . . وفقاً للمصادر وأدوات البحث ومقدرة المؤرخ على التحليل والتفسير ولذلك فلن تكون كتابات السياني إلا سلسلة من المكتابات التي تكمل ما قبلها وتكون أساساً لما بعدها .

موضع كتابات السياني من المؤرخين المسلمين

لقد تميزت الكتابة التاريخية في القرن الثاني الهجري بثلاث مظاهر أساسية أولها : انفصال الأخبار بينها واستقلالها ، ثانيها : الطابع القصصي الذي لا يخلو من الحوار غالباً ، ثالثاً : الاستشهاد بالشعر ولم يلبث المؤرخ المسلم أن تحرر تدريجياً من طريقة الإسناد التي كانت تلزم المؤرخ بأن يكون مجرد أخباري ، أي ناقل للخبر ، إلى الكتابة المرسلة التي تعني بالخبر في ذاته ومناقشته^(١) ، وبينما كان الطبري ومن سبقوه يهتمون اهتماماً خاصاً بالإسناد وتسلسل الرواة ، فقد ظهر فريق من المؤرخين المسلمين ابتعدوا في

(١) دكتور السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون ص ٧٥ ، ٧٦ .

كتابهم عن طريقة الإسناد واكتفوا بإيراد الأخبار غير مسندة إلى أصحابها مثل اليمقوبي والمسعودي واكتفى هؤلاء بذكر مصادر ما فهم التاريخية في مقدمات كتبهم مع دراساتها أحيانا دراسة نقدية كما فعل المسعودي في مقدمة كتابه مروج الذهب ، حيث يشق على كتابة الطبرى وقدامة بن جعفر ويحمل على سنان بن قررة الحراني .

وإذا كانت الكتابة التاريخية تطورت من حيث الطريقة ، فقد تجاوزت أيضا من حيث الأسلوب فبعد أن كان التاريخ يجمع في معظمه موضوعات متنوعة لا رابطة بينها بصلة معتمدا على أسلوب جاف لا يتناسب غالبا وثقافة العامة ، أصبح الأسلوب التاريخي مرصلا بسيطا وواضحا يسكاد يتلو في معظمه من الشعر وكثيرا ما استخدم السجع في الكتابة التاريخية .

ووجد بين مؤرخي المسلمين من استخدم في كتاباته أسلوبا بسيطا سهلا ، تجنب قيد الزخرفة اللفظية والألفاظ الدارجة من أمثال ابن حبان وابن الأثير وابن طحايا وقد أهتم هؤلاء بإيراد المادة التاريخية في عبارات قصيرة توضح الحق المطلوب ، بطريقة سهلة ، ميسرة .

وعمر ما فقد سلك المؤرخون الأوائل في كتاباتهم منهجين ، أولهما : ما يعرف بالتاريخ الحولى أو التاريخ حسب السنين وثانيهما : التاريخ حسب الموضوعات وترتيبها بما يقتضيه وبعضها البعض .

أما المنهج الأول : فقد اعتمد أصحابه على جمع حوادث كل سنة وربطها بكلمة وفيها ، فإذا انتهت حوادث السنة الواحدة إنتقل إلى حوادث السنة التالية ، حيث يضيف ولما دخلت سنة كذا ، أو عندما جاءت سنة كذا ، ومن عيوب هذا المنهج أنه يمزق سياق الحادثة التاريخية ، التي غالبا ما تمتد آثارها إلى السنة التالية أو إلى عديد من السنين وحتى إذا ما عاد المؤرخ لتناول نفس الحادثة في السنة التالية فلأنه يأتم بها منه صلة عما قبلها وقد انتقد شهاب الدين أحمد بن هبيل الوهاب النويرى في مقدمة كتابه (٣٥ - مجلة كلية الآداب)

« نهاية الأرب في فنون الأدب » ، هذه الطريقة الحولية وآثر الكتابة حسب الموضوعات (١) .

والطبرى عدة المؤرخين هو أول مؤرخ وصلنا إنتاجه التاريخي مرتباً حسب السنين منذ بداية التاريخ الهجري ، حتى سنة ٣٠٦ هـ ، ولعل اعتماد الطبرى على الإسناد كان لوفرة مصادره مما جعله مصدر ثقة لمن أتى بعده من المؤرخين مثل مسكويه وابن الأثير وغيرهما .

ويعتقد البعض أن طريقة التأريخ الحولى قد استمدتها العرب من مؤرخى الإغريق والفرس كما استمدوا غيرها من المعارف الفلسفية والرياضية والجغرافية إلخ (٢) .

أما المنهج الثانى : وهو ما يعرف بالتأريخ حسب الموضوعات التى قد تكون إما لدول أو لعمود الخلفاء والحكام وإما للسير والطبقات هكذا كتب ابن خلدون فى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ، ولسان الدين بن الخطيب فى « اللبنة البدرية فى الدولة النصرية » ، ثم الطبقات الكبرى للشعرانى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وطبقات الشعراء لابن المعتز إلخ .

أما شيخنا السيافى فقد اختار نوعاً من الكتابة التاريخية عند العرب بالتأريخ الحولى : حيث يؤرخ لبلده عمان ويقف مصححاً الأخطاء التى ترد عن عقيدتها بطريقة تحقيقية تعليمية تنم عن حب كبير لعمان ولذهبها الأباضى ولعل الرؤية التاريخية جاءت أكثر وضوحاً فى كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ » (٣) ثم تأريخ المذهب الأباضى من خلال ما كتب السيافى فى « أصدق المناهج فى

(١) محمد عبد الفتى حسن ، علم التاريخ عند العرب ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) د . السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سبق ذكره ص ٨٩ .

(٣) سالم بن حمود السيافى ، عمان عبر التاريخ أربعة أجزاء من وزارة التراث

القومى والثقافة سلطنة عمان ١٩٨٦ .

تتميز الأباضية عن الجوارح^(١) ، د طلاقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الأباضى ، ، إزالة الوعاء عن أتباع ابن العشاء .

وهذا النوع من الكتابة هو وليد الشعور بالقومية وتعبير صادق من ارتباط المؤرخ واعتناؤه بوطنه وبثقافته بمذهبه الأباضى وهذا النوع من الكتابة عرف عند المؤرخين المسلمين من أمثال أبو على الحسين السلاوى (ت ٧٤٠ هـ) حيث يقول فى كتابه أخبار ولاية خراسان ، أن الواجب على صاحب المعرفة من أهلها أن يحفظ أيام أمرائها لا شئ أزدى عليه من أن يجعل أخبار أرضه . .

كذلك يعيب أبو الحسن بن محمد الربيع التميمى القيروانى على مؤرخى الأندلس تقصيرهم فى الكتابة عن بلدكم وذلك فى رسالة وجهها إلى ابن حزم القرطبى قال فيها : د لقد كانوا فى غاية التقصير ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلدوا فى الكتب ، أثر بلدانهم وأخبار الملوك والأمراء والوزراء والقضاة والعلماء فأبقوا لهم ذكر فى الفايدين يتجدد على مر الأيام والأيام واسان صدق فى الآخرين بتأكيدهم مع تصرف الأعوام وعلاؤكم مع استظهاركم على العلوم ، كل امرئ منهم قائم فى ظنه لا يبرح وراثب على كعبه لا يترشح ، يخاف إن صنف أن يعنف وإن ألف أن يخالف ولا يؤلف ، أو تخطئه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، لم يتعب أحد منهم نفسا فى جمع فضائل أهل بلده ولم يستعمل خاطره فى مناقب ملوكه ولا سواد قرطاسا بمحاسن قضائه وعلمائه .

ويمكننا أن نبرز الكتابة فى التاريخ المحلى بتيارين واضحين المعالم إلا أنهما متصلان منهما أحدهما تيار دنيوى والثانى تيار دينى .

(١) السباى تحقيق دكتوراه/سيدة الكاشف من مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ١٩٧٩ .

أما الأول فقد ظهرت أنواع منه مثل تاريخ بغداد لأحمد بن ظاهر طيفور (ت ٢٨٨ هـ) وتاريخ المحصل لأبي زكريا يزيد بن إلياس الأزدي. (ت ٣٤٤ هـ) واتسمت هذه الطريقة في الكتابة حيث كتب تقي الدين أحمد ابن علي المقرئ كتابه الشهير : المواعظ والإعتبار بذكر الخطوط والآثار وكتاب : وحسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة د لجلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي (ت ٩١١ هـ) وفي الشام ظهرت أمثلة كثيرة حيث ألقت في تاريخ الشام عموما ومدنها خصوصا كتب كثيرة لا يسع المجال لمصرها .

أما الشيخ السيابى : فقد إنفرد بطريقة مميزة جاءت من الخصوصية التي تتميز بها تاريخ عمان بدءا من القرن الثاني الهجرى حيث كان العدل في عمان من خلال قروها بطابع خاص وإسهامات أصلها في نشر الدعوة الإسلامية في أماكن شتى من فارس آسيا وأفريقيا .

والحقيقة أنه لا يمكن للباحث أن يدرس تاريخ عمان دون أن يفقه على حقيقة المذهب الإباضى من حيث تاريخه وتطوره . وإذا كان عدد كبير من المؤرخين وكتاب الفرق قد خلطوا بين الإباضية والخوارج فإن السيابى لإيمانا منه بحقيقته الصحيحة فقد انهى مداغعا ، شارحا ، عققا من خلال كتابه الشهير : «أصدق المناهج في تمييز الإباضية عن الخوارج» . وبصدق شديد شرح السيابى المذهب الإباضى وجوهره ورخص الكتب العقائدية والتاريخية ، التي تدخل الإباضية ضمن فرق الخوارج وبما أن الشيخ السيابى كان يدرك بأنه يؤرخ العقيدة والمذهب فقد تبسط كثيرا أثناء مرضه حيث جاءت العديد من موضوعات الكتاب على شكل أمثلة طرحها على نفسه وأجاب عنها بطريقة تعليمية مقننة مثل من هم الإباضية ؟ وأين هم ؟ هل لهم مذهب خاص ؟ هل للإباضية في خدمة الإسلام . نصيب (١) الخ ...

(١) سالم بن حمود السيابى ، أحمد المناهج في تمييز الإباضية عن الخوارج ص ١١٦

وما بعدها .

وتبدو ثقافة الشيخ السيابى الواسعة المتعمدة المستمدة من القرآن والسنة النبوية إضافة إلى قراءته الواسعة في كتب التراث الإسلامى عموما وبشعر أحيانا إلى بعض مراجعه التى اعتمد عليها سواء أكانت مؤلفين عماريين أو مسلمين عموما وعلى الرغم مما يتميز به السيابى من إخلاص وإيمان لمذهبه إلا أنه يدعو إلى التقرب بين المذاهب بدلا من إتساع الهوة وإيجاد الفارقة بين أبناء الدين الواحد^(١).

واللافت للنظر مقدرة السيابى اللغوية والفقهية والأدبية ، حيث تجلست براعته في قدرته على ضياغة أحكامه شعرا دون خال أو كل ، دون أن يحس القارىء أن خلا ما قد وقع معتمدا على التشويق بطريقة بارعة تم من حصى أدبى رفيع .

لعل السيابى قد واجه مشكلات كثيرة وهو يؤرخ لمذهبه ، حيث أن المراجع الأصيلة قد اندثرت ولذا فقد اعتمد على كثير من المخطوطات البهاية التى أسهمت وزارة التراث القومى والثقافة في نشر عدد كبير منها إلا أن حامل التقادم قد يكون حائلا دون إظهار الحقيقة كاملة فالمؤرخ الذى يؤرخ لأحداث زمانه قد تطيع روايته بطابع الصدق والدقة أو المؤرخ الذى يعيش في زمن قريب من الأحداث يكون أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصوير الأحداث وتبسيطها وعلى الرغم من أن هذه المشكلة تعد عقبة كبيرة في التاريخ الإسلامى عموما إلا أن السيابى قد نجح في استخدامها ما تحت يده وبطريقة يحمد عليها .

فلو استعرضنا كتابات عدد من المسلمين المعاصرين للأحداث مثل ابن الأثير الذى يرجع في تصوير الفزو المغولى على ديار الإسلام^(٢) .

(١) د/ سيدة الكاشف أنظر المرجع السابق ص ٦

(٢) ابن الأثير ، الكامل أحداث سنة ٦١٧

أو المقرَّب الذي نجح في كشف أسباب المجاعة والطاعون الذي تفشى في مصر في زمنه (١).

نلاحظ أن هذه الكتابات قد تميزت بإفريقية شديدة و ترجمة دقيقة للأحداث وخصوصا في الموضوعات التي لا يجد المؤرخ حساسية في تصديرها بمسك الموضوعات السياسية أو الدينية التي تتعارض مع رغبة الحكام ، فكثيرا ما يعمد المؤرخ إلى إخفاء بعض عيوب الحكام خوفا من بطشهم ودرء لفضيحتهم وقد يعمد البعض إلى إبراز محاسن يفتقدها الحكام ومن أمثلة هؤلاء المسعودي ، الذي أزعج للخليفة العباسي القاهرة مقلقا متخاضيا عن سوائه الخ ...

أما السيابي فقد اختلفت كتاباته لأنه يكتب تاريخ بلده ومذهبه ، بتعصب شديد و بدوافع دينية ووطنية ، متحمسا أحيانا كثيرة . وبما أنه يقتضي إلى الجيل الذي تشرب المعارف بشمولية شديدة فهو دارس للفقه والتفسير والحديث ، حافظا لكتاب الله على وجه شديد بحقيقة التاريخ الإسلامي العام ولذلك جاءت كتاباته على نمط الكتابات الشمولية ، التي إمتزج فيها الأدب بالتاريخ وتداخل الفقه في السير والمغازي وما بين هذا وذاك إنساب قريشته الشعرية لجاءت كتاباته أشبه بدائرة المعارف العامة ، التي لخصها تقرأ في كتاباته التاريخية . يدفعك دفعا إلى التزود بأنوار العرب من الشعر ونوادر الأدب دون أن تحسن بأنك قد خرجت عن سياق الأحداث معتمدا على ذاكرة حافظة مستشهد بالقرآن أحيانا وبالحدث النبوي في أحيان كثيرة وبالشعر في معظم الأحيان .

ولذلك فإن أعمال المناهج المعاصرة في كتابات السيابي تعد أمرا حرجيا للغاية وعموما فقد وضع أساما للأجيال التي تأتي بعده ، وعليها أن تزود

من كتابات السياني مع أعمال للنهائج المعاصرة التي توصلنا إلى الحقيقة النسبية وليست الحقيقة المطلقة لأن الحقيقة المطلقة أمر غير مستطاع لحوامل مختلفة مثل ضياع الأدلة وإطماس الآثار ، ومن ذا الذي يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلوبة في الماضي والحاضر وهل يمكن الإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة ، فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبياً وكلما زادت نسبة الصدق منها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخاً بالمعنى الصحيح .

وعموماً فقد جاءت كتابات السياني وصف دقيق لزمان عبر تاريخها ، دراسة للبيئة والأئمة ومشكلات السياسة والحرب والفكر والعقيدة والأدب وفُرح واف لأحوال المجتمع وفي سبيل ذلك طاف المؤلف باحثاً ، ومتقياً ، متأملاً مستلهما معارفه من ثقافته الواسعة ومن شهادات الشيوخ والعلماء بلغات كتاباته وافية شاملة تميزت بالبساطة والوضوح والسلاسة .

وبدراسة المنهج الذي اتبعه المؤرخون المسلمون في كتابة التاريخ المحلى الديني نجد أن هذا النوع من الكتابة تميزت بالمكتابة عن مدينة بذاتها بتعطيلها ومعدنها وعمرانها وعادلتها وعلماؤها من خلال مقدمة تبدأ حويلة نسبياً ثم تميل بعد ذلك إلى الإيجاز أما موضوع مثل هذه الكتب فقوامها الشخصيات البارزة التي كان لها شأن في البلدة أو القطر موضوع البحث وكانت هذه الشخصيات في البداية وفقاً على علماء الدين ثم تطورت الطريقة قليلاً فشممت كل الشخصيات البارزة في المجتمع من أدياء وعلماء وأعيان وساسة .

وفي القرن الرابع الهجري أصبحت الكتابة من التراجم مرفقة على حروف الهجاء وأقدم كتاب في التاريخ المحلى الديني رتب تراجمه على نظام المعاجم أي وفقاً للترتيب الأبجدي هو تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عبد الله الأندلسي (ت ٤٠٣ هـ) . كذلك اتبع الخطيب البغدادي الذي عاش في القرن الخامس الهجري في كتابة تاريخ بغداد أو طريقة المعاجم في ترتيب

أسماء التراجم إلا أنه أبدى لهما ملاحظا بالكتابة عن علماء الدين وعظماة التراجم تعذر عن إهتمام المؤلف بالناحية الدينية وقدم المؤلف أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - على غيرهم في الترتيب باعتبارهم أول من قدم إلى أطراف المسكن الذي البغدادى ثم تطور هذا النوع من الكتابة بإضافة آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ومأثورات الصحابة في الإشادة ببلد معين أو مدينة معينة وهناك أمثلة كثيرة مثل كتاب فضائل مصر وأخبارها لأبي الحسن إبراهيم زولاق وفضائل الإسكندرية لأبي علي الحسن بن عمر الصباغ (القرن الخامس) وفضائل دمشق لأبي الحسن علي بن محمد بن شجاع وكتاب فضائل الشام لإبراهيم ابن عبد الرحمن العزاري .

أما الطريقة التي استخدمها السيابي في كتاباته فكانت أكثر شهولا حيث شملت تاريخ عمان بشكل عام ومذهب أهلها وجغرافيتها وفترات ضعفها وقوتها مع إبراز واضح للمذهب الإباضي في محاولة جادة للتعريف به واستخدام التاريخ كوسيلة علمية مقبولة بهدف إبراز وتعميد الفكر الإباضي من خلال أئمة وعلمائه باعتباره المذهب الأكثر شيوعا في عمان ولذا فقد أراد أن يؤرخ للمذهب ، سواء بهدف الدعوة إليه أو دفع الشبهات عنه .

ولعل السيابي قد نهج نفس الطريقة التي اتبعها سرحان بن سعيد الأزكوي في مخطوطه الشهير ، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة (١) ، حيث أورد المؤلف في المقدمة قائلا . ولقد صنف هذا الكتاب وجعلت ظاهره في الفصص والأخبار وباطنه في المذهب المختار . . . عسى أنهم لأصول المذهب يعرفون

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة تحقيق عبد انعم القيس ج ٣ .

ولابد الحق بالحق يعترفون ، (١) ،

ولعل شهرة هذا الخطوط جاءت من رؤيته التاريخية التي جعلته في مقدمة المصادر الأصيلة في التاريخ الباني .

واعتقد أن الهدف الذي قصده الأركوزي هو نفس الهدف الذي قصده السياني مع اختلاف كل منهما في الطريقة التي استخدمها .

وعلى الرغم من ذلك فإن ما كتبه السياني يعتبر جهدا عظيما يشكر عليه فقد أوتي حقا عظيما من العمق والفيض والخصب معتمدا على أصالة فكره وإرهاق حسه مستمينا بما وهب من جهد وعصر ودأب على البحث والدرس والدرس ومقدرة على تحرر الحقيقة في وقائع الماضي وأحداثه وهي عملية غاية في الصعوبة .

وإذا كان المؤرخون المسلمون قد عثوا بما عرف بالتاريخ المحلي الديني لإبراز أهمية مدينة بذاتها علمائها ، أعيانها ، اقتصادها فإن السياني قد طاف كل أرجاء عمان بفكره وثقافته وأصالته مؤرخا لمذهب أهلها مع وعى شديد بأصول المذاهب ونشأتها وتطورها ثم يستنفر وقائع الماضي ويستدل بها في أماكن كثيرة مع إلمام واضح مثل أنواع الثقافة العربية والإسلامية فجاءت كتاباته تأصيلا للماضي ودروسا للمستقبل وهذا هو التاريخ الشامل الذي هو الحياة بذاتها بشرها وخيرها .

المنهج التاريخي عند الشيخ السياني :

لقد عرف الشيخ سالم السياني بتنوع معارفه واهتماماته ، حيث كتب في الفقه واللغة والأدب إضافة إلى التاريخ ، الذي أوتي فيه قدرا كبيرا من المعرفة إضافة إلى مقدرة على ربط الأحداث وتسلسلها بطريقة سهلة ، ولعلنا أن نقر

بأن الشيخ السياني وكتاباته من النوع الذي عرفته ثقافتنا العربية كثيراً ، حيث ينتمى إلى ما يعرف بالثقافة الشاملة ، حيث يختلط التاريخ بالعقيدة ويمتزج الأدب بالفقه ومكنتنا العربية حرفة فنانا نماذج كثيرة من أمثال السياني وهي مكانة لا يقدر عليها إلا من أوتي حظاً عظيماً في العلم وصداق تواصل على البحث والقراءة ، لذا كانت عصلة السياني في شق مجالات الثقافة العربية الواسعة وقد انعكس ذلك على كتاباته بشكل عام وكتاباته التاريخية على وجه الخصوص .

ويذكر كتاب عمان عبر التاريخ والذي يقع في أربع مجلدات ، والذي تفضلت وزارة التراث القومي والثقافة إدراكاً منها لأهمية الكتاب ، حيث طبعته ١٩٨٦ م لكي يكون في متناول الباحثين والمتحمسين إلى معرفة تاريخ عمان عبر العصور التاريخية المختلفة .

وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن تاريخ عمان إلا أن أرى ما كتب في هذا المجال هي كتابات الشيخ نور الدين السالمي والشيخ سالم السياني وخصوصاً على المستوى المحلي ، حيث أن كلا منهما قد تناول تاريخ عمان عبر العصور التاريخية المختلفة وبشكل تفصيلي وتحليلي يقرب كثيراً من المنهج العلمي المعمول به في مثل هذه الدراسات الموسوعية .

واعتقد أن كل ما كتب لا يمكن أن يكون أقول الأخير في تاريخ عمان لأن الدراسات التاريخية يحكمها في كثير من الأحيان وجهات نظر قد يجانبها الصواب في أحيان كثيرة .

ولعل الخطوة الزائدة ، التي تقوم بها وزارة التراث القومي والثقافة في ساطعة عمان حيث تعمل جاهدة على نشر وتحقيق عدد كبير من المخطوطات المأهولة منها في تجسيد الوعي القومي والوطني لدى المواطن العماني من جانب وتقديم خدمة علمية للباحثين والمؤرخين من جانب آخر مما يجعل وجهة النظر المأهولة

موضوع اعتبار أسامي في وقت تعددت فيه الكتابات التاريخية وتباينت وجهات النظر وخصوصاً لدى المؤرخين الأوروبيين ، وبقيت وجهة النظر العمانية غائبة إلى أن ظهرت عدة كتابات بأقلام عمانيين بدءاً بسرحان بن سعيد الأركوي في مخطوطه الشهير وكشف الغمة الجامع لأخبار الأمة (١) ومروراً بما كتبه نور الدين السالمي في كتابه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » .

ثم ظهرت كتابات حميد بن رزيق وخصوصاً «الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين» .

ثم « الشعاع الشائع بالعمان في ذكر أئمة عمان » إضافة إلى العديد من الكتابات الأخرى التي تنفارت أهميتها العلمية إلا أنها في مجملها تمثل أهمية كبيرة في تاريخ عمان .

وعلى الرغم من أن كتابات السيابي لا تمثل تجربته الشخصية في كل ما كتبه من تاريخ عمان بحكم أنه لم يعايش الأحداث مباشرة عملياً كأمين رزيق مثلاً إلا أنه اعتمد في كتاباته على كثير من المراجع والمصادر ، التي أشار إلى بعضها وأغفل بعضها الآخر إضافة إلى معلوماته التي سمعها من جميل الشيوخ ثم تسلسل الروايات ومقابلتها ببعضها ودراسة دوافع كل رواية وهي طريقة علمية استخدمها علماءنا المسلمون في تحقيقهم للحديث النبوي الشريف وأفردوا لها علماً مستقلاً عرف بعلم الجرح والتعديل .

واعتقد أن الشيخ السيابي قد وفق إلى حد كبير في مهمته العلمية ، على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي تصاحب هذا النوع من الكتابة ، ولعل من أهمها ندرة المصادر والمراجع وإن وجدت فهي على شكل مخطوطات

(١) سرحان بن سعيد الأركوي ، تاريخ عمان المنقش من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة .

غير صالحة لتقديم المعلومة بطريقة مبسطة إلا بعد تحقيق ودراسة ، حتى يمكن التثبت من الحقائق التاريخية .

ويبدو أن السيابي قد خاض طريقاً وعراً ، مدرّكاً صعوبة مهمته فكان لإعتماده على القديم والحديث من المراجع والمصادر إضافة إلى رؤيته الخاصة ومقدرته على تحصيل كثير من الموضوعات .

وعلى الرغم من أهمية المخطوطات العمانية باعتبارها مصادر هامة ، جذبة بالدراسة والتحقيق إلا أننا نعتز بأن كثيراً من المعلومات التاريخية التي وردت في عدد منها جاءت مسكورة ، بل تسكاد تكون متطابقة بما يؤكد صعوبة معرفة الأصل المنقول عنه .

لعل هذه الطريقة في الكتابة عرفت في تراثنا العربي دون أن تكون هناك غشاضة في ذلك وعلى سبيل المثال فإن ثلاثة من المصادر العمانية تتفق للدرجة المتطابق على الطريقة التي وصل بها ناصر بن مرشد إلى إمامة عمان ١٣٠٤ هـ - ١٦٢٤ م دون إشارة لمعرفة الأصل المنقول عنه .

فبينما يقول الشيخ السامي : « وسبب إجماع المسلمين بعد فرقتهم ما وقع من أمراء الظلم وملوك الغش من تراكم الفتن وشدة المحن واختلفت آراء أهل الرستاق ووقعت بينهم الحنة والشقاق وسلطانهم يؤيد مالك بن أبي العرب . » وقدرة العلماء يومئذ خميس بن سعيد الشقصي . . .

ووقعت خبرتهم على ناصر بن مرشد وكان فيما قبل ربيباً للقاضي خميس ابن سعيد الشقصي وكان قد عرفه من قبل ذلك فدلهم عليه فرضى الجميع ووقفوا عليه الإمامة بالرستاق (١) .

وفي المعنى يقول سرخان بن سعيد الأزكوي : « لقد اختلفت آراء أهل

(١) نور الدين السامي ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ط ١٩٧٤ ج ٢

الرساق ووفقت بينهم المحنة والشقاق وسلطانهم مالك بن أبي العرب
فاستأثروا العلماء المسلمين أهل الانتفاضة في الدين والقذوة يومئذ
خمس بن سعيد الشقصى فاجتمعت آراؤهم على ناصر بن مرشد إلخ^(١) .

ولا يختلف عن هذا المعنى أيضا حميد بن رزيق .

أما رواية السيابى فعلى الرغم من أنها تختلف في مضمونها عن الروايات
السابقة إلا أنه على ما يبدو قد نقل معلوماته عن الشيخ السالمى إضافة إلى كتابه
حاجز العالم الإسلامى للمؤرخ الأمريكى لوثرروب ستودارد وبه تحقیقات
وإضافات كثيرة لشكيب إرسلان .

ولم ير الشيخ السيابى عيبا في أن يشير إلى هذا المرجع مما يضعف من
ثقتنا بأمانة السيابى وتحري الصدوق والدقة في كتاباته ، على الرغم من تحفظه
على كثير مما ورد في كتاب حاضر العالم الإسلامى .

وعلى الرغم من أن السيابى قد بذل جهدا لا بأس به وهو أن يؤرخ لعمان
من غلا كتابه الشهير د عمان عبر التاريخ ، إلا أنه نظرا لضخامة الموضوع
وامتداده فقد جابه التوفيق في موضوعات على درجة كبيرة من الأهمية
وهو يتحدث مثلا عن أعمال الإمام سلطان بن سيف ، الذى يستحق التوقف
والدراسة إلا أن ما كتبه السيابى في هذا الموضوع (أعمال سلطان بن سيف)
لم تستغرق أكثر من صفحة واحدة اتسمت بالأسلوب الإنشائى وافتقدت
إلى الموضوعية^(٢) ولعل ندرة المصادر كانت سببا أساسيا .

ومما يضعف من صعوبة استقراء الحقائق في المخطوطات العمانية

(١) سرحان بن سيد الأركوى - تاريخ عمان المتيسر من كتاب كشف الذمة
الجامع لأخبار الأمة تحقيق عبد الحميد التيسر ص ٩٨ .

(٢) سالم بن حمود السيابى ، عمان عبر التاريخ ج ٣ ص ٢٣١ .

وخصوصا فترة الصراع بين دولة اليعاربة والبرتغال تلك الأحكام العامة والجل الإنشائية وتطابق معظم الروايات حول الكثير من القضايا .

واعتقد أن نور الدين السالمى كان أكثر دقة في هذا المجال ، على الرغم من أنه استخدم نفس الطريقة في كثير من روايات فهو يتحدث عن جهاد سلطان بن سيف في مقاومة النفوذ البرتغالي قائلا : « لقد قام ببناء مراكز عظيمة في البحر وعظم جيشه وقوى سلطانه واستولى على الجزيرة الخضراء وكثيرة بات وغيرها من بلدان الشرق الإفريقي والهند كما غزا أرض فارس وأدب كل من تسول له نفسه بالعدوان » (٢) .

ويبدو من النص أن الأسلوب الإنشائي هو الغالب وأن إستقراء الحقائق ودقتها تبدو صعبة للغاية فالأورخ في حاجة إلى حجج تاريخية تثبت في أسماء وأرقام وأحداث حتى يمكن الحكم بشيء من الموضوعية إلا أن هذا لا يقلل من جهد هؤلاء الرواد الذين ضحوا براحتهم في سبيل أن يقدموا ما عندهم وهذا مما يضاعف من قناعتنا بأهمية إعادة كتابة تاريخ عمان وخصوصا في فترة دولة اليعاربة ، التي اتممت بقدر كبير من الغموض .

وإذا كان هؤلاء الرواد قد تركوا هذا الحكم المسائل من كتب التراث فيشكل تأكيد فإن جيلا جديدا من الباحثين والمؤرخين عليه أن يستثمر تلك القيمة العلمية اهتماما على مظاهر حديثا من مخطوطات ووثائق واعتمادا على منهج علمي دقيق إلا أنه من الملاحظ أن الإنحياز إلى دراسة التاريخ العماني اعتمادا على فكرة الموسوعات والشمولية في تناول القضايا بكل ذلك ما يزال معمولا به لدى عدد من الباحثين المعاصرين وإذا كان لجيل الرواد عذره في ذلك فإن على الباحثين المعاصرين أن يعيدوا الكتابة أخذا بفكرة التعمق الرأى بهدف الدقة والتحقيق .

وتبدو الفكرة الدينية واضحة عند السيابي في كل ما كتب وبكل تأكيد فإن ثقافته الإسلامية الواسعة كان لها أكبر الأثر على طريقته ، حيث أراد أن يورخ لعقيدته الدينية بطريقة تدفع القارىء إلى تنبؤ ما يريد أن يقوله دون كل أو ملل وإذا فقد اختار التاريخ وسيلة لتحقيق هذا الهدف وهو يؤكد على هذا المعنى قائلاً : « ولتعلم أيها القارىء أننا إذا كتبنا التاريخ نريد فهمه وسيلة لتثقيف الناس بالحقائق الروحية » (١) .

ويبدو أن السيابي لم يفضل أهمية التاريخ كتراث ثقافي وإنساني له أكبر الأثر على حياة الشعوب إضافة إلى أهمية التاريخ كتجربة إنسانية جذيرة بالمحاكاة والمير ولعله كان مدركاً لهذا البعد حيث ظهر بشكل واضح من خلال كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ » .

وعلى الرغم من أن كتابات السيابي وخصوصاً كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ » لا يضيف جـ- بداً عن سبقه من أمثال الشيخ السالمى أو ابن رزيق الأركوى إلا أن الجديد الذى ميز السيابي هو فهمه الحقيقى لمقولة ابن خلدون الشهيرة بأن علم التاريخ نظر وتحقيق وعلم بالكيفيات والوقائع وأسبابها . ولذا فقد تميزت كتابات السيابي بقدر لا بأس به من المنهجين وخصوصاً في تحليل كثير من الظواهر ومحاولة نقد بعض الروايات وتبني الفكرة القديمة القائلة بأن التاريخ عبارة عن حكاية لا تخضع للنقد أو التحليل (٢) .

ولعل مما يضاف من قناعتنا بأن السيابي كان واعياً للفكرة التاريخية قوله : « إن ميدان التاريخ أوسع الميادين وأن مادته متسعة كاتساعه ، فإن موضوعه القضايا البشرية وهى عديدة لا تمكث تدخل تحت خصر ولذا فقد صار التاريخ قانون سياسته وعنوان رئاسته » (٣) .

(١) السيابي ، مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٢٦ .

(٢) سالم بن حمود السيابي ، « عمان عبر التاريخ » ج ١ ص ٢٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٦ .

وعلى الرغم من هذا الفهم الواضح بطبيعة التاريخ ودوره إلا أننا لانستطيع أن نقول بأن السياني قد ترجم ذلك بشكل ملحوظ في كتاباته التاريخية ، حيث إقتصرت اهتماماته على الأعلام في قضايا الدين والسياسة دون أن تكون للقوى البشرية مكانة بارزة في كتاباته فهو يكتب عن ملوك عمان وأئمتها ، وعلانياتها دون أن يذكر لدور الناس ، الذين صنعوا الأحداث وأسهموا فيها بشكل لافت .

وإذا كان السياني قد أخذ بفكرة نقد الروايات وتحليلها في بعض كتاباته ، حيث ظهر ذلك بشكل ملحوظ حينما إعتد على كتاب « حاضر العالم الإسلامي »^(١) حيث تصدر لتحقيق كثير من الروايات التي وردت في هذا الكتاب إلا أن هذا المنهج يتبدد حينما يكون السياني يعدد نقل رواية للسالمى فهو ينقلها على أنها حقيقة مجردة ، وعلى الرغم من تقديرنا لأهمية كتاب السالمى « تحفة الأعيان بهيرة أهل عمان » إلا أن هناك الكثير من القضايا ، التي كانت في حاجة إلى قدر من التحقيق ومقابلتها بخبرها من الآراء ووجهات النظر الأخرى وهو أمر أساس في المنهج العلمي السليم .

ولما كانت قضية الإمامة تمثل أهمية كبيرة في فكر السياني فقد أفرد لها أهمية خاصة ، حيث نجح بشكل ملحوظ في تتبع تاريخها وفترات ضعفها وقوتها وكان موفقا في عرضه ومناقشته للمديد من موضوعات افقه الإباضي من خلال حديثه عن أئمة المذهب وبينما تتطابق الكثير من الروايات التاريخية عند الأركوى والسالمى وبين رزيق بنفرد السياني برؤية معاصرة . معتمدة بلا شك على من سبقه إلا أن أسلوبه وتحليلاته في بعض الأحيان قد اكتسبتها قدرا لا بأس بها من الدقة .

(١) لوثرروب ستودارد « حاضر العالم الإسلامي » ترجمة عجاج نوى « سعيد » تحقيق حكيم أرسلان .

يبدو ذلك بشكل أكثر وضوحاً في الجزئين الثاني والثالث، من كتاب «عمان عبر التاريخ»، فبينما يتحدث عن سلطان بن سيف، ونقل فقرات كاملة من كتاب «حاضر العالم الإسلامي»^(١)، تناول انتصارات الإمام سيف على البرتغاليين وكيف أنه أجلاهم عن عمان وتعبهم إلى الهند ثم نقل السيابي عن السالمي، يفهم بأن كفاح اليعاربة ضد البرتغاليين قد أغفل من جانب المؤرخين.. وهو اعتراف من الشيخ السالمي بأن المعلومات التاريخية عن أئمة اليعاربة ليست كافية.

وعلى الرغم من أن السيابي قد أقيمت له مصادر أفضل عند اليعاربة إلا أنه لم يأت بجديد أكثر مما أتى به نور الدين السالمي ومن ثم جاءت كتاباته في هذا الموضوع بالذات تكرر مع شيء من التصرف.

وعلى العموم فإن ما كتبه السيابي عن تاريخ عمان مع بداية القرن السادس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن السابع عشر في أشد الحاجة إلى مزيد من الاهتمام، نظراً لأن ما كتب عن هذه الفترة لا يتناسب بأي حال وأهمية الدور الذي لعبه اليعاربة والذي بدت نتائجه، على كل المستويات ولذلك فإن فترة كفاح اليعاربة ضد البرتغاليين، فترة غنية في التاريخ العماني وأعتقد أنها لم تكتب بعد ولعل ما كتبه السيابي يعد أساساً لكتابات لاحقة على ضوء ما يظهر من وثائق ومخطوطات.

ولعل الوحدة القومية التي حققها أئمة اليعاربة كانت السبب المباشر لكل الانتصارات التي أحرزها العمانيون ضد البرتغاليين وهي قضية لم يلتفت إليها كثير من المؤرخين، حيث أدرك أئمة اليعاربة حقيقة التيارات السياسية كاملة وراحوا يخوضون حرباً ضارية على المستويين الداخلي والخارجي، وكلما حققوا قدراً من الانتصارات في سبيل توحيد عمان راحوا يواجهون عدوهم القابع في المناطق الساحلية ويقدر ما كانت عليه الجبهة الداخلية تشهد

(١) حاضر العالم الإسلامي، مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٤٥.

هدوا سبيلها كانوا يواجهون عدوم في كل من صور وسقط ومطرح وفي كل القلاع والحصون العمانية .

وعلى الرغم مما كتبه السيابى في هذا المجالات والذي استغرق صفحات طويلة من الجزئين الثالث والرابع (عمان عبر التاريخ) إلا أن جوانب هامة عن تلك الفترة ماتزال في حاجة إلى جهد كبير من الباحثين والمؤرخين نظرا لقدرة المراجع والمصادر ، التي عاجلت تلك الفترة الهامة من تاريخ الشعب العربى العماني .

ولعل عام النفاذ قد ألقي قدرا كبيرا من الغموض عن تلك الفترة الهامة من تاريخ عما يحكم أحداث تلك الفترة قد وقعت خلال القرن السادس عشر ومتتصف السابع عشر الميلادين ولم تسجل الأحداث على نمط كتابات ابن إياس أو الجهرمي ولم تحفظ الأوراق أو المذكرات أو الرسائل من الجباب العماني ولذا فقد جاءت المصادر البرتغالية بما تحمل من مبالغات وافترادات مصدرها لا يستهان به في تحقيق هذا الصراع .

ولذا فإننا نقدر صعوبة المهمة التي قام بها السيابى في كتاباته عن تلك الفترة ، ولا يخفى على أحد خطورة الاهتمام على وجهة نظر واحدة شاركت كظرف مباشر في صنع الأحداث وهكذا بقيت وجهة النظر العمانية غائبة وعلى الرغم من أن كتابات السيابى في هذا المجال لا تحقق طموحات البحث العلمى الجاد حيث أغفلت موضوعات هامة وتفصيل تتعلق بتأريخ الصراع إلا أنها على الرغم من تواضعها فهي وبكل المقاييس تعد وجهة نظر على درجة كبيرة من الأهمية بعكس المصادر البرتغالية ، التي اعتمد عليها عدد كبير من المؤرخين العرب والأجانب وهي عبارة عن تقارير لسير الأحداث وأوراق تمثل تقارير يومية تفاصيل ورحالة أجانب وهي في مجملها تمثل وجهة النظر الأخرى ، التي لا يمكن الاعتماد عليها إلا بحذر شديد فهي تحمل قدرا كبيرا من المبالغة والتحويل لسبب بسيط وهو أن كاتبها لا يمكن أن يتجرد

من دوافعه الشخصية والوطنية لأن القائد الذي يتصدى لمواجهة عدوه قد يبالغ في حجم قوته بهدف أن تسارع دولته إلى إمداده بالجند والعتاد أو قد يهدف إلى من يرفع من شأن نفسه أو قد يحاول تهريب هزيمة لحقت به كما أن المسؤولين عن سير المعارك لا يمكن أن يكتبوا لقيادتهم بما يدبرهم أو يحلمهم قدرا كبيرا من المسؤولية .

ولعل هذا القول لا ينطبق على الوثائق بشكل عام، حيث تختلف طبيعة كل وثيقة من حيث موضوعها ومن حيث عامل الزمن الذي بشكل هنصرا هاما في تفسير الوثيقة .

فالوثائق التي تتناول الحقائق مجردة كالتقارير الاقتصادية مثلا تختلف عن التقارير السياسية التي قد يحكمها عامل زمني يختلف من شخص لآخر وهذا ينطبق على الوثائق القديمة والحديثة معاً .

أما عامل الزمن كمنصر أساسى فى الوثيقة فإن له أهميته الكبيرة فوثائق القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين مثلا تختلف من حيث أهميتها العلمية عن وثائق للقرن العشرين وكذا العقد الأول من القرن العشرين تختلف عن العقد الثامن نفس القرن .

فالقائد الذي يكتب لقيادته أثناء قيادته للوحدات العسكرية فى مياه الخليج مع مطلع القرن السادس عشر تحكمه أثناء كتاباته اعتبارات نفسية ودينية ووطنية تحول قيادته أهمية كبيرة عليها بعكس القائد الذى يكتب لقيادته فى القرن العشرين فهناك الكثير من الآراء ووجهات النظر التى تحكم قرار القيادة وبالطبع فإن تكون القرارات معتمدة على وجهة النظر العسكرية الخاصة فهناك لدراسات السياسية والقانونية والاعتبارات الدولية ، التى تشكل طبيعة الصراع وهى فى مجملها تتحدى المصلحة بشئ من الموضوعية لتقبيم حقيقة الأشياء دون الاعتماد على وجهة نظر واحدة التى تكون غالبا قاصرة عن توصيف الأحداث وتقييمها ووضع الحلول لها .

وهذا ينطبق بشكل ملحوظ على كتابات الفناصل والرحالة الأجانب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر مثلاً وهذا النقد الموضوعي الخالص من بعض .

ولذا فعلينا ألا نبالغ في أهمية ما كتبه الأجانب عن تاريخنا ، بل علينا ألا نرفضها وإما قبلها بحذر شريطة أن نضمها في مكانها المناسب مع غيرها من الآراء والكتابات الموضوعية الأخرى ، حتى يكون الحكم على الأشياء موضوعياً في أساسه منهجياً في طريقتها .

واعتقد أن ما كتبه السيابى عن تاريخ عمان وطننا وعقيدة وشعبنا يجب أن موضع في إطارها الصحيح بجانب غير هامن الآراء ووجهات النظر الأخرى . ولعل ما كتبه السيابى كان نتاج جهد شخصى ، حيث رجع إلى بعض المراجع العربية حيث إستقى مادته العلمية ولا نستطيع أن نقر بأنه قد رجع إلى كل المصادر والمراجع ولذا فإن هناك فترات تاريخيه قد تناولها على عجل شديد ومن المؤكد أن افتقاد المراجع كان عاملاً هاماً في تلك القضية .

وعموماً فلا يمكن إلا أن نقر بأن كتابات السيابى ستبقى أساساً اسكل من يريد أن يتخصص في تاريخ عمان ولا يمكن إغفالها وسواء أكان منهجياً في كتاباته أو مجتهداً في رؤيته فإن الرجل بكل المقاييس قد اجتهد قدر طاقته ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران .

واقه نسال العون والتوفيق ؟

أهم المراجع التي اعتمد عليها البحث

- ١ - ابن إياس (محمد بن أحمد) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق د / محمد مصطفى ج ٣ ، ٤ ، القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٢ - د / أحمد شلبي ، كيف تكتب بحث أو رسالة ، القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ٣ - إدوارد كار ، ما هو التاريخ ؟ ترجمة د / أحمد حمدي محمود ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
- ٤ - الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، القاهرة سنة ١٩٣١ م ج ٣ .
- ٥ - أسد رستم ، مصطلح التاريخ ، بيروت سنة ١٩٥٥ م .
- ٦ - ابن خلدون ، المقدمة دار الشعب ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- ٧ - بيريل سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ترجمة د / قاسم عبده قاسم القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- ٨ - حميد بن محمد بن رزق ، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين ، سلطنة عمان سنة ١٩٧٧ م .
- ٩ - د / حسين نصار ، نشأة التدوين التاريخي عند العرب .
- ١٠ - د / سيدة الشكاشف ، علم التاريخ عند المسلمين ، القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ١١ - سيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون عند العرب ، الإسكندرية سنة ١٩٨٧ م .
- ١٢ - سمية بن مسلم العونى ، الأنساب ج ١ ، ٢ من مطبوعات وزارة التراث القومي سلطنة عمان سنة ١٩٨٤ م .
- ١٣ - سالم بن حمود السيابي ، عمان عبر التاريخ ، أربعة أجزاء ، سلطنة عمان سنة ١٩٨٦ م .
- ١٤ - سالم بن حمود السيابي ، العفوان في تاريخ عمان .
- ١٥ - د د د د ، الحقيقة والحجاز في تاريخ الأمازيغيين والحجاز

- ١٦ - سالم بن حمود السبيعي ، الإسماعاف في التاريخ العمانى .
١٧ - د د د د ، إزالة الوعشاء في أتباع أبى الشعشاء .
١٨ - د د د د ، طلفقات المعسد الرياضى فى حلقات
المذهب الأباضى .
١٩ - د / شاكر مصطفى ، التاريخ العرب والمؤرخون ج ١ بيروت
سنة ١٩٧٨ م .
٢٠ - د / عبد الرحمن بدوى ، بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت
سنة ١٩٦٠ م .
٢١ - د / عماد الدين خليل ، التفسير التاريخى بيروت سنة ١٩٧٥ م .
٢٢ - قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ بيروت سنة ١٩٥٩ م .
٢٣ - لوثر وب ستودارد ، حاضرم العالم الإسلامى ترجمة عجاج فومض
تعليق وتحقيق شكيب أرسلان ، طبعة سنة ١٩٦٣ م .
٢٤ - محمد شفيق غربال ، أساليب كتابة التاريخ عند العرب ، مجلة مجمع
اللسة العربية مجلد ٩٤ سنة ١٩٦٣ م .
٢٥ - محمد عبد الفتى حسن ، التراجم والسير ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
٢٦ - نور الدين السامى ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، الطبقة الخامسة
سنة ١٩٧٤ م .

الصور الصخرية الحائطية ودلالاتها المناخية على العصر المطير بالنطاق الصحراوي

بقلم الدكتور

طلعت أحمد محمد عبده

مقدمة :

اتجهت الدراسات الجغرافية لعصر ما قبل التاريخ إلى دراسة المخلفات الأركيولوجية البشرية ، وفي نفس الوقت تنافلت من دراسة إحدى المخلفات البشرية المتعلقة بالرسوم الصخرية الحائطية Rock — Drawings بالنطاق الصحراوي من العالم بالرغم من أن معظم ما كتب في الجغرافيا التاريخية لتلك الفترة كان يشير إليها دون تركيز على وافي منها .. ومن هنا تناولها الباحث بقصد إبراز أهميتها الجغرافية ، ومن أجل إلقاء الضوء على ما يكن خلفها من دلالات مناخية .

ولقد جذب انتباه الباحث في مجال دراسة مجموعة الصور الصخرية بالصحاري أسران: الأول هو، احتواء منطقة دراساته في مرحلتى المااجستير والدكتوراه وما بعدهما بالصحراء المصرية الشرقية على عدد وافر منها في مواضع كانت تشهد أحوال هيدرولوجية مغايرة لمناخها الحالي .

الشأنى هو ما يتعلق بالمدة التي قضاها بجامعة روما (قسم الدراسات الأثرية القديمة لعصر ما قبل التاريخ) والى أقدته في حل ، غوضر ، مجموعة صورده ، بالرغم من أن رسوم جامعة روما كانت تتعلق بصحراء ليبيا ، حيث تبين له أن تلك الصور ليست سوى « أرهاصا ، أولى للكتابة »⁽¹⁾، بحيث

(1) William Howells : Back of Histry, New York, 1954, p p. 442 — 443.

peake & Fleuro : « peasants and Potters » London, 1927, p. 101.

عرفها كل من « هارولدريك وجون فلير » بأنها فترة التعبير البسكتوجرافى Pictography من خلال الصور المرسومة « تلاها مرحلة استخدام للعلامات الدالة على أشياء معينة وهى التى « عرفت بالابدوجراف « Ideograph^(١) .

لذا كانت المحاولات التصويرية بداية لإظهار أفكار خاصه بعصر ما قبل التاريخ وارتبطت أساسا بمناطق عاصرت نشاط إنسانه ، فكانت ممثلة على جدران الصخور وألواح الطين اللدج بعضى أسقفية الطرف نشج منها ، الخط المسجى « Wedge—Shaped or Cuneiform الذى تميزت به بيئة ما بين النهرين القديمة ، ولجا لإنسان عصر ما قبل التاريخ فى مرحلة متقدمة منه إلى سطح الأواني الفخارية ناعمة الملمس Smooth pottery لاستخدامه فى الرسم والزخرفة وبالتالى تميز علامة الشخصية منها « بالبسكتوجراف » . (شكل رقم ١ الذى يوضح نماذج لذلك) .



(شكل رقم ١) سطح الفخار الناعم أحد الوسائل للتعبير (البسكتوجرافى)

(1) Brentjes, Burchard : African Rock Art, Translated by Antony Dent, First Published, Roma, 1969, p. p. 1 — 3.

وعن أهمية الصور الصخرية بالصحارى نجد ريكارد برنتج Burchard Brentjes (عام ١٩٦٩) يلقى عليها بمقدورها إلى الكلام رغم وقوعها في بئسة لا يملؤها سوى الفراغ في رأى مرى عام (١٩٥٠ م) (Murray (G. W.) بقوله (إذا كان الموتى صامتون . . فصور الصحراء يمكن أن تتكلم) .

(1) The dead are silent ... but the rocks can speak, وبضيف إلى ماسبق جوزيف ك زربو (عام ١٩٨٠ م) عندما يرى أن هذه الصور بمثابة جسر بين الحقيقة والفكرة ، باعتبارها سلسلة من الصور الرمزية لا تحتاج إلا لفتح بقصد قراءتها والإلمام بها ، كما أنها ترتبط فى رأيه بإيضاح بعض ملامح الحياة لمجتمعات قديمة داخل بيئاتها الطبيعية ، التى لا ترتبط مواضعها بآثار قائمة (أركيولوجيا) ، بل بمواضع تحدده بقلب النطاق الصحراوى . لهذا يرى ريكارد برجننس ، إضافة إلى ماسبق ، أن الفن الإفريقى القابل للنقل Portable Art , Art Mobilier وقع فى فترة خضوع أجداد الأفاقة لسيطرة الدول الاستعمارية ، أسير مستودعات دور الآثار والمتاحف بأوربا وأمريكا ، ويوحى ذلك لمن يتطلع إليه بفداحة ماخبرته أفريقيا من ممتلكات ثمينة وبفقد أهلها الكثير من إحساسهم بالماضى أو الشعور التاريخى (٢) .

Lose thier — sense of the past or Historical consciousness. وعند هذا الحد تظهر أهمية الصور الصخرية بالمرتفعات الجبلية والداخلية من الصحارى ، فهى بالرغم من وقوعها فى مناطق خرساء بكاء Dum & Deaf

(1) Murray (G.W.) : « The Egyptian Deserts and Its Antiquity » Survey Department (Egypt), Paper No. 49, p.p. 10—11.

— Brentjes, Burchard : opcit, p.p. 1—3.

(٢) جوزيف (ك) زربو : « فنانو العصر الحجري الحديث » النقوش الصخرية التى تحمل صورة معجزة لمصر ما قبل التاريخ فى أفريقيا — مجلة اليونيسكو الشهرية / عدد رقم ٢١٩ ، ٢٢٠ (أكتوبر — نوفمبر) باريس ١٩٧٩ م ، ص ٢٧ ، أيضا . Brentjes, Burchard : Locit.

ثابته Immitable على طول فترات زمنية متغايرة ، . (إلا أنها غير ذلك لمن يستقرأها ، فهي وبما تحمل لنا رسالة ، تعرض الحظ العثر للفن الإفريقي .
(misery of the Africian past) 11

وقد أمكن للصور الصخرية بأسطح الصخور الصلبة أن تقوم بدور متاحف تعويضية Galleries للفن الإفريقي القديم . بحيث سام في بقائها أنها من المواد الأثرية الثابتة ، بحيث لا تنقل ولا تسرق ولا تقطع بل تظل مرتبطة بمواطنها الأصلية ، كما اكتسبتها الجبال بالصحارى مناعة عندما حافظت عليها ، ودليل ذلك ما أشارت إليه دراسات فنسكار Winkler عام (١٩٣٨ م) بصحارى مصر ، ودراسات فورد جوستن لشمال أفريقيا

(١٩٥٩ م) ، ثم دراسات الجزيرة العربية . في جنوبها برين دو Brain Doe وفي شمالها وبأفليم الحجاز دراسات موسيل (A. Musil) وشمال سكا كا دراسات فان دي براندن Van den Branden ، ثم في أفليم نجد دراسات كل من هوبر Hobber ويوتنج . كما حظى أفليم صحراء كهلادى بدراسات بركارد برتج ، أما صحارى العالم الجديد في أمريكا الشمالية فقد استحوذته دراسة هارى كرومبى بصحراء كليثورنيا وكان حصيلة ذلك كله التعرف على العديد منها رغم أننا لا زلنا غير مدركين بما لم يتم كشفه عنها حتى الآن . بدليل المحاولات العديدة الدائبة للفرنسيين بمرتفعات تاسيلي والإيطاليون بمرتفعات فزان ، وكذلك ما ظل منها مخفيا تحت الإرسابات الرملية بالصحارى ناهيك عما يعم بعض سكان ذلك النطاق في إخفائه عن الباحثين لاعتقادهم فيه بأنه أحد مقدسات أجدادهم الدينية والقبلية Religios prejudic (١) . (٢) .

(1) Brentjes, Burchard : Ibid, 1—3.

(٢) (نطبق في هذه الحالة على مخلفات الصور الصخرية) لاجداد البوير Boer ومحاولتها إخفائها عن الرعاة الألمانى (موزيك Moseik) وغيره من الباحثين ؛ في هذا المجال أنظر :

Brentjes, Burchard : Locit.

ورغم تعدد الدراسات للصور الصخرية ورغم تعدد ثمره ذلك الكشف بالنطاق الصحراوى (٥) ، إلا أن مجموعة الصور الصخرية لها دلالة خاصة من الناحية المناخية فهي ترتبط أساسا بأحداث عصر المطر أو الفيضان الكبير The Pluvial Age أو الديوفوم Duvium الذى شاهدته الصحارى فى عصر البلايستوسين . ومن هنا كانت موضوعات هذه الصور ذات دلالة مناخية ، كأمثلة خلفها ، لذا فهي تجذب اهتمام الباحث فى مجال جغرافية عصر ما قبل التاريخ ، بقصد التركيز على هذا الاتجاه باعتبارها رسوم تناقض فى مجملها صفة الجفاف ، فهل ياترى كانت محض خيال . Phantasy راود الإنسان فى بيتائها كردد فعل عن الجفاف والعاش الذى يتعرض له الآن فى مناخ الصحارى ؟

أم أنها رسوم تحول حول الحنين ، الذى يجمع أهل البادية حول هدف واحد هو العثور على المساء ، باعتباره أئمن المبتدكات فى الصحارى (٥٥) ؟

لهذه الاعتبارات السابقة تناولت الجغرافيا التاريخية لإبراز تلك الدلالة المناخية من خلال هذا البحث باعتبارها علم (إعادة تصور الأحوال الجغرافية القديمة (١) ولأنها أحد فروع علم الجغرافية التى تعنى بدراسة الظواهر الطبيعية

(٥) (٥) أمكن التعرف على ١٠٠.٠٠٠ صورة صخرية بأريقيا ، استأثرت منها مرتفعات جنوب الجزائر على ١٥.٠٠٠ صورة صخرية

(٥٥) (٥٥) بدلى على قيمة الماء بالصحارى مثال من واحة « دعت كثير » بآبران ، حيث يحدد نصيب الفرد منه « زمانيا » بحوالى ٩ دقائق فى الأسبوع . ويقوم صراف الماء بالتوزيع من خلال « الساعة المائية » (فى هيئة وعاء نحاسى به عدة ثقوب) بحيث تملأ بالماء مرة واحدة وتفرغ فى إناء « طالب الماء » . أنظر : صلاح الدين بجمرى : جغرافية الصحارى العربية ، عمان ١٩٧٩ ، ص ٢٥٩ .

(1) Brooks (C.E.P.) Climate through the Ages, New York, 1970, p. 263.

والإشربة عبر فترة زمنية . . . أو عدة فترات زمنية متتابعة . . . أو هي - جغرافيات الماضي ^(١) .

ولقد أتبع الباحث في مجال دراسته د المنهج الأصولى Systematic Approach للجغرافيا التاريخية ، حيث تتميز الظاهرة بتوزيعها داخل النطاق الصحراوى الحار والجاف بالعالم القديم والحديث ، فالظاهرة متسعة الرقعة ، متباعدة التوزيع داخل نطاق العالم القديم والجديد وكأها تجمعها تساؤلات واحدة ، وفترة زمنية متحدة من جهة ، ولكن ثبت بالبحث والدراسة أن هناك فارق بين رسوم النطاق الواحد من حيث ما تبرز منه من موضوعات، ومن جهة أخرى لم يتمكن سوى هذا المنهج من دراستها وإجراء مقارنة غير مباشرة بينها لتتضح أمام الدارس والقارى .

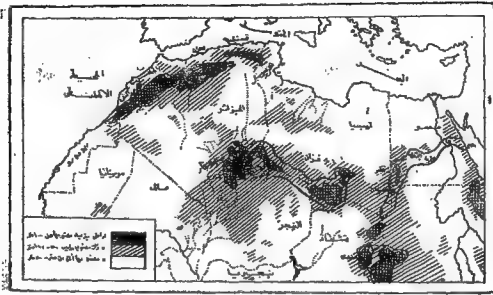
ورغم ذلك فقد ركز البحث بصورة أوضح على مساحات النطاق الصحراوى بإمنا الإسلامى والعربى فى كل من الصحراء الكبرى وصحراء جزيرة العرب ولم يمكنه من دراسته هنا أيضا سوى المنهج الأصولى لها فالظاهرة من انتشار واضح داخل تلك الأقاليم الصحراوية .

توزيع نطاق الصور الصخرية بالصحارى العربية

يشير التوزيع انعام للصور الصخرية عبر النطاق الصحراوى بشمال أفريقيا إلى اتساع نطاق هذه الرسوم ، بحيث تشغل النطاق العربى الكبير للصحراء الكبرى ابتداء من شرقها وشمالها الغربى إلى قلبها أو وسطها حتى حدودها الجنوبية ^(٢) .

(1) Preston James : American Geography Inventory and Prospect., Washington, 1954, p.p. 1 - 8.

(2) Huzayyin, (S. A.) « Some new light on the Beginnings of Egyptian Civilization » Extrait du Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte, (T. XX) 1939. pp. 212 - 216.



(شكل رقم ٢)

محاور اتجاهات الرسوم الصخرية بشمال أفريقيا الصحراوية
(المحور الشرقي ، المحور الغربي)

وتواصل الرسوم الصخرية امتدادها الشرق عبر البحر الأحمر - رغم وجوده - لتظهر لنا، مثلاً في مجموعة الرسوم والنقوش « السودانية بالجزيرة العربية » ، حيث كان موطن السوديين طبعاً لما جاء في النقوش المسماة « العراقية » التي ترجع إلى عهد سارجون الثاني ، ولقد أرخ هذا الخط بعام ٧١٥ ق م . وتتميز النقوش والصور الصخرية بشبه الجزيرة بانتشارها في الجنوب وفي الشمال وإقليم الحجاز الشمالي ، ثم وجدت في هضبة نجد ، ومازالنا أراض شبه الجزيرة تخفي العديد منها الذي يعود للسوديين أو ربما لما بعدهم . ومثال ذلك ما عثر منها في حفائر الفار بمنطقة قرية فو ، جنوب غرب الرياض الحالية يحرى إلى ٧٠٠ كم .

كذلك رسوم في جنوب أفريقيا إضافة لرسوم صحاري جنوب غرب أمريكا الشمالية - وغنى نوال الدراسة بشكل أكثر تفصيلاً على النجوى التالية -

أولاً : الرسوم الصخرية بشمال أفريقيا :

أوضحت دراسات فورد جونستون Forde Johnston (عام ١٩٥٩ م) اتجاهات نطاق الرسوم الصخرية بشمال أفريقيا ، فهي تتمثل في محورين الأول ذو اتجاه شرقي ، والثاني ذو اتجاه غربي . وتبدأ نقطة تلاقي المحورين السابقين من منطقة شمال دارفور وعيندي . خريطة (شكل رقم ٢) .

وهكذا من النقطة السابقة يتجه المحور الشرقي نحو جبل كيسو جنوب العوينات بحوالى ١٥ ميل ثم جبل ار كفو وتلال فرغنده ، التي تبعد عن حارب العوينات بحوالى ٦٠ ميلاً متجهاً إلى مدينة الجلف الكبير^(١) .

وبرى الباحث أن هذا النطاق يعاود ظهوره مرة أخرى في الواحات الداخلية والخارجية الواقعة بين نهر النيل الحالي ، ثم عبر النيل ، ليصل إلى امتداده ما بين قنا والقصر الحليتين ، أى أنه يمتد ليخترق صحراء مصر الغربية والشرقية . عند الأخذ في الاعتبار دراسات فنكلر التي قام بها عام (١٩٣٨)^(٢) .

كما يمتد المحور الغربي للرسوم الصخرية بالصحراء الكبرى وشمال أفريقيا حيث يبدو في تبسى وازان Ezzan ، (وناسيلي الأجر) Tassili de Ajjer وفي فزان Faxzan والأحجار وأير بالإسنافة إلى أدرار Adrar Ahnet . تلك المناطق التي كانت بمثابة جرد مطيرة في رأي كنيث والطنون (عام ١٩٨٧ م) رغم صعوبة جفافها الحالي^(٣) . ويلاحظ أن هذا المحور يتفرغ بدوره إلى فرعين أحدهما يتجه شمالاً بشرق ليضم الرسوم الصخرية في تونس وقسطنطينة والجوارث والمغرب . بينما الآخر يتجه

(1) Forde (J.L.) Johnstone : « Neolithic Cultures of North African » - Liverpool University Press .. 1959. pp. 78 - 79.

(2) Winkler, Hans (A.) Rock Drawings of Southern Upper Egypt Part I. London. 1938, pp. 3 - 9.

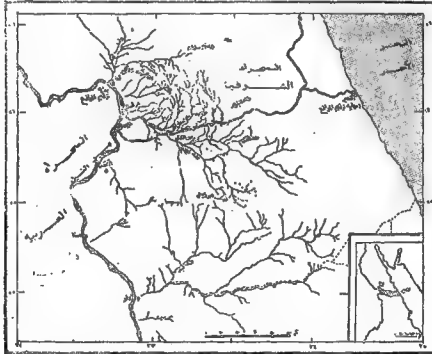
(٣) كنيث والطنون : الأراضي الجافة . ترجمة علي عبد الوهاب شاهين . دار

المنهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت (١٩٧٨ م) ص ٨٠ - ٨١ .

إلى غرب الصحراء الكبرى بحيث يشمل المنطقة الممتدة بين الجزائر وموريتانيا (منطقة غرب الصحراء الجزائرية) وجنوب المغرب، حيث عثر على عدد كبير من مواقع الصور الصخرية هناك^(١). (انظر الخريطة المرفقة شكل رقم ٢).

موضوعات رسوم المحور الشرق :

اهتمت موضوعات هذا المحور بتصوير مراحل حضارية وثيقة الصلة بالظروف المناخية التي عاصرتها بيئة الصحراء الشرقية بمصر، ولقد أشارت البعثة العلمية لروبرت موند Robert Mond إلى أن عدد المواقع بهذا الجزء من المحور الشرق بلغ حوالي (٣٠) ثلاثون موقعا على الأقل. لعام ١٩٣٦-١٩٣٧ م. ولقد ارتبطت هذه المواقع بمجموعة الأودية الجافة المتجهة من وسط الصحراء المصرية الشرقية إلى وادي النيل عند فقط الحالية (خريطة شكل رقم ٣-أ).



(شكل رقم ١٣) توزيع مواقع الرسوم الصخرية بالصحراء

الشرقية على طريق قنا الأقصر بمصر - عن فنسكار -

(1) Ford (J. L.) Johnstone : « Neolithic Cultures of North African », pp. 78 - 79.

ومن هنا ففى قد ارتبطت بأقصر طريق بين النيل والبحر الأحمر، والذي يعد خاضرة الصحراء المصرية الشرقية فى رأى جمال حمدان (عام ١٩٧٠ م) ويمتاز بجوانب الأودية المسكونة من الصخور الرملية والعديد من الآبار الجوفية ولقد بدى - بترقيم المواقع فيه ابتداء من قنا على النيل إلى الأقصر على ساحل البحر الأحمر ، وأكمل أرقامها مرسوم الجانب الغربى للنيل إلى حيث رسوم الواحة الخارجة بالصحراء الغربية بمصر .

ولقد أمكن تقسيم موضوعاتها شمال وجنوب طريق قنا التمهيد كالآتى :-
- رسوم حيوانية : لحيوانات الأستبس العاشبة كالماعز الجبلى Ibx ، والحمر البرية Wild Ases ، وبقر الوحش Antelope والماعز البربرى Barbay Sheep ، والذراف ، والغيلة ، والغزال .

وكلها حيوانات يطلق عليها حيوانات البيئة العاشبة The Fauna of Grassy Land

- والحيوانات المائية ، كأفراس النهر Hippopotamus والتماسيح ،
باعتبارها مرتبطة بالمياه A quatic Animals . (شكل رقم ٣ - ب) .
- مجموعة الحيوانات اللاحمة ، وهى التى تتمثل فى النمر الأرنط Leopard أو القطة المتوحشة .

- مجموعة الطيور ، كالغمام ، والأوز ، والديك والرومى Bustard والغراب Raver ، ومالك الحزين Heron .
- السكلاب التى كانت تستخدم فى الصيد والرعى .

- رسوم نباتية قليلة ، ارتبطت بالقوارب المسائية المنقرنة بشجرة النخيل ،

- رسوم متعددة للقوارب ، مرتبة بالأفراد أو خالية منهم . (شكل رقم ٤ - أ) .

- رسوم بشرية للأفراد وهم يقومون بالصيد أو الرعى أو بالملاحة .

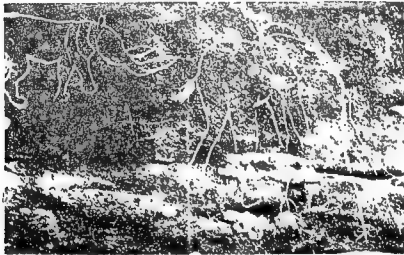
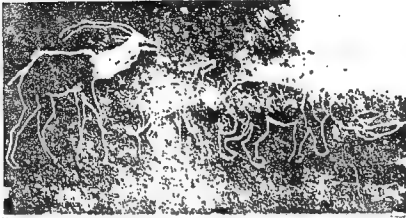
ولقد أمكن العثور على نماذج ذلك بوادى المتيولا وفروعه مثل وادى أبو فار ، وفي موانع وادى الموية وفروعه Wadi Moweh التى بلغ عددها عشرة ، وفي وادى المعاونى - فروعه .

كما عثر عليها في جنوب طريق قنبا القصير ، عثلة في أودية ، القش .
وبوادي أبوواصل ، الذى أشارت إليه دراسات بيركارد برجنتر عام (١٩٦٩) وذكرت تفردة بمزة وصول المؤثرات الآسيوية المرتبطة بالفترة أو الدور المطير الثانى بالصحراء الشرقية . ولقد برزت في وصول المستأنسات القادمة من جنوب غربى آسيا (كالأبقار والكلاب) التى تكررت صورها بالموقع خاصة الكلب من نوع Gryhonde ، الذى تم استئناسه لأول مرة في غرب آسيا منذ (١٠ - ١١ ألف) سنة مضت ، ويوجد الآن لدى قبائل الطوارق بصحارى وسط أفريقيا . ولهذا يعلق عليه بيركارد برجنتر عندما يقول :
« أن مثل هذا الحيوان لا يأتى بمفرده من موطنه وإنما جلبه الإنسان من آسيا إلى أفريقيا ، » .

كذلك بالنسبة للأبقار ذات الأصل الآسيوى فقد جلبها ورعاها في الصحراء الشرقية المصرية لإنسان هذه الفترة ، بل ولقد بلغت أهميتها لديه في ملكيتها عندما كان يميزها بعلامة خاصة ، لهذا فالأبقار في وادى أبوواصل لا يزيد تاريخها عن ٩ آلاف عام مضى .

ويعلق على ماسبق بيركارد برجنتر بأن الاقتصاد الرعوى الجديد الخاص بالعصر الحجري الحديث ، قد اجتذب الرعاة القادمون إلى أفريقيا في هيئة موجات تازحة إليها ، وكان نتاج ذلك مجموعة الصور الصخرية التى اختلفت عن نظيرتها لدى الصيادين غير المستقرين القدامى (١) : (انظر الخريطة المرفقة شكل رقم ٣ - أ وشكل رقم ٣ - ب) .

(1) Brentjes, Burchard : African Rockart, Op cit, pp. 58 - 60 .



(شكل رقم ٢ ب)

رسم الصحراء الشرقية المصرية وحيرانات السفانا العاشية
(الغيلة ، أفراس النهر ، الزراف)

ورسوم المحور النبل التابعة للمحور الشرقى : (انظر شكل ٤ أ ، ب) :
امتدت مجموعة رسوم أو صور هذا المحور باتجاه شمالي جنوبي
على منطقتين :

الأولى : رسوم كوم أمبو عند قرية السيل (١) .

الثانية : رسوم وادى أبو صيرة ، قرب سكة حديد الخطاطرة ، على بعد
ثمانية أميال شمال مدينة أسوان بصعيد مصر ، وهى الرسوم التى أطلق عليها
كل من مرسى وماير هام (١٩٢٣ م) اسم الرسوم الصخرية لمصر ما قبل
الأسرات المصرية (٢) .

وتقع بوادى جانبى يطلق عليه اسم وادى الخطاطرة ، على بعد ٨ أميال
شمال أسوان حيث اشتملت على نوعين من الرسوم :

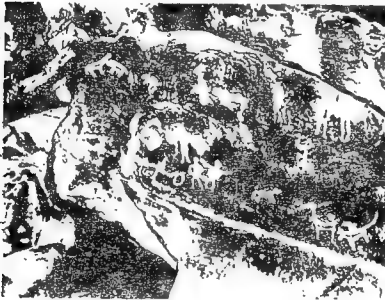
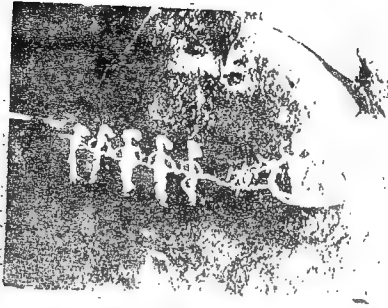
(أ) لحيوانات برية كانت تعيش فى الأقاليم كالقبيلة ، وكانت منقوشة
على الصخور بألآة حادة (معدنية أو حجرية) .

(ب) أبعد من صور المجموعة الأولى بحوالى ٣٠ ميل داخل الوادى ،
حيث مثلت رسوم للقوارب التى بلغ بعضها عشرة أقدام وكان يعمل على
ظفره طاقم ملاحيه (السكران) من ثمانية أفراد ، إضافة إلى عدد من الحيوانات
كالماز الجبل ، و رسم لغارين آخرين قارعين (انظر شكل رقم ٤) .

الثالثة : رسوم وادى د أبو عجاج ، إلى الشرق مباشرة من مدينة أسوان ،
حيث بدأت من مصب الوادى إلى الداخل بحوالى ستة كيلومترات ، وهنا
يذكر عطية (M. I.) (عام ١٩٥٥) أن جوانب الوادى الحجرية

(١) شحاته آدم محمد : الرحلات والبعثات برا وبحرا فى مصر الفرعونية منذ
أقدم العصور حتى نهاية عصر الدولة الوسطى . رسالة دكتوراه - غير منشورة .
جامعة القاهرة ١٩٦٦ م ، ص ٢٠ .

(2) Marry, (G. W.) Myers (O. H.) : « Some Pre-dynastic Rock
Drawings » the Journal of Egyptian Archaeology. Volume 1.
Parts III & IV. Great Britain. 1933. pp. 129 - 132.

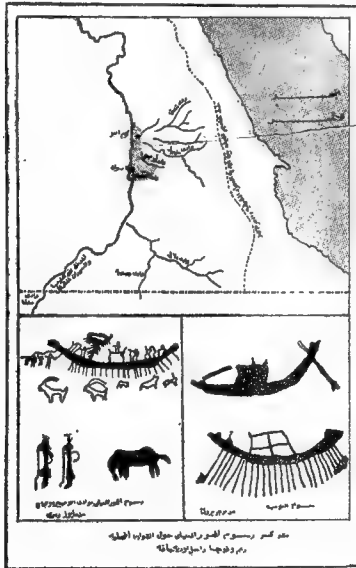


(شكل رقم ١٤)

الصور الصخرية بالمحور النيل - معجب القوارب ، حرنه صيد الحيوان
تميزت بصور الإنسان الراعي وهو يسوق قطيع متنوع من الحيوانات
(كالأرانب والغزالي والأبقار والماعز الجبل والحرار الوحشي والضبع والبقرة
الوحشي والخنزير البري) (١) .

(1) Attia, C. M. I. : Topography and Geology and Irons - ore
Deposits of the District East of Aswan. Geological Survey.
Cairo. 1955. p. 21.

وجدير بالذكر أن فورد جونستون Ford Johnston ، يذكر أن الخنزير البري يرتبط في وجوده بالمناطق الزراعية ، ورغم قلة وجوده بالصود الصحيرية ، إلا أن بيئة شمال أفريقيا الصحراوية الآن ، كانت من مناطق انتشاره ، لهذا تم تسجيل هذا الحيوان هنا باعتباره « احتياطي حتى من اللحم » . وبما كان يلاحظ أن الإنسان ، ومبرر تصويره هو ملامحة الظروف البيئية ذات المهرى الوفير لهذا الحيوان خلال تلك الفترة (١) .



(شكل رقم ٢ ب)

(1) Ford (J. L.) Johnstone : Neolithic Cultures of North Africa..
Opcit. pp. 62 - 63.

ووجدت رسوم أخرى ، للنعام ، التي ذكر ماير زائها عاشت في هذه المنطقة الصحراوية ولكن خلال عصر المطر ، إذ كانت ذات منزلة خاصة لدى ساكن هذا الأفام ، الذي كان يلتفح بريشها وبيضها^(١) . كما كثرت رسوم الطيور الأخرى كالخبارى (شبيه بالدبك والرومى) والغراب ، ومالك الحزين ، إضافة إلى السكب الذي كان يساعد في حرق الرعى^(٢) .

ورسمت بهذه المنطقة صورة للقارب ذو الأحراف التي تشبه أشجار النخيل ممتدة بصور لفيلة ، وربما يشير هذا الرسم إلى وجود مجموعة بشرية قوية النفوذ . بحيث فرضت على « عابرى » منطقة الشلال الأول ما يشبه « رسوم المرور » وقد اتضح ذلك من صورة مجموعة الرجال التي تسحب القارب بالحبال ، وربما أشارت أشجار النخيل إلى شعار مميز للقبيلة . بحيث كانت كل قبيلة تمتلك المنطقة التي تحملها ، وكان هذا الزم وضع احترام وتقدير حق العصور التاريخية ، بحيث نجد أن مايرز (ج . ل .) قد أوضح أنه يتدرج تحت قواعد المعاملة ، ويدل على معلومات بدائية في القانون ، وعلى تقدير الحقوق الغير إذ هو بمثابة تجارب بدائية في هذه المرحلة للحكم المحلي والائتمادي . (شكل رقم ٤ - ب) .

ففي اعتقاد مايرز ، أن هذا الخرم كان بمثابة « غابة » يشاعرها وادى النبل إلى جزئين شرقي وغربي ، ولقد دعى ذلك الأمر إلى تبادل تجارى بين سلع الصنفين^(٣) .
الرابعة : رسوم المنطقة الممتدة بين الجندل الأول والثاني ، وأخذ تناو لها

(١) مايرز (ج . ل .) : « جغرافيا التاريخ » ترجمة على عزت الانصارى ، مراجعة عبد العزيز كامل (د : ت) ص ٥٧ .

(٢) Attia, (M. I. : Op cit, p. 21.

(٣) Murray (G. I.) & Myers (O. H.) : Op cit, P. 139 - 130.

أيضا انظر : مايرز (ج . ل .) : « جغرافيا التاريخ » ص ٥٨ .

دنبار Dunbar بالدراسة عام (١٩٤١ م)؛ وذكر أنها كانت منطقة نفوذ تجارى هام ، ويرجع ذلك فى رأى Trigger Bruce ، إلى وقوعها على الحدود الشمالية للثوبة ، بحيث كانت هناك منطقة تجارية تمتد ما بين أسوان والجندل الثانى ، وكان مبعث أو دافع هذا النشاط التجارى هو التبادل السلمى بين منتجات الشمال والجنوب^(١) .

موضوعات رسوم المحور الغربى :

وهو المحور الذى سبق وذكرنا أنه يبدأ من نبتى حتى الأحجار وأير والأدرا أهنت Adrar Ahnet ، وكذلك ذكرنا أنه يتفرع إلى فرعين :
الاول : شمالى شرقى ، وتدرج فيه رسوم تونس وقسنطينة والجزائر والمغرب .

والثانى : شمالى غربى ، وتتمثل فيه رسوم الجزائر وموريتانيا وجنوب المغرب . ويمكننا لمجاز الموضوعات التى تناوّلها فى المجالات التالية :
- صور للقوارب فى د تزارفت ، وهى قوارب عميلة ليست لها علاقة بالمصرية .

- صور نقوش للحيوانات « المدارية الأفريقية القديمة » ، التى رغبنا المناخ الرطب عندما كان الأفليم يجرى به الأنهار . وتوجد به البحيرات ، وتنمو به النباتات الوفيرة ويتنوع به حيوان الصيد إلى جوار الأسماك . وعندما كانت أوديته خضراء ، وسفوحه تمكسوها الغابات^(٢) .

وهذا كان شمال أفريقيا مسرح لإعالة ثدييات متنوعة وهنديدة ،

(1) Forde (J. L.) Johnston : Op cit. P. 78.

Trigger, Bruce : « Nubia Under the Pharaohs ». London. 1976. pp. 37 - 38.

(٢) جوزيب (كى) زربو : فنانون العصر الحجري الحديث ص ٣٢ .

آسيوية الأصل وأنيوبية ، كالفيل والخرميت وحمار الوحش ، الزراف والجاموس والظبي وفرس النهر والقردة . وكانوا يسايئون بيئة غريبة عنها في الوقت الحاضر ، بالرغم من استمرار فرس النهر بالذيل الأدنى بمصر حتى العصر البطلي (١) .

ودليل ماسبق نقوش إنسان العصر الحجري القديم ، وهنا يضيف جوزيف زربو ، أنه تم العثور على رسوم للفيل بالحجم الطبيعي وبلغ طول فاه ٧٢ سم برادى مائندوس بليبيا ، مقترنة بالزرافة بين قريه ، مما يؤكد انتشاره بشمال أفريقيا ، حيث كثرت رسومه هناك ، إلى أن درجة العديد من الباحثين يجمعون على أنه ازدهر بالأقليم في العصر الحجري الحديث ، كماصور أيضا في أدنرى بلانكا ، بالنيجر وأتقن رسمه الصورة بأن عهد من وجلده ، بحفر أو نقط صغيرة انتشرت على جسده .

كما صور الماعز الجبل أو الكبش ذو القرون الكبيرة القوية في منطقة أدنى - أروميلاك ، بالجزائر . وقد أحيط برسوم تشبه الأسماك في وقت هرف فيه الإنسان واستئناس الحيوان ، والاستقرار في مساكن وقرى (٢) .

وهكذا لعل الأشكال المنقوشة للصور الصخرية والخاصة بالحيوانات بجميع أنواعها ، على جدران الملاجى الصخرية التي خلفها الإنسان في وادع كثيرة - سبق عرضها - تعطى صورة زاهية عن الوفرة النسبية للكلا والمرعى في تلك العصور من جهة وتبين مدى انتشار الإنسان واستقراره في أمهات جوف العصر (٣) .

-
- (١) محمد السيد غلاب ويسرى الجوهري : الجغرافيا التاريخية لمصر ما قبل التاريخ وجزءه . مكتبة الأنجلو المصرية . ط ٢ ، ١٩٧٥ م ، ص ١١٦ - ١١٧ .
- (٢) جوزيف كي زربو : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٧ .
- (٣) صلاح الدين بحيرى : جغرافية الصحارى العربية . المرجع السابق ص ٢٠٥ .

ثانيا : الرسوم الصخرية بجنوب أفريقيا :

تتمثل هذه المنطقة في جنوب أفريقيا المطل على المحيط الهندي والاطلنطى بمثلة في ليسوتو وملابى ونجوانه ونامبيا وجمهورية جنوب أفريقيا إضافة إلى ماتم كشفه في الأورانج الحرة ونهر الفال والفرانسفال (انظر الخريطة شكل رقم ٥) حيث تمثلت في الآتى :



(شكل رقم ٥) مناطق الرسوم الصخرية بجنوب أفريقيا

- صور حيوانية : حيث نقشيت الوراثة على كتلة حجرية مستطيلة بحيث
تأصبت امتداد الشكل تماما ، وكانت في غرب القرائسقال . كما وجدت صور
لحيوانات مائية (كفرنس النهر) الذى رسم على سطح صخرى خشن ذو حافات
حادة تشبه درع الحيوان الطبيعى تماما .

إضافة إلى ما سبق رسمت بحجرات لقطعان حيوانية متنوعة متنوعة وضع فيها الجاموس البري المنقرض ذو القرون الضخمة التي بلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار ، إضافة إلى حيوانات برية أخرى كالثور والفرقة والنسائيس والذمام واليوم وغيرها . حتى أن جوزيف كى زربو يشبهها بقوله :

« كأنها سفينة نوح غرقت ... أو حديقة حيوان شجرت ١١ » (١) .

- صور بشرية : صورت الإنسان الصائد للحيوان والاصماك .

- صور نباتية : حيث تميزت المنطقة بتصوير البيئة النباتية الشجرية الصحارى ، إلى درجة أنه أمكن التعرف على أنواع كثيرة منها .

أما بشرانا بحضوب الفارة فقد كانت صورة توضح الاعتقاد في صور « الحيران صانع المطر ، الذى كان فى هيئة « ثور » ، بقوده الإنسان نحو الماء الذى كانت توفره بيئة المطر بالأقليم فى رأى (ا . ميناويه) كجزء من طقوس (قبيلة اللوتوى) هناك . ولعل الأشكال المنقوشة لصور الحيوانات على جدران الملاجىء الصخرية التى خلفها الإنسان فى مواضع متعددة سبق عرضها تعطى صورة زاهية عن الوفرة الفنية للثقافة والمرعى فى تلك العصور ، كما تبين مدى انتشار الإنسان واستقراره فى أعماق صحراء كاهارى (٢) .

ثالثاً : الرسوم الصخرية بشبه الجزيرة العربية :

ذكرنا سابقاً أنه بالرغم من وجود الفاصل المائى الممثل فى البحر الأحمر بين الصحراويين الأفريقية السكوى من جهة وصحراء الجزيرة العرب من جهة أخرى ، إلا أن الصور الصخرية تمتد على كلى جانبيه لتصل إلى شبه الجزيرة العربية ، إلى درجة أن دراسة « غنسلكر » قسما مرحلياً إلى رسوم ما قبل

(١) جوزيف كى زربو ، فنانون العصر الحجري الحديث ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٧ .

(٢) صلاح الدين بحرى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

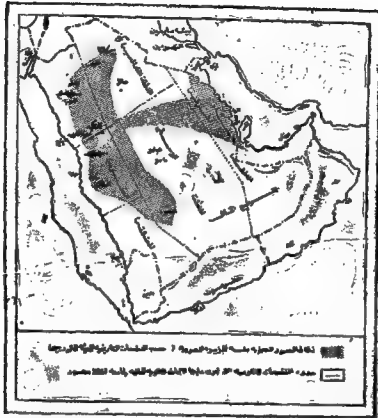
التاريخ (التي ترتبط بالتنقل وعدم الاستقرار) ورسوم مرحلة (إنتاج الطعام واستئناس الحيوان) ثم رسوم العصر التاريخي التي تبدأ بالرسوم العربية التي يزداد فيها التأثير العربي وصور الإبل والتي تقابل في رأيه مراحل شبه الجزيرة من الناحية الزمنية على الأقل ، وهي بذلك ترتبط بمزيج البلايستوسين الرطب ، وإحياءه الحيوية المتنوعة ، وربما يؤكد لنا ذلك مرضى لآدم نماذج الصور الصخرية بالأقاليم .

توزيع الصور الصخرية بشبه الجزيرة العربية :

تميزت مناطق توزيع الرسوم الصخرية بشبه الجزيرة العربية بالانتشار الذي سبق أن لاحظناه على النطاق الإفريقي من الصحراء الكبرى ، ولذا فقد انتشرت في جنوب الجزيرة العربية وقام بدراستها «برين دو Brain Doe» في كتابه جزيرة العرب الجنوبية Southern — Arabia ، كما انتشرت في شمال شبه الجزيرة العربية وإقليم الحجاز الشبالي وقام موسيل (A.) Musil بدراساتها في كتابه الحجاز الشبالي Northern Hejaz وسميت عنده بالنقوش والثودية الحجازية .

إضافة إلى ما سبق فقد عثر على النقوش الصخرية طهيية نجد ، وقام باكتشافها في منطقة الجوف ، كل من هوبر Hober ويوتنج Eating وكذلك اكتشفت بشمال سكاكا وأعلن ذلك فان دي براندن Van de Branden (خريطة رقم ٦) .

وتعزى الرسوم الصخرية بشبه الجزيرة العربية طبقاً لرأى فورسنر المذكور في كتابه «الجغرافيا لشبه الجزيرة العربية» Historical Geography of Arabia إلى قبائل (ثموديين أو ثموديتاي) أي تودخ بعام ٣٠٠٠ ق . م ، طبقاً لرأى هيد القدوس الأنصاري ، فقد كانوا من أشهر القبائل في شبه الجزيرة



(شكل رقم ٦) متدلة احلال: المدد الثاني لعام ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٩ م

العربية وكان موطنهم الأصلي بها هو جنوبها باعتبارهم من الأمم العربية القديمة، وظلوا بهذا الموطن إلى أن طردهم منه فيما بعد الحيريون والذين يسدون من العرب للعاربة أو الباقية. فهاجروا إلى شمال شبه الجزيرة وانتشروا في أقاليم معينة كبلاد الحجاز وسيلهاوا على سواحل البحر الأحمر (١). لهذا تؤرخ الدراسات الحديثة حضارهم فقط بأنها كانت تعاصر القرن الثامن قبل الميلاد، بينما يحددها رأي آخر بأنها معاصرة لميلاد المسيح، وهناك رأي

(١) عبد القدوس الأنصاري: بين التاريخ والآثار، دار العلم للملايين، ط ٣،

بيروت ١٩٧٧ م، ص ٢٥٨ - ٢٥٩، أيضا انظر:

- وفاء محمد رفعت، جمال عبد الهادي: نحو تأصيل إسلامي للتاريخ: جزيرة

العرب منذ أقدم العصور، ج ١، دار الطباعة الحديثة، مكة (١٣٩٨/١٩٧٨ م)،

ثالث يرى بأنها وجدت قبل الإسلام بقرن أو اثنان من الزمان وأنها حضارة تأثرت بما يجاورها من هذه المراكز من حضارات بلاد العراق وسوريا ومصر (١) .

وهكذا كانت لهم تجارة موهمة بحيث تحكوا في طرائقها ونظموها وأمنوا أفرادها . وجوها وبهذا أيضا تجولوا في الشمال والشمال الغربي ، وتجمعوا بالمناطق البحرية المنتشرة بأحساء هذه المنطقة ، ولكن الأدلة التاريخية تقتصر إلى ما يثبت نشاطهم البحري السابق ذكره . غير أنهم استطاعوا تكوين قوة كبيرة في إقليم شمال الجزيرة العربية ، ودليل ذلك مستمد من نقوشهم الثورية التي خلفوها به ابتداء من الجوف شمالا حتى الطائف جنوبا ، ومن الإحساء شرقا إلى يثرب وأرض مدين غربا ، وعبر الطرق المتجهة إلى العقبة والأردن وسوريا ، وإلى الطرق المتجهة جنوبي حضرموت وجنوب جزيرة العرب (٢) .

وتعددت أفضال هؤلاء القوم في تاريخ شبه الجزيرة العربية الحضارية بحيث برزت أيضا في نقوشهم الصخرية التي أفلدت في مجال التعرف على الأبجدية السامودية ، باعتبارها حلقة وصل بين أبجدية جنوب الجزيرة العربية وشمالها كما برزت أهمية النقوش في التعرف على أنواع النشاط البشري لأهل الإقليم فلم يكن النوديين مجرد تجمعات بشرية تجارية فقط ، بل كانوا قوة حربية مهيمنة على شمال وغرب الجزيرة العربية أو معظم أنحاء بلاد العرب الصخرية (٣) .

(١) أحمد غنوي : بين آثار العالم العربي ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ م

ص ٢٨٠ د

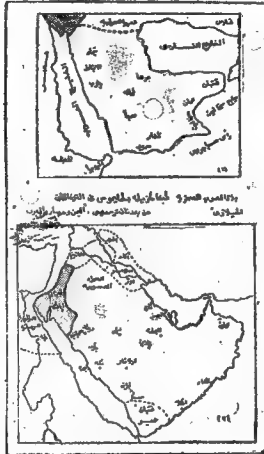
(٢) محمد ييوي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، الرياض ١٩٧٧ ،

ص ٩٧ .

(٣) إبراهيم الشنتل : النوديون ، ص ص ١٨٥ - ١٩٨ .

• ولد بطليموس نيبا بين (١٢١ - ١٥١ ميلادية) وهو من بطلمية بصعيد مصر ،
وقد دراسته في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي باسم الهابيل الجغرافي الذي =

Arabia - Petraea طبقاً لتقسيم الجغرافي اليوناني كلاوديوس بطليموس
 Cludius - Ptolemaius ، فيما بين (١٢١ - ١٥١ ميلادية) انظر الخريطة
 المرفقة شكل رقم ٧ (١).



(شكل رقم ٧)

٢ - تحديد تقريبي لبلاد النجودون (هاجابا) بشبه جزيرة العرب
 في القرن الأول قبل الميلاد (من آنادوسن)

ومن هنا اشارت الكتابات التاريخية إلى أن امهر فرسانهم قد حاربوا
 مع جيوش ازرومان بقيادة الامبراطور د جستيانوس ، في القرن السادس
 احتوى ٢٦ لوحة إقليمية وبها ورد تقسيم جزيرة العرب إلى أقاليم جغرافية منها
 العرب الصحراوية ، انظر في هذا المجال : محمد صبحي عبد الحكيم وباهر البقي :
 عالم الخرائط ص ٢٠ .

(١) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم . ص ٩٧ .

الميلادى ضد قبائل الشرق ، وكان الرومان ينظرون إليهم على أنهم قوة
حرية جيدة ومن الدرجة الأولى حيث تمكنوا بهم من رد فشل حملاتهم
المتعددة داخل إقليم شبه الجزيرة وممالك الصحراوية .

وبسبب شهرتهم السابقة تجاريا وحريريا تعددت مصادر ذكرهم بحيث
كانت أول إشارة لهم من الناحية التاريخية في عهد سارجون الثانى بالعراق ،
وكان ذلك بخط مسمارى يرجع لعام ٧١٥ ق. م . وفى هذه الإشارة تحديد
لموطنهم داخل شبه الجزيرة فى منطقة هاجابا Hageppa التى أطلق عليها
الإنجيل (Efa) ، وهى التى حددها الكتاب الكلاسيكيون فيما بعد بأنها شمال
غرب شبه الجزيرة العربية (١) .

الرسم الصخرية اليهودية وموقفها من الندوات العلمية :

بدأ اهتمام علماء الآثار والدراسات الشرقية بالنقوش اليهودية ، الأمر
الذى وضع فى الندوة العلمية الثانية لتاريخ الجزيرة العربية التى عقدت
بجامعة الرياض عام ١٢٩٩ هـ (١٩٧٩ م) ، وكانت محور اهتمام الأثرى
(أ. ج. دروز ، الذى تمكن من استخدامها فى عمل معرض تاريخى
مسل ، للشعوبين شبه الجزيرة العربية ، ولا يفوتنا الإشارة إلى أن اهتمام
فورستر الجغرافى بهم يمزى إليه الفضل فى تحديد المواطن الأصل للشعوبين
بجنوب شبه الجزيرة ، كما يرجع إليه فضل تحديد الوطن التالى الذى استوعبهم
بعد ضغط الحيريون عليهم وانتقالهم له . وإليه أيضا يمزى فضل تحديد
فشاطهم البشرى سواء أكان تجارى أم حربى ، من خلال ما خلفوه من
نقوش يهودية بالإقليم (٢) .

(١) إبراهيم الشنت : اليهوديون ، نفس الصفحات .

ربما يقصد بقبائل الشرق أهل العراق القديم الذين عاشروهم وأرخوا لوجودهم كما
ذكرنا من خلال خطهم المسمارى المعروف ببلاد ما بين النهرين خاصة وأن الدراسات
التاريخية الحديثة قد أشارت إلى اقتراب موضعهم من تلك البيئة .

(٢) إبراهيم يوسف شنت : المرجع السابق .

فإذا نظرنا إلى إقليمهم نجد أن مؤرخو الإسلام ورواياته وعلماءه قد أجمعوا على أن بيوتهم قد تهرت في جبال مدائن صالح ، وأنها كانت معمورة بالسكان الذين نحتوها وشكلوها ، وعرفت بمنحوتات مدائن صالح ، تلك التي تضاربت فيما آراء الرحالة والمستشرقون الغربيون ، عندما ذكروا أنها لم تكن سوى د قبور للأموات ، حتى أن العديد من مؤرخي العرب تأثروا بها في كتاباتهم فيما بعد .

بينما نجد المؤرخ الإسلامي الاصطخرى ، كان يشير إلى أنها د بيوت ، أو منازل مستهداة بكتاب الله في قوله تعالى د فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، وكذلك بالآية الكريمة في قوله تعالى د واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتفتخرون بالجبال ييوتا .

وعلى ذلك فإن فراغا الحال إنما هو تالى لمرحلة هلاك أهلها ، الذين كانوا يعمرها خلال هذه الفترة الزمنية^(١) . فهل ساعدتهم على ذلك الاستقرار معايشهم لظروف هيدرولوجية مفارقة لما يشهده الأقاليم الآن ؟ ولربما يتضح لنا توافق الظروف المناخية المخيرة الآن ، من الناحية الهيدرولوجية مع الاستقرار البشري القديم للثموديين ، إذا علمنا أن دراسات د ميلر ، و د هنتجتون ، المناخية تعتبر أن البقايا الأثرية بالصحارى ليست إلا دليل أو د مؤشرات مناخية ، تعكس ما عاصره سكانها من بيئة رطبة سمحتهم على العيش فيها رغم ما تشاهده المنطقة من جفاف مطبق يهت أهلها على هجرها وعدم الاستقرار بها^(٢) .

وبذلك تؤكد أيضا الدراسات المناخية لبلابستوسين أن شبه الجزيرة

(١) عبد القدوس الأنصارى : بين التاريخ والآثار ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) عبد العزيز طريح شرف : الجغرافيا المناخية والنباتية ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ، ط ٨ ، بيروت (د . ت) ص ٣٥ - ٤٠ .

تعرضت لتغيرات مناخية ترتبط بتلك الاضطلال البشرية ، فتي كانت تلك التغيرات وما هو دور الصور الصخرية في إبرازها ؟ .

ارتبطت التغيرات المناخية في شبه الجزيرة العربية بدراسات الأثرى ما كلور MC. Clure (عام ١٩٧٦ م) ، حيث أشارت إلى أن الإقليم قد سادته فترات « مناخية جيدة » ، تميزت بارتفاع نسبة رطوبتها ، وتوالى عمليات البحث الأثرى أشارت نتائجها فيما بعد (عام ١٩٧٩ م / ١٣٩٩ هـ) إلى تأكيد نفس النتيجة السابقة ، مع إضافة تحديد هدى وتأريخى لأدوار المطر بالمنطقة فوجدت أن شبيهه الجزيرة العربية قد مرت بدورين « مليرين المعروف في منطقة جبال الألب الأوروبية ، ولقد أكدته كل من هوتزل ومورين (عام ١٩٧٨ م) حيث مر بأعوام ٩٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق . م . وكانت تمثل أواخر البلايستوسين ، وأكدته أيضا كل من ليولت وهوتزل عام (١٩٧٩ م) ، وقد ارتبط هذا الدور بمرحلة رطبة « شبه غربية مطيرة » .

أما الدور الثانى : فكان في هيئة فترة رطبة منقطعة وليست متصلة وكانت أقصر مدى من الأولى ، بحيث وصلت إلى أوائل الهولوسين ، وارتخت بعامى ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق . م . وامتدت إلى الألف الأولى قبل الميلاد ، بل وهجر القرون الأولى للميلاد ، ولربما إلى العصر العباسى . طبقا لدراسات لارسن وماكلور وهوتزل (عام ١٩٧٨ م) ^(١) ولربما حاصر اليهوديان هذا الدور وتأثرو به في أحداث يثتم .

ولذا عقيت دراسات كنيث والطنون K: waton (عام ١٩٧٨) على عملية « إعادة تصور بيئة البلايستوسين بشبه الجزيرة خلال عصر المطر بقولها « أن ظروف الاستيس المناخية سادت معظم المنطقة المحددة إلى

(1) Department of Antiquities and Museums : ATLAL , P. 32
(٣٨ - مجلة كلية اللغة)

الجفوب الغربي لواديا دجلة والفرات . مع مراعاة أن الربع الخالي بها كان منطقة جافة كما هي الآن ، إضافة إلى كل من فلسطين والأردن وسوريا والمناطق الجبلية باليمن كانت تستمتع بمناخ مطير (١) .

وبهذا تتفق بطريق مباشرة مع دراسة Anna Dawson (عام ١٩٧٩ م) التي ترى أنه أثناء معاصرة أوروبا للأدوار الجليدية ، التي جعلتها غير مرغوبة للسكنى البشرية Uninhabitable ، فإن شبه الجزيرة كانت تشهد أحوال مناخية معتدلة had enjoyed atemperate climate وضحت أدلتها في العديد من المجارى المائية Numerous watercourses (٢) .

كما أن بروكس Brooks (C.E.P.) (عام ١٩٧٠ م) ، يضيف إلى ما سبق إعادة تصور مناخ الإقليم ، عندما يرى أن المناطق الصحراوية الحالية كانت من أمتع الأقاليم المناخية على وجه الأرض خلال هذه الفترة . وقد نالت من الأمطار خمسة أضعاف ما تناله الآن (٣) .

ولقد زحفت موجة الجفاف التدريجي على شبه الجزيرة العربية من الشرق أولا ، نحو الغرب ، وربما لهذا السبب بالذات وجدت ذخيرة الرسوم الصخرية متمركزة بجانبها الغربي لمصب نهد والمتاخم لجبال السراة ، كما هو الحال في كتابات المؤرخين البعثوجرافية السابق الإشارة إلى توزيعها الجغرافي . فالأحوال الرطبة شجعت الإنسان على الاستقرار ، والاستقرار أدى إلى تنوع أنشطته وبجالاته الحضارية فكان هذا الكم الهائل من الصور الصخرية .

(١) كنيث و الطون : الأراضي الجافة ، ص ٨٠ - ٨١ .

(2) Anna Dawson & Others : The Kingdom of Sandi Arabia, London, 1979, P. 73.

(3) Brooks (C.E.P.) : Climate through the Ages, New york, 1970, P. 276.

أعد الباحث جزء واف عن دراسات عصر المطر بصحراء شبه الجزيرة خلال البلايستوسين وهو في طريقه للنشر داخل مؤلفاته .

عرض نماذج الصور الصخرية بشبه الجزيرة العربية :

صور جنوب شبه الجزيرة :

عثر على نماذجها مثلة في صخرة كبيرة على حدود الربع الخالي ، في هيئة نقوش ثمودية ، وقام بدراستها برين دو Brain Doe الذي أشار إلى انتشارها في جنوب شبه الجزيرة ، وإلى أنها تحوى العديد من الأشكال الأدبية ، معتقده بأنواع حيوانية ونباتات طيحية ، وكان أول من تناول تفسير هذه المجموعة من الرسوم كل من أميل رودجر Emil (R.) Rodiger (عام ١٨٣٧ م) ووهلم Wihlem (H. F.) عام (١٩٤١ م) .

كما عثر على ما يشابهها في الحج Lahoj ووادي - ضرموت ، حيث تشير إلى وجود الثموديين في هذا الجزء من شبه الجزيرة قبل الميلاد بألاف السنين . وفي مجتمعات متحضرة ثقافيا (١) .

صور وسط شبه الجزيرة :

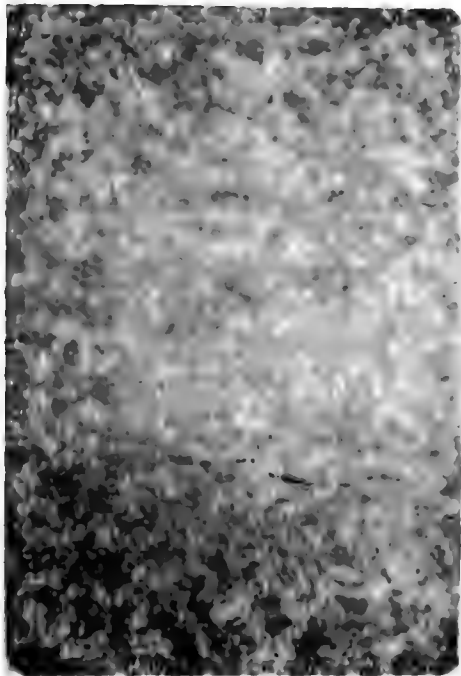
ويقتصد بها مجموعة صور منطقة هضبة نجد ، حيث عثر على نماذجها في حائل وذلك في جبل باطب ، وهي مثات من النقوش الثمودية التي ألقت الضوء على حضارة الثموديين .

كذلك عثر بالحوف على يد دهور و بوتنج Entidg & Hohor على العديد منها (٢) ، إضافة إلى ماتم اكتشافه في شمال سكاكا حيث منطقة الطوير التي درسها فان دي براندن Van den Brauden ، حيث صورت عدة جوانب من حياة الثموديين (٣) .

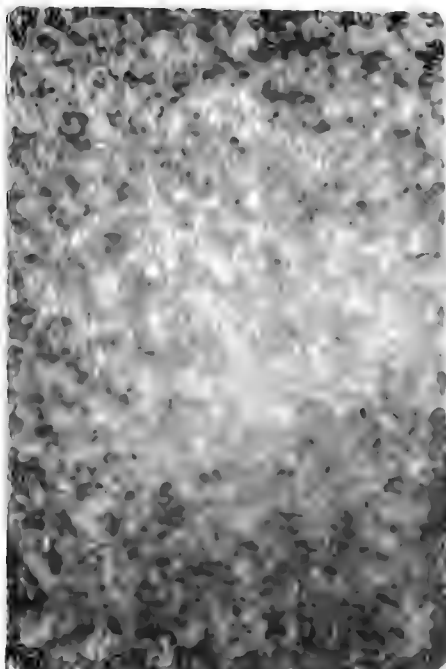
(١) إبراهيم يوسف الشتلة : الثموديون . ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) انظر لوحة رقم (٩ ، ٩ ب) زيارة ميدانية للباحث بالحوف .

(٣) إبراهيم يوسف الشتلة : الثموديون . ص ١٩٠ - ١٩١ .



(١) حصر النبات الطبية المستخدمة في شمال هذه الجزر : و. ا. ا. النبات الطبية : م
(لوحة رقم ١٩)

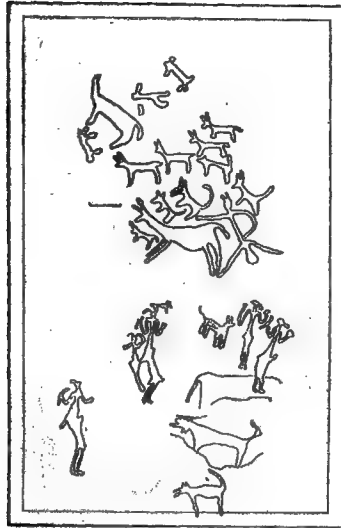


١ / ٥ / طبعات الاله و كالأوه و مقربة ظهور الإنسان

كما عثر بموقع جبل وواى الصويرة الذى يبعد عن المدينة المنورة بحوالى ٧٠ كم على صور شمودية وعربية صورت بشكل واضح فدى سخام يئنة البلايستوسين لهذا الجزء الصحراوى الجاف ويتحدد الموقع بأنه يقع غرب المنطقة العمرانية المعاصرة التى ينفرقها طريق المدينة القصيم الحديث . مما يشير إلى أنها كانت منطقة عامرة بالحياة ، ولقد احتفظت صخورها بدليل ذلك . فنجدها مصورت الحيوانات المقترسة واللاحمة كالأسد على صخور جبالها ، كما صورت الحيوانات العاشبة كالظباء ذات القرون الكبيرة المعقوفة والثور . إضافة إلى صور الأفراد وهم يمارسون حرفة الصيد وذلك من خلال استعمال الآلات اللازمة لذلك كالسهام والرماح أمام قطع متزوج من الحيوانات البرية التى تفر أمامهم ، إضافة إلى صور الأسد متحفز للوثوب على رجل أمامه وكأنهما فى صراع .

ويتطابق هذا الموقع فى موضوعات رسومه مع نقوش وادى بوبييه القريب من جده ، مما يؤيد إقامة أهل ثمود هنا بعد نزوحهم من جنوب شبه جزيرة العرب طبقا لرأى د سان جون فلبى عام (١٩٣٥م) (١٣٥٤ هـ) (١) . وإلى جانب ما سبق موقع جبل عرفاء الذى توافرت به النقوش الشمودية وما بعد الشمودية التى ترجع إلى الألف الثانى (ق.م) طبقا لرأى آفاقى (١٩٦٨م) . حيث صورت مجموعة رجال ذوى أذرع وسيفان مبالغ فى أطوالها ، ولهم ما يشبه الذيل ، وفوق رؤوسهم أعطية مزينة بالريش (انظر نماذج لوحة رقم ٨) كما يحملون أسلحة ممثلة فى أقواس مزدوجة وسهام . كذلك رسوم لبعض الأفراد الذين يقذفون بما يشبه المعصى . والبعض يمتطى ظهور جياد وجمال .

(١) عبد القدوس الأنصارى : المرجع السابق . ص ١١٩ - ١٤١ ، ١٤٩ -



(لوحة رقم ٨)

وهناك أيضا مصور حيوانية ، بدت فيها الأبقار والغزلان والنعام .
إضافة إلى ما سبق العثور على بعض الكتابات القودية التي دهرقت بالنقوش
اليهودية النجدية (١) .

وعثر أيضا بموقع خشم دلقان في جبال منجور الرملية على نقوش صورت
الحيوانات العاشبة كالأبقار الوحشية ، والماعز ذات القرون وكانت في
هيئة نقوش متقنة .

(١) إبراهيم يوسف الشنة وآخرون . المرجع السابق . ص ١٩٠ - ١٩١ .

إضافة إلى نقوش صورت الإنسان ، وهو يستعد للقتال برفع يديه لأعلى قابضا على المرات ، وآخر يمتطى جمل أو حصان .
ومن المواقع التي عثر بها على نقوش أخرى هي موقع الحفنة شمال مهد الذهب جنوب الحفائية ، وفيه صور حيوانية للفولان والأبقار والكلاب والأسود ، وكذلك بعض الأفراد الحاملين المعصى .



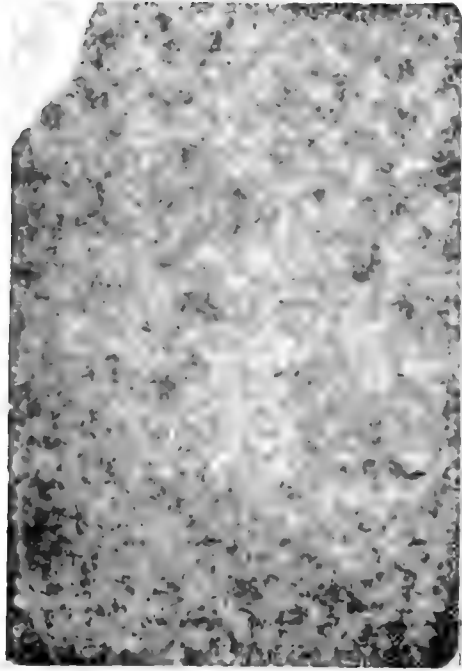
(لوحة رقم ٩)

نماذج لنقوش صخرية من مناجم الذهب بشبه الجزيرة العربية

وهناك موقع وادى ما سل وفروعه، وهذا يمتاز باقتران الصور الصخرية
بجوانب الأودية وعدم اقترانها بالجبال، ولقد تغير الإنسان كمثل الجرائيت
وصور عليها الحيوانات كراس البقرة، وكذلك أهمل ثمودى أو ضاع
مختلفة، منهم من يمتطى جوادا ويطارده طائر النعام وآخر يمتطى ظهر جمل.
وأهم ما يتميز به هذا الموقع هو تصوير البيئة النباتية وبدأ واضح في رسم
شجرة النخيل ١١.

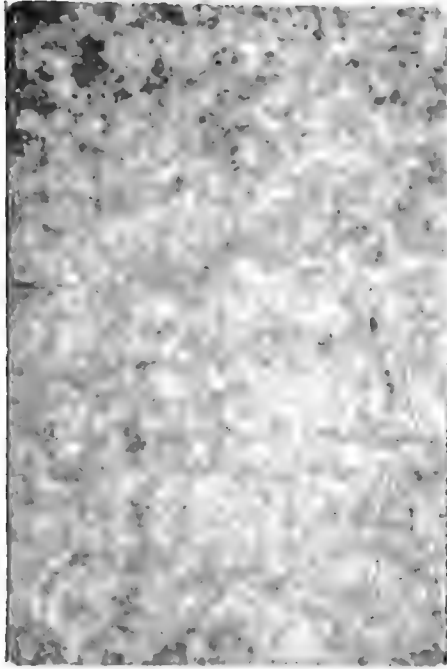
وأهم آخر موقع في مجموعة صور وسط شبه الجزيرة هي تلك التي
ارتبطت بجبل د برمة، الذي عثر به على نقوش تصويرية بارزة حفرت على
كتل الأحجار الرملية^(١) (انظر لوحى أرقام ٩ أ، ٩ ب).

(1) Department of Antiquities & Museums : ATLAL. Op cit,
P. 32.



الرسم المصغرة وازرة ظهور الإله رقيقة طيور الإلهان بها (لوحة رقم ٩ ب)
 من الجوف (رأية ميدانية للباحث

بازن الرسوم الصغيرة بحجرات كبيرة للنفوس كالجمال والطيور
(كالسالم) - (من الجوف) زيارة سيدية الباحث



صور شمال شبه الجزيرة :

وهي التي رسمها موسى بن Husein ، حيث ارتبطت في رأيه بهجرة النوديين من موطنهم الجنوبي ، ثم بعد ذلك لم يمتهم على يد الملك الأشوري سارجون في القرن الثامن (ق . م .) . ولقد ذكر الجغرافيون والمؤرخون اليونان والرومان ومنهم ديودور الصقلي (S .) Diodours في كتابه Bibliothecae Historicae أن قبائل عمود بعد هزيمتهم انتقلوا من موطنهم القديم وانتشروا في عدة مناطق من الساحل الغربي للجزيرة العربية ، حيث كونوا مجتمعات كبيرة متحضرة ، عملت بالتجارة . وصدق على هذا الرأي بطليموس الجغرافي الذي حدد وطنهم بشمال غرب شبه جزيرة العرب (١) .

وكان صدى انتشار النوديين بهذا المكان ، وجود العديد من النقوش الصخرية ، أبرزها ما وجد على جوانب معبد « رواقا » الذي بنى في القرن الثاني الميلادي بواحة تيماء الواقعة غرب الطريق المتجه من جنوب جزيرة العرب إلى شمالها (انظر الخريطة المرفقة ولاحظ موقع بلاد النوديين شكل رقم ٧ السابق) .

ولكن البحث في المنطقة الشمالية لم يتوقف عند هذا الحد . إذ أكدت الدراسات الأركيولوجية أن هناك نقوش صخرية تسبق المرحلة النودية

(١) إبراهيم الشنة : النوديون . ص ١٩٠ .

• أسلوب جبه هو الميز والسائد بالمنطقة الشمالية من شبه جزيرة العرب وفيه تميل النقوش التصويرية إلى الشكل الطولي وتتميز به معظم الحيوانات المرسومة هناك وبدأ واضح في رسوم (الأبقار والكلاب والماعز) . انظر المرجع الآتي ص ٤٧ - ٤٩ .

• هاجروا من موطنهم أولا إلى شمال الجزيرة العربية في ٣٠٠٠ ق . م . ثم استقروا به حتى القرن السادس الميلادي (أي قبل الإسلام بقرن تقريبا) .

بالإنفليم أطلق عليها نقوش ما قبل الثمودية Pre — Thamudi ، حيث انتشرت فيما بين سكاكا وحائل ، تلك المنطقة التي كانت مسكونة بالإنسان والحيدون حتى أنها ترجع إلى العصر الحجري الأوسط (الميزوليث) الذي يسبق الثمودية بآلاف السنين وترتبط برحلة صيد وقنص حيوان البيئة ، ففيها صور استعمال القوس والسهل إلى جانب حيوانات البيئة القديمة بأسلوب جبهه Juba Style . حيث برزت فيه صدر الأبقار ذات القرون القصيرة المزودة بعلامات مميزة والرسم الجانبي مقترنة بالحياد والإنسان الذي صور كامل بجانبه عدا وجهه كامل وأذنه رفيعة ، بالإضافة إلى لباسه وغطاء رأسه حيث تمثل في صديري وتنوره على وسطه ملتصقة بأرجله من أعلى . وكذلك صورت النساء مصفرت الشعر وذات زى مخرف في جزئه العلوى وتنورات ابتداء من البطن (١) .

وإلى جانب ما سبق أطلق على النقوش الثمودية اسم النقوش الثمودية النبطية Tamudic including Nabatean وترجع إلى القرون الأولى لما قبل ظهور الإسلام ، وتمتد إلى ما بعد الميلاد بقليل ، حيث تنتشر على مساحة كبيرة قرب الجمعة وجبل حنين وأعمدة الرجاويل بسكاكا .

وصورت حيوانات هذه الفترة كالجمال ، والوعل والقهد ، والنعام والإنسان وأسلحته (كالحراب والمص) والحياد ذات الذبول المزودة بالشعر أهم من ذلك كله تصوير أشجار النخيل والنباتات المتسلقة أو المختلطة (٢) .

Palm trees (Sometimes with clinging figures or male designs) .

(1) The Journal of Saudi Arabian Archaeology ATLAS. Vol 2 . 1978 (1398). P. 47—49.

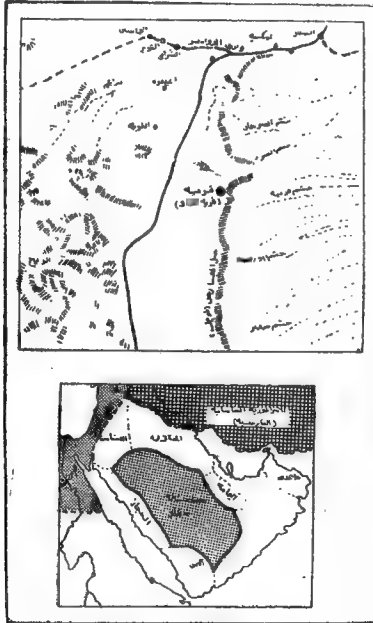
(٢) أضيف إلى جانب ما سبق نقوش صخرية حديثة Recent Rock Art هي النقوش العربية Arabic inscriptions ، وهذه عمت معظم إقليم شبه الجزيرة . واعتنت برسم الإنسان يتخطى ظهر جواده يحمل أو جله وحرفته مع بعض حيوانات البيئة كالوعل Ibx والطيور . . . وهذه لا تدخل في نطاق دراستنا أو بعدها الزمنى .

The Journal of Saudi Arabian Archeology. Archeology. P. 46.

الصور الصخرية للفاو بشبه جزيرة العرب :

AL — FAU

تقع الفاو على بعد ٧٠٠ كم جنوب غربي مدينة الرياض الحالية ، وعلى حافة منطقة الربع الخالي الصحراوية ، ويؤرخ لها بالفترة ما بين القرن الأول إلى الخامس الميلادي وأن دولتها المعروفة بكنتة قد زالت قبل ظهور الإسلام . (انظر الخريطة شكل رقم ١٠) .



(شكل رقم ١٠) الصور الصخرية للفاو باعتبارها أحد بلاد العرب
بشبه الجزيرة قبل ظهور الدعوة الإسلامية

ورغم موقعها الصحراوي المتطرف ، إلا أن مجموعة صورها الصخرية لا تدل على أنها كانت كذلك . . . بل كانت تمر بأحوال هيدرولوجية متغيرة لما هي عليه الآن ، ودليل ذلك اعتماد من عدة أدلة ، ولكننا هنا لن نبرز إلا أدلة الصور الصخرية .

فهنالك مجموعة صور حيوانية شملت الإبل ، والغزال ، والوعل على حافة الربع الخالي ، وعلى سفوح جبال طويق المجاورة لها ، إضافة إلى صور بشرية متنوعة ، حيث صورت الإنسان في هيئة (إله) مزود بأسلحة الصيد . كما صورت عمليات سلب أعداد كبيرة من الماشية ، مما يوضح مدى المنطقة بحيواناتها العاشبة والمستأنسة وهو ما لا تتحمله بيئة الصحراء الحالية (شكل رقم ١١) .



(شكل رقم ١١) حركه صيد الجمال « نموذج من الفاو »

إضافة إلى تصوير الحيوانات اللاحمة كالأسود ، وأيضاً ما يرغب المساء كالأحماك ، ويضاف إلى ذلك تعدد صور شجرة النخيل التي كانت من النباتات المدارة الهامة لسكان هذا الجزء . والتي استخدمت في هذين الأول غذائي لسكان الفاو ، دل عليها كثرة النوى بالمنطقة ، والثاني هدف بنائي حيث سقطت

بها أسقف المنارال التي دلت عليها حفائر جامعة الملك سعود (١) .

فالنخيل من الأشجار التي تتطلب كميات كبيرة من الماء . ويتحمل الجفاف ويمكن به تحديد الحدود القصور للعمران الزراعى ، في ضوء ما تتطلبه نخلة البلح من الماء ، فالمجموعة البشرية التي تعيش على النخيل تستهلك من الماء ١٠٠٠ مرة قدر ما تستهلكه المجموعة البدوية الراعية للحيوان .

أليس في ذلك دليل يثبت أن دفاو، ما قبل الإسلام كانت ظروفها المناخية تتغير على الأقل نظيرتها الجافة والحالية . وأليس في هذا دليل على أن الصور الصخرية المتكررة داخل مساكن أهلها وسفوح جبالها ، على دليل يثبت وبصور ما كان يعاشره أنسانها خلال عصر المطر ؟

(انظر لوحى رقم ١١ أ ، ١١ ب) وهما الباحث أثناء زيارته الميدانية للإقليم .

خلاصة العلاقة بين الرسوم الصخرية بالصحارى الإفريقية والآسيوية

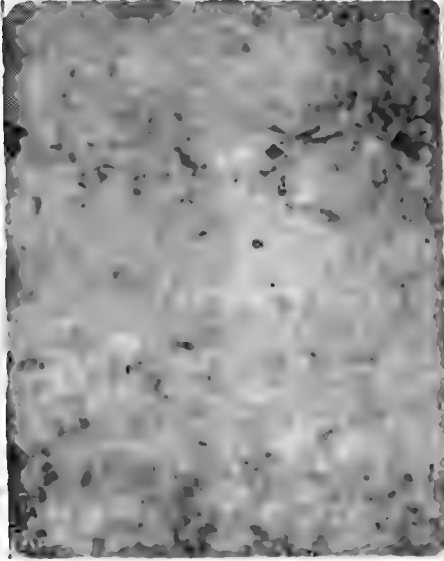
اتضح التطابق في الموضوعات التي تناولتها ، الصور الصخرية على كلى جانبي البحر الأحمر من عدة زوايا مرحلية على الأقل :

أولاً : وجدت صور صخرية تنتمى لمرحلة حضارية مبكرة من العصر الحجري القديم وهى خاصة بمرحلة الصيد والقتل وعدم الاستقرار

(1) At-Ansary, (A. K.) : «Qaryat Al-Fam» A Portrait of Pre-Islamic Civilization in Saudi Arabia, University of Riyadh, 1957-1992, P. P. 19-148.

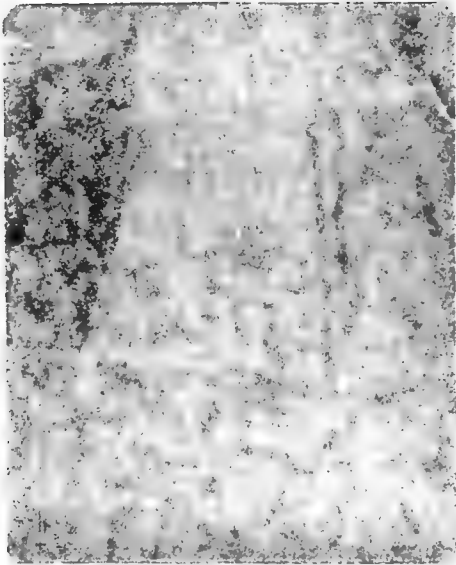
(٢) جودى (أ ج) ولكسون (ج . س .) : بيئة الصحارى العائمة . الجمعية الجغرافية الكويتية ، ١٩٨٠ م ، ص ١٢٦ .

(عن السلوك الايكولوجى لنبات خلال عصر البلايستوسين بالصحارى يقوم الباحث بإعداد بحث مقبل عنها) .



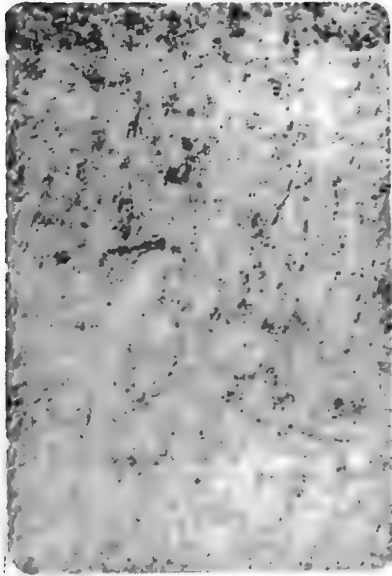
(لوحة رقم ١١ - ١)

رسم جدارية ملونة داخل منازل سكان القار
تعمل على وجود الإنسان بها في الدور المظلم الثاني



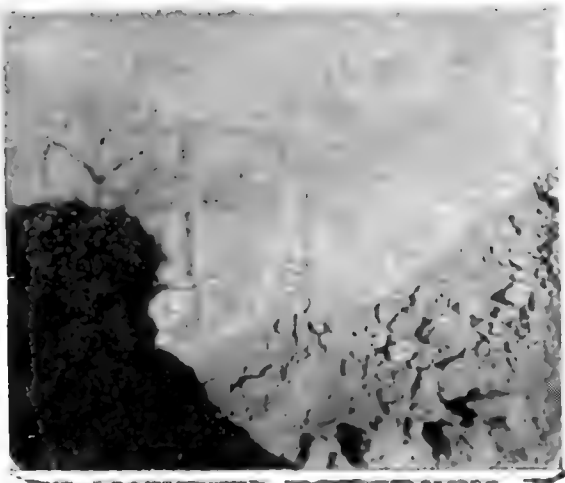
الإنسان وصيد الحيوان في بيئة الدار الجافة الآن

رسوم جدارية محفورة بالصخور الرسوبية لجبال طويق بالفاو ، دليل
تنوع الرسوم بالفاو بين (رسوم ملونة وأخرى محفورة ومنقوشة بالصخر)
وهو المبرر الذي استند إليه الباحث في أنها (صور صخرية) .



(لوحة رقم ١١ - ب)

حفر / نقش توضيحي للإنسان وهو يحمل أدوات الحديد
والقتال : الرمح ، واحد الأسلحة حول وسطه
(من داخل جدران منازل الفار)



شجرة تعمل التي تآزر بها إنسان الكاوي بمناطته الخفافه لأن
وجوارها حيوان البيئة ربما يتهدى على بعض ثمارها
(داخل جدران منازل الفاو)

البشرى للإنسان ، الذى يسعى بدوره وراء فريسته من حيوان البيئة العاشية المرتبطة بمصر المطر البلايستوسينى ، ولقد أطلق عليهم فنكر بالصحراء الشرقية بمصر اسم (الصيادون القدامى بالصحراء الشرقية) .

ولقد احتوت شبه جزيرة العرب فى المرحلة السابقة للثمودية وهى التى عرفت باسم مرحلة ما قبل الثمودية Pre — Thamudic Stage على رسوم تصور نفس النشاط السابق والمائل لنظيره لدى سكان الصحراء الشرقية بمصر . وعند ربط هذه المرحلة بموجات عصر المطر البلايستوسينى فإنها تقابل الدور المطهر الأول بالصحراء الشرقية . وأيضا الدور المطهر الأول بالجزيرة العربية . والذى عرفه ماكولور الأثرى ١٩٦٧ باسم الدور الغربى ، الذى مر بأعوام ٩٠٠٠ — ٤٠٠٠ ق . م) (شبه جزيرة العرب .

ثانيا : عثر بالإفليميين على عدة صور صخرية تنتمى لمرحلة حضارية أكثر تقدما هى العصر الحجري الحديث (النيوليثى) وفيه تركز حرف الإنسان فى مجال واحد ، هو إنتاج الطعام حيث كان يتمثل أحد موارده على رعى الحيوان باعتباره احتياطا دحى من اللحم ، لدى الإنسان الراعى واهتمامه بالحيوان المتنوع للبيئة كما ذكرنا وهؤلاء من سهام فنكر باسم (الرعاة أو سكان الجبال الأصليون) باعتبارهم قد عاشوا فوق هضاب صحراء مصر الشرقية ، وبقابل هؤلاء بالجزيرة العربية مرحلة الرسوم الثمودية التى صورت المجموعات البشرية مقترنة بالرسوم الحيوانية وهذه أنشطة مختلفة لهم داخل إطار الموجة الماطرة النبتانية للعصر الحجري الحديث ، والذى كان يؤذن بتحول تدريجى للبيئة صوب الجفاف ، لذا تعددت صور ارتباط الإنسان بحيوان البيئة ومحاولة صيده بأسلحة متطورة تلائم هذه المرحلة الحضارية كالقوس أو القبال أو الشراك .

ثالثا : مرحلة متقدمة تالية للحجرى الحديث وهى فى مصر تقترن بمرحلة بحيرة ومناخرة للحجرى الحديث . حيث عرفت هناك بمصر ما قبل الإسرات ،

وقد وضع فيها وصول مؤثرات الجزيرة العربية داخل أعماق الصحراء المصرية الشرقية كما ذكرنا في النطاق العرضي لطريق قنا - القصير ، بحيث كان من أبرز دلالاته ظهور رسوم قوارب بيئة مابين النهرين مرتفعة الطرفان على جدران الأودية الجافة للصحراء المصرية الشرقية وهؤلاء ما أطلق عليهم فنسكار اسم الغزاة الشرقيون *The Eastern Invaders* وكانت قواربهم « المعيزة هن » نظيرتها ذات الطابع الغلي بالصحراء الشرقية على الجانب المتأخم لوادى النيل (وهى التى كانت هنا ترفع شعار المرور بين شمال وجنوب أسوان) كما أشار ترجر بروك فى علاقتها بالنوبة جنوب مصر . وهكذا كان مهد ظهور تلك القوارب المعيزة من بيئة مابين النهرين هو شهرة إقليم صحراء مصر الشرقية بتنوع حيوانه العاشب واللاحم وغنى بيئة الصحراء الشرقية فى فترة كانت فيها أدوار مصر المطر فى حياة ذهذبات تؤذن بحلول الجفاف الهولوسينى بشبه الجزيرة ، بدليل أن نهاية هذا الدور المطر بشبه الجزيرة لم يحدد ، وأنها كانت تتداخل حتى القرون الأولى للميلاد وحتى العصر العباسى .

ولقد احتوت شبه الجزيرة رسوم ذات طابع مميز لتلك الفترة ظهر فيها الحيوان ذو المقدرة على تحمل الجفاف كالإبل ، كما ظهر فيها كثرة رسوم التنخيل كما هو واضح فى القاو باعتبارها من أبرز النباتات التى أمدت الإنسان « بالثر » على أنه (خبز الصحراء) وعلى ذلك فقد كانت رسوم التنخيل دون غيره من النباتات فى أواخر الدور المسطر ذات دلالة على وجوده بشكل بارز عن غيره من النباتات التى عايشها الإنسان والتى وجدت بالإقليم فى مناطقها التى ساعدت ظروفها الهيدرولوجية فقط على وجوده خاصة بمحاور موارد المياه المحلية بالإقليم كالأودية الجافة أو العيون أو الآبار . وهى المناطق التى كانت مراكز (جذب بشرى) عندما سادت ظروف الجفاف وارتبط الإنسان بقرية من موارد المياه ،

رابعا : الرسوم الصخرية بصحارى أمريكا الشمالية (١) :

لم يكن يتبادر بذهن الباحث في مجال الصور الصخرية بالصحارى ، أن
تكتشف مجموعة أخرى تناظرها كما هو الحال في الصور الصخرية التى خلفها
« البجا » بكليفورنيا فلقد كانت تلك المجموعة من الصور ترتبط بنفس
الظروف المناخية التى تناظرها في العالم القديم حيث وجدت على جدران
المجارى المائية والكهوف الصخرية . وقد عرفت هناك بفن الحائط الجدارى
The Murals ، وقد أثار فضول أحد المبشرين الجزيوت Jesuit
Missionaries في منتصف القرن الثامن عشر ، كما أثار فضول وتسؤل Queried
السكان الحاليين هناك لكن حل غيوضها ظل معلقا .

إلى أن تناو لها هارى كروسبى Harry Crosby ومساعدته Charles O'Rear
(عام ١٩٨٠م) وأعلنوا ارتباطها في منطقتها الجبلية الجافة بفترة معينة من
بها سكان المنطقة القديماى During the fall rainy season خاصة وأنها
تركزت بها على جوانب المجارى المائية العميقة Canyons التى تشبه الأودية
الجافة بصحارى شمال أفريقيا والجزيرة العربية السابق ذكرها ، من ناحية ،
كما أنها ارتبطت بمناطق الكهوف الصخرية التى شُبهت في نظرى هارى كروسبى
« A Gallery الفنية الفسيفسائية » .

ولقد بينت دراسة كروسبى أن الرسوم الصخرية تُمَثِّلُ في أربعة مواضع
داخل شبه جزيرة كليفورنيا توالى من الشمال إلى الجنوب كالآتى :

— سيرادى سان بورجا Sierra de San Borja

— سيرادى سان جوفان : Sierra de San Juan

(1) Harry Crosby : Baja's Murals of Mystery. National
Geographic. November. 1980. PP. 622—702.

- سير دي سان فرانسيسكو. Sierra de San Francisco.

- ثم سير دي جواديلوب. Sierra de Guadalupe

(انظر الخريطة المرفقة شكل رقم ١٢) . وذلك على امتداد يقدر بحوالى ٢٠٠ ميل ، لذا فإن هارى كروسبى يرى أنها لم تزل للآن لم توفى حقها الكامل من الدراسة .

وتعد منطقة سير دي فرانسيسكو من أوضح مواقع تلك الرسوم التصويرية ، فقد ساهم في ذلك وجود قمم عديدة من البراكين أطلق عليها **Tres Virgenes** ، التى كانت مصدر المادة الخام الملوقة التى استخدمها الرسامون في تصوير بيئاتهم ، لذا كان الكهف الطولى لسان بابو **San Paplo rock shelter** بمنطقة سان فرانسيسكو يعرف لدى سكان المنطقة باسم « الكهف الملون » **Cueva Pintada** حيث ضم رسوم بلغ امتدادها ٥٠٠ ميل وارتفاعها على جدرانها ٣٠ قدم ، استخدم فيها الإنسان هناك أداة رافعة محلية أو ربما « سقالة متينة » **A scaffold strong** من جذوع النخيل المنساقط ، ودرج هياكل نبات الصبار **Cactus skeletons** الذى ثبت بدوره بأنسجة سعف النخيل **Palm frond fibers** ، وقد امتازت الصور التعبيرية بقربها من الحجم الطبيعى **Life size** وتمثيل حركى لموادها .

ولقد تمثلت الصور في عدة موضوعات ، منها ماصور الحيوان المشابه لنظيره في بيئة السافانا أو الاستبس الحالية كالغزال والماعز الجبلى ذو القرون الطويلة **Bighorn sheep** ، إضافة إلى الأرنب البرى **Rabbits wildlife** في حركة قافرة بجميع تفاصيلها حيث لازالت توجد بالأقاليم للآن .

كما صوّرت الطيور وهي في حركة تاهب للطيران أو ربما لتجفف أجنحتها **Spreading wings to dry** في هيئة صفوف متداخلة تعبر عن الحركة المتكاملة لها .



(شکل رقم ۱۲)

مواقع الصور الصخرية بالعالم الجديد
(أيضا بالنطاق الصحراوي)

إضافة إلى ذلك هنر على مجموعة رسوم بشرية . صورت الذكور والإناث وواجهين لبعضهم ورافعين أذرعهم لأعلى ، ووضح منها أيضا تسجيل الحركة البشرية وكلها صور اهتم الإنسان بتلوينها تماما كما اهتم بتجميلها ورسومها .

ويرى كروسي أن تلك المجموعة من الصور ربما تربط بفقرة زاد فيها معدل سقوط الأمطار على الأقليم .
• During the fall rainy season

وربما أضافت الرسوم التعبيرية هنا عندما أشارت إلى احترام الإنسان للصيد ومدى احترامه له Respect for the Hunted ، حيث ذاع انتشار رسم الفزال وهو مدمج بالرمح Impaled by arrows ، كما تأثر الإنسان بالحياة المائية Marine life عندما صور سمكة بلخ طولها ٢ أقدام . إضافة إلى تصوير آلة الصيد Anthropomorph كما سبق وأشرنا في فاف شبه الجزيرة قبل الإسلام .

ولكن لوحظ وجود اختلاف واضح بين موضوعات الصور الصخرية بالعالم القديم عامة وتلك بالعالم الجديد فاف مرجعة إذن ؟

يرجع الاختلاف أساسا إلى سعة الشقة المائية بين الصحارى الأمريكية والعربية بحيث فتح عنه دواء ، أية علاقات بينهما ، فطور الاختلاف الواضح في حرف السكان بحيث كانوا هنا يتحولون من الجمع والالتقاط بالداخل إلى صيد الماء على السواحل الصحراوية ، وهذا ما أضاف الاختلاف في صورهم عن صور شمال أفريقيا وشبه الجزيرة ، لذا فالمحيط الفاصل بين العالمين الجديد والقديم كان مدعاة للحنق ، كافة المؤثرات الخارجية ، عكس المسطحات المائية الصخرى كالبهر الأحمر والخلجان التي تحللت اليابس العربى ولم تحول دون اتحاد سمات موضوعاته فلقد كانت الصحارى هنا مدرسة ، تعلم الإنسان في كتبها دروسه الأولى في مراحل حضارية سجلها على جدران كهوفه وأوديته بصحاريه التي هرفت بصحارى منتصف العالم Mid World Desert Belt^(١) .

(١) سلاح الدين بحيرى ، جغرافية الصحارى العربية . المرجع السابق

الدلالة المناخية الكامنة خلف الصور الصخرية بالصحارى

هناك ارتباط بين الموضوعات التى احتوتها الصور الصخرية وبين المناخ القديم للبلايستوسين ، مما يؤكد أنها ذات علاقة وطيدة بالصحر المطير . أشار كارل بوتزر Karl Butzer ، أن دراسات روتزرت Rohtert (عام ١٩٥٢) ولوت Lhotz (عام ١٩٥٩ م) تشير إلى أن اجتواء هذه الصور على خليط كبير ومتنوع من الحيوانات التى تعيش الآن بمناطق السفانا بأفريقيا المدارية لاقلأئها سوى بيئة نباتية عشبية ذات أراضى رطبة .

فلذا وجدنا مثلا رسوم أو نقوش متعددة للغيلة . وقد رنا ما يحتاجه هذا النوع الحيوانى من الغذاء الأخضر اليومى ، لوجدنا أنه فى حاجة إلى ما يراوح ما بين ٣٠٠ - ٣٥٠ رطل حسب رأى بوليه Barliere (عام ١٩٦٣ م) هذا بالإضافة إلى حاجته الضرورية من المياه (سواء أ كانت جوفية أو سطحية مطهرة) . وقد ذكرنا أن هذا النوع قد شاع فى رسوم شمال أفريقيا وجنوبها الصحراوى الجاف بصفة عامة * (١) .

ولربما توجد لدينا أدلة أخرى تشير إلى وفرة الماء بهذين النطاقيين حيث تستمد هذا الأدلة من شيوع رسوم القوارب فى الأودية الصحراوية ، كأودية الميتولا وفروعهما ، والنقش وفروعه وأودية المحور النيل التى تقع على حافة الصحراء الشرقية المصرية فى جبالها الغربى ذو المناخ الصحراوى الجاف ، وكذلك قوارب الصحارى الجواترية فهذه القوارب بالطبع لا تسير فى أودية

(1) Karl, Butzer (W.) : " Environment and Archeology " .
Chicago. 1964. PP. 449-451.

جافة كما هو حالها الآن ، وربما كانت الصورة تختلف بحيث تأثر الإنسان بها ورسمها هناك .

كذلك فإن وجود رسوم دلافراس النهر ، بالصحرى هو دليل على ملائمة الحياة لها ، ودليل ذلك أنها تحتاج إلى ما يقرب من ٢٠٠ رطل يوميا من الغذاء الأخضر ، كما تحتاج إلى بيئة عاشبة ، وربما لا تحتاج للعيش في مياه مفتوحة بل بحيرات أو برك مغلفة . وربما يرتبط وجوده بالصحراء الشرقية من مصر وبنحوب عرب القرائسقال (١) إلى دساح بيتته ، لشروط معيشته وغذائه السابق (٢) .

كما أن وجود النمساخ يتطلب ارتباطه بالماء ، حتى ولو كان متواضع في هيئة برك صغيرة ، لكنه في أغلب الأحوال يرتبط في وجوده بالماء . وربما تعددت صورته بالصحراء الشرقية المصرية وأوديتها كالعطواني وفروعه وأبو واصل ، ليدل على أنها أيضا لم تكن جافة كما هي الآن .

وهنا يؤكد ميتشل (J. B. Mitchell) (عام ١٩٥٤ م) أن وجود هذه المجموعة الحيوانية السابق ذكرها كان يرتبط في المقام الأول بشروط نباتية معينة لا تتوفر بالصحرى إلا من خلال العصر المطير وفترات الرطوبة (٣) .

وهنا قام دمايون ، بدراسته التحليلية والعلمية الدقيقة ، والتي أوضح فيها صورة التوزيع السابق واللاحق للأنواع الحيوانية في القبة ووحيد القرن وأفراس النهر بالإضافة إلى الزراف ، حيث لاحظ الآتي :

- ارتبط التوزيع الحالي لوحيد القرن أو فرس النهر بمناطق تستقبل

• يقصد بنحوب أفريقيا الصحراوى نطاق صحراء كهارى بنحوبها الغربى كما أشرنا إليه بداخل النص .

(1) Karl, Butzer (W.) : Ipid, PP. 449-451.

(2) Karl, Butzer : Locit .

قدر سنوى من الأمطار يبلغ معدله ١٥٠ سم . وجدير بالذكر أن نظام الأمطار العالمية Rainfall Regime تشير إلى أن هذه الكمية ترتبط أساسا بمحاور النظام الاستوائى الرطب Tropical Hot Climate والذي يرمز له جان تريورثا Glenn (T.) Trewartha بالرمز ³ (Ar) الذى يعنى أن عدد شهور المطرة خلال العام تتراوح ما بين عشرة إلى إثني عشر شهرا ، والذي يرتبط معدله السنوى للحرارة بمحالى ٢٥ - ٢٧ درجة مئوية^(١) .

- كما أن الحد الأدنى للأمطار بالنسبة للقيمة إنما يرتبط بمحط معار . مساوى . ١٠٠ سم للعام تقريبا أى بالحواف الجنوبية الانتقالية بين الإقليم السابق والإقليم البحر المتوسط طبقا لكميات نظام المطر فيه أى حواف السافانا^(٢) .

- أما الزواف فهو يرتبط بكمية مطر ٥٠ سم للعام ، وهذه ترتبط بالحدود الخاصة بنظام مطر البحر المتوسط بصفة عامة ، وقد ورد ذكرها برسوم الصحراء بشمال أفريقيا وشبه جزيرة العرب . (انظر خريطة شكل رقم ١٣) .

ولقد احتوت الصور الضخمية على مجموعة صور لحيوانات مائية ذلت بشكل مباشر على احتياجها للماء دون تقدير مقنناتها منه ، ومثال ذلك صور الأسماك فى (أنى ترومسك بالجزائر) وصور الأسماك بجنوب أفريقيا ، كما وجدت صور للأسماك فى جنوب غرب أمريكا الشمالية بالإضافة إلى صور الحيتان البحرية باعتبارها صحراء ساحلية مغطاة على الباسيفيكي ، وكذلك وجدت بالفاوق فى جنوب الجزيرة العربية . وربما كان العذر فى صحراء أمريكا الشمالية الجنوبية الغربية لإنسانها عندما تأثر بيئة الساحلية ، ولكن ما العذر لإنسان

(1) Glenn (T.) Trewartha & Lyle (H.) Horn : An Introduction to Climate. Fifth Edition: London—1980 . P. 235.

(٢) يوسف عبد المجيد فايد : جغرافية المناخ والنبات . دار النهضة العربية

الطبعة والنشر . بيروت ١٩٧٠ م ص ٨٩ ، ٩٠ .

الصحراء الجزائرية و صحراء جنوب أفريقيا وأيضا جنوب شبه الجزيرة II

كما احتوت بعض رسوم الصحارى على صور للنبات الطبيعي المقترن
ببيئة العصر المظلي كما هو الحال في رسوم موريثانيا كما يذكر سميت فليب،
إضافة إلى رسوم نباتات بيئة العصر المظلي بالبيئة الصحراوية للمملكة العربية
السعودية كما أشرنا إليها سابقا^(١) .

إضافة إلى ما سبق توجد مجموعة صور للطيور القديمة بالصحارى ،
كالنعام واليوم في جنوب أفريقيا ، وفي الصحراء الشرقية بولدي أبو هجاج ،
كطيور الجباري (ذلك روى) والغراب ومالك الحزين ، وهذه تصورات
للبيئة وتزرع ما تحتويه من حياة حيوية .

ولعل أبرز الصور الصخرية هي التي ارتبطت بالصور البشرية لسكان
الصحارى فقد صور الرجال في مختلف مراحل أنشطتهم ، سواء الصيد
أو الملاحة ، ولقد سادت الأولى بالجزيرة العربية وشمال أفريقيا وجنوبها
والعالم الجديد . مما يدل على معيشة الإنسان وممارسة الصيد . أما الملاحة
فلقد اقتصرتم على الصحراء الشرقية وأوديتها المتجهة صوب النيل ، فهذه
دلالة على جريان أوديتها بالماء واستخدام الإنسان لتلك الأودية في التنقل
ومثال ذلك وادي القش .

كما صورت النساء بعضهم راقيات للأغنام في وادي أبو واصل وموية
بالصحراء الشرقية وأيضا بصحارى جزيرة العرب ... ليس في هذا دلالة
على مقدرة الصحراء على استيعاب السكان قديما ، كما وجدت حيوانات الرعي
التي ترتبط بالمرعى الوفير . أضف إلى ما سبق الآلات والأدوات الحجرية
الصوانية مقترنة ببعض الرسوم ، كوادى علوان بالصحراء الشرقية . إضافة

(1) Smith (E. L.) Phillip : « Early Food production in North
Africa. pp. 156—157.

إلى الشقف (السكر) الفخارى بوادى القش . ووادى فار بالجزيرة العربية ،
وبناء على ما سبق ... لم تكن البيئة بالفعل صدى العصر المطير ١٩
رغم أنها الآن ينطبق عليها تصنيف بلير (Blair) (T.A.) (عام ١٩٤٢ م) من
أن الصحراء هي المنطقة ذات المناخ الجاف والذي يحدها خط المطر المتساوى
١٠ بوصات (٢٥ سم / ٢٥٠ ملمتر للعام) ، بحيث ما يقع دونه يعد صحراء
وما يقع بعده أو يتعداه يعد في حيز المناخات الرطبة ، ولكن « أوستن
ميلر » يصحح هذا التجديد عندما وضع في اعتباره « عامل التبخر » الذي يؤثر
بدوره على الأثر الفعلي للأمطار Effectiveness بما يلتهمه من الماء ثم بما
ينساب من الماء الجارى فوق الأراضي الصحراوية الجافة ، ومن هنا يصيف
« ميلر » على رأى « بلير » التعديل القائل بأن الحدود أقل من ١٠ بوصة
هي الحدود الملائمة للصحارى الحارة لذا فهي لا يقل متوسط حرارتها الشهرية
عنده من ٤٢ فهرنهايت ويرمز له بحرف (F) ، ولكن عادة ما نجد أن
تصنيف بلير هو الذي لا يزال يسود خاصة في مجال تحديد أمطار الصحارى
الحالية ومنها صحارى قارة أفريقيا سواء السبرى أو كهارى (بمقدار يقل
من ٢٥ سم / ١٠ بوصات) . أو غيرها من الصحارى الحارة . وإذا اتبعنا
تصنيف ثورنثوايت Thornthwaite في تصنيف المناخ الصحراوى الجاف
لنطاق الضرور الصحريه بالعالم ، فإننا نجد يصنفه على أساس الجمع بين عناصر
المناخ المؤثرة فيه بشكل واضح وهما علاقة التبخر (E) بمنصرى التساقط
من ناحية (P) والحرارة (T) في تصنيفه لعام ١٩٣١ م من ناحية
والتبخر وعلاقته بالتتح Evapotranspiration في تصنيفه المعدل لعام ١٩٤٨ م (*)

(*) توصل في تصنيفه لعام ١٩٣١ م إلى تقسيم العالم إلى خمس ثنائيات مناخية
عندما جمع بين التبخر والتساقط (E . P) تقابل خمس أنواع رئيسية للنظام النباتي
الطبيعي (غابات مطيرة ، غابات ، حشائش ، استبس ، صحارى) وفي جملة لتبخر
والحرارة (T . E) توصل إلى تقسيم العالم لحوالى ست نطاقات حراوية (نطاق
مدارى ، معتدل ، معتدل بارد ، تاييجا ، تاندر ، جليد دائم) .

لذا يرمز في تصنيف هاى ١٩٣١ ، ١٩٤٨ م إلى إقليمنا بأنه (BdA) بحيث أن : \equiv من ناحية الرطوبة فى معنى منخفضة بحيث تصل إلى أقصى قدر انخفاضها به فى (أقل من ٤٠ إلى أقل من ٦٠) ، ويعزى ذلك إلى عدم توافر مصادر الرطوبة بالأقاليم (كالنبات الطبيعية أو المسطحات المائية الداخلية كالبحيرات ، أو المستنقعات أو الأنهار .. الخ) . وهذه عوامل تزيد جفاف الإقليم على الأقل فى الهولوسين بشكل يخالف ما نراه من وحشة للأقطار وما يقرب عليها من تأثير الأودية الجافة الآن بها ، علاوة على وفرة النباتات الطبيعية بدليل وفرة الحيوانات العاشبة واللاحمة السابق الإشارة إليها بالصحرى .

كما أن \equiv ترمز إلى انخفاض ملحوظ فى فصلية الرطوبة حيث تقاوح قيمتها بين صفر (إنعدام إلى ١٠) (١) .

أما β فى معنى الربط بين معدل التبخر والنتح الكامن ، وبين عنصر الحرارة وطول النهار ، وبذلك اعتبر أن طاقة التبخر والنتح هى (١١٤ سم) التى تعد الحد الفاصل بين الأقاليم المناخية الحارة ومنها نطاقنا الصحراوى وبين الأقاليم المعتدلة .

كذلك يعنى δ أن التركيز الفصالى للحرارة فى فصل الصيف (وأشهره الثلاثة) حزيران ، تموز ، آب/يونيه ، يولية ، أغسطس) وتبلغ النسبة المثوبة للتركيز لإقليمنا أقل من ٤٨٠٪ أى أنه حار .

وبهذا فإن إقليمنا يتميز مناخيا منخفض الرطوبة ٤٠ - ٦٠٪ حتى أنهما نتعدم فصليا إلى ١٠٪ ، كما أن طاقة التبخر والنتح مرتفعة (١١٤ سم) إضافة إلى أن التركيز الحرارى الصيفى الفصالى أقل من ٤٨٪ (فإن ٥٠

(١) نيمان حسانة : المناخ العربى ، الجامعة الأردنية ، الأردن ١٩٨٣ ، ص

(٤. Ed-B) وفي التصنيف المعدل للإقليم الجاف لدى تورتشوت لعام ١٩٥٠ م ، نجد تصنيف الإقليم بأنه ES_2 وتعني :

(E_2) إن رطوبته تقل عن ٦٦٧ إلى أقل من ١٠٠ (أى جاف) .
(S_2) حيث تعني أن العجز المائي به كبير في الصيف بحيث يزيد عن ٢٣٣ / طبقا لمؤشر الفائض المائي . فإقليمنا الصحراوي يمتاز بقلة الرطوبة أقل من ٦٦٧ ، وأقل من ١٠٠ ، وارتفاع عجزه المائي صيفا طبقا لمؤشر الفائض المائي ٢٣٣ / ١٠٠ .

كما أن تصنيف كوبن ، يحدد إقليمنا الصحراوي B W ويبره من خلال معادلاته عن المناخات الأخرى بمعادلات خاصة . مع إضافة متوسط الحرارة السنوي ممثلا في حرف (h) وهو ما يعني أنه فوق ١٨ مئوية صيفا (إذن إقليمنا طبقا له BWh ، أى جاف مرتفع الحرارة وبهذا يمكن أن تنافض الصور الصخرية و صفة الجفاف ، كما أشرنا في مقدمة هذا البحث .

(١) أنظر :

نيمان شعانة : المرجع السابق ، ص ١٦٠ - ١٦٦ .

يوسف عبد الحميد فايد : دراسات مقارنة للتصنيفات المناخية (محاضرة ألقى بدار الجمعية الجغرافية المصرية) (الأربعاء ١٧ أبريل ١٩٦٣ م) الموسم الثقافي ، القاهرة

١٩٦٣ م ، ص ٨٤ - ٨٩ .

قائمة المراجع الأجنبية

- 1 — Al Ansary (A. R.) : *Qaryat Al-Fau » A Portrait of Pre-Islamic Civilization in Saudi Arabia »* . University of Riyadh. Riyadh. 1957 .
- 2 — Aqua Dawson & Others : *The Kingdom of Saudi Arabia*. London. 1979 .
- 3 — Attia (M. I.) : «TopOgraphy and Goology and Iron—Ore Deposits of the District East Aswan» . Geological Survey . Cairo. 1955.
- 4 — Brentjes, Burchard : «African Rockarts. Translated by Antony Dent. Roma. 1969 .
- 5 — Brooks (C. E. P.) : «Climate Through the Ages». New York. 1970
- 6 — Department of Antiquities and Museums : «ATLAL. The Journal of Saudi Arabian Archaeology . Vol. 2. (1398 A. H) — 1978 A. D. Riyadh .
- 7 — Department of Antiquities and Museums : « ATLAL » The Journal of Saudi Arabian Archaeology. Vol. 3.(1399 A. H). 1979 A. D. Riyadh
- 8 — Ford J. L. Johnstone : « Neolithic Cultures of North African » Liverpool University press. 1956 .
- 9 — Gelen T. Trewertha & Lyle H. Horn : « An Introduction to climate. Fifth Edition, London. 1980
- 10 — Huzayyin (S. A) : «Some new light on the Beginnings of Egyptian Civilization». Extrait du Bulletin de la Societe Royale de Gergraphie d, Egypte. T. (XX) 1939
- 11 — Harry Crosby : « Baja Murals of Mustery» Geographie, November — 1980
- 12 — Karl, Butzer (W.) : « Environment and Archeology » Chicago. 1964 pp. 449—451
- 13 — Korovkina (F.) : *History of The Ancient World*, Moscow. 1985
- 14 — Murray (G. W.) : *The Egyptian Desert and Its Antiniply*, Survey Department. Egypt, Paper No 49
- 15 — Murray, (G. W.) & Myes (O. H.) : *Some Pre — dynastic rock Drawings. The Journal of Egyptian Archaeology. Volume paris. III à IV Great Britain. 1933*

- 16 — Breton James : « American Geography » Inventory and Prospect- Washington. 1954
- 17 — Peak and Fleure : Peasants and Potters. London. 1927
- 18 — Smith (E. L.) Philipe : Early Food Production in North Africa .
- 19 Trigger, Bruce : Nubia Under the Pharaohs. London. 1976
- 20 William Howells : Back of History. New York. 1954
- 21 Winkler, Hans A. : Rock Drawings of Southern Upper Egypt. Part 1. London. 1938

قائمة المراجع العربية

- ١ - إبراهيم الشنتلة : « الثوديون » . مجلة الدارة ، العدد الرابع ، الرياض ، رجب (١٤٠٠ هـ - يونيه ١٩٨٠ م) .
- ٢ - جردى (أ.ج.) ولسكنسون (ج.س) : بيئة الصحارى الدافئة ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، ١٩٨٠ م .
- ٣ - شحاته آدم محمد : الرحلات والبعثات برا وبحرا في مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى نهاية عصر الدولة الوسطى ، رساله دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- ٤ - صلاح الدين بحيري : جغرافية الصحارى العربية ، عمان ، ١٩٧٩ م .
- ٥ - عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- ٦ - عبد القدوس الأنصارى : بين التاريخ والآثار ، دار العلم للملايين ، ط ١٣ ، بيروت ، ١٩٧٧ .
- ٧ - (ك) جوزيف ، زربو : فنانو العصر الحجري الحديث ، مجلة اليونسكو الشهرية ، العدد ١٢٩ و ٢٢٠ (أكتوبر ونوفمبر) ، باريس ، ١٩٧٩ م .
- ٨ - كنيث والطن : الأراضي الجافة ، ترجمة علي عبد الوهاب شاهين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- ٩ - مايرز (ج.ل) : بحر التاريخ ، ترجمة علي هزوت الأنصارى ومراجعة عبد العزيز كامل (د.ت) .
- ١٠ - محمد السيد غلاب ويمسرى الجوهري : الجغرافيا التاريخية لمصر ما قبل التاريخ والحجر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٥ .
- ١١ - محمد بيوى مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، ط الرياض ١٩٧٧ م .
- ١٢ - محمد ضبعي عبد الحكيم وماهر عبد الحميد الليثي : علم الخرافات .

١٣ - وفاة محمدرضا وجمال عبد الهادي : نحو تأسيس إسلامي للتاريخ ،
جريدة العرب منذ أقدم المصور ، ج ١ ، دار الطباعة الحديثة ، مكة ،
١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

١٤ - نيلان شهباده : المناجح الغمل ، الجامعة الأردنية ، الأردن ،
١٩٨٣ م .

١٥ - يوسف عبد المجيد فايد : دراسات مقارنة للتصنيفات المناخية
محاضرة أقيمت بدار الجمعية المصرية (الأدباء ١٧) إبريل ١٩٦٣ م (المؤتم
بغضاف ، القاهرة ١٩٦٣ م .

ملخص البحث

الصور الصخرية الجائفة ودلائلها المناخية على العصر المطهر
بالنطاق الصحراوي

تطابق توزيع الصور الصخرية مع النطاق الصحراوي الجاف بين خطي عرض ١٨° - ٣٠° شمال وجنوب خط الاستواء بالعالم . ولقد كان ذلك متفقا للبحث في مجال الربط بينها وبين التغيرات الجغرافية التي شاهدها هذا النطاق خلال عصر البلايستوسين في هيئة « مصر مطر أو فيضان كبير » . ولقد ركز الباحث بجمدة في أجل إبراز الدلائل المناخية الكامنة خلف مجموعة الصور الصخرية بالنطاقات الصحراوية ، وأجرى بين ما وجد منها بالعالم القديم وبالذات في عالمنا العربي ، وبين ما وجد في العالم الجديد مقارنة أوضحت الاختلاف فقط في مآثولاته من موضوعات بينما أشارت إلى اتحادها في الجوهر المتعلق بالتغير المناخي العصر المطهر .

ولقد أورد البحث دراسة مقارنة وضحت في الخلاصة بين مجموعة صور شبه جزيرة العرب ومجموعة صور الصحراء المصرية الشرقية ، تهز الانطباق العام بين موضوعاتها والتغيرات المناخية للبلايستوسين بكلي الصحراوي بالذات .

كما أشار البحث إلى أن المجموعة المتنوعة للصور الصخرية بالعالم تدور أساسا حول إبراز ثلاثة مراحل حضارية هامة مرت بها الصحارى في مصر ما قبل التاريخ وكانت تتمثل في مرحلة الصيد والقتنص ، ومرحلة الرعي واستئناس حيوانات البيت ، ثم مرحلة الاتصالات الحضارية التي تتدرج . يتقدم من عصر ما قبل التاريخ يؤذن ببداية واضحة العصر التاريخي ، ولقد ربط البحث بين المراحل الثلاثة السابقة ، وبين التغيرات المناخية المثلثة في الأدوار

المطيرة البلايستوسين ، بحيث توافق المرحلة الأولى فترة عدم الاستقرار
البشرى والتنقل وراء حيوان الصيد وهذا ما يوافق الدور المطير الأول
والأفقر مطرا من التالى له ، بينما يوافق الدور الماطر الثانى فترة الانجذاب
والمقاراجع للإنسان ، صوب موارد المياه الدائمة بالصحارى وبالتالى الاستقرار
ومحاولة التأقلم مع حيوانات البيئة من خلال حرفة الرعى ، ثم زيادة الاتصالات
المفترة ، وبالهجرات البشرية ، صوب مناطق أكثر استقرارا من الناحية
(الهيدروولوجية) ومن ثم تتطابق تلك الفترة مع بداية الجفاف التدريجى
لفولوسين .

ولقد أورد البحث صورة لهجرة خطوط المطر المتساوى وبالتالى انكماش
النطاق الصحراوى فى عصر البلايستوسين عما يبرز ظهور (الزخيرة الوفيرة
الغزور الصحيرية) بنفس المناطق التى تعاني من الجفاف الحالى بالصحارى .

ABSTRACT

The Climatic Significance of Rock-drawings in Hot Deserts

The area located between Latitudes 18 and 30 north and south of the equator exhibits a substantial coincidence between the hot arid desert of the World and a rich record of rock drawings have been most valuable in illuminating the climatic changes which have been experienced in that extend of land during the pluvial age of the pleistocene era,

This paper presents a twofold comparative analysis of :

First : The rock drawings of Arabia and that of the Eastern desert of Egypt,

Second : All rock drawings of the pluvial age (the prehistoric period) .

It was observed that the two regions have gone through three main developmental stages :

1-- The Palaeolithic stage which is correlated with the first Pluvial period and prevalent activity of man was hunting of the wild animals in his immediate environment .

2-- The Neolithic stage during which man was far more settled especially near water sources in desert area .

3-- The last stage of the Neolithic was a time when man started his migratory movements toward area of more stable and permanent water resources .

Talat Ahmed Abden

القسم السادس

الدراسات الإعلامية

- ١ - الدكتور عبي الدين عبد الحليم
- ٢ - الدكتور مرعي مذكور
- ٣ - الدكتور صلاح الدين عبد الحميد
- ٤ - الدكتور سامي عبد العزيز الكوي
- ٥ - الدكتور شفيق عبد الرازق أبو سعدة

المنافقون وأصول العمل الإعلامي

بقلم الدكتور
محيي الدين عبد الحليم
رئيس قسم الصحافة والإعلام
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

(وإذا رأيتهم تمجيك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم
خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم
الله أنى يؤفكون) صدق الله العظيم .

مقدمة :

حفلت بحوث الإعلام بدراسة الطبيعة النوعية بـمـهاير الرأى العام لاستكشاف السمات المميزة لمختلف الفئات ومعرفة هوية كل واحدة منها . لأن دراسة الرأى العام وتحديد الشرائح الجماهيرية المختلفة يعد أساسا هاما ، ومرتكزا رئيسا لعلماء الاتصال وخبراء السياسة تمكنهم من وضع الخطط العلمية التى تناسب مع كل فئة حسب فكرها وقيمتها وإطارها الدلائلى ... إلخ .

وإن كانت هذه الدراسات قد استطاعت أن تضع النقاط على الحروف فى هذا الصدد إلا أن شريحة منها لم تجد لها مكانا بين الدراسات العلمية المتقدمة على الرغم من تأثيرها الكبير على الرأى العام ودورها البالغ الخطورة فى حياة الأمم والشعوب ، وهى شريحة المتناقضين .

وقد اهتم القرآن الكريم بهذه الفئة إهتماما كبيرا وأفرد لها سورة كاملة ، تحمل اسمها ، وتعرض لها فى العديد من المواضع فى كثير من سور القرآن كما تناولها الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله ، وخاض معها تجارب قاسية جذيرة بالاهتمام والدراسة .

والنفاق يأتى فى مقدمة معاول الهدم لكيان المجتمعات ، وهو داء عضال يتطلب استراتيجية خاصة لمواجهته .. وترتفع معدلات النفاق فى المجتمعات التى تمر بمرات تحول حيث تظهر فئة المستفيدين من الوضع القديم والتى تنضرر من الوضع الجديد ، ثم يكيدون لدعاة التغيير والإصلاح .

وإذا كان النفاق يمثل خطورة على المجتمع بصفة عامة ، فإن خطورته تزداد بين الأوصاف التى تتبوأ مواقع دقيقة وتتحمل مسئوليات حساسة لاسيما هؤلاء الذين يتصدون لقيادة الفكر أو يضطلعون بمهمة الاعلام والدعوة والاتصال بالجماهير .

وتشتد خطورة المخالفين إذا لبسوا ثوب الدين والعقيدة ، فهم حينئذ يفسدون في الأرض ويصبغون أداة طيعة لتزييف الحقائق ، ويسخرون الدين لتحقيق أغراضهم ، ويفسرون آيات الكتاب حسب أهوائهم ويعملون النصوص غير ما تضمن ، ويلوون عنق الحقيقة لتتوافق مع أهوائهم ، ويصرفون الكلم عن مواضعه ، وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى :

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (١) .

وتأسيسا على ذلك فإن خطط الدعوة والإعلام لا بد أن تأخذ في اعتبارها هذه الفئة من الناس وتعمل على اكتشافهم ، ومعرفة نشاطهم وتحركاتهم وأما كن تواجدهم لتستطيع أن تعمي الجماهير من شرورهم ، وتحمي نشاطهم حتى لا يمتد تأثيرهم ولا تتسرب عدوهم إلى الشرائع الجماهيرية الأخرى ، وحتى تدفع عن المجتمع خطرهم .

ولعل بهذه الدراسة أستطيع أن أسهم في إثراء البحث العلمي في حقل الإعلام والرأى العام .

وقد كان القرآن الكريم هو المصدر الرئيسى من مصادر هذا العمل العلمى لما احتواه من تحليل دقيق ووافى لهذه الفئة من حيث السلوك والاتجاه ، كما كانت سنة الرسول مصدرا رئيسيا لهذه الدراسة ، ثم المراجع الأصيلة في التفسير والتاريخ الإسلامى وما تنارلته كتب المعاصرين في هذا الصدد . وتحوى هذه الدراسة عرضا علميا لمفهوم النفاق ، وأنواعه ، والسمات المميزة للمخالفين ، والصعوبات التى تكثفت الباحثين والخبراء وقادة الرأى حين تواجه هذه الفئة ، وكيفية إعداد الخطط الإعلامية للتعامل معها كما تناولت هذه الدراسة المناخ الذى يسود فيه النفاق ، وهو امل ازدهاره ، وآثاره السلبية على خطط الدعوة والإعلام .

مفهوم النفاق

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ، وتتفاوت مراتبه بين النفاق الاعتقادي وهو الذي يفتد صاحبه في النار ، والنفاق العملي الذي يرتكب صاحبه أكبر الذنوب^(١) .

والمنافق في الاصطلاح الشرعي هو الذي يظهر خلاف ما يبطن ، فإذا كان الذي يخفيه هو التكذيب بأصول الإيمان ، فهو المنافق الخالص ، وحكمه في الآخرة حكم الكافر ، وقد يزيد على الكافر في العذاب لحداذه المؤمنين بما يظهره .

أي أن المنافقين ليسوا على درجة سواء من النفاق ، فمنهم من تصحو نفسه الواهمة لتعيده إلى الإيمان ، ومنهم من يتهادى في نشاطه ، ويستمر في نفاقه ، والمنافقون يقولون عن أنفسهم أنهم غير مفسدين في الأرض ولكنهم المصلحون فيها ، ولكن الله يقرر أنهم هم المفسدون :

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »^(٢) .

وجوهر النفاق واحد وإن اختلفت أمانحه ودرجاته ، وتعتبر حركة النفاق من أخطر الظواهر في حياة الأمم والشعوب ، ولا أدل على ذلك من هذا الخير الكبير الذي شغله الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن الكريم .
الآيات التي تتحدث عن المنافقين في القرآن كثيرة ؛ وهي في سورة البقرة تبدأ من الآية الثامنة حتى الآية العشرين ، هذا بخلاف ما جاء عنهم في سورة التوبة وهو ما يكون الجزء الأكبر من هذه السورة ، فشغل هؤلاء

(١) إسماعيل بن كثير المصنف : تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، القاهرة ، مكتبة الدعوة الإسلامية ١٩٨٠ ، ص ٤٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية (١١ ، ١٢) .

مساحة كبيرة من الآيات الكريمة ، بل أن الحق تبارك وتعالى قد خصهم بسورة كاملة تحمل اسمهم وتحوى إحدى عشرة آية (١) .

والمنافقون بصفة عامة هم الذين يخالف قولهم فعلهم ، وسرهم هلاقيتهم ، ومدخلهم مخرجهم ، ومشهدهم مفبيهم .

وإذا كان الذى يخفيه المنافق شيئاً آخر غير الكفر باقه وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإنما هو شيء من المعصية ، فهذا النوع هو الذى فيه شبهه أو أكثر من شعب النفاق (٢) .

وكلمة المنافق فى لغتنا المعاصرة تشمل المعنى الدينى والاجتماعى والخافى ، ولا شك أن الموصوم فى دينه بالنفاق يسهل عليه النفاق السياسى أو الاجتماعى أو غير ذلك ، والمنافقون عشاق زعامة ، وعبيد مصالح ، يتعاون كل موكب يضمن لهم السيادة والقيادة ، ومن أجل هذا فإنهم يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره (٣) .

وقد ظهرت فى الآفاق أنواع متعددة من النفاق أبرزها :

١ - النفاق السياسى : وهو الذى يدفع صاحبه إلى خداع الرأى العام لكسب تأييده والحصول على دعمه لى يقبوا مكانه فى المجالس النيابية والشعبية ليحقق أغراضه وطموحاته الخاصة أو الذى ينفق السلطان ليحصل على وضع مميز أو مركز قيادى ، ويظهر هذا النوع بصورة واضحة أثناء الحملات الانتخابية والأزمات السياسية .

(١) أحمد إبراهيم منها : تبويب آى القرآن الكريم من الناحية الموضوعية . ج ١ القاهرة . دار الشعب . د . ت . ص ٥٣ .

(٢) عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة : ج ١ . مطابع المختار الإسلامى . د . ن . د . ت . ص ٩٢ .

(٣) محمد سيد محمد : المسئولية الاعلامية فى الإسلام . القاهرة . مكتبة الفانجى ١٩٨٢ . ص ١٦٩ .

٢ - النفاق الاقتصادي : وهو الذي يتخدع الآخرون لتحقيق المكسب السريع الذي لا يعكس واقعا ولا يمر عن إنتاج فعل ، ولا يخدم مصلحة عامة ، ولكن يدر ربحا مريعا على صاحبه بغض النظر عن مردوده الاجتماعي .
٣ - النفاق الاجتماعي : ويظهر بصورة واضحة في المعاملات اليومية بين الأفراد والجماعات وقطاعات العمل والأنشطة المختلفة ، وقد يمارسه بعض الأفراد والجماعات بطريقة تلقائية لأنهم تعودوا عليه وأصبح جزءا من تسكويهم الشكوى وسلوكهم اليومي .

٤ - النفاق الوطني : وهو الذي يسود في دوائر العمل للحصول على مركز وظيفي أو مغنم مادي ، أو وضع يدي ، ويستشري هذا النشاط بصورة كبيرة في المواقع التي لا تحكمها قواعد ثابتة أو قوانين حازمة ، وكذلك المواقع التي توضع فيها قيادات ضعيفة الأداء سقيمة الوجدان تستجيب بسهولة لعوامل الجذب والاستمالة التي يمارسها المنافقون .

٥ - النفاق في أجهزة الدعاية والإعلام : وهو الذي تمارسه بعض العناصر التي تعمل في هذا المجال الحيوي ، ومجالات النفاق في العمل الإعلاني متعددة حيث يمكن أن يتخذ النفاق أشكالا وأنماطا مختلفة ويقدم في قوالب كثيرة ويخدم أغراضا شتى ، وهذا النوع من النفاق يتطلب اهتماما خاصا من الباحثين والمختصين في هذا الفرع الهام من فروع العلم والمعرفة نظرا لخطورته على قطاعات كبيرة من الجماهير .

والمنافقون فئة ليست لها أصول عرقية أو جندرية تاريخية أو عقائد دينية أو أيديولوجيات وضعية ، فقد أنجب رأس النفاق عبيد الله بن أبي بن سلول ابننا صالحا وهب نفسه وحياته لله ولرسوله ، وأفرزت تصور الظلام والضلال أخيارا حملوا مشاعل الحرية والهدى ، كما خرج من ظهور العمالقة أقزام ومنافقون ألبسوا الحق ثوب الباطل وألبسوا الباطل ثوب الحق .
والنفاق إذن لا يرتبط بزمان أو مكان أو عائلة أو عشيرة معينة ولكن المنافقين فئة ضلت فأضلها الله ، وغرت فأغراها الشيطان ، وهوت فسقطت في أتون الرذيلة والضلال .

المنافقون وأثرهم في رأى العام

ترجع خطورة المنافقين إلى دورهم الفعال في إحداث الفتنة ، وتمزيق الكلمة ، وبث الكراهية ، وتشتيت شمل الجماعة ، فهذه ثمة تظهر الإيمان والمحبة .
ورغبة في تحقيق أغراضها ، وتكن العداوة والبغضاء حقداً وحسداً وعدواً وإثماً على المؤمنين والناجحين .

وحركة النفاق تتخذ الدس والوقيعة طريقاً لها ، ويشهد تاريخ الأمم والشعوب هذه الحقيقة ، وفي العصر الحديث راجت أفئدة التناكر وبطاقات التويه والتضليل ، وظهرت أغلفة النور لاخبت السموم لاسيما بعد التقدم الهائل لوسائل الاتصال ، والتغير الكبير في النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالم .

ويأتى النفاق في مقدمة العوامل التي تسهم في تخفاف المجتمعات وبث الفرقة بين صفوف الجاهل وهو الداء العضال الذي يهدد الأمم في حاضرها ومستقبلها ، ولهذا يصبح من الأممية بمكان القضاء عليه قبل أن يستشري ويتسع مجاه .
وقل أن يسلم مجتمع من وجود منافقين فيه ولكن المجتمعات تختلف قوة وضعفاً في قدرتها على الصمود أمام هذه الشريحة من البشر ، لكن القبلة في النهاية تكون لمن يثبت وتترسخ أقدامه .

وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون^(١) .

والمنافقون هم أخطر فئات الرأى العام وذلك لقدورهم على

على التلون ، وارتداد كل الاثواب في كل وقت ، فهم مسلمون مؤمنون إذا كان الإسلام سيحقق لهم عائدا ويدبر عليهم ربعا ، وهم كفار إذا تمش المسلمون وضعفت شوكتهم وهم ، يهود أو نصارى إذا رأوا في ذلك ما يحقق بغيتهم .

وهم علماء ومفكرون وقت الحاجة ، يكتمون العلم ويخفونه إذا أزم الأمر . جهلاء لا يعرفون إذا اقترفوا الذنب وارتكبوا المعصية .

وتختلف مراتب النفاق بحسب توافر إحدى خصاله ، ذلك أن هناك تناسبا طرديا بين درجة النفاق وتوافر هذه الخصال كما حددها رسول الله في حديثه الشريف وحى (الحيانة — الكذب — الغدر — الفجر) .

وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يرى فيه الحقائق تلمس ، أو القيم تهبط أو آيات الله يستهزأ بها فيسكت ويتغاضى ويظن أن ذلك تسامح أو دهاء أو سعة صدر أو حرية رأى ، ولكنها بداية الاستسلام والخرعية الداخلية تهب في أوصاله وتستمر معه ، ثم يتدرج بعد ذلك في سلم النفاق حتى تكتمل فيه صفات المنافق الكامل .

وقد أكد الحق جل وعلا على أن هذا الصنف من الناس أسوأ من الكافر لأنه اتفق معه في الكفر وأمنار عليه بالخداع والتضليل ، ويرجع ذلك لقدرة المنافق على التسلل بين صفوف المسلمين ، فيكون ألدائمه شديدا ، والخطر منه قليلا ، بخلاف الكافر الذي لا يرتدى قناع النفاق فيظهر عارى الوجه سافر الفكر ، يترفع العامة والخاصة ، فيحتاطون منه ويحذرون شره .

وإذا كان القرآن الكريم قد تعرض للمؤمنين والكافرين وحده أو صافهم بصورة واضحة ، فإنه قد أفسح مساحة واسعة للمنافقين لأن القريةين الأولين يظهر الوضع في اتجاهاتهما والتميز في سلوكهما ، فالفتنة الأولى مؤمنة مستقيمة ، صافية ، مستنيرة ، والفتنة الثانية كافرة مشحونة ، موجبة مظلمة .

أما فئة المنافقين فهي التي تتلون بكل إناء في كل وقت وحين ، تظهر في لباس المؤمنين ، وتعمل بتخطيط الكافرين ، وحين أطال القرآن الكريم في عرض أوصافها ورسم صورتها كان ذلك إيماء بنهاية الدور الذي يمكن أن تلعبه في حياة المجتمع المسلم والاضطراب الذي يمكن أن تحدثه في صفوف الجاهل من طريق الخداع والتغوير ، فهم يظهرون في صفوف المسلمين كأنهم منهم ، يصلون صلاتهم ويصومون صيامهم ويعبدون الله مثلهم ، وبالتالي فإنه من الصعب اعتبارهم خصوصاً سافرين ، وأن كان كيدهم أشد وهذا أمر .

وانطلقت هذه الفئة من البشر تدكر في الماء الصافي ، وتنتج خيوط العداوة بين المسلمين ، وتتواطأ مع أعداء الله ، تأخذ منهم أساليب الخراب وتبنيها بين المسلمين تارة بأسلوب الاستفهام ، وأخرى على سبيل النصيحة وطوراً بطريق التحرش ، وتستعمل كل سلاح تراه يؤدي بها إلى الغاية من تجميعه وتحريضه وكذب وتشكيك وإفشاء للأسرار (١) .

(١) عبد القادر رضى الله عنه : الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها .

الدار البيضاء . مطبعة النجاح الجديدة . ١٩٨١ . ص ٦٤ .

بيئة النفاق وعوامل ازدهاره

يظهر النفاق وينتشر ويسود المجتمع كلما اكتنفته ظروف وعن وصعاب لا سيما في مراحل التحول والتغيير التي تمر بها الأمم والشعوب، وينمو النفاق أيضا ويزدهر إذا صادف نظاما تحكمها قوانين جائرة أو قيادات ظالمة أو أحكام قاسية حيث يجد المنافقون المناخ مهيئا، وفرصة سانحة للنشاط والابتزاز وتحقيق الأراض والمكاسب، ذلك أن هذه الفئة المريضة لا تستطيع الحياة في مجتمع سوى، ولا تجد مجالا لها في مناخ صحي.

كما يجد المنافق المجال سهلا ويسرا في ظل الأحكام الاستبدادية التي لا تتيح فرصة للرأى العام كي يعبر عن نفسه بحرية دون خوف أو مداينة، وفي هذا يقول هارولد لازويل Harold Laswell إن الحكومات الاستبدادية لا قبل لها بالنقد، كما أنها لا تستطيع تحمله، وإذا أردنا أن نؤكد على هذه الحقيقة فليتنا أن نلقى نظرة سريعة على أى نظام استبدادى فسندجد أن جميع القوادى والبراهين تجمع على ذلك، ويظهر ذلك بصورة واضحة في نشاط أجهزة الإعلام المختلفة حيث يحظر فيها نشر الأخبار والتعليقات المخالفة للنظام^(١).

كما يجد النفاق البيئة المهيأة والقربة الخصبة في ظل النظم الشيوعية والشمولية، حيث تؤكد النظرية الماركسية مسئولية الحزب في الرقابة على وسائل الإعلام وتركيزها في يده، وتنبع رقابة الحزب على وسائل الإعلام من واقع الدور المكلف به بهدف التأثير على اتجاهات الجماهير وكسبهم إلى جانبه^(٢).

(1) Laswell, Harold : Discription The Contents of Communi-
cation, In Brace Launes. Propapanda, Communication and
Public Opinion Princeton & university press, 1964, p. 19.

(2) Iakles, Alex : Public Opinion in Soviet Russia. Cambridge,
Harold University Press. 1958. P. 22

كما يظهر المنافقون إذا وجدوا أنفسهم قلة ، وصارت السيادة للأكثرية المؤمنة واحتياجات الأغلبية لنداء الحق والعدل ، وتجساور المجتمع الحق والصواب التي واجهته ، وحينئذ لا تستطيع فئة المنافقين مواجهة الأكثرية السوية أو الأغلبية المؤمنة فيلجئون إلى نفاق هذه الأغلبية ويتعاونون مع هذه الأكثرية بوجه ، ومع القلة بوجه آخر ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

« وَإِذَا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزون (١) » .

ولم يظهر النفاق في عهد الرسول إلا بعد هجرته إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها وارتفاع شأن المسلمين ، وازدياد قوتهم . وانتصار الدعوة الإسلامية ، وإعلاء كلمة الحق والعدل ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ، وازدياد شأفة الكفر وازدياد قوة المؤمنين وتدعيم حصونهم ، حينئذ لا يجد هذا النفر من الذين لم يؤمنوا مع المؤمنين ، ولم تسعفهم شجاعتهم البقاء على كفرهم مع الكافرين سبيلا لهم إلا النفاق ، فيعلنون الكفر ويظهرون الإسلام .

وقد ابتلى المسلمون بالمنافقين منذ ظهر الإسلام في المدينة وعانى منهم المسلمون عناء قاسيا مراد ذلك أن المنافقين قد كرسوا جهودهم وأعدوا خطاهم ودبروا مكائدهم أشن الحرب على المسلمين وجرموا إلى مارك جانيبة والهانهم عن الهدف الأسمى الذي يعملون من أجله ، لاسيما أنه كان من بين صفوف المنافقين قادة للرأي والفكر لهم كلمة مسموعة ومكانة مرموقة في مجتمع المدينة .

وهذا الصنف من القادة يقبوا منزلة خاصة في مجتمعاتهم شأن قادة الرأي فهم الأرفع منزلة ، والأعلى مكانة ، وذلك يعطوهم وضعاً مرميا داخل الجماعة التي يلتزمون إليها ، والتي يحرسون على الاتصال بها ، ومعايشتها ، ويجعل كلمتهم

مسموعة بينهم مما قد يؤدي نشاطهم إلى حدوث تأثير على اتجاهات الرأي العام^(١).

وهذا يشير إلى التأثير البالغ الذي يمكن أن يحدثه قادة الرأي من المنافقين لأن من بينهم أصحاب الآراء الراجحة، والعقول القادرة على تدبير المؤامرات، والعمل في الخفاء، واعداد الخطط بذكاء واقتدار، بهدف تزييق صفوف المؤمنين، ولحداث الفركة بينهم. وليس من شك أن هذه الفئة قد أضحت المسلمين، وكلفتهم الكثير من الأرواح والأموال، وكان خطرهم على دولة الإسلام كبيراً، وتأثيرهم عليها مريعاً.

ولم تكن مداورة المنافقين وحريهم للحق والخير التي حملته رسمياً الإسلام مجرد حدث عارض أو فترة زمنية معينة، ولكنها الكراهية والحقد الذي يكنه الباطل للحق، والصدام الأبدى بين الضلال والهدى. ولذلك استمر حرب النفاق ضد الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما استمر من بعده، وظلت هذه الحرب الخبيثة تشكل عقبة كئوداً في حياة الأمة الإسلامية وستظل تمارس نشاطها وتلعب دورها مستهدفة النيل من هذا الدين الذي يشكل خطراً على خطط النفاق، وكبعض الجماعات المنافقين، ذلك أن هذه الحرب تعتمد على التشكيك في الفكر والدين، ثم لحدث الفتنة والوقعة بين المسلمين وبعضهم البعض، والانتفاخ حولهم ومجموعات صغيرة بموقفة تمكده بعضها، ثم الاجتهاد عليهم وتشويه عقيدتهم، لأن من دواعي سرور المنافقين اضطراب أمور الجماعة المتناسكة واختلال أحوالهم، وبليلة خواطهم، وفزع قلوبهم وقلق نفوسهم، ودوام حزنهم وزيادة مهمهم وشغلهم بأمر فرعية وقضايا جانبية من الهدف الأساسي في العمل والإنتاج، والدعوة إلى الله.

((١)) Laue, Robert and gears David : Public Opinion. New Delhi. Prentice Hall of India. 1964. P 39

المنافقون وقياس الرأى العام

تضطلع بحوث الرأى العام فى الوقت الحاضر بدور حيوى فى حياة الأمم والشعوب المعاصرة ، وبدونها يصبح وضع الخطط وإعداد البرامج السياسية أو الإعلامية أو الاقتصادية مسألة صعبة .

وقد حققت الدراسات العلمية تقدما كبيرا فى هذا الصدد ، يؤكد ذلك النتائج التى أنجزتها معاهد ومراكز بحوث الرأى العام فى العالم المتقدم ، والتى أصبحت منطلقا أساسيا لصانع القرار وللمجموع على السواء .

وتأخذ بحوث الرأى العام على عاتقها القيام بمهام أساسية فى المجتمعات الديمقراطية المعاصرة من أهمها مساعدة الأجهزة الحاكمة على أداء مهامها فى حل مشكلات الجماهير ، وإحضان الطريق أمامها لاتخاذ القرارات المناسبة وإبقاء القيادة على صلة وثيقة بالشعب . كما تأخذ هذه البحوث على عاتقها القيام بإعلام الجماهير على الصعيدين المحلى والعالمى بالاتجاهات والمواقف المختلفة وتنشور فى ذلك على وسائل الاتصال الحديثة لقصور هذه الوسائل عن كشف النقاب وسير أغوار الجماهير وإزالة اللبس وبالتالى فقد لا تستطيع تقديم صورة صادقة ودقيقة عن أفكار الناس وما يدور بأذهانهم ، فى حين بحوث الرأى العام يمكنها أن تلعب دورا إيجابيا فى هذا الصدد من خلال الأساليب العلمية والمقاييس الدقيقة فى الدراسة والتحليل (١).

إلا أن أشق ما يواجه هذه البحوث فى مرحلة جمع البيانات هو استخلاص الحقيقة من إجابات فئة المنافقين ، والحصول على البيانات الصادقة التى يتمتع عليها فى التحليل واستخلاص النتائج ، وإعداد التقرير ثم إصدار القرارات السليمة التى تلبي الاحتياجات الفعلية للجماهير . حيث يحرص المنافقون

(١) Kretch David and Krutchfield Richard : Theory and Problems of Social Psychology. Bombay. Moc-yraw Hill Publishing Company. 1964 pp. 306-308.

كل الحرص على مظهرهم العام ، ولهذا المظهر تسخر كل وسائل الجذب والاعراض ، وتستخدم كل الحيل والفنون التي تسحر من يراهم ، تخديعهم بأسس وصورهم بخلاصة وحركاتهم مرسومة وسكناتهم محسوبة يخاطبون الناس بما يحبون بغض النظر عن صدق ما يقولون ، فتبدو إجاباتهم صحيحة ، وردودهم طبيعية ، وكلامهم صادقا ، وذلك بقدر ما يتوافق لهم من قدرة على إخفاء واقعهم الحقيقي ، فهم الذين قال الله فيهم .

« يرادون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبحين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١) » .

وهكذا يلقى على الطرق الحديثة في بحوث الرأي العام جبنا إضافيا لاستكشاف هذه الفئة وتحري الدقة في التعامل معها وتمحيص ما يصدر عنها من أقوال وتصريحات وتوظيف الأساليب الفنية المختلفة للتأكد من صحة إجاباتهم ، واستخدام الطرق العلمية لكشف الكذب وردودهم ، وهذا يتطلب مهارة خاصة وقدرة معينة لاستخدام أساليب كشف الكذب واختبار صحة الإجابات ، ومن أم هذه الأساليب ما يلي :

١ - إجراء الدراسات الاستطلاعية قبل التوجه إلى الميدان والحصول على البيانات .

٢ - العمل على تحديد المناقشين وحصرهم بكافة الطرق الممكنة حتى يمكن تدارك ما يصدر عنهم من أقوال وإجابات وتمحيصها .

٣ - الاستفادة بوسيلة الملاحظة المشاركة التي تمكن الباحث من معايشة المحوئين وكشف هويته من خلال إشراك الباحث في حياة الناس الذين يقوم بملاحظتهم وإسهامه في أوجه النشاط التي يمارسونها في فترة الملاحظة .

(١) سورة النساء آية رقم (١٤٢ ، ١٤٣) .

وتتميز الملاحظة عن غيرها من أدوات جمع البيانات بأنها تفيد في جمع بيانات تحصل بسلوك الأفراد الفعلي في الحياة دون عناء كبير كما أنها تفيد في جمع البيانات في الأحوال التي يبدى فيها المبحرثون نوعاً من المقاومة للباحث ويرفضون الإجابة على أسئلته .

٤ - استخدام أساليب كشف الكذب والتحقق من صدق الإجابات في مختلف مراحل البحث .

٥ - الاهتمام بأسئلة الاختبار Check questions واعدادها وتوجيهها بطريقة ذكية وواقعية .

٦ - تطبيق معامل الصدق Validity لمعرفة ما إذا كان الباحث يقيس أو يصنف بالفعل ما يود أن يقيسه أو يصنفه للتأكد من صدق المعلومة التي حصل عليها وكذلك معامل الثبات Reliability للتأكد من اتساق أداة القياس ولإسكافية الاهتمام عليها وتكرار استخدامها (٢) .

(١) عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعي القاهرة ، مكتبة وهبة .

١٩٨٢ ص ٣٠٨ ، ٣٢٢ .

(٢) محمد الجوهري وجداثة الخريجي : طرق البحث الاجتماعي ، ط ٣ ، جدة .

دار الشروق ١٩٨٠ ص ١٠٨ ، ١١٠ .

المناققون وحراس البوابات الإعلامية

Gate Keepers

إذا كانت آفة النفاق تمثل خطراً حقيقياً على المجتمع بصفة عامة فإنه يجب العمل على درئها ووقف سريانها في كيان الأمة .

فإن خطرهما يشتد وسلبياتهما تزداد ومردودهما على المجتمع يكون أفدح إذا إذا امتد إلى أجهزة صناعة الفكر وقيادة الرأي، Gate Keepers لا أخطر هؤلاء الذين يعطون الناس ولا يتعطون وينهونهم ولا يشتمون ، أولئك الذين قال الحق فيهم :

« أناسرون الناس بالبد وتفتنون أنفسهم وأتم تلون للكتاب أفلا تعقلون (١) » .

وتسكن خطورة النفاق في أجهزة الإعلام فيما يلي :

١ - الانتشار الواسع لوسائل الاتصال الجماهيري والتي لا تدانيها وسائل أخرى في هذا الصدد فهذه الوسائل تستطيع تغطية مساحة جغرافية واسعة ، الرذائل الوصول إلى أكبر عدد من الجماهير ، وبالتالي فإن قدرتها على نشر كاستطيع التي يقرؤها النفاق أوسع من قدرة كافة الوسائل والأجهزة الأخرى .

٢ - قوة تأثير هذه الأجهزة بما تمتلك من تقنيات حديثة وقدرات خاصة وهو امل جذب قد لا يستطيع معها المطلق منها أن يقاوم إغراءاتها واستمالاتها .

ويكمن الخلاف بين المجتمعات القديمة والحديثة في مدى توافر هذه الوسائل وقوة تأثيرها ، ففي المجتمعات الأولية كانت المحادثات بين الناس والعائلات والأخبار التي تنتقل من شخص لآخر هي التي تلعب دوراً رئيسياً في تشكيل اتجاهات الجماهير ، وبعد ثورة التصنيع والتقدم الحضاري والمعطيات التكنولوجية المعاصرة تقدمت وسائل الاتصال بالجماهير

وأصبحت تلعب دوراً على درجة كبيرة من الأهمية في حياة الأمم والشعوب المعاصرة (١).

٣ - إن أجهزة الحكم الفاشية والنظم الاستبدادية والشمولية تحرص على تنصيب المنافقين على هذه الأجهزة في محاولة منها لاختصاب العقول وتخدير الجماهير واحتواء الرأي العام لترسيخ المفاهيم والقيم التي تستهدفها والمبادئ التي تعتنقها .

٤ - إن وسائل الاتصال إذا غلب عليها النفاق وسيطر عليها المنافقون لا تستطيع أن تضطلع بالمهمة التي قامت من أجلها وهي التعبير الموضوعي عن اهتمامات الجماهير ومصالحها وآلامها وآمالها وأهدافها ، بل على العكس فإنها تعمل على احتواء هذه الجماهير والقضاء على طموحهم وتقديرهم لقبول السياسات التي تفرض عليهم والتعامل مع الأوضاع القائمة وإقناع الرأي العام أن ما دون ذلك هو التردى والعيب .

٥ - إن رجال الإعلام هم قادة الفكر في الأمة ، فيهم تمثل القدوة . وبالتالي فإنه يجب أن يكونوا نماذج طيبة في السلوك القويم والعمل الصالح والقول الحق لكي يتحملوا مسئولياتهم في تزويد الجماهير بالحقائق السليمة والمعلومات الصحيحة ذلك أن القدوة الحسنة تنعش في ذاتها عن بذل الجهود ، وتوفر الكثير على واضعي الخطط الإعلامية وتضطلع بدور لا يستطيع وسائل الإعلام القيام به .

٦ - إذا كان الحق تبارك وتعالى قد أوجب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المسلمين جميعاً كل بقدر ما يتوافر له من علم ومقدرة . فإن هذه الفريضة أوجب ما تكون على قادة الفكر وصناع المعرفة ورجال الإعلام .

(1) Kappawamy, B : An Introduction to Social Psychology.
London. Asia Publishing Company. 1961 p. 241, 242

ولاشك أن الواجب فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يفعل
ما يأمر به الله وينهى عما ينهى عنه ، ليسود في الأمة هذا الواجب ، وليس
الناس جميعا بمسؤولياتهم تجاه هذا الأمر ، فلا يخافون في الله لومة لائم ،
ولا يخشون في الحق سلطانا جائرا وبذلك تسعد الأمة وتستحق نصر
الله (١).

(١) عبد الغفار عزيز : الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق • القاهرة •
مؤسسة الوفاء للطباعة ١٩٨٢ • ص ٢٢٦ •

المتأفقون وإعداد الخطط الإعلامية

يتطلب إعداد الخطة الإعلامية معرفة الظروف الانصالي واستكشاف طبيعة الجمهور الذي تتوجه إليه هذه الخطة ومعرفة اهتماماته ، ونظامه القيمي ، ومبادئه وتقاليد ومفاهيمه ، ذلك أن فشل كثير من الحملات الإعلامية إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى نقص البيانات اللازمة والمعلومات الدقيقة التي يتم على ضوئها وضع البرامج واختيار الوسائل التي تتناسب وأحوال هذه الجماهير .

ومن خلال الدراسات التي أجريت في هذا الصدد يتبين لنا أن كل شريحة من الشرائح الجماهيرية تتطلب استراتيجية خاصة للتفاعل معها فخطاوية المتقنين تتطلب برنامجا إعلاميا مختلف عن البرنامج الذي يتم أعداده الأعميين ومن لم ينل حفا من الثقافة والتعليم ، والتوجه إلى الأطفال تتطلب برنامجا يختلف عن البرنامج الخاص بالشباب أو الشيوخ ، والإعلام الذي يتوجه إلى النساء يحتاج إلى أعداد خاص قصد لا يحقق نجاحا إذا تم توجيهه إلى الرجال وهكذا .

وينطبق هذا الكلام على أصحاب المذاهب والأيدولوجيات والأديان - المختلفة لاسيما إذا كانت الرسالة تتناول العقيدة وتستهدف الدعوة ، ذلك أن الخطة الإعلامية الموجهة إلى الملاحدة والمشركين تتطلب تسكتيكا خاصا يتناسب مع فكرهم ، ومى بدورها تختلف عن الخطة الموجهة إلى أهل الكتاب الذين يمتنعون اليهودية أو النصرانية ، وهذا وذاك يختلف عن الخطة الموجهة إلى الشيوعيين أو البوذيين أو غير ذلك .

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتحرى هذا الواقع ويتعامل معه ، وكان يخاطب الناس على قدر عقولهم وأنهمهم ومذاهبهم ، وإذا استعرضنا نداءاته الموجهة إلى كل واحدة من هذه الفئات ستبرز لنا هذه الحقيقة ، ويتضح

هذا بصورة جليلة في رسائله إلى ملوك وأباطرة العالم آنذاك ، فرسالته إلى هرقل يدعو فيه إلى الإسلام اختلفت في توجهاتها عن رسالته إلى كسرى ، وخطابه إلى المقوقس يختلف عن خطابه إلى النجاشي ، وهذا ذلك يختلف عن رسائله إلى أمراء الجزيرة العربية في المضمون وفي الشكل .

وإذا كانت بحوث الرأي العام تواجه مدقة بالغة في كشف المناقضين واستخراج الحقيقة من صدورهم ، فإن خطط الإعلام أيضا لابد أن تكتنفها هذه الصعاب في مخاطبة هذه الفئة والتعامل معها ، ويرجع ذلك إلى المقدرة الكبيرة التي تتوافر لديهم في إخفاء مكنونات نفوسهم ، وحقيقة ما يدور في أذهانهم ، والمهارة الفائقة التي تمكنهم من التحدث بمخاتف الالسنه ، وحذقهم في التعامل مع العدو والصدیق دون أن تبدو عليهم علامات تكشف هويتهم أو تحدد أهدافهم حتى يمكن اعداد الحملات الإعلامية التي تتلاءم مع أفكارهم وثقافتهم ومذاهبهم .

وإذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يؤيدا بالوحي الإلهي قد استطاع أن يكشف أساليب النفاق وخطط المناقضين ويتعامل معهم مسترشدا في ذلك بما أنزل عليه من الله سبحانه وتعالى ، فإن الرسول قدماء ، والوحي قد انقطع ، فهل انقطعت السبل الكفيلة بكشف النفاق ومعرفة المناقضين حتى يمكن مواجهتهم والعمل على هدايتهم ، أو أحباط خططاتهم وتخدير الرأي العام من مؤامراتهم ؟ هذا هو ما ستكشف عنه هذه الدراسة .

السمات المميزة للنفاق والمنافقين

إذا كان النفاق يقوم على الكفر الباطن وبإخفاء ما في القلوب ، وإذا كانت هناك صعوبات بالغة في سبر أغوار المنافقين وإمالة اللثام عن اتجاهاتهم الحقيقية ، إلا أن هناك علامات بارزة تظهر على المنافقين في أحوالهم وأفعالهم ، وتسهم في الكشف عنهم ، وتوضح دواخل نفوسهم ، وتفرز ما انضمه أعيان قلوبهم ، وتحدد درجة النفاق التي هم عليها ، وإلى أي مدى يمكن وقفها أو احتواؤها أو مواجهتها ، فهل هم من المنافقين الذين يخفون تكذيب الله ورسوله ؟ أو من الذين لديهم أصل التصديق ولكن شاب تصديقهم بعض معاني النفاق أو اتصفوا ببعض صفات المنافقين ؟

إلا أنه من خلال منهج الحق تبارك وتعالى الذي خلق الإنسان ويعرف ما توسوس به نفسه والذي جعل لكل شيء قدرا ، ومن واقع الدراسات العلمية التي أجريت على النفاق والتجارب العملية التي تحكم مسيرة حياتهم يمكن أن نستخلص مجموعة من السمات التي تميز بها هذه الفئة من فئات الرأي العام لتكون بمثابة مشاعل تضيء الطريق للمضارين في حق الدعوة والإعلام ، وتمكنهم من أعداد الخطط وتحديد الوسائل وانتقاء الأدوات التي تناسب هذه الفئة ، وتعامل مع منهجها في الحياة ، لاسيما أن القرآن الكريم قد وضع النقاط على الحروف في هذا الصدد ، وفي ذلك يقول عز وجل :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن يخرج الله أضغاثهم ، ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالهم (١) » .

(١) سورة محمد آية رقم (٣٠) .

كما أن سنة الرسول وممارسات الخلفاء الراشدين والسلف الصالح من القادة والزعماء يمكن أن تشكل أساسا طيبا نوضح وتبرهن وتؤكد ما ورد في كتاب الله بهذا الشأن لاستكشاف هذه الظاهرة الخطيرة على الرغم من أساليبهم العديدة في التفكير، وطرقهم الملتوية في التحدث، ومهاراتهم البالغة في التخفي، وقدراتهم الكبيرة في الظهور بشتى الصور، وارتداء مختلف الألقاب . .

وفي ضوء ذلك يمكن تحديد الملامح والسمات التي تبرز طبيعة المنافقين وتبين هويتهم فيما يلي :

أولا : ازدواج الشخصية واختلاف ظاهر القول من واقع السلوك :
يعد وضوح شخصية المتلقي من العوامل الجوهرية التي تيسر لرجل الإلهام مهمته وتمكينه من وضع خططه واختيار أساليبه في تحقيق الهدف الذي يسعى إليه، واختيار البدائل، وتحديد الوسائل والأدوات المناسبة للتعامل مع هذه الشخصية .

وبقدر ما تنسجم هذه الصفة في الشخصية الفردية فإنها تنطبق على الشخصية الجماعية لأن الفرد باعتباره عضوا في جماعة لابد أن يتوافق مع نظامها القيمي وتلتقي أهدافه مع أهدافها . وعضوية الفرد في الجماعة تلعب دورا حيويا في تشكيل اتجاهاته، ويرى كثير من الباحثين أن الجماعة تصير محورا هاما لنمو اتجاهات الفرد مما ينتج عنه تجانس هذه الاتجاهات داخل الجماعة، كما أن الجماعة تضغط على الفرد لكي يسير بها، ويميل الأفراد إلى الانضمام لجماعات تسودها اتجاهات تتواءم مع اتجاهاتهم، ويتمرضون لوسائل الاتصال التي تدعم هذه الاتجاهات، والبيانات والمعلومات التي تتوافق معها (١) .

(١) جابر عبد الحميد : سيكولوجية التنام . القاهرة . دار النهضة العربية .

ويتأثر سلوك الإنسان بالجماعة التي ينتمى إليها كما يؤثر فيها ، ويمكن تأثير الجماعة على سلوك أفرادها في درجة الخضوع والاستجابة لمعايير هذه الجماعة والاضغوط التي تصدر عنها ، وكلما كان هذا الخضوع كبيراً أدى ذلك إلى توحيد سلوك الأفراد وآرائهم واتجاهاتهم داخل هذه الجماعة ، والجماعة بهذا تمارس دوراً هاماً في تحديد سلوك أفرادها وتشكيل أنماط تصرفاتهم^(١) .

وينطبق هذا بصورة واضحة على جماعة المنافقين الذين يتفقون في المشارب والميول والانجذابات ، وتجمعهم صفات مشتركة أبرزها ازدواج الشخصية ، وقد وصفهم القرآن الكريم بذلك ليكشف لرجال الدعوة والإعلام حقيقة قلوبهم حتى لا يخذلوا بالمظهر وينصرفوا عن الجوهر ، وقد قال عز وجل في ذلك :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم »^(٢) .

والمنافقون تنوافت لديهم القدرة على الاستمالة وإقناع المتلقي عنهم وإيهامه بأن ما ينطقون به هو الحق وما يعلنونه هو الصدق ، يؤكد ذلك قول الله تبارك وتعالى :

« ومن الناس من يمجيك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد »^(٣) .

(١) سعيد المنزني وكاميليا عبد النتاح . علم النفس الاجتماعي . د . ن . د . ت . ص ١٣ - ١٦ .

(٢) سورة النائدة : آية رقم (٤١) .

(٣) سورة البقرة : آية رقم (٢٠٤ ، ٢٠٥) .

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الصنف من الناس بأنهم أسوأ نوعية بشرية في قوله :

« تجدون الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدّهم كراهية له ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (١) .

ثانياً : الخداع والرياء :

يعلم المنافقون الاستقامة والصلاح لكي ينالوا بذلك في الدنيا مكانة المؤمنين الصادقين ، في محاولة لإخفاء الحقيقة التي تتناقض مع واقعهم لأن قلوبهم خالية من رصيد الإيمان ، ويدعون العلم والمعرفة ، كما يوهمون الجاهل بقدرات ليست فيهم مستخدمين في ذلك شتى الحيل ، والمنافقون يستهدفون من وراء ذلك خداع الله ، وخداع الناس وأصحاب النفوذ وذوى السلطان كي يحققوا من وراء ذلك الأهداف التي يسعون لها ، وقد قال الله تبارك وتعالى فيهم :

« وإذا نقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون (٢) » .

والقرآن الكريم في هذا يرسم للمنافقين صورة مزرية وهم يمارسون نشاطهم مستخدمين أساليب الخداع والتصويه لتخدير العقول وكسب الأقدمة ، ويتلونون كالحرباء ، في قلوبهم السم وعلى ألسنتهم الدهان ، وهي صورة منفردة تبدأ بتقرير ما يكتنه المنافقون الجاهل الموقنة من الشر وما يتربصونه بهم

(١) ركنيا يحيى بن شرف النووي : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين

٥٤٣ . ص ٥٤٣ .

(٢) سورة البقرة : آية (١٤ ، ١٥) .

من البوائر ، وهم مع ذلك يتظاهرون بالمودعة للجماعة حين يكون لهذه الجماعة
غصر وقوة و ثراء .

فلنجح هؤلاء خداع كل من يتعامل معهم ، حتى إنهم يظنون أنهم قادرون
على خداع الله سبحانه وتعالى :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا
كسالى يرامون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى
هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سيلا (١) » .

وقد حذرنا الله منهم فلانكشف لهم خططنا ولا نعلمهم على أسرارنا
لأنهم يظنون الكفر ويتظاهرون بالإيمان ، فهم أناس فسدت قلوبهم وامتلات
بالأفكار السقيمة وخوت من كل جوهر صفي نقي ، في حين أن مناظرهم ومصورهم
خلافة قد تتحدع من لا يعرف حيث نواياهم فهم يظهرون الإيمان ويمسرون الكفر
ويعتقدون بذلك أنهم قادرون على خداع الحق تبارك وتعالى ، وخداع الناس ،
والمنافق بهذا خنع الأخلاق يصدق بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويخاف بعبده ،
يصبح على حال ، ويمسى على غيره ، ويمسى على حال ، ويصبح على غيره ، ويتكفأ
تلكما السفينة كلما هبت ريح هبت معها (٢) .

وتشتد خطورة هؤلاء إذا وجدوا في أجرة صناعة الفسك وفسادة
الرأى ، لأن تأثيرهم سوف يشمل كل من يتلقى عنهم ، وقد اتسع دائرة
الجمهور المستقبل ليفطى مساحة بشرية وجغرافية هائلة ، واستكشاف هذه
النوعية من البشر يعد ضرورة حيوية لنجاح الخطط الإعلامية الجادة لأنهم
هوامل وسيطة قادرة على إحباط الحملة الإعلامية أو تشويهها أو منع التعرض
والإدراك الصحيح لمضمونها .

(١) سورة النساء : آية (١٤٣، ١٤٤) .

(٢) اسماعيل بن كثير القرش المشفق : تفسير القرآن العظيم . المرجع السابق

وتظهر هذه الخصلة بينهم بصورة جليلة حين يقع المنافقون في مأزق أو يتعرضون لموقف صعب أو حادث جلل ، وفي ذلك يقول هر وجل :
« فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا أحسانا وتوفيقا » (١) .

ومن أبرز علامات المنافق الرياء ، والرياء ينطوى على الخداع ، ذلك أن من يرائي الناس يخدمهم ، لأنه يظهر غير ما يعلن ، والرياء نوع من الشرك الخفي ، إذ أنه ادعاء كاذب ، حيث يزعم المرائي أقوالا أو أفعالا مخالفة للحقيقة ليكسب الناس ويستمروهم بما يخالف الحقيقة ولا يترجم الواقع . ذلك أن المرائي يولع بالآقعة السكاذبة ، ويلتئم بالآغطية البالية ليخفي باطنه القبيح ويستر على نفسه الأمانة فيؤاوى الشر ويحسن الباطل (٢) .

وقد وصف الرسول المنافقين هنا أيضا بأنهم شر الناس في قوله صلوات الله وسلامه عليه :

« تجدون شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه - وهؤلاء بوجه » (٣) .

والمرائي فاقد للجمال والصدق ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، فهو وأن كان يتكلم كلاما ظاهره الرحمة ، لكن باطنه العذاب كالذي يذس السم لمضيفه ويعلن صدقاء وهو يكتسب الخداع بالتعود ، ومن ثم يعمى قلبه عن كل بصيرة ، ويقع في شرك خداعه فيعمى قلبه ، ويشق نفسه ، ولا يرى غير ذاته حق . لو ظلم الناس جميعا أو تجاوز كل ما هو مسموح له .

ومكثنا نرى المنافق خادعا مخدوعا ، خادعا للناس ، مخدوعا لنفسه في .

(١) سورة النساء : آية (٦٧) .

(٢) حزة محمد الفرقاوى : نحو علم نفس إسلامي ، ج ٢ . الاسكندرية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٧٩ . ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) أبو زكريا يحيى بن شريف النووي : رياض الصالحين من سلام سيد المرسلين . المرجع السابق ص ٥٤٤ .

كل الأمور، ويتناقض ليحقق ذاته ويشبع رغباته، والرياء ماهو إلا فسق، وعبادة الذات ونسيان الله، وهو ثمرة فجة لاستحواذ الشيطان على المرء فيقو بها بالآباطيل ويوقعها بالتلبسات والأكاذيب حتى إنها إذا لبست قناع الخداع، ظنت أنها مركز الكون كهرياء وغرورا^(١).

وقد أكد الله على فسق المرائي في قوله عز من قائل :

« نسوا الله فأنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون »^(٢).

ومن الرياء حب الرياسة، وتعظيم الذات، وتسخير الناس لتحقيق المصالح الشخصية ليعلم المنافق . وليعلم الآخرين أنه أعلم العلماء، والمرائي يتفاخر بنفسه ويتباهى بها ويمرص عليها .

ثالثا : الجبن والفدر والحياة :

من خصال المنافقين المميّزة عدم القدرة على المواجهة لعلهم أن المواجهة قد تكشف النقاب عما يتمل داخل نفوسهم، حيث تختلف اتجاهاتهم الباطنة عن سلوكهم الظاهر حتى يستطيعوا تدبير المكائد وبث الاحقاد وهم منسكرون خلف واقع مزيف، وهم يتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين ليتقوا توقيع الجواز عليهم، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى والحياة، وفي ذلك يقول تعالى :

رضوا بأن يكونوا مع الخولاف، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون^(٣).

وأساس النفاق الكفر والجبن، أما الكفر فهو ما يبطنه المنافق وأما الجبن فهو الذي يحمل النفاق يظهر خلاف ما يعطن، ولهذا لا يكون المنافق إلا جباناً خوفاً ضعيف القلب . يحسن الكيد والمواربة والعمل في الظلام .

(١) محمد حسن الشرقاوى . المرجع السابق . ص ٧٠ .

(٢) سورة قنوبة : آية ٦٧ .

(٣) سورة قنوبة : آية ٩٣ .

وهذا الصنف من الناس يحسبون اليوم قوة ، والمكر المسمى براعه ، وهو في حقيقته ضعف وخسة ، فالتقوى ليس إثماً ولا خبيثاً ولا عادياً ولا متأجراً أو همزاً في الخفاء .

ولهذا فهم يحرصون على العمل في الظلام بشئ الطرق وبكافة الأسلحة المشروعة وغير المشروعة ، ومن أم مواضع الخطر في المنافقين أنهم غير ظاهرين ، وإنما يحاولون دائماً أن يقنعوا أنفسهم بأقنعة كثيفة ليبدو أمام الناس أنهم منهم ، بل قد يقبضهم البعض على قوة تدبيرهم وسلامة منطقهم وصحة عقيدتهم واستعدادهم لعمل الخديرة ، وذلك بسبب مبالغتهم في إخفاء أمرهم ، وإمعانهم في إبعاد كل ما يشير شبهة النفاق عنهم ثم يندسسون بين الجماهير فيحسبون المؤامرات ويدبرون الفتن وينفثون السموم (١) .

وفي الوقت الذي فرض فيه الحق تبارك وتعالى على المؤمنين التزام الأمانة والوفاء بالعهد ، واحترام الغير ، وجاءت المواثيق والمعاهدات الدولية لتؤكد على هذه الفضائل ، نجد المنافقين يتحون من أن يخر أساسه - القدر والحياة .

والذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون (٢) . وكان المنافقون يرمون النبي صلى الله عليه وسلم بأوصاف هي أبعد ما تكون عن خلقه وشأنه من ذلك ما كان يدور بين البعض منهم من غمز ولمز عند توزيع الصدقات ، واتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالمحاباة في القسمة ، وعدم العدالة في التوزيع ، وهم في ذلك يعملون على صرف الناس عنه والتشكيك في عصمته :

« ومنهم من يلوك في الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » (٣) .

(١) عبد الحليم حفي : أسلوب السخرية في القرآن الكريم . القاهرة (١) الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٧ . ص ٤١ .
(٢) سورة الألقاف : الآية (٥٦) . (٣) سورة التوبة : الآية (٥٨) .

بل أن منهم من هم بقتل النبي لولا أن كان الحق تبارك وتعالى يحفظه بالوحى . ويرعاه بمنايته .

وكانت مواقفهم المخزية وقت المحن والأزمات وأثناء الحروب تدل على خدرهم وخيانتهم ، وفى ذلك يقول جل وعلا :

« فرح المخلفون بمقدم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجهادوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » (١) .

وبما لا شك فيه أن العمل على هداية هذا النصف من الناس مسألة صعبة ، كما أن تركهم يمثل خطورة على المجتمع ، إلا أن خطط الأعداء يجب فى كل الأحوال ، أن تعمل على الكشف عن غيبتهم ، وحماية الجماهير من شرورهم ، وفوض أسرهم .

رابعا : الحقد والحسد وكرهية الخير :

المنافق بحكم بناءه النفسى وتكوينه الوجدانى لا ولاء له إلا لنفسه ولا انتماء له إلا لمصالحه الذاتية .

وكان هذا هو أسلوب المنافقين حتى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالمنافقون إذ ذك يكرهون الخير للغير ، ويعاملون بكل الطرق على الخبائث دون وصوله إلى الناس وتقبل قلوبهم بالحقد والحسد على من أحرزوا قدرا من النجاح فى أى ميدان . فيزيد ذلك فى مرض قلوبهم ، ذلك أنهم أوصدوا قلوبهم عن الإيمان وأغفلوا عقولهم عن الفهم ، ولم يجدوا فى أنفسهم الشهادة لمعارضة المؤمنين معارضة صريحة بسبب فساد عقولهم وخراب ضمائرهم ، فهم يتعدون بمحدم وحسدهم وينالون سخط الله فى الدنيا والآخرة .

وفى ذلك يقول تبارك وتعالى :

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقد خزنن السموات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون » (١).

وهؤلاء - بحكم تكوينهم هذا - لا يبادلون الآخرين ودأ بود ، وخيرا بخير ، أو حبا بحب . لاسيما مع عناصر الصلاح والإيمان ، وفي ذلك يقول عز وجل :

« هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آتينا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » (٢).

والمنافق عدو فاجر بطبعه ، والفجور يعنى الخروج عن الحق عند احتى يصير الحق باطلا والباطل حقاً . وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن أبغض الرجال إلى الله الألد الأخصم » (٣).

والمنافقون لم يكفوا أبدا عن الكيد للمسلمين والارجاف بهم وبذبيهم ، وإذا تمكنوا في الأرض وثبوه ومناصب أو قيادات فإن خطرهم يكون حقيقا وأثرهم يكون مدسرا ، يؤكد ذلك الحق تبارك وتعالى في قوله :

« وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » (٤).

ومن شدة كراهيته وحسده للمسلمين نراهم يثبون الشائعات المضارة بهم لتحقيق أضرارهم الخبيثة فهم يسارعون - على سبيل المثال - بإذاعة أخبار المزعومة ليقترافى عند المؤمنين ، ويدخلوا الرعب في قلوبهم ، واليأس في

(١) سورة المنافقين : آية (٧) .

(٢) سورة آل عمران : آية (١١٩) .

(٣) زين الدين أبو اللرج بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي البندادي . جامع العلوم والحكم . ط ٥٥ . ص ٢٢ . القاهرة مكتبة الدعوة الإسلامية - ١٩٨٠ . ص ٥٢٢ .

(٤) سورة البقرة : آية (٢٠٥) .

نفسهم ، ومهاجرة العدو في صفوفهم ، في محاولة لغرس هوائل الضعف والهزيمة .
والفشل بينهم .^(١) .

والواقع أن كل الخصومات والمداوات والشحناء والفرقة التي نحل .
بالمجتمعات ترجع إلى نشاط المنافقين ودخولهم بين مختلف الطوائف يتظاهرون .
بالإخلاص ، ويكونون الحق والعداوة بقصد تفتيت هوى المجتمع ، والقضاء على .
العلاقات الطيبة بين أفرادها ، فهم الشر المستطير والأسهم المسمومة .

خامساً : الفتنة والنجمة والوقية :

وهذا دأب المنافقين دائماً عليه عليهم فساد قلوبهم ، وسوء نواياهم ، مستمدتين
من وراء ذلك تحقيق أغراضهم الخبيثة والدنيئة .

وبمجنح المنافقون إلى جر المؤمنين إلى معارك جانبية لإهدار جهمهم ، وإضاعة
وقتهم ومالهم ، وذلك من خلال ثروات فارغة ، وصراعات صغيرة ، وأقاويل .
لا أساس لها ، وكلمات لا معنى لها ، وهي ثروات لا تدخل في دائرة النقد .
الموضوعي المفيد بقدر ما تدخل في دائرة الجدل العقيم ، والفساد والوقية .
وإحداث الفتنة بين العاملين الناجحين المتجدين والمؤمنين .

وباستعراض تاريخ المنافقين مع رسول الله نجد أن دورهم في هذا العدد كان
أخطر من دور المشركين بمكة ، واليهود بالمدينة وكانوا أحسنهم نفوساً وألهمهم
طباهاً ، فليس كالتفاق آفة تقتل المروءة والشجاعة ، ولهذا حدد لهم الله
موقعهم المناسب بأنهم في الدرك الأسفل من النار .

وإحداث الوقية بين المؤمنين وإثارة الفتن في صفوفهم هو منهج حياتهم .
واسلوب علمهم ، كما كان شأن عهده بن أبي بن سلول وأتباعه حين

(١) محمد الزوف بهنس : الرأي العام في الإسلام . القاهرة . مكتبة الوهر .
الإسلامي ، ١٩٦٦ . ص ١٦ .

أثاروا الفتنة بين المهاجرين والأنصار حينما رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، ويقبلون على رسول الله بالسمع والطاعة والمحبة ، فذكر هو منهم ذلك كما كرهوا أن يظلموا في عزلة وحدم ، فدخلوا في الإسلام ظاهرا ، وبقيت قلوبهم على جحودها وبغضها ، فكانوا يقومون بمهمة الطابور الخامس لأعداء الله وأعداء رسوله ، فأعلم الله رسوله نبيا هؤلاء ليأخذ منهم حذرهم (١) .

« ومن حواسكم من الإعراب مناققون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » (٢) .

والواقع أن كل الخصومات والعداوات والشحناء والفرقة التي تحمل بالمجتمع ترجع بالدرجة الأولى إلى نشاط المنافقين ودخولهم بين مختلف الطوائف ، يتظاهرون بالإخلاص والإيمان والمودة ، ويكونون الكراهية والعداوة ، ويشعلون الفتنة ، ويحدثون الوقيعة بين الجماهير ، بقصد تفتيت هري الجماعات المتناسكة ، والقضاء على العلاقات الطيبة بين أفراد المجتمع وبعضهم من ناحية ، وببهم وبين قادتهم من ناحية أخرى ، وإثارة الشكوك وتشن الخلات المفرضة ، ولعل خير مثال لذلك حادث الإفك الشهير الذي أطلق فيه المنافقون الإشاعات الكاذبة على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، مما سبب ألما نفسيا وترك حزنا عميقا في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لولا أن كشف الله له الأمر بالوحي وبرأ أم المؤمنين من هذا الشر المستطير .

سادسا : الكذب :

حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم العلامات المميزة للمنافق وهي الكذب فقال :

« أربع من كن فيه كان منافقا خالسا وإن كانت فيه خصله منهن كانت

(١) المسمى الخولي : تذكرة الدعاة القاهرة . مطبعة دار الكتاب العربي .

١٩٥١ م - ١٣٦٦ هـ

(٢) سورة التوبة : آية (١٠١) .

فيه خصلة من نفاق حتى يدعها ، إذا أوثمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا
عاهد قدر ، وإذا غاصم فجر ، (١) .

والكذب هو أسوأ الآفات التي تصيب الإنسان في سلوكه ، وهو البداية
الحقيقية لإنهيار الفرد وإنهيار المجتمع ، وهو المنزلق إلى الرذيلة بكافة أشكالها ،
كما أنه من أهم عوامل إفساد القيادات والقواعد وضياح الأمل والعمل ، فلا تتقدم
الأمم التي ينسب أهلها بالكذب سواء كانوا قادة أم تابعين ، رجالا أم نساء ،
علماء أم جهلاء ، لأن تحضر الأمم يقاس بالصدق الذي يميز الإنسان حتى
في أشد الأوقات صعوبة .

ولا يوجد بديل للارتقاء بالمجتمع في مختلف المجالات إلا من خلال
إستراتيجية علمية توظف فيها أجهزة الإعلام والتعليم والقرينة للقضاء على
هذه الظاهرة الخطيرة التي تهدد المجتمعات في حاضرها وفي مستقبلها .

وقد تبين من الدراسات الإعلامية إنه لا قيمة لأية أقوال إذا لم تأت
ترجمة للإتجاهات الفعلية ، والسلوكيات العملية ، ذلك إن الإنسان السوى مهما
بلغت معاناته يلزم نفسه بأن يكون حساب الكلمات لديه هو نفسه حساب
القدرات ، بل ولا يضرب المرء أن تكون كلماته أقل من قدراته فذلك أكثر
أمانا من أن يقع العكس .

وهذه ليست من طباع المنافق الذي يتناقض ظاهره مع باطنه ، ويتنافر
مظهره مع خبيرة ، والذي يتقن الكذب والتقويه ، فإذا جاء دور العمل ظهر
الخفيوه ، وانكشف المستور ، وتضح بما فيه من حقيقة الشر والبغى والحقده
والفساد ، وحين يتحدث الكذاب فإنه يتصور نفسه خلاصة من الخير ومن
الإخلاص ومن التجرد والرفيع ، ومن الرضاة في إفاضة الخير والسعادة والطهارة .

(١) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين .
المرجع السابق . ص ٤٤٤ .

على الناس ، فيعجبك حديثه وذلافة لسانه ، وببرة صوته ، وقوله في الخير والبر والصلاح ، ويشهد الله على ما في قلبه ، زيادة في التأثير والإيحاء وتوكيدا للخير والإخلاص ، وطهارة النفوس وخصية الله ، وهو أبعد ما يكون عن ذلك .

وقد حمى القرآن الكريم هذا الأمر حين أكد على أن الكذب صفة أصيلة من صفات المنافق فقال عز وجل :

إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله
والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، (١) .

وقد نهى الرسول عن الكذب الذي يوقع صاحبه في منزل النار ، بقوله
حسبي الله عليه وسلم :

« لا تكذبوا على فإنه من يكذب على يلج النار » (٢) .

كما حذر من مغبة هذه الآفة التي تورث صاحبها الجحور وتهوى به
في جهنم بقوله :

« إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وأن الفجور يهدي
إلى النار » (٣) .

وفي الحقيقة أن الكذب هو بداية الانهيار الفعلي للإنسان ، يفقده التوازن
والتماسك ، ويؤثر على كيانه العقلي ، وبنياته النفسية ، وإذا نفشت هذه الرذيلة في
المجتمع أدت إلى انهياره .

وهذا يصبح من الأهمية بمكان تضافر أجهزة الإعلام والتعليم والتربية

(١) المنافقون : آية (١) .

(٢) صحيح مسلم — بشرح النووي . ج ١ القاهرة — المطبعة المصرية ومكتبتها .
٥ . ٦٥ ص .

(٣) زيان الدين أبو الفرج بن شهاب الدين أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي :
جامع العلوم والحكم . المرجع السابق . ص ٥٢٢ .

في خطة محكمة للقضاء على هذه الآفة ، والكشف عن أصحابها مهما كانت مواضعهم ، وتربية النشء منذ الطفولة المبكرة على الصدق ، من خلال التماذج الصادقة في التاريخ الإسلامي والتاريخ العالمي ، في مختلف القلوب الفنية الجاذبة كالألعاب الدرامي والقالب الإخباري والحواري وغير ذلك .

سابعاً : الكفر والانغلاق :

إذا كان الكفر يأتي في مقدمة الرذائل التي وضعا الله على رأس الكبائر وحده لصاحبها موقعه في الدنيا والآخرة .

فإن الله قد برأ المنافقين مكاناً بعيداً في النار وحشرهم مع الكافرين في جهنم جميعاً ، بل أنه وضع المنافقين في الدرك الأسفل من النار ذلك أن الكافر لا يتردد في إعلان كفره وإلحاده ، ورفضه للرسالات السماوية وشجبه لآبياء الله ، وإعلانه العداءة سافر الوجه واضح الفكر ، عارى القلب . وهذا يمكن المؤمنين من التعامل مع هذا الصنف من الناس ، لأن النجاح في التخطيط والمواجهة يتوقف على تحديد الخصم ومعرفة مكانة ومكانته ، وفهم أساليبه ووسائله ، أما المنافق الذي يتجلى بالمسكر والدهاء والخبث والرياء فإن خطره أشد وحريه أصعب .

والتحالف مع الكفار يعد أحد الأساليب الرئيسية والمواقف المبدئية للمنافقين ، وهم بذلك يعملون بكل الطرق للاضرار بالإسلام والكيد له ، ويجدون حشائهم في هذه الفتنة المارقة وفي ذلك يقول عز من قائل .

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ^(١) » .

(١) - سورة النساء : آية (٦١) .

فهم يطلبون عندهم العزة ، وتوضح الهوامد والبراهين هذه الحقيقة التي تحكم سلوك المنافقين في هذا العدد ، كما تكشف من خطأ تصورهم لحقيقة القوى ، وعن تمرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم المنافقون ، وتقرر آيات الحق تبارك وتعالى أن العزة لله وحده ، فهي تطالب عنده ولا عزة ولا قوة إلا لله (١) .

« الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبغثون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعا (٢) » .

ويتمثل الكفر أحيانا في الاستهزاء بجلال الرسالة والرسول والسخرية منه ، والخوف من أن يكشف الله أمرهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

« يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا أن الله يخرج ما تكفروا (٣) » .

وقد كان المنافقون يضيفون إلى الكفر والجحود استهزاءهم بالنبي والمسلمين حين يغلو بهضمهم إلى بعض ، وكانوا يصرون على الكيد لهم ، ويتولون المشركين واليهود دون النبي والذين اتبعوه ، ويطلقون كلمة سوء على النبي والذين آمنوا معه (٤) .

وكان المنافقون يعقدون مجالس للسخرية بالمسلمين والاستهزاء برسول الله كما كان يفعل المشركون ، ولذلك جمعهم الله تعالى مع المشركين في حكم واحد بقوله عز وجل :

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن . مج ٢ . ج ٥ - ٧ بيروت . دار الشروق

١٩٧٣ . ص ١٢٩

(٢) سورة النساء : آية (١٣٩) .

(٣) سورة التوبة : آية (٦٤) .

(٤) طه حسين : مرآة الإسلام : القاهرة . دار المعارف بمصر . ١٩٥٩ . ص ٩٣ -

د أن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا،^(١).

بهذا نرى أن هذه الفئة التي اتسمت بالغدر والكذب والجبن والخداع والحقد والحسد قد اجتمعت على الكفر الباطن والنفاق الظاهر ، ولذلك أصبح خطرهم على المجتمع أشد من خطر العدو الظاهر ، ويصبح وجودهم في مواقع القيادة والريادة أو الأماكن الحساسة كأجهزة الاتصال وبناء الرأي العام نذير خطر على المجتمع . فكلما قويت شوكتهم واشتد ساعدتهم كان تأثيرهم أقوى ودورهم أبلغ ، وبالتالي فإن الاتصال بهم يتطلب تخطيطا دقيقا وفهما عميقا وقدرة متميزة .

• (١) سورة النساء : آية (١٤٠) .

أصول الاتصال والمواجهة مع المنافقين

أفنه من الظلم الواضح إصدار الأحكام على الناس من خلال التصرفات العابرة ، ولهذا حرم الله الغيبة وأمر بالنصيحة والمواجهة ، ولا يرى الإسلام أن مجرد المخالفة في الرأي تبیح العداء والبغضاء ، وتمنع المسالمة والتعاون على شئون الحياة لأن الشدة مع المخالفين تؤدي إلى تفكك الأسر وحقدّها ، إلا أن هذا لا يحول دون العمل على اكتشاف الطبيعة النوعية لكل شريحة من شرائح المجتمع والعمل على إيجاد صيغة مناسبة للاتصال بهم إما بهدف هدايتهم أو مواجهتهم ، أو إحتواء عدائهم .

وقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي الإلهي ليكشف له أمر المنافقين ، ويحدد له كيفية التعامل معهم ، وكانت آيات القرآن الكريم القاطعة لكل التباس تقف بالمرصاد لكل لبس أو غموض في هذا الصدد . وكان عمر بن الخطاب يقول أن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذهم الآن بما ظهر من أعمالهم ، فن أظهر لنا خيرا أمنا وقربنا ، وليس إلينا من سريره شيء ، الله يحاسبه على سريره ، ومن أظهر لنا شرا لم يؤمنه ولم نصده وأن قال أن سريره حسنة (١) .

وتدل الشواهد والبراهين على أن معرفة حقيقة المنافقين وما تضمه نفوسهم ليس بالأمر اليسير ، ويمكن هذه المعاني في عدم القدرة على سبر أغوارهم والكشف عن أفعالهم الحقيقية لاسيما كلما ارتفعت درجاتهم في سلم النفاق ، وقد عرضنا للسمات المميزة للنفاق والمنافقين كما حددها القرآن الكريم وكما أوضحتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكي تسهم في الكشف عنهم وتحديد هويتهم وما تخفيه سرائرهم .

(١) محمد يوسف الكاندهلوى : حياة الصحابة ج ١ - ص ١ - بيروت .

دار المعرفة والنشر - ١٩٦٣ - ص ١٥ .

وفى الحقيقة أن التعامل مع هذه الفئة يتطلب مهارة وحذقا وذكاء، وقدوة خاصة على مواجهة هذه الشريحة الخطرة من شرائح المجتمع .

وهنا يجب أن يكون منهج القرآن نبراسا لنا ، وسنة الرسول هاديا ومرشدا لتحديد أساليب التعامل مع هذه الفئة ، ذلك أن القرآن الكريم قد تكفل بتزويد المسلمين بأهم أسلحة مقاومة النفاق .

كما أنه من الأهمية بمكان الاستفادة بمعطيات العصر الحديث واكتشافاته .
في كشف النفاق والمنافقين ، لاسيما وقد أسهم كثير من العلوم في فهم سلوك الإنسان ، وفي التعرف على دوافع هذا السلوك ، والعوامل التي تؤثر فيه مثل علم النفس Psychology الذى جعل سلوك الفرد من مختلف جوانبه محورا أساسيا لاهتماماته ، وعلم الاجتماع Sociology ذلك العلم الذى يدرس الاحوال الثقافية والمؤسسات الاجتماعية التى أثرت في الجماعات المختلفة كالأسرة والمدرسة ودور العبادة ودوائر العمل والتنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، فينهايتناول علم النفس دراسة سلوك الإنسان كفرد ، فإن علم الاجتماع يعمل على فهم السلوك الجماعى Group Behaviour (١) .

وقد أسهمت العلوم السلوكية وعلم الإنسان Anthropology ودراسات الرأي العام ومناهج البحث العلمى بالكثير في هذا المجال مما يمكن الاستفادة بنتائجها في فهم سلوك المنافقين .

ومن معطيات القرآن الكريم وسنة الرسول ونتائج الدراسات العلمية المعنية يمكن أن نجمل أفضل أساليب الاتصال والتعامل مع المنافقين فيما يلى :

١ - الحرص والحذر وتمحيص أقوال المنافقين وأفعالهم :

وجه القرآن الكريم تحذيرا شديدا للرسول والمسلمين يبصرهم بأسر المنافقين ويلفت نظرهم من مقبة أخطاء الأمان لهم أو التهورين وشأنهم أو كذبت

(١) على أحمد على : أسس العلوم السلوكية والنفسية . القاهرة - مكتبة عين نجس

أمرار المسلمين لهم ، لأن قلوبهم لن تصفو ونفوسهم لن تخلو من الحقد والكراهية .

ولم يكف القرآن بتحذير الرسول والمؤمنين من شرهم ولكنه أتبع ذلك بإعلان غضب الله وتقمته عليهم .

وإذا كان هذا التحذير موجها إلى المؤمنين عامة ، فإن أهميته تزداد لدى رجال الدعوة والإعلام والذين يعملون في مجال المعلومات ، لأن كل معلومة يحصل عليها المنافقون سيتم توظيفها لضرب المؤمنين ، وتزيق وحدتهم ، وإقصاء كل عوامل نموهم وازدهارهم ، وأحداث البلبلة والاضطراب في صفوفهم .

ولذا أمر الله نبيه بعدم طاعتهم فقال هو وجل :
« يا أيها النبي أتق الله . ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ، وأتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وترك كل على الله وكفى بالله وكيلاً (١) » .
وفي ضوء ذلك أكد القرآن الكريم على ضرورة التحرى عن صحة ما ينقلون من معلومات ، والتأكد من صدق مقولتهم في أى أمر درءا لفتنهم ، والإندفاع وراء أهوائهم .

وهنا يصبح من الضروري معاملة المنافقين بحذر شديد ، وبقطة كاملة لإفساد غمطاتهم ، والكشف عن حقيقتهم حتى يعيش المجتمع سالما آمنا شرم وحفاظا على العلاقات الطيبة بين أفرادها وجماهاة ، وأقيا نفسه من كيدهم .

٢ - الصبر والناسخ وسمة الصدر :

وهو مطلب إنساني وإسلامي وصفة أصيلة من صفات المؤمنين فيجب اكتشف حياتهم من مسائل وقضايا .

(١) سورة الأحزاب: آية (١ ، ٢) .

ولعل الصبر على المنافقين خير علاج لمواجهة هذه الفئة الشريرة من فئات المجتمع ، هؤلاء الذين لا نستطيع أن نسير غورهم ، كما لا نستطيع أن نتغاضى عن جرائمهم وخططهم الخبيثة ، لأنهم يملكون الصلاح والتقوى ويظهرون الإسلام ، ويرتدون قناع الفضيلة .

وحين جاء المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي في غزوة تبوك يعتذرون لرسول الله ، عما كان من عيودهم ، فلم يملك النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يقبل ظاهراً عذرهم ويستغفر لهم ، وحين جاء الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول يشفع في أبيه كبير المنافقين وكان يحضر ، قبل الرسول شفاعته ، بل شهد موته وتشيع جنازته ، وقام على قبره .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعامل عبد الله بن أبي على أنه مسلم ولم يعامله معاملة المشرك أو المرتد أو الكاذب في إسلامه ، ذلك أن الأحكام الإسلامية في مجموعها تتكون من جانبين . جانب يطبق في الدنيا ويكلف المسلمون بالعمل به فيما بينهم ، وجانب آخر يطبق في الآخرة ، ويكون أمره حائداً إلى الله من وجل . أما الجانب الأول فيقوم أمره على الأدلة المادية المحسوسة بحيث لا يقرب شيء من نتائج الأحكام إلا بموجبها . وأما الجانب الثاني فيقوم على ما استقر في القلوب واستكان في الصدور ومرد القضاء في ذلك إلى الله تعالى ، وتطبيقاً لهذه القاعدة الشرعية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من اطلاعه على كثير من أحوال المنافقين وما تسره أفئدتهم برحى من الله تعالى يعاملهم معاملة المسلمين دون تفريق في الأحكام الشرعية العامة وفي ذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يقول .

« إنما تأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم » (١) .

وهذا لا يتنافى مع أهمية الحذر من المنافقين ، واليقظة لتصرفاتهم فحسب

(١) محمد سيد درماني البوطي : فقه السيرة ط ٧ - القاهرة - ١٩٨٧ - مكتبة

دفين، ومكرم لعين، فذلك من الواجبات البدئية في كل وقت، وكل ظرف مع التسليم بأن رحمة الله التي وسعت كل شيء يمكن أن تشمل التائبين منهم من صدق ويقين، وفي ذلك يقول الله تعالى :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم، وأنهبوا إلى ربكم وأسلوا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (١) » .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حكيما موفقا في التغلب على المتأعب التي واجهته مع المنافقين في الجبهة الداخلية، وقد تعامل معها بمنتهى اليقظة والحذر والحزم، وزاوج في ذلك بين اللين والحدة حتى أستقام له الأمر وحقق الله النصر في النهاية (٢) .

وكان الرسول يستهدف من وراء ذلك التأكيد على أن رسالة الإسلام لا تبنى على الإكراه ولا على الكراهية، بل هي رسالة لإصلاح وتقام، وبظهور ذلك في أحكامها التي عين عنها في قوله صلى الله عليه وسلم :

« أمرنا أن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر (٣) » .

وهذا يتطلب الصبر على الضراء والإلتجاء إلى الله، وحسن الظن به، والثقة في عدله ورحمته، والتحسن به، والحذر الشديد مع هذا المصنف الذي لا يضر إلا شرا، ولا يكن إلا حقا يؤكد ذلك قول الحق تبارك وتعالى .
« أن تمسك حصة تؤم وأن تصبكم سبحة يفرحوا بها، وأن تصهروا وتنفقوا لا يضركم كيدهم شيئا أن الله بما يعملون محيط (٤) » .

(١) سورة الزمر : آية (٥٣ ، ٥٤) .

(٢) عبد القادر عزير : الدعوة الإسلامية بين التنظيم الحكومي والتفريع الديني .

ط ٣ . القاهرة . مؤسسة أرفاء . ١٩٨٣ . ص ١٦٢ .

(٣) عبد القادر زيني العلوي : الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها . المرجع

السابق . ص ٦٧ .

(٤) سورة آل عمران : آية (١٢٠) .

أى أن مردود مكرم سيعود عليهم ، فلا يحجب المسكر السبى . إلا بأهله فى
النهاية ، وقد التزم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدوء والصبر وتكرار الذات
وهو يبنى دعائم الإسلام ، لأن هذا البناء يتطلب جهودا خاصا يحفظه من
التيارات الجارفة التى تتولد من الطيش والغلظة والاندفاع الآحق ، حتى
تكون الرسالة قوية ، لا تهزها عواصف ، ولا تنال منها فتن ، ولا تفقر معالمها
مؤمرات أو تقلبات ، ولا يزيدنها تعنت المعاندين وكيد الحاقدين إلا
لإستقرارها ورسوخا .

كانهج الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا مع المنافقين منهم الإغضاء
والإعراض ، وتبصير المؤمنين بأمرهم ، بهدف التخلص من هذا المسكر اللعين
دون جزع أو يأس أو حزن التزاما بمنهج الحق الذى قال عز من قائل :
« يا أيها الرسول لا يخزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا
آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » (١) .

٣ - فضح مؤامراتهم وكشف مخططاتهم :

إن نقصن الدعاة بأفقه فى مواجهة النفاق والمنافقين لا يعنى السكوت عن
أعمالهم ، أو التستر على نشاطهم ، أو عدم الحذر منهم ، والتعاضد عن استئصال
شأفتهم من المجتمع ، بل أن ذلك واجب لا يجوز تركه وأعماله شريعة التحريم
والثبوت كيلا يؤخذ برىء بذنوب سواه ، ولا يظلم أحد بقل غيره ، فلا يملك
أحد أن ينهى مسلما عن الإسلام لمعصية ارتكبها أو ذنب افتراه .

وقد كلف الحق تبارك وتعالى غضاظاتهم وحسم الأمر بالنسبة لهم ،
لأنه وحده الأهل بما فى نفوسهم ، وما تكنه صدورهم .

فضح نواياهم وبين أساليبهم المتلوية فى قوله عز وجل :

(١) سورة المائدة : آية ٤١ .

« فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك الخروج ، فقل لن تفرجوا
معي أبدا ، ولن تقاوتوا معي هدوا ، إنكم رضيتم بالعود أول مرة فاقعدوا
مع الخالفين ، ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا
بآله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون (١) » .

٤ - عدم موالاتهم أو إعطاء الامان لهم :

أنه بقدر ما نهج الإسلام منهج السلم وعدم الظلم ورفض العدوان ، إلا
أنه لا يقبل التمسيع في مواجهة النفاق والمنافقين حين يستبين أمرهم ، وتضح
هداوتهم ، ويظهر خطرم فيستنكر الحق سبحانه وتعالى التراخي في موضع
الحسم ، واتقسام الجماعة المسلمة نحو المنافقين إلى فئتين ، فبإحدى الإسلام
واضحة في ضرورة تحديد الأمور وحسمها وفي ذلك يقول تعالى :

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم
ويفس المصير (٢) » .

واختيار الإسلام السلم كهدف له ، ومبداً يلتزم به يتفق مع منهجه
الأساسي في حرية الرأي والتعبير والاختيار ، كما يحترم الإسلام المعهود
والمواثيق ، فإذا لجأ المنافقون إلى معسكر بينه وبين الجماعة المسلمة عهد مهادنة
وعهد ذمة فهم في هذه الحالة يأخذون حكم الذين يلجئون إليهم ويتعهدون بهم (٣) .
كما أن الإسلام يرى أن المهادنة إذا تمت مستكلة شروطها ، وحافظ عليها
الطرف الآخر ولم تبد من جانبه خيانة ، ولم تتغير الأحوال التي وضعت
بمقتضاها ، كان الوفاء بها واجبا دينيا ، وفي الإخلال بها قدرا

(١) سورة التوبة: آية (٨٢ ، ٨٤) .

(٢) سورة التوبة: آية (٧٣) .

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن - ج ٢ - ص ٧ - بيروت . دار الشروق .

وخيانة إلا إذا أخل الطرف الآخر بشئ من التزاماته نحوها بقرائن واضحة وأنبأ صادقاً (١).

إلا أن الفئة التي توغل النفاق في كيانها وأصبح جزءاً من تكوينها الفعلي والوجداني يصبح إعلاماً وهدايتها للإسلام إهداراً للوقت والجهد، وقد أكد الله على ذلك بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تقولوا عنه وأنتم تسمعون، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ولم نسمع به، إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » (٢).

وهنا تصبح موالاته المنافقين مسألة مرفوضة لأنهم لا يسعون إلى الإيمان والهداية ، كما آمن الناس ، ولكنهم - على العكس - يسعون إلى جر المؤمنين إلى مثل الكفر .

« ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكفونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » (٣).

هـ - الاعراض عنهم ، وتوجيه الدعوة لمن هم أهل لها :

إذا كان الإعلام عن الإسلام أو الامتثال لأوامر الحق تبارك وتعالى في أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب الدعوة والمسلمين جميعاً فإن هذا الجهد يجب أن يوجه لمن هم أهل لها ، حتى لا يهدر الوقت والجهد مع فئة لا تجدى معهم أى دعوة ولن يتحقق من ورائهم أمل في الهداية .

(١) محمود شلتوت - الإسلام عقيدة وشرعية ، القاهرة - دار الشروق ١٩٨٠

ص ٤٥٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية (٢١ - ٢٣) .

(٣) سورة النساء : آية (٨٩) .

وقد حدد الله مكانهم في قاع جهنم ، وليس لهم نصير يحول بينهم وبين العذاب إلا التوبة من النفاق ، وإصلاح أعمالهم ، لعل الله يقبل توبتهم ، فالحق تبارك وتعالى لم يخلق الباب أمام توبه المنافقين ، فقال في ذلك :

« ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما » (١) .

والإسلام يرفض أن يستنقذ أحد إلا عن قناعة ورضى وإيمان كامل ، فليس في حاجة إلى من يدخله مجاملا أو كارها أو منافقا ، ولهذا ترك حرية الجميع دون قهر أو قمع أو اغتصاب للعقول أو الأفتدة وفي ذلك يقول عز وجل :

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا اعتدنا للظالمين قارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفعها » (٢) .

وهنا يجب أن تعمل الخطة الإعلامية على محاصرهم ، إلقاء الشرم ، ودوره المضرم ، والقضاء على حملات الحمس والشائعات التي يشنونها على الإسلام والمسلمين ، فهذا دأبهم وذلك منهجهم ، أما العمل على هداية قوم سواء عليهم أنذرهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، فهذا إهدار للطاقة والجهد بلا عائد أو مردود .

وفي ذلك يقول الله تعالى :

« أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا » (٣) .
ويمكن الحل القرآني مع هؤلاء في الأعراض منهم وتوجيه النصيح لهم وإعلامهم بكلمة الحق .

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٤ .

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩ .

(٣) سورة النساء: الآية ٨٨ .

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظامهم ، وقيل لهم في أنفسهم قولا بليغا » (١) .

٦ - تحسين الجماهير بالحقائق وتزويدهم بالمعلومات الصحيحة .

تتحمل أجهزة الإعلام والدعوة الجانب الأكبر من مسؤولية حماية الجماهير من خطر المنافقين ، وذلك بتزويدهم بالحقائق والمعلومات الصادقة أولا بأول لتكون حصنا لهم في مواجهة الشائعات العنارة وحملات الحمس وأساليب الفتن والدسائس ، فالحقيقة وحدها كفيلة بدحض كل محاولات الشر والفساد والوقية والقضاء والمؤامرات التي يحكيها المنافقون ، لأن نشاطهم يزدهر في مناخ الكبت والقمع والتعتيم الذي يسيطر على المجتمعات الاستبدادية ويتسبب في اتساع الهوة وفقدان الثقة بين القيادة والقاعدة ، وبين الجماهير بعضها والبعض الآخر .

وقد جاء في التقرير الذي أعده الأمين العام للأمم المتحدة عن أعمال المنظمة أن الوظيفة الرئيسة للإسلام هي مباشرة جمع المعلومات الدقيقة وإذاعتها مباشرة حرة مسئولة وأن خير وسيلة لتحقيق أهداف حرية الإعلام هي إتاحة مختلف مصادر الأنباء والآراء لكل إنسان (٢) .

والإعلام الذي لا يقوم على الواقع ولا يلتزم بالموضوعية والتجرد ، ويعبر عن الجماهير تبصيرا موضوعيا يلتقي عنه مفهوم الإعلام ويفقد أهم دعامته وهو حامل الصدق .

فالإعلام هو تزويد الجماهير بأكبر قدر ممكن من المعلومات الصحيحة والحقائق الواضحة ، وبقدر ما في الإعلام من حقائق صادقة ومعلومات دقيقة

(١) سورة النساء الآية ٦٣ .

(٢) الجمعية العامة للأمم المتحدة والتقرير السنوي للأمين العام . ملحق رقم (١)

الدورة الرابعة والعشرين - نيويورك ١٩٧٠ - ص ٢٣٤ .

منبثقة من مصادر أمينة بقدر ما يكون هذا الإعلام سليبا وقويا ، وهذا هو أيسر الطرق وأفضلها لمحاربة آفة النفاق التى يعتمد أصحابها على ققص المعلومات المتاحة ، فيجد المنافقون المناخ مهيئا لهم لبث الأكاذيب وإشاعة والأقاويل برويح الشائعات .

وتتحمل القيادات الإسلامية المسئولية الأولى لمقاومة النفاق من خلال قيامها بحمل مشا كل الجماهير ، وتوضيح الرؤى أمامهم فى كل ما يخص حاضرهم ويتعلق بمستقبلهم ، وإرساء قواعد العدل ، وتدهيم ركائز الحق وتنصيب العناصر الصالحة ، وتقديم القدوة الطيبة ، والعمل على كشف المنافقين وتنجيهم عن حوائج القيادة والريادة حتى لا يبتوا بهم وهم ويعيشوا فى الأرض مفسدين . ومصارحة الجماهير وإعلامها بكافة الحقائق الموضوعية بعد مطالبا بجدريا حتى يسهموا فى مقاومة النفاق والمنافقين .

ويؤكد ولبورشرام أن الإعلام الذى يتزايد تداوله هو الذى يجعل القادة محدثون الشعب ، كما يجعل الشعب محدث قادته كما يحدث نفسه ، ويجعل الحوار فيما يتعلق بسياسة الدولة ميسورا ، ويجعل الأهداف والمنجزات الوطنية ماثلة فى أذهان الجماهير (١) .

والإعلام بهذا عليه أن يقوم بإشباع رغبة الجماهير فى المعرفة حيث إن حرمان الناس من المعلومات والحقائق التى تعالج شئونهم يؤدى إلى خلق جو من التوتر وعدم الثقة ، ويساعد المنافقين على ممارسة نفاقهم .

وفى هذا يقول توماس جيفرسون Thomas Jefferson إن الطريقة المناسبة لمنع اللبس وسوء الفهم عند الجماهير تكمن فى تزويدهم بالمعلومات الكافية التى تعالج شئونهم وأحوالهم عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة ،

(١) ولبورشرام : أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية ترجمة . محمد قنسى ويحيى أبو بكر . القاهرة - ص ٦٥ .

وإتاحة الفرصة للحقائق لكي تنساب إلى الشعب ونصل إلى مختلف السكتل الجماهيرية (١)

٧ - القضاء على التفاف في أجهزة الدعاية والإعلام :

لأنه لا يكفي للدعاية أو رجل الإعلام أن يكون فقيها ، عالما أو خطيبا مفرها أو إذاعيا لامعا ، بل لابد أن يكون فوق هذا وذاك تقيا ورعا ، حاملا بعلمه ، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وحجب الهدى وانعدم الأثر ، ورحم الله مالك بن دينار حيث يقول :

« إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته من القلوب ، كما يزل القطر من الصفاء » (٢) .

وفي الحقيقة إن العمل الإعلاني بكافة أشكاله وقوابله مسموها أو مرثيا أو مكتوبا ، وسواء كان خطابة أم وعظا لن يجد آذانا صاغية لدى الجماهير إذا لم يلتزم القائمون بالإنصال بما يقولون ، والتاريخ الدولي والتاريخ الإسلامي بغض بنماذج من الخطباء الذين كانوا سيكون السامعين ولكن أقوالهم كانت تعالف أفعالهم ، وسلوكهم الظاهر يتناقض مع اتجاههم الباطن .

وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن من البيان لسحرا »

فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة سواء كانت خصومته في الدين أم في الدنيا على أن ينتصر الباطل ويخيل للسامع أنه حق ، ويوهن الحق ويخرجه

1) Rivers, William : Mass Media. Delhi. Universal Book Stall . 1963 P. 3

(٢) فتحى يكن : معكلات الدعوة والدعاية - ط ٤ - بيروت - مؤسسة الرسالة - ١٩٨٠ - ص ١٤٩ .

في صورة الباطل . كان ذلك من أقبح المحرمات وأخبث خصال النفاق ^(١) .
ويقول أيضا :

«إنكم لتختمهمون إلي ، ولعل بهنكم أن يكون الحق بحجته من بعض ،
ولنما أفضى على نحو ما أسمع ، فن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ،
فإنما أقطع له قطعة من النار» (٢) .

وكان الحسن البصري يعجب من الحجاج بن يوسف الثقفي فيقول :
«ألا تحجبون من هذا الفاجر ، يرقى عتبات المنبر فيتكلم بكلام الأنبياء
وينزل فيقتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ، ويخالفه في عمله» .

ومثل هؤلاء الخطباء يقتبسون من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهجه
في تهوين الدنيا والتذكير بالموت ، تساعدكم مقدرتهم الكلامية على صوغ
العبارات القوية التي تفرع القلوب وتثير الإشفاق من الحساب في الدار الآخرة .

وهذا الصنف من المنافقين لا يختلف عن هؤلاء الذين يأمرون بالمنكر
وينهون عن المعروف والذين قال الله فيهم :

«المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون
عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسبهم ، إن من المنافقين
جم الفاسقون» (٣) .

ذلك أن أبرز صفات الداهية ورجل الاعلام المسلم العمل بعهده فلا يكذب
لفعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه بل لا يأمر بالشئ ما لم يكن هو أول
عامل به ، ولا ينهى عن الشئ ما لم يكن هو أول تارك له ، ليفيد وعظه

(١) رين قنابدين أبي قرج عبد الرحمن بن عهbab الدين بن أحمد بن رجب
الحنبلي في نهج الأئمة : جامع العلوم والحكم . ط ٥ - القاهرة - مكتبة الدعوة الإسلامية .

١٩٨٠ ، ص ٥٢٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ٥٢٢ .

(٣) سورة النوبة آية ٦٧ .

ويشمر إرشاده ، وإلا فلو كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه يكون هو نفسه عقبه في سبيل الإصلاح ، وهيات أن ينتفع به ففائد الشيء لا يعطيه .

ذلك أن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب ، كما يزل القطر عن الصفا ، فإن من حث على التحلي بفضيلة وهو يعامل فيها أو أمر بالتخلي عن تقية وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال بل يكون موضع حيرة البسطاء وعسل سخريه في نظر العقلاء ، فإن من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس منه ، واستهزؤوا به ، واتهموه في دينه وعلمه وورعه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أحلب الأشياء والألها ما كان يستأثر به ، (١) .

(١) طي محفوظ : هداية الرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة . ط ٥ ، القاهرة .

[دار الكتاب العربي . ١٩٥٢ . ص ٩٠ .

الخاتمة

تكشف لنا هذه الدراسة من التفاف كظاهرة تواكب وجود المجتمع البشرى في كل زمان وكل مكان . تجد القرية الصالحة ، والمناخ الذى تزدهر فيه في ظل النظم الدكتاتورية والأوضاع الفاسدة حيث وتسيطر العناصر الانتهازية وتفسح الحوة الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع .

ومن السمات المميزة للتفاف الكذب والفجور والخيانة والفساد ، ومن أبرز مظاهر التفاف الاختلاف الواضح بين ظاهر الأقوال وواقع الأفعال ، أو بين الاتجاه الداخلى والسلوك الظاهرى .

وأخطر أنواع التفاف هو الذى يظهر في أجهزة الدعاية والإعلام وبين رجال الفكر وقادة الرأي لأن تأثير هذه الأجهزة وهؤلاء القادة يتسع ليشمل مساحة جغرافية وبشرية واسعة ، كما أن تأثيرهم كفاتيح للاتصال وحراس البوابات الإعلامية يكون أعمق . من هنا يصبح القضاء على التفاف والمناققين في هذه الأجهزة وتلك الأماكن الحساسة ، وتفليس المجتمع من شرورهم ، وتحجيم دورهم هدفا استراتيجيا ومطلبيا جوهريا للإرتقاء بالمجتمع والنهوض به .

واكتشاف المناققين ومعرفة هويتهم يعد أمرا هاما لخطط الإعلام ، وبحوث رأى العام ، وواضعى السياسات المختلفة ، وصانعى القرارات ، حتى تأتى قراراتهم ترجمة فعلية لبعض الجماهير وإنسجاما مع آمالهم وآلامهم .

ذلك أن الخطط الإعلامية إذا لم تأت متوافقة مع ظروف الجماهير وتطلعاتهم ، ومنسجمة مع إطارهم الدلائلى فسوف يؤدى ذلك إلى تضعضع جسور العلاقة التفاعلية بين هذه الجماهير ومصادر الاتصال ، وقد ينجم من

ذلك حدوث هوة في التصديق Credibility bog بين هذه الأجهزة وبين المتلقين عنها ، وبالتالي فإن تستطيع السياسات الإعلامية التي تتناول تضايها المجتمع ، وتعالج مشكلاته أن تحقق الأغراض التي تستهدفها .

ولذا كانت بحوث الإعلام تواجه صعوبة بالغة في الكشف عن فئة المنافقين نظرا لقدراتهم الكبيرة في إخفاء حقيقة نواياهم ، والكشف عن خباياهم ، ومعرفة اتجاهاتهم الفعلية ، إلا أن هناك سمات مميزة حددها الحق تبارك وتعالى لهذه الفئة في القرآن الكريم وأكدت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبرزتها حقائق التاريخ ، وممارسات السلف الصالح ، والتجارب العملية . يمكن من خلالها الكشف عن المنافقين ، لاسيما وقد تقدمت أساليب كشف الكذب واختبار صحة المعلومات وصدق البيانات التي تحملها إجابات المبحوثين وذلك قبل تفرينها وتحليلها واستخلاص النتائج التي أسفرت عنها ، كما أن الوحي الإلهي الذي كان يبين لرسول صلى الله عليه وسلم هوية المنافقين قد انقطع بوقاته ولم يعد هناك إلا الاستعانة بالله عليهم وتوظيف الطاقات البشرية والمعطيات العلمية لمعرفةهم .

وقد حدد الحق تبارك وتعالى أمثل أساليب الاتصال والتعامل مع فئة المنافقين ، سواء طدلتهم ، أو قدره خطرهم ، وإتقاء شرهم ، بأن على رأسها تحييص كل ما يصدر عنهم حتى لا نصيب قوما بجهالة ، والحرص والحذر منهم ، والصبر وقوة التحمل ، وإجهاض مخططاتهم ، والقضاء على مؤامراتهم ، ومواجهتهم ، أو جهاذهم إذا اقتضى الأمر ، أو الأعراض عنهم مع احترام العهود والمواثيق التي تعقد معهم .

ويأتى تزويد الجماهير بالحقائق الصادقة والمعلومات السليمة فيما يخص حاضرم ومستقبلهم على رأس العوامل التي تسهم في القضاء على مناخ النفاق

وتقتضى على الشائعات أو حملات الحمس التي تسود في جو التعتيم وتقص المعلومات .

وإذا كان القضاء على التناق في الحياة العامة يعد مطلباً جوهرياً للنهوض بالمجتمع وتقدمه، فإن مقاومته والقضاء عليه في أجهزة الدعاية والإعلام وفي منابر الفكر وأجهزة صناعة الرأي يصبح أكثر أهمية، نظراً للمكانة الخاصة التي تبوّؤها هذه الأجهزة في الحياة المعاصرة، ويرجع ذلك إلى سعة انتشارها وقوة تأثيرها .

مصادر البحث ومراجعته

- أولاً : القرآن الكريم .
- ثانياً : السنة النبوية .
- ثالثاً : الكتب العربية .
- ١ - أبو زكريا يحيى بن شرف النووي : رياض الصالحين من كلام
- صيد المرسلين ، د . ن . د . ت .
- ٢ - إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم . ج ١ ،
القاهرة ، مكتبة الدعوة الإسلامية ، ١٩٨٠ .
- ٣ - جابر عبد الحميد : سيكولوجية التعلم ، القاهرة ، دار النهضة العربية ،
١٩٧٢ .
- ٤ - زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن حسن بن شهاب الدين بن أحمد
- رجب الخليل البغدادي : جامع العلوم والحكم ، ط ٥ ، القاهرة ، مكتبة
الدعوة الإسلامية ، ١٩٨٠ .
- ٥ - سعيد المغربي وكاميليا عبد الفتاح : علم النفس الاجتماعي ،
د . ن . د . ت .
- ٦ - عبد الجليل شلي : الخطابة لإعداد الخطيب ، القاهرة ، دار الشروق
١٩٨١ .
- ٧ - عبد الحليم حنفي : أسلوب المخبرية في القرآن الكريم ، القاهرة ،
المدينة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .
- ٨ - عبد القادر رفقي الطوي : الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها ،
الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، ١٩٨١ .
- ٩ - عبد الغفار حريز : الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق ، القاهرة ،
مؤسسة الوفاء ، ١٩٨٢ .

- ١٠ - عبد الغفار مرزوق : الدعوة الإسلامية بين التنظيم الحكومي والتشريع الديني ، القاهرة ، مؤسسة الوفاء ، ١٩٨٣ .
- ١١ - علي أحمد علي : أسس العلوم السلوكية والنفسية ، القاهرة ، مكتبة عين شمس ، د . ت .
- ١٢ - علي محفوظ : هداية المهتمين إلى طرق الوعظ والإرشاد ، ط ٥ ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٢ .
- ١٣ - فتحي يكن : مشكلات الدعوة والهداية ، ط ٤ ، بيروت - مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ .
- ١٤ - مجاهد محمد هريدي : منهج القرآن والسنة في العلاقات الإنسانية ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ، ١٩٧٨ .
- ١٥ - محمد حسن الشرفاوي : نحو علم نفس إسلامي ، ط ٢ ، الإسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ .
- ١٦ - محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة ، ط ٧ ، القاهرة ، مكتبة شباب الأزهر ، ١٩٧٨ .
- ١٧ - محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٠ .
- ١٨ - محمد يوسف الكاظمي : حياة الصحابة ، مج ١ ، ج ١ ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .
- ١٩ - سيد قطب : في ظلال القرآن ، مج ٢ ، ج ٧ ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٣ .

رأبها : الكتب المترجمة :

- ١ - شرام وليبور : أجيال الإعلام والتنمية الوطنية ، ترجمة محمد فتحي ويحيى أبو بكر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

خامساً : كتب أجنبية :

- 1—Krech, David and Kruchfield Richard. Theory and Problems of Social Psychology. Bombay. MC Graw Hill Publishing Company. 1964
- 2 — Lane Robert and Sears, David : Public Opinion. New Delhi . Prentice Hall of India. 1964
- 3— Rivers, William : Mass Media . New Delhi, Universal Book- stall. 1963

مدخل إلى :

الصحافة المتخصصة

بقلم

دكتور مرعي مدكور

مقدمة :

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونثوب إليه ، ونصلي ونسلم
على خاتم أنبيائه ورسله ...

وبعد :

يتناول هذا البحث الصحافة المتخصصة باعتبارها واحدة من مظاهر
التقدم الكبير في صناعة الصحافة الطباعية ، خاصة منذ نهاية الحرب العالمية
الثانية ، حيث تعددت أشكالها ، والمؤسسات التي تصدرها ، وجمهورها ،
وطرق تمويلها ، وأهدافها . وأساليب كتابتها ...

فقد تحولت الصحافة المتخصصة من مجرد أركان أو أبواب أو صفحات
متخصصة تشر بشكل ثابت في الصحافة العامة إلى كم كبير ومتنوع من الصحافة
المتخصصة الموجهة إلى جماهير معينة (وإن كانت تحاول جاهدة جذب غير
المتخصصين من القراء إليها) كما تنوعت هذه الصحافة في محتواها ، واستعانت
بالمستحدثات التكنولوجية وبفنون الإخراج الصحفي لتصل إلى أعداد كبيرة
من جماهيرها المستهدفة . وغير المستهدفة أيضا . ولتقف في وجه المنافسة
الشرسة لوسائل الاتصال المتعددة من تلفزيون وراديو وصحافة هامة .
ويكر هذا البحث على التطور التاريخي للصحافة المتخصصة ؛ انتشارها
وتنوعها ، وجمهورها ، وتأثيرها ... على أمل أن تلبه دراسات أخرى في
فنون الكتابة الصحفية للصحافة المتخصصة ، وجمهور هذه الصحافة ، ولقائهم
بالاتصال في هذا المجال .

أولا : الصحافة الطباعية من العمومية إلى التخصص

تطورت الصحافة الطباعية وتعددت وتنوعت بدرجة كبيرة ، وأصبح من الصعوبة - حتى على المتخصصين - معرفة أعداد الصحف التي تصدر في العالم لكن الأرقام التقريبية التي تصدرها الجهات ذات الاختصاص ؛ مثل اليونسكو وغيرها ؛ تقول أن عدد الصحف التي تصدر في العالم يصل إلى ٦٠ ألف صحيفة ، وأن توزيعها ٥٠٠ مليون نسخة ، وأن حوالى ٨ آلاف صحيفة منها تصدر يوميا ، أما قراء الصحف فيزيد عددهم من أرقام توزيعها بكثير (١) ...

ومع تعدد الصحف وتنوعها ؛ تنوع جمهور الصحافة أيضا وتعددت واختلقت أهدافه وعاداته القرائية ، خاصة بعد أن أصبحت الصحافة الطباعية في وضع تسكيبي (٢) - وليس تنافسيا - أمام هجوم وسائل الاتصال الالكترونية التي تستخدم الصوت والصورة مستفيدة من سرعة نقل المعلومة أو الحدث لدرجة تصل في بعض الأحيان إلى التزامن مع الحدث نفسه لجعل المتلقي على صلة بكل ما يجري في أنحاء الدنيا .

فأمام التطور الكبير الذي جعل وسيلة ؛ كالتلفزيون مثلا تتفوق على الصحافة في تقديم ما جرى ونقله إلى المشاهدين في منازلهم لحظة وقوعه ، كان لابد للصحافة أن تغير من طرق أدائها وأن تتكيف مع معطيات التقنية الحديثة للخروج من مأزقها هذا والمحافظة على جمهورها الذي أصبح التلفزيون على سبيل المثال - يحتل المركز الأول في قائمة اتهامات الأغلبية منه .

1 — John C. Merrill ed , Global Journalism No. ٧, Longman ; 1983 P, 39

(٢) بير اليز ، الصحافة ، ترجمة فاطمة جيم الله محمود ، سلسلة الآف (كتاب الثاني) ، عدد ٤٤ (القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٨٧) ص ٦٠ .

وبالعمل ، استعادت الصحافة الطباعية من ثورة التقنية ، وطورت نفسها في مجالات الكتابة والطباعة والتوزيع ، واستغنت - في معظمها - عن الطباعة الساخنة وبدأت تتعامل مع الجمع التصويري وأجهزة الكمبيوتر المبرجة على صفحات الصحيفة أو المجلة والتي تلتق موادها من وكالات الأنباء والمراسلين والمندوبين مباشرة وتعرضها على شاشة صغيرة أمام المحرر المسئول في المركز الرئيسي لطباعتها ليحذف أو يضيف كما يشاء دون ورق أو جمع للحروف الرصاصية الساخنة .

وهذا التطور الكبير في صناعة الصحافة وضع الصحف نفسها في منافسة شديدة من جانبها على القارئ ، ووضع القارئ في موقف المفاضلة والاختيار وهذا بدوره أدى إلى أن تبحث الصحافة عن طرق لجذب القراء وربطهم بها خاصة بعد أن فقدت - الصحافة - مركز الصدارة في مجال الإخبار ، ووجدت المؤسسات الصحفية أن الحل يكمن في تغير داخل الصحف نفسها بحيث تتحول الصحافة من المنافسة على الخبر إلى المنافسة على التحليل والتفسير (١) والموضوعات التي تهيئ الاهتمامات الخاصة بطبقة معينة أو فئة مهنية أو مجال تخصصي بعينه .

وأصبح هذا الإشباع لفئة أو طبقة أو تخصص ، ارتباطاً متبادلاً بين دورية معينة وبين نوعية معينة - ولو قليلة نسبياً - من القراء ، تضيق فيه شدة المنافسة من جانب الصحافة العامة وفرض الاختيار من جانب القراء .

ومن هنا ازداد الاهتمام بالصحافة المتخصصة ، وأدى هذا الاهتمام إلى مزيد من الإصدارات المتخصصة وإلى التوسع في نشر مواد متخصصة بجمعة

(١) البرتلة ، هستر (محرر) ، دليل الصحفي في العالم الثالث ، ترجمة: كمال عبد الرؤوف ، (الطبعة الأولى: القاهرة والتوزيع ١٩٨٨) ص ٤١ .

الصحافة العامة تلبية للاهتمام بهذا اللون من الصحافة الطباعية (١) .

١ - مفهوم الصحافة المتخصصة :

مع تقدم النشاط البشرى فى المجالات النوعية المختلفة وشيوع التخصص فى تلك المجالات ، أصبحت الصحافة المتخصصة بمجالاتها المتعددة وصورها المختلفة بمثابة قنوات ربط التخصصات العلمية والمهنية وبين المتسبين إليها أو هواتها من القراء ، كما تستخدم الصحافة المتخصصة أيضا لتبسيط المعارف وإشاعتها على نطاق جماهيرى ، بالإضافة إلى اعتبارها أداة مينة للتعليم الدائم فى مجالاتها (٢) .

وهكذا وجدت الصحافة نفسها مطالبة بالقيام بمجهود دائم للتأقلم مع التغير المستمر فى أوضاع حياة قرائها ، وهذا المجهود الدائم جعلها تتنافس فيما بينها كصحافة طباعية تطالع جماهيرها بصفة دورية .

فالصحافة العامة والشاملة تتخذ من التخصص مدخلا لقرائنها حيث تقدم لهم معلومات . يتعذر الاهتداء إليها على شاشة التلفزيون - فى صفحات نوعية منها : صحافة الأطفال وصفحات الشباب أو الصحافة المدرسية أو الجماهيرية ، وصحافة المرأة أو الأسرة . والصحافة الاقتصادية ، والمهنية وغيرها من صفحات أو أركان أو ملاحق أو زوايا خاصة بالإذاعة (المسموعة والمرئية) والتلفزيون ، والأغنية ، والطب الشعبي ، والعلوم ، والسياحة . وصحافة أوقات الفراغ . ودخلت هذه الصفحات فى منافسة مع المجلات الدورية عن طريق المواد المتخصصة المجمعة على صفحاتها ، لدرجة أن بعض الصحف أصبحت تصدر المجلات . على الأقل فى الأعداد الأسبوعية أو الشهرية لهذه الصحف مضموناً وإخراجاً .

(١) على غلى ، التندليبناى (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) ص ٩٦ .

جلال الدين الجامسى ، الصحفية التالية (القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٢) ص ٢٠٩ .

(٢) بير لير ، مرجع سابق ص ٢٥ .

والصحافة المتخصصة فتوزعت هي الأخرى وتعددت وأصبحت تقدم في مستويات متعددة يمكن حصرها في ثلاثة أنواع ، على النحو التالي :

(أ) مستوى يخاطب القارئ العادي ، ويقدم عادة في صفحات تنشر مواد متخصصة مجمعة في أشكال متنوعة بالصحافة اليومية أو الأسبوعية العامة (جرائد ومجلات) وهذا النوع من الصحافة لا يخاطب جمهوراً بعينه ، وإنما يهدفه القارئ العادي عبر الصفحات المتخصصة إذا يشبع هوايته ويشكل ملامح ثقافته .

(ب) مستوى القارئ متوسط الثقافة وصاحب هواية معينة أو رغبة في الاستزادة والمعرفة في فرع معين من التخصصات العلمية أو الإبداعية أو المهنية أو الترويحية ، وهذا النوع من الصحافة يقدم في :

• الصحف اليومية المتخصصة ، مثل : « لاجازيت ديوبسبورت » ، (هـ) ، و « الرياضية » ، (هـ) .

• الصحف الأسبوعية المتخصصة ، مثل : « المسلمون » ، (هـ) و « النور » ، (هـ) . و « الندوة الرياضية » ، (هـ) :

(١) فاروق أبو زيد ، الصحافة المتخصصة ، ط ١ (القاهرة عالم الكتب ١٩٧٦ ص ٥ وإجلال خليفة اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي ط ١ (القاهرة ، دار الإنسان ٩٧٢ ص ١٣٦ .

(٢) لاجازيت ديوبسبورت : صحيفة رياضية صدرت في إيطاليا عام ١٨٩٦ وتعتبر الصحيفة الرياضية اليومية الأولى في أوروبا الآن .

(٣) الرياضية : صدرت في جدة بالعمودية في الأول من أكتوبر ١٩٨٦ وتعتبر أول صحيفة رياضية عربية يومية .

(٤) المسلمون صدرت في جدة في ١٩/٥/١٤٠٥ هـ - ١٦٨٥/٢/٩ إسلامية أسبوعية .

(٥) النور : إسلامية أسبوعية ، صدرت في الأول في ٢١/٥/١٤٠٢ هـ .

١٧/٣/١٩٨٢ مقرها القاهرة .

(٦) الندوة الرياضية : كانت ملحقاً للصحيفة (الندوة) ثم أصبحت أسبوعية

منذ ١/١/١٤٠٩ - ١٤/٨/١٩٨٨ كمجلة رياضية مستقلة .

• المجلات الأسبوعية أو الشهرية المتخصصة : وهي مجلات لها جمهورها الذى يتابع تخصصاً دماً ، فى الدورية التى يطالعها بانتظام ، وهذه الدوريات وإن كانت متخصصة إلا أنها لا تدخل فى إطار (تخصص) التخصص فى أقرب إلى تقديم المادة المتخصصة بشكل عام وثقافى أكثر من كونها مادة متخصصة بجمهور متخصص . . ومن هذه المجلات : « الثقافة العربية » ، « السعودية الشهرى » .

(ج) مستوى القارئ المتخصص ، وهذا النوع من الصحافة يقدم مادة متخصصة بجمهور متخصص ، فالمحتوى الذى يقدم يدخل فى إطار (تخصص) التخصص أى التخصص الدقيق من حيث المادة وطرق عرضها ، ويحصر جمهور هذا المستوى من الصحافة فى المتخصصين أو أعضاء الهيئات العلمية أو المهنية أو الإبداعية التى تصدر هذه الصحافة أو تشرف عليها أو تجد فيها صوتها المعبر عنها ، ومن الصعوبة جذب جمهور جديد إلى قراء هذا النوع من الصحافة ، حيث أن المتابعة هنا تحتاج قدراً من المعرفة المتخصصة . . وتشر هذه المطبوعات - غالباً - شهرية : مثل مجلة « شعر » المصرية ، أو فصلية : مجلات (فصول) المصرية المتخصصة فى النقد الأدبى ، و(البحوث) العراقية ، و (الدارة) السعودية وغيرها . .

والصحافة المتخصصة ، بمستوياتها الثلاثة ، تسعى إلى الانتشار وجلب مزيد من القراء ، وبالتالي زيادة تأثيرها . .

ورغم تعدد فئات الصحافة المتخصصة وتعدد أهدافها وانتشارها إلا أنه من الصعوبة وضع مفهوم محدد جامع متافع لها ، لكنه يمكن وضع إطار عام يحدد ملامحها الرئيسية على النحو التالى :

• صفحات دورية تهتم بتخصص شامل أو دقيق تنشر فى صحافة عامة بشكل ثابت ، أو دوريات متخصصة تكرر صفحاتها للتخصص الشامل أو الدقيق ،

ترتبط بجمهور التخصص وبمصره ونستخدم الفنون الصحفية المتعددة (كتابة واحدة) للوصول إلى قرائها وخدمة التخصص وتوسيع قاعدته .

٢ - نشأة الصحافة المتخصصة :

عرف الإنسان . هو تاريخه الطويل ، طرقاً متعددة للإعلام المتخصص قبل ظهور الصحافة الطباعية زمن طويل . . ورغم ما يذكره بعض المؤرخين من وجود صحافة متخصصة قبل الميلاد في صورة نقوش على الأحجار سجل فيها دلتاح ، أخبار انتصارات الفرعون المصري الأكبر لتوزيعها على الجنود وظليمة الحكام^(١) أو في صورة (الطوليات الكبرى) التي أصدرها الرومان في مصر عندما احتلوا^(٢) أو في الوسائل البدائية مثل : قرع الطبول وإشعال النار ، والمناداة وغيرها ، إلا أن هذه العمليات الإعلامية لا تقدر ؟ تحت مسمى الصحافة بمفهومها العلى الحديث . .

• بداية نشأة الصحافة المتخصصة في العالم :

ورغم مضي زمن طويل منذ اختراع جوتنبرج ، في القرن الخامس عشر الميلادي ، آلة الطباعة ، إلا أن هذا الفن - الطباعة - قد تطور في مراحله الأولى ببطء فقد بدأت الصحافة بمعناها العلى (كصناعة وسلعة وجمهور) في القرن السابع عشر عندما ظهرت بأندونيسيا عام ١٦١٦ م صحيفة تحمل اسم *Memorie des Nouvelles* كرسالة إخبارية موجهة إلى موظفي شركة الهند الشرقية الهولندية^(٣) ثم توالى صدور صحف صغيرة في دول متعددة ، وكانت تلك الصحف في أغلبها موجهة لأعيان إلى جمهور مصر وعاجين ومعد .

(١) محمد الجوهري ، المورد للسكرى (القاهرة ، دار المشرق ١٩٥٨) ص ١٣

(٢) محمد نجيب أبو الليل ، صحافة فرنسا في مصر (القاهرة ، مؤسسة سجل

العرب ١٩٦٢) ص ١٥ - ٢٢ .

(3) John C. Merrill, op. cit, p. 185.

ومع التطور في المجالات المختلفة ، وبخاصة في المجال العلمى ، ظهرت الحاجة إلى ربط أعضاء هذه المجالات والمستفيدين منها بعضهم ببعض الآخر ، وربطها بمجالات تخصصاتهم واهتماماتهم وأنشطتهم ، ومن هنا بدأت مجلات متعددة في الظهور ، وكانت الأسبوعية في هذا المجال المجلات المتخصصة في العلوم ، ويرجع ذلك لعدة أسباب منها (١) :

- ارتفاع معدلات النشاط العلمى ، وعدم نحو المعرفة العلمية أو شيوعها .
ملاحظة هذا النشاط النمر فى العلمى ، ومن أصبحت المجلات العلمية ضرورة .
وارضا خوصية لتبادل أوجه هذا النشاط بين المتخصصين .

- تأكيد الأسبوعية في مجال الاختراعات والاكتشافات العلمية ، فقد ساعد ظهور المجلات ، وتسجيل الاختراعات على صفعاتها ، في التخفيف من حدة الميل الطبيعى إلى التكتيم قبل الحصول على براءات الاختراع أو حتى الاستغلال التجارى .

- أصبح للمجلات العلمية الفضل في إتباع العلماء وسيلة أخرى غير طريقة الشفرة Anagram العلمية التى تتكون من جملة تعين عن اكتشاف جديد أو اتباعهم - العلماء - طريقة لإيداع خطابات متعلقة مؤرخة لدى الجمعيات العلمية تتضمن فكرة جديدة أو أحد الاختراعات التى لم تر النور بعد ، فتعدت هذه المجلات وتنوع بتنوع الأنشطة العلمية .

- مظاهر الاختلاف بين نوعيات الإنتاج الفكرى ، فبينما يتركز الاهتمام بالفنون والإنسانيات على المكتب ، نجد أن العلوم تعتمد أساساً في نشرها على المقالات المنشورة في دوريات متخصصة وعلمية .

(١) جالك ميدوز ، آباء الاتصال ومناذره ، ترجمة حشمت قاسم (القاهرة المركز)

وفي فرنسا بدأت أولى المجلات العلمية المتخصصة في الصدور عام ١٦٦٥م حيث صدرت مجلة *Journal des Sçavans* كأول دورية تهتم بنشر الاكتشافات العلمية وعرض الكتب ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر أسس هنري أولدنبرج *oldenbrq* أمين الجمعية الملكية في إنجلترا أول مجلة علمية بريطانية *Philosophical Transactions* كشروع لنشر الاكتشافات العلمية الحديثة ، ثم تعدت الدوريات العلمية المتخصصة مع التطور والتقدم في فروع العلم المختلفة ، فلو نظرنا إلى مجال فرعي من مجالات العلوم ؛ وليكن علم الغذاء الصماء على سبيل المثال ، لوجدنا أن البحوث المنشورة في هذا المجال في مائة وثمانين عاما قبل عام ١٩٥٦ تعادل من حيث العدد البحوث المنشورة في ستة أعوام فقط بعد عام ١٩٥٦ .

والتعدد والتنوع في الدوريات العلمية المتخصصة لا يعني بحال من الأحوال أن هذه الدوريات اقتصرَت بصفة أساسية على المتخصصين في مجالاتها ، بل أدى تنوعها وتعددتها واستفادتها من الجانب التقني إلى تغلب الحس التجاري على كثير منها ، حتى ارتفعت أصوات متعددة تناد بوضع حد لهذا الفيضان المستمر من الدوريات المتخصصة (١) .

ومع التنوع والتعدد في الدوريات المتخصصة ورواجها على مستوى واسع ، نوعت الصحف (البومية والاشوعية) أيضا في محتوياتها لتتنوع تلبية لاهتمامات القراء قدر إمكاناتها ، في مجالات مستمرة منها المحافظة على قرائها والوقوف في وجه المنافسة الشرسة للوسائل الانصالية الأخرى بمؤثراتها الصوتية والبصرية والتي تقدم الحدث فور وقوعه .

- وفي أحيان كثيرة تقدمية بالتزامن مع وقوعه - بالصوت والصورة ووجدت الصحافة الطباعية أن الحل الأساسي للخروج من أسر المنافسة

(١) المرجع السابق ص ٣٤ .

والحفاظة على التفوق في جوانب أخرى غير الإخبار هو الاتجاه إلى التحليل والتفسير والتعمق والتعليق على مجريات الأمور ، وهذا معناه تقديم مبررات وأسباب ونتائج ما جرى (إضافة إلى ما تقدمه كاميرا التلفزيون أو ميكرفون الراديو) في لغة سهلة وبسطة يفهمها القارئ العادى . . . ومن هنا تحولت صفحات الصحيفة أو الدورية الواحدة إلى مجموعة صفحات متخصصة (باستثناء الصفحة الأولى في الصحيفة العامة ، والذلاف في المجلة العامة) لها أقسامها المتخصصة (١) التى يقوم عليها متخصصون يجمعون بين مهبة التخصص ومهبة الصحافة ، بالإضافة إلى المتعاونين مع هذه الصفحات المتخصصة من الكتاب المصاحفين والاتفاقات والوكالات المتخصصة ، لتزويد بما يهم جمهورها مرضا وتحليلا وتفسيرا .

• بداية التخصص في الصحافة العربية:

بدأت الصحافة في أغلب الدول العربية عند ظهورها بدايات شبه

(1) Cereh Moghdem. Computers in Newspaper Publishing
N. Y. Marcel Dekker, I. N. C. : 1978 P- q.

لعدم وجود أعداد الصحيفة اختلف المؤرخون حول تاريخ صدورها . . فيذكر محمود فياض أن العدد الأول منها صدر في ٢٨ من أغسطس ١٧٩٨ م ، بينما يذكر أحمد حسين الصاوى أنها صدرت في ٢٩ من شهر نفسه ، أما صلاح الدين البستانى فيذكر أن تاريخ صدورها هو ١٥ من أغسطس من شهر نفسه . . انظر :

— محمود فياض ، الصحافة الأدبية في مصر (القاهرة ، الجهاز المركزى للكتاب الجامعية والدرسية ١٩٦٦) ص ٢ .

— أحمد حسين الصاوى ، فجر الصحافة في مصر (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢) ص ٤٧ .

— صلاح الدين البستانى ، (الصحافة الفرنسية في مصر) صحيفة (الأخبار) المرسـ

متخصصة بالمفهوم العلمى للصحافة المتخصصة (مادة متخصصة ، يقوم عليها متخصصون ، جمهور - أغلبه - متخصص) وقد كانت البداية في هذا المجال للصحافة الأجنبية في البلاد العربية ، إذ بدأت هذه الصحافة متخصصة بالجمهور محدود ومزوف . . . فأول صحيفته صدرت في البلاد العربية كانت *Le Courrier de L, Egypte* التي أصدرها القائد الفرنسي بوناپرت في مصر - أثر حملته عليها واحتلالها عام ١٧٩٨ - لنشر أخبار الجيش ونقلاته وحروبه ، كما أصدرت الحملة الفرنسية في مصر أيضا صحيفة أخرى باسم *La Décade Egyptienne* لتسكون « صفحة للأدب والاقتصاد السياسي » *Journal Littéraire et D'Economie Politique* وكانت تصدر مثل الصفحة الأولى باللغة الفرنسية ، بالإضافة إلى بعض صفحات تطبع باللغة العربية وتُنشر أمثال لقمان الحكيم وتفسير بعض آيات القرآن الكريم وقصائد ركيكة دأب على كتابتها نيف ولا الترك . تمجيدا للقوات الفرنسية وتخذيل لاهلها التقليدي : إنجلترا . . . ١٠٠

وبعد رحيل الحملة الفرنسية بأكثر من ربع قرن ، صدرت « الوقائع المصرية » كصحيفة حكومية سنة ١٨٢٨ لنشر الأوامر والأحكام وأخبار الأقاليم ، وفي عام ١٨٣٣ صدرت « الجريدة العسكرية » أثناء حروب محمد علي في الشام وتلتها عدة صحف عسكرية أخرى . .

والصحف السابقة كلها كانت تخاطب جمهورا معيناً ، ولها رسالة محددة تمثل في إعلام فئة بعينها بمجريات الأمور ، سواء كانت هذه الفئة : طليقة الحسك والجيش كما كانت هذه الصحيفةتين الفرنسية أو الصحف العسكرية الأخرى أو غير العسكرية . .

وبجانب هذا النوع من الصحافة ، كانت هناك الصحافة العامة التي اصبحت بلون أدنى منذ ظهورها ، ومن يتأمل الصحافة المصرية أو الشامية منذ منتصف القرن التاسع عشر يجد تلازما بين الصحافة وبين الأدب على صفحاتها ،

لدرجة أن الصحافة كانت مرآة حقيقية لهذا الأدب والحياة الفكرية بصفة عامة ، فقد ظهرت صحف متعددة في ثوب أدبي ، حتى الصحافة غير المتخصصة في الأدب مثل مجلة « يعسوب الطيب » التي صدرت عام ١٨٦٥ م ظهر اهتمامها الواضح بالأدب : شعره ونثره . وذاع صيت دوريات كثيرة مثل روضة المدارس ، منذ صدورها في ١٨ من أبريل ١٨٧٠ ، وأصبح التعامل بالاهتمام بالأدب - في حالة عدم الاهتمام به كأساس لإصدار دورية - جواز مرور للحصول على موافقة المسؤولين فعندما أراد سليم تقيلا (الصحافي الشامي) إصدار صحيفة في مصر باسم (الأهرام) كتب في طلب الإذن أنه « يقصرها على البرقيات التجارية والعلمية ، وينشر فيها انتقاً من الكتب الأدبية والعربية وبعض قصائد الشعر » ولن نتناول « المسائل البوليتيقية » على ترخيص الصحيفة ليصدر أول عدد منها في مدينة الإسكندرية - السبت ١٨٧٨/٨/٥ - باسم (مقال الأهرام) ثم تنتقل بعد ذلك لتصدر من القاهرة .

• وهربا من التضييق الذي أصاب الصحافة والصحفيين الشاميين نتيجة بعض مواد قانون العقوبات الذي صدر في الديار العثمانية عام ١٨٥٨ (١) شهدت مصر هجرة عدد كبير من الصحفيين الشاميين إليها ، وقد كان هؤلاء المهاجرين تأثيرهم الكبير في الصحافة وتوجهاتها ، سواء على مستوى الصحف والمجلات التي أصدروها أو الصحافة الأخرى التي استنفدت الكثير من طاقاتها في معارك وردود ونزالات مع هؤلاء الصحفيين ومفهم • •

فبعدما انتقلت مجلة (المقتطف) (*) من بيروت إلى مصر عام ١٨٨٥

(١) إحصان عسكر ، نغاة الصحافة السورية (للقاهرة ، دار النهضة العربية :

١٩٧٢) ص ٥٢ •

(٥) صدرت في بيروت في الأول من مايو ١٨٧٦ لصاحبها الموريني : يعقوب

صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) وفارس عمر (١٨٥٦ - ١٩٥١) وانتقلت إلى القاهرة •

(٤٥ - مجلة القنة)

أحداث جدلا واسدا ومعارك صحفية متعددة استمرت حتى توقفت عن الصدور عام ١٩٥٢ ، رغم إعلانها أنها « صحيفة علمية لا تتعرض للباحث الدينية والسياسية إلا من باب العلم ، فقد كانت تجد في حياة الأوروبيين مثالا يجب أن يحتذى به راغبو النهضة ، وتناقضت بشكل أسامى مع توجهات المفكرين الإسلاميين أمثال : الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا ، وقد تصدرت لها بشدة صحافة الاتجاه الإسلامى ، ومنها (المؤيد للشيخ على يوسف منذ صدورها فى الأول من ديسمبر ١٨٨٩ ، و (الإسلام) ١٨٩٤ - لأحمد الشاذلى الأزهرى ، و (المنار) ١٨٩٨ - لمحمد رشيد رضا ، و (الحياة) ١٨٩٩ - لمحمد فريد وجدى ، و (الهداية) ١٩١٠ - لعبد العزيز جاویش .

• • • وإذا كانت الصحافة المتخصصة قد تصدرت فى مصر فى تلك الفترة - وبخاصة صحافة الاتجاه الإسلامى وصحافة الأدب - فإن الصحافة العامة قد تقلبت بشكل كبير بعد الاحتلال الإنجليزي للبلاد عام ١٨٨٢ م نتيجة القيود والتصف مع الصحافة والصحفيين عند مخالفتهم السياسة العامة أو مناقشة أمور الاستقلال • • •

فى العقد الأول للاحتلال الإنجليزي لمصر صدرت ٥٣ صحيفة ومجلة ، منها ٤ صحفية علمية وأدبية وفكاهية ، بينما لم يصدر من الصحف العامة سوى ثلاث عشرة صحيفة فقط ، أما ما صدر فى العشر سنوات السابقة على الاحتلال فقد وصل إلى ٣٠ صحيفة عامة أو سياسية وثلاث صحف أدبية وعلمية (١) ، وقد كانت الظروف السياسية المتعدية فى أغلب الدول الغربية فى صالح الصحافة النوعية ، حيث وجد الصحفيون فى البعد عن السياسة المباشرة مخرجاً

== عام ١٨٨٥ • • كانت فى شكل مجلة ويكتب على غلافها (جريدة) لعدم انضاج الفاهيم وتعديدها فى ذلك الوقت بالنسبة للطبوعات بشكل عام • •

(١) سامى عزيز ، الصحافة المصرية : وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ، سلسلة المكتبة العربية (القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨) ص ١١٤ •

الأنباء من دائرة القوانين العامة وقوانين الصحافة المقيدة لهم ، وبينما كانت الصحافة العامة تنقلص وتتوقف عن الصدور أو تصدر أعدادها ، كانت الصحافة النوعية تتخذ من لافتاتها غير السياسية ستارا لعمائها . .

في مصر تنوعت المطبوعات وتعددت على النحو التالي :

- نسائية ، بصدر مجلة (الفتاة) الشهرية في ٢٠ من نوفمبر ١٨٩٢ اللبنانية
هند نوفل لتكون مقتتعا لإصدارات متعددة في هذا المجال . .

- مدرسية ، بصدر مجلة (المدرسة) في الثامن عشر من فبراير ١٨٩٣
الحصاني كامل . .

أدبية ، بظهور مجلة (المنظوم) في منتصف نوفمبر ١٨٩٢ . .

ثم توالى المطبوعات في مثل هذه المجالات وفي غيرها . .

وفي المغرب العربي تنوعت الصحف من حيث اتجاهاتها (فرنسية أو عربية في منطقة النفوذ الفرنسي ، وإسبانية في منطقة النفوذ الإسباني بمنطقتي : حسنة ونظران ، وإيجلير في طنجة) وقد بدأت الصحافة في البلاد بالصحافة في البلاد بالصحافة الأجنبية عندما ظهرت صحيفة (المنهر الأفريقي) الإسبانية إلا أن مجلة (سنان القلم لثنييه وديع كرم الأدبية التي أصدرها السيد محمد العابد ابن أحمد بن سودة باللغة العربية وكتبها بالخط الفارسي في ٢٠ من ذي الحجة ١٢٢٥ هـ (١٩٠٨/١/٢٦ م) تعتبر البداية الحقيقية للصحافة المتخصصة هناك . .
ففي (مجلة أدبية يستأنس بمطالعها الأدب ويطلع بها على كل نمط غريب ، ويكشف بها عن حال صدر منه الذل الصراح ، ويقمع بها من أراد الذل عنهم كصاحب « السعادة ، وقلبيذه « الدحاح » (١) واتخذت هذه المجلة

(١) زين العابدين الكتاني ، الصحافة المغربية وتطورها ، الجزء الأول (المغرب وزارة الأنباء : دكت ص ١٩٢ ، « ديع كرم » الذي قالت المجلة أنها غصصة لتبنيها هو صاحب جريدة (السعادة) التي أصدرتها السفارة الفرنسية في طنجة عام ١٢٨٢ هـ (١٩٠٥ م) لترويج الاتجاه الفرنسي في البلاد ، أما قلبيذه « الدحاح » فهو « نعمة الله الدحاح » اللبناني الأصل وصاحب صحيفة (الفجر) .

من بلاغة اللغة العربية وفن الشعر واستهواء المقامة وسائل المقاومة الصحافة
المولية للاحتلال الأجنبي بأنواعه في البلاد .

أما في شبه الجزيرة العربية فقد صدرت بعض الصحف مثل (ضئعاء) في
البحرين ، و (حجاز : ولايتي سالنامه مي) (هـ) و (شمس الحقيقة) و (القبلية)
و (الفلاح) ، أما أول مجلة في الحجاز فكانت (مجلة مدرسية جرجول الزراعية)
لمديرها المستول هاشم المري وصدرت في مطلع شهر رجب ١٣٣٨
(١٩٢٠/٣/٢١ م) كمجلة فنية زراعية تجارية صناعية تصدر أول أسبوع
من كل شهر (١) .

وهكذا ، تنوعت الصحافة وتعددت نتيجة ظروف كثيرة ، وكان هذا
التنوع والتعدد مجرد إرماصات اصحافة نوعية تقدم مضامين خاصة بالجمهور
خاص بهذه الصحافة أثرها الكبير في إشاعة التخصص على مستوى القارىء .
العام كثافة عامة .

(٥) لم تكن صحيفة بالمنى الحقيقية للعاية ، فهي كتاب دوري رسمي يحوى معلومات
وإحصاءات عن البلاد ، ويحرر باللغة التركية ، ثم كانت جريدة (حجاز) أول صحيفة
بالمنى الحقيقية للصناعة . . . وصدرت في ١٠/٨ - ٩/٣ - ١١/١٩٠٨ م ونحور
بالتنين العربية والتركية .

(٦) محمد حيد الرحمن الشامخ ، نشأة الصناعة في المملكة العربية السعودية ط ١
(الرياض دار العلوم لطباعة والنشر : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١) ص ١٢٨ . . . وذكر
المري فرض المجلة قائلاً : « وما أننا دخلنا في دور الزراعة الحديث وعزمنا بسند
الانكسار على الله أن نفي هذه الحرفة عنها عاملين بالآيات السريعة والأحداث الشريفة
التي لا عد الاهتمام بالزراعة والفلحة ، قد شرعنا في إصدار مجلتنا هذه باسم (مجلة
جرجول الزراعية) .

ثانيا : انتشار الصحافة المتخصصة وتنوعها

لما كان من الصعب على أية صحيفة - مهما بلغت إمكانياتها البشرية والتقنية - أن تقدم صورة متكاملة لهذا العالم (١) ، ونظرا لتنوع القراء واختلاف درجات ثقافتهم واهتماماتهم ، فن البديهي أن يبحث القارئ - قبل إقدامه على شراء صحيفة - عن إجابة على السؤال التالي :

- ماذا يجده الصحيفة بالنسبة لي ؟ (٢) :

ويقتنع القراء وأستلهم تنوع الإجابات ، وبالتالي تنوع الاختيارات ونتيجة لهذا التنوع في المراء واختياراتهم واهتمامهم ومطالبهم من الصحافة المطبوعة ، فإن الصحافة تظل دائما تبحث عن الجديد وما يمثل أهمية لأكثر نسبة من القراء حتى تمثل المطبوعة جزءا من اهتمام القارئ . والارتباط بها . . . (٣) .

١ - انتشار الصحافة المتخصصة ولزدها :

١/١ - انتشارها في العالم :

نقول أرقام التوزيع أن الصحافة العامة بدأت تنفجر أمام الصحافة النوعية التي تلبي رغبات واهتمامات فئات وجماعات متنوعة ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية تصدر ١٧٥٦ صحيفة يومية ، يصل مجموع توزيعها إلى ٢٣٢٠٦٥٥٠ نسخة يوميا و ٨٧٢٤ صحيفة أسبوعية أو نصف أسبوعية ، - على الأقل - آلاف مجلة عامة أو متخصصة ، وأن الغالبية العظمى من

(1) On Caumon, Reporting : an inside view (U. S. A., California Journal Press : 1977) p. 33

(2) Loyed K. Basketto and others, The art of editing, 3 eds. (N. Y., Macmillan Papiishg Co. : 1982) p. 15

(3) Donald A. Johnson, Journalism [and the media (N. Y., Barnes and Noble books : 1979) p. q.

هذه المطبوعات تتوجه إلى جمهور نوعي^(١) لدرجة أنه لا توجد مطبوعة تشابه مع مطبوعة أخرى في محتوى ما تقدمه ، فكل صحيفة أو مجلة لها اهتماماتها ومجالاتها وبالتالي لها جمهورها المتابع لها ؛ خاصة في المطبوعات الدورية غير اليومية^(٢) والتي تتوجه إلى قراء نوعيين لهم اهتمامات أبداعية أو نوعية أو مهنية خاصة . .

ففي دراسة : أجريت على توزيع الدوريات في كل من الولايات المتحدة وكندا في ٢٤ نوفمبر ١٩٧٦ انضح تفوق المجلات النوعية على المجلات العامة في التوزيع^(٣) حتى مجلة Time - الإخبارية العامة وذات الشهرة العالمية - تفوقت إلى الترتيب الرابع عشر بالنسبة للمجلات الأكثر انتشارا : ١١ .
وفي الاتحاد السوفيتي يصل عدد الصحف إلى ما يقرب من ٨٠٠٠ صحيفة ، منها ٢٨ صحيفة مركزية ، و ١٦٠٠ صحيفة على مستوى الجمهوريات ، و ٢٩٣

Ibid., P. 90

(١)

Tohn C. Merrill (eds), op. cit., p. p. 309 312

(٢)

T. W. C. Lick, Russel N. Baird, Magazine editing and

(٣)

production, 2 ed. (U. S., Brown Company Publishers : 1974) P. 8.

وقد جاء ترتيب المجلات من حيث زيادة التوزيع على النحو التالي :

TV Gide

وتوزيعها ١٩٨١١٢٦٨ نسخة

Reader's Digest

١٨٥١٢٢٤٥٣

National GeoGraphic

٩٦٠١٢٧٢٧

Family Circle

٨٢٢٨١٩٣٠

Women's Day

٨٢٢٤٠٣٣٠٦

Better Homes and Gardens

٨٢٠٣١٢٩٦١

وهكذا ؛ حتى تأتي مجلة (تايم) في الترتيب الرابع عشر بتوزيع ١٦ و ٤٢١٤٠

نسخة ، تليها مجلة Newsweek (نيوزويك) العامة والإخبارية بتوزيع ٣٢ و ٩٩١٨٠٣٢

نسخة ٠٠ ٢١ ٠٠

صحيفة للأضواحي ، والصحف الأخرى مطبوعات نوعية المناطق والمصانع والمنشآت التعليمية (٢) .

أما في إيطاليا فتتفوق الصحف النوعية على الصحافة العامة ، فصحيفة د لاجازيت ديلوسبورت ، الرياضية اليومية توزع مليون نسخة يوميا ، ومليون ونصف المليون نسخة في عدد يوم الاثنين من كل أسبوع لتغطيتها فعاليات الدوري في أوروبا ، وهي بذلك تتفوق على الصحف العامة في إيطاليا وأشهرها Corriere della Sera (٧٥٠ ألف نسخة) و La Stampa (٤٠٣ ألف نسخة) .

٢/١ - انتشار الصحافة المتخصصة في العالم العربي :

إذا كانت الصحافة العربية قد بدأت عند ظهور شبه متخصصة ، خاصة في مجالات الأدب العربي : نثرا وشعرا ، للدرجة أن المتأمل لما يرى أنها - جاء في بدايتها - يمكن اعتبارها مجرد وسيلة لنشر أدب العربي (٣) فإن هذه الصحافة قد تعددت وتنوعت ، وأصبحت الدوريات النوعية والمختصة منها تتفوق صناعة وتوزيعا - في حالات كثيرة - على الصحافة الشاملة .

ففي دول الخليج العربية (الإمارات العربية المتحدة ، البحرين ، المملكة العربية السعودية ، العراق ، سلطنة عمان ، قطر ، الكويت) يصل مجموع الدوريات التي تصدر بها - رغم أن بعض هذه الدول حديثة عهد بالصحافة - ٧٧١ دورية ، ما بين صحيفة أو مجلة أو نشرة ، يومية أو أسبوعية أو نصف شهرية أو كل شهرية أو ربع سنوية أو نصف سنوية أو حولية .

(١) سولي أبو سمدة ، الصحافة في الاتحاد السوفيتي (القاهرة ، دار المواث العربي ١٩٨٨) ص ٢٠ .

(2) William A. Rugb, The Arab Press N. Y. Syracuse University Press. : 1979 P. 8.

ورغم هذا الكم الكبير من الإصدارات الدورية في هذه المنطقة ، إلا أن الدوريات العامة منها والتي تخاطب القراء على اختلاف أعمارهم واتجاهاتهم لا تتعدى ٨٠ دورية باللغة العربية و ٢٤ دورية بلغات غير العربية ، أما الدوريات الأخرى - وهي الغالبية العظمى (٦٦٧) فهي دوريات نوعية متخصصة تتوجه إلى جمهور محدود ومعروف نسبيا (١) .

وفي مصر تزايد - أيضا - عدد الدوريات النوعية والمتخصصة وتفوق على عدد الدوريات العامة ، وتقول إحصاءات الدوريات التي تصدر من مرة إلى ثلاث مرات أسبوعيا - ولكنها منتظمة الصدور - أن مصر بها ٢٨ دورية من هذا النوع ، في حين أن عدد الدوريات المتخصصة بها وصل

(١) دليل الدوريات الخليجية الجارية ، ط ١ (الرياض ، مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربية / مكتب العربية العربي لدول الخليج / الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية : ١٠٤٨ / ٥ ١٩٨٨) ص ٢٥١ وما بعدها . وترتيب نوعيات هذه الدوريات من حيث العدد على النحو التالي :

| | | | |
|------------------------------|----|----------------------|---------------|
| • دوريات دينية (إسلامية) : | ٤١ | دورية باللغة العربية | • بلغة ١ ج |
| • الاقتصادية : | ٣٧ | • • • • • | • ١ • • • • • |
| • خاصة بالتعليم : | ٣٣ | • • • • • | • ١ • • • • • |
| • أدبية : | ٣١ | • • • • • | • - • • • • • |
| • خاصة بالتعليم الجامعي : | ٣٠ | • • • • • | • ١ • • • • • |
| • طبية : | ٢٠ | • • • • • | • ٦ • • • • • |
| • علوم : | ٢٠ | • • • • • | • ٢ • • • • • |
| • علوم عسكرية : | ١٦ | • • • • • | • - • • • • • |

ويستمر تناقص أعداد الدوريات في التخصصات ذات اقترابها غير المرتفعة الشائعة تدريجيا .

١٩٢٢ دورية^(١) هذا بالإضافة إلى الدوريات المتخصصة غير الرسمية التي وضعت على لافتاتها أنها (كتاب غير دورى) للافلات من شرط الحصول على ترخيص بالصدور ، وقد انتشرت هذه الدوريات وبصفة خاصة في مجال الأدب ووجدت لها صدق طليبا خاصة بين شباب الأدباء ..

وفي الجرائد دوريات عامة و ١٠٩ دورية متخصصة تتفوق في توزيعها على الدوريات العامة ..

أما في المغرب فتوجد ٥٢ دورية عامة و ٢٨ دورية خاصة^(٢) ..

وتتفوق الدوريات المتخصصة على الدوريات العامة من حيث التأثير إذا عرفنا أن أغلب الدوريات العامة تنشر مواد متخصصة مجمعة على صفحاتها تتنوع ما بين الملحق الدورى أو الراوية الثاقية والدورية أيضا، تعتبر محاور جذب لجمهور متفرع يجد في الصحافة الدورية - من طريق هذه المواد المتخصصة - ما يشبه هوايته أو يربط بتخصصه ويطلع على الجديد والهام بشأنه ..

(١) عبد العزيز عارف ، الاعلام ولنة الحضارة ، سلسلة « كتابك » ، العدد ١٨ (القاهرة ، دار المعارف : ١٩٧٧ ص ٤٨ .. وتنوع هذه الدوريات بين تخصصات مختلفة : السيرة وعلم نفس (٤٩ دورية) وفنون عسكرية (٤٧) وزراعة (٤١) والاب .. : (١٤) و ادب (١٣) واطفال (٥) ودوريات تناول أكثر من فرع ولكن بشكر .. شخص ومتمق (٢٢) .

(٢) مرعى مذكور ، « دراسة الفن التحريري الصحفي في المنشآت الأدبية » ، ماجستير : غير منشورة (القاهرة ، كلية الاعلام بجامعة القاهرة : ١٩٨٠) ص ٤٣ وما بعدها .

٢ - فئات الصحافة المتخصصة :

(١) من حيث الشكل :

(١) - مواد متخصصة مجمعة تنشر في الصحافة العامة (يومية أو غير يومية) في عدة أشكال بصفة دورية ثابتة ، على النحو التالي :

• الملحق الثابت : وقد تكون دورية هذا الملحق بصفة يومية (دنيا الرياضة في صحيفة الرياضة) السعودية ، و (الجزيرة الرياضية) ، في صحيفة (الجزيرة) السعودية ، أو ينشر بصفة أسبوعية (د ملحق الأربعماء ، الثقافي في (المدينة) السعودية) وينشر الملحق داخل العدد في صفحات عدة تحت اسم « ملحق ... » أو يكون منفصلا عن الصحيفة ، وتكون صفحات الملحق في المقاس العادي للصحيفة (٤١ - ٤٣ سم × ٥٢ - ٥٦ سم) - أو أقل من ذلك في حالة صدور الصحيفة في مقاس يختلف عن المقاس العادي للصحف العادية Standard Size - وقد يصدر الملحق في مقاس يختلف عن الصحيفة كأن يصدر في مقاس الصحف النصفية Tabloid مثل ملحق « الأربعماء » ، عن صحيفة (المدينة) أو في ربع المقاس العادي للصحيفة مثل ملحق صحيفة (الندوة) - الندوة الرياضية - قبل أن يتحول إلى صحيفة أسبوعية متخصصة بالاسم نفسه . .

• القسم الثابت : وهو عبارة عن مواد متخصصة تنشر دوريا بشكل ثابت ، ويكون القسم الثابت في صورته من عدة صور تبعاً لاهتمامات الصحيفة ومستواها وجورها ونوع التخصص ، كما يلي :

- الصحيفة المتخصصة . .

- الركن الثابت أو الباب المتخصص الثابت . .

والمساحات الصحفية السابقة (الملحق / الصفحة / الركن) الدواد المتخصصة ليست جديدة على الصحافة المعاصرة بل مرقتها الصحافة منذ بدايتها في صورة

أو أخرى، حتى أنه يمكن القول أن تخصيص مساحات للمواد المتخصصة لتشعر بقمة في الصحافة يعتبر البداية الحقيقية للصحافة المتخصصة والعمل على نشرها على مستوى جماهيري فعلى سبيل المثال، قبل أن تصدر أو مجلة لسانية عربية متخصصة - مجلة (الفتاة) عام ١٨٩٢ م طُفد نوبل - كانت مجلة (المقتطف) قد بدأت قبل ذلك بعشر سنوات تنشر ركنا متخصصا للمرأة وأطلقت عليه اسم (باب تدبير المنزل)^(١).

وقد تنوعت المواد المتخصصة المجمعة المنشورة في الصحافة العامة بشكل دوري، وأصبحت تشكل ملامح بعض الصحف، ووصل التنافس في تقديم المواد المتخصصة درجة جعلت بعض الصحف تهـدم ملاحق أو صفحات متخصصة...

(١) ٢ - مواد متخصصة بقمة تنشر في الصحافة العامة (يومية / غير يومية) بشكل غير ثابت، وإنما نتيجة ظروف أو مناسبات جعلت أعضايا متخصصة تهر بشكل طارئ، وتنشر معالجاتها بعيدا عن الصفحات المتخصصة ليحتل الصفحة الأولى أو مجموعة صفحات متتالية، وتكون معالجة هذه القضايا متناسبة طرديا مع حجم القضية وأهميتها، ومن هذه القضايا ما هو طارئ، مثل فوز الزواني المصري بجيب عفوط بجائزة نوبل حيث احتل هذا الخبر الأدبي ما نشيت صحيفتي (الأهرام) المصرية (والشرق الأوسط)

(١) إجلال خليفة، مرجع سابق، ١٩٦٧...
• ظلت صحيفة (الجمهورية) المصرية تمتد في توزيعها فترة طويلة على الرياضة، وتمدت الملاحق الرياضية المتخصصة في الصحافة العامة، ووصل الأمر بها إلى إصدارها يوميا (بدأت صحيفة « الرياض » السعودية تقدم ملاحقا رياضيا يوميا مولانا ابتداء من ١٤٠٩/٢/٩ هـ ونشيتها صحيفة « الجزيرة » السعودية) ولا تخلف صحيفة عامة - محلية أو دولية - من صفحات أو أكثر للرياضة، وللمال والاقتصاد، والسياسة وغيرها...

المعروفة^(١) . . . وقد تكون القضايا معروفة مسبقا وخطط لتغطيتها وانتقلت من الصفحة المتخصصة إلى الصفحات الأولى لتتناسب التغطية الصحفية لها مع أهميتها ، مثل جوائز الملك فيصل العالمية في الفروع المختلفة والتي توزع على الفائزين بها كل عام . . .

وبالإضافة إلى هذه المراد المتخصصة المجمعة هناك المتابعات الإخبارية المتخصصة التي تجد طريقها - في أحيان كثيرة - الصفحة الأولى أو الداخلية غير المتخصصة . . .

(١) ٣ - مواد متخصصة تنشرها صحافة متخصصة (صحف ومجلات) ، وهذا المواد - على تعدد أشكالها الصحفية - في تخصص واحد شامل ، وغير دقيق في الأغلب ، بحيث يتناسب مستوى مضمون المادة المنشورة مع الجمهور الأساس الموجهة إليه المطبوعة . . .

ومستوى المادة المتخصصة التي تنشر في صحيفة أو مجلة متخصصة تكون أرفع مستوى وأكثر تخصصا عن المواد المتخصصة التي تنشر الصحافة العامة ، حيث أن جمهور الصحافة المتخصصة معروف ومحدد بشكل تقريبي ، ولديه معرفة بالتخصص ومتابعة له أو - على الأقل - اهتمام به .
وتعني هذه الفئة من الصحافة :

- الصحف اليومية أو الأسبوعية أو نصف الشهرية أو الشهرية المتخصصة . . .

- المجلات الأسبوعية ونصف الشهرية والشهرية المتخصصة . . .
ومحتوى ما تقدمه هذه الصحافة لا يخاطب جمهورا متخصصا دقيقا ، لكنه تخصص شامل يجد له قاعدة قرائية من المتخصصين ومن هواة التخصص وغيرهم من أصحاب الثقافة بمعناها الشامل . . .

(١) « الأهرام » و « الشرق الأوسط » ، ١٤ / ١٠ / ١٩٨٨ م .

(١) ٤ - دوريات متخصصة تقدم مضمونا تخصصيا دقيقا (تخصص
التخصص) وقد تعددت هذه الدوريات في مجالات متعددة بأنواع التخصصات
التي تعبر عنها ، وتتم هذه الدوريات بالصفة التحليلية والتفسيرية للتخصص
كوسيلة ربط بين المتخصصين وبين المجال الذي ينتمون إليه (فقه / تفسير /
اتصال / طب / ديكتور .. الخ) ..

وتتم بعض هذه الدوريات بالعناصر التيبوغرافية كوسائل إيضاح
لمضمونه المادة ، في حين تجمع دوريات أخرى من النمط العلمي المحكم مما
يدخلها في دائرة الكتاب العلمي أكثر كثر من كونها صحافة متخصصة ..

(ب) فئات الصحافة المتخصصة من حيث المضمون :

تنوع فئات الصحافة المتخصصة من حيث محتواها ومراكز الاهتمام في
هذا المحتوى في كل فئة على حدة ، فإذا كانت هذه الصحافة دلائلهم مسوى
بالطبقة الاجتماعية التي تعبر عنها أو الفئة المهنية التي تخدمها أو بالمجلة التي
تتخصص فيه ،^(١) فإنها تنوع بتنوع وتعدد الفئات أو الطبقات أو المهن
التي تعبر عنها داخل التخصص نفسه ، ومن هذه الفئات :

- الصحافة الدينية :

ويشهد العالم تعددا وتنوعا كبيرين في الفئات النوعية لهذا النوع من
الصحافة ، خاصة صحافة الاتجاه الإسلامي والصحافة المسيحية ، قد أدى عدم
تحديد مفهوم « الصحافة الدينية » إلى عدم الدقة في تصنيفات متعددة لهذه
الصحافة ، خاصة وأن هذه المفاهيم تختلف اختلافا كبيرا في بعض الأحيان
من دولة إلى أخرى ..

ففي مصر يستخدم مفهوم « الصحافة الإسلامية » للتعبير عن « الصحافة

(١) فاروق أبو زيد ، مدخل في علم الصحافة (القاهرة ، عالم الكتاب : ١٩٨٦)

الدينية ، ، هذه الصحافة التي تعالج أمور الحياة انطلاقاً من التعاليم الإسلامية ،
وهناك هرة كاملة بينها وبين الصحافة العامة : منطلقاً وتوجهاً وغاية .. والحال
نفسه في أغلب الدول العربية والإسلامية الأخرى ..

أما في المملكة العربية السعودية فيأخذ مفهوم « الصحافة الإسلامية » (٥)
بعداً أشمل يضم ما يصدر داخل البلاد من صحافة ، على أساس أن هذه الصحافة
تصدر في دولة إسلامية ، ويقوم على إصدارها مسلمون ، وتتوجه - بشكل
أساسي - إلى جمهور مسلم ..

وفي الدول العربية تصدر أعداد متنوعة من الصحافة الدينية (الإسلامية)
تبعاً للرحلة العمرية وجهة الإصدار (حكومية/حزبية/أهلية) والتسوية
الفكرية ، وتقوى بدور كبير في حل الأمور الحياتية انطلاقاً من التعاليم
الإسلامية ، وترقية اهتمامات الناس قبل قبيتها ، وترجع بدور هذه الصحافة -

(٥) يتحسس القارئ على الصحافة السعودية في اعتبار أن الصحافة التي تصدر
بالمملكة صحافة إسلامية ، وعندما تخصص صحيفة « ما » صفحة دينية متخصصة تطلق
عليها « صفحة المسكر الدين » ، في حين يرفض آخرون تخصيص صفحة أو أكثر
لدين باعتبار أن « تمويل الدين - الإسلامي - موجه في شؤون الحياة » وأن « أية
محاولة لحصر الموضوع الدين في صفحة أو أكثر هو حجب على نشاطاته الذي يمتد إلى
كل أمور حياتنا » انظر :

- عبد الرحمن الراشد ، « كلة إلى الفارئ » ، مجلة (الحجة) السعودية ، العدد
٤٧٦ ، في ١٤٠٩/٨/١٥ (١٩٨٩/٣/٢٢) ص ٦ .

- والراي السابق نفسه تأخذ به صحيفة (الرياض) السعودية ، في سؤال وجهه أحد
الباحثين لأحد مدراء التحرير في الصحيفة عن السبب في عدم وجود صفحة دينية
بالصحيفة بالرغم من اهتماماتها المتنقلة ، قال مدير التحرير : « بما أننا مسلمون ومجتبوا
مسلم فليس هناك داع للصفحة الدينية » . انظر :

- حسن إبراهيم الشريف ، الصفحات الدينية في الصحف والمجلات السعودية ، بحث
مكمل للماجستير ، غير منشور (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المهد العالي
الدعوة الإسلامية بالرياض : ١٤٠٥ هـ) ص ٢٩ .

في صيغتها الحديثة - إلى صحيفة (العروة الوثقى) (*) التي أصدرها في باريس جمال الدين الأفغاني المدير المسئول ومحمد عبده (المحرر الأول) . وقد تأخر ظهور صحافة الاتجاه الإسلامي على مستوى جماهيري في البلاد العربية لسببين رئيسيين ، هما :

• الاحتلال الأجنبي لمعظم الدول العربية ، والذي أعاق ظهور هذا النوع من الصحافة لدرجة أن صحفا متعددة ذات اتجاه إسلامي لم تصدر في أوطان أصحابها وإنما صدر في المنفى (**).

• ظهور الصحافة في أغلب البلاد العربية خاصة في مصر ولبنان وسورية - باتجاهات غير إسلامية للشاميين المهاجرين إلى مصر فرارا من القوانين المتعسفة في بلادهم .

وتشبه الدول العربية في السنوات الأخيرة تنوعا كبيرا في الصحافة الدينية المتخصصة ، لدرجة أن دول الخليج العربي وحدها تصدر بها إلخ دورية دينية (إسلامية) متقدمة في ذلك على الفئات الأخرى للصحافة المتخصصة (١).

(٥) صدر عددها الأول في الخامس عشر من جمادى الأولى ١٣٠١ هـ (١٣ من مارس ١٨٨٤ م) واستمرت ١٨ .
(*) من هذه الصحف .

... العروة الوثقى : وكانت موجهة أساسا ضد الاحتلال الإنجليزي .

- منير الشرق : أصدرها على النماني (باللغة الفرنسية مع باللغة العربية كان يكتبه بيده) كأول جريدة تصدر في جنيف بسويسرا تدافع عن الشرق والشرقيين ، وبعد ربع قرن في المنفى عاد النماني لبلاده قبيل الحرب العالمية الثانية وأصدر صحيفة باللغة العربية في مصر .

- الأمة العربية La Nation Arab : أصدرها هسكيب أرسلان بالإشتراك مع إحسان الجباري باللغة الفرنسية في جنيف بسويسرا ، واستمرت حتى نشوب الحرب العالمية الثانية .

- صحافة الاهتمام الإبداعي :

وتضم هذه الصحافة عدة أنماط داخل التخصص الإبداعي ، منها :

• الصحافة الشاملة المتخصصة في لون من ألوان الإبداع : الأدب/الفن/الفكر .. الخ .. وتضم هذه الصحافة عدة أنماط من الكتابة داخل مجال التخصص ، وتتوجه هذه الصحافة إلى جمهور كبير نسبيا من صحافة التخصص الدقيق أو (تخصيص التخصص) ..

• صحافة الإبداع النوعي : وهذا النوع من الصحافة المتخصصة مكانته المجلات المتخصصة ، حيث تخصص المجلة صفحاتها للون واحد من أنواع الإبداع وتقدم بعض نماذجه - قديما وحديثا - وتقد هذه النماذج وتقديم قراءات متعددة وأخبار ونصايا خاصة بهذا النوع من التخصص ، ومن الأمثلة لهذه المجلات : مجلة (الشعر) مجلة (المسرح) مجلة (القصة) مجلة (فصول) النقدية وغيرها .. وجمهور هذه المجلات قليل نسبيا وأكثر تخصصا وارتباطا بالمجال الذي يتابعه ..

- صحافة الأطفال :

وتقوم هذه الصحافة على الفن البصري في المقام الأول . إذ تعتمد على الكلمة المطبوعة والصورة واللون في تعبيرها عن الأفكار والحقائق ، (١) وتتنوع هذه الصحافة المتخصصة تبعا لمراحل النمو النفسي لتتطور شخصية الطفل في مرحله المختلفة (٢) : الطفولة المبكرة (٣ - ٦ سنوات) ومرحلة

-
- (١) هادي نيمان المني ، صحافة الأطفال في العراق ، سلسلة (دراسات) ، العدد ١٧٦ (الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والفنون ، دار الرشيد للنشر ١٩٧٩) ص ١٩
- (٢) يطلق على هذا التقسيم نموذج أريكسون Erikson والذي ركز فيه صاحبه على نمو شخصية الطفل في إطار المجتمع الذي يعيش فيه وأسماء النمو النفسي الاجتاهي ، على جانب (الأنا) خلافا ل فرويد الذي ركز على جانب (الهو) في شخصية الفرد .

الطفولة المتأخرة (٦ - ١٢ سنة) ومرحلة المراهقة (١٢ - ١٨ سنة) وكل مرحلة عمرية لها صحافة من جرائد ، ومن بين صحف الأطفال المخصصة لمرحلة الطفولة المبكرة *Our Little Friend* التي تصدر في كاليفورنيا منذ عام ١٨٩٠م ، ومن الصحف المخصصة للأطفال في مرحلة المتوسطة صحيفة *One Two* الأمريكية ، ومن صحف الأطفال في مرحلة الطفولة المتأخرة صحيفة *Okki* الهولندية ، أما المراهقون فلهم صحفهم الخاصة بهم ومنها *Teen Time* الأميركية وغيرها (١) .

أما مجلات الأطفال فتتنوع تنوعاً كبيراً من حيث المحتوى (٢) ، ولكن رغم هذا التنوع الكبير في صناعة المجلات فإن مجلاتنا العربية المخصصة للأطفال لا تراعى المرحلة العمرية لمن تتوجه إليهم ولا الهدف من إصدارها ، وتعتبر - في أغلبها - ترجمة نصية لمجلات أجنبية للأطفال أو مجرد تقليد لها ، هذا رغم أن هذا النوع من الصحافة ليس جديداً على العرب منذ أن أصدر وقاعة رافع الطمطاوي أول مجلة من هذا النوع باسم (روضة المدارس المصرية) (٣) .

- صحافة الأسرة :

وتتنوع هذه الصحافة تنوعاً كبيراً حسب جمهورها الذي توجه إليه بشكل أساسي داخل محيط الأسرة ، وتشمل هذه أنماط ذات اهتمام عام أو خاص .. وقد بدأت في هذه الصحافة في العالم العربي عام ١٨٩٢ م بمجلة (الفتاة) التي أصدرتها في مصر هند نوفل ، ويصل عدد ما يصدر من هذه الصحافة الآن في البلاد العربية ٤٧ مجلة من مجموع الإصدارات التي عرفت في هذه البلاد ووصلت

(١) هادي نجات الحقيق ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٢) Selma K. Richardson, Magazine for children (Chicago, American Library Association : 1983) p. 1-9

(٣) صدر العدد الأول منها في ١٨ من أبريل ١٨٧٠ م وكانت مجلة عامة توجه

إليها الأول قناطين أبناء المدارس .

١٥٣ مجلة^(١)، وهذا بإضافة إلى المواد المتخصصة التي تنشر في الصحف والمجلات العامة والتي تخطب الأسرة ..

- الصحافة الطلابية :

وتنقسم إلى فرعين رئيسيين هما الصحافة المدرسية ، والصحافة الجامعية ، وقد انشرت هذه الصحافة (خاصة المجلات) وتنوعت ولاقت تشجيعاً كبيراً من الوزارات والهيئات المعنية بالتعليم في البلاد المختلفة ، وقد تصدر هذه الصحافة عن مدرسة أو قسم على أو جامعية ، أو عن مؤسسات حكومية أو دور نشر خاصة ، أو كصحافة مجانية (إعلامية) .

- الصحافة الرياضية :

وتحتل هذه الصحافة (جرائد ومجلات متخصصة ، ومواد رياضية مجمعة تنشرها الصحافة العامة) مركز الصدارة توريا وجذباً للقراء ، وبعض هذه المطبوعات تودع على مستوى دولي متفوقة في ذلك على الصحافة العامة.

وتنوع هذه الصحافة بين متخصصة بالمعنى الشامل للتخصص ، وبين صحافة نوعية متخصصة بالمعنى الدقيق للتخصص : كرة قدم ، فروسية ، سباحة ، صيد ، ملاكمة ، جودو ، مصارعة ، تنس ، كرة سلة ... إلخ ... وكل رياضة من هذه الألعاب لها جمهورها .

وتتميز هذه الصحافة المتخصصة وتنوع بدرجة كبيرة يصعب حصرها بالنسبة لمادتها ، وتخصصها ، والموقف العام ، والقراء ، والمصدر ، والطابع العام ، والمضمون ، والهدف ، وغير ذلك من تقسيمات متعددة لها^(٢) .

(١) - سعيد محمد جمعة ، « بمناسبة مرور قرن على الصحافة » ، صحيفة الشرق

الأوسط ، العدد ٣٧٥٣ ، ١٨/٣/١٩٨٩ ، ص ١٨ .

(٢) - محمود آدم ، في عالم المجلة (القاهرة ، د . مكان نشر ١٩٨٦) ص ٤٩ .

ثالثا : جمهور الصحافة المتخصصة

إذا كانت الصحافة المتخصصة ثمرة مباشرة للقراكم الحكى المعرفى وتلبية للاهتمام القرائى المتزايد بهدف تعميق ومتابعة التخصص النوعى ، فإن بداية الاهتمام بالتخصص فى الصحافة جاء نتيجة عوامل متعددة منها :

(١) اهتمامات أصحاب هذه المطبوعات . حيث تكون هذه الإصدارات - غالبا - مدى لاهتمامات أصحابها ، فمجلة *The Reader's Digest* (أوسع المجلات الشهرية فى العالم) التى تصدر فى ٣٩ طبعة و ١٥ لغة وبزيد قراؤها عن مائة مليون هى تعبير عن اهتمامات صاحبها *De Witt Wallace* وملاحظاته حول أم المقالات التى أطلع عليها ورأى تقديم ملخص لها ، فكان صدور هذه المجلة فى الخامس من فبراير ١٩٢٢^(١) .

وفكرة مجلة إخبارية مثل *Time* جاء نتيجة تجربة *Hadben* مع زميله *Henry R. Luce* فى إصدار صحيفة يومية مدرسية فكانت هذه المجلة الأسبوعية الشهيرة منذ الثالث من مارس ١٩٢٣ وحتى اليوم^(٢) ومجلة (شعر) اللبنانية مدى لأفكار يوسف الخال وأدونيس باتجاههما القوى الحربى ونزوعهما الشديد إلى الغرب ... وهكذا .

(ب) شخصية رواد التحرير وثقافتهم واهتماماتهم وتوجهاتهم ، فعندما قرر محمد حسين هيكل بصحيفة (الأهرام) وجذب إليها من المثقفين : لويس عوض ك محرر أدبى للقسم الثقافى ، ونجيب محفوظ الروائى ل يبدأ الكتابة ككاتب معروف ، ورائد المسرح العربى توفيق الحكيم كان تعبيراً عن شخصية رئيس تحرير الصحيفة الذى كان يطمح إلى جعلها « صوت مصر »

(1) W. Click, Russel N. Beard, op. cit., p. 19

(2) Ibid., p. 18

تمثلا بصحيفة The Time التي كانت تبدو وكأنها (صوت بريطانيا)^(١) وملحق (ألوان من التراث) بصحيفة (المدينة المنورة) السعودية (والذي صدر عددها الأول في الثامن من شوال ١٣٩٥ هـ بإشراف الدكتور محمد بن مقبوع تركستاني ولا يزال يصدر أسبوعيا حتى اليوم) هو في مجمله تعبير عن شخصية المشرف والمحرر الأول له .

(ح) بعض الظروف الطارئة من رقابة مباشرة ، أو احتلال أجنبي بهمال القوانين أو يفرض أخرى معطلة للصحافة بشكل مباشر أو غير مباشر ، أو قوانين خاصة بالصحافة وتتعسف ضدها وذلك كله يلجئ الصحافة إلى التخفي تحت ستار التخصص من آداب أو فنون أو فسكاهة ، في حين أن التوجه الأساسي لهذه الصحافة يكون سياسيا في حقيقته رغم ستار الرمز أو أو عدم الوضوح أو الإعلان عن الهدف^(٢) .

٢ - جمهور الصحافة المتخصصة :

يلعب الجمهور في العملية الاتصالية دورا لا يمكن أن نعتبره سلبيا ، فكل أن القائم بالاتصال يؤثر على الجمهور ، فالجمهور أيضا يؤثر على القائم بالاتصال وتثار التساؤلات حول العلاقة القائمة بين القائم بالاتصال وبين الجمهور^(٣) . ونؤكد دراسات الجمهور أنه من الصعب تحديد التأثير ومداه ونوعيته بالنسبة لقراء الصحف ، حيث أن دراسات التي تعتمد على أرقام توزيع المطبوعات

(1) Martin Walker, Powers of the Press (London, New York, Quartet Books : 1988) p. 174

(٢) مرعى مذكور ، أن تحرير صفحات الأدب في الصحافة المصرية ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة القاهرة ، كلية الإعلام ١٩٩٠) ص ٢٥ وما بعدها .

(٣) جيهان أحمد رشق . الأسس العلمية لنظريات الإعلام (القاهرة دار الفكر العربي ١٩٧٧) ص ٤٣٩ و ٤٣٣ .

لم تعطى نتائج دقيقة خاصة وأن المطبوعات أصبحت في حكم المتخصصة - حتى العامة منها وإن اتجاهات الجمهور وميوله القرائية من الصعب تحديدها بدقة :

ففي دراسة قامت بها عشر صحف يومية إقليمية كبرى في فرنسا حول قرائية الصحف، جاءت أهم النتائج موضحة، أن قراءة الصحيفة هي - قبل كل شيء - مجرد عادة، وأن أكثر من ٧١٪ من القراء ما يزالوا يقرأون جريدتهم المفضلة منذ أكثر من عشر سنوات (وترفع النسبة إلى ٨٨٪ لمن هم في سن الخمسين أو أكثر من العمر) وأن قرائية الصحيفة بالنسبة لحوالي ٩٠٪ يعتبر عملية استرخاء^(١) .

والسبب السابق لقراءة الصحف لا ينطبق على الصحافة المتخصصة، فقراءتها ليست - غالباً - عادة أو استرخاء، فهي لا تقدم الطراوة، الإخبارية التي تدفع لمتابعتها، حتى وإن قدمتها فليست هي الأساس وإنما تقترن بصفة أخرى هي الصفة التحليلية أو التفسيرية^(٢) وحتى إذا كانت عملية القراءة للصحيفة العامة مجرد استرخاء، في أغلبها، فإن هذا الاسترخاء أو الترفيه قد يقود القارئ إلى أن يتواصل مع مواد أخرى متخصصة مثل عمود الكاتب السياسي أو برنامج سباق خيل أو تقرير مباريات كرة قدم^(٣) فالقارئ غير المتخصص قد يجد نفسه أمام مواد مجمعة متخصصة منشورة في الصحافة العامة، وقد يكتشف في نفسه أهلية لاستيعاب هذه المادة والتواصل معها، وهذا ما يؤيد لديه اهتماماً قرائياً جديداً ..

الصحافة المتخصصة في بعض أشكالها إذن ليست مقصورة فقط على القارئ

(١) بيير البير، مرجع سابق، ص ٨٢ ..

(٢) أحمد المنازي، الإعلام والتدافع، سلسلة كتابك، العدد ٧٨ (القاهرة،

دار المعارف ١٩٧٨) ص ٥٥ ..

(3) Bill Grund, The Press inside out (London, W. H. Allen : 1676) p. 94

المتخصص، وإنما يتسكون جمهورها في المقام الأول خاصة بالنسبة للصحافة المتخصصة الدقيق (تخصص التخصص) أما صحافة التخصص العام (الشامل) فيضاف إلى قرائها المتخصصين من يجدون أنفسهم بحاجة أمام مادة جديدة عليهم قد يجلب بعضهم لما تقدمه ويمود إليها مرة ثانية لإعادة اكتشافها وفك رموزها، قراءتها، وهكذا.

ويتأكثر القارئ في مدى إقباله على قراءة صحيفة مل عدمه بالتالي :

• مستوى الصحيفة، فصحف مثل The Guardian, The Times لا يتعدى توزيعها نصف المليون نسخة، لكن ما تقدمه واحدة منهما في واحدة من صفحاتها المتخصصة له تأثيره على البريطانيين، من قادة الرأي باعتبار الصيغتين أن الصحف الجادة، أكبر من أضعاف ما تنشر صحيفة بريطانية أخرى مثل The News of the world صاحبة الـ ٧٠٨٠٠٠ نسخة يوميا والتي تصرف بصحيفة الاثارة أو الفضائح (١) ..

• مضمون ما تقدمه الصحيفة أو المجلة، فليس بالضرورة أن يكون التوزيع الكبير تعبيرا عن نأثر بمستوى ما تقدمه المطبوعة، وإن كان - حتى الآن - دليلا على الإقبال عليها ومداه ..

- العوامل التي تساعد على انتشار الصحافة المتخصصة :

هناك عدة عوامل رئيسية يرتفع ارتفاعها بزيادة الطلب على وسائل الاتصال بشكل عام - ومنها الصحافة المتخصصة - وهي (٢) :

(1) John C. Merrill (ed.), op. cit., p. 64

(٢) عمر الخطيب، الاعلام التنموي، ط (الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر وانشتر : ١٤٠٣ / ١٩٨٣) ص ٢٠٨ ..

- جيهان أحمد رشتي، نظم الاتصال : الاعلام في الدول النامية (القاهرة، دار الفكر العربي : د. ت) ص ١٠٦ ..

- نمو عدد السكان ..

- ازدياد دخل الفرد .

- ارتفاع الطلب على وسائل الاتصال . وهذا ينتج عن ارتفاع دخل الفرد وزيادة نسبة التعليم مقارنة بالامية وظهور حاجات معرفية جديدة .

كما أن هناك تغييرات مستمرة في العالم . خاصة بعد الحرب العالمية الثانية . أدت إلى تحولات كبيرة أيضا في مجال الصحافة المتخصصة ، منها :

- التقدم التقني الذي ترك بصماته على الصحافة ، فإذا كانت الصحافة قد خطت خطوات كبيرة للأمام وأصبحت واقعا ملموسا بظهور مقوماتها من من تقنية وحمور وتوزيع ، فإن هذه التقنية تتقدم يوميا بخطى رهيبه ، فلم تعد الصحيفة كما كانت : مجرد نسخ متعددة وجمهور عدد ، وإنما أصبحت مؤسسات متعددة الأنشطة ، ولتسا أن نخيل صحيفة مثل *Asahi Shimbun* اليابانية التي تعتبر من أكبر المراكز الثقافية في بلادها بدشاعاها المتعدد من نشر كتب وإصدارات للمجلات والدوريات والصحف وطبعا في خمس مدن يابانية أكثر من مائة طبعة كل يوم^(١) .

- القفزة الكبيرة في مجال الراديو والتليفزيون والاهتمام الجماهيري بهما ، واحتلالهما الصدارة بالنسبة للدجال الإخباري ، مما جعل الجمهور يبحث عن الجديد ، وجعل الصحافة أيضا تبحث عن مجالات أخرى غير الاكتفاء بتقديم ما جرى ..

- التغير الذي طرأ على الجمهور أيضا من حيث التعليم والتنقل والحاجة إلى معرفة جديدة تفتح إلى التحليل والتفسير وتلبية الرغبات والحاجات المعرفية ، وبالإضافة إلى ذلك هناك عوامل لها تأثيرها المباشر في انتشار الصحافة المتخصصة ، منها :

- قيام الجمعيات النوعية المتخصصة ، واستخدام المطبوعات للتعبير عن أفكارها والتواصل مع أعضائها .

- الإقبال الذي حظيت به الدوريات المتخصصة والمواد المتخصصة المجمعة التي تنشر الصحافة العامة في صورة ملاحق أو صفحات أو زوايا متخصصة ، هذا أدى إلى أن تبحث المؤسسات الصحفية عن استغلال أمثل لهذا الاتجاه من جهة الجمهور .

- صدور العديد من الدوريات المتخصصة عن جهات حكومية أو أهلية ، ليس تجارية ، بهدف غير الربح المادى كإشاعة ثقافة تخصصية معينة على مستوى أوسع .

- دعم المطبوعات المتخصصة في بعض الأحيان ، حيث تقدم الحكومات دعماً للحكومات دعماً لبعض الهيئات أو المؤسسات أو الأفراد الذين يصدرون مطبوعات نوعية . بهدف استمرار هذه المطبوعات التي تساهم في تنمية الذوق اللغوي أو الفني أو تنمية مهارة معينة أو تضييد اتجاه معين ، ويأخذ هذا الدعم عدة صور ، منها :

• الدعم المباشر بتقديم العون المادى ..

• الدعم غير المباشر ، في أشكال متعددة على النحو التالى :

(أ) توفير حصص مستلزمات الإنتاج من ماكينات وأحبار وورق واتصالات بأسعار مدعومة ..

(ب) تقديم إعلانات حكومية لنشرها في هذه المطبوعات ..

(ج) افتتاح مجموعة نسخ لتغطية تكاليف النشر وتحقيق هامش ربح يشجع على الاستمرار ..

- الاهتمام الجماهيرى بالتخصص ، والذي يتضح في ظهور وتعدد وتنوع الجمعيات والأندية المتخصصة في المجالات المتنوعة : إبداعية (أدب / مسرح / سينما / راديو / تليفزيون .. الخ) وأمرية (نسائية / أطفال / أزياء / خدمة /

صحبة أسرية / ديكور / وفتوية (طلابية / عمالية / مهنية / موظفين) رياضيين (خيل / سباحة / ملاكمة / كرة قدم / تنس / تربية حمام زاجل) وغير ذلك من جمعيات ترويحية وترفيهية وغيرها ، بالإضافة إلى هواة هذه المجالات النوعية والذين لا ترق إلى مكانتهم إلى المشاركة والممارسة في هذه المنتديات . وهؤلاء يشكلون نسبة كبيرة من هذه المطبوعات المتخصصة التي تهر عن هذه الأنشطة أو تاتي الأضواء عليها بشكل مباشر . . . وتعمل الصحافة المتخصصة على توسيع دائرة قرائها بعدة طرق منها^(١) :

١ - تلبيبة رغبات القراء ، والإجابة على أسئلتهم في باب أو أكثر ، وهناك دراسات متعددة حول مشكلة رغبات الجمهور وهل تلبي هذه الرغبات بشكل مطلق أم يعطى هذا الجمهور ما يحتاج إليه وليس فقط ما يريد^(٢) ، وإن كانت الصحافة المتخصصة ، غير الحاذقة أساساً للربح ، ليست لديها مشكلة في ذلك باعتبارها صحافة رسالة ولا تقصد الجمهور الكبير بقنوع رغباته . .

٢ - نشر آراء القراء وتعليقاتهم ومشاركتهم في أبواب الهواة . .

٣ - تنظيم الدورات والمسابقات ورصد الجوائز المسادية والمعنوية ، وتقنوع هذه المسابقات بين مجرد اقتناء المطبوعة والمتابعة ، وبين كتابة الدراسات والإشراف على المؤهوبين في مجالات التخصص . .

إن التقدم الرهيب الذي يشهده العالم في مجالات الاتصال يجعل الصحافة المتخصصة مسئولة عن تقديم تخصصية في مجالاتها حتى يقبل عليها الجمهور هروباً من نمطية معالجات الصحافة العامة والتي تنزاد - في أحابن كبيرة مع عاجري ، فليها الوقت والإمكانات ، والجمهور أيضاً . .

(١) على شلف ، مرجع سابق ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٩ .

(٢) جيهان رشتي ، الأسس العلمية لنظريات الأعلام ، مرجع سابق ، ص ٤٣٣ .

خاتمة

إن طوفان الصحافة المتخصصة العربية والوافدة على بلادنا من الغرب دليل مدروس على تنوع اهتمامات القراء ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقف مجرد مستقبلين لهذه الصحافة التي تلبي الاهتمامات والريقات ونتمتع معها عن طريق المصادرة نارة والمنسج تارات أخرى ، خاصة وأن المواجه قد تلاشت تقريبا بصفة عملية بين الدول بفعل وسائل المواصلات والنقل والاتصال ، فهذه الصحافة التي تلبي رغبات متنوعة : موسيقى ، فنون ، رياضة . أسرة ، طفولة ، ترويح ، وإن كانت غير مباشرة في تأثيرها إلا أنها تقدم الفرصة - كما يقول جوزيف كلاير - وهو يدلي بشهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس النواب الأمريكي عام ١٩٦٧ .. كذلك لم نحسم قضية مجلات : (شعر) اللبنانية ودورها في إشاعة العامية في مواجهة لغة القرآن الكريم (هذا الدور الذي بدأه في مصر مهندس الرى الإنجليزي وليام ويلكوكس في مجلة تحمل اسم « الأزهر » رغم أنها متخصصة في الصحة العامة (١١) .

ومجلة (حوار) اللبنانية أيضا وجوائز المشبوهة ، ثم مجلة (الكاتب المصري) التي أصدرها أربعة يهود في مصر وترأس تحريرها طه حسين ١١ ..

إننا يجب أن نتعامل مع هذه المجلات عن طريق الحوار اترشيدها ، أما مقاطعتها - كما يفعل البعض - فلا يلقى دورها أبدا . فعندما توجد المجلة التي تحترم عقل القارئ وتلبي اهتماماته متوسلة في الوقت ذاته بالفنون الصحفية المختلفة - كتابة وإخراجا - فإنها ستكون مؤثرة

وستؤدى دورها على أكمل وجه ، ولعل صحافتنا الدينية المتنوعة
والمتعددة التى تصدرها الهيئات الإسلامية فى الداخل والخارج مطالبة
بتطبيق الأسس العامة للصحافة حتى يصل مضمونها إلى قرائها وتكتمل
دائرة الحوار ..

ومن الله العون ..

أهم مراجع البحث

باللغة العربية :

- ١ - إجلال خليفة، اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي ، ط ١ ، ط ١
القاهرة ، دار الإنسان : ١٩٧٢ .
- ٢ - أحمد المغازى ، الإعلام والنقد الفني ، سلسلة « كتابك » ، عدد ٧٨ ،
القاهرة ، دار المعارف : ١٩٧٨ .
- ٣ - إحسان عسكر ، نشأة الصحافة السورية ، القاهرة . دار النهضة
العربية : ١٩٧٢ .
- ٤ - أحمد حسين الصاوى ، فجر الصحافة في مصر ، القاهرة ، الهيئة العامة
للكتاب : ١٩٧٥ .
- ٥ - جيهان أحمد رشتى ، الأسس الفكرية لنظريات الاعلام ، القاهرة ،
دار الفكر العربى : ١٩٧٨ .
- ٦ - جيهان أحمد رشتى ، نظم الاتصال : الإعلام في الدول النامية ،
القاهرة ، دار الفكر العربى : د . ت .
- ٧ - دليل الدوزيات الخليجية الجارية ، الطبعة الأولى ، مركز التوثيق
الإعلامى لدول الخليج العربية مكتب التربية العربى لدول الخليج
الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجى : ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ .
- ٨ - زين العابدين الكتانى ، الصحافة المغربية ، ج ١ ، المغرب ، وزارة
الأنباء : د . ت .
- ٩ - سامى مزور ، الصحافة المصرية : وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ،
سلسلة المكتبة العربية ، القاهرة ، دار الكتاب العربى : ١٩٦٨ .
- ١٠ - سلوى أبو سعدة ، الصحافة فى الاتحاد السوفيتى ، القاهرة دار الموقف
العربى : ١٩٨٨ .

- ١٢ - على سكش ، النقد السينمائي في الصحافة المصرية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٨٦ .
- ١٣ - فاروق أبو زيد ، الصحافة المتخصصة ، ط ١ ، القاهرة ، عالم الكتب : ١٩٧٦ .
- ١٤ - فاروق أبو زيد ، مدخل إلى علم الصحافة ، القاهرة ، عالم الكتب : ١٩٨٦ .
- ١٥ - محمود آدم ، دراسات في عالم المجلة ، القاهرة ، د/ مكان نشر : ١٩٨٦ .
- ١٦ - محمود علم الدين ، المجلة : التخطيط لإصدارها ومراحل إنتاجها ، القاهرة ، العرب للنشر والتوزيع : ١٩٨١ .
- ١٧ - محمود فياض ، الصلافة الأدبية في مصر ، القاهرة ، الجهاز المركزي للكتاب الجامعية والمدرسية ، ١٩٦٦ .
- ١٧ - هادي نعمان الهيبي ، صحافة الأطفال في العراق ، الجمهورية العراقية . وزارة الثقافة والفنون .

مراجع معربة :

- ١ - الهوت ل . هستر (محرر) ، دليل الصحف في العالم الثالث ، ترجمة كمال عبد الرؤوف ، القاهرة الدار الدولية للنشر والتوزيع : ١٩٨٨ .
- ٢ - بيير البير ، ترجمة فاطمة محمود ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م .
- ٣ - جاك ميدوز ، آفاق الاتصال ومناقضه ، ترجمة حشمت قاسم ، القاهرة ، المركز العربي للصحافة : د . ت . د .

باللغة الأجنبية :

- Bill Grundy, *The Press inside out*, London, W. H. Allen : 1970
- Dineh Moghadam, *Computers in Newspaper Publishing*, N.Y, Marcel Dekker : 1978
- Donald H. Johnson, *Journalism and the media*, N. Y. Barnes and Nobbe books : 1976
- Floyd K. Baske He and others, *The art of editing*, 3 ed., N. Y. Macmillan Publishing Co. : 1982
- John C. Merrill (ed.), *Global Journalism*, New York, Longman, 1983
- Lou Connon, *Reporting : an inside View*, California, California Journal Press : 1977
- William V. Rugh, *The Arab Press*, N. Y., Syracuse Univer Press : 1979
- Merlin Walker, *Poet of the Press*, London, London, N. Y. Quartet Books : 1982
- Selma K. Richardson, *Magazine for Children*, Chicago, American Library Association : 1988

قياس معدلات أداء الإعلاميين المبتدئين

بقلم الدكتور

صلاح الدين عبد الحميد محمد

أكثر المشكلات التي تواجه المسؤولين في المؤسسات الإعلامية سواء كانت إذاعية أو صحفية ، هي معرفة المستوى الحقيقي للمبتدئين في مجال العمل الإعلامي ، وليس المقصود بهم العاملين في مجال الإنتاج الإعلامي المساعد كعمال الطباعة والفنيين الكهربائيين وفني القطع والتخفيف بالصحف والمجلات والكتب الذين يندرجون تحت عضوية النقابة العامة للصحافة والطباعة والنشر، ولكن المقصود هنا المبتدئين في العمل الإعلامي الذين ينحصر علمهم في الإنتاج الفكري والثقافي والعلمي كالصحفيين والمذيعين والمخرجين والمصورين، وهم الذين يندرج أكثرهم تحت عضوية نقابة الصحفيين .

ومما يجعل حل هذه المشكلة ضرورة حيوية ، والاستمرار في حلها أولاً بأول أكثر إلحاحاً ، إن رياح التغييرات الصناعية والتكنولوجية قد هبت على صناعات وسائل الاتصال ، فبدأت في أساليب تقسيم العمل التي يسرت الإنتاج الجماهيري في الصناعات الأخرى . ولقد أصبح التخصص مصححاً لتعاطل الحجم وزيادة الكفاءة ، وهما من معيزات وسائل الإعلام في أواخر القرن العشرين ، كما ساعدتا على تلبية السلع المنتجة في غير وسائل الإعلام وعلى التمر الذي سار عليه إنتاج هذه السلع كالهاتف والسيارات والثلاجات ، وذلك دولة الصحيفة التي ينتجها شخص واحد لتحل محلها الصحيفة التي يعمل فيها المئات من المتخصصين الذين يسهم كل واحد منهم في إنتاج الصحيفة (١) .

(١) ولیم ل . ريفرز وآخرون : وسائل الإعلام والمجتمع الحديث ، دار المنكب العربي ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ٨٠ ترجمة الدكتور إبراهيم إمام .

كما غزا التخصص العمل الإذاعي^(١) أيضاً ، ولم يعد البرنامج من خلق شخص واحد وإنما نتيجة تفاعلات مركبة من مواهب متعددة كالمنتجين والمخرجين وكتاب النصوص والممثلين والمذيعين والموسقيين ، ولم يعد المؤلفون يعدون نصوصهم بأنفسهم وإنما يقرأون ما يبعده غيرهم من الكتاب ، وهؤلاء بدورهم يستندون على الامكانيات الخاصة بالشبكة لجمع الأخبار من المصادر^(٢) .

ويعتبر تحديد معدلات الأداء أو الانجاز غاية سامية في نظر الجهات التي يعمل فيها عدد كبير منهم خصوصاً العاملون في المجال الفكري التخطيطي من أجل إصلاح المؤسسة الإعلامية من ناحية والعاملين فيها من ناحية أخرى .

مفهوم الكفاية الإنتاجية في الأداء الإعلامي :

والكفاية الإنتاجية هي تحقيق إنتاج إبتكاري أو نمطي أفضل من ناحية الكم والكيف باستخدام أفضل الطرق للاستفادة السكاهة من كافة الموارد والإمكانات ، والاستخدام الأفضل لعناصر الإنتاج المتاحة^(٣) ، وتساوى النسبة بين المخرجات Outputs أى المفتح النهائي ، والمدخلات Inputs أى المتطلبات اللازمة للإنتاج ، ولا يقتصر مفهوم الكفاية الإنتاجية على مجال الإنتاج الصناعي أو أى مجال متصل به لحسب ، بل يشمل كذلك على كافة مجالات الحياة ، ويعنى توفير الوقت والجهد والمال في أية مرحلة من مراحل الإنتاج أو العمل .

والاستخدام الأمثل المدخلات من أجل إنتاج إبتكاري أو نمطي .

(١) في الراديو والتلفزيون (٢) نفس المرجع ص ٨١ .

(٣) مصطفى أحمد عبيد : مفهوم الكفاية الإنتاجية - طبع في أماليب ونعي الكفاية الانتاجية. الطبعة الأولى - القاهرة (بدون ناسر) سنة ١٩٧٠ ص ١٣

إنما هو مفهوم نظري يعبر عن النهاية القصوى التي يمكن الوصول إليها ،
وهي علاقة بين كمية المدخلات وكمية المخرجات .

وكلمة الكفاءة الإنتاجية Productivity في الأداء الإعلامى هي تعبير
لكلمة كفاءة الإنتاج وتعنى الفاعلية في الأداء ، وهي - أيضاً - المقياس
الصادق لمدى التشغيل الاقتصادى للأعمال الابتكارية أو النمطية ، وهـ وشراً
لمدى الاستفادة من عناصر الإنتاج ، ومعيـار للمقدار الناتج من استخدام
الجهود والوقت والمال والخبرة أى المتطلبات اللازمة للإنتاج أو الابتكار ،
وهي التى تسمى بالمدخلات ويتم الاستخدام الأمثل للمدخلات بإتباع الأصول
والأسس العلمية فى الإدارة لتوجيه هذه المدخلات الوجهة الصحيحة (١) ،
حسبما هو محدد سلفاً فى الخطة العامة أو الجزئية ، أو حسب أسلوب المؤسسة
الإعلامية فى الإنجاز .

الإدارة العلمية ومعدلات الأداء الإعلامى :

ولقد أدى إتساع وتعقد نظام الإنتاج المادى والفكرى والابتكارى ،
وكبر حجم المؤسسات الإعلامية ، وظهور المشكلات التقنية والفنية والتقدم
السريع فى الاختراعات . إلى البحث عن إدارة جديدة لمواكبة
التغيرات التقنية والفنية لسد الحاجة إلى الرجل المناسب الكفاء ، وتلبية
لذلك ظهرت أفكار عديدة للإدارة وفى مقدمتها ما طلع به هاينـا فريدريك تايلور
Frederick Taylor صاحب نظرية الإدارة العلمية التى تركز على عاملين هما الإدارة
الفنية والإدارة الإنسانية ، حيث اتضح أن المدير هو المنسق للجوانب الفنية
البشرية فى أى عمل إنتاجى ، أى أن المدير يكون مسؤولاً عن التنظيم

(١) د . سيد محمود الموالى : الإدارة - الأصول والأسس العلمية - ط ٤ مكتبة

ميدى نىس القاهرة ١٩٧٠ ص ٨٩ .

ومن جميع العلاقات المتشابهة وغير المتشابهة أثناء العمل الإنتاجي^(١) ،
وسواء كان نمطياً أو ابتكارياً ، ويتضمن مدخل تايلور في نظرية الإدارة
العلمية لإدارة العمليات الإنتاجية ، عدة جوانب متصلة بشكل مباشر بمعدلات
الأداء والإنجاز^(٢) ، وهي :

- ١ - التعريف الدقيق الواضح بأحسن طريقه لأداء العمل حيث أن هناك
- دائماً - طريقة أفضل .
 - ٢ - الإهتمام باختيار الرجل المناسب في المكان المناسب .
 - ٣ - تدريب الرجل المناسب بالشكل الذي يستطيع به أداء عمله على
أفضل وجه .
 - ٤ - تحديد المستوى النمطي للأداء المتوقع والمطلوب .
 - ٥ - إعطاء المكافأة والتشجيع لمن ينتج فوق المستوى النمطي .
- ونتيجة الإهتمام الشديد لمدرسة الإدارة العلمية بالجانب الإنساني ، وأثره
على الأداء الوظيفي ودراسة أسباب ودوافع السلوك الإنساني ، والأساليب
التي تنمي السلوك الوظيفي الأكثر إنتاجاً ، ظهرت أهمية الاستفادة من المهارات
البشرية بطرق إيجابية مثل الحوافز الإنسانية والاجتماعية وتنمية روح
الانتماء والإهتمام بالمهارات الفردية .
- وهناك عدة نقاط رئيسية تدور حول قياس وتحديد معدلات الأداء
لدى الإقليميين وهذه النقاط الرئيسية هي :

(١) د. محمد عمن أسعد : إدارة الموظفين - دورها وعلاقتها بالأجهزة الرأية
والتشريعية في المملكة العربية السعودية : مجلة الإدارة المسد الثاني : أكتوبر
سنة ١٩٨٤ ص ٢٦ .

(٢) محمد حسين ياسين ، د . مدني عبد القادر علاقي : وظائف الإدارة - الطبعة
الأولى - مكتبة معهد الإدارة بالرياض - الرياض سنة ١٩٨٣ ص ٧٥ .

أولاً : أهداف قياس معدلات الأداء :

يهدف قياس معدلات الأداء (الذى يشتمل جزئيه تفصيليه ضمن الإهتمامات التى تركز عليها مدرسة الإدارة العلمية) إلى تحقيق عدة أغراض هامة منها ما يتعلق بالجهات أو المؤسسات الإعلاميه التى يعمل فيها الشخص ، ومنها ما يتعلق بالشخص المبتدىء نفسه ، وهى التى تساعد على إنجاز العمل (أو أداء الوحدات النمطيه المتكررة أو جزئياتها) طبقاً للوزانات المساليه المحددة والجهود المقدرة سلفاً للإنتهاء منه ، ومن هذه الأغراض ما يلى :

• تطوير وتحسين مستوى أداء الإعلامى المبتدىء من أجل تحقيق رفاهيته شخصياً ورفاهية المجتمع ككل .

• الوقوف على مستوى كفاءة الإنتاج لدى الإعلامى المبتدىء ، وهذه ضرورة حيوية يتم على أساسها الآن - أو فيما بعد - إصدار قرار لإعطائه التدريبات التى ترفع كفاءته فى العمل .

• وبما يبين الأهمية الشديدة لتحديد معدلات الأداء، أن العمل الإنسانى ظل ولا يزال وسيبقى دائماً هو المحور الرئيسى للإنتاج وللمستوى الكفاءة الإنتاجية أفقياً ورأسياً، الأمر الذى يجعل قياس معدلات الأداء - كما وكيفا - من العوامل الرئيسة لدفع المبتدئين إلى معرفة مستواهم الحقيقى وتحسينهم وإنطلاقهم إلى آفاق أرحب .

• وضع حد لتفشى معوقات ومشكلات العمل التى تواجه الإعلامى المبتدىء ، وتلافى الأسباب التى تعوق إنطلاقه وإمكاناته فى العطاء ، وهذا يعكس أثره على إقبال الجمهور وإستفادته مما يذاع فى الراديو أو التلفزيون أو يذشر فى صحيفه إذا كانت المؤسسة إعلامية ، وعلى إتساع المشروع وإقبال المستهلكين إذا كان من مشروعات الإنتاج الصناعى أو الخدميات .

• ويهدف قياس معدلات الأداء ليس فقط إلى تحديد مقدار الإنتاج أفقياً ورأسياً أى كمية الإنتاج مع جودته. ولكن أيضاً - إلى تحديد المجالات التى تناسب

الإعلامى المبتدىء دون غيره ، فشكل من الإعلاميين المبتدئين يجد في نفسه المكفأة في فن أو مجال دون غيره أو باباً من الأبواب الصحفية دون غيره .

• كما أن تحديد معدلات الأداء يشجع الإعلامى المبتدىء على تحقيق ذاته وإثبات قدرته في الإنتاج والإشكار والتجويد، والمعروف أن الأغلبية العظمى من المبتدئين الذين يقتحمون العمل الإعلامى ، ينظرون فقط إلى الشهرة الجماهيرية ، ويفكرون كيف يصلوا إلى تحقيق ذلك في أسرع وقت ، بينما ينقمهم الكثير من المعلومات عن نواحي هذا العمل وتفاصيله ومشكلاته والجوانب الفنية فيه .

ثانياً - تهيئة المناخ المناسب لقياس معدلات الأداء :

لن تستطيع المؤسسة الإعلاميه تحقيق أهدافها من وراء قياس معدلات الأداء إذا كانت هناك أوضاعاً غير مناسبة أو مشكلات تؤرق المبتدئين سواء في العمل في الجهاز الإعلامى أو في حياتهم الخاصة ، وهى الظروف والأوضاع السلبية التى يطلق عليها غالبية المفكرين لاسم « المحبطات » تارة أو « منبطات الهمم تارة أخرى »^(١) .

ولكى يكون مناخ قياس معدلات الأداء مناسباً ، فإن هناك مجموعة إجراءات أولية يجب القيام بها قبل الشروع في هذا التحديد أو القياس وهى :

- بحوث عمليات الأداء الإعلامى .
- تحديد ووضع معدلات للأداء .
- رفع كفاءة الأداء الإعلامى .

(١) صلاح الدين عبد الحميد محمد : أثر الإعلام على الكفاية الإنتاجية - رسالة ماجستير غير منشورة مودعة بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ ،

١ - بحوث العمليات : ويتطلب تحديد معدلات الأداء والإنجاز سواء للإعلاميين المبتدئين أو القدامى في ميادين الإنتاج الإبتكارى أو النمطى ، إجراء بحوث العمليات لإلقاء الضوء على هذه الأعمال وخطواتها وظروفها وبيئة تنفيذها والمشكلات التى تواجه الإنتاج أو توقف فى سبيل التجويد فيه ، وبشكل أكثر تحديداً ، يمكن تفسير معنى بحوث العمليات بأنها الدراسة والتحليل العلمى للمشكلات الإدارية والفنية بهدف الوصول إلى الحد الأمثل لتفاعليه الأداء السكلى ، والنهائى للجهاز الإعلامى ، أو فى قسم من أقسامه ، ويطلق العديد من خبراء الكفاية الإنتاجية على بحوث العمليات اسم « دراسات العمل » ، وهما - فى الحقيقة - مسميان لمعنى واحد .

وبداه يقوم مجال بحوث العمليات على أساس تدخل وارتباط الكثير من العلوم فى تشكيل أو اتباع طريقة التفكير العلمى بأساليبها وأدواتها فى دراسة العمليات المختلفة التى تدخل فى الإنتاج النمطى أو الإبتكارى ، وقد أدى هذا المزج إلى بزوغ المدخل المتكامل والمتداخل لدراسة المشكلات السكلى ، ووفقاً لهذا المفهوم يمكن تحديد الخصائص المميّزة التى تتصف بها بحوث العمليات^(١) بما يلى :

١ - وجود مشكلة قائمة ومتفاهة فعلاً تتطلب الحل وإتخاذ القرار المناسب بشأنها ، وحيث أن انتهاء هذه المشكلة سواء بالحل أو بالتدخل من تلقاء نفسها ، لا يستوجب البحث فيها أو الإشارة إليها بعد أن انتهت أو توقف تأثيرها على العمل .

٢ - ارتباط العديد من التخصصات بمشكلة واحدة تتأثر بها بشكل مباشر أو غير مباشر .

٣ - القيام بحل هذه المشكلات من كل مداخلها مهما تنوعت ومهما كان القضاء على جانب منها أو أحد مداخلها صعباً .

(١) د. محمد محمد الهادى : الإدارة العلمية . الرياض سنة ١٩٨٢ ص ٣٣٣ .

٤ - أن يوضع في الاعتبار أن المشكلات المتعلقة بالإنتاج الابتكاري أصعب حلاً من تلك المتعلقة بالإنتاج النطفي، وبذلك فإن المشكلات المتعلقة بمراحل إنتاج برنامج تلفزيوني أو إذاعي أو بمراحل إنتاج صحيفة بدءاً من عمليات الحصول على المادة الصحفية حتى إتمام طبعتها يكون هو المجال الحقيقي هنا لبحوث العمليات .

(٢) تحديد مستويات ومعدلات الأداء :

أما الإجراء الثاني فهو تحديد مستويات ومعدلات الأداء ، ويتم بعده خطوات منها (١) :

١ - تحديد إختصاصات كل قسم تنظيمي من خلال مناقشة المناقشات التالية (هل هي تلك الإختصاصات الواردة في القرار التنظيمي فعلاً أو وفقاً لخطة عامة متغيرة ؟ وما هي الإختصاصات التي يمارسها القسم وتقع في إختصاصات قسم آخر ؟ وما هي الإختصاصات الخاصة بالقسم ويمارسها قسم تنظيمي آخر ؟) .

٢ - تحديد العمليات التي تتم داخل كل تخصص ؛ فكثيراً ما نحوى الوظيفة الواحدة عدة عمليات متكاملة (مخرج يقوم بإخراج فيلم تلفزيوني ، ويقوم بالتصوير أحياناً ، يلقي محاضرات ، يحضر لجان ومؤتمرات .

٣ - دراسة خطوات العمل في كل عملية على حدة وتحليلها للتأكد من أنها تمارس بأبسط طرق العمل ، وتحقيق الإنسياب والتدفق اللازمين ، مما تتفق معه الإختناقات ، ولا خلاف في إن تبسيط الإجراءات والتوصل إلى أبسط الطرق لأداء العمل هي عملية أساسية قبل القيام بقياس الوقت لتحديد الزمن النطفي .

(١) مصطفى كمال خبيس : قياس العمل ومعدلات الأداء - مجلة الإدارة - العدد

الرابع - أبريل سنة ١٩٨٤ ص ٧٢ .

٤- تحديد وحدة الأداء لكل عملية ، وهي - كما سبق القول - أصغر وحدة متميزة يمكن أن يقسم إليها العمل في مجال أو نشاط نوعي معين ، سواء كان إبتكارى أو نمطى .

(٣) رفع كفاءة الأداء الإعلامى :

أما الإجراء الثالث والأخير ، فيتضمن عدة عمليات متداخلة ومتكاملة لرفع مستوى مهارة الإعلامى المبتدىء ، وتساهم كلها في تحقيق أعلى كفاءة له ومنها ما يلى :

فبالنسبة للتدريب على العمل يتم عقد الدورات التدريبية بصفة منتظمة ومستمرة للإعلاميين المبتدئين ومدبرى الأقسام مما يؤدي إلى تحقيق التفاعل بين القائم بالعمل وعمله ، ووضع نظام فعال للإتصالات داخل إدارات وأقسام المؤسسة الواحدة ، مما يؤدي إلى تنمية العلاقات الإجتماعية والإنسانية وتحسينها (١) .

ومن فاحية الرقابة ، فن الأفضل - ما أمكن - الإقلال من استخدام مفهوم الرقابة الداخلية المتعددة على الأقسام المختلفة في المؤسسة الإعلامية ، وفي داخل كل قسم على حدة ، الأمر الذى يدهم حرية التعرف والاستقلال الذاتى والإدارى في العمل (٢) .

ومن فاحية المشكلات التى تطرأ فى العمل ، فيتم إعداد وتقديم استقصاءات دورية للإعلاميين المبتدئين والفنيين والمدبرين ، للقضاء على المشكلات أولا بأول حتى نستطيع التعرف على مدى إدراكهم بأهمية الدوافع ومقدار إشباعها مع مراعاة الدقة والبساطة والوضوح من تصميم الاستبانات .

ومن ناحية ظروف العمل ، يكون من الضرورى توفير الظروف المناسبة للعمل والتي تدفع الأفراد إلى الأداء الجيد من خلال الترتيب المناسب

(١) ، (٢) ، محمد نجيب محمود : دراسة للفروق في إدراك المدبرين لمدونتهم

للالات والمعدات وتوفير درجات الحرارة وتهوية الأماكن .
وأخيراً التدقيق في إختيار القيادات التي تشغل المناصب الإدارية العليا،
ولإسناد الوظائف الرئيسية والمناسبة لهم على أساس المهارة والخبرة (١) .

الظروف المواتية ودوافع تجويد الأداء :

هناك إختلاف كبير بين مفهومى الظروف المواتية لتجويد الأداء
الإعلامى ودوافع تجويد الأداء الإعلامى ، فالمفهوم الأول يتضمن الأسباب
والعلاقات الموجودة في بيئة العمل وتساعد على الأداء الجيد ، أما المفهوم
الثاني وهو دوافع تجويد الأداء . فيتضمن الأسباب الداخلية والنفسية
للإعلامى المبتدىء وغير المبتدىء أيضاً .

وفي مقدمة الظروف المواتية تقف بيئة العمل ، فهو (أى العمل) ليس
بمجرد بذل جهد عقلى أو عضلى للتأثير على الأشياء المادية وغير المادية
المهيطة بالفرد ، ولكنه تفاعل بين الفرد وبيئة العمل ، يحاول الفرد في أثناء
ذلك أن يحقق أهدافه ويشبع رغباته وحاجاته ، وفي أثناء هذا التفاعل
- أيضاً - تنمو وتتكامل شخصيته وتحقق ذاته ويشعر بقيمته الإنسانية (٢)
وفي هذا الإطار يتجه سلوك الفرد إلى وجهات مناسبة سوية تدعم جودة
الأداء وإنجازه ومن ناحية الدوافع ، فإن لكل شخص خواصه وميزاته التي
يفرد بها ، ولكنه - في نفس الوقت - يعتبر كل متكامل وليس مجموعة أجزاء
متفرقة ، وهنا تظهر ضرورة دراسة سمات كل شخص على حدة ، فالفرد هو
الذى يتخذ القرارات وهو المسئول عن العمل باستمرار ، ولذلك فإن دوافعه
وحاجاته النفسية تعتبر عنصراً هاماً في الدوافع التي تؤثر على بيئة العمل

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٢) د. محمد محمد الهادى : الادارة العلمية (مرجع سابق) ص ١٨٠ .

كشكل ، وتنفسم حاجات الفرد النفسية إلى قسمين أولها الحاجة إلى الأمن النفسى التى تدفع الفرد إلى أن يكون موضع حب وعطف واهتمام الآخرين ، وثانيهما الحاجة إلى التقدير والاحترام التى تدفع الفرد إلى أن يكون موضع احترام وتقدير الآخرين^(١) ، ويمكن تحديد الدوافع النفسية الداخلية لدى الإعلامى المبتدىء - ببعض التفصيل - مع التركيز على ثلاثة بينها وبين عمله .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن الظروف والأوضاع السلبية حتى لا نخرج عن إطار هذا الموضوع وخلاصة ما نريد الإشارة إليه هنا ، أنه ما لم يجر العمل على إزالة الأوضاع السلبية فى بيئة العمل . فسوف يكون من الصعوبة إجراء تحديد دقيق لمستويات ومعدلات الأداء ، لأنها - أى هذه الظروف - تعتبر مؤثرات سلبية تؤدي إلى الإخلال بدقة التحديد وموضوعيته ، ولكن حديثنا هو عن الدوافع الداخلية التى يلغى دعمها وتثبيت الظروف الموانية لها ، والتى تتمثل فى مجموعة من الدافع النفسية والاجتماعية والاستقلالية والمالية والأدبية ، وهذه كلها تعمل - بالإضافة إلى ذلك - على دعم الظروف الإيجابية الموجودة فى بيئة العمل للإنجاز والمطاء والتجويد ، ومن ثم قياس دقيق لمعدلات الأداء ، ومن هذه الدوافع الداخلية مايل^(٢) :

١ - الميل إلى الاستقلال :

بحسب حاج المبتدىء إلى احترام وجهات نظره الشخصية وتأكيد أهمية مشاركته فى حدود إمكانياته فى اتخاذ القرارات والحد من المفهوم التقليدى لاستخدام السلطة أو التطبيق الشكلى لمفهوم الرقابة الممنوح للمسؤولين عن التحرير أو الجهة الرقابية ، وتقليل العقبات والبوابات التى يتم من خلالها تنفيذ الرقابة ، التى يفقد الإعلامى المبتدىء حرية التفكير والتصرف ، وحرية معالجة المسائل الفكرية والثقافية .

(١) نفس المرجع ص ١٨١

(٢) محمد نجيب محمود : نفس المرجع ونفس الصفحة

٢ - الميل إلى الثقة والتقدير^(١) :

وهذا يتطلب الإقلال من تدخل رؤساء الأقسام أو كبار المسؤولين من التحرير في أعمال المبتدئ ، إلا في حدود التوجيه والإرشاد ، والحيلولة دون الوقوع في الأخطاء ، وهذا يؤدي إلى ثقة المبتدئ في نفسه واحترامه لذاته ، ويدعم هذا الاتجاه ويقويه ، قدراً متناسباً من التقدير لشخصه ولامية عمله .

٣ - الدوافع الاجتماعية :

وتنحصر هذه الدوافع في الحاجة إلى تعويق الفجوة بين كل من الإعلاميين القدامى والمبتدئين ، وتنمية العلاقات الاجتماعية بينهم والمشاركة الجماعية والمساواة في معاملة المؤسسة لكل منهم ، والتركيز على المساعدات الاجتماعية بصفتهم في بداية الطريق ، وذلك عن طريق النوادي والرحلات والخدمات الأخرى .

٤ - الميل إلى تحقيق الذات :

والسبيل إلى هذا هو إتاحة الفرصة أمام الإعلامي المبتدئ لإظهار مواهبه وقدراته على العمل الخلاق والتجديد والإبتكار ، وهذا يحتاج إلى قدر غير قليل من الإستقلال ، وقدراً من سلطة إتخاذ القرار في حدود صالح وأهداف المؤسسة الإعلامية ، وبطبيعة الحال ، فإن هذا يصحبه قدراً من المساواة التي تناسب مقدار سلطة إتخاذ القرارات .

٥ - الميل إلى الاستقرار في العمل^(٢) :

ويحتاج هذا إلى توفير عدد من المطالب الأساسية ، وفي مقدمتها توفير ظروف وأوضاع العمل المناسب ، وتحقيق الأمان وإزالة مصادر التهديد التي يتخيلها أو يراجلها فعلاً ، وينبني هذا كله على عدة أسس منها : (حق في سرية

(١) د . محمد محمد الهادي : نفس المرجع - ص ١٤٢ - وانظر كذلك د . بكر

القباني : الوجيز في الإدارة العامة - دار النهضة العربية - ص ٢٨ .

(٢) د . محمد محمد الهادي : نفس المرجع ص ١٤٣ .

مصادره - وحقه في نشر وجهات نظره إذا كان طرفاً في قضية أو موضوع تقناؤه وسائل الاعلام - وحقه في الاختلاف في وجهات النظر - وحقه في الدفاع عن نفسه في كافة الظروف - وحقه في ألا يبعد عن عمله بسبب أخطاء خصوصاً الأخطاء غير المقصودة، وحقه في الجزاء الأدبي والمادى نتيجة عمله أو جهده، مع وضوح مبادئ تقييم هذه الحقوق، وأن يكون على أساس موضوعية .

وإذا تحققت كل هذه الرغبات والميول، فإن إمكاناته كلها سوف تنطلق بلا معوقات أو مشكلات مما يترتب عليه أن يكون معدل الأداء لديه طبيعياً ويتم تحديده بدقة وموضوعية .

ثالثاً - متطلبات القياس الدقيق لمعدلات الأداء .

هناك مجموعة من المتطلبات الأساسية لقياس معدلات والأداء الوصول به إلى نتائج دقيقة، ومن الضروري على القائم بالقياس معرفتها، وإيسر هناك اختلاف على إن العمل بلا خطرات أو أسس معروفة أو منهج محدد يؤدي إلى قياس إرتجالي، بوصولنا إلى تحديد غير مضبوط الأداء العمل، والمقصود هنا - أن تضمن الخطوات المتبعة وتسير على أسس ثبتت علميتها وموضوعيتها، وغير هذا سوف يترتب عليه واحدة من ثلاث نتائج هي : (وضع الشخص في غير المكان المناسب - أو حدوث ظلم نتيجة الإستهانة بإمكانات الإعلامى المبتدئ أو المبالغة في تحديد إمكاناته حيث أنه لازال يحتاج إلى مزيد من التدريب والخبرة .

وهذه المتطلبات هي التعرف على الجوانب التالية :

- ١ - طبيعة مصادر المادة الإعلامية ، وهي الجهات التى يقضى فيها الإعلامى المبتدئ وقتاً طويلاً للحصول على مادته الإعلامية ، ويتعامل معها أطول وقت ممكن، وهذا التعامل - كما هو معروف - حتمى، وإلا سببها بالفشل .

فإذا كانت المصادر فيها بعض المشكلات التي تواجه الإعلاميين القدامى وتحول دون حصولهم على ضالتهم ، فما هو الحال بالنسبة للمبتدئين الذين تعوزهم الخبرة والمران ، وكلما كانت هناك بعض الصعوبات أو المخاطر ، فإن هذا يحسب كعامل إيجابي في قياس المستوى كماً أو كيفاً .

٢ - طبيعة المادة الإعلامية التي يتعامل معها المبتدئ ، ولنا هنا بصدد تحديد درجة صعوبة الحصول على المادة ، ولدينا أمام مواد ومضامين لها طبيعة خاصة تجعل من الصعوبة معالجتها للنشر أو الإذاعة . والأغلبية العظمى من المواد المطلوب معالجتها للعرض أو النشر تقدم بصفة أو أكثر من الصفات التي تعوق الإعلاني المبتدئ ، وتجعل من الصعب عليه أداء عمل يفيد الجماهير . ومن هذه الصفات :-

- حساسية المضمون .
- أهمية المضمون وخطورته .
- علمية المادة وضيق نطاق تخصصها أو ندرة المتخصصين فيها .
- تعقد المادة وصعوبة متابعتها جماهيرياً .
- درجة السرية ومحاذير الإفشاء .
- ما تتضمنه المادة من إثارة للجماهير .
- ما تتضمنه المادة من تكدير للسلم والأمن العام .

وهذه الصفات كلها - أو بعضها - ينبغي أن توضح في الحسبان عند اختيار الطريقة المناسبة لتحديد معدلات الأداء ، ولا يفي هذا القول أن كافة المبتدئين من المذيعين والمذيعات أو غيرهم كالأصحفيين لا يتبعون من معالجة المادة بالشكل المناسب ، ولكنه يعني تحديد مستوى الجميع في الأداء وكيفيته بالشكل الذي يحقق أهداف الخطة العامة وقائدة الجماهير في وقت واحد .

٣ - طبيعة الشخصيات أو الضيوف المتماونة ، الشخصيات المتماونة دور كبير في التأثير على معدل أداء المذيع أو الصحفي ، والكثير من المواد تتطلب المعالجة من خلال ضيوف مشرول أو شخصية عامة ، مما يجعل من الضروري وضع هذا في الاعتبار عند تحديد معدل الأداء ، والقليل من الضيوف هم الذين يساعدون المذيع أو الصحفي بما يتوفر لديهم من إمكانيات تؤهلهم لذلك ، ولكن الكثير منهم يتصرف بوحدة أو أكثر من الصفات التي تعتبر مصدراً من مصادر الصعوبات المتناهية لدى المذيع المبتدىء ، كتنوع الضيف رجلاً كان أو إمرأة - المستويات العلمية الثقافية - ونوع التخصص وأهميته ، وهذه الأهمية تتدرج بين رئيس المؤسسة ورجل عادي من عامة الشعب - وأهمية المعلومات أو الاجابات المطلوب الحصول عليها من الضيف بصرف النظر عن أهميته شخصياً - ودرجة الحساسية والتحفظ وكذلك القدرة على التعبير والشرح .

٤ - طبيعة وحدة الأداء نفسها ، ويتأسس تقييم الأداء - أيضاً - على نوعية وحدة الأداء ، وتتفاوت هذه الوحدة من أصغر عمل لا يستغرق سوى دقائق إلى إنتاج أعمال ضخمة لا تقاسها الجماهير ، وتتفاوت وحدة الأداء كذلك بين عمل جزئي متكرر إلى عمل كلي متنوع و متميز من عمل إلى آخر ، ويمكن اعتبار ذلك معياراً يتحدد على أساسه حجم العمل المؤدى أو الجزء المحدد خلال فترة زمنية محددة سلفاً ، ومن الضروري عند تحديد طبيعة وحدة الأداء كأساس لتحديد معدل الأداء ، أن نتحدد مسبقاً ثلاثة جوانب هامة هي :

(أ) تحديد الحدين الأقصى والأدنى للمدة الزمنية التغطية اللازمة للإنجاز .

(ج) تحديد مستوى الجودة اللازمة للإنجاز في حديه الأقصى والأدنى .

(د) تحديد المقدار المسموح به من الوحدات المعيوبه أو التالف

أو الرايشي ، وكذلك القدر المسموح بضياعه من الوقت^(١).

٥ - المستوى الذهني المطلوب ، ومن المهم - عند قياس معدلات الأداء - التفرقة بين الأعمال التي تحتاج إلى قدر أكبر من العمل البدني وقدر أقل من العمل الذهني والعكس ، ونحن نرى أن وضع معدلات واضحة لمستويات العمل الذهني من أجل تصنيفها ، ليس بالأمر المستحيل مع الاعتراف طبقاً - بأن هناك صعوبات كثيرة تقف أمام ذلك ونحتاج إلى تعامل خاص .

٦ - طبيعة تخصص الإعلاني المبتدئ : ويندرج تحت هذا كافة الأعمال التي يقوم بإنجازها في الوقت الراهن ، فهناك أعمال وتخصصات متنوعة تعمل كلها لانجاز برنامج واحد يمكن للمبتدئ أن يعمل في واحدة منها ، وهناك - أيضاً - الأقسام المختلفة التي تعالج فيها المادة كأقسام المذوعات والبرامج السياسية والبرامج الاجتماعية وأقسام الحوادث والتحقيقات والأخبار في الصحف والمجلات ، وهذه كلها اختصاصات تختلف من قسم إلى آخر داخل المؤسسة الإعلامية الواحدة .

وأبداً - معايير تحديد جودة الأداء :

وهذه المعايير الموضوعية لتحديد معدلات جودة الأداء ، إنما هي معايير عامة لكافة خصائص العمل الإعلاني - صحفياً كان أو إذاعياً ، وهذه الخصائص كثيرة ومتنوعة ، منها جودة وقوة التأثير ، وجاذبية الموضوع ، واتساع عدد القراء أو المستمعين أو المتكلمة أو المجواه أن وجدت .

ويمكن الإشارة إلى بعض الخصائص الأخرى التي تساهم في بيان جودة

(١) السيد أحمد الجزوي : مراقبة جودة الإنتاج (طبع في) أساليب رفع الكفاءة الإنتاجية : للطبعة الأولى سنة ١٩٧٠ - ص ١٢٧ .

أو عدم جودة أداء المشتريين في العمل التلفزيوني أو الصحفي كل حسب تخصصه ، وهذه الخصائص تظهر في واحدة من الصور التالية :

* إما لإنجاز العمل الكامل (أو عدد من الأعمال النقطية) في وقت أقل من الوقت المخصص له ، وبهذا تنهى ما كينات وآلات التصوير من عملها قبل الوقت المحدد ، الأمر الذي يتمكن معه المستول من استخدامها في أوامر تشغيل أخرى ، أو إجراء التجهيزات وأعمال الصيانة اللازمة قبل موعدها ، وينطبق نفس القول على العمل في وقت أقل ، ويظهر ذلك بوضوح عند ترجمة هذا الوقت والجهود إلى أموال .

* صورة أخرى... لإنجاز العمل المتكامل (أو مجموعة الأعمال النقطية) مع استنفاد الوقت المحدد كله بنفس الجهد والنفقات ، ولكن الإنجاز يكون بعدد أكبر ، مما يؤدي إلى تغطية مساحة أكبر من العمل بنفس الجهد والنفقات والوقت .

* أيضاً... لإنجاز العمل المتكامل المستهدف (أو الأجزاء النقطية) في نفس الوقت المحدد سلفاً بنفس النفقات المالية ، ولكنه مع توفير في المنصر البشري سواء من الفنيين أو المساعدين .

* كذلك لإنجاز الأعمال المتكاملة (أو الأعمال النقطية المتكررة أو العمليات الجزئية) بحيث تكون مقبولة كلياً من الناحية الإنتاجية أو الزاوية أو التقييمية ، وبحيث لا توجد حالات مرفوضة أو مؤجلة أو توضع في العلب إلى أجل غير مسمى ، ويقف وراء هذه الحالة عدة أسباب لا مجال لها هنا ، وهذه الحالة في المنتجات والسلع الصناعية ، تسمى المعيبة أو المنقوصة أو المكسورة أو غير المقبولة استهلاكياً ، ويمكننا أن نسمى هذه الحالة من من مستوى الجودة في الأداء بإنجاز الأعمال المتكاملة أو المجرؤ مع أقل قدر من المرفوض ، أو عدم وجوده أصلاً ، وهناك معياران رئيسيان يمكن بواسطتهما قياس معدلات الأداء والتعبير عن كفاءة الإنجاز . وهذان المعياران هما :

المعيار الأول - معيار كفاءة الأداء الكلى (١):

وهو النسبة بين المخرجات Outputs (وهى الأعمال المتكاملة التى تم إنتاجها أو الأعمال النقطية المتكررة أو الجزئية) وبين المدخلات Inputs (وهى العناصر اللازمة لإنتاج العمل التلفزيونى أو الصحفي المتكامل مثل النفقات المالية والعمالة الفنية والمواد المستهلكة) ويمكن التعبير عن هذا المفهوم بمعادلة على النحو التالى :

$$\text{معيار كفاءة الأداء الكلى} =$$

المخرجات Outputs = $\frac{\text{التاج النهائى (أى الأعمال المتكاملة أو النقطية أو الجزئية) المدخلات Inputs = النفقات المالية + الجهود البشرية + المواد المستهلكة}}{\text{وهذا المعيار هو معيار كلى لتحديد كفاءة لإنجاز الوحدة الكاملة أو النقطية بالنسبة للجهاز الإعلامى ككل ، أو كل أعضاء فريق العمل معاً ، وبتعبير آخر هو مقياس عام لتحديد معدلات أداء فريق أو هيئة أو مؤسسة ، ولا يصلح لقياس معدلات أداء الأفراد كل على حدة .}}$

المعيار الثانى - معيار كفاءة الأداء الجزئى (٢) :

وهو النسبة بين المخرجات وبين المدخلات كما أشرنا إليها فى المعيار الكلى ، ويمكن التعبير عن مفهوم الأداء الجزئى بالأشكال الجزئية التالية :

$$١ - \text{معيار كفاءة الاستخدام للنفقات أو رأس المال} = \frac{\text{النفقات المالية المنصرفة}}{\text{عدد الحلقات أو عدد الأجزاء}}$$

ويمكن تحديد مستوى كفاءة أداء رأس المال ، والنفقات المالية الأخرى التى تم صرفها على العمل المتكامل أو الأجزاء النقطية ، ويدخل ضمن ذلك المنصرف على النقل والانتقالات والتخزين والتسهيلات وإيجار الأماكن والاستهلاك المياري الأدوات والآلات . وهذا يمكن تحديد معدل أداء فرد واحد أو أكثر بواسطة أساوبه فى الإنفاق ومقارنة ذلك بالحالات الشبيهة السابقة .

(١) مصطفى أحمد جيد : المرجع السابق ص ١٥ .

(٢) نفس المرجع وثلاث الصفحة .

العمل أو الجهد المبذول

٢ - معيار كفاءة أداء العمل = $\frac{\text{عدد الحلقات أو الأجزاء}}{\text{العمل أو الجهد المبذول}}$

ويمكن بهذا المعيار تحديد مستوى الفنيين والموجهين والمساعدين وكفاءة الجهود التي بذلت لإنتاج عمل متكامل (أو جزئيات نمطية) ويبرهنه بمقدار العمل الذي بذل سواء كان القياس يوم / عمل ، أو ساعة / عمل ، أو بالقطعة ، وبهذا الشكل يمكن تحديد معدلات أداء مجموعة أو فريق .

٣ - معيار كفاءة أداء المواد الخام أو المصنعة اللازمة للإنتاج التلفزيوني أو الصحفي .

كمية المواد المستخدمة (سواء خام أو مصنعة)

= $\frac{\text{عدد الحلقات الكاملة أو الوحدات النمطية أو الجزئية}}{\text{كمية المواد المستخدمة}}$

ويمكن بهذا المعيار تحديد مستوى استغلال المواد المستخدمة أو المستهلكة في الانجاز ، ويتم ذلك على أساس حساب نمطى عدد سلفاً من الكميات أو القطع أو العدد المستهلك من الوحدات الخام أو السلع المصنعة التي يحتاج إليها انجاز المسلسل أو (حلقة واحدة) ، وبواسطة هذا المعيار يمكن تحديد جودة أداء فرد واحد أو مجموعة أو فريق .

خامساً - طرق قياس معدلات الأداء (١):

وهذه الطرق - في نظرنا - ماضية إلا أساليب نظرية مقترحة لتحديد وتقييم معدلات إنجاز العمل في الراديو والتلفزيون ، والمتوقع أن تواجهها العديد من الصعوبات عند التنفيذ ، وهي لا تستخدم في كافة الأعمال والتخصصات ولكن في بعض الأعمال النمطية أو التي نشأ بها ، وبالرغم من أنها كانت ولا زالت تستخدم في تقييم مستوى العمل في الإنتاج السلعي وفي تقديم الخدمات ، إلا أن هذا لا يمنع من الاستفادة منها في قياس معدلات أداء العمل في المجال الاعلامي ، واضعين في الاعتبار الطبيعة الخاصة والفريدة

(١) كيث دانفيز : الملوك الإنساني في العمل - دار نهضة مصر للقاهرة سنة ١٩٧٤

ص ٦١٥ - ٦٢٠ .

للمعمل في أجهزة الاعلام المختلفة ومن طرق تحديد معدلات الأداء الطرق التالية :-

١ - طريقة التقدير الشخصي :

تعتمد هذه الطريقة على فهم الرئيس المباشر وإدراكه ومعرفته بتفاصيل العمل نتيجة الخبرة الطويلة في هذا المجال ، أو على الجهة التقييمية أو جهة تقرير الصلاحية ، والواضح أن هذه الطريقة سهلة وميسورة ، وهي المتبعة - تقريباً - في أغلب أجهزةنا الإعلامية .

وطالما أن هذا التقدير يعتمد على التقدير البشري ، فإن الحاجة إلى طريقة أخرى لازالت ملحة وضرورية ، لأن التقدير بتلك الطريقة - فيما خلا الحالات النادرة - يتأثر بالحالة النفسية للقاتم بالتقدير وأوضاعه الإجتماعية ومستواه الإقتصادي وعلاقاته الشخصية وأوضاعه « المازجية » ، وهي كلها مؤثرات سلبية على موضوعية التقدير ومستواه ، سواء بالإستهانة أو المبالغة .

٢ - طريقة الملفات والبيانات السابقة :

تعتمد على وضع معدلات نمطية مسبقه على أساس إنجازات سابقة أجراها الإعلاني المبتدئ أو على معرفة أعمال أخرى تمت فعلاً ، ومن ثم تخصيص عدد من المتوسطات عن هذه الأعمال في فترات متقاربة أو متباعدة ، ثم تحديد معدلات الأداء على هذا الأساس .

٣ - طريقة المدة الزمنية النمطية :

تعتمد هذه الطريقة على المعلومات والبيانات السابقة التي يتم بها تحديد صعوبات العمل وحجمه الحقيقي وتكافئه الواقعية ، ونوهية وإتجاهات وميول القاتمين بإنجاز العمل من فنيين ومساعدین وغيرهم ، وعلى أساس هذه المعلومات يتم تحديد مدة زمنية نمطية يتم خلالها الإقتهاء من العمل بشكل متكامل ، وتحديد المدة الزمنية في هذه الحالة يكون تحديداً تقريبياً حيث يوضع لها حد أقصى وحد أدنى ، وبنفس الطريقة يتم تحديد مدة زمنية تقريبية لإنجاز الأعمال النمطية المتكررة أو الجزئية ، وتحدد لها - أيضاً - حد أقصى وحد

أدنى . وفي الحالة الأولى (المدة الزمنية التقريبية لإنجاز العمل المتكامل)
يمكن تحديد معدلات الأداء للفريق المنوط به لإنجاز العمل ككل ، ويصعب
- كذلك - تحديد معدلات أداء الأفراد كل على حده ، أما في الحالة الثانية
(المدة الزمنية التقريبية لإنجاز الأعمال المنقطعة) ، فيمكن تحديد معدلات
أداء كل فرد على حده أو مجموعة قليلة من الأفراد .

٤ - طريقة الحكم أو العدد المنطقي أو الجزئي :

يتم - بهذه الطريقة - تحديد عدد من الأعمال المنقطعة أو الجزئية التي يوكل
إلى الأفراد أداؤها ، ولا يحدد لها مسبقاً مدة زمنية تقريبية ، ويعطى للشخص
الحرية في المدة الزمنية التي تناسبه بحيث يكون طولها مقبولاً في حده
الاقصى ، وتنتج هذه الطريقة بشكل واضح في تحديد معدلات أداء الأعمال
المنقطعة الصغيرة أو الأعمال الجزئية ، وهي كثيرة جداً ومتعددة ، وتشكل
جزءاً كبيراً من العمل الفني المتكامل ، ولا تصلح هذه الطريقة في ثلاث
حالات هي : (- أنها لا تصلح في قياس معدلات أداء الفريق ككل :
لا تصلح في تحديد مستوى جودة أداء الأعمال الفنية المتكاملة : وأنها
لا تصلح في تحديد معدلات أداء الأعمال التي يطلب عليها الطابع الفكري
أو الذهني) .

٥ - طريقة الملاحظة الشخصية :

وهذه الطريقة مزيج بين طريقتي المدة الزمنية المنقطعة والعدد المنطقي ،
وتعتمد على الخبرة الطويلة للمشرف على العمل ، وكلما حدد المشرف
مدداً زمنياً بمنطوية وعدد نمطى من الأعمال الصغيرة ، فإنه يتنجح نجاحاً كبيراً
في إجراء ملاحظة جيدة يمكن الاعتماد عليها في تحديد دقيق لمعدلات الأداء ،
ومن الضروري - عند استخدام طريقة الملاحظة الشخصية - اتباع ثلاث
خطوات وتسجيلها أولاً بأول وهي :

(أ) تسجيل ملاحظاته عن القائمين بالعمل معه من فنيين ومساعدين وآخرين .

(ب) تسجيل ما يتم إنجازه أولاً بأول بحيث لا يبدأ يوم عمل جديد دون تسجيل مآتم إنجازه من أعمال في اليوم السابق .

(ج) تقدير ما تم إنجازه وفقاً للعدل اليومي أو الأسبوعي الموضوع لإنهاء العمل ، أو وفقاً للخطة الموضوعه .

وهذه الخطوات الثلاث تفيد في عدة جوانب منها تحديد الأعمال المتأخرة عن مواعيد إنجازها وحتى لا تترك على أعمال اليوم الذي يليه ، ومنها تحديد درجة النجاح أو الفشل في إنهاء الأعمال وفقاً للمجدول الزمني أو الخطة الزمنية المحددة مسبقاً لإنهاء الأعمال ، ومنها تحديد الأعمال التي تم إنجازها في وقت قياسي أو في وقت أسرع من الزمن المحدد لها ، ومنها تحديد مسئولية كل فرد على حده أو كل مجموعة على حده ، ومدى تأديته أو قصوره في أداء الأعمال في الوقت المحدد .

نتخلص - في النهاية - إلى نقطتين هامتين ، الأولى - أن تحديد معدلات أداء العاملين في الإعلام وخصوصاً المبتدئين منهم ، يتطلب ضرورة مراعاة مجموعة من الجوانب التي تفيد في تحديد معايير كفاءة الإنجاز من ناحية وتحديد معدلات أداء العمل نفسه من ناحية أخرى ، سواء أكان متكاملأ أو جزئياً أو تعظيماً ، وحتى نصل في النهاية إلى تحديد دقيق لمعدل أداء الفريق ككل أو لكل فرد على حده ، أما النقطة الثانية فهي محاولة لتقنين الجهود التي يبذلها القائمون بالعمل الإعلامي حتى لا تحدث نفقات لا لزوم لها أو تبذير في غير موضعه أو ضياع مستلزمات الإنتاج الإعلامي من خامات أو مصنوعات أو - وهذا هو المهم - ضياع الجهود البشرية واستهلاك معدات التصوير دون فائدة .

قائمة المراجع

- د. إبراهيم أمام : الإعلام والاتصال بالجاهدين - الطبعة الأولى - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٦٩ .
- د. إجلال خليفة : علم التحرير الصحفي : الطبعة الأولى - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٨٠ .
- السيد أحمد الجنزوري : مراقبة جودة الأداء - في كتاب أساليب رفع الكفاءة الانتاجية - (بدون ناشر) - القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- د. جيهان رشتي : الأسس العلمية لنظريات الاعلام - دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٩٧٨ .
- د. حامد عمار : أبحاث في برامج تنمية المجتمع في البلاد العربية - مركز تنمية المجتمع في العالم العربي - مرسى الميناء سنة ١٩٦٢ .
- د. سيد محمد خير الله ، د. سيد مرسى : العلاقات الإنسانية - من إصدارات المعهد القومى للتنمية الادارية رقم ٣٩ - القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- د. سيد محمود الهوارى : الادارة - الأصول والأسس العلمية - الطبعة الرابعة مكتبة عين شمس - القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- د. شاهيناز محمد طلعت : دور وسائل الاعلام في التنمية الاجتماعية الطبعة الأولى ، مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٨٠ .
- د. صلاح الدين عبد الحميد محمد : قياس دور وسائل الاعلام في التنمية : مكتبة عالم الكتب - القاهرة سنة ١٩٨٢ .
- د. عبد العزيز الغنام : إمدخل في علم الصحافة - الجزء الأول (الصحافة العربية) مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٩ .
- د. عبد الوهاب البشرى : نحو مزيد من الكفاءة - مجلة الادارة - المجلد الثالث العدد الثانى ، أكتوبر سنة ١٩٨٠ .

- د. علي السلي : إدارة الأفراد لرفع الكفاية الانتاجية - الطبعة الأولى دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- د. محمد حسن ياسين ، د. مدني عبد القادر هلاقي : وظائف الادارة - معد الادارة العامة بالرياض - الرياض ، سنة ١٩٨٣ .
- د. محمد سيد محمد : إقتصاديات المؤسسة الصحفية ، الجزء الأول مكتبة كمال الدين - القاهرة ، سنة ١٩٧٩ .
- د. محمد سيد محمد : الاعلام والتنمية ، الطبعة الأولى - دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٩٨٥ .
- د. محمد علي العويني : الاعلام الدولي بين النظرية والتطبيق - الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٨ .
- د. محمد محسن أسعد : إدارة شئون الموظفين بالملكه العربية السعودية مجلة الادارة ، العدد الثاني - أكتوبر سنة ١٩٨٤ .
- د. محمد معوض : فنون العمل التلفزيوني - دار الفكر العربي - القاهرة سنة ١٩٨٦ .
- د. محمد محمد الهادي : الادارة العلمية - دار المريخ للنشر - الرياض سنة ١٩٨٢ .
- محمد نجيب صبرى : دراسة الفروق في إدراك المديرين ودوافعهم - مجلة الادارة - العدد الرابع أبريل سنة ١٩٨٤ .
- وليم ل . ديفرز وآخرون : وسائل الاعلام المجتمع الحديث - دار الفكر العربي - القاهرة (بدون تاريخ) ترجمة الدكتور إبراهيم أمام .
- مصطفى أحمد عبيد : مفهوم الكفاية الانتاجية (طبع في) أساليب رفع الكفاية الانتاجية (بدون ناشر) القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- مصطفى كمال نخيس : قياس العمل ومعدلات الاداء - مجلة الادارة العدد الرابع سنة ١٩٨٤ .

مراجع بالإنجليزية :

- Condline E. Frank, Journalism, Teach goursey Books st. Pauls House, London, 1969
- Edward Bliss Jr. & John M. Patterson, Writing News for Broadcast, Columbia University Press, Newyork 1978
- Emery E. and Others, An jutroduction to mass Communi-
cation, Second Edition, Jadia Dodd Meod Compony 1965
- Gene Gilmore & Robert Root, Modern Newspaper Editiny,
Second Edition, Boyed & Fraser Publishing Compony SanFrancisco
1976
- Marshall McLuhan, Understanding Media, McGraw Hill Book
Company, New York, 1964
- Peter Marshall, Improving The Visual News (Papers)
London July 1979
- Ryan, W. S., Network Analysis in forming [The New
Organisation, London HMSO, 1967
- Welbur Schamus. & William L. Rivers., Responsibility
in Moss Communication, Third Edition, Horper & Row Publishers,
New york, 1980
- William L. Rivers, The Mass Media, Second Edition, Harper
& Row Publishers, New york, 1975

نظم المعلومات في المؤسسات الصحفية

بقلم دكتور

سامي عبدالعزيز الكومي

مقدمة :

يهدف هذا البحث إلى التعرف الموجز بنظم المعلومات في المؤسسات المعاصرة عامة ، ونظم المعلومات في المؤسسات الصحفية خاصة ، وما أدى إليه عصر قفجر المعلومات . وتقدم تكنولوجيا المعلومات ، وظهور علم المعلومات من تطور عمل هذه النظم .

ولهذا عرفت بالنظم عامة ، وبنظم المعلومات ونظم المعلومات في المؤسسات الصحفية خاصة ، ثم عرفت بمفهوم كلة المعلومات ومجال عمل علم المعلومات ، والجديد في عمل نظم المعلومات بمراحله الثلاثة في : الحصول على مصادر المعلومات بأنواعها المختلفة (المدخلات) ، وتنظيم وحفظ وتخزين المعلومات (المعالجة والتشغيل) ، واسترجاع المعلومات وتقديم الخدمات المعلوماتية (المخرجات) ، ورجعت في ذلك إلى قائمة من أحدث المراجع للتخصصين في علم المعلومات .

ثم شرحت أهمية الحصول على المعلومات الدقيقة والكافية في رفع مستوى فن التحرير الصحفي في المؤسسات الصحفية ، سواء في تحرير الخبر أو الحديث أو التحقيق أو المقال أو الحملة الصحفية . ودور نظم المعلومات في ذلك ، وكذلك أهمية توفير المعلومات الدقيقة والكافية للمسؤولين عن إدارة المؤسسة الصحفية لاتخاذ القرارات السليمة .

عصر تفجر المعلومات : كثيرا ما يطلق على العصر الذى نعيش فيه الآن عصر تفجر المعلومات Information explosion ويقصد بتفجر المعلومات التزايد الهائل فى نمو وتنوع كل أشكال المعلومات فى هذا العصر (١) .

والاهتمام بالمعلومات قديم قدم الحضارات القديمة منذ خمسة آلاف عام تقريبا حيث احتاج الإنسان والدول على حد سواء إلى إيجاد ذاكرة تجميعية لتسجيل ما يقوم به الفرد أو الدولة حتى يمكن الرجوع إليها فى المستقبل للبرهنة على أفعاله وأفعاله وربطها بالماضى الذى لاغنى عنه ، ويتكاثر المعلومات كل مر السنين ظهرت الحاجة إلى تجميعها فى مستودعات أطلق عليها ألفاظ كثيرة أهمها المكتبة والأرشيف ومركز المعلومات ، وقاعدة البيانات ، وبذلك المعلومات ... إلخ (٢) .

أما بداية الاهتمام الجدى بظاهرة المعلومات المعاصرة فترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر عندما ظهرت الجرائد ونظم الاتصالات من بعد (مثل التلغراف) ، إلا أنه فى الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية بدت تطورات واضحة فيما يتعلق بالمعلومات وتكنولوجياها ، فقد انتشرت وسائل الاتصالات الجماهيرية من تلفزيون وإذاعة وغيرها ، ودخلت الحاسبات الآلية فى معظم أنشطة المجتمع كما انتشرت على نطاق واسع أنواع أخرى من المعلومات المسجلة أو المطبوعة بجانب تطورات النسخ المصغر بالأشكال الميكرو فيلمية والمسكرينش وغيرها .

ويتنبأ الكثيرون بأن العالم سيشهد فيمابقى من هذا القرن ، والقرن الحادى والعشرين نمو لا كبيرا فى تاريخ البشرية بسبب التطورات التكنولوجية

(١) دكتور محمد تقي عبد الهادى : مقدمة فى علم المعلومات ، مكتبة غريب ،

القاهرة ١٩٨٤ م ص ٣٠٠ .

(٢) دكتور محمد عبد الهادى : نظم المعلومات فى النظمت المعاصرة ، دار الشروق

القاهرة ١٩٨٩ م ص ٥٣ .

التي مر بها الإنسان منذ اختراع الآلة البخارية وهي أساس الثورة الصناعية الأولى ، وبزوغ الثورة الصناعية المرتكزة على البترول والكهرباء ، أما حقبة ما بعد الثورة الصناعية فإنها تتمثل في ظهور معالم ثورة المعلومات وما تمثله من تقنيات الحاسبات الآلية والاتصالات والمصغرات الفيلبية التي تتعامل كلها مع المعلومة ، وبدأت معالم هذه الثورة المعلوماتية تتضح وتترادى للبشر وأثرت على الحياة المعاصرة ، كما امتدت آثارها إلى كل أنشطة المجتمع المعاصر ، ويلاحظ أن كل ذلك يختص بالمعلومات كمورد وقوة أساسية أصبحت مصعب أى جهد معاصر وجوهه (١) .

وفي هذا العصر تنوعت مصادر المعلومات وتعددت أشكالها بصورة لم يسبق لها مثيل ، ولم يعد الكتاب هو الوسيلة الوحيدة لنقل المعرفة ، فقد ظهرت إلى جوارهِ الدوريات ، وتقارير البحوث ، والدراسات التي تقدم إلى الندوات والمؤتمرات ، والرسائل الجامعية ، وبراءات الاختراع ، والمعايير الموحدة ، والمراصفات القياسية ، وتقارير تقويم التجارب ، وغيرها ، وظهرت إلى جانب تسجيل المعلومات في صورة مكتوبة لأغراض القراءة وسائل أخرى تنبج إلى سمع الإنسان وبصره مثل الأسطوانة والشرائح والشفافات والصور والتسجيلات الصوتية والمرئية (٢) أى ما تحمله الأوعية غير التقليدية كالأدوات السمعية والبصرية وأوعية التخزين الآلية والإلكترونية من معلومات (٣) .

وقد شهدت القرون الأخيرة تطورا سريعاً ومتلاحقاً في حركة النشر

(١) المرجع السابق ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) دكتور محمد تنحى عبد الهادى : مقدمة في علم المعلومات ، مرجع سابق ،

ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣) دكتور محمد محمد عبد الهادى : نظم المعلومات في المنظمات المعاصرة ، مرجع

سابق ص ٦٠ .

العلمي ، فعندما أنشئت الجمعية العلمية الملكية في لندن سنة ١٦٦١ لم يكن يوجد في العالم أية مجلات علمية ، ومن المحتمل أن يكون عالم مثل نيوتن Newton قد قرأ كل ما كتب ونشر في مجال العلوم في زمنه ، أما منذ ذلك الوقت فإن الكتابات العلمية تتضاعف كل خمس عشرة سنة تقريبا ، أي أن كمية الكتابات العلمية تزايد مائة مرة كل قرن من الزمان ، وبمذه الزيادة المضخمة المتصلة بمخرجات المعلومات ، أصبح من الضروري إعداد أدلة وفهارس وكشافات تساعد العلماء والباحثين والقراء في التعرف على المعلومات في الموضوعات المختلفة التي يريدون الاستفادة منها ، بل إن هذه المهمة أصبحت من الصعوبة بمكان ، إذ تضخم عدد الأدلة والكشافات والفهارس ونما حجمها حتى أن عددها الحالي أصبح يقدر بحجم كل الكتابات أو المعلومات العلمية التي صدرت منذ مائة سنة^(١) .

وتدلنا بعض التقارير . والإحصاءات على صورة تفجر المعلومات الذي تحدث عنه ، ونختار منها مجال الدوريات ، فإن أكثر التقارير تحفظا تشير إلى أنه صدر في العالم ما يزيد على ٩٠٠.٠٠٠ دورية مطبوعة أو شبه مطبوعة . وأن ما يصدر كل عام بدور حول ٥٠٠.٠٠٠ دورية على المستوى العالمي ، وأن معدل الزيادة السنوية في عدد الدوريات يصل إلى حوالي ١٥.٠٠٠ دورية^(٢) .

وشهدت السنوات الأخيرة انفجارا هائلا في حجم ما يطبع وينشر في كل مجال من المجالات المتخصصة ، وعلى سبيل المثال فإن محرر باب العلوم في الصحيفة عليه أن يقرأ كل عام ما يزيد على مليون مقالة نشرت في الدوريات العلمية والتكنولوجية^(٣) . وهذا المليون هو فقط حصر للمقالات التي تحتوى

(١) محمد محمد الهادي (دكتور) : نظم المعلومات في المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦١ .

(٢) شهبان عبد العزيز خليفة (دكتور) : الدوريات في المكتبات ومراكز المعلومات ، الربيع للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٠ ص ٣٥-٣٦ .

على معلومات وأفكار جديدة غير مكررة ، وإلا ل زاد العدد بكثير وقد فرض ذلك على المكتبات ومراكز المعلومات ليس فقط تطوير النظم التقليدية من تزويد وفهرسة وتأليف ورؤوس موضوعات وخدمات بيبليوجرافية ، بل برزت إلى الوجود خدمات جديدة مثل خدمة التوثيق وخدمة البث الانتقائي للمعلومات بهدف توفير المعلومات المطلوبة لأغراض محددة في الوقت المناسب .

كما استخدمت أفضل النظم لحفظ واسترجاع المعلومات ، وذلك من خلال الوسائل التقليدية أو غير التقليدية كتلك التي تستخدم الحاسبات الاليكترونية ، وليست بنوك المعلومات التي تمتد في شبكات متكاملة من التنسيق والتعاون عبر العالم كله ، إلا وسائل حديثة استخدمها المؤثقون لإعداد المعلومات وتكثيفها واسترجاعها بواسطة الحاسبات الاليكترونية حتى يستطيعوا الوفاء بأغراض خدمة المعلومات على أكفأ المستويات (١) .

ويرى علماء الاقتصاد السياسى أن الثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة تتمثل في ثلاثة مجالات رئيسية هي ثورة تكنولوجيا المعلومات ، وثورة التكنولوجيا الحيوية ، وثورة تكنولوجيا المواد ، ويرون أن ثورة تكنولوجيا المعلومات تتعلق بجمع وتوصيل وتخزين واستعادة ومعالجة وتحليل المعلومات ، وتقوم على الربط بين التكنولوجيا المبنية على الاليكترونات الدقيقة وصناعة المعلومات وتتصف تكنولوجيا الاليكترونات الدقيقة بسمات أهمها أنها ذات كثافة علمية شديدة ، كما تتميز بشدة كثافة رأس المال فيها ، وبتركيز شديد على النطاق العالمى (٢) .

ونظرا لحقيقة أن المعرفة الإنسانية تتضاعف كل ثمانية إلى عشرة أعوام ،

(١) محمد تنحى عبد الهادى (دكتور) وآخرون : مراكز المعلومات الحديثة ،

دار المريخ الرياض د . ت ص ٧ .

(٢) فؤاد مرسى (دكتور) : الأساليب الجديدة تقسمها ، عالم المعرفة ، الكويت

فإن هذه الظاهرة قد قادت إلى أهمية التشغيل الذاتي ، وأهمية الأوتوماتية في معالجة المعلومات ، ومن هذا الاندماج التدريجي بين تكنولوجيا الاتصالات وتكنولوجيا الحاسبات فظهرت تكنولوجيا المعلومات ، وقامت النظم الحديثة للمعلومات بإحلالها مكان طاقات هائلة على التخزين والمعالجة والنقل ، وأتاح ذلك وسيلة سريعة لعدد متزايد من الناس والمؤسسات في مجال البحث عن المعلومات ، وهكذا أصبحت المعلومات موردا اقتصاديا في حد ذاتها ، تتطلب مستوى هائلا من الكفاءة حتى يمكن جمعها ومعالجتها ، وبشأ مرة أخرى بعد أن تمت معالجتها ، بحيث توضع في صورة مناسبة للمستخدم النهائي لها : لصناع القرارات والمخططين والباحثين والعلماء والجمهور العريض المتلقى للمعلومات . وأصبحت المعلومات سلعة جديدة لها سوقها الواسعة عمليا وعالميا ، وفي الولايات المتحدة فإن حصة قطاع المعلومات وصلت إلى ٥٢٪ من الناتج القومي في عام ١٩٨٠ ، ومن المتوقع أن تصل إلى ٨٠٪ عام ١٩٩٠ ، كما أن ما حققته الشركات العاملة في مجال الحاسبات ونظم وسائل الاتصال من أرباح يمثل ٤٣٪ من إجمالي أرباح الشركات الأمريكية طبقا لبيانات عام ١٩٨٠ ، ويتوقع أن يصل حجم مبيعاتها إلى ٢٥٠ مليار دولار عام ١٩٩٠^(١).

مشكلة المعلومات وظهور علم المعلومات :-

أصبحت ظاهرة تفجر المعلومات مشكلة رئيسية تواجه الإنسان المعاصر ، وإذا كان أساس هذه المشكلة هو الكم الهائل الذي ينشر من المعلومات ، فإن هناك عناصر أخرى لهذه المشكلة ، منها التفتت أو التخصص المتزايد في العلوم ، وما سببه من تشتت كبير في الإنتاج الفكري الذي يحتاجه الباحث المتخصص ، وتنوع أشكال النشر العلمي ، وتزايد عدد اللغات التي تنشر بها المعلومات المفيدة ، والتكاليف المتزايدة للنشر ، وما نتج عنها من ارتفاع

(١) نؤاد مرسى (دكتور) الراسالية نجدد نفسها ، مرجع سابق ص ٣٨-٣٩.

كبير في أسعار المطبوعات ، وتأخر بث المعلومات خلال قنوات الاتصال الرسمية .

وفي مواجهة مشكلة تفجر المعلومات هذه بذل الإنسان محاولات للتعرف على المعلومات وأختيارها ، وتجهيزها وتخزينها واسترجاعها وبشأ بنية الاستفادة القصوى منها ، كما اتجه إلى دراسة كيفية اتصال الإنسان بزميله مهما بعد الزمن والمكان ، ومحاولة اكتشاف طرق وأساليب أفضل للحصول على المعلومات المناسبة للشخص المحتاج إليها .

وقد أدى هذا التطور في تفجير المعلومات والحاجة إليها وتغلغلها في كل جوانب حياة الإنسان إلى ظهور علم المعلومات ، وإن كانت قد سبقه في الظهور تاريخيا ، علم المكتبات ، و (التوثيق) و (استرجاع المعلومات) و (التنظيم البليوجرافي) ، التي تفاعلت مع علوم أخرى متعددة ، مع الاستفادة بكل من (نظرية المعلومات) و (السيبرناتيقا)^(١) .

وقد وضعت تعريفات كثيرة لعلم المعلومات ، بعضها يختصر وبعضها مفصل ، وبعضها يحاول تلافى القصور في البعض الآخر ، ولسنا في مجال يسمح بالمقارنة بين هذه التعريفات ، ولكننا نختار منها تعريفا نرى أنه جامع لسكل سمات هذا العلم ، وهو التعريف الذي قدمه الأستاذ روبرت تايلور R. Taylor عام ١٩٦٧ في خطابه الذي وجهه لأعضاء مكتب التوثيق الأمريكي American Institute of Documentation يقول فيه إن « علم المعلومات هو العلم الذي يبحث في خصائص وسلوك المعلومات ، والقوى التي تتحكم في عملية نقلها ، والتكنولوجيا الضرورية في معالجتها ، بنية الوصول المباشر والاستخدام الأمثل للمعلومات ، ويشتمل اهتمام علم المعلومات على تمثيل المعلومات في كل من النظم المادية والاصطناعية ،

(١) أنظر : محمد تيمى عبد الهادى : مقدمة في علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٥٥ ، ومحمد عبد الهادى : نظم المعلومات في النظرات المعاصرة ، مرجع سابق

واستخدام الرموز أو الشفرات في ارسال وتخزين وطلب الرسائل بفعالية ،
ودراسة أساليب ووسائل معالجة المعلومات المتمثلة في الحسابات الآلية ونظم
برمجتها . . كما أن علم المعلومات يمثل محالا من مجالات المعرفة الذي يتداخل
مع غيره من العلوم الأخرى ، فيرتبط بالرياضيات ، والمنطق ، واللغويات ،
وعلم النفس ، وتكنولوجيا الحاسبات الآلية وبمحوث العمليات وعلم
المكتبات ، والاتصال ، والإدارة ، وغيرها ، كما يشتمل علم المعلومات على
مكونات كل من العلوم البحتة التي تقدم تساؤلات في الموضوع دون الدخول
في التطبيقات ، والمعلوم التطبيقية التي تسهم في تطوير الخدمات والمنتجات (١) .

وقد لاقى هذا التعريف قبولا لما أدى إلى تغيير اسم معهد التوثيق الأمريكي
إلى الجمعية الأمريكية لعلم المعلومات American Society of Information
Science (ASIS) وأدى إلى انتشار مفهوم المعلومات بهذا الشكل .

مفهوم (المعلومات) ومفهوم (نظم المعلومات) : - نتناول
بالشرح في هذا الجزء مفهوم كلمة (المعلومات) ومفهوم (النظام) عموما
(نظم المعلومات) بصفة خاصة ، ثم نصل إلى الحديث عن (نظم المعلومات)
في المؤسسات الصحفية والاتجاهات الحديثة في أدائها لوظائفها .

مفهوم المعلومات : - المعلومات هي الأفكار والحقائق عن الناس
والأشياء . . الخ ، أو هي أية معرفة تسكسب من خلال الاتصال أو البحث
أو التعليم أو الملاحظة (٢) .

أو أن المعلومات هي البيانات التي تمت معالجتها لتحقيق هدف معين
أو لاستعمال محدد ، لأغراض اتخاذ القرارات ، أي البيانات التي أصبح لها

(١) محمد محمد الهادي (دكتور) نظم المعلومات في المنظمات المعاصرة . مرجع

سابق ص ٦٤ .

(٢) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) مقدمة في علم المعلومات ، مرجع سابق

ص ١٣ .

قيمة بعد تحليلها أو تفسيرها أو تجميعها في شكل ذي معنى والتي يمكن نداؤها ونسجتها ونشرها وتوزيعها في صورة رسمية أو غير رسمية وفي أى شكل^(١).

وهناك تعريف للمعلومات يهتم بالاختلاف بين كلمة (المعلومات) وكلمة البيانات المستخدمتان بطريقة مترادفة في كثير من الأحيان ، إلا أنهما مختلفان في المعنى ، وإن كانتا ترتبطان بها في مستوى المضمون ، على أنه يمكن تعريف كل من اللفظين على النحو التالي :

(١) البيانات : أو المعطيات وهي مشتقة من كلمة (بين) ومنها (البيان) أى ما يبين به الشيء من الدلالة وغيرها^(٢) ، وهي ما يطلق عليه باللغة اللاتينية (Datum) والتي استخدمت في اللغة الإنجليزية كما هي ، بينما تستخدم في اللغة الفرنسية (Donnée) ، وتميز عن الأرقام والكميات والرموز والحقائق أو الإحصاءات الخاتم التي لا علاقة بين بعضها وبعض ، ولم تفسر أو تستخدم بعد ، أى ليس لها معنى حقيقى ، ولا تؤثر في رد فعل أو سلوك من يستقبلها. أى أن البعض ينظر إليها فيما يتصل بعدم تقويمها ، بينما يعرفها البعض الآخر بأنها غير منتظمة ، كما يعرفها فريق ثالث بأنها غير مفهومة ، وبذلك فإن البيانات هي الحقائق أو الرسائل أو الإشارات غير المفهومة ، وغير المنتظمة ، وغير المفهومة .

(ب) أما المعلومات فينظر إليها على أنها بيانات قومت ونظمت وفسرت بنية الاستخدام ، أى أصبح لها مضمون ذو معنى معين يؤثر في الاتجاه ورد

(١) أحمد الشامى ، وسيد حسب الله (دكتور) : المعجم الموضوعى لمصطلحات المكتبات والمعلومات ، دار المربخ ، الرياض ١٩٨٨ ص ٥٦٩ .

(٢) مختار الصحاح : محمد بن بكر عبد القادر الرازى ، وتصحيح محمود خاطر

ط ٥ ، المطبعة الأميرية ١٩١٦ ص ٤٥٢ .

الفعل والسلوك^(١) . ومن ثم تكون البيانات هي المادة الخام التي تصنع منها المعلومات .

نظم المعلومات في المؤسسات العامة والمؤسسات الصحفية :

أولا - معنى النظام بصفة عامة : يعرف النظام « أو النسق » System في قاموس علم الاجتماع بأنه : تنظيم ينطوى على أجزاء مترابطة تتميز بالاعتماد المتبادل ويشكل وحدة واحدة ، هي أن النسق يعتبر نموذجا تصوريا يستخدم لتفسير غص الظواهر المعقدة وتحليلها . وعلى الرغم من أن النسق يمثل تجريدا من نسق أكبر منه ، إلا أنه يعالج كالأولم يكن جزءا من كل ،^(٢) .

أما علماء الإدارة فإنهم يقدمون التعريف التالي للنظام : د يشير لفظ نظام إلى العلاقات الوظيفية التي تربط مجموعة أجزاء أو وحدات بفرض التوصل إلى أهداف معينة ، هذه الأهداف هي مبرر وجود النظام ، فثلا الإنسان الفرد يعتبر نظاما ، والحيوان من حيث هو كائن حي يعتبر نظاما أيضا ، والمنظمة مهما كان نوعها أو حجمها تعتبر نظاما .

د وكل نظام يتكون من عدة أنظمة فرعية ، وفي الوقت نفسه هو نظام فرعي في نظام أكبر وأشمل ، ويتمحق أهداف النظام من خلال عملية منظمه لقبول مدخلات وإنتاج مخرجات بحيث تتفاعل أجزاء النظام الفرعية وتبادل التأثير مع النظام الأكبر ، وتتواءم أهداف النظام مع النظم الأخرى في البيئة المحيطة ،^(٣) .

(١) محمد محمد الهادي (دكتور) : نظام المعلومات في المنظمات المعاصرة ، مرجع

سابق ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) عاطف فيت (دكتور) قاموس علم الاجتماع ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة

١٩٧٩ ص ٤٨٠ .

(٣) صالح سلطان (دكتور) نظم المعلومات ومجتمع المعلومات ، مذكرة غير

منشورة ، أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ، د . ت . ص ١ .

(٤٩ - مجلة الغنة)

وبناء على المفهوم السابق تتحدد الخصائص المميزة للنظام .
خصائص النظام :-

١ - أن النظام ينشأ بقصد تحقيق هدف أو أهداف معينة ، وهذا يعني أن وجوده مقصود ووفقا لخطة ، سواء كان نظاما مخلوقا أو نظاما مصنوعا .
٢ - أن النظام يتكون من عدة أنظمة (أجزاء) فرعية ، وهو جزء من نظام أكبر .
٣ - أن كفاءة وفعالية النظام يتوقفان على كفاءة وفعالية النظم الفرعية المكونة له .

٤ - أن النظام مفتوح يتفاعل مع النظم الأخرى في البيئة المحلية ويتبادل التأثير معها .

٥ - النظام يحقق التكيف وال ضبط الذاتي من خلال ما يسمى بارتداد الأثر أو التغذية المرتدة .

٦ - يتميز النظام بالديناميكية ، أو قابليته للتغير وفقا لتغير الظروف المحيطة ، وهذا يحتم مراجعته وتقييمه من آن لآخر لإجراء التعديلات التي تحقق التوازن والمواءمة مع ما يحدث من تطور (١) .

ثانيا : نظام المعلومات : Information System بصفة عامة هو نظام يمكن من تجهيز وتوصيل المعلومات ، أو هو إجراء منظم لتجميع المعلومات الموثقة وتخزينها واختزانها واسترجاعها لارضاء حاجات متنوعة (٢) .

وترجع أهمية إنشاء نظم معلومات في المنظمات الحديثة إلى أن هذه المنظمات تتميز باتساع مجالات نشاطها ، وضخامة حجم العمليات وعدد العاملين ، بالإضافة إلى تشابك العلاقات مع كثير من العملاء والموردين

(١) المصدر السابق ص ٢ .

(٢) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) : مقدمة في علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٣٠٥ .

والمنظمات الحكومية المختلفة ، لسبب هذا تصبح قنوات تدفق المعلومات غير الرسمية غير مناسبة لتوفير المعلومات اللازمة لإنجاز الأنشطة بالكفاءة المطلوبة ، ولهذا تبرز الضرورة الملحة لوجود هيكل منظم لتداول المعلومات يتم تصميمه وفقا لفلسفة أنه أداة لخدمة الإدارة لتحقيق الأهداف المرسومة .

ونظام المعلومات في حد ذاته نظام لإنتاج المعلومات من خلال القيام بتحويل البيانات التي يتم جمعها والحصول عليها من مصادرهما المختلفة إلى تقارير معلومات بحيث توضع تحت تصرف المسؤولين في مراكز اتخاذ القرارات أو تستخدم كدخلات لنظم معلومات أخرى .

وهكذا يمكن القول إن نظام المعلومات هو ذلك التنظيم الذي يحكم نقل المعلومات من منتجها إلى المستفيدين منها ، وعموما فإنه ينبغي على نظام المعلومات أن يرسى إلى ثلاثة متطلبات أساسية هي :

١ - أن يكون قادرا أن يعلم أو ينهي المستفيد أين يجسّد المعلومات التي يريد ها .

٢ - أن يكون النظام قادرا على نقل هذه المعلومات له عندما يقرر أنه يرغب فيها .

٣ - أن يرد على أسئلة المستفيد في إطار حدود الوقت الذي يراه المستفيد من المعلومات مناسبة .

وقد اكتسبت نظم المعلومات أهمية كبيرة في المجتمعات المتقدمة والناامية على حد سواء لما لها من دور مدروس في إنجاز عمليات التخطيط والتنمية على أحسن وجه ممكن ، ونظام المعلومات في أي مجتمع إنما هو بمثابة الجهاز العصبي في جسم الإنسان فيقدر قوة النظام وسلامته واستقامته قنواته بقدر ما تتوفر لهذا المجتمع مقومات القوة والإزدهار^(١) :

(١) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) مقدمة في علم المعلومات مرجع سابق .

ثالثاً : نظام المعلومات في المؤسسات الصحفية :

وإذا كان التعريف المذكور لنظام المعلومات ينطبق على نظم المعلومات في المؤسسات بصفة عامة ، فإننا يجب أن نفرق بين نظام المعلومات في مؤسسات إنتاج السلع والخدمات في المجتمع وبين نظام المعلومات في المؤسسة الصحفية .

فإذا كانت مؤسسة ما في المجتمع تقوم ببيع سلعة أو خدمة فإن نظام المعلومات فيها يميل إلى التخصص في إنتاج المعلومات المتعلقة بهذه الخدمة أو الخدمة ، معلومات عن حاجة المستهلكين إليها ، المؤسسات المنافسة في الإنتاج ، حجم الإنتاج المطلوب ، التطورات التي تحدث في إنتاج هذه الخدمة في المؤسسات الأخرى على مستوى الدولة والعالم ، بيانات نوعية عن جمهور العاملين في المؤسسة ، وميزانيتها وعملاتها ومنافسها وأسواقها ، وعلاقاتها المختلفة وغير ذلك .

وإذا كان نظام المعلومات في أية مؤسسة يخدم هذه المؤسسة في مجال نشاطها الذي تخصصت فيه في المجتمع ، فإن نظام المعلومات في المؤسسات الصحفية يتميز بالشمول الذي يناسب شمول نشاط المؤسسة الصحفية والذي يقوم على الاختيار والمعلومات والأفكار . إن المؤسسات الصحفية وبخاصة تلك التي تصدر مجلات وجرائد عامة - تهتم بالإعلام والثقافة بالمعنى الشامل في المجتمع كله ، ومن ثم بكل أنواع النشاط الإنساني في المجتمع ، ومن ثم فإن نظام المعلومات في المؤسسات الصحفية ينبغي أن يمتد ليشمل ذلك كله أيضاً . فيكون قادراً على إمداد المستفيدين - وهم الصحفيون بخاصة - بمعلومات عن كل أنواع النشاط الإنساني ، والمعرفة الإنسانية ، والقضايا المطروحة كل في مجال تخصصه وإهتمامه في عمله الصحفي .

= ص ١٩٢ وحشمت قاسم (دكتور) نظم تخزين المعلومات واسترجاعها ، المنظر العربية للدواصفات والقياس القاهرة ١٩٧٨ ص ٢ .

تقدم تكنولوجيا المعلومات ونظم المعلومات الصحفية : لانهى هذا إلى شرح عمل نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية سواء منها النظم التقليدية أو تلك التى أدت تكنولوجيا المعلومات إلى تطويرها ولكننا نحاول أن نبين أثر تقدم تكنولوجيا المعلومات فى عمل نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية ، خاصة بعد ما ذكرناه من تفجر المعلومات وزيادتها وزيادة هائلة ، وكيف أثر هذا التقدم على عمل هذه النظم فى المراحل الآتية :

١ - طرق الحصول على البيانات من مصادرها ، وأنواع هذه البيانات ، واختيارها (مدخلات النظام) .

٢ - معالجة البيانات أو تشييلها أى تحويلها إلى تقارير معلومات بالإضافة إلى عمليات الفهرسة والتصنيف والتكشيف والحفظ والتخزين .

٣ - خدمات المعلومات ، الاسترجاع ، والبحث الاتقائى ، وإجابة الاستفسارات ، ونقل وتوصيل المعلومات إلى المستخدمين (مخرجات النظام) .

أولاً : الحصول على البيانات : تتم وظيفة تجميع المعلومات من مصادرها المختلفة والمتنوعة المهمة الأساسية الأولى التى على أساسها بنيت نظم المعلومات المعاصرة بأشكالها وأبعادها المختلفة والمؤسسات الصحفية من المنظمات المعاصرة التى تمكثب فيها المعلومات أهمية قصوى فى العمل الصحفى والعمل الإدارى على السواء .

وتنقسم مصادر المعلومات فى مراكز المعلومات الصحفية إلى المجموعات التالية :

١ - مجموعات القصاصات والصور والخرائط والنشرات .

٢ - مجموعات المراجع والمكتب والدوريات (والمقصود بالمراجع فى نظم المعلومات الصحفية تلك التى تعتمد عليها فى مراجعة تصحيح أسماء

الأشخاص والأماكن والدول والنوازل والأرقام ، مثل الموسوعات ، ودوائر المعارف ، والقواميس اللغوية ، ومراجع المصطلحات ، والقوائم البيولوجية جغرافية ، والكشافات ، ونشرات المستخلصات ، والموجزات الإرشادية ، ومختصرات الحقائق ، والأطالس ، وأدلة الأفراد والهيئات والجدول الإحصائية ، وكثيراً ما يكون لهذه المراجع قسم خاص في مركز المعلومات .

٣ - مجموعات المواد السمعية والبصرية والمواد الميكروفيلمية .

والواقع أن مراكز المعلومات في المؤسسات الصحفية تواجه سيلاً لا ينقطع من المواد ، وعليها أن تختار منها ما يتوافق مع سياسة مرسومة ، وما يمكن أن يحقق أهدافها في الوقت الحالي فقط ولكن للمستقبل أيضاً . حيث أن المفاجآت في العمل الصحفي كثيرة ولا تتحمل الانتظار (١) .

وتضع الصحف عدداً من القواعد لاختيار هذه المواد منها : جودة المعلومات وطرافتها ، وملاءمتها للاستخدام ، والحاجة إليها ، وتجنب التكرار ، وخطوط الحفظ وسياسة الاستهلاك (٢) . وتشعر مراكز المعلومات بمسئوليتها عن توفير المعلومات اللازمة للعمل الصحفي فتلجأ إلى وسيلة أسهل الثمرات الموجودة لديها وترسل مندوبيها للبحث عن المعلومات في مصادرها المختلفة ، كما تصمم نماذج ترسلها للاستكمال لكي تضمن أنها تحصل على البيانات الضرورية .

وقد تطورت وسائل تزويد نظم المعلومات الصحفية بالمعلومات تطوراً كبيراً بظهور ما يعرف بالمرافق البيولوجرافية *Bibliographic Utilities*

(١) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) . مراكز المعلومات السمعية ، مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢) أبو الفتح حامد عودة : تنظيم المعلومات السمعية في الأرشيف والمكتبات . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٠ ص ٢٠ .

وهي مرافق يمكنها أن توزع مختزناتها من المعلومات في وقت واحد في مواقع عديدة قد تبلغ الآلاف ، وعلى بعد مسافات كبيرة قد تصل إلى إلى مئات الأميال أو الآلاف ، وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنها توزع المعلومات على المستفيدين بالطريقة نفسها التي تقوم بها المرافق الأخرى المألوفة في توزيع الماء والغاز والكهرباء .

وهذه المرافق استطاعت أن تستخدم ، عطيات تكنولوجيا الاتصالات السلكية واللاسلكية لتعزج فيها بين استخدام التليفون والمفاكس ، وكابلات الميكروويف ، والأقمار الصناعية ، والنهايات الطرفية لأجهزة الحاسب الالىكترونى في إرسال المعلومات المخزنة واستيعابها عبر مسافات بعيدة داخل الدولة الواحدة وخارجها^(١) ، وهذا التطور الحديث في الحصول على المعلومات سوف يكون له تأثير في المستقبل القريب على كل مراكز المعلومات في المؤسسات الصحفية .

ثانيا - تنظيم المعلومات وتحويلها والمعالجة الفنية لها : ونقوم على ثلاثة محاور رئيسية هي : الفهرسة والتصنيف والتحليل الموضوعى أو التشفيف ، ولقد كانت هذه العمليات ورقية منذ عرفت فنون الفهرسة والتشفيف ، ولكنها أصبحت إلكترونية في السنوات الأخيرة حين استخدم فيها الحاسب الالى .

وقد حفلت الأبحاث العربية في الأرشفة والمكتبة الصحفية التي ظهرت منذ ستينات هذا القرن بشرح عمليات الفهرسة والتصنيف والتشفيف ويمكن الرجوع إليها في ذلك .

(١) - د محمد المجرى (دكتور) : الكتب وبنوك المعلومات ، وقائع الحاضر ونقائم المستقبل ، القاهرة ، مجلة عالم المكتبات ، يوليو ، أغسطس ، سبتمبر سنة ١٩٨٤ ، ص ٢ .

وفي نظم المعلومات في المؤسسات الصحفية هناك فئتان من الذين يتعاملون مع هذه الفنون المذكورة : الذين ينشئونهم وأخصائيو المعلومات العاملون في نظام المعلومات في المؤسسة الصحفية وهؤلاء يفترض فيهم أنهم قد درسوا الفهرسة والتصنيف دراسة منهجية ، والفئة الثانية وهم الصحفيون وغيرهم من العاملين في المؤسسة وهؤلاء يحتاجون إلى تدريبهم على هذه الفنون وعلى غيرها مما يقدم في تعاملهم مع نظام المعلومات .

وهناك طريقتان للتعامل مع المستخدمين للمعلومات في نظم المعلومات في المؤسسات الصحفية هما طريقة النظام المغلق وطريقة النظام المفتوح .

فالنظام المغلق يحد واجهة لإستقبال مستخدمي المعلومات يجلس عليها واحد أو أكثر من أخصائيي المعلومات يلبيون طلبات المستخدمين ومن ثم لايسمح لمستخدمي المعلومات باستعمال الفهارس أو الجداول داخل مركز المعلومات حيث يلبي الأخصائيون في المركز طلباتهم فقط .

والنظام المفتوح ، وفيه يسمح لمستخدمي المعلومات إستعمال الفهارس وإستخراج المعلومات بأنفسهم ، وتعد فيه مقاعد ومناضد لجلوسهم للحصول على المعلومات من الملفات وغيرها .

وعلى أية حال فإنه حتى في النظام المفتوح ، فإن بحث مستخدمي المعلومات عن متطلباتهم ينبغي أن يكون تحت إشراف أخصائيي المعلومات في المركز ، وينبغي - أيضاً - أن يكونوا على استعداد لتقديم العون لمستخدم المعلومات بالدقة والسرعة اللازمين .

وللمركز المفتوح ميزات يتفوق بها على المركز المغلق ، لأن تجربة البحث عن المعلومات في حد ذاتها تفتح أمام الصحفي آفاقاً جديدة ، وتثرى عمله الصحفي ، وتكون لديه انبعاثاً للحصول على المعلومات والإستفادة منها

يتمتع معه دائماً ، والقنوات المفتوحة - بصيغة مستمرة - بين العمل الصحفي
ومركز المعلومات في المؤسسة الصحفية نرفع من مستوى العمل الصحفي وتجعله
أكثر دقة ومنافسة للعمل الصحفي في المؤسسات الصحفية الأخرى ، ويمكن أن
يساهم في تحقيق ذلك ما يلي :

١ - تدريب مقرر دراسي عن « نظم المعلومات في المؤسسات الصحفية »
لطلاب الصحافة في الجامعات .

٢ - تدريب الصحفيين على التعامل مع نظم المعلومات في المؤسسة
وكيفية الاستفادة منها وتدريبهم بما تختزنه من معلومات تفيدهم كل في
مجال عمله .

وأهم التطورات الحديثة في تنظيم المعلومات وتحليلها ومعالجتها فنيا تتمثل
في استخدام الحاسب الآلي في هذه العمليات وفي استخدام المصنرات القلبية
حيث تتحول عمليات حفظ وتخزين المعلومات من الأوعية الورقية إلى
الأوعية المقروءة آلياً بواسطة الكمبيوتر وإلى المصنرات الفلمية .

فالمكتبات ومراكز المعلومات في الحاضر والمستقبل ستفصح داخلها
مكافئاً النهايات الطرفية ذات الاتصال المباشر On Line (١) بقواعد البيانات
المحلية والأجنبية على حد سواء ، وسيتحول أخصائيو المعلومات والتوثيق
وأمناء المكتبات وغيرهم من القيام بالمهام التقليدية إلى الوظائف الأساسية
الجديدة التي يقوم فيها الكمبيوتر بالدور الأساسي لإعداد العقل البشري في
إنتاج المعلومات .

(١) الاتصال المباشر On Line هو ربط مستفيد على بعد بالحاسب الآلي المركزي
من خلال وسيلة اتصال مستمرة . انظر : محمد فتحي عبد الهادي : مقدمة في علم
المعلومات ، مرجع سابق ص ٢٩٩ .

ومن المتوقع أن يكون لقواعد البيانات (١) دور هام في تدعيم الرسالة التي تصطبغ بها مراكز المعلومات والمكتبات فيتوفر حالياً عدد ضخم من قواعد المعلومات التي تستخدم الكمبيوتر وتوفر خدماتها لمستخدمي المعلومات بتكاليف غير باهظة ، بل إن إحدى مؤسسات خدمات المعلومات وهي شركة Dialog Information Service Inc في الولايات المتحدة الأمريكية توفر مئات من قواعد البيانات التي يمكن الوصول إليها من بعد من جميع أنحاء العالم .

وبالإضافة إلى الاختراعات الحديثة في مجال تكنولوجيا المعلومات، فإن أقراص الفيديو ، والأقراص الضوئية تقدم دعامة كبيرة في أعمال المكتبات ومراكز المعلومات في تخزين البيانات البيولوجية وتوزيعها ، فالقرص الضوئي الواحد يمكن أن يستوعب ما يعادل ١٢ مليون حرف أو بايت ، ولإستخدام نصوص الفيديو سيتمكن من عرض النصوص والرسومات وقرائنها كما تقرأ نصوص الكتاب ، وكذلك البريد الإلكتروني وصور الفاكس ميل سوف تتمكن من إرسال الرسائل وصفحات النصوص بطريقة فورية (٢) .

أمثلة لاستخدامات الكمبيوتر وتكنولوجيا الاتصال في معالجة البيانات وتخزينها واسترجاعها :

إن التطورات الأخيرة في النشر ومعالجة البيانات وتخزينها واسترجاعها الإلكترونيات تمكن من استرجاع جزء أو أجزاء من نص مخزن في الحاسب

(١) قاعدة المعلومات أو مرصد المعلومات Data Base هي قاعدة (ملفات) تركيبة كبيرة للمعلومات في شكل مقروء آلياً ، ويمكن الاستفادة منها من خلال حاسب إلكتروني . انظر المرجع السابق ص ٣٠٢ .

(٢) راجع : محمد محمد الهادي : تكنولوجيا المعلومات وتطبيقها ، دار المبروق .

الآلى للتوصل إلى المعلومات التى يحتوىها هذه الجزء دون استرجاع النص.
بأكمله إذا كان كتاباً مخزناً أو دائرة معارف مثلاً ، ومن أمثلة النصوص التى
يتم معالجتها وتخزينها بهذه الطريقة القواميس ودوائر المعارف وكتب الحقائق.
وجداول الطيران والنقل الهوى والبحرى والأدلة والسكشافات وغيرها من
من مصادر المعلومات ، وتشكل المعلومات فى هذه المراجع - بحق - مرصد.
بيانات Data base مخزن فى حاسب اليكترونى أو على شريط مغنط أو على
قرص disk أو فى ذاكره حاسب أو فى شكل كتاب .

وهناك تطور حديث فى تكنولوجيا المعلومات استفاد من استخدام
الكمبيوتر فى جمع حروف الطباعة وإخراج المطبوعات من ناحية ، ومن
استخدام الكمبيوتر فى معالجة البيانات وتخزينها واسترجاعها من ناحية ثانية .
ذلك أن مرصد المعلومات Information bases البيولوجرافية تعتمد أساساً على
مراجع وبيولوجرافيات على شكل مطبوع ، ونظراً لتطور تكنولوجيا
الطباعة التى أصبحت تستخدم الحاسب الآلى فى تجميع الحروف وصرفها
وإخراج الكتب وغيرها من المطبوعات كان من السهل استخراج شريط
مغنط آخر من المطبوع يرسل إلى مرصد المعلومات ، وبعد إدخال تهديلات
طريقة على الشريط يستخدم كبنك معلومات على خط الاتصال المباشر ،
وبهذه الطريقة يمكن الآن الحصول على البيولوجرافيا أو المراجع المطبوع
بالإضافة إلى وجوده فى مرصد المعلومات ومتاح للبحث فيه من طريق
الخط المباشر^(١) .

(١) محمد محمد أمان (دكتور): النشر الألكترونى وتأثيره على المكتبة ومراكز
المعلومات ، الحلقة الثرية المعلومات السنة السادسة - عدد ١ تونس ١٩٨٥
ص ١٣ ، ١٤ .

ومن أمثلة استخدام الحاسب الآلى فى تجميع البليوجرافيات والقواميس ودوائر المعارف .

قامت جامعة أكسفورد بحفظ قاموسها الشهير Oxford English Dictionary اليكترونيا ووضعته على الخط المباشر ، وتعتبر هذه التجربة خطوة هامة جدا فى مجال استخدام قواعد المعلومات Information bases وخدمات الاتصال المباشر فى علوم الإنسانية Humanities .

أما شركة بوكرك Bowker التى تنشر البليوجرافيا الشهيرة Book in print وتخصص المطبوعات التى توجد فى سوق النشر الأمريكية كل سنة على شكل بليوجرافيا فى شكل مطبوع ، لقد قامت شركة بوكرك بحفظ هذا البليوجرافيا على شكل بنك معلومات فى قاعدة لوكبيد .

قامت جمعية اللغات الحية Modern Languages Association (M.L.A.) باستخدام الحاسب الآلى ليكترونى فى تجميع وإخراج مرجعها الهام بعنوان : M. L. A. International Bibliography والذى تشمل ٤٠٠٠٠ مدخل على شكل اليكترونى ، فى مرصد معلومات ، مؤسسة (ديالوج) لخدمة المعلومات Dialog Information Service Inc ويتيح هذا المرصد البحث فى البليوجرافيا على خط الاتصال المباشر باستخدام رموز الموضوعات ، وهى طريقة هامة للباحثين الذين يرغبون فى البحث عن موضوعات مترابطة .

مهدت تكنولوجيا المعلومات الحديثة لاستخدام خطوط الاتصال المباشر للبحث فى الفهارس الأليكترونية للمكتبات Computer online Catalogs والذى بدأت نعم فى الكثير من مكتبات الجامعات الكبيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية وتعتمد هذه التجارب على الخطة الناجحة التى أتبعها نظام أوسى إل سي O. C.L.C. ونظيره Blaise فى بريطانيا ، ونجد الآن العديد من المكتبات الجامعية والعامة التى استغنت عن فهارسها البطاقية ، وتستخدم

بدلاً منها الفهارس الإلكترونية التي يبحث القراء والمستفيدون فيها عن طريق
الطرق المتوفرة في المكتبة والمدينة الجامعية والمباني الأخرى في الجامعة
بل يمكن للمستفيد أن يبحث في هذه الفهارس من منزله أو مكتبه وذلك
باستخدام الطرفي أو خط الاتصال التليفوني ، ونجد هذه الفهارس
الإلكترونية الآن في مكتبات جامعة اليمنى ، وجامعة مازنكاو فى مينيسوتا
ومكتبة نيويورك العامة وغيرها (١) .

المصغرات الفيلمية : Microfilms وهو أحد أنواع المصغرات المتعارف
عليها فى مراكز المعلومات ، والميكروفيلم عبارة عن فيلم تصويرى
مصنوع من مادة البلاستيك أو الأستات ، وتنتج الأفلام بعروض تتراوح
بين ٨ مم و ١٠٥ مم وبأطوال تتراوح بين ٣٠.٥ متراً و ١٢٢ متراً وتعتبر
الأفلام عرض ١٦ مم و ٢٥ مم من أكثر الأشكال استخداماً .

والمصغرات الفيلمية Microfilms من أكثر أنواع المصغرات استخداماً
فى مراكز المعلومات فى المؤسسات البحثية ، حيث لها عدد من الميزات
أهمها ما يلى :

- ١ - يوفر الحيز حيث يصل هذا التوفير فى الحيز المسكن إلى حوالى
٩٨ ٪ من الحيز المطلوب لحفظ الوثائق والدوريات الأصلية .
- ٢ - إتاحة الحفظ لمدة طويلة ، فالمادة التى يصنع منها الفيلم أقوى
وأطول عمراً من المواد الورقية .

- ٣ - تحقيق أمن الوثائق التى على درجة من السرية حيث تصور على

(١) محمد عبد أمان (دكتور) : نشر الأليكترونى وتأثيره على المكتبات
ومراكز المعلومات المجلة العربية للمعلومات السنة السادسة العدد الأول تونس سنة

ميكرو فيلم بوضع في خزان فتصعب قراءتها ، بالإضافة إلى أنه يصعب قراءتها إلا بالأجهزة الخاصة بذلك عكس الوثائق الورقية .

٤ - تصوير المواد النادرة مثل المخطوطات والمكتسبات النادرة المعرضة للتلف فيمكن الاحتفاظ بصور منها .

ونظرا لصغر حجم المصغرات الفيلمية فلا يمكن قراءتها بالعين المجردة ولذلك يلزم تكبيرها عن طريق عرضها على جهاز عرض يسمى جهاز القراءة أو طبعا واحتساخها على الورق العادي بواسطة جهاز للقراءة والطبع (١) .

ولقد كان لإنشاء وحدة تصوير ميكرو فيلم هو النواة الأولى في (مركز الأهرام لنظام وتكنولوجيا المعلومات) . فلقد انشئت وحدة تصوير الميكرو فيلم هذه عام ١٩٦٩م عندما تعاظم حجم مشكلة حفظ وتخزين نسخ جريدة الأهرام القديمة منذ صدورها عام ١٨٧١م وحتى الآن والتي يضمها أرشيف المحفوظات حيث اعتبرت تاريخيا للأهرام وذاكرة لمصر والمنطقة يعود إليها الباحثون والدارسون والمؤرخون . ونتيجة للتداول وطبيعة أماكن الحفظ فقد باتت النسخ القديمة مهددة بالتلف ، ومن هنا رأت مؤسسة الأهرام لإنشاء وحدة ميكرو فيلم صغيرة تتولى تصوير أعداد الأهرام القديمة وحفظها والبحث عن بديل للتالف والمفقود منها ، وذلك في المكتبات العامة وعند قراءة الأهرام من كبار السن ، وبعد جهد تم لاستكمال ٩٩٨٨٪ من كل أعداد الأهرام القديمة وتم تصويرها كلها على المصغرات الفيلمية حسب تسلسلها التاريخي (٢) .

(١) محمد فتحي عبد الهادي : مقدمة في علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٢٥١

٠٢٩١

(٢) جريدة الأهرام - ملحق خاص مع العدد الصادر في ١٦ ديسمبر

سنة ١٩٨٤ .

الزوج بين تكنولوجيا الحاسب الآلى والميكرو فيلم :- وقد تم هذا من أجل إيجاد طرق جديدة للتوفيق Harmonise بين القوة الاليكترونية للحاسب الآلى والقوة التسجيلية لفيلم من أجل إنتاج تطبيقات نافعة وقد ظهرت هذه الموازنة في ناحيتين :

١ - عندما تزايدت المعلومات المصورة على الأفلام ، أصبح من العسير تكثيف هذه الأفلام من أجل إيجاد مكان للمعلومة المطلوبة ، ومن أجل هذا اخترع العالم الأمريكى فانفربوش سنة ١٩٤٦ آلة تسمى MEMEX تستطيع البحث عن المعلومات المسجلة على بكرات الميكرو فيلم بطريقة آلية ، وفي الوقت الحاضر تستخدم الحاسبات الاليكترونية لإعداد الكشافات والبحث عن المعلومات المطلوبة ، كما تستخدم أيضا لإيجاد واختيار الصورة المصورة المطلوبة Mimophotograph من ملف ميكرو فيلم كبير جدا .

٢ - استخدام الحاسبات الاليكترونية في إنتاج الصورة المصورة على الميكرو فيلم ، وبدلا من طبع نتائج طبع الحاسب الاليكترونى أو مخرجاته على ورق فإن الحاسب يبرز نتيجة تشغيل آلة خاصة لتكوين أشكال الحروف والأرقام وعرضها على فيلم .

هذه العملية تتم بسرعة كبيرة جداً لدرجة أن مئات من سوابب الصور Page negatives يمكن إنتاجها كل ثانية وهذه الآلات ذات الغرض الخاص تسمى مخرجات الحاسب الاليكترونى على ميكرو فيلم (١) .

ثالثا : مخرجات النظام (استرجاع المعلومات والخدمات المتعلقة بها) :

لإسترجاع المعلومات للاستفادة بها وتقديم خدمات المعلومات ، وتزويد الصحفيين والكتاب في المؤسسة الصحفية بها ، هو الهدف من قيام نظام

(١) محمد تيمى عبد الهادى (دكتور) : مقدمة في علم المعلومات ، مرجع سابق

المعلومات في المؤسسة الصحفية ، ونظم إسترجاع المعلومات هذه هي الهدف من كل الخطوات السابقة الخاصة بتجميع الوثائق والبيانات وتحليلها وعمل الاكتشافات ونظم التصنيف والمستخلصات والناذج التي توصفها ، والتحكم في اللغة المستخدمة بمصطلحاتها الرئيسية ، وتسجيل نتائج التحليل في أوعية يمكن البحث فيها ، وتخزين مصادر الوثائق في قاعدة بيانات ، لاسترجاع المعلومات للاستفادة بها وتقديم خدمات المعلومات هي الهدف من كل الإجراءات السابقة .

- وأهم الخدمات التي يقوم بها نظام المعلومات في المؤسسة الصحفية :
- ١ - خدمات إستخراج المعلومات من المراجع والرد على الأسئلة والاستفسارات .
 - ٢ - خدمة تداول أوعية المعلومات .
 - ٣ - خدمة التصوير والاستنساخ .
 - ٤ - إعداد القوائم البليوجرافية والاكتشافات والمستخلصات الخاصة بموضوعات معينة .
 - ٥ - خدمة الترجمة .
 - ٦ - خدمة الإحاطة الجارية .
 - ٧ - خدمة البث الإنتقائي للمعلومات (أي أن مركز المعلومات يقدم المعلومات لفرد مباشرة ، ويصمم الخدمات وفقا لسكل باحث بعينه ، فيمدد بالمعلومات التي تدخل في نطاق اختصاصه كل فترة زمنية محددة) .
 - ٨ - إصدار النشرات الدورية للمعلومات .
 - ٩ - المراجعة (المعلوماتية) لسكل ما ينشر في الصحيفة ، ويمكن أن يكون ذلك على الساخ (البروفات) بالطريقة التي يتم بها تصحيح هذه المانح من الناحية اللغوية والنحوية .

١٠ - تدريب المستخدمين وتوحيثهم بخدمات المعلومات (١) وخاصة على المستجدات في تكنولوجيا المعلومات .

ويعتبر نشر الوعي المعلوماتي وتدريب الصحفيين على إستخراج المعلومات من مصادرهما من الواجبات الهامة لنظم المعلومات في المؤسسة الصحفية ، فكم من الصحفيين - وبخاصة الجدد - يعرف طريقة استخراج المعلومات من دائرة المعارف البريطانية ، وكم منهم يستطيع البحث في الأطلاس والخرائط واستعمال مفاتيح المعرفة المدن والدول ومواقعها وظروفها المناخية والطبيعية والاقتصادية والسكانية ، وكم منهم يعرف طريقة الكشف عن معاني الكلمات في معجم لسان العرب لابن منظور أو القاموس المحيط ، وكم منهم يستطيع أن يستدل على مكان آية في القرآن الكريم عن طريق إستخدام للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن ثم إستخرج تفسيرها من كتب التفسير المعروفة ، وهذه أمثلة فقط ويمكن أن يقال مثلها للكثير من أمهات كتب اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ والحضارة ، وكذلك عن إستخدام الفهارس والكشافات وكتب التراجم : وإمكانات قواعد ورصد وشبكات المعلومات المحلية والعالمية وكيفية الاستفادة منها .

نظم المعلومات في خدمة التحرير الصحفي والإدارة الصحفية :

أولاً : في خدمة التحرير الصحفي :

١ - تحرير الأخبار : حين يقع حدث معين تتوافر فيه عناصر الخبر الصحفي يسارع المندوب الصحفي إلى تغطيته صحيفياً في موقعه ومن الأشخاص المشاركين فيه في التوثيق والاحتفاظ ، وتبرز أهمية مراكز المعلومات الصحفية

(١) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) : مقدمة في علم الممارات ، مرجع سابق ص ١٤٣ وما بعدها .

في المؤسسة الصحفية في مرحلة التغطية الصحفية التفسير واستكناهه على النحو التالي :

(أ) تنقسم التغطية الصحفية للنزح إلى تغطية تسجيلية أو تقديرية ، وهي التي تهتم بالحصول على التفاصيل والمعلومات الخاصة بحدث تم بالفعل ، وتغطية تنبؤية وهي التي تهتم بالحصول على التفاصيل والمعلومات المتعلقة بحدث متوقع أي حدث لم يتم بعد ولكن هناك دلائل تشير إلى احتمال وقوعه ، فإن ، فإن فوز حزب المعارضة بأغلبية في الانتخابات النيابية تعني توقع سقوط الوزارة الحاكمة وتشكيل وزارة جديدة فهذا يقصد بالتغطية التنبؤية محاولة الحصول على معلومات عن رئيس الوزراء القادم ، وأهم المرشحين لتولي المناصب الوزارية الجديدة وموعد إعلان التشكيل الوزاري الجديد^(١) ويستفيد المندوب الصحفي فائدة كبيرة من مركز المعلومات للحصول على هذه المعلومات .

(ب) إن الحصول على الغالبية العظمى من الأخبار لا يتم إلا عن طريق إجراء المقابلات مع مصادر الأخبار^(٢) ، ومعرفة المندوب الصحفي بمعلومات وافية عن شخصية مصدر المعلومات يسهل مهمته في الحصول على الأخبار .

(ج) قبل أن يذهب المندوب الصحفي لتغطية خبر معين عليه أن يضع خطة مسبقة متكاملة لجميع جوانب التغطية ، يعمل أحد عناصرها محاولة الحصول على أكبر قدر من المعلومات المتعلقة بحدث معين من مركز المعلومات في الصحيفة التي يعمل بها ، أو من الكتب الخاصة به ، أو النشرات أو الأبحاث والتقارير المرتبطة بالحدث ، فإن حدث مثلاً حريق كبير بفندق

(١) فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الخبر الصحفي : دار الأمون للطبع والنشر ،

١٩٨١ ص ٢٦٦ .

(٢) للرجع السابق ص ٢٦٨ .

مشهور فعلى المندوب الصحفي أن يحاول الحصول على بعض المعلومات من مركز المعلومات في الصحيفة عن تاريخ بناء هذا الفندق ، وأهم الأحداث التي مرت به ، وأشهر الشخصيات التي زلت فيه ، وعدد غرفه ، وتكاليف إنشائه ، وغير ذلك من المعلومات .

(د) وفي التغطية الصحفية للخبر وتحريره يجد المندوب الصحفي ضرورة لمراجعة دقة تفاصيل كثيرة في مركز المعلومات في الصحيفة منها الدقة في كتابة الأسماء والبيانات المنشورة عنهم ، والأسماء الصحيحة للأماكن ، وإذا ما كان لها شهرة من نوع ما ، ودقة أسماء المدن والدول ، وإذا كان الخبر يحتوي على أرقام فينبغي التثبت من صحة هذه الأرقام مع التحليل والمقارنة ، وإذا كان الخبر يتعلق بمناسبة دينية أو قومية احتاج المندوب الصحفي إلى معلومات عن هذه المناسبة . ويجد المندوب نفسه - في كثير من الأحيان - مهتما بالخلفية التاريخية للحدث وربطه بالأحداث السابقة المشابهة ، وبالمشتركين فيه والمربطين به ، سواء كانوا من البشر أو الأماكن أو المؤسسات العامة أو الخاصة مما يجده في مركز المعلومات في المؤسسة الصحفية (١) .

(هـ) وفي بعض الحالات فإن احتكاك الخبر لا يكون بتغطية قصص في وقائعهم بقدر ما يكون استكالا للمعلومات لابد منها لفهم الخبر وأبعاده ، فبلا حين نشر خبر عن نشوب معارك بين فيلقان الشيالية وكبودبا ، ربما أثار خلطاً في ذهن القارئ. وعدم فهم الخبر ذاته ، فالدولتان قديتان بأيدبولوجية واحدة ، وكان بينهما تعاون لإتباع هذه الأيدبولوجية وتدهيمها ، ولذلك فإن نشر خبر تقريرى عن المعارك يكون ناقصاً ، ويكون إستكمال هذا الخبر بنشر معلومات عن صراع الحدود بين الدولتين ، وكون الصراع بينهما انعكاس للصراع بين الصين والاتحاد السوفيتى ، وهذا يتطلب معلومات عن

تاريخ بعض الشخصيات والأماكن والهيئات والمؤسسات والعراصات ، وهذه المعلومات يحصل عليها الصحفي من مركز المعلومات في المؤسسة الصحفية : المكتبة ، وقسم المراجع والأشيف ، والأبحاث ومختلف نظم معالجة المعلومات وتخزينها بالمركز ، مثلما يحصل عليها من أرشيفه الشخصي ، التي بعده وفقا لإهتماماته ، كما يستعين بثقافته وخبرته في مثل هذه الخطوات (١) .

(و) وفي مجال خدمات مركز المعلومات في المؤسسة الصحفية لقسم الأخبار ما يقوم به المركز من إعداد كشافات للأحداث المقبلة ، ونجد في هذا الكشف الذي ينظم تنظيماً زمنياً وموضوعياً : المؤتمرات المزمع عقدها ، والمعارض المزمع أقامتها ، والمباريات الرياضية ، والزيارات الرسمية في الداخل والخارج ، والأعياد والمناسبات القومية والدولية ... إلخ ، ومع هذا الكشف يقوم أخصائيو المعلومات بإعداد المواد والبيانات والمعلومات اللازمة لهذه الأحداث والمناسبات ، وما يتصل بها من شخصيات وملاحظات حتى إذا ما جاء موعد المناسبة وجد المحرر المسئول أو المندوب الصحفي المعلومات التي تساعده على تغطية الموضوع (٢) .

٢ - نظام المعلومات وتحرير الحديث الصحفي : - ينقسم فن إعداد الحديث الصحفي إلى ثلاث مراحل هي : (أ) الإعداد الحديث الصحفي ، و (ب) إجراء الحديث الصحفي ، و (ج) كتابة الحديث الصحفي .
وتنقسم المرحلة الأولى وهي الإعداد الحديث الصحفي بدورها إلى ثلاث مراحل هي :

(أ) اختيار شخصية المتحدث وموضوع الحديث .

(١) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

(٢) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) مراكز المعلومات الصحفية ، مرجع

(ب) جمع المعلومات الكافية عن الشخصية وعن الموضوع .
(ج) إعداد الأسئلة (١) .

وخطوة جمع المعلومات الكافية عن شخصية المتحدث وعن موضوع الحديث هي التي تعتمد - في المقام الأول - على كفاءة مركز المعلومات في المؤسسة الصحفية، فلا بد للحرر الصحفي أن يحصل على أكبر قدر من المعلومات عن الموضوع الذي سيدور حوله الحديث ، وعن الشخصية التي سيجري معها الحوار ، فإن مركز المعلومات في الصحيفة يحتفظ لديه بملف كامل لكل شخصية من الشخصيات العامة في المجتمع ، ولكل موضوع من الموضوعات التي تدخل في مجال اهتمامات الصحيفة والرأي العام .

وفي مجال جمع المعلومات عن المتحدث يمكن للحرر أن يقرأ ما ألفه المتحدث من كتب أو قام به من أبحاث في أي من العلوم والفنون ، وأن يقرأ ما كتب عنه ، والأحاديث التي أجريت معه من قبل حتى يعرف طريقة تفكيره ، ونوع اهتماماته ، وكذلك يمكن للحرر أن يحصل على هذه المعلومات من الصحفيين الذين سبق لهم مقابلة هذا المتحدث . إذا رأى أن يستكمل بها المعلومات التي توجد في ملف المتحدث في مركز معلومات الصحيفة .

وكثير من المحررين الصحفيين لا يكتفون بالمعلومات (العامة) عن المتحدث ، بل يبحثون عما هو مجهول من حياة هذه الشخصية بطرق شتى للبحث عن المعلومات ، فتجئ أحاديثهم الصحفية أكثر طرافة وتثويقا .

(١) راجع في تحرير الحديث الصحفي :

- عبد الطيف حمزة (دكتور) : الغفل في فن التحرير الصحفي ط ٤ .
- دار الفكر العربي القاهرة د . ت ص ٤٠٤ وما بعدها .
- فاروق أبو زيد (دكتور) فن الكتابة الصحفية ، ط ٤ دار عالم الكتب القاهرة ١٩٩٠ ص ١١ وما بعدها .

كما أن المتحدث حين يدرك أن الصحفي يعرف عنه هذا القدر الكبير من المعلومات متزداد ثقته به ، وتزول الكلفة بينهما ، وسيطاهيه كل ما عنده من آراء ومعلومات عن موضوع الحديث .

ولإدراك أهمية الإعداد المسبق للحديث الصحفي نشير إلى أنه يمكن للصحفي غير المتخصص أن يحصل على حديث صحفي جيد من شخص متخصص في مجال معين من مجالات الحياة إذا أعد نفسه للحديث لإعدادا جيدا عن طريق الدراسة المسبقة للموضوع وللشخصية التي سيجري معها الحديث^(١) . وعلى سبيل المثال يمكن الصحفي لم يدرس الطب أن يجري حديثا جيدا مع الدكتور برنارد جراح القلب العالمي إذا ما أعد نفسه عن طريق قراءة كل ما يتعلق بمرحلة القلب وبتجاربه السابقة في زرع القلوب ، ونسبة العمليات الناجحة إلى العمليات الفاشلة ، ويمكن لهذا المحرر الصحفي غير المتخصص في الطب أن يحصل أيضا على معلومات لا بأس بها عن حياة الدكتور برنارد نفسه وثقافته ودرجاته العلمية وحياته الخاصة عن طريق متابعة بعض ما نشره في الصحافة العالمية وهو كثير أو الالتقاء ببعض الصحفيين الذين سبق لهم أن أجروا معه أحاديث صحفية ، أو التحدث مع بعض أصدقائه ، ونفس الأمر ينطبق على الحالات الأخرى المشابهة التي يضطر فيها الصحفي غير المتخصص إلى إجراء حديث صحفي مع شخص متخصص^(٢) . فإن الإعداد المسبق والتزود بالمعلومات الصحيحة والكافية عن الشخصية والموضوع يكون خير معين له .

نظام المعلومات وتحرير التحقيق الصحفي :- يقسم الباحثون مرحلة الإعداد للتحقيق الصحفي إلى ثلاث خطوات :

(١) Harris, Julian, and Johnson, Stanley : The Complete Reporter (The Macmillan Company) London, 1965. P: 214

(٢) فاروق أبو زيد : فن الكتابة الصحفية ، مرجع سابق ص ٢١ .

- (أ) خطوة اختيار فكرة التحقيق .
(ب) خطوة جمع المعلومات المتعلقة بالتحقيق .
(ج) خطوة إجراء التحقيق ^(١) .

ومادة التحرير الصحفي التي يدعى المحرر الصحفي بجمعها تشمل حقائق عن الموضوع الذي يحققه مدعمه بالإحصائيات والبيانات الرسمية ، وآراء المتخصصين من المصادر المختلفة وبالوسائل المختلفة وآراء من يهمهم أمر التحقيق ، مع وضع الأولوية للجمهور الذي يقع على كاهله هبء المشاكاة موضوع التحقيق ، وجمع المعلومات المسبقة في الإعداد لإجراء تحقيق صحفي تشمل جمع معلومات عن موضوعات وعن أشخاص ، ولا تختلف طرق جمع المعلومات للتحقيق الصحفي كثيرا عن طرق جمعها للحدث الصحفي التي تكلمنا عنها في الصفحات السابقة ، على أن يوضع في الاعتبار طبيعة كل موضوع على حده ، سواء كان حديثا أو تحقيقا صحفيا .

نظام المعلومات وتحرير المقال الصحفي : يقسم الباحثون في التحرير الصحفي فنون المقال الصحفي إلى : المقال الافتتاحي والعدد الصحفي ، والمقال النقدي والمقال التحليلي ، وإذا كانت المعلومات أهمية كبيرة في فنون التحرير الصحفي التي تحدثنا عنها فإنها تبدو أكثر أهمية في تحرير المقال الصحفي .

-
- (١) راجع في مرحلة الإعدادية للتحقيق الصحفي خطواتها :
- فاروق أبو زيد (دكتور) في الكتابة الصحفية ، مرجع سابق ص ١٠١ .
- عبد الطيف حمزة (دكتور) : الدخول في فن التحرير الصحفي مرجع سابق ص ٤٤٠ .
- إجلال خليفة (دكتورة) : اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي ، ١٩٧٢ ص ٧١ .

والمقال الصحفي يعبر عن رأى الصحيفة ، وعن آراء بعض كتابها في الأحداث الجارية وفي القضايا التي تشغل الرأى العام المحلي والدولى ، ويقوم المقال بهذه الوظيفة من خلال الشرح وتفسير الأحداث الجارية والتعليق عليها بما يكشف أبعادها ودلالاتها المختلفة (١) .

ولما كان التعبير عن الرأى والتأثير في الرأى العام وتقد الآراء المعارضة من أم وظائف المقال ، فإن المعلومات الدقيقة والكافية تكون ذات أهمية خاصة حتى تضمن الصحيفة نفسها من الوقوع في الخطأ أو التعرض لمتاعب مادية أو معنوية .

وتحرير المقال الصحفي بكل أنواعه يخضع - غالبا - لقاعدة الهرم المقلوب : أعلاه المقدمة ، ووسطه الجسم أو الصلب ، وقاعدته الخاتمة ، والجزء الأول هو المقدمة ينحصر لعرض الفكرة ، والجزء الأخير وهو الخاتمة ينحصر للوصول إلى النتيجة التي أرادها الكاتب ، ولدعوة القارىء في نهاية القراءة لاتخاذ رأى أو موقف .

وإذا نظرنا - فيما على - إلى عتوى الجزء الأوسط في بناء كل نوع من أنواع المقال الصحفي وهو الجسم أو الصلب يتبين لنا أنه يعتمد - أساسا - على المعلومات وهرضا وتحليلها والاستنتاج منها :

عتوى الجسم (أو الصلب) في المقال الافتتاحى :

- ١ - البيانات والمعلومات والحقائق .
- ٢ - الأدلة والحجج والأسانيد التي تؤيد وجهة نظر كاتب المقال .
- ٣ - الخلفية التاريخية للموضوع .

٤ - أبعاد الموضوع ودلالته السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية .

محتوى الجسم (أو الصلب) فى العمود الصحفى :

- ١ - الأدلة أو الشواهد أو الحجج التى يؤكد بها الكاتب رأيه ،
- ٢ - تفاصيل الحدث أو الصورة الحية أو القصة أو المشكلة أو القضية التى يطرحها الكاتب على القراء .
- ٣ - عندما يكون العمود عبارة عن سؤال من القارئ ، وإجابة من الكاتب فإنه جسم العمود الصحفى يتضمن إجابة الكاتب على سؤال القارئ .

محتوى الجسم (الصلب) فى المقال النقدى :

- ١ - عرض موضوع العمل الفنى أو العلمى .
- ٢ - تحليل وتفسير وشرح الأبعاد المختلفة للعمل .
- ٣ - تقديم المعلومات الخلفية أو التاريخية للعمل نفسه أو للأشخاص المشتركين فيه .

٤ - المقارنة بين هذا العمل وغيره من الأعمال المشابهة .

محتوى الجسم (أو الصلب) فى المقال التحليلى :

- ١ - المعلومات الخلفية للموضوع الذى يناقشه المقال .
- ٢ - حشد الأدلة والشواهد والحجج التى تؤكد وجهة نظر الكاتب .
- ٣ - كشف أبعاد الموضوع ودلالته المختلفة .
- ٤ - عرض الآراء المؤيد والآراء المعارضة لوجهة نظر الكاتب والرد عليها (١) .

(١) راجع فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الكتابة الصحفية ، مرجع سابق

والواضح مما سبق أن الحصول على المعلومات الدقيقة والكافية وتعاليلها واستنتاج دلالاتها ومما يهاهوا الأساس للتين لتحرير كل أنواع المقال الصحفي .

نظام المعلومات وتحرير الحملة الصحفية : إن أية حملة صحفية ذات أهداف اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها تقوم بها الصحيفة لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا استندت إلى المعلومات الصحيحة ، فإذا أرادت صحيفة ما أن تقوم بحملة صحفية للدعوة إلى نحو الأمية مثلا فإنها في احتياج إلى بعض البيانات عن : عدد الأميين وفتاتهم وأعمارهم ونوعياتهم ، وظروف عملهم ، وظروف معيشتهم ، وكَم منهم في الحضر وكَم منهم في الريف ، ومستوياتهم الاجتماعية وأجهزة الثقافة المتاحة لهم ، وأسباب أميتهم ، وكَم منهم لم يدخل من قبل مرحلة الإلزام ، وكَم منهم تنحرف في الطريق ، واستنادا إلى هذه المعلومات يمكن أن تكون الحملة ذات أثر وفاعلية ، لا أن تكون مجرد تعبيرات فارغة لا تستند إلى حقائق علمية .

وليست الحملة الصحفية فنا من فنون التحرير الصحفي قائما بذاته مثل الخبر والتحقيق والحديث والمقال والتقرير ، ولكنها فن استخدام واحد أو أكثر من هذه الفنون أو كلها أحيانا استخداما ذكيا وواعيا وموجها لتحقيق هدف تسمى إليه الصحيفة ، وقد تستخدم الصحيفة إلى جانب فنون التحرير المذكورة الصورة والكاريكاتور أيضا لتحقيق الهدف الذي تسعى إليه .

وإذا كانت الحملة الصحفية تستخدم كل فنون التحرير الصحفية هذه ، فيمكن أن ينطبق عليها ما ذكرناه في الصفحات السابقة عن دور نظام المعلومات في المؤسسة الصحفية في تحرير كل منها .

ولكن وظائف الحملة الصحفية ذاتها تيجل ثم فروقا بين طارق جمع المعلومات اللازمة لها ونوعها ، وبين تلك اللازمة لكل فن من فنون التحرير على حدة ، فإذا نظرنا إلى وظائف الحملة الصحفية نجد أنها تنطهر فيما يلي :

١ - تعبئة الرأى العام مع سياسة معينة أو قانون معين أو قرار معين أو اتجاه معين أو فكرة معينة ، أو تعبئة ضد هذه السياسة أو ضد هذا القانون ، أو ضد هذه الفكرة .

٢ - تنظيف المجتمع من الفساد ومن ألوان الانحراف المختلفة . ومن ذلك نرى أن الحملة الصحفية في جانب كبير منها ذات طابع هجومى أو نزالى وخاصة التى تقوم ضد قانون أو قرار جائر ، أو فكرة خاطئة ، أو لمحاربة الفساد والانحراف في المجتمع .

وظائف الحملة الصحفية وطبيعتها من هذه الناحية تتطلب عددا من الشروط في المعلومات اللازمة لها ، مع وضعنا في الاعتبار أن مركز المعلومات في المؤسسة الصحفية هو أحد الأقسام التى تشارك مشاركة أساسية في الحملة الصحفية .

١ - في الحملة الصحفية المخططة التى تعد لها الصحيفة لإعداد مسبقا تظهر أهمية إعداد الوثائق والأدلة والدراسات والأبحاث التى لا تبدأ الحملة إلا بعد إعدادها لإعداد كاملا للنشر . وفي هذا النوع من الحملات يكون من هراولى نجاح الحملة الإهداء المسبق لها عن طريق جمع أكبر كمية من المعلومات والبيانات والتفاصيل والأدلة لإقناع الرأى العام .

٢ - في الحملة المفاجئة التى يفجرها معرفة حقيقة معينة أو نشر خبر معين فينتشر لها المجتمع كله وترى الصحيفة نفسها تتابع هذا الخبر بأخبار وتحقيقات ومقالات أخرى في الموضوع نفسه فتفرض الحملة الصحفية نفسها ويحدد مركز المعلومات في الصحيفة نفسه في قلب الحملة الصحفية مشاركا فيها .

٣ - في الحملات الصحفية التى تصدر لقانون جائر أو لأفكار خاطئة أو تكشف من الفساد والانحراف في مختلف صوره يكون يلجع الوثائق والأدلة والمعلومات أهمية كبيرة ، فيها يثبت الصحفى دعواه ويقوى موقفه وبها يحسن نفسه من أن يقع تحت طائلة القانون بتهمة السب والقذف و

ويجب تحديد من يشار إليهم بأصابع الاتهام فلا يلقى التهم جزافاً على الأبرياء .
٤ - حينما تكون الحملة الصحفية من النوع الذى يرمى الرأى العام ويمس مصالح الجماهير بتحول عدد من القراء إلى مندوبين صحفيين مشاركين فى الحملة الصحفية ، فيمدون الصحيفة بوثائق ومعلومات ويكشفون عن أسرار تساعد على استمرار الحملة وتحقيقها لأهدافها ، وبعد القراء الصحيفة بما لديهم من بوثائق ومعلومات لأسباب متنوعة ، منها دافع الوطنية ، والرغبة فى الإصلاح ، أو بسبب ظلم أو ضرر وقع بهم . أو لوجود خصومة شخصية بينهم وبين من تسعى الصحيفة إلى كشف فسادهم أو انحرافهم أو أخطائهم (١) .

ثانياً ؛ نظام المعلومات والإدارة الصحفية : المؤسسة الصحفية كغيرها من المؤسسات تحتاج إلى الاعتماد على أسس الإدارة الناجحة لتحقيق أهدافها ، ومن الناحية الإدارية يعتبر نظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية كما هو فى أية مؤسسة أخرى فى المجتمع نظاماً لإنتاج المعلومات من خلال القيام بتحويل البيانات التى يتم جمعها والحصول عليها من مصادرها المختلفة إلى تقارير معلومات بحيث توضع تحت تصرف المسؤولين فى مراكز اتخاذ القرارات . أو تستخدم كدخلات أنظم معلومات أخرى .

فالشق الإدارى لنظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية يعمل على توفير المعلومات لأصحاب سلطة اتخاذ القرارات فى المؤسسة لاتخاذ القرارات السليمة التى تحقق أهداف المؤسسة ، ويتفق الكثيرون على أن

راجع فى موضوع الحملة الصحفية وجمع المعلومات والوثائق لها :

(١) فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الكتابة الصحفية ، مرجع سابق

ص ٢٤٧ وما بعدها .

(2) Hohenberg, John : The Professional Journalist (Holt, Rinehart and Winston L. N. C.) New York 1969 P. P. 308-313

(3) Jolian, Ph. D. James, L., Practical News (W. M. C.) Brown Company Publishers) 1969 P. P. 162-183

الوظيفة الرئيسية لأية مؤسسة ، وجوهر الإدارة فيها هي اتخاذ القرارات - حيث يعتبر أكثر العمليات الأساسية في المنظمة ، وترادف كلمة الإدارة - ويعتمد القرار في أية مؤسسة على المعلومات في كل خطوة من خطوات إعداده وتنفيذه ومتابعته (١) .

وتحتل المعلومات مكانا هاما في البناء الإداري المعاصر ، إذ هي أدلة الربط الأساسية بين أجزاء التنظيم وهي الوسيلة الرئيسية للإدارة في التنسيق والتخطيط والمتابعة ، ونحن نرى المعلومات وقد توقف عليها نشاط الإدارة المعاصرة كله ، حيث نعتقد أن حركة الإدارة وتوجهاتها جميعا ماضيا إلى استجابات منظمة للمعلومات المتدفقة عليها من البيئة المحيطة من ناحية ، والفاعلة من أنشطتها الذاتية من ناحية أخرى (٢) .

ويوجه التفكير الإداري المعاصر عناية خاصة إلى تصميم وتشغيل نظم متخصصة في الكشف عن المعلومات ، واستقبالها ووضعها في الإطار السليم الذي يتيح لها التفاعل بطلاقة وحرية مع عناصر الإدارة جميعا . وبذلك فإن الأجزاء التنظيمية المعنية بتشغيل نظم المعلومات تحتل في التفكير الإداري المعاصر أهمية كبرى باعتبارها مراكز لضبط نبض التنظيم وحماية التدفق المنتظم والمستمر لمصدر حيويته في إحساسه بما حوله ونتائج عمله (٣) .

ونظام المعلومات في المؤسسة الصحفية يمكن - على سبيل المثال - من قياس أداء كفاءة المؤسسة الصحفية ، وأدائها المقروءة وبيان الآثار المترتبة على تعاملها مع القراء ، فضلا عن التمكن من الوقوف على ما تقوم به من دور ،

(١) محمد محمد الهادي (دكتور) : نظم المعلومات في المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٢) علي الحلي (دكتور) : مهنية الإدارة ، مجلة عالم الفكر ، العدد الثاني ، يوليو - أغسطس سبتمبر أكتوبر سنة ١٩٨٩ من ٣١٢ .
(٣) علي الحلي (دكتور) : المرجع السابق ص ٣١٢ .

وإنه كما ذكرنا ذلك على الأنشطة المختلفة في المجتمع ، الأمر الذي يتيح لأصحاب القرار في هذه المؤسسة اختيار البدائل التي التي تمكنها من تحقيق أهدافها والتقدم نحو الأفضل .

ويمكن لنظام المعلومات في المؤسسة الصحفية أن يقوم بخدمة قسم التوزيع ، فيكم من الطلبات التي يتلقاها قسم التوزيع تأتي فامضة مختلفة المالم ، وبالرجوع إلى مركز المعلومات تتضح معالم هذه الطلبات ، ويمكن التعرف بدقة على تواريخ الأعداد المطلوبة وأرقامها والمعلومات الصحفية مما هو مطلوب (١) .

(١) محمد تقي عبد الهادي (دكتور) : مراكز المعلومات في المؤسسات الصحفية ، مراجع سابق ص ١٢ ، ١٤ .

قائمة والمراجع

- ١ - أبو الفتوح حامد عوده : تنظيم المعلومات الصحفية في الأرشيف والمكتبات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .
- ٢ - أحمد الشامي ، وسيد حسب الله (دكتور) : المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات ، دار المريخ ، الرياض ١٩٨٨ .
- ٣ - جريدة الأهرام ، ملحق خاص مع العدد الصادر في ١٦ ديسمبر سنة ١٩٨٤ .
- ٣ - حشمت فامم (دكتور) : أختزان المعلومات واسترجاعها ، المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٥ - سعد محمد المحجومي (دكتور) : الكتب وبنوك المعلومات ، وقائع الحاضر وتوقعات المستقبل ، القاهرة ، مجلة عالم المكتبات ، يوليو - أغسطس سبتمبر سنة ١٩٨٤ .
- ٦ - شعبان عبد العزيز خليفة (دكتور) : الدوريات في المكتبات ، ومراكز المعلومات ، العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠ .
- ٧ - صالح سلطان (دكتور) : نظم المعلومات ومجتمع المعلومات ، مذكرة غير منشورة ، أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ، القاهرة د . ت .
- ٨ - عاطف غيث (دكتور) : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٩ - عبد اللطيف حمزة (دكتور) : المدخل في فن التحرير الصحفي . ط ٤ ، دار الفكر العربي ، القاهرة د . ت .
- ١٠ - علي السلي (دكتور) : مهنية الإدارة ، مجلة عالم الفكر ، العدد الثاني ، يوليو - أغسطس - سبتمبر ، الكويت ١٩٨٩ .

- ١١ - فؤاد مرمي (دكتور) : الرأسمالية تجدد نفسها ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٩٠ .
- ١٢ - فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الخبر الصحفي ، دار مأمون للطباعة ١٩٨١ .
- ١٣ - فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الكتابة الصحفية ، ط ٤ ، دار عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٠ .
- ١٤ - محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) : مراكز المعلومات فى المنظمات الصحفية دار المربخ ، الرياض د . ت .
- ١٥ - محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) : مقدمة فى علم المعلومات ، مكتبة غريب القاهرة ١٩٨٤ .
- ١٦ - محمد محمد أمان (دكتور) : النشر الالىكترونى وتأثيره على المكتبات ومراكز المعلومات ، المجلة العربية للمعلومات ، السنة السادسة عدد ١ تونس ١٩٨٥ .
- ١٧ - محمد محمد الهادى (دكتور) : تكنولوجيات المعلومات وتطبيقها ، دار الشروق ١٩٨٩ .
- ١٨ - محمد محمد الهادى (دكتور) : نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة ، دار الشروق القاهرة ١٩٨٩ .

(19) Harris, Julian, and Johnson, Stanly, The Complete Reporter., The Macmilan Company, London, 1965

(20) Hohenbery, John : The Professional Journalist, (Holt, Rinehart, and Winston I. N. C.) New york, 1969

(21) Jolian, Ph. D., James-I. Practical News (W. M. C.) Brown Company Publishers) 1962

ديوان العرب مرآة الحياة الجاملية

بقلم الدكتور
شفيق عبد الرزاق أبو سعدة

بين يدي البحث :

كثير القول في أولية الشعر العربي ، وتعذر على الباحثين أن يهتدوا بين ،
ثنائيا الأحقاب إلى مولد هذا الفن الرفيع ، فلم تتمخض جهودهم إلا من
نتائج حدسية فرضية ، لا تعضدها الصبغة العلمية ، لأنه لم يكن لدى العلماء
والنقاد القدامى ما يساعد على الوصول إلى الصورة التي كانت عليها أشعار
العرب قبل ظهور الإسلام بقرنين أو أقل .

ويجدر التنويه بقدم الشعر في حياة المجتمع البشري ، نطق به الإنسان
في حضن الطبيعة التي كانت منه بمنزلة الأستاذ التاريخي ، والذي اهتدى إليه
بفضل حيلته وقوة حاجته ، في عهد الفطرة .

- هذه الفطرة الشاعرة التي كانت تختمر في صدره - والحياة به لم تتمتع
مظاهرها ، ولم يأخذ المنطق سبيله إلى العقول والأفهام ..

ولا ريب أن فحمة من السذاجة بادية في الأشعار التي ولدت في صدر
الجاملية التي أفادت علينا بترائثها الخالد ، كالاضطراب في أوزان بعض
القصاصد ، كيميية المرقض الأكهد ، التي مطلعها :

هل بالديار أن تجيب صمم لو كان رسما ناطقا كلم
فهي من بحر السريع ، فإن بعض شطوط أبياتها قد خرجت على هذا اللون
كالشطر الثاني من هذا البيت :

ماذبنا في أن غزا ملك من آل جفنة حازم مرغم
فإن وزنه من بحر الكامل ، وكالإقواء الذي فيه إليه النقاد في قوافي
بعض قصائد الفحول ، كلامية امرئ القيس المكسورة الروي ، إلا
قوله فيها :

كان أبانا في أمانين ودقه كبير أناس في بهاد مزمل
فإن رويه مرفوع^(١) : ومثله ما أخذه أهل المدينة على النابتة الديباني
في داليتها ..

إن طبائع الأشياء التي تأتي إلا التدرج ثبت أن مرحلة كانت بين المخو
والإنبات ، والاعوجاج والاستقامة سبقت هذه المرحلة المتميزة بذلك
الشعر الجاهل الرافي ، الحسن السميت والهيئة ، الكامل النضج ، إلا أنها
غابت هنا ، ووارثها عن عيوننا رجال الصحراء ، حتى يقبض الله لها علماء
يسألونها اليقين ، آمنذ تنقشع عن الأفق غياهبه ، ويمحو نور اليقين . وم
الفرض والتخمين^(٢) .

والشعر الذي اعتبره العرب أدها رفيعا ، ولم يكن في حياتهم الأدبية
أكرم مظهرا منه ، قد نحرت القبائل مجتمعة على أعتاب قوافيه وأوزانه

(١) الشعر الجاهل : مراحله وانجاهاته الفنية . د . سيد حنفي حسنين ص ٢٩ ،
٣٠ بتصريف .

(٢) لعل مما يؤكد هذه الحقيقة قول امرئ القيس :

عوجا على لاطل الحبل لملنا نكي الديار كما بكى ابن خزام
وقوله زهير : ما أرانا نقول إلا معسارا أو معادا من لفظنا مكرورا

وقوله عنزة : هل غادر الصرا من متردم ؟ أم هل عرفت النار بعد يوم ١٩

فهم يشكون من أن أسلامهم لم يتركوا لهم معنى لم يطرقوه : انظر تاريخ آداب
اللغة العربية . لجورجي زيدان ، تعليق : د . هوق ضيف ٣٥/٩ .

لحجتها المحلية ، واصطلحت على لجة أدبية فصحي ، ينظم فيها الشعراء على اختلاف أصنافهم شعرا ، هي لجة قریش ، التي ساعد على سيادتها في أطنان الجزيرة العربية ظروف دينية وسياسية واقتصادية ، فأضحت الأذان العربية في كل الأقاليم تطرب للشعر الجاهلي ، وتحمس له في أغته الأدبية الموحدة ، لذلك نشط الشعر ، واحتفت به الأقدمة وذاعت شهرة الشعراء بين ربوع القبائل المختلفة ..

دوافع البحث : مفترقات البعض على ديوان العرب :

ليس البحث في أولية الشعر أو اللغة الأدبية العامة بغاية هذا البحث ، ولكن قد صدت لإظهار هذا التحضر المبكر عند العرب الأقدمين ، الذين «كف» على دراسة أدبهم ولغتهم مستشرقو العالم الغربي من أمثال : بروكلين وغلينيو وهيرار وحردنباروم ومرجليوث وغيرهم ، وسواء علمهم أنصفوه أم حنقوا عليه قالشي . من معدته لا يستغرب ، فلمؤلاء أن يقولوا ما يروقه ويحلو لهم ، لكن الطعنة إذا سددت إلى أدبنا من بني جلدتنا فإنها تكون أنكى وأشد ، وما أصدق حارفة في قوله :

وظالم ذوي القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند (١)

وما كان للناس عجباً أن يتفوق العرب على سائر الأمم في الشعر ، لما تشتملت عليه نفوسهم من صفاء وحواطفهم من قوة ، ولما تأثروا به من طول تأمل ، وما كان يدفعهم إلى الذود عن النفس والعرض والذمار ، ولولا حوادى الضياع التي هدت على السكتهم من هذا التراث الأدبي ، لوصلنا منه القفيض المردار ..

(١) ديوان طرفة بن العبد ، تملق : كرم البستاني ص ٢٦ .

لكن إن تعجب فعجب قول أحد الباحثين : إن الحياة العربية الجاهلية لا يجدى النفاها في هذا الأدب العقيم ، الذى يسمونه الأدب الجاهلى ، وإن العصر الجاهلى لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم ، لأنه وضع وضعا وحمل على أحبابه حملا بعد الإسلام ، ويمكن أن نلتمس في مصادر أخرى كالشعر الأموى (١) .

وإن تعجب فعجب قول الباحث نفسه مرددا ما كتبه المستشرق بروكلن ، من الأدب العربى فى دائرة المعارف الإسلامية : إن ما كان عند العرب من أدب قبل ظهور الإسلام بزمان بعيد أشبه ما يكون بأدب الزوج أو سكان جور المحيط الهادى ، فلم تزد عن أن تكون تعبيرا بسيطا عن حياة ساذجة توشك أن تكون منحلة لا قيمة لها ، وهى حياة أهل البداوة الذين لاحظ لهم من ثروة أو ترف أو رقى عقلى ولم يخرج الأدب العربى من دائرة الشبه بأدب الزوج عند هذا المستشرق إلا بعد اتصاله بالحضارات (٢) .

وللآلم الذى يعترضنى من جراء هذه الأقاويل كان بحثى محاولة جادة لإعطاء الفوس بارها ، ووضع الأمور فى نصابها ، والإفصاح عما استعجم على البعض ، والذود عن حياض هذا الأدب الرفيع ، عملا بقول زهير :

ومن لم يزد من حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظالم الناس يظلم (٣)

على أنى أسعى - فى هذا البحث - إلى تقرير الدليل ، واسعة خلاص الحجة .

(١) المذكور طه حنين له أكثر من موضع من كتابه « الأدب الجاهلى »

ص ٨١ ، ٨٢ ، ١١٦ وغيرها .

(٢) من حديث الشعر والنثر . د . طه حنين ص ١٠

(٣) ديوان زهير شرح الأهم الشنترى ص ١٣ .

من هذا الشعر المفترى عليه ، فليست بمن يرجعون بالغيب ، أو يتعصبون لبني
جلادتهم لمجرد التعصب الممقوت .

الحقائق في مواجهة الأباطيل :

إن المنقبين عن آثار حضارات الأمم القديمة كالآلة المصرية أو اليونانية
قد يبتدون إلى غايتهم عن طريق ما نقشه أصحاب تلك الحضارات على صفايح
قصورهم وقبورهم ، وما زينوا به معايدهم ، بينما يبتدى المنقب الأريب إلى
مثل هذه الصورة ، بل إنه ليراهما مائلة أمامه في ذلك السجل العربي الخالد ،
المتمثل في الشعر الجاهلي ، وهو القائم عند المنقبين مقام الآثار المنقوشة
والرقائق المكتوبة عند غيرهم من أهل الحضارة القديمة من أمم التاريخ ، (١) .

فلقد جعل العرب الشعر ديوانهم ومستودع أيامهم ، والناطق بمفاحزم
وآثرهم ، والمعجم من أخلاقهم ومبادئهم وديانهم ، والمفصح عن عقائدهم ،
والدليل إلى جغرافيتهم وبلادهم وجبالهم وسهولهم ونجاديهم ونباتاتهم
وحيواناتهم ، بل وما يشيع فيها من معتقدات وخرافات ، حتى ليتمكن
القول بأنهم سجلوا فيه أنفسهم ، ومن ثم جاء القول المأثور : « الشعر
ديوان العرب » .

لقد نهض الشعر الجاهلي في أحضان النفوس التي تعشقها ، والأفئدة
التي أحبتها ، نهضة قوية رائقة ، ففاض بالأحاسيس الجياشة ، والمشاعر
الدفقانة ، والوجدانات المرهفة ، والميول المشبوبة ، وهوور العليمة - وضحة
حينا وساذجة حينا آخر - والتعبير الصادق من الحياة الإنسانية ، بما
تضطرم به من أغانين الحب ولوان البهفص ، لا يتخلف في هذا كله من ركب

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي . د . محمد هاشم عطية ص ١١٢ .

الأدب الإنسانية ، وإن أعشى ضوءه والتساع بهض العيون ، إن في الشعر الجاهلي وفرة من القيم الفنية الأصيلة لم يحفل بها كثير من العصر العربي بعده ، ففيه من خصب الشعور ودقة الحس وصدق الفن وصفاء التعبير وأصالة الطبع وقوة الحياة ما يجعله أصدق تعبيراً عن نفس العربي وأصدق مصدر لدراسة حياته وحياة قومه من حوله ،^(١) .

واللبيئة صفاتها ووفرة الحرية واعتزاز العربي بشخصيته وقبيلته ، والحروب الطاحنة التي كافت كثيراً ما تنشب بين القبائل ، وما يترتب عليها من إثارة المشاعر ، وما تتطلبه الصلات الاجتماعية والمجتمعات ، والتنافس الشديد في ميدان الفصاحة والبيان ، والذي كانوا من أجله يتعذون من المي والحصر ، فهذا التمرين قول يقول :

أعذني رب من حصر وعي ومن نفس أعالجها هــلاجاً ،^(٢)

لعله كان لهذه العوامل مجتمعة الأثر الذي لا يخفى في نهضة هذا الشعر . . . وهلم إلى الشعر الجاهلي نفتس منه ما يصور بيئة العربي وحيوانه ، وما يدهم رأينا ويعضد موقفنا . .

١ - الشعر الجاهلي والبيئة العربية :

إن الذين يعمنون النظر في صفحة الشعر الجاهلي تنعكس على أحيائهم من مرآة صورة واضحة لتلك البيئة العربية ، تترسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم ، وملاعب ولدانهم ، وأسماء منازلهم ، وموارد مياههم ، وعتاق خيولهم ، وأنواع حيواناتهم ، وشم جبالهم ،

(١) مصادر الشعر الجاهلي . د. ناصر الدين الأسد ص ٢٦٥ .

(٢) البيان وتبيين قبحاظ ج ١ ص ٣ .

وهادهم وسهولهم ، أو بالأحرى : تلوح من هذا الشمر صووة الطبيعة إن ساكنة أو متحركة ..

فقد كانت عادة الشعراء أن يبدؤا قصائدهم بالوقوف على الديار ومساءلة الأطلال ، ثم يصفون هذه الأماكن ويذكرون مواقعها ويسرفونها كما يفعل المعنيون بعلم تقويم البلدان . على غرار ما صنع امرؤ القيس في معلقته ، فإنه بعد قوله : فإنا نيك من ذكرى حبيب ومنزل ... يقول :

يسقط الأولى بين الدخول والخومل

فتوضح الملقاة لم يصف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

وما صنع زهير بعد قوله : أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ...

فإنه يقول : ... نحو مائة الدراج فالتنلم

ودار لها بالرفتين كأنها مراجع وشم في نواشر معهم (١)

وهذه صورة وصفية للمحجرات وما بها في نظر شاعرها ، سويد بن أبي كاهل البشكري ، الذي حالت بينه وبين محبوبته القفار المترامية الأطراف ، التي يلعب فيها السراب حين يشتد الحر ، وتهب الريح منها ساخنة ، حتى لا يكاد اللحم أن ينضج ، وأن يقضى على من يسير فيها ، لشدة الحرارة ، ولابد السائر في هذه المهامه أن يكون مستعدا للقاء الخطر لكثرة الأعداء فيها من جانب ، والتخبط على غير هدى بسبب مرتفعاتها ومنخفضاتها ومتعرجاتها ومعالمها البالية من جانب آخر ؛ وهذه القفار يغلى هضابها ووديانها السراب حين ترتفع الشمس ، ويزداد التملش إلى الماء ، مما يجعل قطعها قطعة من العذاب ، ولا بد للضطر من ركوب الصعاب ، وتصف السير في مساكنها وأعلامها . في قول سويد :

(١) المعلقات السبع للروزي . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ص ٤ ، ٥ ،

ص ١٣٨ وانظر الأدب العربي وتاريخه د محمد هاشم ص ١١٢ .

كم قطعنا دوت على مهمباً نازح الغور إذا الآل المسح
في حرور ينضج اللحم بها يأخذ المائر فيها كالصقع
وتغطيت إليها من عدى زماع الأمر والهم الكنع
وفلاة واضح أفرابها باليات مثل مرفت القزع
يسبح الآل على أعلامها وعلى البيد إذا اليوم متع
فركبتها على مجهولها بصلاب الأرض فيهن شجع (١)

ومن ذلك قول حميدة بن جعل في وصف ديار محبوبته التي خلت من أهلها ، وصارت قطعة من الصحراء المقفرة الوحشة ، إذ لم يبق منها إلا آثار دمن وبقايا أطلال عفت وطمرت ، أفرقتها الريح والأمطار ؛ لجاس خلال المسكن الفزع والوحشة ، فقد غابت عنه آثار الحياة ، فأضحى متاهة يضل فيها الخريت ، وصار مأوى للسباع المفترسة ، التي اتخذت لها داراً ، والتي يفترس قوتها ضميمها ، لأنها لا تجد ما تقتات به :

ألا ياديار الحلى بالوردان خلت حبيج لمن ثمان
فلم يبق منها غير نوى مهدم وغير أوار بالركى دقان
وغير حطوبات الولاد دعدمت بها الريح والأمطار كل مكان
فغار مرورة يضل بها القطا يظل بها السحمان يهتركان
يشيران من نسج القراب عليهما قيصين أسباطا ويرتدان

(١) الفضليات الضبط دار المعارف ص ١٩٣ ب : ٢٠ - ٢٥ (الممه : القفر . النازح : الغور . الآل : السراب . الحرور : الريح الحارة التي تهب نهشاً ، الصقع : جراحة تصيب الرأس (ضربة قسي) . عدى : الأعداء . زماع الأمر : الجدفة . الكنع : القى يلازم ولا يفارق ، الأنراب : الخواصر - على التشبيه - أراد جوانبها وأطرافها التي هي بمنزلة الخواصر من الناس . المرفت : التكبر المتعظم القزع : جمع فزعة وهي بقايا تبقى من الشعر في الرأس ، هبة بها علامات الفلاة . الأملام : الجبال . البيد : جمع بيداء وهي القفر . متع اليوم : ارتفعت حمته . ركبناها على مجهولها : مرنا فيها على جهل بمساكنها وأعلامها . بصلاب الأرض : بجبل صلاب الخواصر ، وأرض القرس : حوافرها - الشجع : جنون من النشاط) .

وبالشرف الأعلى وحوش كأنها

على جانب الأرجاء عوذ هيجان^(١)

ولاغرو !! فهذا إنما يذكرنا بقول زهير مشيراً إلى ما حل بدار دام أوفى :

بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل نجم

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد يوم

أنافى سقماني مرس مرجل وتؤيا كجذم الخوض لم ينثلم^(٢)

ويختلف الشاعر الجاهلي إلى الظواهر الطبيعية التي تتماور معها النائية

الجهات على مدار العام، حيث يقرر أن قيط الصيف الشديد لم يحل دون هطول

الأمطار المصحوبة بالبرق والرعد في أعالي الجبال، وأن هطولها يكون سيلا

هدارا يحتاج كل ما أمامه، على نحو ما جاء في قول امرئ القيس :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلسع الودين في حبي مكلل

بضيء سناه أو مصابيح راهب أمال الصليط بالذبال المغفل

(١) الفضليات من ٢٥٨ ب : ١ - ٦ (الحجج : السنين : النوى : الحاجز الذي

يكون حول الجبال لمنع الماء . الأوازي جمع آرى ، وهو ما حبس الغداة من وند

ونحوه . الركي : جمع ركية ، وهي ليتر . دفان : مندفة ، جمع دنفج : الخطوبات :

جميع حطوبة ، ما يحتطبها الإماء ويجمعنه . الولائد : الإماء . فعددت : نزلت ،

مروراة : لا ماء فيها ولا نبات . يحار : يضل (حتى أن القطار الذي هو أهدي لطيبور

لا يهتدى فيها) السبع : القترس من الحمير وان . يتركان : يلتصق كل منهما أكل

صاحبه أسماطاً : يريد أسماً لا أي بالية . الشرف : المرتفع من الأرض الأرجاء : جمع

رجاء ، وهي التناوح . الموذ الإبل لق معها أولادها : هيجان : كرام .

(٢) الدعين : الأبقار الواسعات المبون . الآرام : جمع رثم ، وهي الظبي للخاص

البياض الأطلاء : جمع الطلاء ، وهو ولد القطبية والبقرة الوحشية . الماجثم : يكسر لثاء

موضع الجذوم (الرض) للآلى : الجهد والمشقة . الأنافى : جمع أنفية وإثنية ، وهي

حجارة توضع القدر عليها . الصفح : السود . المعرس : أصله المنزل ثم استعمل للسكان

الذي تنصب فيه القدر . المرجل : القدر . والجذم أو الجذ : البئر القريبة من السكلا

أو القديمة وملفات الزوزى من ١٤٠ .

على قطن بالشيم أي من صوبه
فأضحى يسبح الماء حول كثيفة
وسر على القنان من نقياته
وتبنا لم يترك بها جذع نخلة
كان بشيرا في هرايين وبله
كان خزار أس المجيمر غدوة
كان السباع فيه غرق عشية
بأرجائه القصوى أنايش عنصل (١)

فأرو القيس بصور السمره الخناطفة للمعان البرق وسط السحاب بحركة
اليدنين، وضوءه المنتشر في كل الجهات بالمصباح القوى، ويتأمل السحاب
فإذا الماطر ينزل منه مدرارا، وإذا هو سيل جارف يقتلع الأشجار والديار،
ويحول بين الوحوش وأركارها، لتلقى حتفها في تياره الجارف، لتصبح

(١) أصاح : منادى مرخم . الوميض والإيعاض : اللامع . الأسح : التحريك
والتحرك . الحبي : السحاب المزركم ، سمى بذلك لأنه حبا بعضه إلى بعض فتراكم ،
وجسه مكلا لأنه صار أهلا كالإكليل لأسفله . السنا : الضوء ، والسناء : الزينة .
السلط الزيت . ومنه السلطان لوضوح أمره . الدبال : جمع ذبالة وهي الفتيلة . وقطن :
جبل . والسناد ويذبل : جبلان ، بينهما وبين قطن مسافة بعيدة . الشيم : النظر إلى
البرق مع ترقب المطر . كثيفة : موضع . يكب : يلقى الشيء على وجهه . الأذقان :
الأشجار (أى يلقها) لغوح : المظلم من الشجر . السكنبل : من حجر المضاة
في البوادي . القنان : جبل بني أسد . القنيان : مانطير من مملكة المصم : تيوس
الجبال وأوعالها . الأطم : القصر أو الحصن . الجندل : الحجارة والجص . ثبير :
جبل بمكة . هرايين : أوال . الول : المطر الشديد .

البيجاد : كساء الأعراب غنط مصنوع من وبر الإبل وصف الفتم . مزول ملثف .
المجير : أكمة في أرض بني فزارة . القناء ماجاء به السيل . فلسكة منزل : ما استدار
فوق رأسه الأرجاء : النواحي . القصوى : تأنيث الأنثى وهو الأبعد . والأناييش :
أصول الثبت ، سميت بذلك لأنها تنبش أى تخرج من الأرض . المنصل : البعد القيرى .
انظر المملكات للروزني ص ٦٧ - ٧٦ .

بين الغناء ومخلفات السيل ، وإذا الطيور تفرد ، وإذا هذا الوادي يزدهر
بالخشب والنباء ، وإذا الفرحة تفرح ساكنيه .

ألا - أه قد صور فأبدع ؟ ووصف فأمتع ؟ ذوق على كثير من
الظواهر الطبيعية في الصحراء ؟ وسجل بعض قراها وجبالها ووحوشها
ونباتها ؟

والشاعر الجاهلي لم يغفل حيوانات صحرائه ، وخاصة ما كان شديد الألفة
بحياته منها كالإبل والحمل ، فقد أكثر فيها القول ، ووصف أحوالهما
وأحوالهما في دقة وعناية ، على نحو ما صنع طرفة مع ناقته في قوله (١) :

ولني لامضى الهم عند احتضاره بعوجا . مر قال تروح وتفتدي
أمون كالواح الإران نسائها على لاحب كأنه ظهر برجد
فقد وصف كل جزء من جسمها في براعة فائقة ، كما في قوله :

لها فخذان أكمل النحس فيهما كأنهما بابا منيف مرد ...
لها مرفقان أتلان كأنها تمو بسلامي دالج منشد
كفطرة الرومي أقسم ربهما لتكتنفن حتى تشاد بقر مد ...

(١) الاحتضار هنا بمعنى الحضور . العوجاء : الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط
نشاطها . للرنال : ما بين السير والمدود . الأمون : التي يؤمن عتارها . الإران : ثياب
العظيم . نسائها : زجرتها . ونسائها : ضربتها بالمساة (المساة) اللاحب : الطريق
الواضح . البرجد : كمام غطط . النحس : اللحم . النيف : العالي . المرد :
الملس . الأتل : القوى الشديد . بسلامي : أي بدلين لكل منها عروة واحدة .
الدالج : الذي يأخذ الدلو من البئر فيفرغها في الحوض . منشد : نوى . الاكتناف :
السكون في نواحي الشيء . القرمذ الآجر . الجمجمة : الرأس . العلاة : السندان .
الوعى : هنا بمعنى الاجتماع . الملتقى : طرف الجمجمة . السبت : جلود البقر
المذبوحة . التعرید : اضطراب اللطع وتماوته . الماوية : المرأة . الحجاج . منبت
شعر الحاجب . الفت : الفتحة في الجبل يستنقع فيها الماء . الطحور : التي ترمى عوار
القذى الرمد والوسخ . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

(انظر مملكات الزوزني ص ٨٧ - ١٠٠)

وججمة مثل العلاء كأنما وعى الملقى منها إلى حرف مررد
 وخد كقرطاس الشأمى ومشفر كسبت الثاني قدح لم يرد
 وعينان كالما ويتين استكنتا بكفى حجاجى صخرة قلت مورد
 طاحوران عوار القذى فتراهما ككحولنى مذعورة أم فرقد

وهذه الصورة الأخيرة تدل على قوة ملاحظة طرفة ، ودقة خبرته بأحوال
 حيوانات الصحراء ، إذ من المعروف أن حدة النظر والرشاقة لا تظهران في
 الظبية أو البقرة الوحشية إلا إذا كانت مذعورة وهي ذات ولد .

وبمثل هذا التفصيل المستقصى والروعة الفائقة في الوصف والملاحظة
 تفيض معلقة لبيد العامري عند حديثه عن ناقته^(١) ومع كل هذا فإن اهتمام
 الشاعر الجاهلي بالإبل لا يعدو على اهتمامه بالخيول ، التي صرف فيها القول ،
 ونوع فيها الشعر ، وملكت عليه قلبه وحواسه إلى حد لا تبارى فيه ، فلم
 تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً من أموالها ولا تكرمها صيانتها بالخيول
 وإكرامها لها ، لما كان لهم فيها من العز والجمال والمتعة والقوة على عدوهم ،
 حتى أن كان الرجل من العرب ليبيت طاوياً ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه
 وأمله وولده^(٢) . (يدمع ذلك ويفسره قول سلمة بن هيرة الضبي في
 فرسه) :

نوليها الصريح إذا شتونا على علاتنا ونلي السمارا
 رجاء أن تؤدبه إلينا من الأهداء غصبا وانفسارا^(٣)

(١) انظر معلقات الروزني ص ١٩٣ .

(٢) ولم تزل العرب على الرغبة في اتخاذ الخيل وصيانتها . . . حتى جاء الله بالإسلام
 فأمر نبييه صلى الله عليه وسلم باتخاذها وارتباطها لجهاد عدوهم ، في قوله تعالى :
 « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »
 - التوبة الآية ٦٢ - فاتخذها رسول الله عليه الصلاة والسلام وحض المسلمين على
 ارتباطها . . . (كتاب الخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى ط حيدر آباد : الثانية ص ٣٤ ، ٣٥)

(٢) كتاب الخيل ص ١٩ ، ٢٠ .

ولقد بلغ بالعرب اهتمامهم بالخييل إلى حد العناية بأنسابها وأسمائها ،
ففرس الحارث بن عباد البكري كانت تسمى النعامة ، يقول الحارث :

قربا مربط النعامة منى لفتت حرب وائل من حمال^(١)

وفرس خالد بن جعفر بن كلاب كانت تسمى حذفة ، وفيها يقول :

أريغوني إراغتكم فإني وحذفة كالشجي تحت الوريد

أسويها بنفسى أو بجزة وأحفها ردائي في الجليد^(٢)

ويقول أبو دود الإيادي - وهو من اشتهروا بنمت الخيل - في فرسه

الضاني السيب^(٣) :

أرعى أجمته وحيدى ويؤنسنى ضاني السيب أسيل الخد مفسوب

ماء جواد عتيق غير مؤثب تضمته له جرداء مرحوب^(٤)

ولم تند عن دائرة الشعر الجاهلي شاردة أو واردة في الخيل ، فقد أحاط
خيرها بكل أجزائها وأحوالها ، ولا يفتك عن هذا مثل خبير كأمريء القيس
في قوله :

وقد أغتدى والعير في وكائنها بمنجد قيد الأوابد هيك

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلود صخر خطاه السيل من حل

له أبطالا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقرب تنفل^(٥)

وعروة بن سنان العبدى في قوله :

أما إذا ما أثبتت فطارة كالجدع شد به تقى المنجل

(١) أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى والبيضاوى وأبي الفضل ، ط الخليل ص ١٦١ .

(٢) كتاب الخيل ص ٩ .

(*) الطويل للشمر في أملى العنق (العرف) .

(٣) كتاب الخيل ص ٦٢ .

(٤) معلقات الزوزنى ص ٥٢ وما بعدها .

أما إذا ما أدبرت فنييلة ضخم مكان حزامها والمركل
أما إذا ما أعرضت فتعامة تدرى سئابكها صلاب الجنجل (١)

وعلقمة بن عبدة في قوله :

وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلفاء وحلوق ملعب (٢)
وهوف بن الخمرع التيمي في قوله :

لها حافر مثل قعب الوليد ديتخذ الفار فيه مفارا (٣)
ثم إن الأمر لم يقف بالشاعر الجاهل من الخيل عند هذا الحد ، ولكنه
تخطى الإيثار والوصف إلى التجاوب الوجداني ، الذي رأينا نموذجة عند
الفارس الشاعر عنتره العيسى ، فقد فاضت وقته على فرسه ، حتى كان يتألم
لألمه ، ويشقى لشفائه ، ويرى بكاءه ، ويسمع توجهه حين تعثب به رماح
الأعداء ، وترجم عنه أحاسيسه ، قائلا :

فأزور من وقع القنا بلبائه وشكا إلى بهيمة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى

ولم كان لو علم السلام مكلمى (٤)

ومثل هذا الحس الوجداني يقرأ لنا عند المنخل الإشكري مع بهيمه ،
حيث جعل له قلبا يحب ويعشق مثله . في قوله :

وأحبها وتحبني ويحب ناقمتها بهيمى (٥)

ولعل حب العرب الجاهليين للخيل والإبل كان دافعهم إلى التفوق في
علم بطرة الدواب . بيد أن الخيل والإبل لم ينسيا الشاعر الجاهلي بقية حيوانات
صحرائه وطيورها ونباتها ، من ذلك قول عنتره يهجو قوما بعدم اهتمامهم
بالخيل ، لأنهم أصحاب حمير :

(١) كتاب الخيل ص ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٤) الأسميات ق ٩٠ .

(٥) الملقات ص ٣٠١ .

أبني ربيعة ما لمهركم متخذدا و بطونكم عجر ١٩
ولكم بإيشاء الوليد على إثر الحير بشدة خير (١)

وقول المنخل البعكري :

فإذا انشيت فإني رب الخروقي والسرير
وإذا صحت فإني رب الشوية والبعير (٢)

وقول عنزة :

بادار هيلة من مشارق ماسل درس الشؤون وعهدا لم ينجل
فاستبدلت عفر الغطاء كأنما أبهارها في الصيف حب الغفل
تمشى النعام به خلاه حوله مشى النصارى حول بيت الهيكل (٣)

وقوله :

وكانما نظرت بعيني شادن وكان فارة تاجر بقسيمة
وكان فارة تاجر بقسيمة رشا من الغزلان ليس بتوام
سبقت عوارضا إليك من الغم غيث قاتل الدمن ليس بمعلم
أو روضة أنفا تضمن نبتها فترك كل حديد كالدهرم
جادت عليها كل عين رة فزى الذباب بها يعني وحده
فردا كفعل القارب المترم (٤)

وحفل ديوان العرب بذكر المياه والشوق إلى ورودها وتعريف
مواقعها ، إذ كانت هزيمة فادرة في الصحراء ، ولم يكن لسكانها غنى من
هذه الموارد ، يؤيد ذلك قول عمرو بن كلثوم التغلبي : (وإن كان الزهر
آخذنا بعنانه) :

(١) كتاب الخيل ص ١ . (٢) الأصمعيات ق ٦٠ .

(٣) الأغاني طبعة السادس ١٤٠/٨ .

(٤) ديوان عنزة ، تحقيق : محمد سعيد مولوى طبعة المكتبة الإسلامية

(ط ١ : ١٩٥ - ١٩٧)

ونشرب إن وردوا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وحلينا^(١)
وأكثر منه دلالة قول جابر بن الأزرق :

فيما ألطف نفسى كلما التفت لوجه على شربة من ماء أحواض مأرب
بقايا فطاف أودع الغيم صفوها مصقلة الأرجاء زرق المشارب
ترقرق دمع المزن فيهن والتوت عليهن أنفاس الرياح الغرائب
لقد بسطت هذه البهجة العربية سلطانها على مشاعر شعرائها ، فوقفوا
قبالتها بصورون مشاهدا وانفعالاتهم تجاهها في دقة وبراعة ، إذ كان
سكونها لمسة سحرية وصداها مثار شعر ، ولم لا ؟ وهي التي تحرك العربي ،
وتغذي خياله ، وتنطق لسانه ، يشعر فيها باستقلاله وعظمته ، لا ترهقه
سلطان ، تنبسط أمامه رقعة الأرض فينعم بمنظرها فيجيش صدره وينطق
بالعمر لسانه ، (٢) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العربي كان - في بعض الأحيان - يخرج
بدافع الحاجة من دائرة صحرائه إلى البحر ، الذي كان العربي يركبه أحيانا
وقد وجدنا حكايات هذا الحكم في الشعر الجاهلي ، فهذا طرفة بن العبد يقول
في البحر والسفن التي تخر هبابه :

كان حروج المالكية غدوة خلأيا سفين بالفواصف من دد
هدولية أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طورا ويتدى
يشق حجاب الماء حيزومها بها كما قسم القرب المفائل باليد^(٣)

(١) الملتقات الوزني ص ٢٦٥ .

(٢) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ط القاهرة ص ٢٢ .

(٣) الملتقات الصبح ص ٨٢ - ٨٤ .

• • • حروج وأحراج : جمع حرج ، وهو مركب النساء ومثله المودج ، المالكية :
تعبية إلى بني مالك بجهة من كلب . الفخلا : جمع خلية . وهي السفينة العظيمة .
الفواصف : جمع الفاصفة ، وهي أماكن تأسع من نواحي الأودية . دد : اسم واد .

وهذا عمرو بن كلثوم التغلبي يفتخر قائلا :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا (١)
وبشر بن أبي خازم يصف السفينة ، وقطعها التلحجان ، وينفذ إلى نفوس
راكبها ، فيصور حالتهم النفسية ، واستحضارهم ما قدموا من ذنوب ،
لهول ما يلا فون ، وما يتمل في نفوسهم من خوف ، في قوله :

معبدة السفائف ذات دمر مضرة جوانبها رداح
إذا ركبت بصاحبها خليجا تذكر ماله من جناح
يمر الموج تحت مشجرات يلين الماء بالخشب الصواح
ونحن على جوانبها قعود نفخ الطرف كالإبل القماح (٢)
يمثل هذا الإتيان صور الشاعر الجاهلي بيتته العربية وظواهرها الطبيعية
الساکنة والمتحركة ، وسجل مشاعره على صفحة البحر حين اضطرت الحاجة
إلى ركوبه .

والشاعر الجاهلي لم يقصر تصويره الفساذ على البيئة وملاساتها ،
ولنما وسع دائرته ليشمل حياة العرب بكل أبعادها من عقلية واجتماعية
ودينية وأخلاقية وعادات وأوهام وما إلى ذلك .

٢ - الشعر الجاهلي وحياة العرب العقلية :

من المحقق أنه كان للفحاسة في الشام والمناذرة في الحيرة والتبابعة في
البن حضاربات ومعارف ، وأنه لم يكن لسكان الجزيرة العربية من آثار
المدنية العقلية أفضل من الشعر ، وأن ما وصلوا إليه من أسباب العلوم إنما
كان مبني على قوة النظر وصدق الحس ، مستمدا من التجربة والمشاهدة
حينا ، ومن مخالطة الأمم المجاورة حينا آخر ، إذ كانت تشق الجزيرة العربية

معدوية : نسبة إلى عدوى ، قبيلة بجرانية . وابن يامن : رجل من أهلها . حباب :
أمواج الخيزوم : الصدر .

(١) مملكات الروم ص ٢٦٦ . (٢) ديوان بشر بن أبي خازم .

طرق تجارية منظمة ، تجوب صحراواتها فتلقى بين ربوعها ثمار الثقافة الوافدة ، وهذه الأسواق والمواضع العربية التي كان العرب يقيمونها في أطراف الجزيرة حيناً وفي قلبها حيناً آخر ، وكان يؤمها العرب من مختلف بقاعهم وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية ، وكان يؤمها كذلك بعض التجار الفرس والهنود والمصريين والرومان ، يلتقون في صعيد واحد ، يتبادلون ما عندهم من متاع وعروض وآراء وأفكار من مظاهر الحضارات المختلفة ، ثم هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التي كانت تفسد على الجزيرة العربية فتيقن فيها ، بل تتخذ منها موطناً آخر تقضى فيها حياتها ، (١) .

ولا غرو ١١ ، فالكتابة كابت معروفة بل كانت شائعة في الجاهلية ، (٢) .

أما وجود المعلمين في الجاهلية فأمر ثابت منصوص عليه في وضوح لا يصل الشك إليه ، من هؤلاء المعلمين : عمرو بن إزراة وكان يسمى السكاك وبغيلان بن سلبة بن معتب ، (٣) وقد أطلق على هؤلاء المعلمين فيما بعد « المؤدبون » .

يدل على ظهور الكتابة عند الجاهليين (٤) قول المرقس الأكبر :

لدار وحش والرسوم كما رنش في ظهر الأديم قلم

وقول ليبد بن ربيعة العامري :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أفلامها

وقول عدي بن زيد العبادي :

تعرف أمس من لميس العليل مثل السكتاب للدارس الأحول

وقول حاتم الطائي :

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ١٧ (٢) المعجم الجاهلي د. هوقى ص ١٣٩

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٠ .

(٤) انظر الأدب العربي وتاريخه في المعجم الجاهلي ص ١١٦ .

أنعرف أطلالا ونؤيا مهدما كنخطك في رق كتابا ممتعا

وقوله طريقة بن العبد :

وخد كفرطاس الشكوى ومشفر

كصبت الياني قسده لم يبرد^(١)

كذلك كان لاتصال العرب الجاهليين بالأمم الأخرى أثره في اتصالهم المباشر بمعالم المدنية والحضارة في هذه الأمم ، وما د شاع بين الناس أن العرب في جاهليتها أمة منمولة عن العالم لاتتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلها منفصلة عن حوّلها لاتتصل بهم في مادة ، ولاتقتبس منهم أدبا أو تهذيبا : فخلق أن هذه فكرة خاطئة ، لأن العرب كانوا على اتصال بمن حوّلهم ماديا وأدبيا ، ولاريب أن الرحلات إلى الأمم المتقدمة تجعل دائما تحت هيون الرحلين مدنية جديدة يقتبسون منها على قدر استعدادهم ، وليس أدل على ذلك مما أخذه العرب في جاهليتهم من كلمات فارسية ورومانية ومصرية وحديثة ، أدخلوها في لغتهم وأخضعوها لقوانينها ونطق بها القرآن الكريم^(٢) .

وقد كانت إمارتا المشافرة والفسانة بمثابة صلة الوصل بين العرب من جانب والفرس والروم من جانب آخر ، كما كانتا بما أفادنا من حضارة هاتين الدولتين بمثابة جدولين كبيرين تسرب منهما ماء هاتين الحضارتين إلى الجزيرة العربية : والتاريخ شاهد صدق على أن هدى بن زيد التميمي كانا كاتباً بالعربية ومترجماً في بلاط كسرى ، وأن ابنه زيد قد قام بهذه المهمة بعده ، وأن لقيط بن الإيادي كان كذلك في بلاد فارس ، وأن المرفش وأخاه حرملة كانا ممن تعلوا في مدارس الحيرة ، وأن امرأ القيس قد اتصل بقيصر ملك

(٢) فجر الإسلام من ١٢-١٦ .

(١) مملكات الزوزني من ٩٩ .

الروم بعد أن طوف في العرب كثيرا ، طلبا للثأر من قتلة أبيه ، وقد أكرمه ملك الروم وناداه ، وفي ذلك يقول :

ونادمت قيصر في ملكه فأوجهي وركبت البريدا
إذا ما ازدحمنا على سكة سبقت الفرائق سبقاً بعيداً^(١)
ومعرفة العرب بهذه الأمم جعل طريقة يشبه ناقة بقنطرة الرومي ،
في قوله :

كقنطرة الرومي أقسم ربها لتسكتنن حتى تشاد بقرمد
ولم تقف أسفار الأتشي عند الحدود العربية بل وجه رواحله نحو الملوك
المجاريدين في الحبشة والشام وفارس ، فهاهو يقول :
قد جيت ما بين باقيا إلى عدن وطال في العجم تردادي وتسياري
وما جاء على لسانه :

وقد طفت للبال آفاته عمان خمصر فأوريشم
أتيت النجاشي في أرضه وأرض التبيط وأرض العجم^(٢)
وسواء أكان الأعشى هو قائل هذين البيتين أم أجريا على لسانه فإنهما
يقبتان أنه كان كثير التنقل والترحال جائلا في عتاف الأنحاء القريبة منها
والبعيدة ، وأن رحلاته المتعددة اكتسبت شهرة بين الرواة ، ونوعية عمرو
بن كلثوم نفي عن معرفته بالحيرة والأندرين الشامية وبعليك ودمشق
وقاصرين ، من ذلك قوله :

وكأس قد شربت ببعليك وأخرى في دمشق وقاصرينا^(٣)
ولقد كان هؤلاء الشعراء وغيرهم بمثابة السفراء ، فلا جرم بعد أن يكون
للعرب في الجاهلية معارفهم وعلومهم ، كعلم النجوم والكواكب التي كانوا
يحدثون بها في ظلمات البر والبحر ، والأنساب والأخبار ليحافظوا على

(١) الشعر والشعراء ١/٦٢٠ .

(٢) أنظر : غنارات من روائع الأدب . د . عبد السلام سرحان ص ٧١ .

(٣) مقالات الرزني ص ٢٣٦ .

جصيتهم وليخلدوا مآثرهم ، والفراصة والقيافة ليحفظوا أهراتهم وليطلبوا
الحارب منهم ، والسكرانة والمراقة والزجر ، ثم الطيب وبيطرة الدواب لانصال
ذلك بحياتهم وحربهم اتصالا وثيقا ، ولا عجب !! ففي كلام العرب وأشعارهم
ما يؤكد هذه الحقيقة العقلية ، ففيه الكثير من أسماء السكواكب . كالفرقدين
والسالكين والشعري والجوزاء والعيوق والثريا ، ما يدل على قدم معرفتهم
بذلك ، انظر كيف كان المهمل - عدى بن ربيعة - يرقب مصابيح السماء ويصف
نجومها بقوله :

| | |
|------------------------|---------------------------|
| كان كواكب الجوزاء عوذ | مغلطة على ربع كسير |
| كان الجدى في مثناة ربق | أسير أو بمنزلة الأسير |
| كان النجم لإذولى سحيرا | فصال جللت في يوم مطير |
| كواكبها زواحف لا غبات | كان سماءها يبدى مدير |
| كواكب ليلة طالت وغمت | فهذا الصبح راغة فقورى (١) |

وروعة امرئ القيس وبراعته في قوله :

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| فيالك من ايل كان نجومه | بكل مغار القتل شدت يذبل |
| كان الثريا خلقت في مصامها | بأمراس كتمان إلى صم جندل (٢) |

وتصوير الشماخ بن ضرار في قوله :

| | |
|-------------------------|------------------------------|
| ليلي بالعنيزة ضسوء ناز | تلوح كأنها الشعري العبور |
| إذا ما قلت أحمدها زهاها | سواد الليل والرجح الدبور (٣) |

ناهيك بقول عروة بن حوام في هراف نجد الأبلق السعدى وهراف
البيامة رباح بن عجلة :

جعلت لهراف البيامة حكمه وهراف نجد إن هما شفيان

(١) شعراء النصرانية للأب لويس شيخو . ط بيروت ١/٢٧٣ .

(٢) المقاتل السبع ٤٨ .

(٣) حيار الشعر لابن طباطبا . تحقيق : عباس ميقاتي ط : لبنان ص ٢٤ .

وقول أوس بن حجر يمدح نفسه بالتفوق على ابن حذيم الطيب العربي.
المشهور:

فهل لكم فيما إلى فأننى طيب بأعيا النظامى حذيماً (١)

وقول الشاعر في بى لب المشهورين بالقيافة والزجر:
خبير بنو لب فلانك ملغيا مقالة لبي إذا الطير مرت

والشعر الجاهل بعد هذا كله يحمل أفي تضاعفه دلائل صفاء أذهان
الجاهليين. وصدق نظارم في الطبيعة وأحوال الإنسان ، وملاحح خطرات
فلسفية وفكرية رائمة ، يقف أمامها مثقفو اليوم مشدوهين كما في
قول زهير:

وأعلم ما في اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غدم...
ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خاطها تخفى على الناس تعلم
وقوله:

وفي الحلم إذهان وفي الغفو درية
وفي الصدق متجاة من الشر فأصدق (٢)

وقول النمر بن قولب:
يود الفتي طول السلامة جاهدا فكيف ترى طول السلامة يفعل (٣)
وقول المرقش الأصغر:

ومن يلق خيرا يحمده الناس أمره ومن ينو لا يعدم على الفى لائما (٤)

(١) المستقصى في أمثال العرب للرحمى الطيبة الثانية ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) المعنى لابن رهيقي ٢٨٢/١ . (٣) حيار الشعر ص ٥٢ .

(٤) العنق والشعر ص ٢١٥/١ .

وقول عمرو بن الأَهم :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقول ذي الأصبع العدواني :

كل امرئ راجع يوم ما لشيئته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين^(١)

إن سرعان النزعة العقلية التأملية في هذه التناقض يؤكد كثرتها في ديوان العرب ، ويثبت التحضر العقل المبكر عند العرب الأقدمين . وليست النزعة البيانية التي حفلت بها صفحة الشعر الجاهلي بأقل من هذه الخطرات التأملية الفاحصة دلالة على ما كان يشتمع به العربي من عقل ملهم وإحساس عميق وفكر ثاقب .

ولقد كان الشاعر الجاهلي بنجوى من المبالغة الممقوتة والإغراق المذرى : وما مبالغة المهلهل وعنترة وابن كثوم إلا من قبيل مبالغة الفرسان الذين يتفقدون حماسة وشجاعة وقوة وفتوة ، ولكنهم لا يخرجون من المعقول في الغالب الأعم :

وهذا زهير يبالغ في مدح هرم بن سنان ، ولكنه لا يخرج من المعقول ، في قوله :

لو كان بقعد فوق السمسم من كرم قوم بأولهم أو عديم قدوا
محسبون على ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم ماله حسدو^(٢)
ثم يلوح لى في شمة ليل ذوبان العرب - الصماليك - شباب ، بقود خطا
فكرى إلى زاوية في شعر هؤلاء الدؤبان ، تفيض بفسكرة عقلية إنسانية
نبيلة ، تتمثل في دعوة عروة بن الورد زعيم الصماليك إلى العدالة الاجتماعية
والتوازن الاقتصادي ، كما في قوله :

إني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

(١) المفضليات ج ١ ص ٢٥ ، ٦٥٨ .

(٢) انظر تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان . تطبيق : ٣ . شوقي

أتهزأ مني أن سمعت وأن ترى على شعوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد
وقوله :

ومن يك معلى ذا عيال ومقرا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو يصيب رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجج^(١)

فالجوع أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان ولهذا كانت نفوس الفقراء تموج بالحقد والثورة العارمتين على الأغنياء الأشحاء إن دعوة هروء الصعاليك هذه في جوف الجاهلية لتؤكد رجاحة فكره وثقوب عقله ، فقد كان هدفه نبيلًا ومفراه كريمًا : بيد أن الزكاة التي جعلها الإسلام ركنا من أركانه لأمدى وأقوم قبلا : لما فيها من تنظيم ورضا وتسليم وتسكاتل اجتماعي : ولما تحققة من إقامة مجتمع الكفاية والعدل والفرص المتسكاتمة والتآخى والحب في ظل اشتراكية إسلامية ، انطلاقا من قول المولى عز وجل : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وقوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » ، وقوله جل علاه : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » ،^(٢)

يمثل هذه الصورة الملمة الصادقة نطق الشعر الجاهلي بنبض العقلية العربية وأفكارها ، وأصح من علوم العرب الأقدمين ، وكشف في دقة وبراعة من موارد ثقافتهم ومدى معارفهم ، دونما تحريف أو تزويد ..

(١) ديوان هروء ، شرح ابن المكيث طبعة الجزائر ١٩٧٦ ص ٩٩ و ١٣٨

(٢) سورة المارج الآية ٢٥ ، سورة الأنعام الآية ١٤١ ، سورة التوبة الآية ١٠٣

٣ - الشعر الجاهلي وحياة العرب الروحية :

تنوعت العبادات في الجزيرة العربية ، فقد كان العربي قليل الاحتفال بها عند إحساسه بالأمان ، ويدعو أن عبادة الكواكب كانت من أقدم العبادات العربية ، وأن عبادة الأصنام كانت طائفة على جزيرة العرب وأن النصرانية واليهودية قد تسربت إلى هذه الجزيرة وعرفت فيها .

وفي هذه اللجة الغائمة رأى جماعة ضرورة الخروج بعقليتهم من هذا الدرك من الانحطاط بظلم الأوثان، واهتدوا إلى أن لهذا السكون خالقاً وأن للناس معاداً ، وقد عرفوا بالحنفاء من أمثال ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت ، الذي يقول :

أنا ميت إذ ذاك تمت حى ثم بعد الحياة للبعث ميت^(١)

يبد أن عباد الأوثان كانوا يقولون بالخالق ، يقول المولى عز وجل في حقهم : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، »^(٢) . وجاء في القرآن الكريم على لسانهم « مانعبدكم إل ليقربونا إلى الله زلفى »^(٣) .

ورأينا جماعة من الوثنيين سئموا وثانيتهم وأحسوا قصورهما عن حاجتهم الروحية فالوا إلى الشك والإباحة ، ونظروا إلى الحياة على أنها مهولة غير مفهومة ، ينبغي أن تقضى في طوولدة واستتار ، يرود هذه الجماعة طرفة بن العبد حيث يقول :

ألا أيذا الزاجرى أحضر الوشى وأن أشهدا للذات هل أنت غلدى ؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منبى فدعنى أبادرها بما ملكك بدى
وحيث يقول :

(١) انظر تاريخ آداب الفنة العربية - ١ ص ١٥٤ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٧ . (٣) سورة الزمر الآية ٣ .

من تأتني أصبحك كاساً روية وإن كنت منها ذا غنى فغن وازدد
كريم يروى نفسه في حياته ستعلم إن متنا هذا أينا الصدى (١)

وإذا كان بأس طرفه من حياته وشكه في الآخرة قد دفعاه إلى أطراح
الجبن والتعلق باللهو واللذة فإن زهيراً وهو وثى - لا يحس إحساسه ولا يعلم
إلى أن الحياة هبت وطوا أو أن العالم خلق سدى ، ولكنه يحس تصور البيانات
ولهذا أخذ يفكر في نهاية الحياة ، ويتشبه بفكرة الآخرة :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى بهما بكم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يجعل فينتقم
وإن لم تقم هذه الفكرة عنده هل برهان عقل أو بحث قوى أو رأى
دينى ، بدليل اضطرابه بعد حين جعل الموت مصادفة في قوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تعصب نمته ومن تخطى يعدم فيهرم
والروح الدبيلة تشيع في شعر كثير من شعراء الجاهلية ، ومنهم أوس
ابن حجر الذى يقول :

وتعزذوا بالله من أقلامه إن السيوف لها من الحساد
ويقول :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر
مددت رجالاً من قديم تفجساً لما ابن لبيق والتفجس والفخر
ونرضى هنا رأى واحد من الباحثين المحدثين (٢) الذى ذهب بعلل ورود
لفظ الله في الشعر الجاهلى بقوله : « إن لفظ الله ، فى الشعر الجاهلى محرف
من لفظ اللات ، وهو معبود وثى ، وقد حرفه الرواة المسلمون ، واسكن
يبطل هذا رأى قول أوس :

(١) الملتقات السبع ص ١١١ - ١١٦ .

(٢) الدكتور محمد جواد على فى كتابه « العرب قبل الإسلام » عند حديثه فى
الجزء الخامس من الحياة الدينية .

وباللات والعزى ومن دان دينها وباقه إن الله منهم أكبر
وليس معقولا أن يكون لفظ الجلالة هنا عرفا من اللات إذ أنه أقسم في
الشعر الأول من البيت باللات ، ثم قال : إن الله أكبر من اللات .

إن الروح الدينية واضحة في بيتي أوس ، فالتموذ بالله والقسم باللات
والعزى ثم الإضراب عن هذا القسم الوثني ليقسم بالله ، لأن الله أكبر منها ،
يؤكد هذا الموضوع الديني ، (١) .

ولقد تردد ذكر لفظ الجلالة ، في الشعر الجاهلي عند غير أوس كثيرًا ،
فليس بدعا أن يرد في شعره ، تأمله في هذا الإطار الديني عند زهير في قوله :
رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فابلاهما خير البلاء الذي يبلى (٢)
أو قول النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك ربيبة وليس وراء الله للمرء مذهب . .
لم تر أن الله أصطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذنب (٣)
وفي قول هروة الصاملي :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مضى في المشاش ألفا كل مجور
يعد الفنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر (٤)
إن شعرا الجاهلي ينضح بالروح الدينية عند حرب الجاهلية ، ويكشف
عن أبعاد ومناحي الحياة الروحية التي عاشتها الجزيرة العربية .

٤ - الشعر الجاهلي وحياة العرب الاجتماعية :

بقى العرب الجاهليون الذي كانوا يقيمون حياة شبه منزلة محافظين على

(١) انظر : شعر الجاهلي ، مراحل وأبعاده الفنية ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) ديوان زهير ص ٣٧ .

(٣) انظر السدة لابن ربيق ٢/٢٨٢ .

(٤) الأصمعيات ص ٤٥ ب ١٣ .

موروثهم وميزاتهم القديمة ، يعيشون من عقولهم في وحدات فكرية هي
خطرات طارئة ، فليس لذلك في شعرم اضطراب حياتهم ، وتبصر حياتهم
وفهمهم مصورة في آثارهم الشعرية تصويرا دقيقا رائعا ، ولا عجب !!
فالأدب بعامة صورة الحياة الفردية والاجتماعية : وإنك لتنظر في صفحة
الشعر الجاهلي فتعكس على خيالك من مرآته صورة واضحة لحياة العرب
الاجتماعية في سلمهم أو حربهم . التي كان ليشتهم الأثر الفعال في سننها
وتكوينها ، سواء في ذلك العادات المتأصلة التي جرى عليها العرب منذ من
بعيد - المعروفة بينهم بالأوابد - أو المعتقدات والأوهام أو غير هذه وتلك
من آداب وأخلاق ، والتي يمثل مجموعها المظهر الصادق لحياة المجتمع العربي
في الجاهلية .

يقول ليبد العامري في الجري على سنن الأجداد العظام . والحرص على
الموروث الخلق :

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| إنا إذا التقت الجماع لم يزل | منا لواز عظيمة جشامها |
| ومقسم يعطى العشرة حصا | ومغذمر لحقوقها هضامها |
| فضلا ، وذوكرم يعين على الندى | مصح كصوب رغائب غنامها |
| من معشر سنت لهم آباؤهم | ولكل قوم سنة وإمامها |
| لا يطبعون ولا يبور فعالمهم | إذ لا يميل مع الهوى أحلامها (١) |

ويقول زهير في هرم بن سنان :

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| له في الذاهبين أروم صدق | وكان لكل ذى حسب أروم |
| وعود قومه هرم عليه | ومن عاداته الخلق الكريم |
| كما قد كان عودهم أبوه | إذا أزم بهم سنة أروم |

إن من أروع ما يمثل أخلاقهم أو قل : مناهلهم العليا قول سويد بن أبي كاهل
الشكري ، الذي يتغنى فيه بأجداد قومه :

من أناس ليس من أخلافهم عاجل الفحش ولا سوء الجزع
 حرف للحق ، مانعيا به عند من الأمر ، ما فينا خرج
 وإذا هبت شمالا أطمعوا في قدور مشبعات لم تجمع . . .
 لا يخاف القدر من جاورم أبدا منهم ولا يخشى الطبع
 ومما يبيع بما ضمن به حاسر والآنفس من سوء الطمع . . .
 فيهم ينسكى عسدر وبهم يرأب الشعب إذا الشعب انصدع
 عادة كانت لهم معلومة في قديم الدهر ليست بالبدع^(١)
 والسكرم الذي صورته سعدى بنت الشمر دل الجهنية في رثاء أخيها أسعد
 يامطعم الركب الجياع إذا هو حنوا المطى إلى العلا وتسرعوا
 إن تأنه بعد المسدود الحاجة تدعو ، يحبك لها نجيب أدوع^(٢)
 والذي تمدح به ظرفة البكرى في إقوله :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يستوفد القوم أرغد^(٣)
 والذي يصدق على العرب فيه قول زهير :

لو كان يقدفوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو بجدم قعدوا
 هذا السكرم العربي استتبع قبا وعادات روائع ، كإشعال النار في رؤوس
 الجبال ليبتدى بها من يضرب في الصحراء ليلا هل خير هدى ، ففى هذا أشبه
 ما تكون بمنار السفن في العصر الحاضر ، يؤكد ذلك قول الخنساء في
 أخيها صخر :

وإن صخرنا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار^(٤)
 وقول حاتم الطائي الذي ترفع بنفسه عن عبادة المال فوظفه فيما يكسبه الرقة :

(١) مفضليات الضبي ص ١٩٤ ب : ٣٢ - ٤٤ .

(٢) الأصمعيات ص ١٠٢ ب : ١١ - ٢٩ .

(٣) مملكات الوزنى ص ١٠٦ .

(٤) الأغاني ٣١/١٣ ط السامى .

إذا كان بعض المال ربا لاهله فإني بحمد الله مالى معبد
يفك به العاني ويؤكل طيبا ويعطى إذا ضل البخیل المصد
إذا ما البخیل الحب أخذ ناره أقول لمن يصل بنارى أوقدوا
وقوله الذى يضيف فيه إلى إشعال النار استنباح السكلاب ، ليعكون الهداية
ضال ليل الصحراء معلم حصى بصرى ومعلم صوتى :

ودأع دعا بعد الهدوء كأنما يقاتل أهوال السرى ونقاتله
دعا يأنسا شبه الجنون وما به جنون ولكن كيد أسر يحاوله
فأوقدت نارى كي ليصير ضوؤها وأخرجت كلبي وهو فى البيت داخله (١)

ورعاية العرب لأدب الضيافة من ترحيب وبشاشة وإراقة دماء المهرجان
أثر من أثار كرمهم ، يكشف عن هذه القيمة الجميلة قول عمرو بن الأهتم :
أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل لأحرره إن المسكان مضيق
فقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا فهذا صبوح واهن وصديق
وقت إلى الهرك الهواجد فانتفت مقاحيد كوم كالمجادل روق
بأدماء مرباع التناج كأنها إذا هرصت دون العشارفتيق ..
فبات لنا منها والضيف موهنا شواه سمين زاهق وغوبق
وكل كرم يتقى الدم بالقوى والخير بين الصالحين طريق (٢)
وفى هذه الأدب يقول حاتم الطائي (٣) :

فلما رآنى كهر الله وحده وبشر قلبا كان جما بلا به
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا رشدت ولم أقمداً إليه أسائه
وقت إلى برك هجان أهده لوجبة حق نازل أنا قاعله

(١) انظر ديوان حاتم الطائي - كرم البستانى - طبعة صادر بيروت ١٩٥٢ م .

(٢) المفضليات ص ١٢٦ ب : ٧ - ٢١ .

(٣) انظر ديوانه .

بأيض خطت نعله حيث أدركت من الأرض لم تخطل على حائله
لجسار قليلا وانقضى بخيره ستاما وأملاه من التي كاعله
نحر وظيف القرم في نصف ساقه وذلك عقال لا ينشط عاقله
بذلك أوصاني أبي وبمثلله كذلك أوصاه قديما أوائله

د وكان السارى إذ جنه الليل ، ولم يجد هدى نبيح كما تنبىح السكلاب فتنبىح
على نياحه ، فيبتدى بذلك إلى مكان الحى ، ولهم في ذلك أشعار كثيرة منها
قول نابغة بن جعدة :

ومستبىح نستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
عوى في سراد الليل بعد اعتسافه لينبىح كلب أو ليفزع نوم
لجأوبه مستمع الصوت للقرى له عند إطماع المهبين مطعم
يكاد إذا أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم (١)

وقول عمرو بن الأهم :

ومستبىح بعد الهدوء دعوته وقد حان من نجم الشتاء خفوقه
يعالج عريضا من الليل باردا تلف رياح ثوبه ، وبروق (٢)
والعرب في الجاهلية إلى جانب هذه المثل الأخلاقية مثل أخرى كالرفاء

والنجدة وإغاثة الملهوف ، يقول بشامة بن حزن النشلي :

إن تيتسدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا
وليس بلك منا سيد أبدا إلا افلتينا غلاما سيذا فينا
إني لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكفاة : ألا أين المحامونا ؟ (٣)
ومن مثلهم حسن الجوار والحفاظ على الجار يقول حاتم الطائي :

(١) الأدب العربي وتاريخه من ١١٣٠ - (٢) المفضليات من ١٢٦٠

(٣) الكامل للبردة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٧١

وأقسمت لا أمشي إلى سرجارة يد الدهر مادام الحمام يفرد
وما جرجارى يا ابنة القوم فاعلى يجاورنى ألا يكون له ستر
بعضى من جارات قوسى غفلة وفى السمع منى عن حديثهم وقر^(١)
ويقول فارس عيس هنترة :

وأهض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى ما واما
لنى امرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواما^(٢)

على أن العرب لم يقصروا كرم الجوار على الجار الجنب وإنما سمعوا
دائرته ليشمل من استجار بهم وجاورهم ، يؤيد ذلك قول ابن دارة الغطافاني
في جوار طي :

جزى الله خيرا طيها من عشيرة ومن صاحب تلقام كل يجمع
م خلطوني بالنفوس ودافعوا ورائى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا : تعلم أن مالك إن يصب تفدك ، وإن تحبس نركك وتشفع^(٣)

وقول رجل من بني سلامان بن سعد القضاء :

كان الجار في شجى بن جرم له نعام أو نسب قسريب
يضاط ذماره ويلب عنه ويحمى سرجه أثف غضوب
ألفت مساكن الجبلين لنى رأيت الدوث يألفها العريب^(٤)

إن مثل هذه الرعاية وهذا الحذب قد جعله قيس بن الحداية المخزوم
يقول في آل عمرو بن خالد الذين آووه :

وقد حدثت عمرو على بعصرها وأبنائها من كل أروع ماجد
أولئك لإخواني وجل عشيرتي وثروتهم والنصر غير المحار^(٥)

(١) انظر ديوان حاتم التمار إليه سلفا . (٢) ديوانه هنترة ص ٣٠٨ .

(٣) كامل المبرد ١/٧٧ . (٤) المرجع السابق والصفحة :

(٥) الأغاني ١٣/٥٠ .

بل إن أبا الطمحان القتيبي يعلن أنه قد نسي أهله في جوار من استجار بهم
بعد أن خلعه قومه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، مانهر عليه كلاهم :
: وقد عرفت كلاهم ثيابي كأنني منهم ونسيت أهلي (١)
وما أكثر المثل الرفيعة عند العرب ، ويكفي للتدليل على هذه الحقيقة
قول هنترة :

ولقد أبنت على الطوى وأظله حتى أقال به كريم الما كل
وقوله :

وإذا صحت فإقصي عن ندي وكما علت شمائلي وتكرمي (٢)
كذلك أفصح الشعر الجاهلي من عادات العرب التي كان منها : اعتماد
العربي من زواج قريبته ، فراراً من ضعف النسل ، قال شاعرهم :
فني لم تلهه بنت هم قريبة فيم ضوى وقد يضوى ريد الأقارب
وقال الآخر :

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة عفاة أن يضوى على سليها
في حين أنهم كانوا يعتقدون أن إغضاب المرأة أثناء جماعها يعني إنجاب
نذكور ، يقول الشاعر :

تسغمتها غضبي فجاء مسهدا وأنفع أولاد الرجال المسهد
ويقول أبو كبير الخنلي :

من حملن به وهن هوافد حبك النطاق فشب غير مهبل (٣)
ويفصح الشعر من الصفات الخلقية التي كانت تثير في الرجل إعجابه
بزوجته قائلاً :

لقد أهجبتني لا سقوطاً فناءها إذا مامشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهرى غرورها لجاراتها ، إذا الهدية قلت

(١) الحيوان للجاحظ ١/ ٢٨ (٢) الديوان ص ٢٤٦ ، ٢٠٧

(٣) انظر كامل البرد ١/ ١٣٤ ، ١٣٥

تحل بمنجاة من اللوم يتها إذا ما بيوت بالمذمة حلت . . .
 إذا هو أعمى آب قره عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت (١)
 وكان من عادتهم في التزين الدق بالوشم - النشور - يقول طرفه البكري:
 لحولة أطلال بوقه تهمـد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
 ويقول زهير:

ودار لها بالرفقنين كأنها مراجيع وشم في نواشر معهم (٢)
 وكان العرب يحبون سادتهم وعلوكمهم في المناسبات والأعياد بطاقات.
 الزهور ، مثلما نحبهم في العصر الحاضر ، مما يدل على تحضر العرب المبكر ،
 من ذلك قول النابغة الذبياني في الخساسة :

رقاق النعال طيب حوزانهم يحبون بالريحان يوم السباب
 يحبهم بعض الولائد بينهم وأكسية الأضرميح فوق المشاجب
 وكانوا يقصون شواربهم ويرسلون لحام ، يقول حريث بن عنان الطائي:
 غلام قلبي يحف سباله ولحيته طارت شعاعا مقروا
 وكانوا يتساقفون في الحلبة على صهوات الخيول ، ويتراهنون ، يقول
 منقرة في مقتل مالك بن زهير :

فله عيننا من رأى مثل مالك حقيرة قوم أن جرى فرسان
 فليتهما لم يجريا نصف خلوة وليتهما لم يرسلأ لرهان (٣)
 وكان من أعرافهم من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، ومن هؤلاء
 قيس بن عاصم المنقري ، الذي يقول في ذلك :

لعمرك إن الخمر مادمت شارباً لسالبة مالي ومذهبة عقلي
 وتاركة بين الضيوف قرام ومورثة حرب الصديق بلادخل
 والمتلس الذي يقول في ذم الخمر :
 جمادى لها جماد ولا تقولي طوال الدهر ما ذكرت جماد (٤)

(٢) هرج المعلقات للروزي ص ٨١-٨٢.

(٤) انظر كامل المبرد ٧٠/٢ .

(١) الفضليات ص ١٠٩ .

(٣) ديوان منقرة ص ١١ .

وقول زهير في حصن الفزارى يشير إلى أنه كان بنجوى من الخمر :
أخى ثقة لا تتلف الخرماله ولكنك قد يتلف المال ناله
تراه إذا ما جئت به مهلا كأنك تعطيه الذى أنت سائله (١)
وكانوا يمجون الإسراف فى شرب الخمر ، والتهافت على حوائثها ،
وإتلاف موروث الأموال ، وكنتسبها فى اللذة والمجون والاهو ، يقول
طرقة بن العبد :

وما زال تشرابى الخمر ولذنى ويبحى وإنفاق ظريقى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد (٢)
ومن عاداتهم دكهم - إذا أصاب إبلهم الحر والجرب - السليم منها لينهب
الحر عن السقيم وفى ذلك يقول النابغة :

يكلفنى ذنب امرئ وتركته كذى العريكوى غيره وهو رائع (٣)
ومن عاداتهم التى تمكش عن معرفتهم بطائع الحيوان ، لا عن الوم
والخيل ، وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب ، إما لكدر الماء أو لقله
العطش ، ضربوا الثور ليقنحهم الماء ، لأن البقر تنبعه كما تنبع الدول الفحل ،
وكما تنبع أن الوحش الحمار ، فقال فى ذلك هوف بن الخرم :
هيجون أن هيجوت جبال سلبى كضرب الثور للبقر الظاماء
وقال أنس بن مدرك فى قتله سلبك بن السلكة :

إنى وقتلى سلبكا ثم أعقله كالغور يضرب لما عافت البقر
وكانوا يزعمون أن الجن هى التى تصد الثيران من الماء - بركوبها إياها ،
فتصد البقر عن الشرب ، فيضربون الثور ليطير الشيطان عنه ، فاشرب البقر -
يقول الأعشى فى ذلك :

فإنى وما كلفتمونى وربكم لأعلم من أمنى أحق وأحوبا

(١) دوان زهير ص ٣١ (٢) شرح المعلقات ص ١١٠

(٣) حار الشعر ص ٣٨ . ولما لم بذلك كانوا يصنعونها خوفا من العدى ،

وانظر الحيران للجاحظ ١٦/١ .

لسكالثور والجنى يضرب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر وما إن تعاف الماء إلا ليضربا
ويقول نهشل بن حري :

أنترك عارضى وبنو عسدى وتقرم دارم وعم براه
كذاب الثور يضرب بالحرأوى إذا ما عافت البقر الظماء (١)

غير أن هذه المادة إذا اتصلت بمعرفتهم من جانب ، وبوهمهم من جانب
آخر ، فإن العرب عادات تتصل اتصالا وثيقا بالوهم والزمم ، فقد كانوا
إذا كثرت إبل أحدم قبلت الألف فقأوا عين الفحل ، فإن زادت على
الألف فقأوا العين الأخرى .. إذ كانوا يزعمون أن الفحل يطردها منها العين
والسراق - الموتان - والغارة ، يقول النابغة :

فقات لها عين الفحيل هيافة وفيهن رعلاء المسامع والحامى (٢)

وكانوا يزعمون ، أن الرجل منهم إذا أحب امرأة وأحبته ، فلم يشق
برقمها ولم تشق هي رداءه فإن حبهما يقسد ، وإذا فعلاه دلم أمرهما ، وفي
ذلك يقول عبد بن الحسحاس سحيم :

فكم قد شققنا من رداء محبر ومن برقع من طقلة غير هانس
وكانوا يعلقون الحلى والجلاجل على السليم - اللديغ - ليفيق ،
يقول النابغة :

يسود من ليل التمام سليمها لحلى النساء في يديه قسائع (٣)
ويقول رجل من هذرة :

كأنى سليم فانه كلم حيلة ترى حوله حلى النساء موضعا (٤)

(١) كتاب الحيوان للجاحظ بتحقيق عبد السلام هادون طبعة بيروت الجزء
الأول الصفحة ١٨ ، ١٩ .

(٢) المرجع السابق ١٧/١ .

(٣) فيه : ثبت كأنى ساورتى ضئيلة من الرقى في أنيابها السم نافع

(٤) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٢٨ .

وكانوا يزعمون أن الغول تقرأى لهم في الغلاة ، فيقيمها أحدهم فتنسويها ،
وقد ادعى تأبط شرا أنه لقيها وقتلها ، حيث يقول :

ألا من غدير فتيات فمسم بما لاقيت عند رحي بطان
بأنى قد لقيت الغول تموى بسبب كالصحيفة محصان
فقلت لها : كلا ناضو أرض أخو سفر غفلى لى مكانى
فصدت شدة نحوى فاهوت لها كنى بمصقول يمانى
فاضربها بسلا دهمش غمرت صريعا لليدين وللجرات

وقال امرؤ القيس :

أتمعدنى والمدر فى مضاجعى ومسنوفة زرق كانياب أغوال ١٩
والغول : لم ينجو صادق قط أنه رآها (١) .

وكانوا يزعمون أن الرجل إذا خدوت رجله قد ذكر أحب الناس إليه
ذهب عنه الخدر ، قالت امرأة من بنى بكر بن كلاب :

صحب محب إذا مارجله خدوت نادى كنيسة حتى يذهب الخدر (٢)

والعرب فى حروبهم عادات لا تقل أهمية فى دلالتها على حياتهم الاجتماعية
من عاداتهم فى سلمهم ، فالحرب كانت ولا تزال سنة دائمة من سنن الحياة ،
وقد تميزت الحياة الاحادية بكثرة الوقائع والمعارك ، وكان الحرب أوشكت
أن تكون نظامهم اليومى المعتاد ، ترخص هجهم وأرواحهم قبالة شرف
القبيلة ، وكانت الشهادة لذلك مثلهم الأهل « فقد يستضيف الرجل الحليم »
لقد دفعهم العصبية القبلية إلى الانتصار للقبيلة ، انطلاقا من فلسفتهم
« انصر أخاك ظالما أو مظلوما » يقول قريظ بن أنيف المنوى فى مازن :

قوم إذا الشر أبدى تاجزية لهم طاروا إليه زواقت ووحدا
لا يسألون أحام حين ينسحبهم فى التناثبات على ما قالى برهانا

ويقول وذاك بن ثميل المازني في يوم كان على شيبان :

رويد بن شيبان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيل على سفوان
تلاقوا جيادا لاتعبد عن الوهي إذا ما غدت في المازق المتداني
عليها السكاة الغر من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاءم

لاية حرب أم بأى مكان

وكانوا يرون الشرف المؤئل في الموت تحت سنايك الخيول ، وظلال
العوالي يقول السمو آل بن هادياء :

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطاول
وما مات مناسيد في فراشه ولا ظل منا حيث كان قتيل
إذا سيد منا خيلا قام سيد تقول لما قال الأكرام فقول
وأيا منا مشهورة في عدونا بها من قراع الدارمين فلول (١)
ويقول سعد بن مالك البكري :

الموت غايقتنا فلا قصر ، ولا عنه جراح
وكأما ورد المنية هندا ماء وراح (٢)

وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم الأوسي :

رجال متى يدعوا إلى الموت يرقلوا

إليه كإر قال الجبال المصاحب (٣)

وقد انبثقت عن هذه الحروب الطاحنة عادات سادت بين العرب ، منها :

الشمير للدار وهجر متع الحياة ، يفصح عن ذلك قول المهلهل بن ربيعة :

(١) ديوان الحماسة ٣٦/٢ ، والنيل المأثر ص ٢٤٥ .

(٢) أيام العرب في الجاهلية ص ١٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

خذ العهد الأكيد على عمرى بتركى كل ماحوت الديار
وهجرى الغايات وشرب كأس ولبسى جبة لانتشار
ولست بخالغ درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار
ولمساكم من بكاء قتلام حتى يثأروا لهم ، وفى ذلك يقول الريبع
ابن زياد فى مقتل مالك بن زهير :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت لسوتنا بوجه نهار
يمجد النساء حواسرا يندبته يبيكن قبل تبليج الأسفار^(١)
وزعمهم أن القتل إذا لم يثار له تخرج من رأسه هامة (طائر) تصيح
قائلة : د اسقوني ، وتظل كذلك حتى يثار له . يقول ذو الأصابع المدرائى :
يا عمرو إلا ندع شتى ومنقصتى
أضربك حيث تقول الهامة اسقوني^(٢)

يقول أبو ذؤاد الإيادى :

وكمبول بنى لهم أولوم ما نرات يهابها الأقوام
سلط الدهر ، والمنون عليهم فلم فى صدى المقابر هام^(٣)
ومن ماداتهم المتصلة بالحرب د الندى ، فقد كانوا يؤخرون المحرم فى
الغالب شهرا ، ويعدون القدرة على النسيء مفخرة ، يقول شاعرهم :
ونحن الناسئون هل معد شهور الحل فعملوا حراما
وجزنا صية الأسير عند العفو عنه وإطلاق سراحه ، تقول الخنساء :
جزونا نواصى فرسانهم وكانوا يظنون ألا تجردى^(٤)
ولما كان أبو الطمحان القتيبي أسيرا فى يد بجير بن أوس فدحه أبو الطمحان
بقصيدته التى منها :

(١) أيام العرب فى الجاهلية ص ٢٥٧ (٢) كامل الجرد ١/ ٣٧٤

(٣) الأسميات ص ١٨٧ ب ١٥ (٤) ديوان الخنساء .

أضادت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبة
فاطلقه بحجر وجن ناصيته (١) .

ومرغ عنهم أنهم « كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه الموائيق
وربما شدوا لسانه بنسمة خوفا من الهجاء ، كما صنعوا بعبد ينفث بن صلاة
حينما أسرته بنو تميم يوم السكلاب ، وفي هذا يقول :


أقول وقد شدوا لساني بنسمة أمشر تميم أطلقوا من لساني ، (٢)

وكانوا يزعمون أن المقاليت ، ومن اللان لا يبقى لمن ولد ، إذ أو طئت
لأحداهن قتيلا شريفا بقي ولدها ، وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم :

تظل مقاليت النساء بظانه يقطن ألا يلقى على المرء مئزر (٣)

• • •

أرايت - أيها المتلقى - كيف صور الشعر البيئة العربية والحياة
الجاهلية بكل أبعادها ومناحيها من ظواهر طبيعية وحياة عقلية وروحية
 واجتماعية وغيرها ؟ وكيف ربط الشعراء الأحداث بما شاع في مجتمعهم من
قيم وعادات وتقاليد وأوهام ؟ وكيف عرف التحضر طريقه مبكرا إلى أمة
العرب في الجاهلية ؟ وكيف ذاب الشاعر في مجتمعه ، فصور نفسه ورسم خاطره
على لوحة هذا المجتمع الحبيب إلى نفسه وخاطره ؟

ولعلك لمست بعد هذا التطواف  الجاهلية لا يمثلها بصدق ودقة
إلا الشعر الجاهلي ، وأن الدهاوى الغوغائية لا تثبت أمام الحقائق الملموسة ،
والحيثيات التي لا يتطرق الشك إليها .

لقد خلد ديوان العرب حياة الجاهليين ، فبقيت في الشعر ، كما بقيت
حياة الأمم الأخرى في الصور والنقوش والرسوم على صفائح القصور
والقبور والمعابد ...

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٢٣٩ .

(١) الأغاني ١١/ ١٢٧ .

(٣) حيار الشعر ص ٤٣ .

من أهم مراجع البحث

- ١ - الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي . د / محمد هاشم عطية .
الطبعة الثالثة .
- ٢ - الأصمعيات : تحقيق الأستاذين : أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون
طبعة دار المعارف بمصر .
- ٣ - أيام العرب في الجاهلية ، لجاد المولى والجارى وأن الفضل
طبعة الحلبي .
- ٤ - الحيوان للجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبة بيروت
- ٥ - الشعر الجاهلي : مراحل واتجاهاته الفنية . د / سيد حنق حستين .
الهيئة العامة للتأليف والنشر .
- ٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة - طبعة دار المعارف بمصر ،
- ٨ - حيار الشعر لابن طباطبا .
- ٩ - المفصليات الضبي تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وهارون .
- ١٠ - كتاب الخيل لأبي عبيد الطبة الهندية طبعة المكتبة التجارية .
- ١١ - السكامل للبرد تحقيق محمد أبي الفضل طبعة دار نهضة مصر .
- ١٢ - الدواوين وشرح المملكات ودوران الحاسة .
د / شفيق عبد الرازق أبو سنة

(تم بحمد الله)

محتويات العدد

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| أجمدى | مقدمة العدد |
| | أ. د/ أمين محمد فاخر - محمد السككية |
| | القسم الأول - الدراسات القرآنية |
| | ١ - إنباع الحركة في القراءات |
| ٣ | د/ محمد أحمد خاطر |
| | ٢ - الإدغام والفك بين القراء اللغويين |
| ٥٠ | أ. د/ عبد الغفار حامد هلال |
| | ٣ - أمثال سورة النور |
| ١١٢ | أ. د/ محمد محمد أبو موسى |
| | ٤ - من أسرار الحذف في بعض آيات القرآن الكريم |
| ١٢٩ | د/ فتحي أحمد إسماعيل حسن |
| | القسم الثاني - الدراسات اللغوية |
| | ١ - النمو اللغوي والطفولة |
| ١٧٧ | د/ عبد الميز أحمد هلام |
| | ٢ - الكف اللفظي في ضوء الدراسات النحوية |
| ٢١٢ | د/ ميمر أحمد عبد الجواد |
| | القسم الثالث - قسم الدراسات البلاغية |
| | ١ - مصادر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها |
| ٢٥٧ | د/ أحمد محمد علي |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| | ٢ - د الوضع ، وصلته بالبيان |
| ٢٨٥ | د/ إبراهيم عبد الحميد التلب |
| | القسم الرابع - الدراسات الأدبية |
| | ١ - الإمام الشافعى بين شاعريته وشعره |
| ٣٠٩ | د/ جابر عبد الرحمن سالم يحيى |
| | ٢ - إبراهيم عبد القادر المازنى |
| ٢٢٨ | د/ السيد العرافى |
| | ٣ - الاتجاهات العالمية للأدب المقارن |
| ٢٧١ | د/ محمد السيد عيد |
| | ٤ - طبيعة الشعر بين حازم القرطاجنى وبأكون |
| ٢٩٨ | د/ محمد عبد الجواد فاضل |
| | ٥ - عالمية فن العربية الأول وإشكالات الحداثيين |
| ٤٢٤ | د/ أحمد طه مصر |
| | القسم الخامس - الدراسات التاريخية والجغرافية |
| | ١ - خير النساء ... خديجة بنت خويلد |
| ٤٤٥ | د/ عبد العزيز غنيم |
| | ٢ - الثورة الأثرية فى ضوء الوثائق التاريخية |
| ٤٧٥ | د/ السعيد رزق حجاج |
| | ٣ - رواق الاتراك بالجامع الأزهر بالقاهرة |
| ٤٩١ | د/ مجاهد توفيق الجندى |
| | ٤ - المنهج التاريخى فى كتابات سالم بن حمود السبائى |
| ٥٣٥ | د/ أحمد صابر إبراهيم عرب |
| | ٥ - الصور الصخرية الحائطية ودلالاتها المناخية |
| ٥٦٧ | د/ طلعت أحمد محمد عبده |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| القسم السادس - الدراسات الإعلامية | |
| ١ - المتأفقون وأصول العمل الإعلاني | |
| د/ محي الدين عبد الحليم | ٦٣٧ |
| ٢ - الصحافة المتخصصة | |
| د/ مرعى مذكور | ٦٩٤ |
| ٣ - قياس معدلات أداء الإعلاميين المبتدئين | |
| د/ صلاح الدين عبد الحميد محمد | ٧٣٥ |
| ٤ - نظم المعلومات في المؤسسات الصحفية | |
| د/ سامي عبد العزيز السكوي | ٧٦٠ |
| ٥ - ديوان العرب : مرآة الحياة الجماهيرية | |
| د/ شفيق عبد الرازق أبو سعدة | ٨٠١ |

